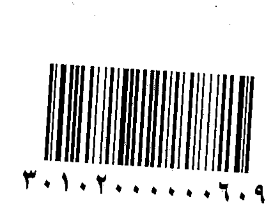


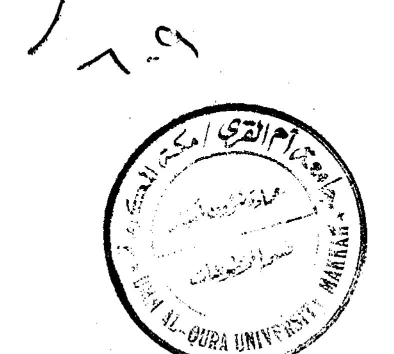
نقد الحديث
في
علم الرواية وعلم الدراية

اعـــداد

حسين الحاج حسن

رسالة قدمت لمعهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف
للحصول على درجة الدكتوراة في الأدب العربي

باشراف
الدكتور عبد المجيد تركي



١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م



إهداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الى " اول النبيين ميثاقا " (١) " أول العابدين " (٢) شمس الهدى وعلم التقى ، سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين .

الى الذى ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون " أُرسله بالدين المشهور والعلم المأثور والكتاب المسطور والنور الساطع والضياء اللامع والامر الصادع ازاحة للشبهات واحتجاجا بالبينات " (٣) الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حميد مجيد " (٤) .

اليك يا من عاش قلبه الكتاب المنير ، واستمر برسالته بعد قضاء نحبه بقرآنه المجيد وفرقانه الرشيد أمينا على الوحي وفرقانا بين الغث والسمين ، مهيمنا على ما قبله من كتاب ، حافظا لسنته السنية الصادرة عنه ، تقاس عليه نبراسا ينير الدرب للواردين ومتراسا يقطع أَلْسِنَةَ الدساسين .

اليك اهدى هذه الوجيزة القصيرة القاصرة علك تقبلها مجهودا من مسلم سبر اغوارا من حديثك تخليصا لمقالك عما تقوّلوا عليك ودحرا للوثنيات والاسرائيليات واضرابهما من المختلقات الزور التي نسبت اليك . درسا عميقا ، انيقا في اسناده ومتونه . نقدا حرا مخلصا فيه ، علني اكون ممن دافع عنك وجاهد في سبيل الله حفاظا على سنتك الشريفة .

وبعد اهدائي القاصر الى من اعطى نفسه لجميع الخلق ، عيال الله ، لانه احبهم ، اهدى جهدى الى من اعطى نفسه لعياله ، الى مسبب وجودى الى أبي الحبيب . فهو الذى زرع في نفسي بذور الايمان وايقظ في قلبي المحبة ، وعلمني حب الجهاد والبسني رداء الصبر على ما احب وعلى ما اكره ، وشجعني دائما على خير تقدم وانبل عطاء .

كما اهديه الى ام عطوف حنون ، ضحت بكل ما لديها من قوة وحول في سبيل افلاذ كبدها ، فاعطتهم العناية وارضعتهم المحبة المشحونة بالعطف والحنان . وما زالت تواصل طريق العطاء الخيّر بالرغم من كبر سنها وتزاحم الامراض على جسمها . امي الحبيبة تلك ، وجدتها جنبي حين لم اجد غيرها من حولي ، فكانت بلسما لجراحي ويدا على ازاحة كل ما يغان قلبي من نكت سوداء .

واخيرا اهديه الى اساتذتي الكرام الذين لفتوا انتباهي الى المنهجية الصحيحة في طرق البحث واعطوني خير عطاء : الدكتور الاب ميشال الآر والدكتور اسعد علي والدكتور عبد المجيد تركي ، فلهم اجزل شكرى وافضل امتناني .

لكل هؤلاء اهدى هذه الوجيزة المتواضعة ، فهم جديرون باكثر من عملي هذا ، وآمل من الله ان يمنحني القدرة على رد الجميل بمثله او بأحسن منه فهو خير الآملين .

---

١) حديث شريف مستفاد من قوله تعالى، " وإذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم أصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين " آل عمران الاية ٨١ . انظر سفينة البحار ج ٢ مادة وثق

٢) " قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين ـ الزخرف الآية ٨١ .

٣) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٨

٤) فصلت الاية ٤٢

المقدمـــة

بسم اللــه الرحمن الرحيـم

والحمد لله رب العالمين الذى شرّع الاحكام لعباده بكتاب مبين ، واختار خاتم النبيين والمرسلين ، محمدا (ص) ليفصّل تلك الاحكام ويوضّح تعاليم الدين ، في سبيل هداية الناس الى صراط مستقيم .

أحدد في هذه المقدمة أسبابَ أختياري للحديث النبوى ، في علم الدراية وعلـم الـرواية لدراسة أدبية – إنسانية .

وبعد تحديد الموضوع ، أظهر الصعوبات التي واجهتني ، والعقبات التي اعترضت سبيلي اثناء البحث ، مبينا المنهج الذى استعنت به على تخطي تلك الصعوبات ، حتى وصلت برسالتي هذه الى ما هي عليـه .

وبعد تذليل الصعوبات يأتي دور الاخراج الذى بنيت عليه الدراسة . فقد تفرعـت الأبواب من المشكلة الاساسية ثم تفرعت الفصول والمباحـث .

ونقطة هامة من نقاط البحث ، الا وهي قيمة هذا العمل بصورته الجديدة ، وماذا يعطي من فوائـد بالنسبة الى كل من سيرغب البحـث في غمار هذا العلم .

وأخيرا التفاتة شاكرة الى كل من آزرني كباحـث على ايصال هذا البحث الى ماوصل اليه

١– اما اسباب الاختيار فيمكن حصرها بما يلي :

أ – لابد لاى مسلم من الاطلاع على الحديث النبوى الشريف وفهمه فهما دقيقًا . لقد كانت السنة ، وستبقى ، الى جانب القرآن مصدر الاحكام ، ومعين الآداب والاخلاق ، للفرد والجماعة فهي رحـبة الفناء واسعة النهج ، تتسع لكل حادثة ، وتحل كل مشكلة ، فتبسطها وتسهل فهمها لمن أراد من المسلمين معرفة الحقّ المبين . ذلك ان كتاب الله تضمن القواعد العامة في التشريع والاحكام الكليــة في الغالب . بيد ان الحديث النبوي عني بشرح هذه القواعد والتعاليم ، وبين الغايات وفصل الاحكام ، وفرع الاصول ، فكان لابد للمسلمين من اللجوء الى ذلك المعين الخير ، ليسترشدوا باحكامه المنصوصـة على احكام الحوادث الطارئـة . فمن أراد فهم الاسلام والقـرآن ، فلابد له من فهم الحديث النبوى الشريف الصحيح .

الحديث الصحيح على ضوء الأصول والمقاييس العلمية الصحيحة .

ب – الـرد على اعداء الاســلام :

لقد تعرض الحديث النبوي في القديم والحديث للوضع والدس والتزوير ، من قبل

الوضاعين واصحاب الاهواء غير الاسلامية ، الذين عملوا على هدم اسسه وتشكيك المسلمين في دينهم وعقيدتهم .

ولما كان من الصعب ان ينالوا من القران الكريم الخالد خلود الحق ، وجهوا سهامهم الى الحديث الشريف ، الركن الثاني المتين من اركان التشريع الاسلامي الوارف الظلال . فطعنوا في بعض الصحيح منه ، واتهموا بعض الرواة الثقات ، ثم انتهوا الى وضع بعض الاحاديث التي تتناسب وميولهم وغاياتهم ومصالحهم .

وقد اتبعوا في ذلك عدة طرق ، كشف بعضها العلماء وما زالوا حتى اليوم يكملون الطريق على ضوء ما حصلوه من قواعد ومقاييس في اصول علم الرواية والدراية .
من وراء هذه الدراسة هو معرفة الحديث الصحيح لتمييزه عن غيره .

ج — الرد على بعض المؤلفين من ابناء امتنا والمثقفين من شبابنا الذين لم يتح لهم ان يتثقفوا بثقافة الاسلام .

لقد ادعى هؤلاء ان الحديث النبوي ، قد اهمل بعد موت الرسول (ص) اكثر من قرنين الى ان جمعه بعض العلماء في القرن الثالث الهجري . فلم يحفظ كالقران الكريم ، ولذا تسرب اليه الوضع ، واصبح من الصعب تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع ... ! كما ادعى بعض آخر ان الحديث النبوي كان أحكاما مؤقتة لعصر النبي (ص) واصبح الان عديم الجدوى بالنسبة لعصرنا المتطور والمتحضر .

سمعت هذه الادعاءات من شبابنا المتعلم منذ دخولي الجامعة اللبنانية . والخلاصة في رأي هؤلاء جميعا ان الحديث النبوي لم يعد صالحا لان يكون مصدرا تشريعيا ، وانه ليس من الضروري الاطلاع عليه لفهم الاسلام ، اذ يكتفى بما جاء في القرآن الكريم ، وخاصة انه بمقدور عقولنا ان تفهمه كما فهمه الرسول (ص) .

هذا ما دعاني الى البحث في هذا الموضوع والخوض في رحابه لعدم اقتناعي بصحة تلك الاقاويل .

وقد وجدت ونحن في غمرة نهضتنا ، اننا احوج ما نكون لفهم قراننا وسنة رسولنا والسير على شريعته القويمة ، لنبقى كما ارادنا الرسول ان نكون ننفض غبار الجهالة عن القلوب ، ونمزق حجاب العماية عن العيون ، عاملين بقوله تعالى : " كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله " (١) . كما انني وجدت اننا بحاجة ماسة الى التمسك بتراثنا التشريعي الذي يشهد به أكابر علماء الامم الاخرى (٢) .

---

(١) سورة ال عمران الآية ١١٠ .

(٢) انظر كتاب محمد عند علماء الغرب للشيخ خليل ياسين طبع في دار الاندلس بيروت ١٩٦٧ م

ولما كان الحديث النبوى مبينا للقرآن الكريم ولا يمكن لأى مسلم الاستغناء عنه ٠

ولما كان الواقع في حفظ الحديث يخالف ما ادعاه المغرضون ٠

ولما كنت قد عانيت عام ١٩٦٤ ضد بعضهم عبء هذه المشكلة في دفع بعض اوهامهم والرد على ما علق باذهانهم من تخرصات تثير الشك والقلق ٠

ولما كنت ارغب في التقرب من الحقيقة فيما يعود لبحثي هذا ، لمعرفتها واعلانها امام الناس أجمعيـن ٠

لهذه الاسباب كلها رايت ان ابحثني رسالتي هذه موضوع :

نقد الحديث النبوى في علم الروايـة وعلم الدرايـة
نظرية

٢ـ دراسـة تاريخيـة للحديث النبوى الشريف ٠

لقد رافقت الحديث في تطوراته واحداثه ومشاكله ، وذلك منذ عصر التدوين الرسمي له ٠ ومن المتفق عليه عند اغلب علماء الحديث ، ان اول من دوّن الحديث رسميا ، هو عمر بن عبد العزيز ٠ فكتب الى الافـاق :

" انظروا حديث رسول الله فاجمعوه " (١) وأن كان التدوين غير الرسمي قد حصل قبل هذا التاريخ ٠ وقد اعتبر علماء الحديث ، تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين رسمي للحديث (وقع على رأس المائـة الاولى للهجـرة) (٢) ٠

وبعد هذا كانت المجاميع والمصنفات ، جمعت الاحاديث ورتبت على الابواب في مناطق مختلفـة من الدولـة الاسلامية ، في النصف الأول من القرن الثاني الهجرى (٣) ٠

وكان معظم هذه المصنفات والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين ، كما يتجلى لنا في موطأ مالك بن أنس (٩٣ هـ ـ ١٧٩ هـ) وكما يعتبر مسند الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ هـ ـ ٢٤١ هـ) اوفي تلك المسانيـد واوسعها (٤) ٠

جمع هؤلاء الحديث ودونوه بأسانيده ، واجتنبوا الاحاديث الموضوعة ٠ فرأى بعض الائمة ان يصنفوا في الحديث الصحيح فقط ، فظهرت الكتب الستة في عصر اتباع التابعين ، واولها صحيح محمد بن اسماعيل البخارى (٢٠٤ هـ ـ ٢٦١ هـ) (٥) ٠

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٠٤ وقارن بالمحدث الفاصل ج ٤ ص ٤ نسخة دمشق ٠

(٢) تدريب الراوى ص ٤٠ وقواعد التحديث ص ٤٦ ونحو هذا في توجيه النظر ص ٦

(٣) انظر تاريـخ بغداد ج ١٤ ص ٨٥ وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٩٩ ٠

(٤) انظر الرسالـة المستطرفـة ص ١١

(٥) انظر تدريب الـراوى ص ٤٧ ٠

والخلاصة ان هؤلاء العلماء ، قدموا خدمة لحديث رسول الله (ص) لانظير لها في الوجود ، فلقد افاضوا الحديث في كل صغيرة أو كبيرة ، فوضحوها وبينوها بما لا غبار عليها .

وفي رسالتي هذه قبسات من انوار بحوثهم ، ولمحات من بعض جهودهم ، ولا أدعي انني اخترعت شيئا جديدا ، بقدر ما اعترف اني جمعت بعض الاصول والمقاييس التي توصل اليها العلماء الافذاذ عبر عصور خلت .

واضح واذا كانت هذه النتف المتفرقة تشكل معظم مادة الموضوع ، فانها لا تعطي ، كما هي ، صورة كاملة شاملة عن الحديث النبوي في علم الرواية وعلم الدراية .

هكذا اقدمت على جمع أهم بعض الاصول والقواعد التي اتحفنا بها علماء الحديث الابرار ، في علم رواية الحديث (متن الحديث) وذلك منذ القرن الثالث الهجري حتى القرن الثامن عصر المؤرخ المعروف ابن خلدون .

كما عمدت ايضا الى جمع الاصول والقواعد التي اعتمدها علماء الحديث في علم رواية الحديث او ما سموه بعلم الرجال (سند الحديث) .

وبعد المقارنة وجدت ان علماء التاريخ قد اعتمدوا على علماء الحديث في نقل الخبر واصول الرواية . وقد عرضت بعض النماذج والامثلة الموضحة .

٣ــ الصعوبات التي اعترضتني اثناء البحث .

لكل بحث صعوباته ، والصعوبات التي واجهتني وأنا اجد السير لبلوغ الهدف ،

اولها : تعيين المصادر والمراجع اللازمة .

بالنسبة لطرافة الموضوع ، وقلة الباحثين فيه بهذا الشكل الكامل الشامل ، وجدت صعوبة كبرى في تعيين المراجع والمصادر اللازمة له ، فقد كانت البحوث السالفة لا تعدو ذكر لمحات متفرقة عن بعض الاصول والقواعد التي جمعتها في رسالتي هذه .

ثانيها : جمع تلك المصادر والمراجع والحصول عليها .

بعض هذه المصادر نادر الوجود ، حتى في مكتبات الجامعات ، مما اضطرني الى التنقيب عنها في المكتبات الشخصية ، وقد كلفني ذلك مشقة كبيرة ووقتا طويلا .

ثالثها : حساسية الموضوع بالنسبة لاختلاف بعض المذاهب الاسلامية - فأهل السنة مثلا ينظرون الى الصحابة بمنظار يختلف تماما عما ينظر الشيعة ، هذا بالاضافة الى تأثير الخلافات السياسية في دفن الكثير من المؤلفات القيّمة ، وكف لسان

بعض المؤلفين من العلماء الابرار ، لانهم ينتمون الى مذهب معين ، فحرقت المؤلفات واضطهد أصحابها . كل هذا عقد الامور ، وجعلنا في حيرة وارتباك مما حصلنا عليه من نتائج مختلفة . والخلاصة ان استغلال الحكام لسلطتهم تجاه المحدثين ، بغية تمكينهم في عروشهم واغراضهم المادية ، أساء كثيرا الى الحديث ، وشوه وجه الحقيقة .

رابعها : صعوبة مادة البحث لأسباب عديدة :

أ – بُعْدُ الحدود ، فُسْحَةُ المجال ، فالحديث النبوي تناول جميع نواحي حياة الانسان .

ب – تَعَدُّد الجوانب ، تَشَعُّب المواضيع ، فهي تبحث في الادب والاخلاق والتشريع والاحكام وكل ما يحتاجه الفرد والجماعة .

ج – الحديث الشريف ، كما ذكرنا ، موضح ومفصل لاحكام القرآن الكريم ، لذلك وجب على كل باحث ان يطلع اطلاعا واسعا ودقيقا عليهما معا (كتاب الله وسنة نبيه) ولا يخفى ما يكلف هذا من كد ذهن وعلو ثقافة ، وبعد نظر ، وتمرس طويل .

– المنهج المعتمد في تذليل تلك الصعوبات .

تمكنت ، بحمد الله وقوته ، من التغلب على جميع الصعوبات التي أشرت اليها قبل
يل ، بثلاثة أمور :

أ – المراجع والمصادر :
رتبتها حسب الترتيب الابجدي وقد حصلتها :

– مما ذكره السيد محمد الكتاني في كتابه الرسالة المستطرفة لبيان مشهور السنة المشرفة .

– ومما ذكره الاستاذ خير الدين الزركلي في كتابه (الاعلام)

– ومما حصلته من كبار العلماء في لبنان وخارج لبنان ، الذين اختصوا بهذا العلم ، واعاروه جل اهتمامهم . من هؤلاء العلماء والادباء أذكر :

ب – الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، قابلته في منزله في القاهرة ، حي الاهرام الهادئ الساكن ، وكان ذلك في اواخر صيف ١٩٧٠ ، فعرضت معه موضوع الرسالة التي كنت قد صممت على بحثها ، فأمدني بمعلومات قيّمة ، وذلك فيما

يعود الى البحث بالذات وبتوجيهات عامة بالنسبة لكيفية اعداد الرسائل ومن التاليف الادبي .
وانتهت الزيارة بعد ان لقيت منه تشجيعا مباركا ، وتزودت بمراجع هامه .

— الدكتور شوقي ضيف : اهتديت اليه في جامعة القاهرة — كلية الاداب — ولحسن الصدف كان ذلك يوم مناقشة لطالب دكتوراه باشراف الدكتور ضيف ، فدعاني لحضور المناقشة . وفي اليوم التالي قابلته في مكتبه في الجامعة المذكورة ، وعرضت معه الموضوع ، فامدني بالمفيد من توجيهاته ، وهداني الى بعض المراجع القيمة .

— العلامة الشيخ عبدالله العلايلي : قابلته في منزله مرات عديدة ، وكنت اتصل به دائما كلما احتجت اليه ، وقد استفدت كثيرا من نقده العلمي ومن توجيهاته العظيمة ، ومن مكتبته العامرة .

— سماحة الامام السيد موسى الصدر : قابلته في المجلس الشيعي الاعلى ، وعقدت معه جلسات طويلة ومثمرة ، استنرت بآرائه العلمية المدروسة ، ومنهجه العقلاني المتجرد في كل مايعود الى شروط الراوي واصول الرواية . وقد استفدت منه شخصيا ومن مجموعة مراجع قيمة ، ارشدني الى بعضها واتاح لي الاطلاع على البعض الاخر .

— فضيلة العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين : لا استطيع حصر مقابلاتي المتكررة له ، والحق أقول انني استفدت كثيرا من آرائه الصائبة ، ومن منهجه العلمي السليم ، ومن توجيهاته القيّمة .

— سماحة القاضي السيد هاشم معروف الحسني : وهو من العلماء الذين اختصوا بهذا العلم ، واعطوه جل اهتمامهم ، ويعتبر من اكبر المحدثين العادلين . زرته في منزله في صور عدة مرات واستفدت من علمه الغزير ، ومن مكتبته التي تزخر بأفضل كتب الحديث واكبر المراجع الدينية والادبية .

— الدكتور الشيخ محمد الصادقي : قابلته في منزله عدة مرات ، وقد اعطاني الكثير من وقته وعلمه اثناء محاورتي اياه في كثير من الأمور . وقد استفدت كثيرا من مكتبته العامرة ، ومن شروحاته وتعليقاته القيّمة .

ـ العالم الشيخ حسين معتوق : زرته في منزله وفي مكتبه عدة مرات ، وقد نورني بالكثير من آرائه الصحيحة والصريحة ، ومدّ لي يد العون بما في مكتبته الخيرة من المؤلفات الجليلة . وقد كان له تعليق مفيد حول (الحديث الموثّق) وحول المقاييس في صحة الاخذ وأصول الرواية عند كافة المذاهب .

ـ الشيخ ابراهيم سليمان : اهتديت اليه من بعض اصحابه ، وزرته عدة مرات في منزله ، (الكائن في البياض) قرية من قرى الجنوب الوادعة . وقد دهشت لأول مرة عندما شاهدت مكتبته الضخمة التي تشبه دار الكتب ، لسعتها وضخامتها وترتيبها حسب الحروف الابجدية . وقد استفدت كثيرا من مكتبته الغنية وخاصة بالمراجع القديمة النادرة ، كما استفدت ايضا من ارائه وتعليقاته الصائبة .

ح ـ الاشراف الجامعي

١ـ اقتراح موضوع البحث : نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية

٢ـ تقديم بعض المراجع والمصادر من قبل الدكتور المشرف عبد المجيد تركي

٣ـ الموافقة من الدكتور المشرف على المراجع والمصادر التي وفقت في الحصول عليها من قبل العلماء الذين مر ذكرهم .

٤ـ وضع تخطيط للبحث تناول المواضيع التالية :

ـ تعريفات ومصطلحات عن الحديث في علم الرواية وعلم الدراية .
ـ نقد سند الحديث (علم الرواية)
ـ نقد متن الحديث (علم الدراية)
ـ جمع المقاييس التي وضعت في علم الرواية وعلم الدراية .
ـ اهمية نقد الحديث بالنسبة للعلوم الدينية وغير الدينيه .

هذا التخطيط كان من قبل الدكتور المشرف الاول عبد المجيد تركي .

ولقد غاب الدكتور المشرف تركي وساعد في الاشراف على رسالتي بعده الدكتور اسعد علي ، فرغب في بعض التعديلات ، من حيث المادة اولا ، ومن حيث المنهج ثانيا .

اما من حيث المادة فقد اقترح زيادة الابواب الثلاثة التاليــة :

١- باب عن سيرة النبي (ص) منذ الولادة حتى البعث)
٢- باب عن نشأة الحديث وتطـوره .
٣- باب عن الفن الادبي في الحديث النبوي .

ومن حيث المنهج فقد جرى تعديل للمقدمة والخاتمة ، ثم وضع تمهيد وخاتمة لكل باب من ابواب البحــث .

الاخراج الذى بنيت عليــه الدراســة :

على ضوء هذه الرحلــة الطويلــة مع الحديث النبوي ، وانطلاقا من اسباب الاختيار ، ومرورا بالصعوبات وتوقفاً عند المصادر والمراجع ،

رأيت ان يكون اخراج هذه الرسالــة في مقدمة وستة أبواب وخاتمة .

- اما المقدمة ، فلتقديم الرسالة فيها ، وبيان المنهج من خلالها ، وضبط التقديم بالمنهج في ضمونها ، وهي ايضا تحديد اسباب الدراســـة وقيمتهـــا والقائمين عليهـــا .

- الباب الاول : النبي محمد (ص) يغيّر المجتمع العربي ، وفيه أربعة فصول :

الفصل الاول - وفيه خمسة مباحــث :

المبحث الاول - وهو صورة عن الحياة الاجتماعية وما فيها من مشاكل القبلية ونظرتها الضيقة الى الحياة .

المبحث الثاني - وفيه صورة الحياة الاقتصادية من غزو ونهـب وتجارة وزراعة وتربية الماشيــة .

المبحث الثالث - وهو يدور حول الحياة السياسية في الجاهلية من تجمع السلطات في يد شيخ القبيلة الى ايام العرب البالغة الخطورة الى الاختلاف على الرئاسة والتسابق على موارد الماء ومنابع الكلأ .

المبحث الرابع - وهو صورة عن الحياة الادبية في الجاهلية . فالادب الجاهلي يعبر تعبيرا صحيحا ودقيقا عن حياة العرب في تلك الحقبة من الزمن .

المبحث الخامس - وفيه صورة عن الحياة الدينية وانواع العبادات واشكال المعبودات في الجزيرة العربيــة .

الفصل الثاني — ولادة الرسول

يدور هذا الفصل حول الحديث عن حياة الرسول من الولادة حتى البعث : اسرته — ولادته — ارضاعه — كفالة عبد المطلب وابو طالب له — حياته في قومه — زواجه من خديجة .

الفصل الثالث — البعث

ابرز ماورد في هذا الفصل : التحنث في غار حراء والصفاء الروحي حتى اصطفاه الله رسولا كريما يبشر بالاسلام فأنزل عليه الوحي .

انذار محمد (ص) قومه — رفضهم دعوته في بادئ الامر — استمراره في نشر الدعوة واعلانها عامة — الهجرة الى الحبشة — عام الحزن — زيادة الاضطهاد — خروج النبي الى الطائف — الهجرة الى يثرب — ثم موت الرسول وكيف تم جهازه .

الفصل الرابع — الوجه الجديد للمجتمع العربي عند ظهور الاسلام .

أ — تعريف الاسلام ويشمل العقائد ، ب — الاعمال ، ج — الاخلاق .

العقائد : الاعتقاد بالله والحياة الاخرى .

الاعمال : الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله .

الاخلاق : صلة الامة الاسلامية بعضها ببعض — الاخوة بين المسلمين وصلة الامة الاسلامية بغيرها من الذميين وغيرهم : المساواة والعدل والاداب الاجتماعية . ثم مقارنة بين الجاهلية والاسلام .

خاتمة الباب الاول :

ويعني ذلك نهاية الجولة داخل الباب الاول بكل ما تضمن من تغيير جذرى في حياة العرب انذاك ، وانقلاب احدث هزة عنيفة في المجتمع العربي الجاهلي وهذه الخاتمة تحفز على التفتيش عن تمهيد آخر لولوج باب اخر .

الباب الثاني : الحديث النبوى منهج للتغيير وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الاول : نشأة الحديث النبوى :

اهتمام المسلمين بالحديث وعلى رأسهم الصحابة .

طرق تلقي الحديث :

أ — حوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول عنها .

ب ــ حوادث كانت تقع للرسول فيبين حكمهـا ٠
ج ــ وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول (ص)
فنقلوها الى التابعين الذين بلغوها لمن بعدهم ٠

د ــ أثر الحديث في البيان العربي :

صفات صاحب الحديث الادبية ــ وصف الجاحظ لاسلوب الرسول الادبي الرائع ــ استفادة اهل اللغة من الحديث ــ اعتماد علماء التاريخ على علماء الحديث ٠

الفصل الثاني : تطور الحديث النبوى مع اتساع الدعوة الاسلامية ٠

الفتوحـات الاسلامية واتساع مناطق النفوذ ــ نشر الصحابة للحديث ــ العهد المكي وما تميز به ــ العهد المدني وما تميز به ٠

الفصل الثالث : اهتمام الرسول (ص) بالحديث :

الحديث النبوى هو التطبيق العملي للاسلام ــ حث الرسول على حفظ الحديث ونشره وتبليغه ٠
اهتمام الصحابة والتابعين بالحديث ــ رواية الحديث بالفاظه وروايته بالمعنى عند الضرورة وبشروط ٠

خاتمة الباب الثاني :

ختمت هذا الباب بنهاية حددت فيها اهم النقاط الواردة ٠

الباب الثالث ــ في النقد الخارجي وفيه سبعة فصول :

الفصل الاول : وهو عبارة عن مجموعة تعريفات ومصطلحات ٠

الفصل الثاني : ويعنى بتدوين الحديث منذ عصر النبي ــ عصر الخلفاء الراشدين ــ عصر التابعين واتباعهم ٠ ثم ختم الفصل بالبحث عن اسباب تأخير التدوين وأثره في الحديث ٠

الفصل الثالث : اقسام الحديث ويشمل : الصحيح ــ الحسن ــ الموثق والضعيف وانواع كل قسم منها ٠

الفصل الرابع : تناولت في هذا الفصل صفات المحدث الرئيسية والثانويـة ٠

الفصل الخامس: يدور البحث فيه حول كيفيات تحمل الحديث ـ وهي على التوالي : السماع ـ القراءة ـ الاجازة ـ المناولة ـ الكتابة ـ الاعلام ـ الوصية ـ الوجادة .

الفصل السادس: وفيه بحث طرق رواية الحديث وما يتصل به من مسائل كرواية الحديث بالمعنى ـ رواية الحديث باللفظ ـ بحث في التحقيق والضبط والسماع .

الفصل السابع: طبقات الرواة :
الصحابة ـ التابعون ـ اتباع التابعين ـ ثم وضع مقاييس تتناسب مع ميول الناس واهدافهم ـ واخيرا ما هو مذهب الصحابي .

خاتمة الباب الثالث:

اقفلت هذا الباب بخاتمة جاء فيها :
اهتمام الصحابة والجهود التي بذلها علماء الحديث في سبيل الحفاظ على الحديث منها : الاسناد ـ بيان احوال الرواة ـ وضع قواعد لمعرفة الموضوع من الحديث .

الباب الرابع ـ في النقد الداخلي : ويشمل هذا الباب خمسة فصول :

الفصل الاول : الوضع في الحديث .
متى بدأ الوضع ـ اسبابه ـ الاحزاب السياسية استغلت الحديث لصالحها .

الفصل الثاني : الجهود التي بذلت في مقاومة الوضع .
وضعت قواعد قيّمة في سبيل المحافظة على الحديث الشريف منها ما يتعلق بالسند ومنها ما يتعلق بالمتن . اختلاف الناس في العطاء لاختلاف نظرتهم الى الحياة .

الفصل الثالث: يدور البحث فيه حول الجرح والتعديل . وضع اسسه كبار الصحابة والتابعون واتباعهم .

الفصل الرابع: مراحل الحديث .
الحديث في صدر الاسلام ـ في العصر الاموي ـ في العصر العباسي ـ في العصر الاندلسي ـ الفارقات التي تحملها الحديث من اهل السنة والشيعة .

الفصل الخامس: انواع الحديث من حيث كونه متواترا وآحادا . الشروط اللازمة للاخذ بكل نوع منهـا .

خاتمة الباب الرابـع :

اسباب مرض الوضع في الحديث ـ كل شيء يتغير الا الحق يبقى صامـدا مهما حاول المغرضون من تشويهه ، وذلك بفضل الاصول والقواعد التي وضعها الجهابذة من العلماء في علم الرواية وعلم الدراية . وقد اقفلت الباب الرابع لافتح الباب الخامس فاتصل القول في قواعد نقد متن الحديث .

الباب الخامس ـ أصـول نقـد متن الحديث .

يتضمن هذا الباب فصلين مهميـن :

الفصل الاول : قواعد في نقد متن الحديث او ما سموه بعلم رواية الحديث ، جمعت في هذا الباب اهم القواعد التي وضعها علماء الحديث من أمات المصادر والمراجع الهامة فصلتها مع الامثلة بيـن دفتي هذا الفصـل .

الفصل الثاني : المعالجـة النقديـة .
مصادر البحث لها اهمية كبرى بالنسبة للمؤلف ، وهي تختلف دقـة وصعوبـة حسب نوع مادة البحث . وهذا قادنا الـى البحـث في أصول النقـد فقسمت العمل الى ثلاث مراحل :

أ ـ جمع أصول المادة او ما دعي بالتقميش .
ب ـ العلوم الموصلة وسميت الموصلة لانها تصل الباحث الى الهدف الذي يريد .
ج ـ نقد العلوم الموصلـة وتمحيصهـا .

خاتمة الباب الخامس:

ان ما عرضنا من قواعد واصول له قيمة كبرى في تسهيل طرق البحث لانها تكسب طالب العلم الدقـة في البحث والامانة العلميـة . بالاضافة الى ما ذكرنا من هذه القواعد لابد لكل باحث من ان يتحلى بالثقافة وطول المعاناة وحسن الدربـة وبعد الممارسة للعلم الذي يحصله بحيث يتكون عنده من هذه الصفات جميعها هيئة نفسانية يعرف بها ما يجوز وما لا يجـوز .

الباب السادس ـ فضل علماء الحديث على علماء التاريخ .

في هذا الباب فصلان مهمان :

الفصل الاول : علماء الحديث هم أسبق من علماء التاريخ في وضع اصول الرواية . اخترت اهم من الفي هذا المجال مثل ابن قتيبة في كتابه " تأويل مختلف الحديث " (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) ثم الكليني (ـ ٣٢٩ هـ) في كتابه " الكافي " . ثم الغزالي (٥٠٥ هـ) في كتابه " المستصفى " . وبعده كان القاضي عياض (٤٧٩ ـ ٥٤٤ هـ) في كتابه " الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع " والمحطة الاخيرة كانت عند ابن الصلاح (٦٤٣ هـ) في المقدمة .

الفصل الثاني : ابن خلدون ومقاييسه النقدية .

استعرضت مع مؤرخنا العظيم اصول علم الرواية ثم قابلت هذه الاصول مع نظريات علماء الحديث الذين سبقوه بقرون خلت ، فتوضحت بذلك الحقائق الخالصة .

ابع : الفن الادبي في الحديث النبوي

خاتمة الباب السادس :

مقارنة بين علماء الحديث وعلماء التاريخ ، والفضل لمن سبق .

٦ ـ قيمة هذا البحث :

العلي القدير هو الذي تكفل بحفظ كتابه واصول دينه بقوله عز وجل : " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (١) فقد هيأ في كل العصور من السلف الصالح ومن تبعهم باحسان من عني بالدفاع عن الحديث النبوي الشريف . وأني آمل ان يمنحني معونته وتوفيقه لاكون واحدا من هؤلاء الذين عنوا بهذا العلم وبذلوا فيه قصارى جهودهم . فجهدت محاولا ابراز النقاط التالية :

---

(١) الحجر الاية ٩

١ـ البحث في سند الحديث ومتنه ، من هم الرواة الثقات الذين نقلوا الحديث ؟ وما هي طبقاتهم ؟ واى الشروط يجب ان يتحلوا بها ليكون حديثهم صحيحا .

٢ـ البحث في الاصول التي وضعها علماء الحديث في نقد متن الحديث فجمعتها ونسقتها واعطيت امثلة على كل منها .

٣ـ الحديث النبوى معين خصب لتقويم اللسان العربي والخلق الانساني . وأني ارجو ان أكون قد وفقت في هذه الدراسة ، الى معالجة مسائل هذا البحث بصورة متكاملة ، تقدم للدارس تحليلا وافيا في اصول الاخذ والرواية ، وتلقي نورا حول كثير من مسائله .

هذا ما استطعته علني اكون ممن ساهموا في بناء الحديث النبوى الشريف ، وعملوا على حفظه وصونه ، بما جمعته من قواعد واصول ، في ميدان هذا العلم الواسع . كما آمل ان اكون قد أنرت شمعة بالاضافة الى الشموع الكثيرة التي انارها العلماء الابرار عبر العصور الماضية .

وان لم يكن هذا ولا ذاك ، فأرجو ان أكون قد وفقت في جمع هذه الشموع ، حتى تسطع نورا مضيئا ، يظهر الحقيقة ، ويجعل الضلالة تجر اذيالها خائبة مدحورة .

وانني اشكر حضرة استاذي المشرف الذى شملني بعطفه وتوجيهاته المنهجية مع كثرة واجباته وتبعاته وضيق وقته .

كما اشكر الاب (الار) مدير معهد الاداب الشرقية لملاحظاته القيمة وتعديلاته التي افدت منها الشيء الكثير .

واخيرا اقدم شكرى الجزيل وتقديرى واحترامي لكل من مدّ لي يد العون من اساتذتي واخواني الكرام .

حسين ابراهيم الحاج حسن

تمهيد الباب الاول

الباب الاول : النبي محمد (ص) يغيّر المجتمع العربي

في هذا الباب اربعة فصول :

الفصل الاول : تحدثت في هذا الفصل عن المجتمع العربي قبل الاسلام، فرسمت فيه خمس لوحات مختصرة .

اللوحة الاولى : هي صورة عن الحياة الاجتماعية . القبيلة ومشاكلها ونظرتها الضيقة الى الحياة وبعض العادات الجاهلية البشعة كوأد البنات والرق ..

اللوحة الثانية : وفيها صورة الحياة الاقتصادية من غزو ونهب خاصة عندما يجف المرعى وينضب الماء . والتجارة ونخص بالذكر قبيلة قريش ورحلة الشتاء والصيف . ثم ما يرافق هذه التجارة من حماية القوافل الغريبة نظير جعل معلوم من اصحابها والزراعة وتربية الماشية والابل منها خاصة .

اللوحة الثالثة : وفيها صورة عن الحياة السياسية في الجاهلية .
حكومة العرب في الجاهلية وتجمع السلطات في يد شيخ القبيلة . وما يرافق هذه الحكومة من حروب بالغة الخطورة - ايام العرب - التي كانت تحدث لسببين : أ- الاختلاف على الرئاسة .
٢- التسابق على موارد الماء ومنابع الكلأ .
من هذه الحروب ذكرنا حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

اللوحة الرابعة : صورة الحياة الادبية في الجاهلية . وفيها وصف الادب الجاهلي المعبر تعبيرا صحيحا ودقيقا عن حياة العرب في تلك الحقبة من الزمن ، من شظف في العيش وعدم استقرار، ظهر اثر كل هذا على القصيدة العربية الجاهلية من حيث الشكل والمضمون .

ولا يغيب عن بالنا الاسواق الادبية وما كان لها من اثر في حياة العرب الادبية (سوق عكاظ) فقد اخذت اللغة بالتوحد ، كما اخذ الشعر بالنمو والازدهار والذى غذته كثرة الحروب والغزوات . فقد غدت قرائح العرب واشعلت الحماس في نفوسهم .

اللوحة الخامسة : وفيها صورة عن الحياة الدينية منها :
عبادة الاصنام وطريقة دخولها الجزيرة العربية . تأثير المحيط الجغرافي وانعكاساته على حياة العرب النفسية . فعبدوا انواعا واشكالا من المعبودات تقربهم زلفى الى الله .

واخيرا عرضنا باختصار الاديان التي كانت في الجزيرة العربية قبل الاسلام عن وعن المغرضين الذين دسوا الاخبار ووضعوا القصص والاحاديث . مثل اليهودية والمسيحية . ثم الحنيفية واتباعها : قس بن ساعده وزهير بن ابي سلمى الموحدان

./.

الفصل الثانـي : ولادة الرسول (ص)

أسرة الرسـول : من هاشم الى عبد المطلب الى عبد الله • ثم زواج عبدالله من آمنة ثم وفـاة عبدالله بعيد زواجه • ثم ولادة محمد (ص) الذى اصبح رسول الاسلام فيما بعد • ارضاعه من حليمه السعدية ـ كفالة عبد المطلب بعد موت والدته آمنة ـ كفالـة ابي طالب • واخيرا حياة محمد في قومه وما رافقها من حروب كحرب الفجار، وما عقد من احلاف كحلف الفضول • وعندما اصبح شابا تاجر بمال خديجه ثم تزوج منهـا •

الفصل الثالـث : البعـث

وابرز ما ورد فيه : التحنث في غار حراء والصفاء الروحي بعيدا عن قلق النـاس وضوضائهم حتى اصطفاه الله رسولا كريما يبشر بالاسلام فانزل عليه الوحـي • انذر محمد (ص) قومه ليتركوا عباداتهم ، فرفضوا دعوته في بادئ الامـر • استمر في نشر الدعوة فاعلنها عامة امام جميع الناس، مما زاد في اضطهاد قومه له • فكانت الهجرة الى الحبشة ، ثم الحصار في الشعب ، ثم عام الحزن : وفاة زوجته خديجه وعمه ابي طالب ـ زاد الاضطهاد فخرج الرسول (ص) الـى الطائف وعرض نفسه على القبائل ـ ثم هاجر الى يثرب وترك عليا في فراشـه • وانتهى هذا الفصل بموت الرسول (ص) وكيف تم جهازه ودفنه •

الفصل الرابـع : الوجه الجديد للمجتمع العربي عند ظهور الاسلام

تعريف الاسلام ثم ما ورد من التعاليم الاسلامية الجديدة فقسمناها الـى :

أ ـ عقائد : الاعتقاد بالله والحياة الاخرى •

ب ـ الاعمال : كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله •

ج ـ الاخلاق : صلة الامة الاسلامية بعضها ببعض ـ الاخوة بين المسلمين وصلـة الامة الاسلامية بغيرها من الذميين وغيرهم • (المساواة والعدل ، والاداب الاجتماعية والاخلاق الكريمة • وبعد هذا عمدنا الى مقارنـة بين الجاهلية والاسلام • فاخذنا قطعة من معلقة طرفه بن العبـد وعرضنا ما فيها من افكار جاهلية، فرضتها البيئة والحياة • وقارناهـا بحديث شريف ، قاله صاحب تلك الثورة التي غيرت مفاهيم النـاس للحياة ، وعملت نحو تكامل الانسان في العالم بأسره •

وبعد هذا عرضنا كلمة موجزة عن دستور الاسلام ، كتاب الله ، القرآن الكريـم • معجزة الله العالمية الخالدة •

الاسلوب القرآني : سحره وبيانه ، وقوة اقناعه وبلاغة تركيبه • أثر هذا الكتاب الكريم في البيان العربي •

•/•

الفصـــل الاول

العـــرب قبـــل الاســـــلام

صـورة المجتمع العربـي :

لما كان موضوعُ بحثِنا حديثَ النبيِ محمدٍ (ص) ، النبيِ الهاشميِ العربيِ ، وجب أن نعرفَ شيئا عن وصفِ بلادِ العربِ قبلَ الاسلام ، التي اصبحت فيما بعد ، مهدَ الدين الاسلامي ومنطلقَ الدولِ الاسلامية .

الحالة الاجتماعيــــة :

تأخر العربُ عمن حولهم في الحضارة ، وغلبت عليهم البداوةُ . وقد عاش اكثرُهم عيشـةَ قبائلٍ رُحَّل ، لا يستقرون في مكان من الارض ، التي لم يكن لهم بها صلةٌ وثيقةٌ . كما يتربصـون مواسمَ الغيث ، فيخرجون مع عيالهم وابلهم في طلب المرعى . وأنى لهم الاستقرار ، والمرعى مرتبط بالغيث ، والغيثُ بيد القدر ، وليس بايديهم . فحياتُهم متقلبةٌ مع تقلبات الطقس ، وهي تعتمد بالدرجة الاولى على الابل بصورة خاصة قال ابن خلدون : " لما كان معاشُهم من القيام على الابل ونتاجها ورعايتها والابلُ تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره ، والقفرُ مكانُ الشَظفِ والسغبِ فصار لهم إلفاً وعادة ... " (١)

هذه العيشة البدوية هي التي كانت سائدةً في جزيرة العرب قبل الاسلام وان كـــان هناك اصقاعُ متمدنةُ كاليمن مثــلا .

قال جواد علي بعد وصفه حياة العرب البدوية " ولا ريب ان ظروفاً هذه حالتُهـــا ، لا بد ان تتولّدَ فيها مشكلاتٌ اجتماعيةٌ وسياسيةٌ واقتصاديةٌ ، للحكومات وللرعية " (٢) كل هـذا ولّدَ فيهم الظلمَ والعدْوانَ . قال ابن خلدون : " ومن اخلاق البشر فيهم الظلمُ والعدوانُ بعضٌ على بعضٍ فمن امتدت عينُه الى مُتاعِ اخيه فقد امتدت يَدُه الى أخذه الا ان يصده وازعٌ كما قال :

والظلمُ من شِيَمِ الكِرامِ فانْ تَجِدْ   ذا عِفّةٍ فلعلــةٍ لا يظْلِـــمُ (٣)

والقبيلةُ هي الوحدة الاساسية التي بنى عليها كل نظامهم الاجتماعي ، ولطالما كانـــت القبائلُ في نزاعٍ دائم وحروب طويلة لاتفه الاسباب كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبـــراء (٤) (انظر ابن الاثير ج ١ ص ١٨٧ ـ ١٩٣) وقد نشبت هذه الحروب لتشعب بطون القبيلـة الواحدة حيث يتنافس افرادُ كلّ بطنٍ في الرئاسة ، وان كان يجمعهم اصلٌ واحد .

١ـ المقدمة ص ١٢٨
٢ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ، ص ١٩٥
٣ـ المقدمة ص ١٢٧ (وقد وردت في مكان اخر من شيم النفوس وهو الاصح)
٤ـ ابن الاثير ج ١ ص ١٨٧ـ ١٩٣

./.

لذلك نلاحظ كم اريق من الدماء بسبب هذه المناسبة بين الاوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان، وبين عبد شمس وهاشم ، وبين ربيعة ومضر.

والخلاصة انه يمكننا القول ، بان اسبابَ هذا الخلاف يمكن حصرُها في سببين :
الاول : التنافسُ على موارد الماء والمراعي ، وهي مادةُ الحياة عندهم.
والثاني : تنازعُ الشرف والرئاسة فاذا مات الاخ الاكبر نازع الابن اعمامه (١) اما افراد القبيلة الواحدة فهم متضامنون كالبنيان المرصوص ، ينصرون اخاهم ظالما كان او مظلوما. فهم كما قال الشاعر :

لا يسألون اخاهم حين يَندُبُهم في النائبات على ما قال برهانا (٢)

وهذه العصبيةُ البغيضةُ التي فرَّقتهم شِيَعاً واحزاباً، ومزقتهم فِرَقا متناحرةً ، تتجزأ ايضا الى عصبيات اخرى. والرئاسة تكون لصاحب العصبية الاقوى. قال في ذلك ابن خلدون : " اعلم ان كلَّ حيٍ او بطن من القبائل، وان كانوا عصابةً واحدة لنسبهم العام ، فهم ايضا عصبياتٌ اخرى لانساب خاصة هي اشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشير واحد او اهل بيت واحد او اخوة بني أب واحد ". ثم يزيد ايضا عن الرئاسة قائلا :

" ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب وجب ان تكونَ عصبيةُ ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغُلْبُ لهم وتتم الرئاسة لاهلها ، لان كل عصبية منهم اذا أحست بغُلْبِ عصبية الرئيس لهم ، اقروا بالاذعان والاتباع (٣).

ومن عاداتهم المستقبحة وأدُ البنات عند بعضهم ، وذلك لاعتبارهم ان البنت هي عضو اشل في القبيلة ، فلا تجلب الخير، ولا تحارب ، بل هي مصدرُ العارِ والمذلةِ. فقال الله فيهم جلَّ جلالُه :

" واذا بُشّر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هُون ام يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون " (النحل : ٥٨) وقد نهاهم الله عن ذلك في قرآنه الكريم : " واذا الموؤدة سئلت باى ذنب قتلت " (التكوير: (الاية ٨ و ٩).

اما الذكور من ابنائهم فكانوا يعاملونهم باللطف واللين ، الا قليلٌ منهم كانوا يقتلونهم خشية الاملاق. وقد سفههم الله بقوله : " ولا تقتلوا اولادكم خشيةَ املاقٍ نحن نرزقُهم واياكم " (الاسراء : ٣١).

هذا القول من حكمة الجاهلية ، كانوا يعتبرون النصرة هي الاعانة على الغير، اما في الاسلام فقد اعتبر من ضمن النصرة نصيحة الظالم لرده عن ظلمه. ولذا قال عليه الصلاة والسلام : " انصر اخاك ظالما او مظلوما " كما قال : الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله وللمؤمنين.

١ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ص ٦٨
٢ـ فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٠
٣ـ المقدمة ص ١٣٢

./.

اما مثلُ البدوي الاعلى في الاخلاق فيتركز فيما سماه "المروءة" (١) وقد تغنى بها الشعراء في ادبهم واشعارهم . وهي في نظرهم تعتمد على الكرم والشجاعة . فالكرم يتجلى في نحر الفرس او الجزور للضيف ، واغاثة البائس وحفظ الجوار . والمروءة هي من المواضيع التي اقرّها الاسلام في جملة ما أقره من فضائل الجاهلية "الدين المروءة" .

اما الشجاعة فتتجلى في دفاعه عن قبيلته ونجدته للمستجيرين .

فالبدوي يعطي اكثر مما يأخذ ، وهو " يغشى الوغى ويعف عند المغنم " (عنترة) هذا هو وصف العرب البدو ، اما الحضر فهم ارقى بكثير ، يسكنون المدن في هدوء واستقرار ويعيشون على التجارة والزراعة . وقد ذكر لنا التاريخ منهم الممالك العامرة التي ازدهرت ايما ازدهار كاليمن والغساسنة في الشام واللخميين في العراق (٢)

الحالة الاقتصادية :

قلنا ان ليس في البدوي خُلُقٌ يؤهله للتجارة ، واذا اشترك فيها اقتصر عمله على ان يكون سائقاً او هادياً الى الطريق او حاميا من إغارة امثاله .

اما الحضر كقريش مثلا فقد كانوا اهلَ تجارة ، وتجارتُهم قائمٌ اكثرُها على الحجاج ، الذين يردون مكة في المواسم . فمصلحتهم كانت تقتضي عليهم تسهيل طرق القدوم ، وترغيب الناس في الحج (٣) .

وفي جملة ما رغب القبائل في زيارة الكعبة ، انه كان لكل قبيلة منها صنمٌ خاصٌ بها ، تأتي في المواسم لزيارته والذبح له (٤) .

وبلغَ من اهتمام القرشيين بالتجارة انهم كانوا يرحلون رحلتين في العام ، رحلة الشتاء الى اليمن ، التي ازدهرت كثيرا على يد تجارها ، حيث كانوا ينقلون غلاتَ حضرموت وظفار وواردات الهند الى الشام ومصر ، ورحلة الصيف الى الشام (٥) .

كما يروى ان هاشماً هو الذي سَنَّ هاتين الرحلتين (٦) لذلك نرى مكة التي سكنت فيها قبيلة قريش ، وقد لعبت دورا هاما في التجارة ، فهي تقع في منتصف الطريق التجاري ، وفيها بئرُ زمزم حيث تسقى منها القوافل ، وتأخذ حاجتَها من الماء . (انظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٤٢ ومابعدها) .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ٣٢٦
(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٩
(٣) فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٣
(٤) انظر الطبري ج ٢ ص ٣٧
(٥) انظر ابن الكلبي (الاصنام) ص ١٢ـ ٣١ـ ٤٢
(٦) تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٦٦

والجاحظ يذكر لنا في رسائله عن اختصاص قريش بالتجارة فيقول :
" وقد نشروا تجارتهم في كل انحاء الجزيرة العربية حتى عرفوا ب (قريش التجار) (١) وكذلك البغدادي فانه يروى لنا في سبائكه عن رحلتي قريش فيقول : " وكان بنو عبد مُناف الاربعة يتوجهون الى البلاد المختلفة للتجارة : فكان هاشم يتوجه الى الشام ، وعبد شمس الى الحبشة ، والمطلب الى اليمن ، ونوفل الى فارس. وكان تجار قريش يختلفون الى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الاخوة الاربعة لا يعترض لهم احد بسوء " (٢) .

وقد منّ الله على قريش في ذلك بقوله : " لايلاف قريشٍ ايلافهم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى اطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف " (قريش: ٢) .

ونوع اخر اتخذه العرب وسيلة من وسائل العيش ، هو حماية القوافل الغريبة عنهم والتي تمر في اراضيهم نَظيرَجُعْلٍ يأخذونه منهم . يعطينا مثلا أحمد أمين في فجر الاسلام فيقول : " وكان عربُ الحيرة يتعهدون بحماية القوافل التجارة الفارسية عند مرورها في ارض العرب في نظير جُعْل كبير يأخذونه من الفرس، ويزيد قائلا : ويروون ان الفرس مرة استكثروا هذا الجعل، فأبوا دفعه ، فهاجم العربُ قافلةً فارسيةً وهزموا حماتها . وكان هذا اليوم احد أيام العرب المشهورة ، وسمي يومُ ذى قار" (٣) .

وهذا نوع اخر اتخذه العرب ايضا وسيلةً من وسائل العيش وهو الغارةُ والسلبُ والغزوُ فكانوا يغيرون على قبيلة معادية فيأخذون جمالَهم ، ويسبون نساءهم واولادهم ، ولا شك ان القبيلة المنهوبة كانت تتربص بهم لتفعل ما فعلوا . اما اذا لم يجدوا عدوا من غيرهم ، قاتلوا انفسهم خاصة اذا قل الماءُ وجَفَّ المرعى . ولنا في قول القطامي خيرُ دليلٍ وقد استشهد به احمد امين في فجر الاسلام . يقول القطامي :

وكُنَّ اذا اغرْنَ على قبيل	فاعْوزهُنَّ نهبٌ حيث كانا
اغَرْنَ من الضِبَّابِ على حِلالٍ	وضَبَّةَ إنه مَن حانَ حانا
وأحياناً على بَكْرٍ اخينا	إذا لم نجدْ إلا اخَانا (٤)

اما الزراعةُ فقليلا ما كانوا يهتمون بها ، لانها تتطلب الري وهو شبه معدوم في اكثر بلادهم ، بل جُلُّهم يقيم على الحيوان من ابل وغنم وبقر وماعز . قال ابن خلدون: " ومنهم من يستعمل الفَلْحَ من الغراسة والزراعة ومنهم من يَنْتَحِل القيامَ على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل ..." (٥) .

---

(١) رسائل الجاحظ (جمع السندوبي) ص ١٥٦
(٢) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ٦٩
(٣) فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٤
(٤) فجر الاسلام ص ٩ والضباب اسم قبيلة والحلال المجاور المقيم بالقرب منه يقول اغرن على قبيلتي ضباب وضبة . وقوله من حانا حانا : من جاء أجله فهو لا بد هالك
(٥) المقدمة ص ١٢٠

./.

اما المدن كالمدينة والطائف واليمن ، فتكثر فيها زراعةُ النخيل . والطائف خصها جواد علي في تاريخه ، وميزها بتربتها الخصبة واشجارها وظلالها (١) وقد اهتم العربُ اهتماما بالغا بتربية الماشيـة كما قلنا ، وعلى الاخص الابل . فهـو حيوان الصحراء الاوحدُ والذى سمـي بحق (مركبُ الصحراء) وقد نوه احمد امين الى هذا الموضوع فقال : "فحياةُ العرب فـي الصحراء تكاد تكون مستحيلةً لولا فَضْلُ الجمل ، من اجل هذا ملئت اللغةُ العربيةُ بالابل ، فلـم يتركوا العربُ صغيرةً ولا كبيرةً الا وضعوا لها اللفظ ، فوضعوا الالفاظَ لها ، ولحملها ونتاجها وحلبها ورغاءها وفطامها ...." (٢)

وكذلك الصناعاتُ البدائيةُ كالحياكةِ وبعض الصناعات اليدوية في المدن : مكة والمدينة واليمن (٣)

وعلى العموم لم يعتمد العرب الصناعةَ من مصادرَ رزقهم المعوَّل عليه في حياتهم لانهم كمـا قال ابن خلـدون " وهم ابعدُ الناس عن الصنائع ، لانهم اعرقُ في البدو وأبعدُ عن العمـران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها ولهذا نجد اوطانَ العرب وماملكوه في الاسلام قليلَ الصنائع بالجملة حتى تُجْلَبُ من قطر اخر " (٤) .

والآن سوف نَعْرِضُ بعضَ التجمعات شبه الحضرية في المجتمع العربي :

مكـــــة :

أو بكة ، وتُعرَف ايضا " بام القرى " اى ام المدن . وهي مُحاطةٌ من جهاتها الاربع بالجبـال ولو كانت منذ اقدم العصور ، ولا تزال ، عاصمةَ بلادِ العربِ الروحيةِ والدينيةِ اذ فيها يقـوم بيتُ الله الحرام المعروف بالكعبة ، قبلةُ الحجاجِ ، يسعون نحوها من كل حَدْبٍ وصَوْبٍ ، منـذ عهودٍ ما قبلِ التاريخ .

وقد ذكرها ياقوت في معجمه فقال : " وكان لبلاد العرب دينٌ واحدٌ وعقيدةٌ واحدةٌ مشتركـةٌ مركزُها مكةٌ وهي قريةٌ تأسست حول منتصف القرن الخامس الميلادى ، في وادٍ ضيقٍ طويل مجدب على مقربة من بئر زمزم ، وتبعد عن جدة بنحو ٤٥ ميلا (٥) .

ان ولايةَ البيت لهي من الامور المهمة جدا في ذلك الوقت وكانت لا تصح الا لذوى الشـأن والجاه . وقد روى المؤرخون ان ولايةَ البيتِ كانت في يد جُرْهُم ، وقد صاهرهم النبي اسماعيل نقل لنا الازرقي في كتاب اخبار مكة قال :

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٤ ص ١٤٢ ومابعدها .
(٢) فجر الاسلام ص ٤٧
(٣) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٤ ص ١٢٦
(٤) المقدمـــة ص ٣٣٧
(٥) معجم ياقوت ج ٨ ص ١٣٣ ومكة هي بيت الله .

./.

" لبثت ولاية البيت في جُرهُم حتى كبر سلطانهم وعظُمت شوكتهم فعاثوا في الارض واستحلوا اموالَ الكعبة ، واضطهدوا من دخلَ مكة من غيرِ اهلِها " (١) (انظر الاصنام ص ٥٤) .

وقد انتقلت الولايةُ من جرهم الى خزاعة ، وعلى رأسهم يومئذ عَمْرُو بن لُحَيْ . وقد احدثوا كثيرا من الاوثان الفاسدة ولا سيما عبادةَ هبـل (٢) وعنده ضَرَبَ عبدُ المطلب على ابنه عبدالله والد النبي كما سيأتي ذكره فيما بعد .

وبعدها انتقلت السيادة الى قريش بعد تغلبها على خزاعة . يقول الطبرى : " واستولى قُصَيّ بن كِلَاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٠٠ م ، واجتمعت له السقايةُ والحجابةُ والرفـــادةُ واللواء ولم تجتمع في رجل قبله " (٣) .

ويحدثنا القرآنُ الكريمُ عن بناء الكعبة وقصتها مع ابراهيم ما معناه : ان ابراهيمَ كان يزورُ وَلَدَهُ اسماعيل من حين لآخر وان الله امره ببناء الكعبة - اى البيت الحرام - وان ابراهيم كان يبنـــي ، واسماعيلُ كان يرفع له الحجارة (٤) قال تعالى : " واذ يَرْفعُ ابراهيمُ القواعدَ من البيت واسماعيـلُ ربّنا تقبَّلْ منا انك انت السميع العليم " (٥) وقد سارت الركبان بذكر الكعبة ولا سيما بعد ان امر الله ابراهيم عليه السلام بقوله : " وأذّنْ في الناسِ بالحجّ يأتوكَ رجالا وعلى كل ضامر يأتين مـن كل فجٍّ عميق " (٦) .

والكعبـــــــة :

بنيت في مكة ، وهي بيتٌ مربعٌ مكعبٌ يحيط بـه فضاء غير مسقوف ، وكانت قبائل العرب تحج اليها ولكل قبيلة منها صنمها في جوف الكعبة . وفيها الحجر الاسود الذي يقال انه سقط مـن السماء (٧) .

أ- الحجابة وهي السدان وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها . ب - السقاية وصاحبها يتولى سقاية الحجاج في مكه فينشئ حياضا من الجلد تنقل اليها المياه العذبة من الابـــار ج - الرفادة : وهي خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من اموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاما للفقراء . د - اللواء امارة الركب وصاحبها يسير امام الركب في خروجهـــم للقتال او التجارة .

مكة : بيت الله الحرام فيقال مكة ام المدينة وبكة اسم البيت وهي ام القرى كما سماها الله في كتابه الكريم " لتنذر ام القرى ومن حولها " كما سماها تعالى ايضا " البلد الامين " والتين والزيتـون وطور سنين وهذا البلد الامين) وهي ايضا البيت العتيق (وليطوفوا بالبيت العتيق) ومكة وبكة هي كلمة بابلية معناها البيت .

---

(١) الازرقي في كتاب اخبار مكة وماجاء فيها من الاثار ص ٣٦
(٢) الاصنام لابن الكلبي ص ٢٧
(٣) الطبرى ج ٢ ص ١٨٧ والعقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٢
(٤) انظر ابن الاثير في اسد الغابة ج ٣ ص ٢٠٦ وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٣
(٥) البقرة ١٢٧
(٦) الحج : ٢٧
(٧) الاصنام لابن الكلبي ص ٢٧ وتاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٤٢ وما بعدها .

./.

والكعبة قديمة جداً، والقرآن الكريم يثبت ان البيت الحرام كان قائما قبل ابراهيم " إن أول بيت وُضِعَ للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين " (١) ،

وحين خلف ابنه اسماعيل هناك كانت هذه كلمات الدعاء الذى ضرع به ابراهيم الخليل الى الله : " ربّنا اني اسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المُحَرّم ، ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعلْ افئدةً من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكُرون "(٢) وهذا يظهر ان الكعبة كانت قائمة هناك حتى في مثل هذا التاريخ الممعن في القدم.

المدينـــة المنـــورة :

وهي دارُ الهجرة وحاضرةُ الدولة الاسلامية وكانت تدعى في الاصل يثرب ، ولما اتخذها الرسول (ص) مقرا له امست تُعرَفُ (مدينةُ النبي) وهي مدينة عتيقة جدا سكنها العماليق في بادىء الامر، ثم اليهود والاوس والخزرج . وحين اقبل الرسول (ص) ليقيم فيها كان هؤلاء الاقوام الثلاثة هم اهلها . وفيما بعد اكتسب الاوس والخزرج لقب " الانصار" (٣) .

والمدينة هي التي اوت الرسول الكريم بعد هجرته ومعه الصحابةُ رضوانُ الله عليهم وشهدت الجانبَ التشريعيَ الاولَ في صدر الاسلام ، وفي مساجدها التفّ المسلمون حول محمد (ص) يتلون القرآن العظيم ويسمعون الحديثَ الشريف (٤) . والى المدينة التجأ المسلمون المهاجرون بدينهم ، تحت ضغط قريش والقبائل الاخرى . وعليها عقدت الامال، حتى كان صلح الحديبية ثم الفتح الاعظم ، فاصبحت مركزَ الحجاز السياسي ، وعاصمةَ الدولة الاسلامية الى أوائل خلافة علي (ع) (٥) .

ولانها مقامُ الرسول ومن جاورَ حوله من كبار الصحابة ، كنا نرى فيها اكبارَ الصحابة الذين كانت لهم مكانةٌ عظيمةٌ في الحديث . ومن هؤلاء نذكر: ابا بكر وعمرَ وعثمانَ وعليا وزيدَ بن ثابت الذى كان له مكانة رفيعةٌ عند الخلفاء الراشدين واشتهر بفهم القرآن والحديث (٦) .

وقد تخرج من المدينة كبارُ التابعين الذين اخذوا عن الصحابة، وكان لهم شأن يذكر. وفي المدينة اقام الرسول (ص) حيث قضى بقيةَ حياته حتى لفظَ نفسَهُ الاخيرَ الطاهرة وهناك يقوم ضريحُهُ حتى يومنا هذا مزارا للمؤمنين المسلمين (انظر السيرة لابن هشام ج ١ ص ٦٦٢ وما بعدها) .

---

(١) آل عمران ٩٦
(٢) ابراهيم ٣٧
(٣) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٢٨
(٤) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٢٨ وفجر الاسلام ص ١٧٢
(٥) انظر هيكل في حياة محمد ص ٣٤٤
(٦) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٦ ص ٢٨٤ وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠

الحالة السياسية :

كان للعرب (١) في الجاهلية حكومة تشبه حكومات سائر اهل البادية ، تجتمع كل السلطات في يد شيخ القبيلة ، فهو وحده الملك والقاضي وصاحب بيت المال وقائد الجند (٢) وكانوا يختارون للرئاسة ارجحهم عقلا واكثرهم دهاء وسياسة واكبرهم جاها . (٣) هذا ويضيف زيدان عن النسابة محمد بن حبيب السكرى : " وانما كان في كل قبيلة نفر من " السادة " ومفردهم سيد يعترف افراد القبيلة لهم بسلطان ادبي ، ويوقرون آراءهم وكان عظيم اولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم ، وواجباته كثيرة ولكنها ليست محددة فهو يمثل القبيلة ويحمل ديات من يعجزعن دفع الديتمن افرادها ، ويطعم الضيفان وما الى ذلك ... واذا دخلت القبيلة في خصومة اصبحت سيادته حقيقية فيقود القبيلة في الحرب ويقوم بتمثيلها امام الخصم وينظم القتال . هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة ، اما في مكة ، فقد اخذت السيادة معنى حقيقيا بسبب الاستقرار وانتظام امور الجماعة ، ووجود الكعبة ، ومن يتولى شؤونها حتى انتهت اخيرا الى قريش كما ذكرنا على يد سيدها قصي بن كلاب .. " (٤) .

اما عن القضاء والادارة فلم يكن عند العرب في الجاهلية اى منهج كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث . وعن هذا روى لنا حسن ابراهيم حسن في تاريخه السياسي قولا للمستشرق ارنولد يقول ارنولد :

" كانت كل قبيلة او عشيرة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال ، وينسحب هذا الاستقلال على افراد القبيلة فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته او سلطته الا رمزا لفكرة عامة ، شاءت الظروف ان يأخذ هو منها بنصيب ، بل كان مطلق الحرية في ان يرفض ما اجتمع عليه رأى الاغلبية من ابناء قبيلته . وابعد من هذا انه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس ، اذ كان يختار لها غالبا اكبر افراد القبيلة سنا ، واكثرهم مالا ، واعظمهم نفوذا ، واجدرهم بكسب الاحترام الشخصي .

واذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ، ووجود مستقل ولا تتحد الا في ظروف غير عادية اشتراكا في الدفاع عن القبيلة او قياما بغارات بالغة الخطورة (٥) .

هذه الحروب المهمة سماها المؤرخون " أيام العرب " .

---

(١) نخص بالذكر عرب الحجاز اى قريش لان منها ظهر النبي (ص)
(٢) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ص ٣٦
(٣) انظر العرب للمستشرق كابريللي الفصل الاول وبلاشير تاريخ الادب العربي ص ٢٠
(٤) المصدر نفسه يروى عن محمد بن حبيب السكرى النسابة : المحبر ص ١٣٩ و ص ٤٢٧
(٥) تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ص ٥٣

./.

ايامُ العرب : يمكننا القولَ ان نزاعَ القبائلِ العربيةِ في الجاهليةِ يكادُ ينحصرُ في سببين رئيسيين :

١ ـ الاختلافُ على الرئاسة .

٢ ـ التسابقُ على مواردِ الماء ومنابت الكلاء .

من اجل هذا وقعت بينهم حروبٌ كثيرةٌ ، اريقت فيها الدماء ، وذهبَ ضحيتَها الابرياءُ ، نذكرُ منها :

آ ـ حربُ البسوس (١) وقعت بين قبيلتي بكر وتغلب ابني وائل ، دامت اربعين عاما ، بسبب ناقة كانت تملكها امرأةٌ عجوزٌ من بكر تدعى البسوس .

ب ـ حربُ داحس والغبراء : (٢) وهي حروب قيس دارت بين عبس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان . تراهنا على داحس والغبراء (اسمي فرس) ايهما يكون له السبق . وبقيت الحرب مشتعلة مدةَ اربعينَ سنة لم تنتج لهم ناقةٌ ولا فرسٌ لاشتغالهم بالقتال .

الحالة الادبية :

اشرنا فيما سبق ان العربَ في جاهليتهم كان اكثرُهم بدوا ، فاذا كان الادبُ صورةً عن حياة الناس بكل ما فيها ، نلاحظُ ان هذا الطورَ يتجلى فيه ضَعفُ التعليل ، أو عدمُ فهم الارتباط بين العِلَّة والمعلول ، اذ كان يمرض أَحَدُهُم فيصفون له بعضَ العلاجات الوهمية فهم يعتقدون ان دمَ الرئيسِ يشفي من داء الكلب ، او ان سببَ المرض روحُ شريرٍ حلَّ فيه فيداوونه بما يطرد هذه الارواح . الى ما هنالك من اساطيرَ وخرافات . (٣)

هذا الضَعفُ في التعليل هو الذى يشرح لنا ما ملئت به كتبُ الادب من اساطيرَ وخرافاتٍ ، كانت العربُ تعتقدها في جاهليتها مثلَ : الكهانة والعرافة وزجر الطير ... وكلها امورٌ لَيْسَتْ منطقيةً في تَعَرُّفِ العلَةِ من المعلول .

وهذه الخاصةُ هي ما نلاحظُها غالبا في ادبِ العربِ الجاهلي نظما كان او نثرا . فاذا قرأنا قطعةً ادبيةً نلاحظ :

١ ـ عدمُ تسلسلِ الافكارِ تسلسلاً دقيقاً .

---

١ ـ تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ص ٥٣

٢ ـ المصدر نفسه ص ٥٨ ـ ٥٩

٣ ـ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب للآلوسي ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها .

٢- قلةُ ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً .

فلو عمدت الى قصيدة من الشعر الجاهلي ، فحذفت منها بيتاً او أكثر ، او انك قدَّمتَ متأخِراً او أخَّرتَ متقدماً ، لم يشعر السامعُ ذلك ، ما لم يكن قد قرأها من قبل .

وقد يعزى هذا ، على ما اظن ، الى حياة العرب المتنقلة وغير المستقرة ، فهم يتنقلون دائما سعيا وراء الكلاء ، مصدرِ حياة مواشيهم ، ومصدرِ حياتهم . ومما نُلاحظُ ان ابيات القصيدة الجاهلية مفككةٌ ، مستقلةٌ ، كالخيام التي يفكونها بسرعة ، ثم يثبتونها في الارض الجديدة بواسطة الاوتاد .

والحقيقةُ ان لعامل البيئةِ الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، تأثيراً واضحاً في تكوين عقلية الشعوب . فالبيئةُ الطبيعيةُ للعرب في الجاهلية حدَّدت نوعَ معيشتهم ، فهم عربٌ رُحَّل ، ثروتهم هي الكلاء ، وهذا تحت رحمة الطبيعة ، فقد يقلُّ المرعى او تنضبُ ماءُ الآبار فيسوء العيشُ .

وهذا النوعُ من البيئة حدَّدَ نوعَ أخلاقِهم وعقليتهم . اليسَ الفقرُ هو الذى سبَّب اليهم الاغارةَ فعيَّروا من قَصَّر في الدفاع عن القبيلة ، واشادوا بذكر من حماها ؟ !

اوليس البؤسُ هو الذى جعلَ إطعامَ الطعام وايقادَ النيران لهداية الضيف في مقدمة الفضائل !! ؟

واذا كانت الحياة بين كرٍّ وفرٍّ ، وهجوم ٍ ودفاعٍ في معظم الايام ، اليست تعدُّ الشجاعةُ والوفاءُ والعفوُ من اكبر الفضائل ؟ .

واللغةُ العربيةُ المعبرةُ عن افكارهم وميولهم ونزعاتهم ، والادب العربي الصورةُ الصادقةُ عن حياتهم واحوالهم ، كلاهما نتيجة طبيعية لتلك الحياة ؟ ! (١)

فمن حيث اللغة ، نرى ان الابلَ عمادُ حياة البدوي في الصحراء ، فاتى الشعرُ العربيُّ الجاهليُّ مليئاً باوصافه وصفاته والقابه وقد استغرقَ فيه الكلام الصفحاتِ الكبيرةَ (٢)

وقديما قيل : " الشعرُ ديوانُ العرب " وهم يعنون انهم سجلوا بشعرهم اخلاقهم وعاداتِهم وديانتهم وعقليتهم وكلَّ احساساتِهم .

وكلُّ ما لدينا من شِعْرٍ جاهلي يَنِمُّ عن ذلك ، سواء اكان صحيحا ام منحولا ، فمن دواوين الشعراء ، الى المعلقات السبع ، الى ما ورد في كتاب الاغاني ...

ونظرةٌ عامةٌ على ما وصل لدينا من شعر الجاهليين ، تدُلُّنا أنه ليس متنوعَ الموضوعات

١- انظر بلوغ الارب في معرفة احوال العرب للألوسي ج ٢ ص ٥٦ .

٢- انظر كتاب فجر الاسلام ص ٤٧

فالنشابية والاستعارات تُكَرَّرُ غالبا . ولكن لا يخفى مع ذلك القدرةُ في البيان ، والبعدُ في دقة التفاصيل ، واللّعبُ بالالفاظ ، وان كان الخَلْقُ والابتكارُ ضعيفين. وقد عَبَّرَ عنترة عن ذلك بقوله :

هل غادَرَ الشعراءُ من متردم ام هل عرفْتَ الدارَ بعد توهم

ولا اظنه منصفا كل الانصاف ، فلربما غادَرَ الشعراءُ الكثيرَ ، ولا يزال مجالُ القول واسعا ، والخيالُ الخصبُ يعطي دائما ، ويُجَدِّدُ ويَخْلُقُ باستمرار . والمرجَّحُ ان البيئةَ الجاهليةَ قد ضيقت عليهم ، فبات قولُهم اكثرُه معادا ومكررا ،

وبالاضافة الى الشعر ، هناك بابٌ كبيرٌ من ابواب الادب الجاهلي ، وهو : القصص: ومنها

ايام العرب : كانت تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت بين القبائل كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار الذي نفصل عنه فيما بعد ، ويوم ذي قار ! ! ! وكل هذه " الايام " كانت منبعا لادبهم ، ومصدرَ إلهام في قصصهم واحاديثهم . (١)

وقد عرفت العرب قصصاً كثيرةً عن غيرها من الامم الفرس مثلا ، كانوا يروون اكثرَ قصصهم ويتسامرون بها . (٢)

الاسواق الادبية : لا يغيب عن اذهاننا ما كان لاجتماع الشعراء في مكة ، واحياء الاسواق الادبية ، من أثر في حياة العرب الادبية فقد اخذت اللغةُ بالتوحُّد بفضل هذه الاسواق ، كما أَخَذَ الشعرُ بالنمو والازدهار كان يجمع اهلُ كل قطرٍ محصولاتهم من حيوان ومتاع ويحملونها الى القرى الكبيرة ، حيث يلتقون فيبيعون ويبتاعون ، وبعد تصفية متاجرهم ينصرفون الى اللهو ، فتبدأ المباراة بالاناشيد والقاء القصائد . (٣)

سوقُ عُكاظ : وهو نخل بين نخلة والطائف ، يقصده العرب من كل قطر يبيعون ويشترون ، اما الشعراء منهم فكانوا يغتنمون فرصةَ اجتماع القوم فيلقون قصائدهم على مَسْمَع من الجماهير المحتشدة . ولا بد والحالة هذه من حَكَمٍ تُرْجَعُ اليه الامورُ في تقييم ذلك الشعر . وكان لقريش الميدُ الطولى في تلك المحافل ، لان منها الفصحاءَ والبلغاءَ ، الذين يذعنُ جميعُ القوم لحكمهم . يذعن لذلك لا بد والحالةُ هذه من انتقاء الكلمات المألوفة بين الجميع ، وذلك لتفهمها القبائلُ المختلفةُ اللهجات . (٤)

١ـ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٤ ص ٨٣

٢ـ السيرة لإبن هشام ج ١ ص ١٩٠

٣ـ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ١ ص ٢٦٤

٤ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن ص ٦٩ والروائع " الشعر الجاهلي " لفؤاد افرام البستاني ص ٢٦ ـ ٢٧

وفوق هذا فقد كان كلُّ شيء في طبيعة العرب يُعزِّزُ نموَّ الشعر وازدهارَه ، فسماءٌ صافيةٌ ، وهواءٌ نقيٌّ ، وصحراءُ ناعمةٌ واسعة .

والذى ساعَدَهم في نموِّ الشعر ، كثرةُ الحروب والغزوات ، كما اسلفنا ، فهي التي تذكي قرائحَهُم ، وتُشعِلُ الحماسَ في نفوسهم ، فينشدون الاشعارَ للتغني بمكارمِ الاخلاق .

وقد قال ابن رشيق في العمدة ، في هذا المعنى :

" وكان الكلامُ كلُّه منثورا ، فاحتاجت العربُ الى الغناء بمكارمِ أخلاقها ، وطيبِ أعراقها ، وذكر ايامها الصالحة ، واوطانها النازحة ، وفرسانها الانجاد ، وسمحائها الاجواد ، لتهز نفوسها الى الكرم ، وتدل ابناءها على حسن الشيم ، فتوهموا اعاريضَ جعلوها موازينَ الكلام ، فلما تمَّ لهم وزنَه سمُّوه شعرا " ؟! (١)

الحالة الدينية :

العربُ قبل الاسلام كغيرهم من الشعوب الاخرى ، فكروا في وجود قوى مسيطرةٍ لها عليهم سلطانٌ قاهرٌ ، فحاولوا التقرُّبَ منها ، والتودُّدَ اليها بمختلف الوسائل والطرق . (٢) قال العقاد : "ففي الطبع الانساني جوع الى الاعتقاد كجوع المعدة الى الطعام ." هذه القوى المتعددة سموها آلهة ، ورمزوا اليها باشكال مختلفة من انصاب وازلام واوثان واصنام ... وقد نهاهم الله عنها في كتابه العزيز: "انما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والازلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه " (٣) .

اما كيف دخلت الاصنامُ الى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، فقد اخبرنا عنها ابن الكلبي في كتابه الاصنام فقال : "فكان أولَ من غيَّر دينَ اسماعيل عليه السلام فنصَّب الاوثانَ وسيَّبَ السائبةَ ، ووصَلَ الوصيلةَ وبحَّرَ البَحيرة وحَمى الحامية ، عمرُو بن ربيعة وهو لُحَيّ بن حارثة" (٤)

١- العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥

٢- تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٥ ص ٢٣

٣- المائدة : ٩٠

٤- الاصنام لابن الكلبي ص ٨

ويزيد ابن الكلبي قائلا عن لحيّ : " ثم انه مرض مرضا شديدا فقيل له : ان بالبلقاء من الشام حُمّةً ان اتيتها برأت . فاتاها فاستحم بها ، فبرأ ووجدَ اهلها يعبدون الاصنامَ ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطرَ ونستنصرُ بها على الاعداء ، فسألهم ان يُعطوه منها ففعلوا فقدِمَ بها مكةَ ونصبها حَوْلَ الكعبة " (١) ثم اخذ لحيّ بتوزيع الاصنام على القبائل وبذلك شاعت عبادةُ الاصنام بين الناس .

مما يُلاحَظُ ان المحيطَ الجغرافي ، هو الذى يفرضُ على جماعة معينة اتباعَ طرقٍ معينة ، واتخاذَ آلهة منبثقة من وحي ذلك المحيط . (٢) وعبادةَ الاجرام السماوية واهمُها الشمسُ والقمرُ ، من بين الآلهة المتعددة التي عَبَدَها العربُ في الجاهلية .

فالبدويُّ قد تغريه رؤيةُ القمر وجلاله ، في الليالي المقمرة الجميلة ، بعد الحر الشديد والتعب المرهق اثناء النهار ؛ كما أن النجمَ التي يتخذها "كالبوصلة " يهتدى بواسطتها اذا غاب القمرُ ، في اسفاره البعيدة الشاقة .

كما لا بد له ازاءَ هذه الاسفار ، من ان يصادفَ الحيواناتَ المفترسةَ ، فعمد الى مصادقتها عن طريق التسمية باسمائها فلربما يَكْسَبُ قوتَها ويتجنّبُ أذاها حسب اعتقاده المزعوم . (٣)

ثم ان طبيعةَ الصحراء اللاهبة ، التي تحتاج الى مطر في كل اوقات السنة ، جعلت البدويَّ يتوق بكليته الى الغيث ، الذى اشعلَ الحروبَ واقامَ المعاركَ والغزواتِ المستمرةَ من اجله . لذلك نلاحظ ، ان بعضَ دعوات البدوى تبركاته قوله : برّدَ اللهُ صدرَك او أثلجَ اللهُ قلبَك . لهذه الاسباب كنا نراه يصلي للاستسقاء ، ويستدر عطف الاله الخير علّه يسمع ويجيب ! ! .

"كما ان للحالات النفسية اثرها في طرق العبادة ، وفي تصور الاله ، فكل شعب كان يتصور الآله الذى يريد ، وفق مزاجه واخلاقه " هكذا روى لنا الدكتور جواد علي . (٤) والعربُ صوروا آلهتهم على شاكلتهم .

وكان يعظم شأنُ ذلك الآله المسكين او يَصْغُرُ حسبَ عظامة القبيلة وعلوُ مقامها بالنسبة لغيرها من القبائل .

كما ان ذلك الآله له اشكالٌ مختلفةٌ ، ومصنوعٌ من موادَ متنوعةٍ . وقد يتغير اذا هُزِمَتْ

١ـ بلوغ الارب للآلوسي ج ٢ ص ٢٠٠ ـ الاصنام لابن الكلبي المصدر السابق ص٨
٢ـ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٥ ص ٦٢
٣ـ الاصنام ص ٥٤ السيرة ج ١ ص ٨٩
٤ـ المصدر نفسه ج ٥ ص٩١

القبيلةُ مثلا ، او يهملُ او يكسرُ ، او يحرقُ ، او يؤكلُ في بعض الاحيان ، كما فعلت (حنيفة) عندما اكلت ربَّها الذى كان مصنوعا من التمر (١) .

وكان لقريش اصنامٌ في جوف الكعبة وحولها ، ومن اعظمها (هُبَل) وقد كان مصنوعا من عَقيقٍ أحمرَ ، وذلك الحجرُ الثمينُ ، على صورة انسان ، ادركته قريش ويَدُه مكسورةٌ ، فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان عنده سبعة اقدام يستقسمون باثنين منها ، لمعرفة الولد المشكوك فيه اذا كان صريحَ النسب . (٢)

ومن تلك الاصنام التي عبدها العربُ في الجاهلية ، تلكَ التي وردت في القرآن الكريم ، يُحذِّرُهم اللهُ من اتباعها ، وهي اللات والعزى ومناة . قال تعالى : " أفرأيتَ اللاتَ والعُزّى ومناةَ الثالثةَ الاخرى ألكم الذكرُ وله الانثى تلك اذن قسمةٌ ضيزى إنْ هي الا أسماءٌ سميتموها انتم وآباؤكم ما انزلَ الله بها من سلطان " (٣)

ومن معبوداتهم ايضا التي عبدها قبلهم قومُ نوح " قال نوحٌ ربِ انهم عَصَوْني واتبعوا مَنْ لم يَزِدْهُ مالُه وَوَلَدُهُ الا خسارا ومكروا مكرا كُبّارا وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعا ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسْرا " (٤) .

والعربُ قبل الاسلام قدموا القرابينَ لآلهتهم (٥) .

ولكن على الرغم من وثنيتهم ، كانوا يؤمنون بالله بدليل قوله تعالى :

" ما نعبدهم الا ليقرّبونا الى الله زُلْفى " (٦) الزمر : ٣

اطوار العبادة التي مرت بها الشعوب البدائية العربية : نختصر فنقول :

انه من المعروف ان الاطوار التي مرت بها الشعوب البدائية ، كما عرفها علماء الاديان في اعتقاداتهم بالآلهة والارباب هي :

أ ـ دور التعدد

ب ـ دور التمييز والترجيح .

ج ـ دور الوحدانية . ٧ ـ انظر العقاد في كتابه (الله) ص ٢٨

ففي دور التعدد كانت القبائل تتخذ لها اربابا عديدة ، فكان لكل اسرة كبيرةٍ ربٌّ تعبده ، وتقدّمُ له الصلواتِ والقرابينَ .

اما في الدور الثاني فتبقى الآلهةُ على كثرتها ، ويُؤخَذُ ربٌّ منها مميزٌ ، فيبرزُ ويُرجَّح

---

١ ـ انظر الاصنام لابن الكلبي ص ١٥ ـ وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٥ ص ٦١ وانظر كذلك تفسير الجلالين ج ١ ص ١٣٩ وكتاب الله للعقاد الفصل الاول منه

٢ ـ الاصنام لابن الكلبي ص ١٣ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ٢٧ ـ ٣ ـ النجم : ١٩ ـ ٢٣ ـ

٤ ـ نوح ٢١ ـ ٢٣

٥ ـ الطبرى ج ٢ ص ١٧٢ وتاريخ الاسلام السياسي ص ٧٥

على سائر الارباب ، لانهم يعتقدون انه يحقق لهم اعظم مطالبهم التي تعجز بقية الارباب عن تنفيذها .

وفي الدور الثالث ، تتوحد الامة ، فتتجمع تحت عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الارباب في كل اقليم من الاقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض القبيلة المسيطرة عباداتها على سائر القبائل الاخرى التي تضعف امامها ، وتقل عندها هيبةً وقوةً . كما تفرض ايضا سيادة تاجها وصاحب عرشها . ولنا في قبيلة قريش مثلٌ واضحٌ على ذلك . (١)

بعد عرضنا للحالات التي كان عليها العرب في العصر الجاهلي وعلى الاخص الحالة الدينية ، يجدر بنا ان نتعرف بعض الشيء عن الديانات التي سبقت العرب ، من اليهودية والنصرانية والحنيفية في الجزيرة العربية . وما كان لهذه الاديان من تأثير ، إن سلبا او ايجابا ، على بعض النفوس من العرب التي استطاعت ان تتسرب اليها خلال فترة معينة من الزمن .

اليهودية :

اجمع المؤرخون على القول ان اليهودية انتشرت في الجزيرة العربية انتشاراً واسعاً ، والّف اليهودُ مستعمرات كان لها شأنٌ يُذكر في الحقول المالية . ورد في تاريخ العرب السياسي : "انتشرت اليهوديةُ في جزيرة العرب قبلَ الاسلام ، ولا سيما في اليمن ، كما انتشرت في وادى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث اقامت قبائلُ بني قريظة وبني قينقاع" (٢) وكان بعضُ هؤلاء من اصل يهودى ، والبعضُ الآخرُ من اهالي الجزيرة العربية ثم تهوّدوا ، دون ان يكونوا مزودين بمعلومات كافية عن التوحيد . (٣)

ومما يَظْهر لنا مما وقع تحت ايدينا عند المؤرخين ، ان اليهودَ يؤلفون عنصرا قويا من عناصر السكان في المدينة . ولقد تعاونت التجارة والربا على جعلهم من اصحاب الثراء الضخم . وهذا ما دعا الاوسُ والخزرجُ الى اقتراض المال منهم وهو ما عرف عندهم بالنسيء . (٤)

ولا شك انهم عملوا على نشر ديانتهم في الجزيرة العربية حتى تهوّدَ كثيرٌ من قبائل اليمن . وبذلك انتشرت ايضا تعاليمُ التوراة ، وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ، والبعث والحساب

١- انظر تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٥ ص٦١

٢- تاريخ الاسلام السياسي ص٧٥ - تاريخ الطبرى ج ٢ ص٢٩٧ وج ٣ ص٥٢

٣- انظر الاغاني ج ١٩ ص٩٤ - ٩٥

٤- تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ المفصل الاول ص٧ وما بعدها .

وفي هذه المناسبة راجت التفاسير للتوراة ، وما احاط بها من اساطير وخرافات ، ووضع الاحاديث المدسوسة كالتي رواها بطلا الوضع والتزوير : كعب الاحبار (١) ووهب بن منبه (٢) واضرابهما . اخذ هؤلاء يبثون في الدين الاسلامي اكاذيب وترهات ، يزعمون انها في كتابهم ، ويدّعون انها من احاديث النبي (ص) وهي في الحقيقة من مفترياتهم . حتى ان بعض الصحابة تلقوا كل ما القاه هؤلاء الدهاة من غير نقد اوتمحيص (٣)

والقرآنُ الكريمُ يشيرُ الى امثال هؤلاء في آياته المشرقة ، فيحذر المؤمنين :
" يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنِتّم ، قد بدت البغضاءُ من افواههم ، وما تخفي صدورهم اكبر ، قد بيّنا لكم الآيات ان كنتم تعقلون " (٤) فاللهُ تعالى يخاطبُ المسلمينَ لان يحذروا .

كعب الاحبار : هو كعب بن مانع الحميرى من آل ذى رعين ويكنى ابا اسحق من كبار احبار اليهود وقد عرف بكعب الاحبار . اسلم في عهد عمر ، ثم سكن المدينة في خلافته ثم تحول الى الشام في زمن عثمان فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه ، كما قال الذهبي في تذكرة الحفاظ :

انه قدم من اليمن في دولة امير المؤمنين عمر فاخذ عنه الصحابة وغيرهم وروى عنه جماعة من التابعين مرسلا . مات بحمص في سنة ٣٢ او ٣٣ او ٣٨ بعدما ملأ الشام وغيرها من البلاد الاسلامية ، برواياته وقصصه المستمدة من الاخبار اليهودية ، كما فعل تميم الدارمي في الاخبار النصرانية .

وهب بن منبّه : كان آباء وهب على دين الفرس (المجوسية او الزرادشتية) فلما اقاموا بين اليهود باليمن اخذوا عنهم تقاليدهم وقد ادرك الصحابة وروى عنهم . وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ : انه عالم اهل اليمن ولد سنة ٣٤ هـ وتوفي بصنعاء سنة ١١٠ هـ . ولما دخل الاسلام استطاع ان يخدع الكثير من المسلمين وروى عنه ابو هريرة وعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهم ...

١ـ ضحى الاسلام ج ٢ ص ٩٧ ـ الطبقات لابن سعد ص ٨٧ ـ الاصابة للعسقلاني ج ٥ ص ٣٢٣
٢ـ مقدمة فتح البارى ج ٢ ص ١٧١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ١٧١
٣ـ انظر تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ص ٦ وما بعدها ـ ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٣٩ ـ المقدمة لابن خلدون ص ٩ و ٤٣٩ و ٤٤٠ ـ معجم الادباء لياقوت ج ١٨ ص ٨
٤ـ آل عمران ١١٨

اهل الكتاب والمشركين ، فلا يتخذوهم بطانتهم وموضع اسرارهم ، لانهم لا يقصرون في الفساد والافساد ، أمثال ما ذكرنا من كعب الاحبار ، ثم يزيد :
وهم وان اظهروا المحبة والولاء ، فانهم يرغبون في ضرركم ومشقتكم ، وقد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم من العداء . واننا بينا لكم علامات العداء والولاء من اعدائكم واوليائكم ، فاحذروهم لعلكم تعقلون . لذلك :

أجلى عمر يهود خيبر الى اذرعات سنة ٢٠ هـ واجلى يهود نجران الى الكوفة ، وقسم وادي القرى ونجران بين المسلمين . (١)

وعند بزوغ فجر الاسلام ، أضرم في قلوب اليهود شرارة الحسد ، فاتصلوا بالمنافقين اتصالا سريا الى إنزال الاذى بالمسلمين حتى ايذاء الرسول نفسه . وقد جرت عدة معارك بين المسلمين وبين بني القينقاع . (٢) ثم بين المسلمين وبين قبيلة يهودية اخرى هم بني النضير . (٣) على الرغم من تعاهدها مع المسلمين ، الى ان أعلن الحرب ، فوقعت القبائل اليهودية المذكورة مع كفار قريش ضد المسلمين المؤمنين ، ودارت معركة الاحزاب التي اشترك فيها عمليا بنو قريظة في القتال . (٤) والى هذا يشير القرآن الكريم بقوله :
" وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا " (٥)

<u>النصرانيــــة</u> : كان لدخول اباطرة الدولة الرومانية بلاد العرب ، أثر كبير في انتشار المسيحية بين غسان وتغلب وقضاعة ... اذ كان للعلاقات الوثيقة بين العرب والبيزنطيين ان تأثر العرب بالمسيحية الى حد ما . (٦)

ومما يروي المؤرخون أن النصرانية قد " انقسمت الى فرقتين كبيرتين ، فكانت النسطورية في الحيرة ، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام . ومن اهم مواطن النصرانية في بلاد العرب : نجران وهي مدينة زراعية عامرة ، يصنع فيها الانسجة الحريرية التي تغنى بهـــا الشعراء " (٧)

واشهر من ظهر من نصارى نجران قبل الاسلام قس بن ساعدة ، صاحب الخطب المشهورة . (١)

١ــ البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٠٨ ــ ٢ــ تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧
٣ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ١٥ ــ
٤ــ المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢
٥ ــ الاحزاب ٢٦ ــ حياة محمد لهيكل ص ٢٣٦ ــ السيرة ج ٢ ص ٤٧ وما بعدها .
٦ــ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ٧٦
٧ــ تاريخ العرب السياسي حسن ابراهيم حسن ص ٧٦

وقد كان القُسسُ والرُهبانُ يردون اسواقَ العرب ويُبشّرون بالبعثِ والحساب والجنة والنار . وقد ورد الكثير من الآيات القرآنية التي تَدلُّ على انتشار تعاليمهم هذه بينَ العرب . ومما يلاحظ ان في شعر قس بن ساعدة ، وغيره من الشعراء كامية بن ابي الصلت (٢) وعدى بن زيد (٣) طابَعَ الدين والتزهُّدِ في الدنيا ، والنظرِ في الكون والاعتبار بحوادثه .

ومما يَدُلُّ ان العربَ قد تأثروا بمذاهب العبادة عند النصارى ، ما رواه الاغاني حيث قال : "أنَّ أميةَ بن ابي الصلت كان قد نظر في الكتب وقرأها ، ولَبسَ المسوحَ تَعَبُّدا . ويذكرون ان عدى بن زيد نَصحَ النعمانَ ملك الحيرة حتى حبَّبَ اليه النصرانيةَ ثم وضعَ تاجَه ، وخَلَعَ اطمارَه ، ولبس أمساحَه ، فلزما عبادةَ الله في الجبال حتى ماتَ النعمانُ "(٤)

---

١ ـ قس بن ساعدة : مولده مجهول ، وفاته قبيل البعثة . وقد ورد ان الرسول ادركه ورآه يخطب في سوق عكاظ خطبته الشهيرة المعروفة . وزعموا انه اتصل بالقيصر ووجد تكريما وتعظيما . وقد سأله القيصر عن العلم قائلا له : ما افضل العلم؟ قال : معرفة الرجل بنفسه . قال : فما افضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال فما افضل الادب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال فما افضل المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء في اخلاف وعده . قال فما افضل المال ؟ قال ما قضى به الحق . وهو أولُ من آمنَ بالبعثِ من اهلِ الجاهلية .

---

٢ ـ امية بن ابي الصلت : وهو مثل سائر المتألهين الاخرين من طبقة الحنفاء . وفي حديث قال عند الرسول (ص) : "آمن لسانه وكفر قلبه" صحيح مسلم كتاب الشعر ج ٧ ص ٤٧ وقال : اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : الا كل شيء ما خلا الله باطل . وقيل عن امية انه كان يطمع في النبوة فاطلع على كتب الدين القديمة الاسرائيلية والنصرانية . قادته ثقافته الى القول بالوحدانية فنبذ الاوثان ووصف الكمالات الالهية بلهجة المؤمن مشيدا بدين يسميه الحنيفة . ادرك امية الاسلام ولكنه لم يجار الرسول بل قاومه وحرّضَ القريشيين على محاربته .

---

٣ ـ عدى بن زيد ؟؟ ـ ٥٨٧ بن حماد بن تميم ، نزل قومه الحيرة فتحضروا ودانوا بالنصرانية تولى جده الكتابة للنعمان الاكبر على ما في الاغاني . وتولى والده زيد شؤون

---

٤ ـ مراجع قس بن ساعدة : بلوغ الارب للآلوسي ج ٢ ص ٢٤٦ ـ شعراء النصرانية ج ٢ ص ٢١١ البيان والتبيين ج ١ ص ٥٠ طبعه السندوبي ١٩٢٦

امية بن ابي الصلت : بلوغ الارب للالوسي ج ٢ ص ٢٥٣ ـ شعراء النصرانية شيخو ج ١ ص ٢٥٩

وعدى بن زيد شعراء النصرانية شيخو ج ١

٤ ـ الاغاني ج ١ ص ١٤٣

كما يروى ايضا ان يحيَ بن متى راويةَ الاعشى ـ وكان نصرانيا عباديا ـ قال : كان الاعشى قدريا وكان لبيدٌ مثبتا ، قال لبيد :

من هداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى　　ناعمَ البالِ ومن شاءَ أضل

وقال الاعشى : استأثر الله بالوفـــاء وبالعد　　ل وولى الملامة الرجـــلا ؟

قلت فمن اين اخذ الاعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العباديين ، نصارى الحيرة ،كان يأتيهم يشترى الخمر فيلقنوه ذلك (١)

ولا ننسى الدور الكبير الذى لعبه النساطرة في ترجمة الكتب اليونانية الفلسفيـــة منها واللاهوتية ، والعلوم الطبيعية ، والطب ، الى اللغة العربية . فقد كانوا صلةَ الوَصْـــل بين اليونان والعرب .

وبذلك نخلصُ الى القول ان اهلَ الكتاب : اليهودَ والنصارى كانوا بَرْزَخاً بين الوثنية والاسلام ، لانهم مهدوا له تمهيدا خيرا في نقل الناس من الرزوح تحت وطأة الماديـــــة، الى اطلالةٍ كريمةٍ نحو الروحانية والوحدانية . من هنا يجدر بنا ان نتعرف الحنيفية الحنيفيـــــــة : وهي نَزْعةٌ خيِّرةٌ قام بها اناسٌ مستنيرون ، نظروا الى حالتهم الدينيـــة السيئة ، فحاولوا الارتقاء من الوثنية الساذجة الى اعتقادات أرقى منها وابعد نظـــــرا . ومن اعمالهم المباركة نَبْذُهم لعبادة الاوثان والتخلّصُ عن عاداتِ الجاهلية ، كوأد البنات وشُربِ الخمرِ ولَعِبِ المَيْسر ... كما كانوا يعتقدون بوجود اله واحد يحاسب الناس ويجازيهم على اعمالهم من خير وشر　　وقد ورد عند الآلوسي قولَه عن الحنيفية : " فكانوا يعتقدون ان اللهَ تعالى واحدٌ لا شريكَ له ولا وزيرَ ولا مُعينَ ولا ظَهير . موصوفٌ بصفـــات الكمال من الحياة والقدرة والارادة والعلم والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات التـــي اثبتها لنفسه في كتبه " (٢)

هذه النزعةُ أُطْلِقَ عليها التَحَنُّفُ ، وعلى اصحابها الحنفاءُ ، او التائبون المعترفون نسبة الى حنيف . وقد ورد هذا اللفظ في سورة آل عمران قال تعالى : " وما كان ابراهيـــم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين " (٣) وقال عز وجل (٤) " فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال : هذا ربي فلما أفل قال : لا احب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضاليـــــــن .

شؤون البريد عند كسرى الاول انو شروان حتى استلم شؤون الحيرة مدة . نشأ عدى في الحيرة فتعلم العربية والفارسية ثم اتصل بهرمز الرابع (٥٧٩ ـ ٥٩٠) فتولى الكتابة في ديوانه وقد تأثر بالثقافة الفارسية . (انظر بلوغ الارب للآلوسي ٢ ص ٢٦٢) وشعراء النصرانية عن مجاني شيخو ج ١ ص ٢٤٩

---

١ ـ الاغاني ج ٨ ص ٧٩　　٢ ـ انظر بلوغ الارب للآلوسي ج ٢ ص ١٩٤

٣ ـ آل عمران : (٣ ـ ٦٧)

٤ ـ الانعام : (٦ ـ ٧٦ ـ ٧٩)

فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال : يا قوم اني برئ مما تشركون اني وجهت وجهي للذى فطر السماوات والارض حنيفا مسلما وما انا من المشركين " واذا اردنا تسجيل كل الايات التي وردت فيها كلمة احناف او مشتقاتها لطال بنا المجال ، ولكننا نكتفي بذكر ارقامها فقط : (البقرة الآية ١٣٥ - آل عمران الآية ٦٧ - النساء الآية ١٢٥ - الانعام الآية ٧٩ و ١٦١ - يونس الآية ١٠٥ - النحل الآية ١٢٠ و ١٢٣ - الروم الآية ٣٠ - الحج الآية ٣١ البينة الآية ٥)

بعد مطالعتنا لهذه الآيات الكريمة نرى ان كلمة "الاحناف" لا تعني جماعة معينة او دينا خاصا على نحو ما يفهم من اليهودية او النصرانية او الاسلام ، انما هي صفة اطلقت على من عُرِفَ بنبذه الشركَ وبميله الى التوحيد ، وكما هو معناه لُغَويا : المعرض عن قول الحق . ولنا في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي شاهد يذكينا . يقول جواد علي : ويقصد بالمسلمين الحنفاء من كانوا على دين ابراهيم من الجاهليين ، فلم يشركوا بربهم احدا ، ولم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، ولم يقبلوا بعبادة الاصنام دينا ، بل سفهوا تلك العبادة وسفهوا راى القائلين بها " (١)

ومن هؤلاء الحنفاء المشهورين : قُسّ بن ساعدة الايادي الذى وردت ترجمه موجزة عنه وصاحب الخطب المشهورة . وأمية بن ابي الصلت الذى كان يأمل ان يكونَ النبيَّ المنتظر وقد بان كذبُه وحقدُه عندما بُعِثَ الرسولُ (محمد) صلى الله عليه وسلم . (٢)

وورقة بن نوفل : واليه نسب شعر فيه اشارة الى النار والى الثواب والعقاب بعد الموت ، والى فكرة التوحيد والايمان برب ليس كمثله والى التنديد بالاوثان . (٣) وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج الرسول (ص) على ما ورد في بعض الروايات (٤) وعدى بن زيد العبادى الذى سبقت ترجمته . والمتلمس بن امية الكناني (٥) "واسمه جدير بن عبد المسيح الضبعي اتصل بعمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ - ٥٧٠) . فاقام يمدحه وابن اخته طرفة بن العبد . وكان للتشرد عن الوطن أثر في عاطفة المتلمس الفياضة في شعره " . وزهير بن ابي سلمى الشاعر المعروف صاحب الحكم الذى قال عنه ابن قتيبة "وكان زهير يتأله ويتعفف في شعره . ويدل شعره على ايمانه بالبعث وذلك قوله : يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتاب فيُدَّخَرْ ليوم الحساب او يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ (٦)

ويبقى على رأس هؤلاء الحنفاء قُسّ بن ساعدة الذى يُقال ان النبي سَمِعَهُ يخطب بسوق عكاظ على جمل له يحث العرب على تَرْكِ العادات المرذولة ، ويبشرهم بالبعث كما يقال انه قال فيه الرسول : "يَرْحَم الله قسا ! اني لارجو ان يُبْعَثَ يومَ القيامة أمةً واحدةً" (٧)

١- تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ص ٢٨٩ ٢- انظر طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٧٦
٣- السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٥٠
٤- المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٤
٥- مجاني الادب شيخو ج ١ ص ١٨٥
٦- شرح ديوان زهير ص ١٤ المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٤ م

في هذا الوسط الذى وصفنا كانت ولادةُ الرسولِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم

الفصل الثانـــــــي

ولادة الرســـــول (ص) :

اسرتــــه : تخلّفَ عبدُ مُناف باربعة اولاد هم : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل . وهم اشرف واعظام من في قومهم . (١)

اما هاشم فكان كبيرَ قومه وكان ذا يسار ، تولى السِقايةَ والرِفادَةَ في الكعبة ، وقد دعا قومَه الى ان يُخْرِجَ كلٌّ منهم من ماله ما ينفقه على في اطعام الحاج اثناء الموسم . (٢) ومما يروى عن هاشم انه كان كريماً باراً ، وبالاضافة الى ما وصفنا من قيامه على أُمور الكعبة ، كانــــت امواله نِهاباً لجميع قاصديه ، فازدهرت مكةُ على عهده ، خاصةً بعد ان عقد معاهداتِ حسنِ الجوار مع الامبراطورية الرومانية . عندما "اخذت قريش تجوب البلادَ الى الشام واليمـــن آمنةً مطمئنةً " . (٣)

وقد ظَلَّ هاشم تتقدم به السن ، وتتقدّم مكانَتُه على رياسة مكة ، الى ان مات بعد قليل من زواجه ، تاركا طفلاً سمته أُمهُ " شيبة " ثم اتى به عمه طالب من عند امه بعد موت ابيه وسماه بعبد المطلب . وكان ذا شَرفٍ في القوم وفَضْلٍ . (٤) يقول الطبرى عن عبد المطلب : " فقام عبدُ المطلب في مَنْصِبِ هاشم له السقايةُ والرفادةُ وقد كَلّفه ذلك كبيرَ مشقةٍ " (٥) ولا يخفى ما لهذين المنصبين من وجاهةٍ وتقديرٍ في ذلك العهد .

ومن عبد المطلب حامي مكة ، وسيدِ قريش والمعروفِ بالمكارمِ والوجاهةِ والفضلِ ، كان عبدُ الله (٦) والد النبي (محمد) (ص) ، ومما يروى عنه : "كان عبدُ الله فتى وسيماً محبباً للناس وكانت أُوانسُ مكة معجباتٍ به ، وقد زاد اعجابُهُنَّ به عند انتشار حديث الفداء ، والمائة من الابل التي لم يَرْضَ هُبَلُ بما دُونها فِداءً له " (٧)

وتتلخص قصة الفداء بما يلي :

عندما احس عبدُ المطلب قلّةَ حَوْلِهِ بين قومه لقلةِ اولادِه ، نذرَ ان رُزِقَ عشرةُ بنين لينحَرَنَّ احدَهُم لله عند الكعبة . وقد كان له ما اراد من زينةِ الحياة الدنيا ، فدعا اولادَه الى الوفاء بنَذْرِه ، فاطاعوا . ولمعرفة من تقع عليه القرعة ، ويكون الضحية ، كتب كلٌّ واحدٍ منهم اسمَهُ على قَدَحٍ ، على عادة العرب في ذلك العهد ، وذهب بها عبد المطلب الى صاحب القداح عند هبل في جوف الكعبة . وكان عبدُ الله اصغرَ اخوته واحبّهم الى والده . فلما ضرب صاحبُ

١ـ السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٠٦
٢ـ الطبرى ج ٢ ص ١٧٩
٣ـ حياة محمد لهيكل ص ٥٨ـ ٥٩
٤ـ المصدر نفسه ج ١ ص ١٣٧
٥ـ المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٦
٦ـ الطبرى ج ٢ ص ٢١٣ والكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٣٧
٧ـ الطبقات لابن سعد ج ١ ص ٨٨
شرح نهج البلاغة لابن ابي حديد ج ١ ص ٨٨

القِداح ، خرج قدحُ عبدِ الله . وما كان من عبد المطلب ، الا ان اخذ ابنَهُ عبدَ الله من يدِهِ ، وذهب به لِيَنْحَرَهُ حيث كانت تنحرُ العربُ ، (بين إساف ونائلة عند زمزم) (١)

عندها قامت قريش كلُّها تعيبُ بعبد المطلب الا يفعل . وكانت النتيجةُ التي افتى بها العرَّافةُ ، في نهاية الامر ، فِدْيةَ عبدِ الله بعشرةٍ من الابلِ ، ثم تُضْرَبُ قِداحُ الابلِ وقداحُ عبدِ الله ، ثم زيدت الابلُ مرةً بعد مرةٍ حتى اصبحت مائة ، وعندها خرجت القداحُ على الابل ، فرضي هُبَلُ ، وبالتالي رضي عبدُ المطلب (٢) .

هذه قصة عبد الله الذي اعدَّهُ القدرُ لأكرمِ أُبُوَّةٍ عرفها التاريخ ، كما اعدَّ آمنةَ بنت وهب لتكون زوجةً لعبد المطلب وأُماً كريمةً لخاتم النبيين والرسل .

زواجُ عبدِ الله من آمنة :

بعد ان اطمأنَّ عبدُ المطلب في سِنِّهِ ، رأى ان يُزَوِّجَ عبدَ الله فاختار له آمنةَ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، سيد قبيلته سنا وشرفا . (٣) كما يذهب بعض المؤرخين الى ان عبدَ المطلب قد طلبَ آمنةَ من عمها أُهيب . اذ كانت في كفالته لان اباها كان قد مات .

وبعد الزواج الذي تمَّ في بيت العروس على عادة العرب آنذاك ، انتقل عبدُ الله وآمنة الى منازل عبد المطلب ، لكنه لم يقم معها طويلا لخروجه في تجارة الى الشام ، فتركها حاملا .

الوفاة : وبعد رحلته تلك عرَّجَ على اخواله بالمدينة ليستريحَ عندهم من عناء السفر الشاق . لكنه مرض عندهم مرضا شديدا ، وكان قد تركه رفاقُهُ مخبرين والدَه بمرض ابنه الغالي على قلبه . فما كان من عبد المطلب الا ان يُرْسِلَ بابنه الحارث ، ليعودَ مع اخيه عبد الله ، بعد إبلاله . ولما وصلَ المدينةَ عَلِمَ الحارثُ ان عبدَ الله قد مات ، ودفنه اخوالُه ، فرجع الى اهله ينعاهم خبرَ الوفاة الذي اثار الهمَّ والشجنَ في قلب الوالدين عبد المطلب وآمنة (٤)

ترك عبدُ الله ثروةً بسيطةً من الابل والغنم ، لا تدل على ثراء ، علما ان اباه كان ما يزال حيا ، وبذلك لا يحق له شيء من ميراثه (٥) .

والامر الغريب الذي خطه القدرُ في أُسرة محمد ، هو اليتم عند آبائه وأجداده جميعا . من قُصَيّ الى عبدِ مناف والى هاشم الى عبد المطلب ، الى عبد الله ، فكل واحد منهم ذاقَ مرارةَ يُتْمِ الاب وقساوةَ الحرمان .

١ـ انظر الاصنام لابن الكلبي ص ٢٩   ٢ـ انظر تفاصيل القصة في السيرة ج ١ ص ١٥٣

٣ ـ السيرة ج ١ ص ١٥٦

٤ ـ انظر تفاصيل القصة في السيرة ج ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٨ والطبري ج ٢ ص ٢١٣ وحياة محمد لهيكل ص ٦٨

٥ـ انظر تفاصيل ذلك في السيرة ج ١ ص ١٥٨ وتاريخ الاسلام السياسي ص ٧٩ والطبري ج ٢ ص ١٧٢ .

./.

ولادة محمد (ص)

بعد اشهر من الحمل بعد وفاة عبد الله ، وضعت آمنة كما تضع كل انثى ، وقد زفت الخبر الى عبد المطلب ، الجد الشيخ ، فأنعم قلبه بالغبطة والسرور ، واسرع الى الطفل ، فاخذه بين يديه ، ودخل به الكعبة . وسماه محمداً ثم رده الى امه ينتظر المراضع من بني سعد ، على عادة العرب الاشراف من اهل مكة .

وقد اختلف المؤرخون على العام واليوم لولادة محمد ، ولكن الاكثرية منهم رجحوا ان ولادته تمت يوم الاثنين ٥٧٠ م ، اى عام الفيل بمكة ، بدار جده عبد المطلب . (١)

رضاعـــــه : كان من عادة اشراف العرب ان يدفعوا باطفالهم الى مراضع ، يشرفن على تربيته في البادية بضع سنين . وكان من القبائل التي لها شهرة في المراضع قبيلة بني سعد . فدفعت آمنة بولدها محمد الى ثويبة ، جارية عمه ابي لهب ، فارضعته زمناً يسيراً . (٢)

ورد في السيرة ، ان جاء مراضع بني سعد الى مكة يلتمسن رضاعة الاطفال ، وكن يعرضن عن اليتامى ، لانهن كن يرتجين البر من الاباء . لذلك لم تقبل واحدة منهن على محمد اليتيم .

حليمة السعدية : وحليمة بنت ابي ذؤيب السعدية ، التي اعرضت عن محمد اول الامر ، كانت ضعيفة الحال ، فلم تجد من يدفع اليها طفلها ، فكرهت دون ان تاخذ رضيعا معها ، واخيرا اخذت حليمة محمداً الى البادية . ونزل محمد بيت حليمة ونزلت معه البركة ، فسمنت غنمها وزاد لبنها .

وبقي محمد سنتين في الصحراء ترضعه حليمة ، وتشرف على تربيته ، الى ان حان فصاله ، فعادت به حليمة الى امه في مكة ، واخبرتها ما رات من بركته ، فردته معها واقام حتى الخامسة من عمره . (٣)

كفالة جده عبد المطلب : كان عبد المطلب الجد البار ، الذى رعى حفيده ، بكل عطف وحنان حتى انه فضله على بنيه ، فلايتركه ليغيب عنه ، لا قليـــلا ولا كثيرا ، يلاحظه في النهار وفي الليل ، ويتعقب اخباره بدقة وحذر . (٤)

١ـ السيرة ج ١ ص ١٥٨ ـ وتاريخ الاسلام السياسي ص ٧٩ ـ واعيان الشيعة ج ٢ ص ٤

٢ـ انظر السيرة ج ١ ص ١٦٠ ـ وحياة محمد لهيكل ص ٧١

٣ـ انظر السيرة ج ١ ص ١٦ ـ المصدر نفسه ـ تاريخ الاسلام السياسي ص ٧١

٤ـ الطبرى ج ٢ ص ١٧٦

والذى زاد في إعزاز جده له هو موت امه ايضا حيث اصبح محمد يتيمَ الاب والام .

موت آمنـــة :

خرجت آمنة الى المدينة مع ابنها ، حيث يقطن اخواله واخذت معها ام ايمن ، الجاريـــة التي خلفها عبدُ الله . وهناك أرت الغلامَ المنزلَ الذى مات ابوه فيه ، والمكانَ الذى دُفِنَ بـــه . ولا يخفى ان الام حدثت ابنها عن ابيه المحبوب وعن موته العاجل .

وبعد هذه الاقامة في المدينة عادت الام مع وحيدها الى مكة ، وفي الطريق مرضت آمنـــة ، وماتت بالابواء (١) ودفنت بها .

وعادت الجارية ام ايمن بالطفل الى مكة ، بعد ان حَرَمَهُ الموتُ من صدرٍ يحن اليه ، وقلـــبٍ يعطف عليه . فهو لم ينسَ مرارةَ حرمان ابيه بعده ، وها هو قد رأى بعينه موتَ امه التي تركته وهـــو لم يزل طريَّ العود ، يَحمِلُ همَّ اليتمِ المريرِ (٢) .

موت عبد المطلب :

كان لذكرى اليتم وَقعٌ أليم في نفس محمد (ص) حتى وردت في القرآن الكريم ، اذ ذكـــره الله بالنعمة عليه فقال : " ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالا فهدى " (٣) ولكن الذى يزيد فـــي هموم محمد ، ويدمي قَلْبَهُ لموت جده اكثر من حزنه لموت امه . ويروى انه كان دائم البكاء ، وهو يمشي خلف النعش الى مقره الاخير ، كما كان دائمَ الذكرِ له ، مع ما لقيَ من عطفٍ ورعايةِ عَمِّهِ أبـــي طالب (٤) .

والحقيقةُ ان موت عبد المطلب كان ضربةً قاسية ، ليس على محمد فقط ، وانما على قريش جميعا " فهو الكريمُ والشجاعُ ، وهو الذى يطعم الحاجَ ويسقيهم جميعا ، فيبرُّ اهلَ مكة اذا اصابهم غيـــمٌ او مكروه ، ولم يكن احد ليخلفه من ابنائه ، فقيرُهم عاجز وغنيُّهم حريص " (٥) .

في كفالة عمه ابو طالب :

كان الحارثُ اكبرَ ابناء عبد المطلب ولكنه لم يكن ذا يسار اما العباسُ فكان اكثرَهم مالا واقلَّهم نفقةً ، اما ابو طالب فعلى فقره كان أنبلَهُم واكرمَهُم ، واحظاهم بالاحترام في قريش جميعا . فلا عجَـــبَ اذن ان عَهِدَ اليه عبدُ المطلب بكفالة محمدٍ من بعده . وقد تحوَّلَ حبُّ جدِهِ له الى قلب عمه ابي طالب الذى كان يقدِّمه على ابنائه ، لما وَجَدَ فيه من الذكاء وطيبِ النفس وسموِّ الاخلاق ، فازدادَ تعلقا به .

---

(١) قرية بينها وبين المدينة ٢٣ ميلا (انظر السيرة ج ١ ص ١٦٨
(٢) حياة محمد لهيكل ص ٧٥
(٣) الضحى الاية ٦
(٤) السيرة ج ١ ص ١٦٩
(٥) انظر الطبرى ج ٢ ص ١٧٦

فكان يصاحبه معه دائما في رحلاته وفي اقامته، خوفاً عليه ورعايةً له . " واقام ابو طالب بمكة يكفلُ بماله القليل اولاده الكثيرين . واقام محمدٌ (ص) مع عمه قانعاً بنصيبه " (١)

حَرْبُ الفجـــار :

روى انها سميت بالفجار لانها وقعت في الاشهر الحرم اذ تمتنع قبائلُ العرب عن القتال . والفجار معنى المفاجرة حتى دخلت قريش الحرم ، (٢) وقد حدثت بين هوازن وقريش فاقتتلوا اربعَ سنوات تباعا ، حتى انتهت بعدها الى صلح من نوع صلح البادية (٣) .

وقد حضر الرسولُ الحَرْبَ وهو صغير: جاء في السيرة لابن هشام: " وشَهِدَ رسولُ الله (ص) بعضَ ايامهم اخرجه اعمامُهُ معهم ، وقال رسولُ الله (ص) كنتُ انبّلُ على اعمامي : اى اردُّ عليهم نبلَ عدوِّهم اذا رموهم بها " (٤) .

حِلْفُ الفضـــول :

في الجاهلية الغافلة ، نهَضَ بعضُ رجال من اولى الخيره وتواثقوا بينهم على اقرار العدالة ، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في ارض الحرم ، فكأن قريشاً شعرت بعد حرب الفجار ، ما اصابها بعد موت هاشم وعبد المطلب من تفرق الكلمة ، مما اطمع فيها العرب .

وقد روى عن هذه الحرب ابنُ سعد في الطبقات فقال : " .. ثم ان قبائلَ من قريش تداعت الى ذلك الحلف ، فتحالفوا وتعاقدوا في دار عبد الله بن جدعان ، لشرفه وسنه ، وكانوا بني هاشم وبني عبد المطلب وبني اسد وبني عبد العزى وزهره بن كلاب ، وتيم بن مرة . فتحالفوا وتعاقدوا الا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها او من غيرهم من سائر الناس ، الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد مظلمته " انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٢٨

فسمت قريشٌ ذلك الحلف حلفَ الفضول ، وشهده رسولُ الله وهو ابن عشرين سنة . قال رسولُ الله (ص) : " لقد شهدتُ مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ، ما احب ان لي به حُمْرَ النِعَم ولو دعيتُ به في الاسلام لاجبت " رواه ابن اسحق في السيرة ج ١ ص ٩٢ اخرجه الامام احمد تحت رقم ١٦٥٥ — ١٦٧٦ .

---

(١) انظر التفاصيل في السيرة ج ١ ص ١٧٩ وحياة محمد لهيكل ص ٧٥
(٢) انظر السيرة ج ١ ص ١٨٤ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٢٨
(٣) ذلك بان يدفع من كانوا اقل قتلى دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الاخر السيرة ج ١ ص ١٨٦ والعقد الفريد ج ٣ ص ٣٦٨
(٤) المرجع نفسه = = =

التجارة مع خديجـــة : ورد عند اكثر المؤرخين ما خلاصته : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وقد بلغها عن أمانة محمد واخلاصه وكرم اخلاقه ، فارسلت اليه ليخرج الى الشام تاجرا ، وتعطيه كما تعطي غيره ، ومعه غلامها ميسرة . وقد قبل محمد ورحل الى الشام ، ويظهر ان الحظ حالفـــه ، فسرت خديجة بهذا الخبر الذى احرزته ، ولكن إعجابها بالرجل الذى اختبرتـــه كان اعمقَ . وكانت خديجة امرأة عريقة النسب ، ممدودة الثروة ، ومثلها مطمع لسـادة قريش ، لكن ابصار طلابها كانت ترنو اليها بغية الافادة من ثرائها ، لكنهـــا عندما عرفت محمدا ، وجدت فيه رجلا لا تستهويه ولا تدنيه حاجة ، رجلا تأبـــى كرامته الفارعة ، الا ان تقف موقف النبل . لقد وجدت في محمد ضالتَها المنشـــودة .(١)

زواج محمد من خديجـــة :

يذكر المؤرخون ان خديجة رغبت في الزواج من محمد ، فحدَّثت بما في نفسهـــا الى صديقتها نفيسة بنت مُنيَّة . فذهبت هذه الى محمد تُفاتِحُه ان يتزوج من خديجـــة ، فاعلن قَبولَه وكلَّم اعمامه في ذلك . فذهب ابو طالب وحمزة وغيرهما الى عم خديجـــة ، عمرو بن اسد ، اذ ان اباها مات في حرب الفجار ، فخطبوا اليه ابنة اخيه وساقوا اليها الصداق عشرين بكرة .

وخطب عمه ابو طالب في حفل الزواج قائلا: "ان محمدا لا يُوزَنُ به فتى من قريش الا رَجَحَ به شرفا ونُبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قِلاًّ ، فانما المالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مُسترجعةٌ ..." (٢)

وهنا تبدأ صفحةٌ جديدةٌ من حياة محمد (ص) حياة الزوجية والأبوّة . حيـاةُ الزوجية السعيدة الموفقة ، وحياة الابوة التي ذاقت الالام لفقد الابناء . ولا شك ان هذا البيتَ الجديدَ قد اصْطبَغَ بروحِ ربِّ البيتِ ، روحُ التطهُّرِ من ادرانِ الجاهليـةِ ، والترفع عن عبادة الاوثان .

حياته في قومـــه :

تَكفَّلَتْ عنايةُ الله بتربيةِ محمد (ص) فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوسُ من جميلِ الصفاتِ وحميدِ الخِصالِ .

---

١ ـ انظر تفاصيل ذلك في السيرة ج ١ ص ١٨٧ ـ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٦ وج ٢ ص ١٧٥ وحياة محمد لهيكل ص ٨٣ ـ واعيان الشيعة ج ٢ ص ٨

٢ ـ انظر التفاصيل في السيرة ج ١ صفحة ١٨٩ ـ تاريخ الاسلام السياسي ص ٨٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٧٧

وقد وَرَدَ وَصْفُ جانبٍ من صفاته في تاريخ الاسلام السياسي ، جاء فيه :
"وكان الرسولُ على جانبٍ عظيمٍ من حُسْنِ الخُلُقِ ، واشتهر بين قومه بالمروءة والوفاء بالعهد ، وحسن الجوار والحلم ، والعفة والتواضع والجود ، والشجاعة والصدق ، والامانة حتى سَمَّوه الامينَ . وكان يكرهُ عبادةَ الاوثان ، فلم يحضر مواسم الحج ، وكان لا يشرب الخمرَ ولا يأكل مما يُذبَحُ على النُصُب ، ولا يحضر مَجالِسَ اللهو والسَمَر " (١)

لم يكن لمحمد مُؤدِّبٌ معروفٌ يتولى تَهذيبَهُ الا سلامةُ الفِطْرةِ ، وسُمُو الغريزةِ وطهارةِ العقيدةِ ، والاعتصام بالفضيلةِ . ولا عَجَبَ فقد حدَّث عن نفسه : "أدَّبني ربي فاحسن تأديبي ." (انظر محمد المثل الكامل وادب الحديث النبوى)

كما لا نستطيع نحن البشر ، عبادُ الله ، ان نزيدَ صفةً على ما وصفه به الله تعالى في كتابه الكريم : "وانك لعلى خلق عظيم " (القلم الآية ٤) اما عن معاملته ومكانته بينهم ، فنستطيع ان نردد ما قاله المؤرخون ، ان الجميع كانوا ينظرون اليه نظرةَ غِبْطةٍ وإكبار . قال هيكل في كتابه حياة محمد : "فلقد كان (ص) على عظيم ذكائه وظاهر تفوقه ، حسن الاصغاء الى محدثه ، قليل الكلام كثيرَ الانصات ، ميالا للجد من القول ." ثم يزيد : ويقول : "وكان يَكْظُمُ غيظَهُ ولا يُريدُ ان يُظْهِرَ غضبَهُ لما جُبِلَ عليه من سِعَةِ الصدرِ ، وصدق المهمة والوفاء للناس ، ومن البِرِّ والجودِ وكرمِ العشرةِ . الى جانبِ ذلك من مضاء التصميم ، مضاء لا يعرفُ التردُّدَ . وهذه الصفات مجتمعةٌ فيه تجعلُ من رآه هابَهُ ، ومن خالطه أحبَّهُ" (٢)

الفصل الثالث

البعث

التَحَنُّثُ في غار حِراء :

معنى التحنث كما يقول العرب : "التحنث والتحنف يريدون الحنفية فيبدلون الفاء من الثاء " (٣) وحراء تقع على "فرسخين من شمال مكة (٤) .
أخذ عُمْرُ محمد (ص) يَصْعَدُ نَحوَ الاربعين ، وكانت تأمُّلاتُه قد وسَّعَت الشُّقَّةَ بينه وبين قومه ، فامست نظرتُه اليهم نظرةَ عالم الفلك — في عصرنا الحاضر — الى جماعة يؤمنون بان الارضَ ، محمولةٌ على قرن ثور ، او نظرةَ عالمِ الذرةِ الى جماعة يتراشقون بالحجارة اذا تحاربوا ، ويتنقلون بالمطايا اذا سافروا ...

---

١ ــ النصب حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبائح وتعبد . تاريخ الاسلام السياسي ص ٨١ وحياة محمد لهيكل ص ٨٦ .
٢ ــ الطبري ج ٣ ص ١٨٥ ــ أعيان الشيعة ج ٢ ص ١٧ وحياة محمد لهيكل ص ٨٦ .
٣ ــ السيرة ج ١ ص ٢٣٥ ٤ ــ الازرقي ج ١ ص ٢٦ وحياة محمد ص ٩٢ .

اما من الناحية النفسية فان الالحادَ الذى شاع في الجاهلية ، وغزا نفوسَ الاخيار بالقلق البالغ ، فالى اينَ تصيرُ هذه القافلةُ الحائرةُ ؟

كان محمد (ص) يهجرُ مكةَ كلَّ عام ليقضي شهرا في غارِ حراء • وهو غارٌ على بضعةِ اميالٍ من القرية الصاخبة ، في رأسِ جبلٍ من الجبالِ المشرفة على مكة ، حيث ينقطعَ هناكَ لغوُ الناسِ ، ويبدأُ السكونُ الشاملُ المستغرقُ • (١) في ذلك المكانِ البعيدِ المنزوى كان محمد (ص) يأخذُ زادَ الليالي الطوال ثم ينقطعُ عن العالمين ، متجها بفؤاده المشوق الى رب العالمين • في غار حراء ، كان محمد (ص) يتعبد ويصقل قلبه ، وينقي روحه ، ويقترب من الحق جَهْدَهُ ، ويبتعد عن الباطل وُسْعَهُ • حتى وصل من الصفاء الى مرتبةٍ عاليةٍ جدا ، انعكست فيها اشعةُ الغيوبِ على صفحته المجلوة ، فامسى لا يرى رؤيا الا جاءت كفلق الصبح •

نزول الوحي القرآني :

جاء في السيرة لابن هشام عن الوحي : "حتى اذا كانت الليلةُ التي اكرمَه الله فيها برسالته ، ورَحِمَ بها العِبادَ ، جاءه جبريلُ عليه السلام بأمْرٍ من الله تعالى قائلا : إقرأ ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما انا بقارئ • فَضَمَّهُ وقال له في الثالثة : "اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسانَ من عَلَق اقرأ وَربُّكَ الاكرمُ الذى علَّم بالقلم علَّم الانسانَ ما لم يَعْلَمْ " (٢) فكانت هذه الآياتُ اولَ ما نزل من القرآن الكريم •

محمد رسول الله (ص) يقص على خديجة ما كان من امر جبريل معه : جاء في السيرة :

" وانصرَفتُ راجعا الى أَهْلي حتى اتيتُ خديجةَ فجلسْتُ الى فخذها مُضيفاً اليها (٣) • ثم حدَّثها بالذى راى فقالت : ابشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، اني لارجو ان تكون نبيَّ هذه الامة •" (السيرة ج ١ ص ٢٣٨) ويروى انه سمع (ص) صوتا من السماء ، فرفع اليه بصره ، فاذا الملك الذى جاءه اولا بين السماء والارض فرجع الى داره وقال : دثِّروني ، دثِّروني ! فنزل قوله تعالى : " يا ايها المدثِّر قُمْ فانذِرْ ، وربَّكَ فكبِّرْ ، وثيابَك فطهِّر ، والرُّجْزَ فاهجُرْ ، ولا تَمْنُنْ تستَكْثِر ، ولربِّك فاصْبِرْ " (٤)

١ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي ص ٨٢

٢ـ سورة العلق الاية (١ ـ ٥) وانظر عن تفاصيل الوحي القرآني تاريخ الطبرى ج ٢ص ٢٠٣

٣ـ السيرة ج ١ ص ٢٣٧ يقال اضفت الى الرجل اذا ملت نحوه ولصقت به ، ومنه سمي الضيف ضيفا •

٤ ـ المدثر (ـ ٧)

وهذا هو بدء دعوته صلى الله عليه وسلم . كانت هذه الاوامر المتتابعة القاطعة ايذانا للرسول (ص) بان الماضي قد انتهى بمنامه ، وانه امام عمل جديد ، يستدعي اليقظة ، والجهادَ والانذارَ والاعذارَ ، فَلْيَحْمِلْ الرسالةَ وليوجِّه الناسَ . وليأنسْ بالوحي . فانه مصدرُ رسالتهِ ومَددُ دَعْوتِه .

مرحلة انذار قومه :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت الاية " وانذر عشيرتك الاقربين " صعد النبي على الصفا فجعل ينادى : يا فهر يا بني عدي ، لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الذى لم يستطع ان يخرج ، يُرْسِلُ رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء ابو لهب وقريش ، فقال النبي : أرأيتكم لو اخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم ا أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدى عذاب شديد ؟ ! فقال ابو لهب : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قولُهُ تعالى : " تَبَّتْ يدا ابي لَهَبٍ وَتَبَّ " (١) .

هذه الصيحةُ العاليةُ هي صوتُ الحقِ ، وهي غايةُ البلاغ . فقد انذرَ الرسولُ (ص) قومَه واوضحَ لاقرب الناس اليه ، ان التصديقَ بهذه الرسالة هو حياةُ الصلة بينه وبينهم ، وان عصبيةُ القرابةِ التي كان يحتقدها العربُ ، قد ذابت في حرارة هذا الانذار الاتي من الله . الواحدُ الاحدُ ، الفردُ الصَمَدُ الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءا احد " من سورة الاخلاص .

رفض قريش لدعوته :

لقد كان محمد كبيرَ المنزلةِ في بَلَدِه ، مرموقا بالثقة والمحبة ، وها هو يواجه بما تكره ، ويتعرض لخصام السفهاء ، وَأَوّلُ قومٍ يُغَامِرُ بخسران مَوَدَّتهم (٢) . هم عشيرتُه الاقربون .

استشرى الامرُ بين رسول الله (ص) وبين قريش حتى تباعدوا وتضاغنوا ، ثم مشوا الى ابي طالب فقالوا له : " ان لك سنا وشرفا ومنزلةً فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن اخيك ، فلم تَنْهَهُ عنا ، وانا والله لا نَصْبِرُ على هذا من شَتْم ابائنا ، وتَسْفيه أَحْلامنا ، وعَيْبِ آلهتنا حتى تَكُفه عنا ، او نُنَازِلَهُ واياك في ذلك ، حتى يَهْلَكَ أَحَدُ الفريقين " (٣)

١ـ اخرج الحديث البخارى ٨/ ٤٠٦ ومسلم ١/ ١٣٤ هـ وقد ورد نفس الحديث عند الطبرى كما ورد الحديث في تاريخ الطبرى ... عن عبد الله بن عباس عن علي بن ابي طالب

٢ـ انظر تفاصيل ذلك في اعيان الشيعة ج ٢ س ٣٩ ـ ٤٠

٣ـ السيرة ج ١ ص ٢٦٥

ولما استمر محمد في دعوته ، ورفض ابو طالب خذلانَهُ ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : هذا عمارةُ ابن الوليد انهدُ (١) فتى في قريش واجمله ، فخذه فلك عقلُه ونصرُه ، واتخذه ولدا فهو لك ، واسلم الينا ابنَ اخيك هذا يعني (محمد) الذى قد خَالفَ دينَكَ ودينَ آبائك ، وسَفَّه احلامهم فنقتله ، فانما هو رجل برجل . فقال : " والله لبئسما تسومونني (تكلونني) اتعطوني ابنكم اغذوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونه " (٢)

اعلان الدعوة العامة :

ان الدعوةَ التي بدأ بها محمد (ص) من بطن مكة ، لم تكن لبناء وطن صغير ، ولا لجيل مُعيَّنٍ ، وانما هي دعوةُ اجيالٍ وامم ، تظل تتوارثُ الحقَّ ، وتَدفعُ به في رحاب الارض لكافة الناس اجمعين .

والذى اثارَ عداوةَ قريش للنبي (ص) وهيَّجَ الحقدَ في قلوبها عليه ، لان الرسولَ لم يَقصُرْ كلامَه ، على تطهير النفس واصلاح الاخلاق ، بل جاهرَ بدعوته العامة الى وحدانية الله ، والغضِّ من شأن الاوثان . لقد ايقنوا ان انتصارَ الدين الجديد ، معناهُ تحطيمُ دينِ الآباءِ والاجدادِ الموروث ، والعبادةِ القوميةِ من جهة ومن جهة اخرى ضَياعُ ما كان يَتمتَّعُ به سَدَنَةُ الكعبةِ المقدسةِ ، من ثروةٍ ماديَّةٍ ونفوذٍ معنوى . (٣)

لذلك كنا نرى قُريشاً تؤذى اتباعَ محمد (ص) لتَفْتِنَهم عن دينهم . قال ابن الاثير : " ان مشركي قريش ، كانوا يخرجون عمار ابن ياسر واباه وامَه الى الابطح ، اذا حميت الرمضاءُ ، ويعذبونهم بحرِّها ، فيمر بهم الرسولُ فيقول : " صبرا يا آل ياسر مَوْعِدُكم الجنةُ " ثم يزيد : وكان ابو جهل اذا سمع باسلام رجل من ذوى الشرف أنَّبَهُ وقال : " تركتَ دينَ ابيك وهو خيرٌ منك . لِنُسفِّهَنَّ حُلمَكَ ولنفيلَنَّ رأيك (٤) وان كان تاجرا قال له : " لنُكسِدَنَّ تجارتَك ، وان كان ضعيفا ضَرَبَه ... (٥) .

ولكن ما ابو جهل وما ابولهب ؟ وما قريش ؟ وما الحربُ ، وما الدنيا كلُّها ؟ بازاء رجلٍ يحملُ رسالةً من الله الذى له ملكُ السمواتِ والارضِ . انه رسولُ الانسانية يريد من رسالته هذه ، ان يعيدَ الرشدَ لمن فَقَدَ رُشْدَه ، وان يمحوَ الاوهامَ ، في حياةٍ مرَّغتها الاوهامُ في الرغام .

وان وقفةَ جهولٍ أو غضبةَ موتور ، او حقدَ مغرور ، كُلَّها لا تجدى في منع هذه

١ـ انهد : اشد واقوى واصل هذه الكلمة للتقدم يقال نهد ثدى الفتاة : برز قدما

٢ـ السيرة : ج ١ ص ٢٦٧

٣ـ انظر تفصيل ذلك في تاريخ الاسلام السياسي ص ٨٤

٤ـ اى لنقبحه ولنخطئه

٥ـ ابن الاثير ج ٢ ص ١٣٠ والابطح ارض مستوية بين مكة ومنى

الرسالة الكبيرة من المضي الى هدفها البعيد النبيـــل

الاضطهـــــاد :

اتخذت معارضةُ قريش للنبي (ص) موقفَ السخرية واللامبالاة في بادئ الامر . اذا كان اللجوءُ الى العنف لا يزالُ ، في اعتقادهم امراً لا ضرورةَ له . جاء في القرآن الكريم : " ان الذين اجرموا من الذين آمنوا يضحكون . واذا مروا بهم يتغامزون " (١)

وفي بعض الاحيان كانوا يزعمون انه نزّاعٌ الى نظم الشعر المضطرب ، وانه مُخالَطٌ في عقله ـ فاجابهم تعالى علىّ افتراءاتهم تلك : " فذكّر فما انت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون ام يقولون شاعرٌ نتربّصُ به ريبَ المنون " (٢) ولكن ما ان اتبعَهُ رجالٌ اولو علم ووجاهة ، حتى استشعروا بالخطر المحدّق بهم ، فعمدوا الى العُنْفِ . وقد افتعلوا الواناً من الطُـرُق لمناكدته واضطهاده ، " فكانوا يُلقون في طريقه اغصانَ الشجر والنباتاتِ الشائكةِ لكي يتعثّرَ بها في الظلام ، ويرشقونه بالحجارة حينا " كما يروى ايضا :

" ومرةً طرحَ احدُهم رداءَه حولَ عُنقِه وفتله حتى كادَ ان يَخْنُقَه به ، واتفقَ ان مرّ ابو بكر آنذاك بالمكان ، فتدخلَ وانقذَ الرسولَ (ص) قائلا : " اتريدون ان تقتلوا رجلا لا لشيء الا لانه يقول : ربي الله ؟ " (٣) .

هؤلاء الخصوم والاعداء جاء ذكرُهم جميعا في القرآن ، فمنهم : المتعصبون : الذين تحجّرت عقولُهم ، وزينت لهم سطوتُهم البطشَ بمن يُخالفهم " واذا تتلى عليهم آياتُنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر . يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا " الحج " (٧٢)

ومنهم المترفون : الذين سرتهم ثروتهم ، فاحبوا الباطلَ لانه على ارائكَ وثيرةٍ وكرهوا الحقَ لانه عاطلٌ عن الحُلَى والمُتاع قال تعالى :

"واذ تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءَنا : إيتِ بقرآن غير هذا او بدّلْه" (٥)

ومنهم المهرّجون : الذين يفتعلون ضجةً عاليةً وصياحاً مُنكرا عندما تُقرأُ الاياتُ حتى لا تُسمَعَ فتُفْهَمَ فتترك أثرا في عقل نقي وقلب حي ، ذلك ان الاسلام هو دين الفطرة . قال تعالى : " قال الذين كفروا لا تَسْمعوا لهذا القرآنِ والغَوا فيه لعلكم تَغْلِبون " !! (٦)

من هؤلاء الاعداء جميعا ، حَزِنَ رسولُ الله (ص) لهذا الإعْراضِ المقرونِ بالتكذيبِ والتحدي .

١ـ المطففيـــن الآية ٢٩ ـ ٣٠

٢ـ الطور الاية (٢٩ ـ ٣٠)

٣ـ السيرة ج ١ ص ٢٩٠ ـ وتاريخ الاسلام السياسي ص ٨٥

٤ـ الحج ٧٢

٥ـ يونس الاية ١٥ ٦ـ فصلت الاية ٢٦

الا ان الله واساه ، فابانَ له بواطنَ اولئك الكذّابين المتألبين . قال عز وجل : " قد نَعْلَمُ إنه ليَحْزُنْك الذى يقولون فانهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمينَ بآياتِ اللـــــه يَجْحَدون " . (١)

ولقد مضى محمدٌ مع اصحابهِ المؤمنين في سبيل البلاغ واجتياز ما اعترضهم من صعاب وعقاب . وبقي انصارُ محمد (ص) بصلابة يقينهم وروعة استمساكهم بدعائم رسالته واصول امتدادها على كافة هذه الارض الواسعة .

الهجرة الى الحبشـــــة :

أطلَّ العامُ الخامسُ للهجرة للدعوة المحمدية ، وقد جمعَ الرسولُ حولَه عصبةً من الصحابة متراصّةً ، لم تزدْها اضطهاداتُ المكيين الا تماسكا .

وكان الرسول من رقة قلبه ، لا يستطيعُ رؤيةَ الاذى تنزل باصحابه واصدقائه ، وهم يؤلفون دعامةً راسخة لرسالته ، فيَخلُقُ به ان لا يطيقَ الاستغناءَ عن اى فردٍ منهـــم . لذلك اشار عليهم ان يفزعوا الى الحبشة قائلا لهم : "ان بها ملكا لا يُظْلَمُ عنده احـدا ، وهي ارضُ صِدْقٍ حتى يَجْعَلَ اللهُ لكم فَرَجاً مما انتم فيه " (٢)

وهكذا استعد اولُ فريقٍ من المهاجرين للابحار الى الحبشة ، ومن بينهم عثمانُ وزوجتُه رقية بنتُ رسول الله والزبيرُ بن العوام ، وعبدُ الرحمن بن عوف وجعفرُ بن ابـــي طالب ... رحلوا تسللا في الخَفاء ، حتى لا تستيقظُ قريش فتعاكسهم ، وقد لحقـــت بهم الى الشاطئ ، ولكنهم كانوا قد انطلقوا آمنين . ولكن هذا لم يزد القريشيـــين الا غيظا على غيظ ، فعقدوا العزم على ان يوجهوا الى النجاشي وفدا يسأله ان لا يسبغَ على المسلمين حمايتَهَ ، وان يسلمهم الى المكيين .

ويروى ابن هشام فيقول : ان النجاشي سأل المسلمين المهاجرين عن دينهـــم ، لِتَظْهَرَ افتراءاتُ الرسولين القريشيين ونواياهما الخبيثـــةُ ."(٣)

---

١ ـ الانعام الآية ٣٣

٢ ـ تاريخ الاسلام السياسي ص ٩١ والسيرة ج ١ ص ٣٢١

٣ ـ الرسولان هما : عبد الله بن ابي ربيعة ، وعمور بن العاص بن وائل . وعبد الله بن ابي ربيعة كان اسمه بحيرى ، فسماه رسول الله حين اسلم عبد الله وابوه : ابو ربيعـــــة واسم ابي ربيعة عمرو : وقبل حزيفة . وام عبد الله بن ابي ربيعة اسماء بنت مخربـــــة التميمية ، وهي ام ابي جهلٌ بن هشام . وعبد الله هذا هو والد عمر بن ابي ربيعـــــة الشاعـــــر .

فأجاب جعفر بن ابي طالب فقال : " ايها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبدُ الاصنام ونأكل الميتةَ ، ونأتي الفواحش ، ونقطعُ الارحامَ ، ونسيءُ الجوار ، ويأكل القوى منّا الضعيف فكنّا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعرفُ نسبه وصدقه ، وامانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلعَ ما كنا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وامرنا بصدق الحديث ، واداء الامانة ، وصلة الرّحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، واكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وامرنا ان نعبدَ الله وحده ، لا نُشْرِكُ به شيئاً ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... نعدا علينا قومُنا ، نعذبونا ونتنوننا عن ديننا ، وضيقوا علينا ، فاخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ان لا نُظْلَمَ عندك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم .
فقال النجاشي : اقرأه عليّ ، فقرأ عليه صدرا من "كهيعص" سورة مريم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته " (١)

ولما عادَ الوفدُ القرشيُ من رحلته الى الحبشة فاشلاً ، واصلوا اضطهادَهم للمسلمين في اهتياجٍ مُضاعف .

ولما سَمِعَ سائرُ المسلمين في مكة ، بالرعاية الكريمة التي اسبغها النجاشي على اخوانهم ، كانت الهجرةُ الثانيةُ ، حيثُ لَقِيَ المسلمونَ في النجاشي ، رجلَ ايمان عظيم ، أكْرَمَهم واعانهم وحافظَ عليهم .

وقد أثار هذا غضبَ قريش ، فعمدوا الى مقاطعة بني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وقد ورد في تاريخ الاسلام السياسي شيء من هذا ، قال : " فلا يتزوجون منهم ، ولا يزوجونهم من انفسهم ، ولا يتجرون معهم حتى يُسَلِّموا اليهم رسولَ الله ليقتلوه " (٢)

وهكذا ظَلَّ بنو هاشم محجورين في شِعْبٍ من شعاب مكة ، الا في الاشهر الحرم ، حيث حُرِّمَ القتالُ في جميع انحاء البلاد .

وفي تلك الاثناء في ايام الشِعْب (٣) كان المسلمون يلقون غَيْرَهم في موسم الحج ، فلم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وفد .

فالاضطهادُ لا يقتل الدعوات بل يزيدها عمقا وامتدادا فكسب الاسلام انصاراً كثيرة في هذه المرحلة .

<u>عام الحزن</u> : عاد المسلمون من الشعب ، يستأنفون نشاطهم القديم بعدما قطع الاسلامُ في مكة قُرابةَ عشرةِ اعوام مليئةً بالاحداث الضخمة ، والمشاحنات المريرة ، وما ان تَنَفَّسَ المسلمون بعضَ الشيء ، حتى أُصيبَ الرسولُ بفاجعتين قاسيتين جداً وهما :

---

(١) السيرة ج ١ ص ٣٣٦
(٢) تاريخ الاسلام السياسي ص ٩٤
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٣

وفاةُ زوجته خديجه ، ثم وفاةُ عمه ابي طالب .

وخديجه كانت من نعم الله الجليلة على محمد (ص) فقد آزرته في احرج الاوقات واعانته في ابلاغ رسالته ، وشاركته مغارمَ الجهاد المرِّ وواسته بنفسها ومالها . قال ابن اسحـــق : " وكانت له وزيرَ صدقٍ على الاسلام " (١) وخديجةُ كانت نسمةَ سلام وبرٍ ، رَطَّبت جبينَ النبـــي المتصبب من آثار الوحي ، وبقيت ربعَ قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأملاته ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وماتت والرسول يخلص لذكراها طوال حياته .

اما الفَاجِعةُ الثانية ، ابو طالب ، الذى كفل الرسول ودافعَ عنه ، حين نُبِئَ وحين صُـــدِعَ بامر ربه " وانذر عشيرتك الاقربين " ولكنه مات على الكفر

ورد في تاريخ الاسلام السياسي ، " وما وافت السنة العاشرة من نزول الوحي حتى اصيب الرسول بوفاة عمه وحاميه ابي طالب ، وقد مات على الكفر ، برغم تصديقه لرسول الله (ص) ونصرته اياه مخافةَ العار وخِشْيَةَ المَسَبَّةِ لتركه ما كان عليه آباؤه " (٢)

لقد حزن رسول الله (ص) لموت ابي طالب حزنا شديدا ، أَلَمْ يكن الحُصْنَ الذى تحتمي الدعوة من الكبراء والسفهاء ؟

لقد مات الرجل الذى سَخَّرَ جاهَه وسلطانَه في الذَوْدِ عن ابن اخيه ، والان اصبحت قريشُ لاتهاب في محمد احداً بعدَه (٣)

وبفقدان عمِّه وزوجتِه هذين العنصرين الكبيرين ، تعيَّنَ على الرسول الكريم ان يواجه مصاعبَ اذهى وأمرّ ، فلقد آذنت وفاتهما باستهلال عهدٍ من البلاء جديد .

<u>زيادةُ الاضطهـــــاد</u>

والان على الرسول ان يُواجهَ ، في اداء رسالته عقباتٍ أعظمَ واصعبَ من التي واجهها في مامضى فقد انحسر الحجابُ الانَ بعدَ وفاةِ ابي طالب وخديجه ، كلَّ حِقدِ قريش وكلَّ خبثها . فايديهم امست اليومَ طليقـــةً ، وقد خاشنوا الرسولَ (ص) ما شاء لهم حقدُهم وضغينتُهم . ولكن ايمانَ الرسول بالنصر المطلق لم يتزعزع برغم الوضعِ المظلمِ . وقد تجلّت مرارةُ نفسِه في تلك الايات التي جاءت على لسان نوح : " قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا واني كلما دعوتهم لتغفرَ لهم جعلوا اصابعَهم في آذانهم واستغشَوْا ثيابَهم واصرّوا واستـــكبروا استكبـــارا " (٤)

وقد تحمَّلَ الرسولُ الكثيرَ من اذى قريش حتى انه اعترضَ سبيلَه سَفيهٌ من سفهائها ، فنثـــر على رأسه الترابَ . قال ابن اسحق :

---

(١) السيرة ج ١ ص ٤١٦ وحياة محمد لهيكل ص ١٤٦
(٢) تاريخ الاسلام السياسي ص ٩٥
(٣) انظر تفاصيل هذا في السيرة ج ١ ص ٤١٦
(٤) سورة نوح الاية ٥-٧

" لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله التراب ، دخل رسول الله بيته، والتراب على رأسه ، فقامت اليه احدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله يقول لها لا تبكي يا بنية، فان الله مانع اباك . ثم قال بعد ذلك : ما نالت مني قريش شيئا اكرهه حتى مات ابو طالب " (١)

خروج الرسول الى الطائف :

وقف محمد (ص) وقفة ايمان وثقة في وجه تلك المعارضة العنيدة ، ولم يخامر قلبه اليأس لحظة واحدة . وكأنه على يقين من ان الجزيرة العربية سوف تدرك ذات يوم ، حقيقة الاسلام ، إن عينه استطاعت ان تلمح شعاع الامل، برغم ما اكتنفه من ضباب الاحداث المرة .

بيد ان قسوة قلوب المكيين الذين حقدوا عليه واستفزوه ، اكرهته على الالتفات نحو الطائف . (٢)

والرسول على ثقة بان هؤلاء الاعداء الالداء سوف يصبحون اصدقاءه المتفانين . وقد خاطبه الله تعالى : " وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها . واذاً لا يلبثون خلافك الا قليلا " (٣)

مضى الرسول الى الطائف واتصل ببني ثقيف يطلب نصرتهم ،علّه يجد بهم عوناً له ، لكنه فشل في مسعاه وردوه رداً قبيحا قائلين : " ان كان صادقا في دعواه عليه ان يقنع عشيرته الاقربين اولا (٤) ولكن الرسول اراد ان يكتم نتيجة رحلته فيما ذكر " اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني (٥) وهو يخاطب بني ثقيف .

واخيرا عاد الرسول الى مكة ليستأنف خطته الاولى في عرض الاسلام وابلاغ رسالة الله عز وجل .

العرض على القبائل :

ولا بد ان اخبار ثقيف قد سبقته الى قريش، فازدادت لمحمد ايذاء ولكن كل ذلك لم يصرفه عن الدعوة الى دين الله . قال ابن اسحق : " وجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم الى الحق، ويخبرهم انه نبي مرسل " (٦) .

من بين هذه القبائل قبيلة ثقيف وبني كلب وبني عامر . ولكل قبيلة سبب في الرفض يختلف عن غيره . اما ثقيف التي مرّ ذكرها ، فهي فضلا عن انها كانت مصيف اهل مكة لجمال طقسها وحلو اعنابها ، كانت مركز عبادة اللات ، صنمها الذي كان يعبد ويحج اليه " (٦) فهي تظن انها

---

(١) السيرة ج ١ ص ٤١٦ وحياة محمد لهيكل ص ١٥٠
(٢) الطبري ج ٣ ص ٨٢ وما بعدها وج ٤ ص ١٥٤
(٣) الاسراء الآية ٧٦
(٤) السيرة ج ١ ص ٤١٨
(٥) المصدر نفسه
(٦) السيرة ج ١ ص ٤٢٢ تاريخ الاسلام السياسي ص ٩٥ وحياة محمد لهيكل ص ١٥٢
(٧) انظر الاصنام لابن الكلبي ص ٢٧

تفقد ثروة ضخمة جدا ، وخاصة في مواسم الحج ، فالعلة اقتصادية صرف . وغيرها من القبائل مثلها ، اعرضت عن الدعوة الاسلامية لتعلقها بدين آبائها وعبادة اصنامها (١) .

الهجرة الى يثـــرب :

وفيما الرسول يبشر مختلف القبائل بالاسلام خلال موسم الحج التقى صدفة برجال من الخزرج احدى القبائل في المدينة ، وكانوا عشراء اليهود ، وقد سبق لهم ان سمعوا ان أوان ظهور النبي الموعود ، الذى تنبأت به كتب اليهود المقدسة ، امسى قريبا ، فانتهز الرسول فرصة وجودهم ودعاهم الى الاسلام ، وبفضل التعاليم الاسلامية التي شرحها الرسول لهم ، وهي تعاليم ذات جمال فطرى دخل بعض رجالاتهم العظام في الاسلام وبايعوا الرسول في مكان يعرف بالعقبة (٢)

وعندما توجه الرسول الى المدينة ، كان ذلك بدعوة من اهلها أنفسهم . وقد اخذوا على أنفسهم عهداً بحمايته ، واصبحت القبيلة مسؤولة عنه . والرسول يعلم ان المكيين لن يدعوه وشأنه وخاصـة عندما علموا بان الاسلام يترسخ تدريجيا في المدينة . ومضت الايام والرسول متلبث بمكة وسـط اعدائه ليس معه من صحابته غير ابي بكر وعلي ، لان البقية كانوا قد فزعوا إما الى الحبشة واما الـى المدينة (٣) .

وهنا بذل المكيون كل جهدهم في القسوة على الرسول واضطهاده فقد الفوه وحيدا ، فاجتمعوا في دار الندوة كما يسميها ابن اسحق ، واقترحوا العجيب من الاقتراحات المهلكة للرسول ، منها الحبس ومنها التجويع حتى الموت . واخيرا اقترح ابو جهل ان يختار من كل بيت من بيوتات القرشيين فتى شاب كريم المحتد ، ويعطى سيفا قاطعا ، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، وهكذا يتفـرق دمه بين القبائل وبذلك لا يستطيع بنو عبد مناف ان يحاربوا العرب جميعا (٤)

عندها نزل الوحي على الرسول فاعلمه بالذى بيتت له قريش ، قال تعالى : " واذ يمكـر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " (٥)

فدعا الرسول عليا ، وحدثه بالامر الالهي ، وكلفه ان يتسجى بردة الحضرمي الاخضر ، وينـام في فراشه ، وأمره بان يتخلف بعده في مكة حتى يؤدي عنه ، ودائع كانت عنده للناس (٦) .

ويالها من ثقة لا تتزعزع ، بامانته وطهارة ذمته ! في حين انه كلف أبا بكر باعداد العـدة الضرورية للرحيل .

ثم ان الرجلين انطلقا بسرية نحو المدينة ، وعلي في فراش الرسول (ص) والقوم يتوهمـون ان الضحية في قبضة أيديهم . وقد بلغا غارا يعرف بغار ثور ، اقاما فيه ثلاثا وقريش جعلت فيــه حين فقدوه ، مئة ناقة لمن يرده عليهم (٧)

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في السيرة ج ١ ص ٤٢٣
(٢) انظر التفاصيل في ابن الاثير والسيرة ج ١ ص ٤٣١
(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٥٥
(٤) السيرة ج ٢ ص ٥٥ - تاريخ الاسلام السياسي ص ١٠٣
(٥) الانفال : الاية ٣٠
(٦) السيرة ج ١ ص ٤٨٢ ومابعدها
(٧) انظر التفاصيل في السيرة ج ١ ص ٤٨٤ .

وقد مرّ معنا تبلا غارُ حِراء حيث هبطَ فيه الوحيُ على الرسول الكريم ، وهذا غارُ ثور يولدُ الان الاسلامُ من جديد . وعند انبثاق الفجر ، ذُهِلَ القرشيون اذ القوا علياً يُغادرُ فراشَ الرسول . وقد اجريت تحريات دقيقة وانتهت جماعةٌ من مطاردي الرسول وصاحبه الى فم الغار نفسه

فكانت لحظة حرجة جداً ، فسيفُ العدو مُسلّطٌ فوقَ رأسيهما ، فخافَ ابو بكر في تلك الساعة البالغة الحرج ، والراشحة باليأس المطلق . فنزلت الاية الكريمة : "الاّ تنصُروه فقد نصَرَه اللهُ إذْ أخرَجَه الذين كفروا ثانيَ اثنين اذ هُما في الغار اذ يَقولُ لصاحبه لا تحزَنْ ان اللهَ معنا ، فانزلَ اللهُ سكينَته عليه وايّدَه بجنودٍ لم ترَوْها وجَعَلَ كلمةَ الذين كفروا السُفْلى وكلمةُ اللهِ هي العُلْيا واللهُ عزيزٌ حكيم" (١)

وقد انصرف المطاردون عن الغار عندما وجدوا العنكبوتَ قد حبكت على بابه والحمامةُ قد عشّشت وباضت والشجرةُ نمت وارتفعت على باب الغار ، فايقنوا ان ليسَ من احدٍ في داخله مع وجود هذه القرائن (٢)

لقد اصبحت بعد هجرة الرسول اليها (المدينة) معقلَ الاسلام وملجأَ جماعة المسلمين وغدت تُعْرَفُ باسم مدينة النبي ، وتُسمّى اليومَ المدينةُ والمدينةُ المنورةُ لوجود قبر الرسول فيها (٣)

وقد اتخذ المسلمون السَنَة التي هاجر فيها الرسولُ من مكة الى المدينة مبدأ التاريخ الهجري عندهم ، نسبةً الى هذا الحادث العظيم .

واصبح بالمدينة في ذلك العهد ثلاثةَ اصنافٍ من السكان :

الاول : المهاجرون وهم الذين هاجروا بدينهم من مكة الى المدينة
الثاني : الانصار ، أهْلُ يثرب وسموا بذلك لانهم نصروا النبيّ في مدينتهم
الثالث : اليهود الذي مرّ ذكرهم سابقاً ، وقد انتهى بهم الامر الى الخروج تدريجيا من جزيرة العرب (٥) .

وفاة الرسول (ص)

منذ ان عادَ الرسولُ (ص) من حجة الوداع (٦) آن الاوان لانسحابه من هذه الحياة الارضية بعد ان انجزَ هدفَها الرئيسي ، فهبطَ الوحيُ الالهيُّ لينبيء الرسولَ "اليومَ اكملتُ لكم دينَكم واتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا" (٧) كان ذلك في اواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ، اعتلَّ ومَرِضَ (٨) .

---

(١) التوبة الاية ٤٠
(٢) التفاصيل في السيرة ج ١ ص ٤٨٤ وما بعدها
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ج ١ ص ٥٧
(٤) المصدر نفسه ص ٤٨
(٥) انظر تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١٠٥
(٦) انظر خطبة حجة الوداع في البيان لابن عبد البر ص ١٢٦
(٧) المائدة الاية ٣
(٨) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٨٨

وكان قد أمر قبل ذلك بتجهيز جيش أسامة الى الشام (اسامة الذى استشهد ابوه زيد في ذلك الموطن نفسه . على الرغم من مرض الرسول فقد دفع الراية بنفسه الى أسامة . وقد انضوى رجال عظام تحت لوائه جنوداً مثل ابي بكر وعمر (١)

ويقال ان الرسول (ص) قصد بذلك الى ان يؤكد عشية مفارقته الحياة الارضية ، مبدأ المساواة بين البشر ، ولكن اشتداد المرض حال دون ذلك .

تمرض الرسول في بيت عائشة (٢) وهو على هذه الحال لم ينقطع عن الشخوص الى المسجد ليصلي بالناس ، جرياً على مألوف عادته ، وذات يوم استشعر انه اضعف من ان يقدر على الكلام فطلب من ازواجه (ان يرقن عليه سبع قرب) وان يعصبن رأسه (٣)

ثم مالبثت ان ساءت حاله ، وفجاءة تغير لونه ودخل في النزع الاخير ، وكان آخر كلماته التي نطق بها في صلاته الخاشعة المهموسة : " بل الرفيق الاعلى من الجنة " فقالت له عائشة "خيرت فاخترت ، والذى بعثك بالحق" (٤)

واجمعت الروايات ان وفاته كانت يوم الاثنين في الثاني من شهر ربيع الاول وعمره ثلاث وستون سنة صلى الله عليه وسلم سنة ١١ هـ - ٦٣٢ م بعد ان أدى الامانة وبلغ الرسالة على اكمل وجه (٥)

وانتشر نبأ وفاة الرسول انتشار النار في الهشيم . فتدفق الناس على المسجد افواجاً افواجاً وخرج ابو بكر الى المسجد وارتقى المنبر ، وراح يخاطب القوم قائلا : " ايها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات . ومن كان يعبد رب محمد (الله) فان الله حي لا يموت ! " ثم راح يتلو الاية : " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين " (٦)

جهاز الرسول ودفنه :

غسله علي بن ابي طالب منفذاً وصية الرسول (ص) واستعان بالفضل ابن العباس واسامة بن زيد فلما فرغ من تجهيزه ، تقدم فصلى عليه وحده . وكان المسلمون يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه ، واين يدفن ، فخرج عليهم علي (ع) وقال لهم : أن رسول الله إمامنا حياً وميتا ، فيدخل عليه منكم فوج فيصلون عليه بغير امام وينصرفون وان الله لم يقبض نبياً في مكان الا وقد ارتضاه لرمسه فيه ، واني لدافنه في حجرته التي قبض فيها . فسلم القوم لذلك ورضوا به . ثم نزل علي القبر ودفن الرسول (ص) (٧)

والحقيقة انه من اراد ان يدرس سيرة محمد (ص) من المولد الى البعث الى الوفاة لا يفقه منها الشيء الكثير ، الا بعد دراسة القرآن الكريم والسنة الشريفة وبقدر ما يحصل من ذلك بقدر ما تكون صلته بنبي الاسلام محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

---

(١) السيرة ج ٢ ص ٦٥٠
(٢) السيرة ج ٢ ص ٦٤٩
(٣) انظر تفاصيل بدء مرض الرسول في تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٨٨ والسيرة ج ٢ ص ٦٤٩
(٤) راجع السيرة ج ٢ ص ٦٥٥
(٥) السيرة ج ٢ ص ٦٥٢ وتاريخ الاسلام السياسي ص ١٥٨
(٦) آل عمران الاية ١٤٣ انظر تفاصيل الوفاة في الطبرى ج ٣ ص ٢٠٧ وج ٤ ص ٤٧
(٧) المصدر نفسه في تاريخ الطبرى واعيان الشيعة ج ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها .

الفصل الرابــــــع

الوجه الجديد للمجتمع العربي عند ظهور الاســـلام

محمد (ص) هو رسول الاسلام ورسولُ السلام ، ومحمد (ص) هو رسولُ المحبـــــةِ والانسانيـةِ .

وأمةُ محمد هم موحدون ، وهم اصحابُ عقيدةٍ تُحدِّدُ صِلَتَهم بالله ، وتُوَضِّحُ نَظْرَتَهم الـــى الحياة وتُنَظِّمُ شؤونَهم في الداخل على أُصولٍ خاصة ، وتَسوقُ صلاتِهم بالخارج الى غاياتٍ مُعَيَّنَـةٍ .

معنى الاســـلام :

الاسلامُ هو دينُ المسلمين ، والمُسْلِمُ هو من اسلم وجهَه لله طوعاً ، ورضيَ باطاعة اللـــه بصورة طبيعية وحسب " فأَقِمْ وجهَكَ للدِّين حنيفاً فِطْرتَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمُون " (١) .

وبهذا فاتباعُ ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد هم مسلمون . وقد نَوَّهَ القرآنُ الكريمُ عن ذلـك بقوله : " قالت يا ايها الملأُ إني أُلقِيَ اليَّ كتابٌ كريمٌ ، انه من سليمانَ وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، الا تَعْلُوا عليَّ وأْتوني مُسْلمينَ " (٢) .

ثم قال تعالى : " ووصَّى بها ابراهيمُ بَنيهِ ويَعْقُوبُ يا بَنيَّ ان اللهَ اصطفى لكم الدِّينَ فـــلا تموتُنَّ الا وانتم مُسْلمون " (٣)

وفي سورة يوسف : " فلما احسَّ عيسى منهم الكفرَ قال مَنْ انصاري الى الله ؟ قال الحواريون نحنُ انصارُ الله آمنا بالله واشهد بانا مسلمون " (٤)

واخيرا خصت كلمة (مسلم) بالدين الذي اتى به محمد (ص) وبهذا المعنى وَرَدَ قَوْلُـــه تعالى : " اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا " (٥) ومن يبتغِ غيـــرَ الاسلامِ ديناً فلنْ يُقْبَلَ منه .

وبعد ذلك نستخلص ان عمادَ الاسلام الخضوعُ لله ، والانقيادُ له . وهذا ما يعاكس تماما العقليةَ الجاهليةَ المبنية على الانفة والحمية . اما اذا اردنا تصوير المجتمع العربي عند ظهور الاسلام والانقلاب الجذري لذلك المجتمع عما كان عليه في الجاهلية ، نأخذُ القرآنَ الكريمَ الذي يُفيدُنـــا الى ما نصبو اليه .

جاء في القرآن الكريم ، قال تعالى : " ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هدى للمتقين ، الذيـــن يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاةَ ومما رزقناهم يُنفقون ، والذين يؤمنون بما أُنْزِلَ اليكَ وما أُنْزِلَ من قبلِكَ وبالاخرة يُوقنون " (٦) .

---

(١) الروم : الاية ٣٠
(٢) النحل : الاية ٢٩ـ٣١
(٣) البقرة : الاية ١٣٢
(٤) آل عمران : الاية ٥٢
(٥) المائدة : الاية ٣
(٦) البقرة : الاية ٢

./.

تعاليم الاسلام في المجتمع الجديـــد

١ـ الاعتقاد باللـــه :

اهمُ اصلٍ من اصول الاسلام الاعتقادُ بالله . وهذا الركنُ من اركان العقيدة الاسلاميـة، يكادُ يكونُ عاماً بين الشعوب التي خلقها الله على هذه الارض الواسعة ، واذا استعرضنا تواريـخ الامم الدينية من متبدية او متحضرة نراها جميعا تعتقدُ باله ، ولكن فكرةَ الالوهيةِ واوصافَ الالـــه تختلفُ اختلافاً بيناً بين هذه الامم (١) .

اما الاسلامُ فيصفُ اللهَ باوصافٍ وردت في القرآن ، فهو ليس آله قبيلة او عشيرة ولا يخـــصُ المسلمين دون سواهم ، ولا آلهَ الناسِ وحْدَهم ، بل هو آلهُ كلِ شيء " ربُ العالمين "

وكلُّ شيء في الوجود خاضعٌ لامره " لله ما في السموات وما في الارض " (٢) ثم " الـــذى خَلَقَ السمواتِ والارضَ وما بينهما " (٣) ثـم " اللهُ ربكم وربُّ آبائكم الاولين " (٤) وقد احاط عِلْمُـــه وقُدْرتُه بكل شيء : " وعنده مفاتيحُ الغيبِ لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البرِّ والبحرِ وما تَسْقُطُ من ورقة الا يعلمها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الارضِ ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ الا في كتابٍ مُبينٍ (٥) .

آله واحد احد :

الاسلامُ هو دينُ توحيد ، وليس فيه آله خير وآله شر ، ولا آله للجمال او للرياح ، كمـا انه ليس هناك من يشارك الله في الوهيته . " فاعْلَمْ انه لا آلهَ الا اللهُ " (٦) وقال تعالى : " وقـــال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو آله واحد " (٧) وقال عز وجل : " واعبدوا اللهَ ولا تشركـــوا به شيئا " (٨) .

لا سلطانَ على الناسِ غيرُ سلطان الله :

من تعاليم الاسلام ان ليس لاى طائفة سلطانٌ على الناس في عقائدهم ، ولا لاى صفة من صفات الربوبية ، حتى الرسولُ نفسُه ليس الا مبلّغا . قال تعالى : " فَذَكِّرْ إنَّما أنتَ مذكِّرٌ لَسْـتَ عَليهم بمُصَيطِرٍ " (٩) .

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٥ ص ٦٣
(٢) النحل : الاية ٣١
(٣) النبأ : = ٣٧
(٤) الصافات : = ١٢٦
(٥) الانعام : = ٥٩
(٦) محمـد : = ١٩
(٧) النحل : = ٥١
(٨) النساء : = ٣٦
(٩) الغاشية : = ٢١

./.

٢- الحياة الاخـــرى :

ومن تعاليم الاسلام ان وراءَ الحياة الدنيا حياةً اخرى ويومُها يومُ القيامة ، أو يومُ الحساب • قال تعالى في كتابه العزيز: " ثم انكم بعد ذلك لَميّتون ثم انكم يومَ القيامة تُبعثون "(١) • في الحياة الاخرى يُعاقَبُ الانسانُ على العمل السيء ، ويكافأ على العمل الصالح • فكلُّ الاعمال مُؤجَّلةٌ الى يوم القيامة، قال عز وجل : " وكلَّ انسانٍ أَلْزَمناهُ طائرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ له يومَ القيامَةِ كِتابا يَلْقاهُ منشورا • إقرأ كِتابَــكَ كفى بنَفْسِكَ اليومَ عَلَيْكَ حَسيبا "(٢) •

هذا عرضٌ سريعٌ للتعاليم الاسلامية النظرية ، اما التعاليمُ التطبيقيةُ او العمليةُ فهي اساسيــةٌ وواجبٌ اداؤها ، وقد غيرت الحياةَ الجاهليةَ تغييراً جَذْرِياً • وهي :

أ- الصــــلاةُ : وهي مظهرٌ من مظاهر الاخلاص لله ، وتعبيرٌ عن عاطفة الاجلال له • قال تعالى " وأَقِمِ الصلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ولَذِكْرُ اللهِ اكبرُ " (٣) •

ب- الزكـــــاة : وهي ان يُؤخَذَ من مال الغني ويُدْفَعُ للفقير من الناس والصالح العام • وقد اكّدَ القرآنُ هذين الفرضين مقرونين • قال عز وجل: " واقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وماتُقَدِّموا لانفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله (٤) •

ج- الصــــوم : ويعني صيامَ شهر رمضان من كلِّ عام ، وغايتُه تَذْكيةُ النفس، والشعورُ الانسانيُّ العميقُ نحو الآخرين ، جاء في القرآن الكريم : " كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كُتِبَ على الذينَ من قَبْلِكم "(٥)

د- الحــــج : وهو حجُّ بيتِ الله الحرام لمن استطاعَ اليه سبيلا • ورد في الكتاب العزيـــز: " ولله على الناس حجُّ البيتِ لمن استطاعَ اليه سبيلا " (٦) •

هـ- الجهـــاد : وهو الجهادُ في سبيل الله • ونعني به جهادَ الانسان مع نفسه ليتغلبَ علـى ميوله وشهواته • وجهادَ الانسان ضدَّ اعداء الله لينصرَ الحقَ ويُعليَ كلمةَ الله • قال تعالــى : " والذين آمنوا وهاجروا اوجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقـا لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم " (٧) ثم قال تعالى ايضا : " أَنْفِروا خِفَافا وثِقالا وجَاهِدُوا باموالكم وانفسكم في سبيلِ الله ذلكم خيرٌ لكم ان كنتم تعلمون " (٨) •

---

(١) المؤمنــون الايـة ١٦
(٢) الاســراء = ١٣
(٣) العنكبـوت = ٤٥
(٤) البقـــرة = ١١٠
(٥) البقـــرة = ١٨٣
(٦) آل عمـــران = ٩٧
(٧) الانفـــال = ٧٤
(٨) التوبـــة = ٤١

٣- صلة الامة الاسلامية بعضها ببعض :
والامر الاخر الذى احدثه الرسول في بناء المجتمع الجديـــد :

الاخوة بين المؤمنيـــن :

خطوة جديدة بناءة تمحى فيها كلمة " أنا " ويتحرك الفرد بوحي من الاخاء الكامل، بروح الجماعة ومصلحتها وآمالها . فلا يرى لنفسه كيانا دونها، ولا امتدادا الا فيها .. قال تعالى : " انما المؤمنـون اخوة فأصلحوا بين أخويكم " (١) .

ومعنى هذا الاخاء : تذوب المعصبية الجاهلية ، ولا حمية الا للاسلام ، ومعناه ايضا : ان تسقط فوارق النسب، واللون، والوطن ، فلا يتأخر احد او يتقدم الا بمروءته وتقواه .

وقد جعل الرسول (ص) هذه الاخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا ، وعملا يرتبط بالدماء والاموال، لا تحية تثرثر بها الالسنة . " فانصر أخاك ظالما او مظلوما " لم تعد تحمل معناها الجاهلي . فاصبحت ظالما يرده عن الظلم ، ومظلوما يدفع الظلم عنه ، وهذه هي الاخوة الصحيحة الشريفة ، لا كما كانـت في الجاهلية : انصر اخاك ظالما على من ظلم ، ومظلوما على من ظلمه ! !

وبكلمة موجزة، فقد كانت الرابطة الجديدة من القوة بحيث بـزت حتى صلة الدم بين الاخـــوة والأشقاء ، يدلك على ذلك، ان ممتلكات احد المتآخين كانت اذا ما توفاه الله اليه ، لا يرثها اخوه من ابيه بل اخوه في الايمان ، وهي اسمى معاني الصلة في الاخوة الفكرية والروحية والاجتماعية .

وقد حظر القرآن ان يذهب بتلك الرابطة الى هذا المدى ، فاوصى بان ينتقل الارث بالطريق الطبيعي الى ذوي الارحام . قال تعالى : والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئـــك منكم . واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، ان الله بكل شيء عليم" (٢) .

وبذلك حلت الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية واصبح الجميع كالبنيان المرصوص يشد بعضـه بعضا ، وقد من الله على المؤمنين بقوله : وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله الذى أيـــدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم (٣) .

ان الاخوة في الله ينبض نصاحب يسيل وحده كالنبع الدافق، ولا يتكلف استخراجه بالالات والاثقـــال .

---

(١) الحجـرات : الايـة ١٠
(٢) الانفـــال : = ٧٥
(٣) الانفـــال : = ٦٢-٦٣

./.

والاخوة بالله لا تفرض بقوانين ومراسيم ، فانما هي أثر تخلص الناس من نوازع الأثرة والشح والضعة ، والاستسلام لأخطاء اشكال الوثنية . ويشهد معنا الدكتور جواد علي في تاريخ العرب قبل الاسلام ما يشبه هذا الكلام . قال : " أوجد الاسلام مفاهيم اخلاقية جديدة للبشرية وبشر برسالة قائمة على ان الدين لله ، وان الناس امامه سواء ، لا فرق بين فرد وآخر وجنس وجنس " (١)

٣ـ صلة الامة الاسلامية بمن لا يدينون بدينها :

المساواة :

ومبدأ المساواة هو الذى ساعد الرسول (ص) على توحيد كلمة العرب اولا ، وكسب وتأييد الامم الاخرى . تلك المساواة التي تلاشت امامها كل الفوارق الجنسية التي مزقت شمل العرب ، وباتوا احزابا وقبائل متفرقة .

وليس ادل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم " (٢)

كما قال رسول الله محمد (ص) : الناس كلهم سواسية كاسنان المشط ، ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى . كما قال ايضا : انا جد كل تقي ولو كان عبدا حبشيا ، واحاديث كثيرة في هذا المعنى .

وهكذا صرح الرسول في وضوح وجلاء ان الاسلام ليس مقصورا على الجنس العربي وحده ، بل هو لكافة الناس من كل لون وجنس . ويؤيد ذلك مخاطبة القرآن الكريم للناس جميعا فيقول تعالى " وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون " (٣)

لقد جاء محمد (ص) فهدم سلطان الذين خنقوا الحرية والفكر ، فلم يدع لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة احد ، ولا سيطرة على ايمانه ، ورفع كل رق ، الا رق العبودية لله وحده ، ولم يجعل لمسلم على مسلم الا حق النصيحة والارشاد . " وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " (٤) .

وقال تعالى : " ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " (٥)

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٥٩
(٢) الحجرات الاية ١٣
(٣) يونس = ١٩
(٤) العصر = ٣
(٥) آل عمران = ١٠٤

./.

العـــدل :

عُنيَ الاسلامُ باقامة العدل عناية عظيمةً، العدلُ الشاملُ ، لانه اساسُ الملك ، وقوامُه وعدتُه ونظامُه . قال تعالى : "ان اللهَ يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ"(١) وقال عز وجل "يا ايها الذين آمنــوا كونوا قوّامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولوعلى انفسِكم اوالوالدين والاقربين " (٢) وقال تعالى ايضــا : "واذا قُلْتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى " (٣) وقال "الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تَحكُموا بالعدل ، فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين"(٤)

شُغِلَ رسولُ الله (ص) بوضع الدعائمِ التي لا بد منها لقيام رسالته ، وابلاغ الحق ، وتبليغ الحقيقة وعاونه بذلك الجهادُ الانساني ، جماعة لوجه الله لا يريدون جزاء ولا شكـورا . فهم :

المهاجرون الى المدينة ، اوالى الحبشة ، لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاءَ ثراءٍ اواستعلاءٍ .
والانصارُ الذين استقبلوهم ، وناصبوا اقوامهم العداءَ ، لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفــق ، ولم يكن هَدَفُهم القوتَ واللذةَ في هذه الحياة الفانية ، انهم جميعا يريدون ان يستضيئوا بالوحـي ويكسبوا رضوانَ الله ، ويحققوا الحكمةَ العليا ، التي من اجلها خُلِقَ الناسُ وقامت الحياةُ .

الاخـــلاق :

ومن تعاليم الاسلام في المجتمع الجديد الحثُّ على مكارم الاخلاق . وماقيمةُ الانسانِ في اى مجتمعٍ بشرى اذا فُسِدَت اخلاقُهُ !

لقد نَوَّهَ القرآنُ الكريمُ الى الاخلاق الاجتماعية كآداب اللياقة مثلا : "واذا حُيِّيتُم بتحيةٍ فحيُّـوا باحسنَ منها اوردُّوها" (٥) ومن ذلك ايضا : "يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غيرَ بيوتكـــم حتى تستأنسوا وتسلِّموا على اهلها ذلك خيرٌ لكم لعلَّكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها احدا فلاتدخلوها حتى يُؤذَنَ لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم" (٦) .

كما دعا الاسلامُ الى اخلاقٍ اسمى وانبل تُعَدُّ من دعائم المجتمع الانساني الراقي نَذْكرُ منها على سبيل المثال لا الحصر : وفاءَ العهد ، والصبرَ في الشدائد ، والعفوَ عند المقدرة ، والعدلَ مـــع من احببت اوكرهت ، والعفةَ من غير غُلو . قال تعالى : "والموفـون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرينَ في البأساء والضرّاء وحينَ البأس اولئك الذين صَدَقُوا واولئك هم المُتَّقُون" (٧) .

---

(١) النحـــل الايــة ٩٠
(٢) النســاء = ١٣٥
(٣) الانعـــام = ١٥٢
(٤) النســاء = ٥٨
(٥) النســاء = ٨٦
(٦) النـــور = ٢٧-٢٨
(٧) البقــرة = ١٧٧

./.

ثم : "ان اللهَ يأمرُ بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهىهم عن الفحشاء والمنكــــر والبغي " (١)

ثم : " وخُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعرفِ واعرِضْ عن الجاهلين " (٢)

كان للاسلام اثر كبير في تغيير قيم الاشياء في نظر العرب ، فلقد نَقَلَهُم من العقلية الجاهليـة الضيقة الى العقلية الاسلامية السمحاء ، قال الدكتور جواد علي : " والاسلامُ نهايةُ حياةٍ قديمـــةٍ وبدايةُ حياةٍ جديدةٍ تَخْتَلِفُ عن الاولى كلَّ الاختلاف " (٣)

ولقد عانى الرسول محمد (ص) كما عانى غيرَه من رُسُلِ السَلام ، الكثيرَ من الصعوبةِ والمشقـةِ في سبيلِ نَشْرِ هذه التعاليم الكريمة وتطبيقها • لان العقليةَ الجاهليةَ ، عَقْليةٌ وثنيةٌ تُباحُ فيهــا اللذائذُ الى اقصى حد ، وتُمْنَحُ فيها الحريةُ الى حد بعيد ، وتُقدَّرُ فيها الاخلاقُ تقديراً خاصــاً •

وعقليةٌ اخرى موحدةٌ لا تُباحُ فيها اللذائذُ الا بمقدار وتُدْفَعُ فيها الضَرائبُ لتصرفَ في سبيــلِ الفقراء والصالحِ العام ، وتُقَيَّدُ فيها الحُرِّيةُ بعدة قيود • كاحترام ملكية الغير وعبادات في اوقات خاصة اما الاخذُ بالثأرِ فلم يَعُدْ من الصفات الخيِّرةِ والخصالِ الكريمةِ •

بيـن الجاهليـــة والاســـلام

ان خيرَ ما يمثل هاتين العقليتين ، قولُ جعفر بن ابي طالب للنجاشي الذي مرَّ ذكرُهُ في ص (٣٣) اما اذا شئنا المقارنةَ بين ما رسمته الحياةُ الجاهلية وبين ما رسمه الاسلام من مثل اعلى في الحيـــاة البشرية هو قول الله تعالى : " ليسَ البِرَّ أن تُولُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، ولكنَّ البِرَّ من آمَــنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبى واليتامى والمَساكيــنَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِّقابِ وأقامَ الصلاةَ وأتى الزكاةَ والموفُونَ بعَهْدِهِم اذا عاهدوا والصابرينَ في البأساءِ والضَرّاءِ وحينَ البأسِ أُولئكَ الذينَ صَدَقُوا واولئكَ هُمُ المُتَّقُونَ " (٤)

---

(١) النحـــل الايـة ٩٠

(٢) الاعـــراف = ١٩٩

(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٢٧٠

(٤) البقـرة الاية ١٧٧

./.

فلنقارن هذه اللوحة الاسلامية بتلك التي رسمها لنا الشاعر طرفة في معلقته الشهيرة :

اذا القومُ قالوا من فتىً ؟ خِلتُ أنني ... عُنيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلَّدِ

أحلتُ عليها بالقطيعِ فأجذمتْ ... وقد خبَّ آلُ الأمعزِ المتوقِّدِ (١)

فذالتْ كما ذالتْ وليدةُ مجلسٍ ... ترى ربَّها أذيالَ سحلٍ ممدَّدِ (٢)

ولستُ بحلّالِ التلاعِ مخافةً ... ولكن متى يسترفدِ القومُ أرفدِ (٣)

وإن تبغني في حلقةِ القومِ تلقني ... وإن تقتنصني في الحوانيتِ تصطدِ (٤)

متى تأتني أصبحكَ كأساً رويّةً ... وإن كنتَ عنها ذا غنىً فاغنَ وازددِ

وإن يلتقِ القومُ الجميعُ تلاقني ... إلى ذروةِ البيتِ الرفيعِ المصمَّدِ

نداماي بيضٌ كالنجومِ وقينةٌ ... تروح علينا بين بُردٍ ومُجسَدِ (٥)

الى ان يقول :

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشةِ الفتى ... وجدِّكَ لم أحفلْ متى قام عُوَّدي

فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ ... كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبدِ

وتقصيرُ يومِ الدجنِ والدجنُ مُعجِبٌ ... ببهكنةٍ تحتَ الخباءِ المعمَّدِ (٦)

كأنَّ البُرينَ والدماليجَ عُلِّقتْ ... على عُشَرٍ أو خِروَعٍ لم يُخضَّدِ (٧)

وكرِّي اذا نادى المُضافُ مُحنَّباً ... كسيدِ الغضا ذي السَّورةِ المتورِّدِ (٨)

وهكذا فالمثل الاعلى للحياة الجاهلية ، فخر بالنجدة وفخر بالكرم وفخر بمجالسة علية القوم وفي حانات الخمرة وتمتع بالشراب حوله الندامى والقيان ، وهذا كل شيء في الحياة وليس هناك غيرُه ما يستحق الذكر ويُحسَبُ له الحساب .

---

(١) احلت : وثبت ، والقطيع : السوط ، اجذمت : اسرعت ، وخب : ارتفع ، والآل : السراب وقيل ما كان منه اول النهار ، والامعز : الارض الغليظة التي فيها حصى ، والمتوقد : المشتعل يقول : وثبت على ناقتي بالسوط فاسرعت ، وقد ارتفع آل هذه الصحراء .

(٢) ذالت : تبخترت ، والوليدة : الفتية ، والسحل : الثوب من القطن ، يقول : ان ناقته تتبختر في مشيتها كالفتاة تمشي امام سيدها تتبختر وتجر اذيالها .

(٣) التلاع : الاراضي المنخفضة ، وحلال التلاع : البخيل لانه يسير حيث لا يراه احد .

(٤) يريد بحلقة القوم مجلس اشرافهم ، وبالحوانيت : بيوت الخمارين

(٥) الندامى : الاصحاب على الخمرة والقينة : الجارية . والبرد : الابيض ، المجسد : المصبوغ بالجساد : الزعفران .

(٦) الدجن : الغيم . البهكنة : الحسناء الخلق

(٧) البرين : الخلاخيل ، الخروع : نبات ريان لم يخضد : لم يكسر

(٨) المضاف : الملجأ . المحنب : المنحني من الهزال . السيد الذئب والغضا : شجر السورة : الوثبة . المتورد : الوارد .

./.

وخيرُ كلمةٍ موجزةٍ عن صاحب هذا التغيير، ومُحدِث تلك الثورة التي غيَّرت مفاهيمَ الناس للحياة، وعملت في سبيل تكامل انسانية الانسان، هي الكلمة التي تروى عن علي بن ابي طالب (ع) عندما سأل رسولَ الله عن سُنَّتِهِ في الحياة، فقال (ص) :

" المعرفةُ رأسمالي، والعقلُ اصلُ ديني، والحبُّ أساسي، والشَوْقُ مَرْكَبي، وذكرُ الله أنيسي، والثقةُ كنزي، والحَزَنُ رفيقي، والعِلْمُ سلاحي، والصَبْرُ ردائي، والرضا غنيمتي، والفقرُ فَخْري، والزُهْدُ حِرْفتي، واليَقينُ قوّتي، والصدقُ شفيعي، والطاعةُ حسبي، والجهادُ خُلُقي، وقُرَّةُ عيني فـــي الصلاة " (١)

وهذا هو الاساس الذي وضعه محمد (ص) للحضارة الجديدة .

ولقد تركت هذه التعاليم اعمقَ الاثر في نفوس الناس، واقبل الكثيرُ من الناس على الدخول فـــي الاسلام بالرضا والطواعية، قال تعالى : " لا اكراهَ في الدين قد تبيَّنَ الرشدُ من الغَيِّ " (٢) . فبتقوى اللهِ والاخلاص له، دُعِّمَتْ الناحيةُ الروحيةُ في هذا المجتمع الجديد . وبالاخاء الحق، تماسك بُنْيانُهُ وتَوَثَّقَتْ اركانُهُ . وبالعدلِ والمساواةِ، والتعاونِ، رُسِمَتْ سياسَةُ الاجانب، وعُومِلَ أتبـــاعُ الاديانِ الاخرى .

ان كلَّ هذه الافكار الجديدة التي اوجدت هذه الثورةَ العالمية، وهذا الانقلابَ الفكريَّ، والحضاريَّ، والروحيَّ، مُتمثِّلَةٌ في القرآن الكريم، والحديثِ الشريف .

القـــرآن الكريـــم :

القرآنُ هو معجزةُ الله ~~العلمية الخالدة~~ الرسول الخالدة لكافة العهود والاجيالِ على هذه الارض . لا سبدل لكلماته، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد وصدق الله العظيم . " افلا يتدبرون القرآنَ ولو كان من عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا " (٣) .

لقد سبق محمد (ص) انبياء ورسل كانت لهم معجزاتٌ زمنيةٌ موقوتة . فالسحرُ كان شائعـــا في عهد موسى (ع) فجاءت عَصَاهُ بقوةٍ آلهية تبطل كيدَ السحرة . والطبُّ كان ذائعاً في عهد عيسى (ع) فجاء (باحياء الموتى " وشفاء الاعمى، وهو غير طبيب ولا خريج كليات طبيـــة .

ثم أُنْزِلَ القرآنُ على محمد (ص) لجميعِ الامم وللعالم اجمع، وَحْيٌ سماوِيٌّ جديدٌ الى يــــوم القيامة فلا ينزل بعده أيُّ كتابٍ مُقدَّسٍ آخر، ومحمد خاتمُ النبيينَ والرُسُل . " وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين " (٤) .

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ١٩٧ "
(٢) البقـرة الاية ٢٥٦
(٣) النســاء = ٨٢
(٤) الانبياء = ١٠٧

./.

في عهد محمد (ص) كان الاعجاز الادبي، فاتى القرآن مُفحِماً للعرب بلغتهم، ان يأتوا بسورة من مثله او بسورة تحاكيه، فعجزوا وذلوا. يقول سبحانه: "وان كنتم في رَيْبٍ مما نَزَّلْنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين" (١)

ولا يخفى ان العربَ هم اهلُ ادبٍ وشِعْرٍ وفصاحة، باهوا بها الامم الاخرى، وكان طبيعيا ان يستكينوا امام هذه الذِرْوَةِ الرفيعة من البلاغة والبيان، ذِرْوَةٌ جعلت العربَ حين يستمعون الى آية يخرون رُكَّعاً وسُجَّداً، مشدوهين بسِحْرِهِ، مبهورين ببلاغته وفي ذلك يقول عزَّ وجل:
"اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديث كتاباً متشابها مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهم ثم تَلينُ جُلُودُهم وقُلُوبُهم الى ذِكْرِ الله" (٢)

كما قال رسولُ الله (ص) "ان من البيان لسحرا" (٣) ولا يَزالُ هذا الشعور لما يُؤْثَرُ به في صميم الوجدان الروحي. وقال تعالى: "كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنا عربيا لقوم يَعْلَمون" (فصلت الاية ٣).

الاسلوب القرآني:

لقد نَزَلَ القرآنُ باسلوبٍ لا يُجارى في سِحْرِ بيانه كما في قُوَّةِ اقناعه وبلاغة تركيبه، مما دعا الوليدُ بن المغيرة (٤) احدُ خصومِ الرسول وقد سمعَهُ يتلو من آياته: "والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الانس والجن، وان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق" (٤).

اثر هذا الكتاب العظيم في البيان العربي:

كان للقرآن الاثرُ البعيدُ في اللغة العربية والبيان العربي، فقد تحوَّلَ الادبُ من قصائد الفخر والاخذ بالثأر والحماسة والغزل، ووصف الابل والخيل والسيوف والرماح، الى مواضيعَ جديدةٍ نَفَخَ فيها الدين من روحه، حياةً جديدةً والواناً جديدةً من المديح الديني والاشادة بالتراث الاسلامي الواسع الشامل. لقد تَحوَّلَ الادبُ بمواضيعه ومعانيه الى ادب عالمي، يخوض في مشاكل الحياة والجماعة لا القبيلة والفرد.

---

(١) البقرة الاية ٢٣
(٢) الزمر = ٢٣
(٣) المجازات النبوية للشريف الرضى ص ١١٥
(٤) الوليد بن المغيرة هو لسان العرب ورئيسهم وقد ارسل ليفاوض الرسول في امر دعوته ليتخلى عنها فرفض الرسول وتلا عليه آيات من القرآن الكريم، وعاد الى قومه، فقالوا: لقد عدت بغير الوجه الذى ذهبت به. فوصف لهم ما سمع من آيات لا يشبهها كلام الناس، ومن هذا الوصف هذا المقطع.

لكنا نرى الشعراء يهتمون بتنظيم امور الحياة الدينية والدنيوية . ولقد ارتقى رقيا مرموقا ، واتسعت آفاقه فهذا لبيد بن ربيعه احد اصحاب المعلقات وقد قدم على الرسول في وفد من قومه واسلم وحسن إسلامهُ ، استغنى بالقرآن وقراءته ، عن شعره الذي نبغ فيه وكان اذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن وقال : "أبدلني اللهُ خيراً منه " (١)

من هنا نرى تأثيرَ القرآن الكريم على الادب العربي من حيثُ اللفظ ومن حيثُ المعنى اما اللفظُ ، فقد وُلِدَت مع الاسلام كلماتٌ جديدةٌ من وحي الدين الجديد ، وحاجاتِ المجتمعِ الاسلامي . كمثل كافر ومشرك وصوم وصلاة وزكاة .. فكل هذه المدلولات لم تكن من قبل .

اما من حيثُ المعاني فقد عَلَّمَ الاسلامُ العربَ الأسُسَ الصحيحةَ ، والمبادئَ الجديدةَ مبينا لهم ماهيَّةَ الحياةِ بعدَ الموتِ من البعْثِ والنشور .

كما انه نَظَّم لهم حياتَهم في الاسرة من زواجٍ وطلاقٍ وارثٍ ومعاملةٍ عائلية ، واهتــمَّ الاسلامُ بتنظيم الجماعةِ تنظيماً مادياً وادبيا وعقليا وروحيا . كلُّ هذه الموضوعات الجديـــدة صَاغها الشُعَراءُ والأُدَباءُ جميعاً بلهجةٍ واحدةٍ من بين اللهجات العربية المختلفة . ولا يخفى ان لهجةَ قريش كانت السائدةَ ، وهي التي حَمِلَها العربُ معهم ونشروها في البلدان البعيدة التي انضوت تحت لواء الاسلام .

ولا شَكَّ ان قراءة القرآن فَرْضٌ مكتوبٌ على المسلمين قال تعالى : "ورَتِّل القــرآنَ ترتيلا" (٢) وقال تعالى ايضا : " ومَنْ أعرضَ عن ذكري فان له معيشةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يومَ القيامة اعمى ، قال : "رَبِّ لم حَشَرْتَني اعمى وقد كنتُ بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليومَ تُنْسَى "(٣)

---

(١) انظر ترجمة لبيد في طبقات الشعراء لابن سلام الشعر والشعراء لابن قتيبـــة والاغاني ج ٤ ص ٧٤

(٢) الفرقـان الايـــة ٣٢

(٣) طـه الايـــــة ١٢٤_١٢٥

خاتمة البـــاب الاول

كان موضوعنا في هذا الباب سيرة النبي محمد (ص) وما احدثه هذا الرســول الكريم من تغيير جذري في الجزيرة العربية ذلك التغيير الذي ناء خيرا وبركة على المسلميــن وعلى الناس اجمعين ·

ولا نعجب من ذلك التغيير المذهل الذي هزّ العالم العربي ، ثم عــلا شأنه حتى ملأ الكون باسره نورا نيرا ، يجذب الناس الى المعرفة الحقة ، والحق المطلق والخير العميم ، لا نعجب ابدا ان علمنا ان الله قد اصطنع محمدا لنفسه ، ورباه فاحسن تربيته وكمــل خلقه ، حتى قال فيه - وهو اصدق القائلين - "وانك لعلى خلق عظيم" (القلم: ٤) ثـــم بعثه الى الناس جميعا ، المسلمين وغير المسلمين مبشرا ونذيرا، قال تعالى : "يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا داعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا" (الاحزاب ٤٥ - ٤٦) ·

كان للاسلام اثرٌ بعيدٌ في تغيير المجتمع العربي بما اعطى من تعاليـــم خالف فيها عقائد العرب الجاهليين وعاداتهم واعرافهم ·

فلا بد اذن من حدوث تلك الهزة العنيفة في المجتمع العربي الجاهلي ، على اثر تلك التعاليم الاسلامية من نواح ثـلاث :

١ - العقائـد ٢ - الاعمـــال ٣ - الاخـــلاق

أ - العقائــد : من اهم الاصول في الاسلام الاعتقاد بالله · ولئن كان هذا الاعتقاد عاما بين الشعوب ، فالاسلام وصف الله باوصاف مختلفة عما سبقه · لخصها القرآن الكريم · فهو ليس اله امة العرب وحدهم ولا اله الناس وحدهم - بل هو اله كل شيء "رب العالمين" ·

ب - الاعمــال : هناك اعمال يجب على المسلم اداؤها ، شرحها الرسول (ص) وفصّلهـا لمن تبعه من الناس وآمن برسالته ، وهي : الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد في سبيل الله ، قال تعالى : "وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم لعلهم يتفكرون" (النحل الاية ٤٤) ·

ج - الاخـــلاق : القرآن مأدبة الله والداعيَ اليها محمداً رسول الله (ص) علم الناس كـــل ما يحتاجون اليه في مجتمعهم من آداب اجتماعية وخلقية وانسانية · فمن آداب اللياقـــة قال تعالى : "واذا حييتم بتحيــة فحيوا باحسن منها او ردوها" (النساء ٨٦) ومن الاداب الاجتماعية والانسانية : الوفاء بالوعد والصبر في الشدائد ، والعدل مع من احببت اوكرهت

·/·

والعفو عند المقدرة ، قال تعالى : " الموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس " (البقرة ١٧٧) وقال : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي " (النحل ٩٠) .

ان هذه التعاليم الاسلامية الخيّرة التي بلّغها الرسول للناس اجمعين هدم بها الاسلام الوحدة القبلية والوحدة الجنسية ، وكره التفاصيل بشرف القبيلة وشرف الجنس ، لا تفاضل بين الافراد الا بطاعة الله وتنفيذ امره : " انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم " . وقال تعالى ايضا : " ان اكرمكم عند الله اتقاكم " .

والخلاصة ان هذه التعاليم الاسلامية الجديدة التي بلغها رسول الله محمد (ص) ورسول الانسانية جمعاء ، قد رفعت من مستوى العرب العقلي الى درجة كبرى ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم الجديدة ان يرقى الى فهم آله لا مادة له واسع السلطان واسع العلم .
كما كان لتعاليم الاسلام اثر كبير في تغيير قيمة الاشياء في نظر العرب فارتفعت قيمة اشياء وانخفضت قيمة اخرى .

وعندما يتغير الميزان العقلي يتغير كل شيء في الوجود . فحياة العرب الاجتماعية قد تغيرت من حياة جاهلية ضيقة الى حياة انسانية سامية .

والحياة الاقتصادية انقلبت من غزو وحرب وقلق الى حياة مستقرة هادئة .
والحياة السياسية احدث فيها الاسلام تغييرا متطورا ، اذ لم يعد لشيخ القبيلة السلطة المطلقة بل اصبح الفرد صاحب رأى معدود وصوت مسموع وشخصية مستقلة .
والحياة الدينية ، قد شرحنا عنها ما يكفي ، انقلبت من حياة شرك وكُفر الى حياة توحيد وايمان .

والحياة الادبية ، وهي صورة لكل ما وصفنا ، لا بد ان تغيرت بكل ما فيها من اهداف بعيدة ومثل عليا .

فعملنا في الباب الاول اقتصر على رسم صورة المجتمع العربي في الجاهلية من جميع النواحي لنرى كيف تغير هذا المجتمع تغييرا يكاد يكون كاملا بوحي دين الله الكريم ورسول الله العظيم .

./.

" قال الله عز وجل في كتابه الكريـــم :

" إقرأ باسم ربِّكَ الذي خلقَ خلقَ الانسانَ من علقْ إقرأ وربُّك الاكرمُ الذى علّمَ بالقلـم علّم الانسانَ ما لم يعلم " العلق الايــة ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥

" ومَنْ يُسْلِمْ وجهَهُ الى الله وهو مُحْسِنٌ فقد استمسكَ بالعُرْوَةِ الوثقى لا انفصامَ لها " لقمـان الاية ٢٢

" اليومَ اكملْتُ لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الاسلامَ دينا ومن يبتغ غيرَ الاسلامِ ديناً فلنْ يُقْبَلَ منه " المائدة الاية ٣

" فاعلم انه لا إلهَ الا اللهُ " محمد الايــة ١٩

" ثم انكم بعد ذلك لَميّتون ثم انكم يومَ القيامةِ تبعثُون " المؤمنون الاية ١٦

" انما المؤمنون اخوةٌ فاصلحوا بينَ اخويكُم " الحجرات الاية ١٠

" يا أيُّها الناسُ انّا خلقْناكم من ذكرٍ وانثى وجعلْناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفـــوا ان اكرمكم عند اللـه اتقاكـم " الحجرات الاية ١٣

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلـم :

" بني الاسلام على خمس: شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسولُ الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وحج البيت وصوم شهر رمضان " رواه البخاري ومسلـم

" الناسُ عيالُ الله عز وجل فاحبُّهم اليه انفعُهم لعياله " المجازات النبوية ص ٢٤١

" المؤمنُ مرآة أخيه " المجازات النبوية ص ٧٩

تمهيـد البـــاب الثانــي

البـــاب الثانــي : الحديث النبـوي منهج للتغيير

يحتوى هذا الباب على ثلاثـة فصـول :

الفصـل الاول : نشأة الحديـث النبـوى وأثره في البيان العربي

اهتمام المسلمين بالحديث وعلى رأسهم الصحابة • كان بعضهم يحضر مجالس الرسول (ص) مقيما عنده فيتلقى الحديث مباشرة ثم يعود ويعلمه لاهله وقومه والبعض الاخر من الصحابة كان يتعذر عليهم الحضور دائما، فكانوا يتناوبون ويأخذون الحديث بعضهم عن بعض •

وتنحصر طرق تلقي الحديث بثـلاث :

أ – حوادث كانت تقع للرسول نفسه فيبين حكمها فينتشر هذا الحكم بين المسلمين ويصبح قاعدة يقاس عليها •

ب – حوادث كانت تقع للمسلمين فيسألون الرسول عنها فيفتيهم مبينا حكم ما سألوا عنه •

ج – وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول (ص) في صلاته وحجه وسفـــره واقامته فنقلوها الى التابعين الذين بلّغوها الى من بعدهم •

تدويـن الحديـث : اثر موت الرسول (ص) كان قد دخل في الاسلام الكثير من الموالـي وقد وزهام في رواية الحديث • فمرة زيادة ومرة نقصانا ، ومرة سهوا ومرة نسيانا ، والحديث في ذلك العهد لم يدون رسميا • آراء مختلفة في شأن التدوين منهم من رغب ومنهم من كـــره ولكل حججه وبراهينه • شأن الصحابة في امر التدوين ثم شأن التابعين ثم اتباع التابعيـــن موطأ مالك امام المدينة (١٧٩ هـ) السنة المرتبة على الابواب حصلت في عصر اتباع اتباع التابعين في عصر البخاري حيث الفت الصحاح الستة • من اجل حماية الحديث وحفظـــه الفت كتب سموها : علم مصطلح الحديث •

٢ – أثر الحديث في البيـان العربـــي

صفات صاحب الحديث الادبية – الرسول هو افصح من نطق بالضاد • وصف الجاحـــظ لاسلوبه الادبي الـرائع – استفادة اهل اللغة من الحديث واستفادة ارباب البلاغة والادب – عن طريق الحديث انتشرت اكثر موارد الثقافة في العالم الاسلامي – اعتماد علماء التاريخ علـى علماء الحديث • ابن خلدون اعتمد اصول الرواية عن علماء الحديث – رأى احمد امين فـــي هذا الموضوع •

./.

الفصل الثاني : تطور الحديث النبوي مع اتساع الدعوة الاسلامية

الفتوحات الاسلامية واتساع مناطق النفوذ . نشر الصحابة للحديث في البلاد التي مكثوا فيها علموا القرآن الكريم والحديث الشريف . العهد المكي وماتعرض له في بيان اصول الدين كالايمان بالله ، والعدل والاحسان والوفاء وكل ما يتعلق بمكارم الاخلاق .

العهد المدني ومنه كانت التوجيهات الاخلاقية والتشريع في الامور المدنية والاحوال الشخصية والارث واصول البيع والتجارة والوكالة والحرب والسلم والصلح والجهاد .

الفصل الثالث : الحديث في العهد النبوي

الحديث النبوي الذي بين احكام القرآن وفرّع اصوله واوضح غوامضه ، هو التطبيق العملي للاسلام على يد رسول الله محمد (ص) فلا غنى للمسلمين عن هذا المصدر التشريعي الهام الى جانب القرآن ، كما لا غنى لهم ايضا عن ذلك المعين الدافق في الاداب والاخلاق . لذلك حث الرسول على حفظ الحديث ثم نشره ثم تبليغه . كما حث على التفقه بجميع العلوم الدينية قال (ص) : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " (١)

اتبع الرسول الكريم منهجا خاصا في تعليم الحديث . عقد مجالس علمية ـ او جواب على سؤال اثر مشاكل يقع فيها الناس فيقصدون الرسول (ص) . اهتمام الصحابة والتابعين بالحديث : حرص بعض الصحابة على نقل الحديث بالفاظه وبعضهم ترخص في روايته بالمعنى عند الضرورة وبشروط . وكثيرا ما كانت تعقد المناظرات والمذاكرة بين اصحاب الحديث لتعرف طرقه ويكشف عن القوى والضعيف منه .

وبذلك كان للقرآن الكريم حفظ اللغة العربية وتوحيدها بعدما كانت لهجات متفرقة وانتشارها بين ملايين الناس كافة مدى الاجيال المتعاقبة حتى اليوم .

بفضل القرآن وما يتضمن من تعاليم وتشريعات ، تحول العربي من انسان جاهل ، مؤمن بالخرافات ويذبح العتائر حول الاصنام ، الى انسان مؤمن ، محب للعلم شغوف بالمعرفة ، يسعى وراءها اينما كانت . فبدأت بوادر النهضة تشع امام العقل المتبصر بمساعدة الشعوب والامم التي دخلت في الاسلام وشاركت في النهضة الاجتماعية والادبية والعلمية (٢) .

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده ج ١٢ ص ١٨٠ وانظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢١
(٢) راجع العقد الفريد ج ٢ ص ٩٠ ـ ٩١

./.

وحقا نقول ان اكثر ماكسبته لغتنا من آداب في الشعر والنثر والعلوم اللسانية والعقلية والفلسفية انما كان بفضل القرآن ، فهو الذى احيا اللغة العربية ، ونفخ في روحها فأتاح لها الحياة على توالي القرون . وهو الذى نقلها من لغة البداوة الضيقة ، الى لغة عالميــة يتحدث ويكتب بها الكثير من الشعوب غير العربيــة .

الباب الثاني : الحديث النبوي منهج للتغيير

الفصل الاول : نشأة الحديث

١ـ نشأة الحديث :

الحديثُ النبويُّ هو الاصلُ الثاني للاسلام بعدَ القرآن ، وتَرْجِعُ اهميّته الى انه متمم في بيان احكام الشريعة الاسلامية . وقد اهتم المسلمون اهتماماً بالغاً بالحديث وعلى رأسهم الصحابةُ ، فقد كان بَعْضُهم يُقيمُ عندَ الرسولِ ليتعلَّمَ احكامَ الاسلام وعباداته ، ثم يعودُ الى اهله وقومه يعلّمُهم ويفقههم مماتلقاهُ مباشرةً من الرسول .

من هذا ماأخرجَه البخارى عن مالك بن الحويرث قال : "اتينا الرسولَ (ص) ونحن شببةٌ متقاربون ، فاقمنا عنده عشرين ليلةً ، فظنَّ انا اشتقنا الى اهلنا ، وكان رفيقا رحيما ، فقال : " ارجعوا الى اهليكم فعلّموهم ومروهم ، وصلّوا كما رأيتموني أصلي ، واذا حضرت الصلاةُ فليؤذن لكم احدُكم ، ثم ليؤمّكم اكبرُكم " (١) .

اما البعضُ الاخرُ من الصحابة ، فكان يتعذرُ عليهم الحضورُ مجالسَ رسولِ الله دائما ، وذلك لقيامهم باعمالهم المعيشية ، من رعاية وتجارة وغيرها ، فكانوا يتناوبون في الحضور ، ويأخذون الحديثَ عن بعضهم البعض .

يقول البراءُ بن عازب الاوسي : " ماكلُّ الحديثِ سمعناهُ من رسولِ الله (ص) كان يحدثنا اصحابُنا وكنا مشتغلين في رعاية الابل ، واصحابُ رسول الله (ص) كانوا يطلبون ما يَفوتُهم سَماعَه من رسول الله ، فيسمعون من اقرانِهم ، وممن هو احفظُ منهم ، وكانوا يُشدّدون على من يَسمعون منه " (٢)

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٥٢
(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابورى ص ١٤

لم يكن للدس او الكذب في الحديث من وجود آنذاك فلا يتهم بعضهم البعض ففي رواية عن قتاده ، ان انسا حدث بحديث فقال له رجل : " اسمعت هذا من رسـول الله ؟ قال : نعم . اوحدثني من لم يكذب والله ما كنا نكذب ولا كنا ندرى ما الكذب " (١)

فرواية الحديث كانت معروفةً في حياة الرسول (ص) وكانت كلُّ قبيلة ، تأخـذ معها معلما يعلمها القرآن والسنة ، لذلك كان الرسول يعقب على احاديثه وخطبه بقولـه : " الا فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ " (٢)

والى جانب هذه المجالس كان الصحابة يتلقون السنة عن الرسول بطرق عدة يمكن حصرها :

أ ـ حوادث كانت تقع للرسول نفسِه ، فيُبيِّنُ حُكْمَها ، فينتشر هذا الحُكْمُ بينَ المسلمين بمـن سمعوه منه . مثال ذلك ما رواه القاسم بن محمد ان عائشة اخبرته : " ان رسولَ الله دخـلَ عليها وهي مستترة بقرام (ثوب من صوف ملون) فيها صورة تماثيل فتلون وجهه ثم اهوى القرام ، (٣) فهتكه بيده ثم قال : " ان اشدَّ الناس عذابا يومَ القيامة الذين يشبهون بخلق الله عز وجـل "

ب ـ حوادث كانت تقع للمسلمين فيسألونَ الرسولَ عنها ، فيفتيهم ويُجيبُهم ، مبينا حُكمَ ما سألوا عنه . من . هذه الحوادث ما يتناولُ خصوصياتِ المسائل ومنها ما يتعلقُ بغيره وكلُّها مـن الوقائع التي تعرض للانسان في حياته من ذلك ماحدث لامرأة جاءت عائشة تسأل . روى عروة عن عائشة رضي الله عنها : " قال : جاءت امرأة رفاعة الى النبي (ص) فقالت : ان رفاعـة طلقني ، فأبت ط(٤) طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وان ما معه مثل هدبة الثـوب فقال : " اتريدن ان ترجعي الى رفاعة ؟ لا ، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك " (٥)

ج ـ وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابةُ تصرفاتِ الرسول (ص) في صلاته وصيامه وحجه وسفره واقامته .. فنقلوها الى التابعين الذين بلَّغوها بدورهم الى من بعدهم . من ذلك مـا رواه علي بن ابي طالب (ع) عن الرسول (ص) قال : " اوتر رسول الله (ص) من اول الليـل وآخره واوسطه فانتهى وتره الى السحر" (٦) .

---

(١) الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٢

(٢) راجع مثلا خطبة الوداع في السيرة ج ٢ ص ٦٠٣ وصحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٠٦

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٢٩

(٤) بت وابت اى طلقني ثلاثا . والبت القطع

(٥) معرفة علوم الحديث ص ١٣٠ وصحيح مسلم حديث ١١١ وما بعده ج ٢

(٦) مسند الامام احمد ص ٦٤ حديث رقم ٦٥٣ ج ٢

ولما توفي الرسول (ص) كان قد دخل في الاسلام الكثيرُ من الموالي ، فأخذ هؤلاء يحاولون معرفةَ كلِّ شأنٍ من شؤون الرسول ليقتدوا به ويسيروا عليه . ومن بين هؤلاء الموالي ، من لعبَ دوراً هاما في رواية الحديث ، فمرةً يزيدُ ومرةً ينتقص ومرة ينسى او يسهو ، واخرى يتناسى عن قصد ، فيقدم ويؤخّرُ الى ما هنالك من علل .

والحديثُ في ذلك العهد لم يُدَوَّن رسميا ، بل كان هناك من يدونونه ومن لا يدونونه وقد نَقَلَ لنا الرواةُ عن الرسولِ اخباراً مختلفةً فيما يعودُ الى التدوين يدعو بعضُها الى تدوينه ويدعو البعضُ الاخرُ الى عدم تدوينه! (١) وعُذْرُهم في عدم التدوين لعله كان يخشى ان دُوِّنَ الحديث ان يختلط بالقرآن او ان يُشْغَل المسلمون عنه ! !

وعلى كل حال لم يجد مانعا في بعض الاحيان من أن تُكْتَبُ عنه بعضُ الاحاديث التي تتعلق بالاحكام . ودليلُنا على ذلك ما يروى ، من ان الرسولَ حين أرْسَلَ معاذ بن جبل الى اليمن سأله : " بم تحكم ؟ فقال : بكتاب الله ، قال فان لم يجد ، قال بسنة رسوله " (٢) هذا كان يجرى في حياته (ص) .

اماإذا انتقلنا الى عصر الصحابة ، وجدناهم غالبا يكرهون تدوينَ الحديث (٣) بينما يرغبون في روايته . وهو امر غريب ! يُحِبون روايةَ الحديث ويكرهونَ تَدْوينَه ؟! سؤال يحتاج الى بحث وتفسير .

ومما يروى عن ذلك انه اشار جماعةٌ من الصحابة على عمر بن الخطاب ، بشأن تدوين الحديث ، فلبث شهراً يستخيرُ الله في ذلك ، ثم اصبح وقد عزم الله له فقال : " اني كنت قد ذكرتُ لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فاذا اناسٌ من اهل الكتاب قَبْلَكم قد كتبوا مع كتاب الله كُتُباً ، اكبوا عليها وتركوا كتابَ الله ، واني لا أُلْبِسُ كتابَ الله بشيء ، ابدا " (٤)

ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدوينا عاما رسميا مكتفين بروايته . وظلت هذه الفكرة شائعةً في عصر التابعين (٥) حتى اذا كان عَصْرُ عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الاولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوين الحديث رسميا ، ولكنه لم يكتب له الحياة لينفذ اوامره (٦)

بقي الحال على هذا المنوال ، بين التدوين والخوف منه ، حتى النصفِ الثاني من القرن الثاني للهجرة . فكان مُوَطّأ مالك امام المدينة (- ١٧٩ هـ) وان كان الحديثُ ممزوجا بفتاوى الصحابة والتابعين .

---

(١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٢٩ ومابعدها وص ٦٥ ومابعدها
(٢) انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ١ ص ١٢٦
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ومابعدها
(٤) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٦٤
(٥) = = = ص ٤٥ ومابعدها و ٩٩ ومابعدها
(٦) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٥٧ وتهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٢٩

وجاء عصر اتباع التابعين على رأس المائتين للهجرة فظهرت عناية العلماء بتأليف المسانيد المقصورة على السنة النبوية الخالصة . ومن هؤلاء السباقين كان ابو داوود الطيالسي (- ٢٠٤ هـ) ومن بعده احمد بن حنبل (- ٢٤١ هـ) الذى يعد من اتباع التابعين .

والخلاصة ان السنة الصحيحة مرتبة على الابواب ، لم تحصل الا في عصر اتباع اتباع التابعين ممن عاصر البخاري ، حيث أُلّفتْ الصحاحُ الستة : البخاري - مسلم - الترمذي - ابي داوود وابن ماجه والنسائي (١) .

وقد وضع حول الحديث سياج محكم منذ العصر الاول للهجرة حتى لا يدخله الوضع والانتحال فاقاموا من اجله علما سموه : مصطلح الحديث .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول (ص) وان كان قد اجمعوا على انه في جملته روي بالمعنى ولم يرو باللفظ بسبب تأخر تدوينه .

٢- اثر الحديث في البيان العربي

صاحبُ الحديث ، مدارُ بحثنا ، هو الرسولُ محمد (ص) الذى اوتي جوامع الكلم فلا ينطق الا عن ميراث حكمه ، وكان يكرهُ الاغرابَ في اللفظ والتعسف والتكلف ، ولنا في سحر بيانه ، وروعة تعبيره ، وبلاغة كلامه ، ما قال عنه الجاحظ في البيان والتبيين :

" لم يتكلم الا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ، ويُسِّرَ بالتوفيق ، وهو الكلام الذى القى اللهُ عليه المحبةَ ، وغشّاه بالقبول ، وجمعَ له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام . . لم تَسْقُط له كلمةٌ ولا زَلَّتْ به قَدَمٌ ولا بارت له حُجَّة ولم يَقُم له خصم ، ولا افحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار ، ولا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلج (٢) الا بالحق ، ولا يسمع الناس بكلام قط اعمَّ نَفْعاً ، ولا أَقْصَدَ لفظا ، ولا أَعْدَلَ وزنا ، ولا أجملَ مذهبا ولا اكرم مطلباً ، ولا أَحْسَنَ موقعا ، ولا أَسْهَلَ مَخْرَجا ، ولا أَفْصَحَ معنى ، ولا أَبْيَنَ في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم " (٣) .

وقد اختارَ الشريفُ الرضي الاحاديثَ النبويةَ التي تعتبر قدوةً لكُتَّابِ الادب ومنهلَ رواد البلاغة واصولا في البيان العربي (٤) .

هذا ماجعل الحديثَ النبويَ في مرتبة من الفصاحة لا تداني ، ودَفَعَ الادباءَ الى استظهار عبارات الرسول ، والاقتباس منها ، والاستعانة بها في شعرهم ونثرهم وخطبهم ، وذلك لِتَظْهَرَ

---

(١) انظر صبحي الصالح في علوم الحديث ومصطلحه ص ١١٨
(٢) الفلج : الفوز والظفر
(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧
(٤) انظر المجازات النبوية للشريف الرضي

نيّرةً فوق مستوى كلام الناس وليكونَ لها من الفضل وقوةِ الحجة والبرهان ، ما ليس لكلام الآخرين . وقد اتخذه علماءُ الحديث مادةً لهم ، ففسروها وادركوا ماني الحديث النبوى من حكمةٍ ونورٍ ومُثُلٍ عليا ، ترنحُ من شأن الانسان وتبني المواطنَ الصالحَ وتُوجهُهُ نحو الافضل والاكمل .

كما استفادَ من الحديث ايضا اهلُ اللغة ، فاخذوا بدراستها للاستفادة من الفاظها المشرقة وتراكيبها المتينة ، واخيلتها البعيدة وصورها اللطيفة .

اما اربابُ البلاغةِ والادب فقد وجدوا في الحديث مادةً عَذْبَةً لبلاغتهم وأَدَبهم يترسمون أَثَرَهُ وينسجون على منوالهِ ، فيما احدث من بلاغة في المعاني وفصاحة في التعبير ، حتى سارت بعض الاحاديث النبوية مذهبَ الامثال ، تتناقلها الاجيال بعضُها عن بعض .

وعن طريق الحديث انتشرت في العالم الاسلامي اكثرُ موارد الثقافة ، فعلمُ التاريخ اعتمد الحديثَ مادةً له ~~قال احمد امين~~ كما يأتي بيان ذلك فيما بعد

" فالتاريخُ الاسلامي بدأ بشكل حديث ، كالذى ترى في كتب الحديث من مغازٍ وفضائلَ اشخاصٍ وفضائلَ امم ، ثم تَطَوَّرَ التاريخُ ، الى ان اصبح كتبا قائمةً بنفسها ، ودليلُنا على ذلك ان كُتُبَ التاريخ الاولى كسيرة ابن هشام ومايروى ابن جرير عن ابن اسحق ، والبلاذرى في فتوح البلدان ، يكاد يكون نمطها واسلوبها ، نمطَ حديثٍ واسلوبَ حديث " (١) .

حتى ان المؤرخَ الكبيرَ ابن خلدون ، اعتمد على علماء الحديث في وَضْعِ أُصول الرواية وطرق تحملها في مقدمته الشهيرة . وبذلك لا يعد واضعَ أُصولٍ في الرواية ، بل هو مُقلِّدٌ اكثرُ منه مبدع .

الفصل الثاني

٣- تطور الحديث مع اتساع الدعوة الاسلامية

اقام رسول الله نحو ثلاثَ عشرةَ سنة بمكة ، ثم اقام عشرَ سنين بالمدينة ، سُمِّيَ العهدُ الاولُ بالعهد المكي والعهدُ الثاني بالعهد المدني . ولكل عهد صفاته وتشريعاته .

وبعد ان عمَّ الاسلامُ الجزيرةَ العربيةَ باسرها ، اصبحت البلادُ كالقلعة الحصينة للاسلام ، تنبعثُ منها انوارُ الهدايةِ للعالم .

إنَّ آخرَ لواءٍ عقدَه الرسولُ قبلَ وفاته هو لواءُ اسامةَ بن زيد لفتح الشام (٢) ولكن المنيةَ ادركته .

---

(١) احمد امين فجر الاسلام ص ٢٢٧

(٢) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٦٥٠

وخلفَ الرسولَ (ص) ابو بكر الصديق فوجّهَ جيشَ الرسول الى بلاد الشام ، واتسعت الفتوحاتُ الاسلاميةُ، وامتدت الدولة الاسلامية ففتحت بلاد الشام كلَّها (فلسطين وسوريا ولبنان) والعراق في سنة واحدة . يُقال انها السنةُ السابعة (١) وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة (٢) ووصلَ المسلمون في خلافة عثمان الى بلاد فارس سنة احدى وعشرين (٣) ثم ارتفعت بنودُ الاسلام غرباً في ربوع الاندلس سنة ثلاث وتسعين (٤) واخيرا على حدود الصين شرقا سنة ست وتسعين (٥) .

ولا شك انه كان في طليعة الجيوش الاسلامية صحابةُ الرسول (ص) والتابعون من بعدهم فكانوا كلما دخلوا بلدا اقاموا فيه المساجدَ ومكثوا يعلمون القرآنَ الكريمَ وسُنَّةَ رسول الله الشريفة (٦) .

وكان الخلفاء يمدون البلادَ الجديدة بالعلماء وقد استوطنَ كثيرٌ من الصحابة تلكَ الامصار، يرشدون اهلها، وينهلون من الينابيع التي أُخِذَتْ عن الرسول . وقد تخرج في مكة مثلا، كما جاء في فجر الاسلام على ايدي الصحابة : مجاهد بن جبر، وعطاء بن ابي رباح ، وطاوس بن كيسان وعكرمه مولى ابن عباس وغيرُهم (٧)

كما هبطَ الكوفةَ ايضا الكثيرُ من الصحابة منهم : علي بن ابي طالب (ع) وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن مسعود وغيرُهم (٨) الذي كان له شأن يذكر في تعليم كبار التابعين .

يروي لنا ابن سعد في طبقاته فيقول : " وكان في بني ثور الذين نزلوا الكوفةَ ثلاثون رجلا منهم : "كميل بن زيد النخعي ، وسعيد بن جبير الاسدي ، وابراهيم النخعي وابو اسحق السبيعي وعبد الملك بن عمير (٩)

وهكذا اصبحت في الاقاليم والامصار الاسلامية مراكزُ علميةُ عظيمةُ ، تشع منها انوارُ الاسلام وعلومه بواسطة حُفَّاظ الحديث الشريف من الصحابة واتباعهم .

العهد المكي :

العهدُ الاول للرسول او العهد المكي ، يكاد لا يتعرَّض لشيء من التشريع في المسائل المدنية ، والاحوال الشخصية وانما يقتصر على بيان اصول الدين والدعوة الى اعتناقها : كالايمان بالله والامر بمكارم الاخلاق كالعدل والاحسان والوفاء بالوعد ، وأخْذِ العَفْوِ ، والخوف من الله وَحْدِه وتَجنُّبِ الاخلاق السيئة كالزنا والقتل ، ووأد البنات ، والتطفيف في الكيل . وباختصار النهي عن كل ما هو كفر او مكروه .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٩٩
(٢) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٦
(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٧٩
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٣
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٥
(٦) انظر الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٢٤٦ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٥
(٧) انظر فجر الاسلام ص ١٧٤
(٨) انظر معرفة علوم الحديث ص ١٩١
(٩) انظر طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٤ وانظر معرفة علوم الحديث ص ٢٤٣ ـ ٢٤٨

قال (ص) عن الاسلام : "ان الله سبحانه جعل الاسلام دارا، والجنة مأدبة والداعيَ الينا محمدا" (١)

فالاسلام دار، والجنة في تلك الدار، والنبي يدعو الناس الى الدخول في الاسلام لينالوا من نعيم الجنة ومن خيراتها .

وقد نبّه الرسولُ (ص) الناسَ وحذّرهم عملا بقوله تعالى : "وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا" (٢)

كما قال عليه الصلاة والسلام : "انا النذيرُ والموتُ المغير" (٣)

وقد حدّث الرسولُ (ص) عن الحلال والحرام وحدودهما ، عن النعمان بن بشير قال رسول الله : "الحلالُ بيّنٌ، والحرام بَيّن ، وبينهما امورٌ متشابهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وَقَعَ في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه . الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله محارمُه ، الا وان في الجسد مُضْغَةً ، اذا صَلُحَت صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّه ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب" (٤)

ولعل اوضح ما يبينُ التعاليمَ التي كان يدعو اليها الاسلام في مكة هي سورة الانعام المكية .

العهد المدنـــي :

ومنه تنضح التوجيهاتُ الاخلاقيةُ والتشريعُ في الامور المدنية ، من بيع وأيجار وربـا ، والامورُ الجنائية ، من قتل وسرقة .. والاحوالُ الشخصية : من زواج وطلاق وكل ما يعود الى تنظيم الاسرة .

ادرك الرسولُ الكريم من وحي الاية الكريمة : "وأَحَلَّ اللهُ البيعَ وحَرَّمَ الربـا "(٥) ان الزيادة من غير مقابل ولا عوض هي السر في تحريم الربا . وقال صلى الله عليه وسلم :

"الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبُرُّ بالبُرِّ ، والشعر بالشعر ، والتمر بالتمر والملح بالملح ، مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يدا بيد ، فمن زاد او ازداد فقد أربى" (٦)

---

(١) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ١٨٣
(٢) الاسراء الاية ١٠٥
(٣) المجازات النبوية ص ١٨٤
(٤) رواه الشيخان البخارى ج ٢ ص ٣
(٥) البقرة الاية ٢٧٥ ،
(٦) اورده مسلم في صحيحه واحمد في مسنده وابي داود في سننه وهو مشهور

اما عن الاسرة ، وعن الزواج المخالف للشرع الذى لم تراعَ فيه اصولُ العقد الزوجي ، فقال (ص) : " ايما امرأة نكحت بغير اذن مواليها فنكاحها باطل " (١)

اما فيما يخص الارث فقد غيَّر الاسلامُ النظامَ الجاهلي وامر بتوريث المرأة .
فقد روى عن ابن عباس انه قال : " لما نزلت الفرائضُ التي فرضَ الله فيها للولد الذكـر والانثى والابوين ، كرهها الناس وقالوا : تُعطى المرأةُ الربعَ والثمنَ ، وتُعطى الابنةُ النصـف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء احد يقاتل القومَ ولا يجوز الغنيمة ! ... الخ " (٢)

والخلاصة ان الرسولَ في العهد المدني اهتم بكل ما يعود على تأسيس الدولة الاسلامية من تنظيم دولي كالعدل والمساواة والزكاة .. ومن ثم عمد الى بناء المجتمع ، فوضع اصولَ البيع والتجارة والوكالة والرهن والحرب والسلم والصلح والجهاد .. (٣) .

. . .

الفصـل الثالـث

٤ـ الحديث في العهد النبـوى :

اهتمام الرسول بالحديـث :

أمر الله نبيه محمد (ص) لِيُبيِّنَ للناس ما خَفِيَ عليهم من مقاصده ، ويشرح لهم طـرق تنفيذه ، فحدثهم شارحا وموجها وناصحا ، قال تعالى : " وأَنزَلْنا اليك الذِكْرَ لتبَيِّن للناس ما نـزل اليهم ولعلهم يتفكرون " (٤) . وقال ايضا سبحانه : " وما انزلنا اليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " (٥)

فنرى ان الله قد اعد رسوله للقيام باعباء رسالته ، ثم امر الناس بطاعته : " ياايها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون " (٦)

ثم شدَّدَ تعالى في الاخذ عن الرسول أَخْذاً صحيحا صادقا ، وحصر القول حصرا لا يقبل التأويل فقال : " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى اللهُ ورسولُه امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " (٧)

ولا خفاء بعد هذا ، في ان كتاب الله هو اصل دينه ، وان سنة نبيه ـ قولا او فعـلا او تقديرا ـ هي الموضحة لاحكامه والمفصلة لاعماله ، فهما منبعان متعاضدان للتشريع . ولا شبهة

---

(١) قارن بسنن ابي داود ٢/ ٣٠٨ (باب في الولي) والحديث من رواية السيدة عائشة
(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٤ ص ٨٦
(٣) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ١١١ وص ١٣٤
(٤) النحل الآيـة ٤٤
(٥) النحل الآيـة ٤٩
(٦) الانفال الاية ٢٠
(٧) النساء الآيـة ٦٩

في ان طاعة الرسول طاعة الله ، ومخالفة امره معصية لله . ومن عمل بالسنة على غير المنهج الذى انتهجه الرسول لا يكون عاملا بالقرآن . من هنا كان المقياس الذى سوف يرد بين المقاييس التي نعرضها . ان كل حديث يخالف القرآن هو حديث موضوع . وهنا يجوز لسائل ان يسأل :

هل يصح ان يدع النبي السنة منسية ، وهي المفصلة والشارحة والموضحة للقرآن ! ثم هل يمكن ان يهمل الحديثَ فيتركه في الصدور ، حتى يزيدَ فيه هذا وينسى منه ذاك . وهل يكون الرسولُ بعمله هذا ، قد بلّغَ الرسالةَ على وجهها ، وأدّى الامانة كاملةً الى اهلها ؟ !

لا اظن ان ذلك يحدث من رسولٍ عظيم كان خُلُقُه القرآنُ ، ونبيٍّ كريم (أدّبه اللهُ فاحسنَ تأديبَه) .

كان الرسولُ (ص) يحضّ اصحابه والمؤمنين جميعا على تفهم دينهم ، فيأمر الجهال ان يسألوا عم يجهلونه ، ويمنع العلماء ان يفتوا من غير علم ،

من ذلك ما رواه ابن عباس : " ان رجلا اصابه جرح في عهد رسول الله (ص) ثم نام فأصابه احتلام ، فأمر بالاغتسال فمات . فَبَلَغَ ذلك النبيَّ فقال : " قتلوه ! ! قتلهم الله ! ! لم يكن شفاءَ العِيِّ السؤالُ ؟ ! (١) .

لم يقتصر اهتمامُ الرسول (ص) على القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فقد اهتم ايضا بالعلوم الشرعية والعلوم الاخرى ايضا التي تفيد مشاكل المسلمين ، حفاظا على السنة من التحريف .

يروى انه لما قدم المدينة (ص) امر زيد بن ثابت ، لما لمس فيه النبوغ ان يتعلم لغة اليهود فقال : " يازيد تعلم لي كتاب يهود ، فاني والله ما آمن يهود على كتابي " (٢)

وفي رواية اخرى : " اني اكتب الى قوم فاخاف ان يزيدوا عليّ او ينقصوا فتعلم السريانية " (المصدر نفسه)

اهتم الرسول بالحديث اهتماما بالغا فأمر بتفهمه وحفظه ، ثم بتبليغه عن طريق الرواية الصحيحة ، اذ لا فائدةَ من علم مكتوم لا ينالُ منه الناسُ شيئا . لذلك امر الرسولُ بنشر الحديث وحرم كتمانَه ، فقال (ص) : " نضّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغَه ، فرب مبلَّغٍ اوعى من سامع ، ورُبَّ حامل فِقه غير فقيه ، ورب حامل فقهٍ الى من هو أفقَهُ منه " (٣) .

كما عمل بقوله تعالى : على نشر العلم وبيان احكام الله : " واذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين اوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تَكْتُمونه " (٤) .

ولكن الله يحذّرُ العلماءَ ليتفقهوا في الدين قبل ان يعملوا على نشره ، ولا يسمح لاى كان

---

(١) مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٤ سنن ابي داود ج ١ ص ٨٢
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٥
(٣) مسند الامام احمد ج ٦ ص ٩٦ وقد رواه الترمذى وابن ماجه
(٤) آل عمران : الاية ١٨٧

من القيام بهذه المهمة الصعبة والمسؤلية الكبيرة . لقد حثَّ اللهُ عزَّ وجل على طلب العلم وحثّ على التفقه فيه بنفس الوقت .

قال تعالى : "فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين وليُنْذِرُوا قَوْمَهم اذا رَجَعُوا اليهم لعلَّهم يَحْذَرون (١)

كما قال عز وجل في الحثّ على الاستزادة من العلم فقال : "وقل رب زدني علما "(٢)

وهكذا بين رسولُ الله (ص) مكانةَ العلم الديني وحضَّ اصحابَه والمسلمينَ جميعاً على طلبه والتفقه فيه ، وتبليغه ، لان لذلك أثراً بعيداً في حِفْظِ السّنَة ِالى جانبِ القرآن .

وصية رسول الله (ص) بطلاب العلم

لقد نَزَلَ الوحيُ على رسولِ الله (ص) أَوّلَ ما نزل بآيات تدعو الى التعلم وتطالبه بالقراءة . قال تعالى : "اقرأ باسم ربك الذى خلق" (٣) .

وانا لنجد القرآنَ الكريمَ ، بالاضافة الى دعوته الى التعليم ، وحضه على طَلَب العلم يبين درجاتِ العلماء ، يخاطبُ ذوى الالباب بقوله عز وجل : "قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون"(٤) وقوله : "يَرْفَعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلمَ درجات" (٥) .

بعد هذا هل يمكن لرسول الله (ص) وهو الامين على نشر دعوة ربه ، الا ان يحضّ على طلب العلم ويجعله فريضةً على كل مسلم . قال (ص) : "طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم " (٦)

وقد بين عليه الصلاة والسلام منزلةَ العلماء ، وحثَّ الامةَ على احترامهم ومعرفة حقوقهم فقال (ص) : "ليس من امتي من لم يجل" كبيرَنا ، وَيَرْحَمْ صغيرَنا ، ويَعْرِفْ لعالمنا حَقَّهُ" (٧) .

وعن ابي هارون العبدى قال : "كنا اذا اتينا ابا سعيد الخدرى قال : "مرحبا بوصية رسول الله (ص) الذى قال لنا : "انه سِيأتي بعدى قوم يسألونكم الحديث عني فاذا جاؤكم فالطفوا بهم وحدثوهم" (٨)

وفي رواية اخرى عن ابي سعيد الخدرى ، عن رسول الله (ص) يأمرهم بان يرحبوا بطلاب العلم فيقول : "سيأتيكم اقوام يطلبون العلمَ ، فاذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحباً بوصية رسول الله (ص) وافتوهم" (٩)

---

(١) التوبة : الاية ١٢٢
(٢) طه : الاية ١١٤
(٣) العلق: الاية ١
(٤) الزمر : = ٩
(٥) المجادلة: = ١١
(٦) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٠ رواه انس عن الرسول (ص)
(٧) مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢١ رواه الامام احمد باسناد صحيح
(٨) شرف اصحاب الحديث ص ٧٢ وقد رواه الخطيب البغدادى
(٩) سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٥ وهو يقصد بطلاب علم الدين

هذه لمحة سريعة عن موقف رسول الله (ص) من العلم ، وهو موقف مشجع لطلاب العلم الذين يكفيهم فضلا ان رسولَ الله (ص) رائدُهم وهو اولُ من حَمَلَ لواءَ التحرير من الجهالة والضلال .

ان التشجيعَ العلميّ بَلَغَ اوجَهُ في العهد النبوى ، فسبيلُ العِلمِ متيسرٌ للجميع ليس بينه وبين روادِه ايُّ حاجز او مانع .

ولننتقل بعد هذا الى منهج الرسول الكريم في التعليم .

. . .

منهج الرسول (ص) في تعليم الحديث

ان منهجَ الرسول في تبليغ الرسالة وتحديثهم شرحا وتفصيلا ، لا يتعدى منهجَ القرآن الكريم .

كان الرسولُ يُبلِّغُ قومَهُ ، ويحدِّثُ من حوله مفصلا تعاليمَ الاسلام ، ومطبقا احكامَ القرآن فكان معلما وحاكما وقاضيا ومفتيا وقائدا طيلة طوالَ حياته عليه السلام .

ان كلَّ ما يتعلق بالامة الاسلامية في جميع شؤونها وكلما يتناول الفردَ والجماعةَ في مختلف نواحي حياتهم ، حَدَّثه الرسولُ طيلةَ ربع قرن . فالسُنَّة شُرِّعتْ على مراحلَ لتربية الامة دينيا واجتماعيا وخُلُقيا وسياسيا ، في الحرب والسلم وفي العسر واليسر .

كان منزلُ الرسول في مكة ندوةَ المسلمين ومعهدَهم الذى يتلقون فيه القرآنَ الكريم ، وينهلون منه الحديثَ الشريفَ ، على يدى رسول الله (ص)

ولما عمت الدعوةُ وانتشرت ، اصبح المسجدُ المكانَ المعهودَ للعلم والفتوى والقضاء ، الى جانب اقامة الشعائر الدينية .

ومع هذا لم يقتصر تحديثُ الرسول في مكان محدود ، ولا على مناسبة معينة ، فكان يُستفْتَى في الطريق فيفتي ، ويُسْأَلُ في المناسبات فيجيب . والى جانب هذا كانت له مجالسُ علمية كثيرة يقول انس رضى الله عنه : "انما كانوا اذا صلوا الغداةَ ، قعدوا حلقا حلقا ، يقرأون القرآن ، ويتعلمون الفرائضَ والسننَ" (١)

وقسمٌ اخر من احاديثه (ص) جوابٌ على عن سؤال ، فقد يقع الناس في مشاكلَ ومحنٍ فيقصدون الرسولَ ليظهر الحقَ ويضعَ الحدَّ .

فقد روى ابو هريرة قال : "جاء رجل من بني فزارة الى النبي (ص) فقال : "ان امرأتي ولدت غلاما اسودَ واني انكرته . فقال النبي : "هل لك من إبل" ؟ قال : نعم . قال : فما الوانها؟ قال : حُمْرٌ . قال "وهل فيها من أَوْرَقُ؟" قال : ان فيها لورقا . قال "فانى اتاها ذلك؟" قال : عسى ان يكونَ نزعةَ عِرْقٍ" قال : "وهذا عسى ان يكون نزعةَ عِرْقٍ" (٢)

---

(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج ١ ص ١٣٢

(٢) صحيح مسلم ص ١١٣٧ من الحديثين ١٨ و ٢٠ ج ٢ والاورق الذى فيه سواد . والعرق : الاصل من النسب .

وكان صلى الله عليه وسلم يخاطب الناسَ على قدر عقولهم وبلغتهم ولهجتهم • ومن هـذا مارواه الخطيب البغدادي قال : " ليس من امبرامصيام في امسفر" (١) أراد ليس من البر الصيام في السفر• وهذه لغتهم اذ يقلبون اللامَ ميما •

ومما يروى عنه انه كان يعيدُ كلامَهُ ويكرّرُهُ على السامعين حتى يدركوه تماما فلا يفوتُ احدَهم بعضُه ، وحتى لا يبقى لسامع سؤال ، فهو يجيب السائلَ باكثر مما سأله •(٢)

ومن المعروف عنه ، وهو الناطقُ بلسان الشريعة السمحة الميسرة، انه كان يدعوالى التيسير دائما • فعن ابن عباس عن النبي (ص) انه قال : "علّموا ويسّروا ولا تُعَسّروا ، واذا غَضِبَ احدُكم فليسكت " (٣) •

وكان رسولُ الله (ص) في معاملته المسلمين اخا متواضعا ، ومعلما حليما ، وأبا رحيما ، فاذا اراد ان يعلم اصحابَهُ الآدابَ خاطبهم بلين ولطف فيقول مثلا : "انما انا لكم مثل الوالـد اذا اتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها" (٤)

اما اذا حاول اصحابُه الثناءَ عليه اواطراءه ابى ذلك وقال : "لا تطروني كما اطـــرت النصارى عيسى بن مريم ، فانما انا عبد ، فقولوا عبدُه ورسولُه " (٥) فهو لا يرضى ان يعظمـوه ويرفعوه عن درجة البشر كما كان لا ينتظر منهم لا جزاء ولا شكورا •

هذا هو المنهجُ التربويُّ الصحيحُ الذى كان رسولُ الله يعلم اصحابَه والمسلمين عامـةً احكامَ الاسلامِ والتعاليمَ الاسلامية والاداب الاجتماعية •

وبهذه الروح الطيبة والصدر الرحب والنفس النبيلة السامية استطاع الرسولُ الكريـــمُ ان يزيلَ الحاجبَ الذى كان يَحْجُبُ الملوكَ والقياصرةَ عن شعوبهم ، فقد كانت حياتُه بسيطـةً جداً وعظيمةً جداً •

فالمسجدُ معبدُه ويعلم فيه المسلمينَ الشريعةَ ، وقد يرونه في الطريق فيسألونه فيبـش لهم ويجيبهم ، وقد يعترضونه في مناسكه وحجه ، اوعلى راحلته يستفتونه فيفتيهم (٦) •

---

(١) الكفاية ص ١٨٣ وقد اخرجه الامام احمد
(٢) انظرفي ذلك فتح الباري ج ١ ص ٢٤١ باب من اجاب السائل باكثر مما سأله
(٣) مسند الامام احمد ص ١٢ حديث ٢٤٣٦ ومجمع الزوائد ج ١ ص ١٣١ وفتح الباري ج ١ ص ١٩٦
(٤) مسند الامام احمد ص ١٠٠ حديث ٧٣٦٢ ج ١٣ ونحوه في فتح الباري ج ١ ص ٢٥٥
(٥) مسند الامام احمد ص ٢٢٦ حديث ١٦٤ ج ١
(٦) = = = = ١٧ = ٥٦٢ ج ٢ وراجع فتح الباري ج ١ ص ١٩١و ٢٣٣

احتياط الصحابة والتابعين في رواية الحديث :

لقد احتاط بعض الصحابة كثيرا في رواية الحديث عن الرسول (ص) ، وتشددوا في قبول الاخبار تشددا قويا ، وذلك خشية الوقوع في الخطأ ، او ان يتسرب الى السنة التحريف او الكذب وهي المصدر التشريعي الاول بعد القرآن .

واذا استعرضنا الاخبار التي تفيد عن تشدد الصحابة في رواية الاخبار ، وجدنا ان بعضهم حرص على نقل الحديث بالفاظه وبعضهم الاخر ، ترخص عند الضرورة في روايته بالمعنى .

ومن بين الصحابة الذين كانوا يتشددون في الحرص على لفظ الرسول (ص) عبد الله بن عمر - حدثنا الامام احمد قال : كان عبد الله في مجلس وسمع عُبَيد بن عمير يقول : مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين ، ان اقبلت على هذه الغنم نطحتها ، وان اقبلت الى هذه نطحتها فقال له عبد الله بن عمر : ليس هكذا ، قال رسول الله : مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، ان اقبلت الى ذا الربيض نطحتها وان اقبلت الى ذا الربيض نطحتها . فقال له رَحِمَكَ الله هما واحد . قال عبد الله : كذا سمعت " (١)

وبلغ من حرص بعض المحدثين واهتمامهم في لفظ الحديث ، انهم لم يكونوا يحدّثون طلابهم الا اذا كتبوا عنهم ، خوفا من الوهم عليهم ، من هذا ما يرويه الخطيب البغدادى قال :

" قال محمد بن عمر : لا والله لا احدثكم حتى تكتبوه اني أخاف ان تكذبوا عليّ " (٢) وكذلك فعل التابعون فكان اكثرهم يكتبون الحديث عند سماعه من الصحابة ويحفظونه . اما من كان لا يكتب من اتباع التابعين واتباعهم ، فقد حرص على حفظ الحديث في صدره . وكانوا يتذاكرون الاحاديث بين آونة واخرى .

فعن ابي صالح السمان قال : "حدثنا ابن عباس يوماً بحديث فلم نحفظه فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه" (٣)

وكثيرا ما كانت تُعْقَدُ المذاكرة وتقوم المناظرات بين اصحاب الحديث لتُعْرَفَ طرقه ويُكْشَفَ عن القوى والضعيف منها ، وفي هذا يقول يزيد بن هارون : "ادركت الناس يكتبون عن كل - من المشايخ الاقوياء والضعفاء - فاذا وقعت المناظرة حصلوا " (٤)

ومن بين هؤلاء نجد ان بَعْضَهم كان يستعين على حفظ الحديث بكتابته فاذا اتقن حِفْظَه محاه ، خوفاً من ان يتكل القلبُ عليه منهم عاصم بن ضمره (٥) وهو من كبار الحفاظ وخالد الحذاء (٦) وهو من الذين كانوا يكتبون ويمحون .

---

(١) مسند الامام احمد ج ١ ص ٢٩٧ وانظر الكفاية ص ١٧٣
(٢) الجامع لاخلاق الراوى ص ١٠١
(٣) معرفة علوم الحديث ص ١٤١
(٤) المحدث الفاضل ص ٨٣ والجامع لاخلاق الراوى واداب السامع ص ١٦٧
(٥) المحدث الفاضل للرامهرمزى ج ٤ ص ١٠ توفي سنة ١٧٤ هـ
(٦) تقييد العلم ص ٥٩ والحذاء هو خالد بن مهران المتوفي سنة ١٤١ هـ وانظر جامع بيان العلم جزء ١ ص ٦٦

ولا نذهب مع الذين غالوا في الحفاظ فقالوا ان كُتُبَ الامام احمد في اليوم الـــذى مات فيه ، بلغت اثنتي عشر جَمَلا ، ما على ظهر كتاب منها : "حدث فلان" ولا في بطنـــه "اخبرنا فلان" وكل ذلك كان يحفظه من ظهر قلبه " (١)

اونصدق ما قاله ابو زُرْعَه : " ما في بيتي سوادٌ على بياض الا واحفظه " (٢) او نُوافِقُ على ما قاله الشعبي : "ماحدثني رجل بحديث قط الا حفظته" (٣) كماكان في العلماء من يميل الى تحديد العدد المحفوظ من الحديث الذى يستحق جامعه ان يسمى "حافظا" قال الحاكم " كان الواحد من الحفاظ يَحْفَظُ خَمْسَ مئة الف حديث " (٤)

انا لا نَذْهَبُ مع هؤلاء ولا نُوافِقُهم على رأيهم ، فهم يسيئون الى الحقيقة ولا يشعرون قال الامام البخارى : "احفظ مئة الف حديث صحيح ، ومئتي الف حديث غير صحيح "(٥)

اما الورعون من الحفاظ فماكانوا ليرضوا عن غلو الناس فيما ذهبوا اليه بل كانوا لا يروون الا ما يحفظون ويتقنون العشرات من الالوف ، او الاحاد منها ، وفوق هذا كله ، هم يشرطون علـى انفسهم التَعَمُّقَ في العلم ، والبُعْدَ في الفهم والدراية ، لا مجرد الاكثار في الرواية (٦)

كل ذلك يعطينا صورةً حيّةً عن النشاط الحديثي في ذلك العصر ، وعن الحركة العلمية التي كان لها الفضلُ العظيمُ في حفظ السنة .

والخلاصـــةُ ان الحديثَ الشريفَ لقيَ عنايةً وحِفْظاً واهتماما عظيما من ابناء ذلك العصر .

---

(١) الجامع لاخلاق الراوى ج ٨ ص ١٥١

(٢) ابو زرعة الرازى هو عبد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فرخ القرشي بالولاء توفي ٢٦٤ هـ الرسالة المستطرفة . انظر الجامع لاخلاق الراوى ج ٨ ص ١٥٢

(٣) تدريب الراوى ص ٨

(٤) المصدر نفسه ص ٨

(٥) المصدر نفسه ض ٨ ايضا

(٦) انظر الجامع لاخلاق الراوى ج ٨ ص ١٥١

خاتمة الباب الثانـــــي

نزل القرآن الكريم على محمد (ص) خلال ثلاثة وعشرين عاما، والرسول يطبق احكامه ويفصل تعاليم الاسلام ويبلغ قومه كل ما يتعلق بهم في شؤونهم، دقيقها وعظيمها، فكـــان معلما وحاكما وقاضيا ومفتيا وقائدا طيلة حياته بينهم .

تكلم الرسول في كل ما يحتاجه الفرد والجماعة، عن طريق الحديث الشريف قولا وفعلا وتقريرا خلال ربع قرن . وذلك لتربية الامة الاسلامية دينيا واجتماعيا وخلقيا وسياسيا . فـــي السلم والحرب وفي العسر واليسر فعالج جميع النواحي العلمية والعملية .

نفهم من هذا ان حفظ الحديث امر ضروري للمسلم، وقد كان متمشيا جنبا الى جنب مع حفظ القرآن من الايام الاولى لظهور الاسلام .

اهتم الرسول جدا بالحديث ولقنه اصحابه عن طريق مجالس تعقد في المجلس وخارجه .

او ان حوادث كانت تقع للرسول (ص) فيبين حكمها . او ان حوادث كانت تقـــــع للمسلمين فيسألون الرسول فيفتيهم، او وقائع وحوادث شاهد فيها الصحابة تصرفات الرسول فنقلوها الى التابعين الذين بلغوها الى من بعدهم .

اما فيما يعود الى التدوين، فقد نقل لنا الرواة عن الرسول (ص) اخبارا مختلفة يدعو بعضها الى تدوينه ويدعو البعض الاخر الى عدم تدوينه (١)

ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدوينا عاما رسميا مكتفين بروايته . وقد ظلـــت هذه الفكرة شائعة في عصر التابعين (٢) حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز على رأس المائـــة الاولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوينه رسميا، ولكنه لم يكتب له الحياة لينفذ اوامره (٣)

وبقـي الحال على ما هو عليه حتى النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة فكان موطـــأ مالك امام المدينة (١٧٩ هـ) ومن ثم جاء عصر اتباع التابعين على رأس المائتين للهجـــرة فظهرت عناية العلماء بتأليف المسانيد .

ان السنة الصحيحة المرتبة على الابواب حصلت في عصر اتباع التابعين، ممن عاصـــر البخاري حيث الفت الصحاح الستة .

كما روى في هذا الباب فصل هام جدا وهو : اثر الحديث في البيان العربي .

كيف لا وصاحب الحديث هو رسول الله (ص) الذى اوتي جوامع الكلم، فقد كـــره الاغراب في اللفظ فاتى ببيان ساحر وتعبير رائع واسلوب بليغ وقد وصفه الجاحظ فاصاب . جاء في كلمة الجاحظ : مبدع

---

(١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٢٩ وما بعدها

(٢) جامع بيان العلم ص ٤٥ وما بعدها .

(٣) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٢٩ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٥٧

" ولا يسمع الناس بكلام قط اعم نفعا ، ولا اقصد لفظا ، ولا اعدل وزنا ، ولا اجمل مذهبا ولا اكرم مطلبا ، ولا احسن موقعا ، ولا اسهل مخرجا ، ولا افصح معنى ، ولا ابين في فحوى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم " (١)

ولقد تطور الحديث وانتشر مع اتساع الدعوة الاسلامية بعد ان عم الاسلام الجزيرة العربية باسرها ، كان في طليعة الجيوش الاسلامية صحابة الرسول (ص) والتابعون من بعدهم ، فكانوا كلما دخلوا بلدا اقاموا فيه المساجد ومكثوا يعلمون القرآن الكريم والسنة الشريفة (٢)

اهتم الرسول بالحديث اهتماما كبيرا ، فحدث المسلمين شارحا وموجها وناصحا ، كما كان يحض المؤمنين جميعا على تفهم دينهم والاستزادة من العلم (وقل ربي زدني علما" (طه ، الاية ١١٤)

وقد اتبع في ذلك منهجا تربويا رائعا •

كان يخشى ان يمل اصحابه فيتخولهم بالموعظة بين وقت واخر ، عن ابن مسعود قال : " كان النبي (ص) يتخولنا بالموعظة في الايام كراهة السآمة علينا " (٣)

كما كان (ص) يخاطب الناس على قدر عقولهم • فيفهم البدوى ما يناسب جفاءه وقسوته ويفهم الحضرى ما يلائم بيئته وحياته • (انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢٩ ومابعدها)

وقد اهتم الصحابة والتابعون من بعدهم بالحديث ، وتشددوا في قبول الاخبار ، فمنهم من حرص على نقل الحديث بالفاظه ، ومنهم من رخص على نقله بالمعنى ، وقد اشترطوا لذلك عدة شروط يجب توفرها في الراوى •

كل ذلك يعطينا فكرة عن النشاط الحديثي في ذلك العصر وعن الحركة العلمية التي قامت بجهود العلماء الجهابذة ، كان لها الفضل العظيم في حفظ السنة الشريفة •

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٤٦

(٣) فتح البارى ج ٢ ص ١٧٢ ومسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٠٢

قال الله في كتابه العزيـــز

* ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم " هـود الايـة ١١٨ – ١١٩

* ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هـدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالـــة " النحل الايـة ٣٦

* إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظــون " الحجر الايـة ٩

* فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهـم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما " النســاء الاية ٦٥

* يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " الحجرات الاية ٦

* واشهدوا ذوي عدل منكـم " الطلاق الاية ٢

* ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة " المائدة الاية ٤٨

وقال صلى الله عليه وسلـم :

* من تعمد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار " رواه الشيخـان

* من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " مسند الامام احمد ج الحديث ٧١٩٣ ص ١٨٠

* بئس اخو العشيرة – وقال (ص) " ان عبد الله رجل صالح " الكفاية ص ٣٨ – ٣٩

* الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا " المجازات النبوية ص ١٣٤

٩

الباب الثالث

تمهيد

علم الحديث قسمان : أ – علم الحديث رواية
ب – علم الحديث دراية (١)

تحدثت في هذا الباب عن علم الحديث رواية وهو يشتمل على مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي من حيث القبول او الرد . وقد سميت هذا الباب : في النقد الخارجي ، لانه يبحث في سند الحديث ، وكل ما يتعلق باحوال الرواة وشروطهم واصناف المرويات وما يتعلق بها . وقسمت هذا الباب سبعة فصول :

الفصل الاول : وهو مجموعة تعريفات ومصطلحات . يشمل معنى الحديث لغة واصطلاحا .
الحديث والخبر – الحديث والاثر – الحديث القدسي – الحديث والسنه . ثم السنة في اصطلاح المحدثين والسنة في اصطلاح علماء الفقه .

الفصل الثاني : يعنى بتدوين الحديث . الكتابة في عهد الرسول وصدر الاسلام . التدوين في عصر الخلفاء الراشدين – التدوين في عصر التابعين واتباعهم . وكانت خاتمة الفصل ، البحث عن اسباب تأخير التدوين وما كان له من أثر على الحديث .

الفصل الثالث : أقسام الحديث :
الصحيح – الحسن – الموثّق – الضعيف – والحقيقة ان تحت هذه الاقسام تندرج انواع كثيرة ، وحول القاب هذه الانواع وضعت مصطلحات كثيرة . حتى قال الحازمي : "وحول كل نوع منها علم مستقل لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته " (٢) .

الفصل الرابع : تناولت في هذا الفصل صفات المحدث الرئيسة والثانويه . فالعقل والضبط والعدالة والاسلام شروط لابد منها لقبول الرواية . ولو فقد بعضها الراوي ردت روايته . اما الشروط الثانويه : فهي عدم الاكل في الاسواق والتنزه في الطرقات والتبسط في المداعبة والمزاح واللعب بالشطرنج وآلات الطرب . وكانت خاتمة الفصل : في آداب المعلم والمتعلم .

---

(١) تدريب الراوي ج ١ ص ٢٠ – (٢) المصدر نفسه ص ٩٠ .

الفصل الخامس : كيفيات تحمل الحديث :

ورد عند اكثر علماء الحديث صور التحمل الثمان التي تحدد مناهج القوم في التعليم ٠(١) وهي : السماع - القراءة - الاجازة - المناولة - الكتابة - الاعلام - الوصية - الوجادة ٠ وهذه الحالات التي اصطلح عليها المحدثون لبيان طريقة التحمل ، تصلح لتصوير حالات الاداء ٠

الفصل السادس : وفيه بحث طرق رواية الحديث وما يتصل به من مسائل ٠ رواية الحديث بالمعنى ومن يجوز له نقله ، ورواية الحديث باللفظ ٠ وعقدت في ذلك بابا في التحقيق والضبط والسماع واتبعته ببحث آخر في التقييد بالشكل والنقط ، وبحث آخر لا يقل اهمية عنه يتعلق في معرفة الاسماء والكنى ومن نسب منهم الى غير أبيه ومعرفة وفيات الرواة ٠ وهو مهم جدا في هذا المجال قال سفيان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ (٢) ٠

الفصل السابع : طبقات الرواة :

١- الصحابة اختلاف علماء الحديث في تسمية الصحابي ٠ وأخيرا انتهينا الى كل من طالت مجالسته للرسول (ص) على طريق التبع له والاخذ عنه " (٣)

٢- التابعون وهم من صحبوا الصحابة (٤) ٠

٣- اتباع التابعين : وهو كل من لقي مؤمنا ومات على الاسلام (٥) ثم انتهيت الى بحث يفضي بنا الى نظرة الناس الى الخير والشر ووضع مقاييس لهما تتناسب مع ميولهم واهدافهم ٠ واخيرا ما هو مذهب الصحابي ؟ ٠

---

(١) الالماع ص ٦٨ والتدريب ص ١٢٩

(٢) الباعث الحثيث ص ٢٣٧

(٣) تدريب الراوي ص ٣٩٧

(٤) الباعث الحثيث ص ١٨٠

(٥) اختصار علوم الحديث ص ٢٣٢

الباب الثالث — في النقد الخارجي

الفصل الأول — تعريفات ومصطلحات

تعريف علم الحديث :

الحديث لغــة : الجديد من الاشياء والجمع احاديث كقطيع واقاطيع وهو شاذ على غير قياس (١)

الحديث اصطلاحا : الحديث اسم من التحديث ، وهو الإخبار . ومعنى " الإخبار " في وصف الحديث كان معروفا للعرب في الجاهلية منذ كانوا يطلقون على " ايامهم المشهورة " اسمَ الاحاديث[٣] . ومن هنا شاعَ على الالسنـة صار احدوثـه (٢) او صار حديثا اذا ضُرِبَ به المثلُ . والحديـثُ والاحدوثـةُ مترادفان وقد ورد في بيت من الشعر ما ترجمته :

ولا تصبحوا احدوثةً مثلَ قائلٍ   به يُضْرَبُ الامثالَ من يتمثَّلُ (٤)

وهو خطأ طباعة

وكيفما تقلّبُ مادةَ "الحديث "تجد معنى " الاخبار " واضحا فيها حتى في قوله تعالى : " فليأتوا بحديث مثله " (٥) وقوله : " وقد نَزَّلَ احسنَ الحديث كتاباً متشابهاً " (٦) وقد تَورَّعَ بعضُ العلماء من اطلاق اسم حديث على كتاب الله فاستبدلوا كلامَ الله بحديث الله . كما اشار البعضُ الاخرُ من العلماء في كلمة حديث معنى الجِدَّة اى ما يُقابلُ القديمَ ، وهم يريدون بالقديم كتابَ الله ، وبالجديد ما اضيفَ الى رسول الله (ص) .
قال ابن حجر في " شرح البخارى " : " المراد بالحديث في عرف الشرع ما أضيف الى النبي وكأنه أريد به مقابلة القرآن لانه قديم " (٧) — والحديث في عرف الشرع قسمان :

أ — علم الحديث الخاص بالرواية وهو علم يشتمل على اقوال النبي (ص) وافعاله وروايتها وضبطها وتحرير الفاظها ، ولكل ما أضيف من ذلك الى الصحابة والتابعين (٨) .

ب — وعلم الحديث الخاص بالدرايـة " علمٌ يُعْرَفُ منه حقيقةُ الرواية وشروطهـا وانواعهـا ، واحكامُها ، وحالُ الرواة ، وشروطهم ، واصنافُ المرويات ، وما يتعلق بها " (٩)

---

(١) انظر لسان العرب في ماده (حديث) ج ٢ ص ٤٣٨
(٢) الاغاني ٢١/ ١٥٠
(٣) الاغاني ١٤/ ٤٧
(٤) الاغاني ١٠/ ١٢٠
(٥) سورة الطور ٣٤
(٦) سورة الزمر ٢٣
(٧) علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح ، قارن بالتدريب ص ٣٠٢
(٨) تدريب الراوى ج ١ ص ٤٠ — (٩) المصدر نفسه .

فعلمُ رواية الحديث، حدَّهُ بانه علمٌ مشتملٌ على نقل ما ذكر موضوعُه ذاتَ النبي (ص) من حيث انه نبي، غايتُه الفوزُ بسعادة الدارين . والعالم بالروايه لايطلبُ منه الحكمُ على مرتبةِ الحديثِ بالصحةِ او الضعفِ، فهو أشبه بآلة التسجيل تعيدُ ما سجلت دون زيادة او نقصان .

وعِلْمُ درايــة الحديث وهو المرادُ عند الاطلاق، يحد انه علمٌ تُعرفُ به معاني ما ذُكِرَ ومَتْنُه ورجالُه، وطرقُه، وصحيحُه، وسقيمُه، وعللُه، وما يحتاجُ اليه فيه ليعرفَ المقبولُ منه والمردودُ . وموضوعُه الراوي والمروي من حيث ذلك . وغايته معرفة مايُقْبَلُ من ذلـك ليعملَ به، وما يُرَدُّ منه ليجتَنَبَ، ومسائلُه ما يذكر في كتبه من المقاصد (١) .

وقد جاءَ الكثيرُ من الاخبار في فضله وآدابه . قال (ص) : " اللهم ارحم خلفائي ، " قيل : من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي فيروون احاديثي ويعلمونَها الناسَ " (٢)

فحقيقه الرواية : نقلُ السُّنَّةِ ونحوِها واسنادُ ذلك الى من عُزِيَ اليه بتحديث أو إخبار . وشروطُها : تَحَمُّلُ راويها لما يرويــه بنوع من انواع التحمل من سَماعٍ أو عَرْضٍ أو إجازةٍ ونحوها .

وانواعُهـا : الاتصالُ والانقطاعُ ونحوهُما .

واحكامُهـا : القبـولُ او الـردُّ .

وحالُ الرواةِ : العدالةُ والجرحُ وشروطهم في التحمُّلِ والاداء .

واصناف المرويات : المصنفاتُ من المسانيـد والمعاجم وغيرِها من احاديثَ وآثارٍ .

وما يتعلق بها : هو معرفـةُ اصطلاح اهلهـا .

وعلم الحديث هو بالنتيجه علمُ القواعد المعرِّفـة بحال الراوي والمروي . او اذا شئتَ هو علم بقوانينَ يُعرفُ بها احوالُ السندِ والمتنِ .

واما السند : فالطريقُ الموصلـةُ الى المتن، اي اسماء رواته مرتبة (٣) .

واخـــذه : اما من السند، وهو ما ارتفع وعلا من سفح الجبل، او من قولهم فلان سند اي معتمد، فسمي الإخبارُ عن طريقِ المتنِ سنداً لاعتماد الحفاظ في صحة الحديث وضَعْفِـه .

واما الاسناد : فهو رَفْعُ الحديث الى قائلـه .

---

(١) المعيد في ادب المفيد والمستفيد للعلموي توفي ٩٨١ هـ بدمشق ص ١٦ وانظر تعريف ابن حجر في التدريب ص ٣ - ٤

(٢) المصدر نفسه ص ١٧

(٣) قواعد في علوم الحديث للتهانوي ص ٢٦ - تدريب الراوي للسيوطي ج ١ ص ٤٠

واما المتن : فهو الفاظ الحديث التي تتقوم بها المعاني (١) . وهو ما تنتهي اليه غاية السند من الكلام ، من المماتنه وهي : المباعدة في الغاية ، لان غاية السند : او من متنت الكبش : اي شققت جلده بيضته واستخرجتها ، فكأن المسند استخرج المتن بسنده ، او من المتن وهو ما صلب من الارض وارتفع ومنه متن الجواد لان المسند يقويه بالسند ويرفعه الى قائله ، او من تمتين القوس اي شدها لان المُسْنِدَ يُقوّي الحديثَ بسنده (٢) .

الحديث والخبر :

اذا كان التحديث إخبارا والحديثُ يرادف الخبرَ وما حديثُ النبيِ (ص) الا الخبر المرفوع اليه . وقيل الحديثُ ما جاء عن النبي (ص) والخبرُ ماجاء عن غيره (٣) ومن هنا يقال للمشتغل بالتواريخ : إخباري ، وللمشتغل بالسنّة محدِّث (٤) . وقيل بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق ، فكلُّ حديثٍ خبرٌ ولا عكس .

والمحدثون الذين وجدوا ترادفاً بين الحديث والخبر لاحظوا ان الرواةَ نقلوا المرفوعَ الى النبيِّ (ص) والموقوفَ الى الصحابي ، والمقطوعَ الى التابعي .

وقالوا : المرفوع والموقوف بالاثر (٤) وفقهاء خراسان يسمون الموقوف بالاثر والمرفوع بالخبر والحديث . ويُسمّى المُحدِّث أثرياً نسبة للاثر ، وأثرت الحديث بمعنى رويته . (٥)

اما ابن خلدون فقد لَمَّحَ تلميحاً سريعاً في علوم الحديث فقال :

" اما علومُ الحديث فهي كثيرةٌ ومتنوعةٌ لان منها ما يُنظَرُ في نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل بها لهم قال تعالى " ما نَنْسَخْ من آيةٍ او ننسها نأت بخير منها او مثلها " ويضيف ايضا " فاذا تعارض الخبران بالنفي والاثبات وتعذر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم احدهما تعين ان المتأخر ناسخ . ومعرفة الناسخ والمنسوخ من اهم علوم الحديث واصعبها " (٦) .

---

(١) قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ٢٦ - تدريب الراوى للسيوطي ج ١ ص ٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥

(٤) تدريب الراوى ص ٦

(٥) انظر تدريب الراوى ج ١ ص ٤

(٦) المقدمه لابن خلدون ص ٤٤٠

والقسم الثاني من علوم الحديث : الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما وجب بما يغلب على الظن صدقه من اخبار رسول الله (ص) فيجتهد في الطريق الذى يحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواه الحديث بالعدالة والضبط وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتميزهم فيه .

وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بان يكون الراوى لم يلق الراوى الذى نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنه لها .

ثم النظر في الفاظ اصطلحوا عليها مثل : الصحيح والحسن والضعيف والمنقطع وغير ذلك من القابه .

ثم النظر في كيفية اخذ الرواية الى ما هنالك من تعاريف سريعة موجزه .

وكما يظهر لنا واضحا ان ابن خلدون لمح الى تلك التعاريف التي اوردناها تلميحا سريعا دون ان يقف على تفاصيله او طرق نقده فلم يقف وقفة الناقد البعيد النظر في علم الحديث .

الحديث والاثر :

الاثر لغة يعني البقية من الشيء ، يقال اثر الدار لما بقي منها . والاثر اصطلاحا هو مرادف للخبر والسُنَّه والحديث . ويقال : أثرت الحديث بمعنى رويته ، كما انه يسمى المحدث أثريا . (١)

والمحدثون يسمون المرفوع والموقوف بالاثر (٢) وبهذا المعنى سمى الطبرى كتابه " تهذيب الاثار مع انه مخصوص بالاحاديث المرفوعة . ومنه قولهم : " الادعية المأثوره " لما جاء عن الرسول (ص) واليه يشير كلام مسلم في خطبته "صحيحه " ١/ ٦٢ حيث قال : دَلَّت السُنَّة على نفي رواية المنكر من الاخبار كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق " وهو الاثر المشهور عن رسول الله (ص) " من حدَّث عني بحديث يرى انه كذب فهو احد الكاذبين " (٣) حيث سمى الاحاديث المرفوعة أثراً .

---

(١) تدريب الراوى ج ١ ص ٤ .

(٢) قواعد في علوم الحديث ص ٢٥ المرفوع من الاحاديث هو ما نسب الى النبي والموقوف ما نسب الى الصحابي والمقطوع الى التابعي .

(٣) قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ٢٥ .

واصطلح الفقهاء الخراسانيون على ان الحديث اسم للمرفوع ، والاثر اسم للموقوف على الصحابة والتابعين (١) .

واذا عدنا الى تسلسل التعاريف عن كل ما ذكرنا نلاحظ ان الحديث هو ماجاء عن النبي والخبر ماجاء عن غيره . والحديث اعم من الخبر مطلقا فيقال لكل خبر حديث ولا عكس (٢) ولكل واحد من هذه الترديدات قائل والاثر أعم منهما مطلقا فيقال لكل منهما أثر باى معنى اعتبر . وقيل ان الاثر مساويا للخبر . وقيل الاثر ما جاء عن الصحابي ، والحديث ما جاء عن النبي والخبر اعم منهما . والاعرف ما اخترناه .

اختلاف العلماء في معاني الحديث ، الخبر ، الاثـر :

قال جماعة : ان الحديث هو ما اضيف الى النبي (ص) فيختص بالمرفوع عند الاطلاق اما الخبر فانه اعم من ان يطلق على المرفوع والموقوف ، فيشمل كل ما اضيف الى الصحابة والتابعين ، وعليه يسمى كل حديث خبرا ولا يسمى كل خبر حديثا .

وقـال آخرون : الحديث هو المرفوع الى النبي (ص) والموقوف على الصحابة والتابعين فيكون مرادفا للخبر .

واما الاثر فانه مرادف للخبر بالمعنى السابق فيطلق على المرفوع والموقوف ، وفقهـاء خراسان يسمون الموقوف بالاثـر والمرفوع بالخبر (٣) .

ذلك هو اختلافهم في تحديد المراد بالحديث والخبر والاثر ، واذا كان كذلك سهل علينا ان نفهم معنى لهذه الكثرة الهائلـة ستمائـة الف او سبعمائـة الف . فهي شاملة للمنقول عن النبي (ص) ولاقوال الصحابة والتابعين ، كما تشمل طرق الحديث الواحد فقد يروى المحدث الحديث الواحد من طرق مختلفـة ، اذ يكون للصحابي او التابعي رواة متعددون وهذا هو الغالب على ما أظن - فيعنى المحدث بجمع طرق الحديث من رواته فقد تبلغ احيانا عشره طرق فيعدها عشرة احاديث وهي ليست الا حديثا واحدا .

وخلاصـة القول ان اختلاف العلماء في تعريفهم الحديث والخبر والاثر واختلافهم في طرق جمع الاحاديث اوصلنا الى هذه الضخامة العجيبة من الاحاديث التي ضمتها الكراريس والصحـــف .

---

(١) تدريب الراوي ج ١ ص ٤

(٢) الدرايـة للشهيـد الثاني ص ٧

(٣) توجيـه النظـر ص ٣ .

الحديـــث القدســـي :

وكل حديث يضيف فيه رسول الله (ص) قولاً الى الله عز وجل يسمى بالحديث القدسي او الالهي ، ونسبة الحديث الى القدس (وهو الطهـارة والتنزيه) والى الاله او الى الـرب لانه صادر عن الله تبارك وتعالى (من حيث انه المتكلم به اولا والمنشيء له . واما كونه حديثا فلأن الرسول هو الحاكي له عن ربه عز وجـل ، والفرق بينه وبين سائر الاحاديث ، ان هذه نسبتها اليه ، وحكايتها عنه فهو القائل وهو الحاكي عن نفسه ، واما تلك فلا) (١) .

ومثالنا على ذلك ما اخرجه مسلم في "صحيحه" عن ابي ذر رضي الله عنه عن النبي (ص) فيما يرويه عن الله عزّ وجل : " يا عبادي اني حَرَّمْتُ الظلمَ على نفسي وجَعَلْتُه بينكم محرّما فـلا تظالموا . يا عبادى كُلُّكم ضالٌّ الا مَنْ هديتُه فاستَهْدُوني أَهْدِكُمْ . يا عبادى كلكم جائعٌ الا مـن اطعمتُه فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ . يا عبادى كلكم عار الا من كسوته فاستكسوني اكسكم .

يا عبادى انكم تُخطِئونَ بالليل والنهار وانا اغفر الذنوبَ جميعاً فاستغفروني أَغْفِرْ لكم . يا عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادى لو ان اولكـم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زادَ ذلك في ملكي شيئا . يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادى لو ان اولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مَسْألَتَه ما نَقَصَ ذلك مما عندى إلاّ كما يَنْقص المِخْيَطُ (٢) اذا أُدْخِلَ البحر . يا عبادى انما هيَ اعمالكم احصيها لكم ثم أُوَفِّيكُم بها . فمن وجد خيراً فَلْيَحْمَدِ اللّهَ ، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ الا نفسَه " (٣)

الحديـث والسنـة :

هل السنه في الاصل مساويه للحديث ؟ لغويا هي السيرة والطريقة ، كما يجوز ان يكون لفظ سنةً من سننت الابل اذا احسنت رعيتها والقيام عليها (٤) . وكانت تطلق على الطريقه الدينيـه التي سلكها النبي (ص) في سيرته . فاذا كان الحديث عاما يشتمل قول النبي (ص) فالسُنّةُ خاصـةٌ باعمال النبي (ص) وعلى ضوء هذا ندرك التباين في قول المحدثين احيانا " هذا الحديث مخالف للقياس والسنة والاجماع " (٥) .

المِخْيَط : الابرة ما يخاط به

(١) المنهج الحديث في علوم الحديث ص ٣١

واما الفرق بينه وبين القرآن فقد ذكروا للقرآن مزايا لم تكن لتلك الاحاديث فقالوا : ١) القرآن معجزه باقيه على مر الدهور محفوظه من التغيير والتبديل متواتره اللفظ في جميع الكلمات والحروف والاسلوب . ٢) حرمه روايته بالمعنى . ٣) حرمه مسه للمحدث وتلاوته لنحو الجنب ، ٤) تعينه في الصلاه . ٥) تسميته قرآنا . ٦) التعبد بقراءته

وحين عبر الاسلام عن " الطريقـة " في السنة فهمها العرب وعرفوا نقيضها وهي البدعة وقد ورد تعريف السنة عند مسلم عن الرسول (ص) " من سنّ سُنّةً حسنة فله أجرُها وأجرُ من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وِزْرُها ووزرُ من عمل بها الى يوم القيامة (١) فالسنة كانت منهلا عذبا يفيض على البشر بالخير وكل ما يحتاجون اليه في حياتهم الخاصـــة والعامة . فمن علماء الحديث الى علماء الاصول الى علماء الفقه . كل اخذ ما يريده من السنة ، وكل اخذ ما يوافقه في دعم حججـه وتأييد قولـه .

ولما كانت السنة النبوية هي الطريقة التي كان النبي (ص) يؤديها باقواله الحكيمة واحاديثه الرشيدة ، ولما كان الحديث عن اقوال النبي واعماله المؤيدة لاقواله ، وَجَدْتُ ان الحديث والسنة يدوران حول محور واحد وينتهيان اخيرا الى النبي الكريم (ص) .

ــــــ تابع حاشية ما قبله :

بكل حرف منه بعشر حسنات . ٧) امتناع بيعه في روايه احمد وكراهيته عند الشافعي .
٨) تسميه البجمله منه آيه وبقدار من الايات سوره . ٩) القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحي جلي ، واما الحديث القدسي فهو ما كان لفظه من عند رسول الله (ص) ومعناه من عند الله تبارك وتعالى بالالهام او المنام . وقد يكون بوحي جلي وليس الوحي الجلي شرطا له بخلاف القرآن الكريم فانه لا يكون الا بوحي جلي ، اى ينزل به الملك من عند الله بلفظــــه على هذا قد يكون الحديث النبوى بوحي ، وقد يكون باجتهاد الا ان الرسول لا يقر على اجتهاد خطأ . والحديث القدسي لا يكون اعم من ان يكون جليا او غير جلي ، فيجوز روايته بالمعنى لان لفظه للرسول (ص) .

(٢) المخيط : الابـره ، ما يخاط بـه .

(٣) رياض الصالحـين للنووى ص ٧٣

(٤) لسان العرب في ماده (سنن)

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥٩ .

---

(١) السنة للسباعي ص ٥٩ .
والمدخل الى السنة وعلومها ص ١٠ .

السنة في اصطلاح المحدثين :

"كل ما أثر عن النبي (ص) من قول او فعل او تقرير ، او صفة خُلُقِيَّة او خَلْقِيَّة او سيرة سواء اكان ذلك قبل البعثة ام بعدها " . والسنة بهذا المعنى مرادفة لما مر معنا الحديث النبوي (١)

والسنة في اصطلاح علماء اصول الفقه :

" هي كل ما صدر عن النبي (ص) غير القران الكريم ، من قول ، او فعل او تقرير مما يصلح ان يكون دليلا لحكم شرعي " (٢) .

أ) اما القول فهو احاديثه (ص) التي قالها في مختلف الاغراض والمناسبات فترتب على ذلك حكم شرعي . كقوله (ص) لا وصية لوارث " وقوله في زكاة الزروع "فيما سقت السماء والعيون او كان عثريا : العشر (٣) وما سقي بالنضح : "نصف العشر" (٤) . وقوله في البحر : " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " .

ب) واما الفعل فهو افعاله التي نقلها الينا الصحابة ، مثل ادائه الصلوات الخمس بهيئاتها واركانها ، وادائه مناسك الحج وقضائه بالشاهد واليمين (٥) وما الى ذلك .

ج) واما التقرير فكل ما اقرّه الرسول (ص) مما صدر عن بعض اصحابه من اقوال وافعال بسكوت منه وعدم انكار ، او بموافقته واظهار استحسانه وتأييده ، فيعتبر ما صدر عنهم بهذا الاقرار والموافقة عليه صادرا عن الرسول (ص) (٦) .

---

(١) انظر قواعد التحديث ص ٣٥ ـ ٣٨ وتوجيه النظر ص ٢ .

(٢) المدخل الى السنة وعلومها ص ٧ والسنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٦١ .

(٣) فتح الباري ج ٤ ص ٩٠ والعثرى ما امتدت عروقه فشرب من نهر او مستنقع من غير سقي .

(٤) انظر سبل السلام ج ١ ص ١٤ وقد اخرجه الاربعة وابو بكر بن ابي شيبة

(٥) ثبت قضاء الرسول بشاهد ويمين ـ راجع مسند الامام احمد الاحاديث ذات الارقام ٢٢٢٤ و ٢٨٨٨ و ٢٩٦٩ ج ٤ وسبل السلام ج ٤ ص ١٣١ .

(٦) سبل السلام ج ١ ص ٩٧ .

ومن ذلك ما رواه ابو سعيد الخدري ، " انه خرج رجلان في سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء في الوقت ، فاعاد احدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الاخر ، ثم اتيا رسول الله (ص) ذكرا ذلك له ، فقال للذي لم يعد : " اصبت السنة " وقال للاخر : " لك الاجر مرتين " (١) .

ومنه ايضا اقراره لاجتهاد الصحابة في امر صلاة العصر في غزوة بني قريظة حين قال لهم " لا يصلين احدكم العصر الا في بني قريظة " ففهم بعضهم هذا النهي على حقيقته ، فاخرها الى ما بعد المغرب ، وفهم بعضهم ان المقصود حث الصحابة على الاسراع فصلاها في وقتها ، وبلغ النبي ما فعل الفريقان فاقرهما ولم ينكر على احدهما (٢) .

ومنه اقراره لطريقة معاذ بن جبل في القضاء حينما بعثه الى اليمن . اذ قال له : " كيف تصنع اذا عرض لك قضاء ؟ قال : اقضي بما في كتاب الله ، قال فان لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله (ص) قال : فان لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيي لا آلو . قال : فضرب رسول الله (ص) صدري ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسولَ الله لما يرضي رسولَ الله (٣)

السنة في اصطلاح الفقهاء

" هي كل ما ثبت عن النبي (ص) ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب لان غاية الفقيه يبحث عن رسول الله (ص) الذي تدل افعاله على حكم شرعي " . فهي اذن الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب .

وقد تطلق السنة عند الفقهاء في مقابلة البدعة (٤) .

والبدعة لغة الامر المستحدث ، ثم اطلقت في الشرع على كل ما احدثه الناس من قول وعمل في الدين وشعائره مما لم يؤثر عنه (ص) وعن اصحابه ، وقد قال رسول الله (ص) " من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه رَدّ " (٥) .

ومن ذلك قولهم " فلان على سنة " اذا عمل على وفق ما عمل النبي (ص) واصحابه ، سواء اكان ذلك مما نص عليه في الكتاب ام لم يكن .

---

(١) سبل السلام ج ١ ص ٩٧ رواه ابو داود والنسائي .
(٢) المدخل الى السنة وعلومها ص ١٠ والسنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٦٠
(٣) اعلام الموقعين ص ٢٠٢ ج ١
(٤) المدخل الى السنة وعلومها ص ١٠ والسنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٦١
(٥) صحيح مسلم ص ١٣٤٣ ج ٣ .

وقولهم "فلان على بدعة" اذا عمل على خلاف ما عمله او احدث في الدين مالم يكن عليه السلف .

وتطلق السنة احيانا عند المحدثين وعلماء اصول الفقه على ما عمل به اصحاب رسول الله سواء اكان ذلك في الكتاب الكريم ام في المأثور عن النبي (ص) ام لا (١) ويحتج لذلك بقوله (ص) "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين ر تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ" (٢) .

والسُّنَّةُ التي تهمنا في بحثنا هذا هي السنة في اصطلاح المحدثين .

وهي ترادف الحديث كما اشرنا . وان كان البعض يفرق بينهما اذ يرى ان الحديث ما ينقل عن النبي (ص) والسنة ما كان عليه العمل المأثور في الصدر الاول ، ولذلك قد ترد احاديث تخالف السنة المعمول بها فيلجأ العلماء حينئذ الى التوفيق والترجيح ، وعلى ذلك يحمل قول عبد الرحمن بن مهدى : "لم أر احدا قط اعلم بالسنة ولا بالحديث الذى يدخل في السنة من حماد بن زيد (٣) .

ومما يدل على ان السنة هي العمل المتبع في الصدر الاول قول علي بن ابي طالب (ع) لعبد الله بن جعفر عندما جلد شارب الخمر اربعين جلدة : "كف جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعين وابو بكر اربعين ، وكملها عمر ثمانين وكلّ سنّة" (٤) .

---

(١) المدخل الى السنة وعلومها ص ١١ والحديث والمحدثون ص ٩

(٢) سنن ابي داود ص٥٠٦ ج ٢ طبعة اولى سنة ١٣٧١ لمصطفى البابي الحلبي .

(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٧

(٤) مسند الامام احمد ج ٢ حديث ٦٢٤ ص٤٨ ـ ٤٩ .

الحديث وتدوينه :

لئن اعتمد العرب على الذاكرة في حفظ اثارهم ورواية آدابهم ، فقد اعتمدوا ايضا على الكتابه وان قلت ادواتها عندهم ، ومكة المكرمة بحكم مركزها التجارى عرفت من القارئين والكاتبين عددا لا بأس به قبيل البعثه .

اما ماورد ان مكة لم تعرف الا بضعة عشر رجلا يقرأون ويكتبون فهو قول غير دقيق وغير مثبت . (١)

وقد ورد على لسان بعض المستشرقين وصف العرب " بالاميين " معتمدين على ماورد في القران ، وهذا لا ينافي معرفتهم الكتابة والقراءة لان الامي في نظرهم هو الذي يجهل الشريعة الالهية وبهذا المعنى لم يكن محمد أميا الا لانه نبي هؤلاء الاميين الوثنيين ، الذين لم يؤمنوا لا بالرسول ولا بكتاب الله .

فهل الامي هو الذى يجهل الشريعة الالهية ؟ او هو الذى يجهل الكتابة والقراءة ؟ لقد اخطأ من فسر الاميين العرب الذين يجهلون الشريعة الالهيــة على حين انهم وصفوا الرسول (بالامي) يعني جهله الكتابة والقراءة (٢) .

اما النص القرآني فهو واضح وصريح وهو يعني (الامي) ان كان وصفا للنبي او وصفا للعرب (جهلهم الكتابة والقراءة) (٣) " الذين يتبعون الرسول النبي الامي .. " (٤)

---

(١) انظر مثالا على هذا ماجاء في تقبول الاخبار ص ٦٤ ومثال هذا ايضا تجده في طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٨٣ .

(٢) راجع تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) لقد اختار الدكتور ناصر الدين الاسد تفسير (الاميين) بمعنى جهلة الشريعة الاسلامية ، اى الامية الدينيــة لا الامية المتعلقة بالقراءة والكتابة ، ودعم رأيه هذا بشواهد فصل فيها . انظر ذلك في كتابه مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ٤٥ . وقد تعرض الدكتور صبحي الصالح في كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) لهذا التفسير الذى اعتمد عليه المستشرقون في زعمهم ان الرسول (ص) كان كاتبا قارئا ، وان وصفه بالامية - كوصف العرب بها - لا ينافي معرفته القراءة والكتابة . (انظر كتابه ص ١٥ وقد رد عليهم ردا جميلا .

(٤) الاعراف ، الايـة ١٥٧

واذا كانت الامية وصفا للعرب فهذا لا يعني انهم جميعا يجهلون القراءة والكتابة ، وان كانت الامية غالبة على اكثرهم .

اما الذين قالوا انهم لم يجهلوا الكتابة بل جهلوا شريعة الله ، لم يأتوا ببرهان يؤكد صحة رأيهم العقيم .

الكتابة في عهد الرسول وصدر الاسلام

في موقعة " بدر " اذن رسول الله (ص) للكتّاب في مكة بان يفدى نفسه كل واحد منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة ، الكتابة والقراءة (١) وفي هذا دليل ان الكاتبين كانوا قلة في مكة ، ولكنهم كانوا اكثر عددا منهم في المدينة ، كما لا يخفى ما يهدف اليه النبي من التشجيع على التعليم .

كما يروى ايضا ان كتبة الوحي الذين كانوا بين يدى الرسول كانوا ما يبلغ عددهم الاربعين رجلا . وقد نوه عنهم الدكتور صبحي الصالح في " مباحث في علوم القرآن " حتى عمت الكتابة في المدينة بعد ان استقرت وهدأت فيها الاوضاع . فأنشأ الرسول في مسجده صفة كان عبدالله بن سعيد بن العاص يعلم فيها الراغبين الكتابة والخط " (٢) .

وان ندرة الكتابة التي بالغوا فيها ثم اعتبروها سببا هاما في اهمال الحديث ، لم تكن العامل الوحيد في تأخير الصحابة عن تدوين الحديث الذين تجشموا المشاق ورحلوا بعيدا لكتابة القرآن على اللخاف والعسب والاكتاف والاقتاب وقطع الاديم (٣) .

ولو انهم ارادوا جمع الحديث كما جمعوا القرآن لاستطاعوا ذلك بلا شك ولكانوا اغنونا من مشاق البحث عن علل الحديث ومشاكله .

ولكن اهتمامهم بكتاب الله الذى استغرق جل اهتمامهم ، وملك عليهم كل مشاعرهم ، والرسول في أول عهده بالدعوة الجديدة يقول ويوضح ويفسر عن كل ما يسأل ، وما اكثر الاسئلة انذاك ، وهل للكتبة الوقت الكافي من متابعة الرسول ، في كتابة جميع ما يقوله او يعمله او يقر الناس عليه ؟ وهذا لا يمنع من وجود بعض افراد صاحبوا النبي ، وكان عندهم الاندفاع الكافي لكتابة اكثر ما سمعوه وربما كل ما سمعوه ، ولا ارى ما يمنعهم من ذلك وخاصة بعد ان استقر القرآن في قلوب سامعيه ، وأمن التباس السنة بالقرآن . وكان البعض الآخر يسمع من الرسول ويعمل بما يسمع ولا

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ١ ص ١٤ وسيرة ابن هشام للسهيلي ٢/ ٩٢ ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص ٦٦

(٢) الاستيعاب في اسماء الاصحاب لابن عبد البر ٢/ ٣٦٦

(٣) مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح ص ٦٧ .

يرى حاجة لتقييد ما سمع ، اما ما تبقى من الصحابة فكانوا يحفظون في الصدور ما تيسر لهم من القرآن والحديث ، شأن اكثر الصحابة في فجر الاسلام .

ومما يروى ان الرسول " نهى عن كتابة الاحاديث اول نزول الوحي مخافة التباس سيرته وشروحه بالقرآن ، ولا سيما اذا كتب هذا كله في صحيفة واحدة " (١) وقد عاد فأذن بالكتابة عندما امن اختلاطه بسواه فقال : " قيدوا العلم بالكتاب " (٢) ولا يخفى ان كلامه كان موجها الى عامة الصحابة وفيهم الثقة والاوثق والصالح والاصلح والحافظ والاشد حفظا .

الصحيح ان هذا ليس صحيحاً فالقرآن معجزة في تعبيره لا يخاف التباسه بغيره ولكن خاف الرسول (ص)

وقال بعض المحدثين والفقهاء ، انه كان هناك ممن منحوا اذنا خاصا بكتابة الحديث ويذكر ابن قتيبة منهم . عبدالله بن عمر بن العاص أذن له الرسول فكانت الصحيفة الصادقة (٣) حسب زعمهم !

وهذا الاذن يعني ان الرسول لا شك انه كان يميز بين الصحابة من جهة ، ويخاف من النسيان من جهة اخرى .

نستطيع القول ان الكتابة في عهد النبي (ص) قد انتشرت على نطاق اوسع مما كانت عليه في العصر الجاهلي ، فالقرآن الكريم حث على العلم ، والرسول (ص) حض على ذلك ايضا حتى ان طبيعة الرسالة تقتضي ان يكثر المتعلمون ، والقارئون والكاتبون لان الوحي يحتاج الى كتاب ، كما ان امور الدولة من مراسلات ومواثيق وعهود مع الشعوب الاخرى ، تحتاج الى كتاب ايضا .

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح ص ٢٠ والباعث الحثيث ص ١٤٨

(٢) عن جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ٧٢

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ص ٣٦٦

(٤) قال الله تعالى : " وقل ربي زدني علما " (طه ــ الاية ١١٤) وقال : " هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون " (الزمر ــ الاية ٩) . وقال : " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة ــ الايـة ١١) .

(٥) قال (ص) : " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " .
انظر السنة قبل التدوين وقد نقله عن سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٠ .

كما قال (ص) ايضا : " اغد عالما او متعلما او مستمعا او محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك " (مجمع الزوائـد ج ١ ص ١٢٢) .

وقال (ص) " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " ، انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٩ وايضا مجمع الزوائـد ج ١ ص ١٢١ وقد اخرجه البخاري في صحيحه على صيغة الجزم في غير موضع .

فكتاب للوحي كما ذكرنا ، وكتاب للصدقة ، وكتاب المعاملات والرسائل يكتبون بلغات مختلفة . وان ما ذكر من اسماء كتاب رسول الله (ص) لم يكن على سبيل الحصر ، بل على سبيل المثال من الذين ذكروا من داوم على الكتابة بين يديه . ويظهر هذا واضحا في قول المسعودي (انما ذكرنا من اسماء كتابه (ص) من ثبت على كتابته ، واتصلت ايامه فيها وطالت مدته ، وصحت الرواية على ذلك من امره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة ، اذ كان لا يستحق بذلك ان يسمى كاتبا ، ويضاف الى جملة كاتبيه) (١) .

وقد كثر الكاتبون بعد الهجرة عندما استقرت الدولة الاسلامية ، وقد تبرع المسلمون الذين يعرفون القراءة والكتابة بتعليم اخوانهم ، كما يذكر من بين هؤلاء المعلمين : سعد بن الربيع الخزرجي (٢) احد النقباء الاثني عشر ، وبشير بن سعد بن ثعلبة (٣) وابان بن سعيد بن العاص (٤) .

ثم اتسع نطاق التعليم ، وانتشر في الآفاق الاسلامية ، بانتشار الصحابة وكثر المعلمون ، وانتشرت الكتاتيب في مختلف انحاء الدولة الاسلامية وغصت بالصبيان ، وضاقت بهم حتى اضطر الضحاك بن مزاحم معلم الصبيان ومؤدبهم الى ان يطوف على حمار ليشرف على طلاب مكتبه ، الذين بلغ عددهم ثلاثة الاف صبي (٥) .

وقد ازدادت الحركة العلمية في اواخر القرن الاول ، فظهرت الندوات التي تدل على آثار النهضة العلمية ، فقد كان (عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتا ، فجعل فيه شطرنجات ، ونردات ، وقرقات ، ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار اوتادا فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جر دفترا فقرأه ، او بعض ما يلعب به مع بعضهم (٦) وهذا يدل على حضارة وتقدم ظاهرين ، على نحو ما نفعل نحن اليوم في المطاعم والاستراحات الرفيعة الشأن .

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٤٦

(٢) المتوفي سنة ٣ ـ طبقات بن سعد ص ٧٧

(٣) المتوفي سنة ٣ هـ ـ طبقات ابن سعد ص ٨٣ وتهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٦٤

(٤) المتوفي سنة ١٣ هـ ـ وقيل ١٥ الاصابة ج ١ ص ١٠ ـ ١١ والمرجح انه عاش الى خلافة عثمان لانه كان من الصحابة الذين نسخوا المصاحف مع زيد ابن ثابت في عهد عثمان صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٥) انظر معجم الادباء طبعة مصر ج ١٢ ص ١٦ وقد توفي الضحاك بن مزاحم سنة ١٠٥ هـ .

(٦) الاغاني ج ٤ ص ٢٥٣ (شطرنجات : الشطرنج ـ نردات : طاولة زهر ـ قرقات : لعبة للصبيان) .

اما عن الصحف التي كتبت في عصر الرسول فابرز ما سجل لنا التاريخ فيها الصحيفة الصادقة المنسوبة الى عبدالله بن عمر بن العاص • والتي نشك في امر وجودها كما سنبين ذلك فيما بعد •

وقيل ان بعض الصحابة لاسباب وجيهة اقتضتها معرفته لهم والظروف المحيطة به انذاك فاختصها بعبدالله ابن عمرو بن العاص لانه يعلم انه كان قارئا للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية ، وكان غيره من الصحابة اميين ، واذا كان البعض يكتب فاكثرهم لم يكن يتقن ولم يصب التهجي •

فلما خشي عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم ، ولما امن على بعضهم ذلك اذن له • ولقد قال ابن الصلاح في السماح بالكتابة وعدمها "ثم انه زال ذلك الخلاف واجمع المسلمون على تسويغ ذلك واباحته ، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الاعصر الآخرة) (١) •

الصحيفة الصادقة

ان من ابرز الصحف التي كتبت في عهد الرسول (ص) والتي اتفق اكثر أهل السنة على صحتها ، هي الصحيفة الصادقة المنسوبة الى عبدالله بن عمرو بن العاص ، وقد اشتملت على الف حديث كما يقول ابن الاثير (٢) •

واذا لم تصل الينا هذه الصحيفة كما كتبت بخط عبدالله ، فقد وصل الينا محتواها لانها موجودة حسبما يزعمون في مسند الامام احمد (٣) وهي أصدق وثيقة تاريخية تثبت كتابة الحديث على عهده (ص) •

قيل لقد ذهب عبدالله يستفتي الرسول في شأن الكتابة قائلا "أكتب كل ما اسمع ؟ قال : "نعم ، قال : في الرضى والغضب ؟ قال : "نعم فاني لا اقول في ذلك الا حقا " (٤) ومما يخيل الينا ان عبدالله بن عمرو قد أخذ في كتابة الاحاديث بعد هذه الفتوى الصريحة من الرسول (ص) •

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٧١

(٢) ابن الاثير في اسد الغابة ترجمة عبدالله بن عمرو ٣/ ٢٣٣

(٣) مسند احمد أنظر عبدالله بن عمرو بن العاص ٢/ ١٥٨ـ٢٢٦

(٤) مسند احمد ٢/ ٢٠٧ وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣٦٥ وجامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٧١ والمحدث الفاصل ح ٤ من ٢٠

ومما يروى ايضا عن هذه الصحيفة ماجاء في تاريخ الفقه الاسلامي عن ابي عساكر في تاريخه ان مجاهدا دخل على عبدالله ، فتناول هذه الصحيفة الصادقة ، اني سمعتها من الرسول فتمنع عليه ، فقال : اتمنعني عن كتبك ؟ فقال " سمعتها من الرسول وليس بيني وبينه احد فاذا سلم لي كتاب الله وسلمت لي هذه الصحيفة و (الوهط) لا ابالي ما صنعت الدنيا (١)

من هذا نعلم ان هذه الصحيفة لاتختص بالفقه ، لان صاحبها لايبالي ما صنعت الدنيا اذا سلمت له الصحيفة وارض كان يستغلها . فلا بد وان يكون فيها كل ما يحتاجه من امور الدين والدنيا من الحلال والحرام ومسائل كثيرة . ثم ان الفقه واحكامه في عهد الرسول كان كثيرا وقد كتب فعلا في صدر الاسلام (٢) .

اما صحة نسبة هذه الصحيفة الى عبدالله بن عمرو ففيه اختلاف . لقد ورد في شرح النهج ان هذا قد اسلم في السنة الثامنة للهجرة اي قبل وفاة الرسول بسنتين (٣) وكان له من العمر عند اسلامه خمس عشرة سنة .

فاذا لاحظنا انه توفي منذ خمس وستين من الهجرة ، وله من العمر اثنان وسبعون سنة يكون له من العمر سبع عشرة سنة حين وفاة الرسول ، ادرك منها سنتين معه ، فهل ان هذه الصحبة القصيرة والبعيدة بالنسبة للمقربين للرسول من اهل بيته تسمح لصاحبها ان ينقل في حال الرضى والغضب ؟ او في خلواته كما يزعم هو في حديثه ؟

ونحن نعجب كيف يتفق قوله اذا سلمت له الصحيفة و (الوهط) لا يبالي بالدنيا وما فيها مع موقفه بجانب معاويه في صفين وغيرها ، فما كان له من صحيفته الصادقة ما يردعه عن الوقوف بجانب ابعد الناس عن الشريعة الاسلامية الصحيحة ، الذى احدث الفتنة الكبرى بين المسلمين ؟ !

وقد ذكر الاستاذ ابورية في الاضواء على السنة المحمدية " ان الصحيفة التي يسميها عبدالله بالصادقة ، كانت ادعيه وصلوات ، وليس فيها شيء من الفقه (٤) ومما قيل في الصحيفة الصادقة ومهما جاء فيها يمكننا القول ان تدوين الحديث كان يُسمَح به عندما استقر الوضع في المدينة ، وأمن الرسولُ من الالتباس بين الحديث والقرآن الكريم .

---

(١) الوهط ارض كان يزرعها . وقد ورد مثل ذلك في الاضواء على السنة المحمدية ، وانظر جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٣

(٢) تاريخ الفقه الاسلامي لمحمد يوسف ص ١٨٦

(٣) شرح النهج ج ٣ ص ١١٢ .

(٤) شرح النهج ج ٤ ص ٢٦٨ — اضواء على السنة ص ٢٢٥

التدوين في عصر الصحابة :

نرى الصحابة يُحْجمون عن كتابة الحديث ولا يقدمون على تدوينه في عهد خلافة الراشدين ، وذلك حرصا منهم على القرآن الكريم وانشغالهم بالحديث دونه كما يقولون . ونجد بينهم من كَرِهَ كتابةَ الحديث ، ومن اباحه ، بل روى عن بعضهم من كره الكتابةَ اولا ثم اباحها آخرا ، وذلك حين زالت العلة . روى الحاكم بسنده ، عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : "جمع ابي الحديث عن رسول الله (ص) ، وكان خمسمائة حديث ، فبات ليلة يتقلب كثيرا فلما اصبح قال : (اى بنية ، هلمي الاحاديث التي عندك ، فجئته بها ، فدعا بنار فحرقها) (١) .

وعمر بن الخطاب يفكر في جمع الحديث ، ثم لا يلبث ان يعدل عن ذلك : (عن عروة بن الزبير ، ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اراد ان يكتب السنن ، فاستفتى اصحاب النبي في ذلك ، فاشاروا عليه بان يكتبها ، فطفق عمر يستخيرُ اللهَ شهراً ثم اصبح يوما وقد عزم الله له ، فقال : اني كنت اريد ان اكتب السنن ، واني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا ، فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، واني والله لا اشوب كتاب الله بشيء ابدا) (٢) .

لذلك نراه يخطب في الناس وينهاهم عن كتابة الحديث ، خوفا من اهمالهم كتاب الله عز وجل . فقال : "ايها الناس ، انه قد بلغني انه قد ظهرت في ايديكم كتبٌ ، فاحبُّها الى الله اعدلُها واقومُها ، فلا يبقين احد عنده كتابٌ الا اتاني به ، فأرى فيه رأيي — قال — فظنوا انه يريد ان ينظر فيها ، ويُقَوِّمَها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فأتوه بكتبهم فاحرقها بالنار ثم قال : "أمنية كأمنية اهل الكتاب" (٣) .

وأبى زيدُ بن ثابت ان يكتبَ عنه مروانُ بن الحكم (٤) (لعل كل شيء حدثتكم به ليس كما حدثتكم) (٥) .

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥
(٢) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٦٤ وتقييد العلم ص ٥
(٣) تقييد العلم ج ١ ص ٥٢
(٤) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٦٣
(٥) المصدر نفسه ص ٦٥

وقال ابن عباس: (انا لا نكتب العلم ولا نكتبه) (١)

ثم ان بعض الصحابة انفسهم قد اجاز الكتابة، وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (ما كنا نكتب في عهد رسول الله (ص) الا الاستخارة والتشهد) (٢) فهذا دليل على كتابة الصحابة غير القران الكريم في عهده (ص)، وعلى عدم كراهة ابن مسعود للكتابة.

وروي عن علي بن ابي طالب (ع) انه كان يحض على طلب العلم وكتابته، فقد قال: (من يشترى مني علما بدرهم؟ قال ابو خيثمة: يقول: يشترى صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم) (٣) وخبر صحيفة علي مشهور، وقد كانت معلقة في سيفه، فيها اسنان الابل وشيء من الجراحات (٤) وهذا الحسن بن علي (ع) يقول لبنيه وبني اخيه: (تعلموا، تعلموا، فانكم صغار قوم اليوم، تكونون كبارهم غداً، فمن لم يحفظ منكم فليكتب) (٥) وهذا أنس رضي الله عنه خادم الرسول (ص) وملازمه في بيته، كان يقول لبنيه: (يابني قيدوا العلم بالكتاب) (٦).

فهذه طائفة من اخبار متعاضدة، تثبت أن كثرة من الصحابة قد اباحوا الكتابة، وكتبوا الحديث لانفسهم، وتواصوا بكتابة الحديث وحفظه وخاصة في الشطر الاخير من عصرهم.

والخلاصة انه (لن يكون كتب الصحابة ما كتبوه من العلم وامروا بكتبه الا احتياطا، كما كانت كراهيتهم لكتبه احتياطا، والله اعلم) (٧). علما ان اسلوب القرآن الكريم وصياغته بينها وبين الحديث بوناً شاسعا، بالاضافة أن آيات القرآن التي كانت وما زالت معجزة هي معدودة ومحصية آيات وحروفا (٨).

---

(١) جامع بيان العلم ج ١ ص ٦٥ ونحوه في تقييد العلم ص ٤٢

(٢) انظر جامع بيان العلم ج ١ ص ٧٢

(٣) تقييد العلم ج ١ ص ٩٠

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥ و ١٢٢ وتقييد العلم ص ٨٨ - ٩٩ وجامع بيان العلم ج ١ ص ٧٠

(٥) الكفاية ص ٢٢٦ وتقييد العلم ج ١ ص ٩١

(٦) تقييد العلم ج ١ ص ٩٦ وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٤٤

(٧) المصدر نفسه ص ٩٤

(٨) راجع كتاب أدب الحديث النبوي الدكتور بكري شيخ أمين ص ١١١ وما بعدها.

التدويـن في عصـر التابعيـن

في عصـر التابعين روايات متضاربـة ومختلفـة في شأن تدوين الحديث ، فمنهم من تساهل في امر كتابـة الحديث ، ومنهم من رخص بها ، ومنهم من حضّ على تدوينه ، واذا اردنا التفصيل في جميع هذه الاسباب نستنتج ان ما حمل الخلفـاء الراشـدين على كراهة التدوين هي نفس الاسباب تقريبا التي حملت التابعين على عدم التدوين ، او بالاحرى التشجيع عليه .

ففي عصـر كبار التابعين ، حتى اخر المئة الاولى ، امتنع كثيرون عن الاكتاب وذلك لقرب عصرهم من الخلفاء الراشدين ، وتشدد بعض هؤلاء في امر الكتابة ، فظن اتباعهم ان عمل اصحابهم نوع من الورع الشديد فساروا على خطاهم . وقد عدوا تخليـد كتاب عن بعضهم خطأ وأثما ، ولذلك قال عبيـدة بن عمرو السلماني المرادي (٧٢ هـ) وابراهيم بن يزيد التميمي (٩٢ هـ) "لا تخلدنّ عني كتابا " حين علم انه يكتب عنه (١) وكان ابراهيم يقف عند هذه الوصية ويقول بعدها : "ما كتبت شيئا قط " ومما يروى ابن سعد ايضا "ان عمر هذا دعا عبيدة بكتبه عند موته فمحاها وقال : "اخشى ان يليها احد بعدي فيضعوها في غير موضعها (٢) كما كره ابراهيم النخعي ان تكتب الاحاديث في الكراريس ، وتشبه بالمصاحف (٣) ونسمع عامر الشعبي (١٧ هـ - ١٠٣ هـ) يردد عبارتـه المشهورة (ما كتبت سوداء في بيضاء ، ولا سمعت من رجل حديثا فاردت ان يعيده علي) (٤) .

واستنكـار هؤلاء الكتابـة يعني بصورة غير مباشرة ، ان هناك من بدأ يستسيغ التدوين ، وكان خوفهم يعتمد على عدم التطبيق عند الروايـة .

وقد ازدادت كراهة التابعين للكتابة عندما اشتهرت آراؤهم الشخصية ، فخافوا ان يدونها طلابهم مع الحديث ، وتحمل عنهم ، فيحملها الالتباس .

نستنتج من هذا ان من أصرّ من التابعين على عدم الكتابة ، كان يخاف ان يُدَوَّن رأيُه من الحديث وفي هذا يقول الدكتور يوسف العش : " واما من ورد عنهم الامتناع عن الاكتاب من هذا

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/ ٦٣

(٢) نفسه - جامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ ج ١

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ ج ١٠ وتقييد العلم ص ٤٨

(٤) المصدر نفسه .

الجيل "فيؤول امتناعهم بما لا يخالف ما انتهينا اليه فهم جميعا فقهاء (١) . وليس بينهم محدث ليس بفقيه والفقيه يجمع بين الحديث والرأي ، فيخاف تقييد رأيه واجتهاده الى جانب احاديث الرسول الكريم (ص) (٢)

ثم يوضح هذا بأمثلة تثبت صحة ما ذهب اليه ، فيقول : "اننا نجد في الواقع اخبارا تروي كراهتهم لكتابة الرأي كاعتذار زيد بن ثابت عن ان يكتب عنه كتاب مروان .. وجاء رجل الى سعيد بن المسيب (٩٤ هـ) وهو من الفقهاء الذين روي امتناعهم عن الاكتاب - فسأله عن شيء فاملاه عليه ، ثم سأله عن رايه فاجابه فكتب الرجل ، فقال رجل من جلساء سعيد ، انكتب يا أبا محمد رأيك ؟ فقال سعيد للرجل "ناولنيها ، فناوله الصحيفة فخرقها (٣) وقيل لجابر بن زيد : "انهم يكتبون رأيك ، قال : "تكتبون ما عسى ارجع عنه غدا" (٤) . .

وان كل هذه الاقوال وما يشابهها ، التي رويت من علماء ، حدث المؤرخون انهم كرهوا اكتاب الناس ، تدل دلالة صريحة على ان الكراهة ليست في كتابة العلم ، ان الحديث ، بل في كتابة الرأي ، وان الاخبار التي وردت في النهي دون تخصيص انما قصد بها الرأي خاصة لا الحديث .

ويقوي هذا الرأي ما ورد عن التابعين من اخبار يحثون فيها على الكتابة ويسمحون لطلابهم ان يكتبوا عنهم كما كان بعضهم يحرص على الكتابة حرصا شديدا ، فهذا سعيد بن جبير (٩٥ هـ) كان يكتب عن ابن عباس ، فاذا ما امتلأت صحفة كتب في نعله حتى يملأها (٥) كما قال ايضا في نفس المصدر (كنت اسير بين ابن عمر وابن عباس فكنت اسمع الحديث منهما فاكتبه على واسطة الرحل حتى انزل فاكتبه) (٦) ، ونرى عامرا الشعبي الذي مرّ ذكره قبل قليل يغيّر رأيه : (ما كتبت سوداء في بيضاء) يردد قوله : (الكتاب قيد العلم) وكان يحض على الكتابة ويقول : (اذا سمعتم مني شيئا فاكتبوه ولو في حائط) (٧) . الى ان انتشرت الكتابة في الحديث واخذت

---

(١) ذكر بالاضافة الى الاسماء المذكورة طاووس - ١٠٦ هـ والقاسم ١٠٧ هـ وغيرهم .

(٢) تقييد العلم : التصدير ص ٢٠

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ١٤٤ ج ٢

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٣١ ج ٢

(٥) تقييد العلم ص ١٠٢ - والمحدث الفاصل نسخة دمشق ج ٤ ص ٤

(٦) تقييد العلم ص ١٠٢ وجامع بيان العلم ج ١ ص ٧٢

(٧) تقييد العلم ص ٩٩ - ١٠٠ وجامع بيان العلم ص ٧٥ ج ١

تتحول تدريجيا من الصدور الى السطور . وقد روى عن ابي قلابة قال : (خرج علينا عمر بن عبد العزيز لصلاة الظهر ومعه قرطاس ثم خرج علينا لصلاة العصر وهو معه ، فقلت له يا امير المؤمنين ما هذا الكتاب؟ قال : "حديث حدثني به عون بن عبد الله فاعجبني فكتبته" (١) .

لما بدأ الناس يميزون بين النهي عن كتابة الاحاديث وبين النهي عن كتابة الاراء الشخصية ، والتشدد في التطبيق العملي للرواية ، اصبح كثير من اوساط التابعين يرخصون بتقييد العلم . كما رخص سعيد بن المسيب (١٠٥ هـ) لعبد الرحمن بن حرملة حين شكا اليه سوء الحفظ . وسوف نأتي على ترجمة بعض التابعين فيما بعد .

بقي الحال على نحو ما ذكرنا من تشدد في عدم الكتابة ومن اقبال عليها خوفا من النسيان او الغلط ، حتى مجيء عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) التقي الورع والعادل في حكمه في سيره على سنة الرسول (ص) .

أمر عمر بن عبد العزيز رسميا ولاته في المناطق تدوين الحديث ، ولا شك انه لم يقدم على ذلك الا بعد ان استشارهم واطمأن الى تأييد كثرتهم . لقد خاف عمر من دروس العلم وذهاب اهله ، فعمد الى التدوين . وقد كتب الى عامله على المدينة ابي بكر بن محمد بن عمر بن حزم يأمره : "انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) او سنة ماضية ، او حديث عمرة فاكتبه ، فاني قد خفت دروسَ العلم وذهابَ أهله" (٢) . وعمرة المذكورة هي عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية ، وهي خالته ، نشأت في حجر عائشة وكانت من اثبت التابعين في حديثها (٣) ، قد ضم اليها في بعض الروايات اسم القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق (١٠٧ هـ) ولقد نفذ ابن حزم ما امره به عمر ولكن هذا الخليفة العظيم مات قبل ان يعلم نتائجَ سَعْيِـهِ .

ومما يظهر ان تأخيرَ التدوين يعود الى الامراء والخلفاء ، لا الى الفقهاء والمحدثين . قال الزُهْري : "كنا نَكْرَهُ كتابَ العلمِ ، حتى أكْرَهَنا عليه هؤلاء الامراءُ ، فرأينا الا نمنعه احدا من المسلمين (٤) .

---

(١) المحدث الفاضل ص ٣ ح ٤

(٢) طبقات ابن سعد ٢/٢ ص ١٣٤ وابن حزم قال عنه انس بن مالك : "لم يكن عندنا احد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند ابي بكر" تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٣٩ .

(٣) انظر تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٣٨

(٤) طبقات ابن سعد ٢/٣ ص ١٣٥ وفي كتاب الاموال للقاسم بن سلام ص ٥٧٨ ، تخصيص اسم عمر بن عبد العزيز من بين الامراء .

واذا كان اوساط التابعين يحذرون وضع الوضاعين ، فان اواخر التابعين امسوا يصادفون كثيرا من نماذج الوضاعين وصور وضعهم المختلفة ، وكل ذلك تأييدا للفرق والشيع المختلفة . فقد شعروا بضرورة التدوين ونشره ، حفظا للاحاديث النبوية من عبث العابثين .

ومما يجدر ملاحظته ان الحديث في ذلك العصر كان ممزوجا غالبا بفتاوى الصحابة والتابعين كما في موطأ مالك امام المدينة (١٧٩ هـ) .

التدوين في عصر اتباع التابعين :

في هذا العصر عني العلماء بتأليف المسانيد خالية من فتاوى الصحابة والتابعين ، يهتم بجمع احاديث السنة النبوية وحدها . واول من الف تلك المسانيد ابو داوود الطيالسي (٢٠٤ هـ) (١) ثم احمد بن حنبل (٢٤١ هـ) الذي يعتبر مسنده اوفى المسانيد واوسعها (٢) ،

الا ان هذا الامام يعد من اتباع اتباع التابعين لان وفاته بعد العشرين والمئتين ، وعصر تابعي التابعين ينتهي عند المئتين (٣) .

اما السنة الصحيحة فلم تدون مرتبة على الابواب الا في عصر اتباع اتباع التابعين . كالبخاري ومن عاصره . وفي هذا العصر الفت الصحاح الستة : (البخاري - مسلم - الترمذي - ابو داود وابن ماجة والنسائي) اما من جاء بعد هؤلاء فكان عملهم تهذيبا وشرحا للكتب الصحيحة المذكورة (٤) .

واخيرا وصل الينا الحديث النبوي مدونا بعد ان مر بمراحل طويلة صعبة . واني اعتقد ان تأخير تدوين الحديث بعد وفاة الرسول مباشرة ، لا يعود الى الاسباب التي احتج بها الخلفاء فقط بل هناك اسباب اخرى . ذلك انه لو اراد الخلفاء جمع الحديث وتدوينه على نفس الطريقة التي جمعوا فيها القرآن الكريم ، لما تعثرت بهم الطريق دونما اى خوف من التباس الحديث بالقرآن .

---

(١) الرسالة المستطرفة ص ٤٦ وقد طبع هذا المسند في حيدر آباد بالهند سنة ١٣٢١ هـ
(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ - ٤٧ وتدريب الراوى ص ٤٠
(٣) انظر ترجمة الامام احمد في تاريخ بغداد ص ٤١٢ ج ٤
(٤) انظر تدريب الراوى ص ٣٩ - ٤٠ - ٤٧ - ٤٩ وسبل السلام ج ١ ص ١١ - ١٢

نظــرة عامة في التدويــــن والحفـــظ

وقد يبالغ بعض العلماء والمحدثين ، الذين يعيشون في عالم لم تعد بعد فيه اهمية للعلم المحفوظ بالذاكرة ، عما يتميز به العلماء المسلمون من قوة في الذاكرة ، فقد نقلوا الكثير من الاخـبار الدينيـة والادبيـة عن طريق الروايـة الشفويـة .

ولا شك ان حفظ القرآن غيبا ، الى جانب عدد كبير من الاحاديث والاشعار ، حرية بالاعتبار والتقدير . ولكن بعد ان سهلت الطباعة طبع المحفوظات على نطاق واسع وسريع ، اصبح ارهاق الذاكرة امرا لا طائل تحته .

وليس العسير علينا ان ندرك اهمية الحفظ غيبا في عصر المخطوطات (اى قبل ظهـور الطباعة) فمما يعزى الى سقراط او الى احد اساتذته قوله : انه يكره ان يرى افكاره تدون على جلود البقـر الميتة عوضا عن ان تطبع في قلوب الناس الاحياء (١) كما ان العاملي في المخلاة ينسب مثل هذا القول الى افلاطون ايضا (٢) وفي نقل هذا القول تعبير بليغ حول قيمة المعرفة التي تعتمد على الذاكرة .

ان عدم الثقة بالكلمـة المدونـة تفسر لنا ولو جزئيا ، ايثار الناس للتعليم الشفوى على العلم المحصل من الكتب . ونعطي دليلا على ذلك ما كتبه ابن بطلان وابن رضوان ، الطبيبان اللذان عاشا في القرن الحادى عشـر للميلاد (٣) احسن مثال يبرر رأى المسلمين في القيمة النسبيـة للتعلم على يد معلم وللتحصيل الذاتي .

ولكن بالرغم من التقدير الشديد الذى كان يكنه الناس او يبدونه للعلم المحفوظ ولحافظيه ، فان الحضارة الاسلامية ، كغيرها من الحضارات الراقيـة كانت تقوم على الكلمة المكتوبة .

ولا شك ان مع تطـور الحياة انتقل العلم من الصدور الى السطور ، وزاد النتاج العلمي والادبي بجميع فروعه عن طريق التدوين .

ان المعرفـة في نظر الجاحظ ، ذلك الاديب الذى احب الكتاب ، هي تلك المعرفة التي يعتمد حفظها على الكتابة والتدوين . فقد جاء في كتاب الحيوان : "قال بعضهم : كنت عند بعض

---

(١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ١ ص ٤٣

(٢) المخلاة العاملي ص ١١٨

(٣) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٠١ وما يليها .

العلماء ، فكنت اكتب عنه بعضا وادع بعضا • فقال لي : اكتب كل ما تسمع فان مكان ما تسمع اسود خير من مكانه ابيض " (١) •

ولم يستنكف المؤلفون المسلمون عن ذكر الجزازات التي كانوا يدونون عليها الملاحظات ، فكتاب " الحاوى " المشهور للرازى لم يكن تام التأليف عندما توفي صاحبه ، ومن يتصفحه يلاحظ انه مجموعة تعاليق مقتضبـــة (٢) •

كما يبدأ الثعالبي احد فصول كتابه " فقــه اللغة " بقوله : " وجدت في التعليقات التي اخذتها عن ابي بكر الخوارزمي •" (وفي مكان اخر يقول : " انه اخذ معلوماته عن تعليقات احد اصحابه " (٣) •

وعندما كان المؤرخ الشهير ابن الاثير في سورية (١٢٢٣ م) طلب اليه ان يضع كتابا عن الصحابة ، غير ان كتبه الخاصـــة ، والملاحظات التي كان قد دونها على جزازات اثناء سماعه محاضرات العلماء ، لم تكن متوفـــرة لديه ، لانه كان قد تركها في بلدته الموصل • ولكن لحسن طالعه كان هناك رجال ممن كانوا قد سمعوا محاضرات ابن الاثير ، ودونوا الاحاديث مع الاسانيد التي كان قد ذكرها في تلك المحاضرات ، ولكن من الواضح ان هذه المادة التي جمعها سامعو محاضراته لم تكن لتفي بالحاجة عند تأليف كتاب من هذا النوع ، يحتاج الى تحقيق واستشهاد • ولنا ان نفترض ان ابن الاثير رجع الى الكتب المصادر التي توفرت له في سورية • وبعد ذلك عندما رجع الى الموصل ، والى مكتبته الخاصة ، عزم على أن يضيف الى مؤلفه كامل الاسانيد للروايات المختلفـــة ، كما كانت مدونة في ملاحظاته • ولكن لانه كان تعبا يحتاج الى بعض الراحة ، لم يضف الا ما كان يعتبره ضروريا لصحة البحـــث (٤) •

وخلاصـــة القول كان المؤرخون المسلمون ، كما كان علماء الدين ايضا يعتمدون على الوثائق المدونة ، ولم يكن للمعارف التي تعتمد على الذاكرة شأن في تأليفهم •

---

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ ص ١٩ — ٤٨

(٢) البيروني : رسالة في فهرست كتب الرازى ص ٦

(٣) الثعالبي : فقــه اللغة ص ١٠ وص ٢٩٩

(٤) ابن الاثير : اسد الغابة ج ١ ص ٤

وإذا كان الامر على ما ذكرناه ، فاننا نستطيع تفهم الاساليب والطرائق العلمية ، التي كان العالم المسلم يتبعها عند مجابهته المشكلات التأليفية ، وذلك بتدارسنا وجهة نظره فيما يتعلق بالرواية المكتوبة وطريقة استفادته منها .

وبعد ذلك كله ، ان الحديث الشريف لم يدون تدوينا رسميا في عهد الرسول (ص) - كما دون القرآن الكريم - ولا بد لنا من البحث حول الاسباب التي أدت الى عدم تدوينه في عصره قليلا ، أي في عصر الخليفتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب .

ونوجز فنقول :

عند أول جمع الحديث كانوا يصنفون كل باب على حدة الى ان قام كبار اهل الحديث في منتصف القرن الثاني فدونوا الاحكام (فصنف الامام مالك الموطأ (٩٣ - ١٧٣ هـ) وصنف ابن جريج بمكة (١٥٠ هـ) ، والاوزاعي بالشام (٨٨ - ١٥٧ هـ) ، وسفيان الثوري بالكوفة (٩٧ - ١٦١ هـ) وحماد بن سلمة بالبصرة (١٦٧ هـ) وهشيم بواسط (١٠٤ - ١٨٣ هـ) ومعمر باليمن (٩٥ - ١٥٣ هـ) وابن المبارك بخراسان (١١٨ - ١٨١ هـ) وجرير بن عبد الحميد بالري (١١٠ - ١٨٨ هـ) ، وكان هؤلاء في عصر واحد فلا يدرى ايهم اسبق ، ثم تلاهم كثير من اهل عصرهم في النسج على منوالهم ، الى ان رأى بعض الائمة ان يفرد حديث النبي (ص) خاصة ، وذلك على رأس المائتين فصنفوا المسانيد (١) .

قيل : " وهو ملخص من المحدث الفاصل (الرامهرمزي) والجامع للخطيب ، وجامع الاصول لابن الاثير ، وقال ابو طالب المكي في قوت القلوب : " هذه المصنفات من الكتب حادثة بعد سنة عشرين او ثلاثين ومائة ويقال ان أوّل ما صنف في الاسلام ابن جريج في الاثار ، وحروف من التفاسير في مكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن ، جمع فيه سننا منثورة مبوبة ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك ، ثم جمع ابن عيينه كتاب الجامع والتفسير في احرف من علم القرآن وفي الاحاديث المتفرقة ، وجامع سفيان الثوري صنعه ايضا في هذه المدة ، وقيل انما صنفت سنة ستين ومائة).(٢)

---

(١) جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة ص ٢٤ ، وانظر تاريخ بغداد ص٨٥ ج ١٤ ، وتذكرة الحفاظ ص ٢٢٩ ج ١

(٢) انظر اختصار علوم الحديث والرسالة المستطرفة ص ١٠ - ١١ .

وقد ذكرناه بطوله وبعين عبارته لما فيه من نقل كلمات الاعاظم من حفاظهم في هذا الموضوع على وجه يعلم اتفاقهم عليه ، وعدم وقوع اعتراض من غيرهم عليه فتحصل مما ذكرناه عنه امور :

الاول — ان سنن رسول الله (ص) لم تكن معروفة ولا مجموعة قبل منتصف القرن الثاني .

والثاني — ان رسول الله (ص) لم يأمر احدا من الصحابة في حياته بجمع السنن وكتابتها مع انه من اوضح الواضحات ان عدم الاهتمام بجمع السنن وكتابتها يوجد دروس العلم العلم الذي هو غاية البعثة .

والثالث — ان اول من تنبه لهذا الموضوع واحتمل حسنه او لزومه هو عمر بن الخطاب ولكنه بعد ان استشار فيه اصحاب رسول الله ، واشاروا اليه بفعله تردد واستخار الله شهرا تركه او نهى عنه كما يظهر من كلام ابن حجر ، فصار كالمنسي طول ايام بني امية ، وصدرا من ايام بني العباس .

والرابع — ان بعد ترك عمر ومنعه جمع السنن ، لم يقدم احد من الخلفاء على تدوينه وكتابته الى زمن عمر بن عبد العزيز ، فانه لما رأى موت العلماء وخاف دروس العلم امر ابا بكر بن حزم بكتابتها وجمعها ، ولكنه مات قبل ان يتم من ذلك شيء في رأس المائة الثانية ، فلم يوجد عندهم مجموعة في السنن ، الى منتصف القرن الثاني .

ثم بعد تصنيف الموطأ صنف احمد بن محمد بن حنبل امام الحنابلة ، المتولد في سنة اربع وستين ومائة والمتوفي في سنة احدى واربعين ومائتين ، في اوائل القرن الثالث مسنده وصنف بعده ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي المتولد في سنة اربعة وتسعين ومائة والمتوفي في سنة ست وخمسين ومائتين .

وابو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتولد سنة اربع ومائتين والمتوفي سنة احدى وستين ومائتين .

وابو داود سليمان بن الاشعث السجستاني المتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة .

وابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفي سنة تسع وسبعين ومائتين .

وابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي المتوفي سنة ثلاث وثلاث مائة عن ثمان او تسع وثمانين سنة .

وابوعبدالله محمد بن اليزيد القزويني المعروف بابن ماجة المتوفي سنة ثلاث وسبعين ومائتين كتبهم الستة التي صارت مراجع لمن بعدهم . في اصول المعارف والفروع والتفسير وتاريخ صدر الاسلام وغيرها شاع بينهم التعبير منها بالصحاح الستة وربما يعبرون عن كتابي البخاري ومسلم بالصحيحين ، وعن الباقي بالسنن الاربع (١) .

واما الشيعة الامامية ، فانهم رووا باساليب كثيرة ، عن ائمة أهل البيت عليهم السلام ان عندهم كتابا مدونا باملاء رسول الله (ص) بتبليغه الى امته من المعارف الالهية والاحكام الدينية " (٢) .

آراء الشيعة في التدوين

ثم نذكر عدة مصادر توضيحا للمطلب .

١ـ ينابيع المودة :

اخرج الحموئي بسنده عن الباقر عن ابيه عن جده امير المؤمنين عليهم السلام قال : قال رسول الله (ص) : ياعلي اكتب ما املي عليك . قلت يارسول الله اتخاف علي النسيان ؟ قال لا وقد دعوت الله عز وجل ان يجعلك حافظا ولكن اكتب لشركائك الائمة من ولدك ، بهم تسقى الغيث لامتي ، وبهم يستجاب دعاؤهم وبهم يصرف الله عن الناس البلاء ، وبهم تنزل الرحمة من السماء ، وهذا اولهم واشار الى الحسن عليه السلام ، ثم قال : وهذا ثانيهم واشار الى الحسين عليه السلام قال : والائمة من ولده (٣) .

٢ـ رجال النجاشي : (٤)

اخبرنا محمد بن جعفر قال : اخبرنا احمد بن محمد بن سعيد ، عن محمد بن احمد بن

---

(١) انظر اختصار علوم الحديث والرسالة المستطرفة ص١٠ ـ ١١ .

(٢) جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة ص ٢٤

(٣) ينابيع المودة ص ٢٠

(٤) النجاشي : هو احمد بن علي بن احمد بن العباس بن محمد بن عبدالله بن ابراهيم ابن محمد بن عبدالله الاسدي النضري بن النجاشي .

كنيته ابو الحسين ، ولد في صفر ٣٧٢ هـ ـ وتوفي سنة ٤٦٣ هـ .

وقد أهمله الخطيب البغدادي كما اهمل غيره من وجوه الامامية واعلامهم (تهذيب المقال ج ١ ص٨) .

الحسن ،عن عباد بن ثابت ،عن ابي مريم عبد الغفار بن القاسم عن عذافر الصيرفي قال : كنت مع الحكم بن عتبه عند ابي جعفر عليه السلام ،فجعل يسأله ، وكان ابو جعفر عليه السلام له مكرما فاختلفا في شيء فقال ابو جعفر عليه السلام : يا بني قم فاخرج كتابا مدروجا عظيما ففتحه وجعل ينظر حتى اخرج المسألة فقال أبو جعفر عليه السلام : هذا خط علي عليه السلام واملاء رسول الله (ص) واقبل على الحكم وقال : يا ابا محمد ، اذهب انت وسلمة وابو المقدام حيث شئتم ، يمينا وشمالا ،فوالله لا تجدون العلم اوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل (١) يستنتج المؤلف من هذه الاحاديث وما يشابهها امورا اهمها :

اولا — ان رسول الله (ص) لم يترك الامة سدى من بعده مهملة ، بلا امام هاد وبيان شاف ، بل عين لهم ائمة هداة ، دعاة ، سادة ، قادة ، حفاظا وبين لهم المعارف الالهية والشرائع الدينية ، والسنن والاداب ، والحلال والحرام ، والحكم والاثار ، وجميع ما يحتاج اليه الناس الى يوم القيامة . ولم يأذن (ص) لاحد ان يحكم او يفتي ، بالرأي والنظر والقياس ، لعدم كون موضوع من الموضوعات ، وأمر من الامور ، خاليا عن الحكم الثابت له من قبل الله الحكيم العليم ، بل املى (ص) جميع الشرائع والاحكام على الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ، وامره بكتابته وحفظه ورده الى الائمة من ولده عليهم السلام . فكتبه عليه السلام بخطه واداه الى اهله .

ثانيا — انه (ص) املى هذا العلم على علي بن ابي طالب فقط ، ولم يطلع عليه في عصره غيره احد . واوصى اليه ان يكون هذا الكتاب بعده عند الائمة من ولده الاحد عشر فيجب على الامة كلهم ، ان يأخذوا علم الحلال والحرام وجميع ما يحتاجون اليه في امر دينهم بعد رسول الله (ص) من علي بن ابي طالب ، والائمة من ولده ، فانهم موضع سر النبي (ص) وخزان علمه وحفاظ دينه .

ثالثا — ان الكتاب كان موجودا عند الائمة عليهم السلام ، واراه الامامان ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وابنه ابو عبد الله جعفر ابن محمد الصادق عليهم السلام ،جماعة من أصحابهما الامامية ، وغيرهم من الجمهور ، لحصول الاطمئنان والاحتجاج على ما كانا يتفردان به من الفتاوى عن سائر الفقهاء ، ويقسمان بالله انه املاء رسول الله (ص)

---

(١) جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة ص ٢٥ عن النجاشي جزء ٢ ص ٢٧٨ .

وخط علي بن ابي طالب عليه السلام .

رابعا — كون الكتاب معروفا عند الخاصة والعامة في عهد الامامين عليهما السلام لانهما كثيرا ما يقولان في جواب استفتاءات الجمهور ، كغياث بن ابراهيم وطلحة بن زيد ، والسكوني ، وسفيان بن عيينة ، والحكم بن عشيبة ، ويحي بن سعد ، وامثالهم ، ان في كتاب علي عليه السلام كذا وكذا ، في جواب مسائل الاصحاب كزرارة ومحمد بن مسلم ، وعبد الله بن سنان ، وابي حمزة ، وابن بكير ، وعنبسة بن بجاد العابد .

خامسا — ان ما عند الائمة عليهم السلام من علم الحلال والحرام ، والشرائع والاحكام نزل به جبريل عليه السلام ، واخذوه من رسول الله (ص) فتحرم على الامة مخالفتهم في الحكم الفتوى اعتمادا على الرأي والقياس والاجتهاد ويجب عليهم الاخذ باحاديثهم وتاريخهم ، ورد ما يرد عن مخالفيهم ، لان ما عندهم اوثق مما عند غيرهم . ومعلوم ان ما ورد في كون احاديث الائمة الاثني عشر وعلومهم عن النبي (ص) من طرق العامة والخاصة ، قد تجاوزت حد التواتر بل لا يسعها المجلدات الضخام ، ولسنا بصدد استقصائها في هذا الكتاب (١) .

بعد هذا العرض الشامل لجميع ما قيل في امر تدوين الحديث ، نستطيع الحصول على نتائج عديدة اهمها :

أ — لم يكن السبب في عدم تدوين السنة رسميا في عهد الرسول (ص) جهل المسلمين انذاك بالكتابة والقراءة ، فكان فيهم القارئون والكاتبون الذين دونوا التنزيل الحكيم ، بل كان ذلك لاسباب اخرى ذكر بعضها العلماء المسلمون ونسوا او تناسوا عن البعض الآخر .

ب — روى عن الرسول (ص) من اباحة الكتابة وكراهتها ، فكره الكتابة لمن لا يحسنها او لمن يستطيع الحفظ ، واباحها لمن لا يستطيع الحفظ ولا ارى هناك من تعارض بين ما روى عنه (ص) ثم انتهينا الى اباحة الرسول كتابة السنة مطلقا .

---

(١) الجامع لاحاديث الشيعة في احكام الشريعة ص ٢٦ .

ج - ورد عن الصحابة والتابعين واتباعهم من كراهة كتابة الاحاديث او اباحتها ، فاباحوا الكتابة عندما زالت اسباب المنع وخشية التباس القرآن بالحديث او خوف مضاهاة الكتاب الكريم بكراريس الحديث وكتبه ، او انشغال الناس بالحديث عن القرآن • ثم اباحوا الكتابة حين زالت هذه الاسباب • واخيرا انعقد الاجماع على اباحة الكتابة •

د - خشي عمر بن عبد العزيز اندراس الحديث ، كما خاف من تسرب الوضع اليه ، فامر بجمعها على ايدي كبار علماء التابعين ، في مختلف اقاليم الدولة الاسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف ، كما شجع العلماء على عقد حلقات دراسية في المساجد • فله الفضل الكبير في تحميل الدولة مسؤولية حفظ الحديث رسميا •

واما التدوين الفردي فقد وقع فعلا في عهد الرسول (ص) وفي عهد الصحابة والتابعين ، ولم تكن السنة مهملة ابدا طيلة القرن الاول ، بل تم حفظ الحديث في الصدور ، الى جنب حفظه في سطور الصحف والكراريس •

هـ - حتى مطلع القرن الهجري الثاني ، تحول عمل العلماء من جمع الحديث وتقييده الى تصنيفه على الابواب وضم هذه الابواب في مصنف او جامع ، فلم يكن مطلع هذا القرن مبدأ لتدوين الحديث وتقييده ، بل كان مبدأ للتصنيف على الابواب ، وقد ظهرت هذه المصنفات كما ذكرنا في اوقات متقاربة وفي مختلف مراكز الاشعاع العلمي في الدولة الاسلامية •

ثم ظهرت بعد ذلك المسانيد فالصحاح ، وبهذا يكون تدوين الحديث قد مر بمراحل مختلفة بالنسبة للزمان والمكان ورأي الخلفاء والامراء حتى انتهى الينا في كتب الصحاح والمسانيد •

× × ×

الفصل الثالث : اقسام الحديث

اختلف الباحثون في تقسيم علم الحديث ، فبعضهم من قسمه تقسيما ثلاثيا ، ومنهم من قسمه رباعيا ، ومنهم من قسمه ثنائيا . فاختلفت آراؤهم في كثير من النظريات والاصطلاحات المتعلقة بهذه المواضيع ولا ضير عليهم فكل المواضيع التي يدخلها عنصر الاجتهاد هذا هو شأنها . (انظر تدريب الراوى ص ١٣) .

الحديث الصحيح

واقسام الحديث الاربعة التي ورد ذكرها ، يندرج تحتها انواع كثيرة من هذه الانواع ، منها ما هو خالص للصحة او للحسن او للضعف ، ومنها ما هو مشترك بين الصحيح والحسن وحول هذه الانواع وضعت المصطلحات الكثيرة التي لا تعد ولا تحصر حتى قال الحازمي : "علم الحديث يشتمل على انواع كثيرة تبلغ مئة ، كل نوع منها علم مستقل ، لو انفق الطالب فيه عمره لما ادرك نهايته " (١)

والحديث الصحيح وان تباينت تعاريفه عند علماء الحديث ، فكلها تصب في مصب واحد فهو في عرف المتقدمين ينسب لكل ما يجوز الاعتماد عليه ، سواء كان ذلك لناحية السند له او لغيره من الاسباب والقرائن الموثوق بها . وقد توسعوا في استعمال الصحيح ، فالحسن وحتى الضعيف المقترن ببعض القرائن يصبح في نظرهم صحيحا .

وقد عرف الصحيح جماعة من المؤلفين في علم الحديث كما نص على ذلك الشهيد الثاني في كتابه (البداية في علم الدراية) ، بانه عبارة عن الحديث المتصل سنده بالمعصوم بواسطة الامامي العدل عن مثله في جميع الوسائط الواقعة بين المعصوم والراوي الاخير ، ولو كان بين رواته واحد غير ثقة يفقد هذه الصفات (٢) .

وقالوا ايضا : " هو الحديث المسند الذى يتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط ، حتى ينتهي الى رسول الله (ص) او الى منتهاه من صحابي او من دونه ، ولا يكون شاذا ولا معللا " (٣) .

واضاف بعضهم قيدا آخر الى تعريف الصحيح ، وهو ان يكون الراوى ضابطا ، اى متقنا ولكن اكثر المؤلفين في علم الدراية لم يتعرضوا لهذا القيد ، اعتمادا على ان اشتراط العدالة في الراوي امر لا بد منه ، ذلك ان العادل اذا احس من نفسه النسيان او السهو وعدم الاتقان يمتنع من تلقاء نفسه عن الرواية ، اذا لم يكن جازما ومطمئنا لما يرويه عن غيره .

وقد وجدت اجمع تعريف للحديث الصحيح عند الجميع هو : الحديث المسند بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط حتى ينتهي الى رسول الله ، على وجه تسكن اليه النفس ، مع السلامة من الشذوذ ، والعلة .

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه – صبحي الصالح ص ١٤٥ – تدريب الراوي ص ٩

(٢) علم الدراية ص ١٩

(٣) راجع اختصار علوم الحديث ص ٢١ .

وقد نص جماعة ان الصحيح من الاحاديث يشتمل على ثلاثة مراتب اعلاها ان تثبت عدالة الرواة بالعلم او بشهادة العدلين . واوسطها ان يكون اتصاف الراوي بالصفات المطلوبة بشهادة العدل الواحد الذي يحصل الوثوق والاطمئنان من شهادته . والمرتبة الثالثة هي ان يتصف الراوي بالصفات المطلوبة بواسطة القواعد والاصول المعمول بها في موارد الشك وعدم العلم بالواقع ، او من دراسة تاريخ الرواة وتتبع احوالهم (١) .

وتتفاوت رتب الصحيح بتفاوت الامصار التي روته . فقالوا : اصح طرق السنن ما يرويه اهل الحرمين مكة والمدينة ، ولاهل اليمن روايات جيدة ولكنها قليلة ، ومرجعها الى اهل الحجاز ولاهل البصرة من السنن الثابتة بالاسانيد الواضحة ما ليس لغيرهم مع اكثارهم ، وحديث الشاميين اكثره مراسيل ومقاطيع ، وما اتصل منه مما اسنده الرواة الثقة فانه صالح ، والغالب عليه ما يتعلق بالمواعظ (٢) . وكان لكل صحابي رواته من التابعين ، ولهم اتباع واكثرهم ثقات ، ولا يمكن ان يقطع الحكم في اصح الاسانيد لصحابي واحد (٣) .

ويقول نقاد الحديث : حديث صحيح اذا كان صحيح الاسناد والمتن ، اما اذا كان صحيح الاسناد فقط فيسمونه صحيح الاسناد قاصدين صحة السند من غير ان يستلزم صحة المتن . وقلما كانوا يهتمون بنقد المتون .

الحديث الحسن :

قال الخطابي (٤) ، "الحسن هو ماعرف مخرجه واشتهر رجاله ، وعليه مدار اكثر الحديث ، ويقبله اكثر العلماء ، واستعمله عامة الفقهاء . ثم يروى ان الترمذي حدّ الحسن بان لا يكون في اسناده من يتهم بالكذب ، ولا يكون شاذا ، ويروى من غير وجه . وهو الذي فيه ضعف

---

(١) دراسات في الكافي والصحيح ص ٤٠

(٢) صبحي الصالح : علم مصطلح الحديث ص ١٥٤ ذكره القاسمي في قواعد التحديث ص ٥٨

(٣) الباعث الحثيث ٢٢ ــ ٢٥ .

(٤) الخطابي هو الحافظ فقيه اديب محدث له مؤلفات منها : معالم السنن على ابي داود وهو مطبوع ، وله اعلام السنن في شرح البخاري . توفي سنة ٣٨٨ بمدينة بست واليها ينسب احيانا فيقال (البستي) .

قريب محتمل ويعمل به " (١) .

وبهذا قد ميز الترمذي الحسن عن الصحيح بشيئين : احدهما أن يكون راويه قاصرا عن درجة راوي الصحيح ، وراوي الصحيح لابد وان يكون ثقة ، وراوي الحسن لذاته لابد وان يكون موصوفا بالضبط (٢) .

وقال ابن الجوزي : (٣) معرفة الحسن موقوفة على معرفة الصحيح والضعيف ، لان الحسن وسط بينهما ، بقوله قريب مخرجه الى الصحيح محتمل " (٤) .

والحديث الحسن قسمان : احدهما : ما لا يخلو اسناده من مستور لم تتحقق اهليته ، وليس مغفلا كثير الخطأ ، ولا ظهر منه سبب مفسق ، ويكون متن الحديث معروفا بروايته مثله او نحوه من وجه اخر . والثاني : أن يكون راويه مشهورا بالصدق والامانة ، ولم يبلغ درجة الصحيح لقصوره في الحفظ والاتقان ، وهو مرتفع عن حال من يعد تفرده منكرا (٥) .

ثم الحسن كالصحيح في الاحتجاج به وان كان دونه في القوة ، ولهذا ادرجته طائفة في نوع الصحيح وقولهم حديث حسن الاسناد او صحيحه ، دون قولهم حديث صحيح او حسن ، لانه قد يصح او يحسن الاسناد دون المتن لشذوذ او علة . واما قول الترمذي : حديث صحيح حسن فمعناه روي باسنادين احدهما يقتضي الصحة ، والاخر الحسن . فقد يصح او يحسن الاسناد لثقة رجاله (دون المتن لشذوذ او علة) وقد يرتقي الحسن الى الصحيح اذا روي من وجه اخر . فيقوى من الجهتين ، فالراوي في الحسن متاخر عن درجة الحافظ الضابط مع كونه مشهورا بالصدق ، فاذا روي حديثه ولو من غير وجه ، ولو وجها واحدا ، زال ما كان يخشى عليه من جهة سوء حفظ راويه (٦) .

---

(١) انظر تدريب الراوي ٤٩ ـ ٥٢

(٢) تدريب الراوي ١٥٥ ـ ١٥٧ ج ١ واختصار علوم الحديث ص ٤٣

(٣) هو جمال الدين عبد الرحمن بن ابي الحسن علي القرشي الصديقي صاحب المؤلفات الكثيرة في اكثر العلوم المتوفي سنة ٥٩٧ هـ .

(٤) أنظر اختصار علوم الحديث ص ٤٣

(٥) تدريب الراوي ص ٥٣

(٦) انظر علوم الحديث لصبحي الصالح ص ١٥٨ وقواعد التحديث ص ٨٣ واختصار علوم الحديث ص ٤٧ .

والحديث الحسن عرفه بعض جماعة من المتاخرين قولهم : (هو الحديث الذي يرويه الامامي الممدوح في دينه مدحا معتدا به عند العقلاء من غير ان ينص احد على وثاقته ولا على فسقه وانحرافه عن المذهب) (١) . ولا بد ان يرويه الامامي الجامع لهذه الصفة عن امامي مثله الى ان ينتهي الى النبي (ص) .

ثما تكلم عن الحسن الخطابي فعرفه : (٢) (هو ما عرف مخرجه واشتهر رجاله) (٣)

اما ابن جماعة فقد رد على هذا الحد : ضعيف عرف مخرجه واشتهر رجاله بالضعف (٤) .
ثم تابع الخطابي في تتمة كلامه : (وعليه مدار اكثر العلماء) وان كان بعض اهل الحديث شدد فرد بكل علة قادحة كانت ام لا .

وبعد كلام الخطابي حد الترمذي (الحسن) "بان لا يكون في اسناده من يتهم بالكذب ولا يكون شاذا ، ويروى من غير وجه (٥) .

ولقد انتقد الترمذي "٦" من قبل ابن الصلاح والحافظ اذ انه لم يميز تمييزا واضحا بين الصحيح والحسن . قال الحافظ ابو عبد الله بن السواق : "لم يخص الترمذي الحسن بصفة تميزه عن الصحيح ، فلا يكون صحيحا الا وهو غير شاذ ورواته غير متهمين بل ثقات" (٧) .

والحقيقة اننا نرى فرقا وقد ميز الترمذي الحسن عن الصحيح بشيئين :

احدهما : ان يكون راويه قاصرا عن درجة راوي الصحيح ، وهو ان يكون غير متهم بالكذب فيدخل فيه المستور والمجهول ونحو ذلك . وراوي الصحيح لا بد وان يكون ثقة ، وراوي الحسن لا بد وان يكون موصوفا بالضبط ، ولا يكفي كونه غير متهم .

والثاني : مجيئه من غير وجه وقد ذكر الترمذي في العلل التي في اخر جامعه "وما ذكرنا في هذا الكتاب من حديث حسن ، انما اردنا به حسن اسناده" (٨)

---

(١) علم الدراية للشهيد الثاني ص ٢١

(٢) ينسب الى جده الخطاب وهو ابو سليمان حمد ابن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستي ، مصنف اعلام الصحيح وغريب الحديث ومعالم السنن وقد روى عنه الحاكم وتوفي سنة ٣٨٨ هـ .

(٣) تدريب الراوي ص ١٥٤ ج ١

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٤ "

(٥) المصدر نفسه ص ١٥٤

(٦) الترمذي هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي ، صاحب السنن الشهير ويسمى كتابه "الجامع الكبير" ايضا . توفي سنة ٢٧٩ هـ وقيل ٢٧٥ هـ .

(٧) تدريب الراوي ص ١٥٥

(٨) انظر اختصار علوم الحديث ص ٤٣ .

الحديث الموثّق :

في تصنيف الحديث عند الشيعة نجد الصحيح والحسن والموثّق والضعيف ، ويقصد بالصحيح والحسن الروايات التي يرويها الامامي ، الذي نعتبر عقيدته المذهبية سليمة مئة بالمئة . ويختلف الصحيح عن الحسن ، بان راوي الصحيح عادل دون الحسن . اما الموثق الذي نحن بصدده فهو :

الحديث الذي يرويه المستقيم في دينه ، المتمسك بعقيدته ، المعروف بحسن السيرة والسلوك والصدق والامانة على شرط ان لا يكون اماميا سواء كان من الشيعة الذين انحرفوا عن المخطط الامامي ، ام كان من غير الشيعة كأهل السنة وغيرهم من المذاهب الاخرى (١) ثم يضيف :

" وهو ما دخل في طريقه من نص الاصحاب على توثيقه . وهو يريد بالاصحاب اصحاب الشيعة لا غيرهم محترزا عما روي في الصحاح فهي لا تدخل في الموثّق لانهم وثقوا بها جميعا دون تدقيق .

ان مصدر حجية الحديث عند الشيعة بعض الايات القرآنية مثل : " ان جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين " (٢) وبعض الروايات التي نعتبر ان اعتماد الانسان الموثوق في نقل حادثة او فكر او حكم انما هو طريقة العقلاء ، اقرّها الاسلام [illegible] وهذا يعني اعتماد الطريقة المتداولة لدى العقلاء . والنتيجة ان مقياس اعتماد الخبر هو الثقة بالراوي ، وانه لا يكذب ، وانه قليل الخطأ ، حافظ لما يسمع . ولا شك ان هذه الاوصاف تتوفّر لدى غير المسلم في بعض الاحيان ، ولذلك فالدليل يساعدنا على قبول قول غير المسلم وان لم نجد به قولا صريحا من الفقهاء .

الحديث الضعيف :

وهو رابع اقسام الحديث وخير تعريف له ماجاء في التدريب : " هو مالم يجتمع فيه صفات الصحيح ولا صفات الحسن (٣) " اما اصنافه وصوره فتكاد لا تحصى واكثرها غير واقعي . ودرجاته في الضعف متفاوتة بحسب بعده عن شروط الصحة ، فكلما بعد بعض رجاله عنها كان اقوى في الضعف ، وكذا ما كثر فيه الرواة المجرحون بالنسبة الى ماقل فيه . ونذكر اهم انواع الحديث التي تختص بالضعيف .

---

(١) الدراية للشهيد الثاني ص ٢٣

(٢) الحجرات - الاية ٦ .

(٣) التدريب ص ٥٩ .

المرســـــل :

وهو ما سقط منه صحابي . وسبب ضعفه فقد الاتصال في السند ، وانما سمي مرسلا لان راويه ارسله واطلقه فلم يقيده بالصحابي الذي تحمله من رسول الله (ص) والمرسل ليس بحجة عند اهل العلم بالاخبار كما ورد في مقدمة صحيح مسلم . اما مراسيل الصحابة فلا يعتبرونهـــا ضعيفـــة على اعتبار ان الصحابي لا يأخذ الا عن صحابي ، وسقوط الصحابي الاخر من السند لا يضر كما ان جهل حاله لا يضعف الحديث فثبوت شرف الصحبة له كاف في تعديله (١) .

واظن ان شيخنا الصالح قد غالى في تقديس الصحابة ، اذ ان الصحابة ليسوا في نفس المرتبـــة من حيث التقاة والحفظ ، كما ان بعضهم تختلف مدة صحبته عن الاخر ، فمنهم من صاحب الرسول عاما او عامين ومنهم من صاحبه عدة اشهر ، ومنهم من جاهد مع الرسول (ص) جهـــاد الابطال في اعنف المعارك التي خاضها الاسلام مع المشركين والكفار في نشر الدعوة الاسلاميـــة منذ الخطوة الاولى ، ومنهم من وقف متفرجـــا ينتظر النتيجـــة . فالصحابة يمتازون عن غيرهـــم بمقدار معرفتهـــم للدين وطول صحبتهم للرسول لا بلقبهـــم .

والمرسل مراتب : " اعلاها ما ارسله الصحابي ثبت سماعه ، ثم صحابي له رؤية فقط ولم يثبت سماعه ، ثم المخضرم . واخيرا من كان يأخذ من كل احد " (٢) . والمرسل اذا اسند عن ثقات تتقوى حجتـــه وتنكشف صحتـــه .

المنقطـــــع :

" وهو الحديث الذي سقط من اسناده رجل ، او ذكر فيه رجل مبهم " (٣) وسبب ضعفه فقد الاتصال في اسند فهو كالمرسل . وقيل هو ما اختل منه رجل قبل التابعي محذوفا كان او مبهما . وقيل ايضا : " هو ما روي عن تابعي او من دونه قولا له او فعلا وهذا غريب ضعيف (٤)

المعضـــــل :

يقولون : " اعضله فهو معضل وهو ما سقط من اسناده اثنان فاكثر ، ويسمى منقطعـــا ويسمى مرسلا عند الفقهاء (٥) وفقد الاتصال في سنده هو سبب ضعفه . ومن المعضـــــــل

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه ـ صبحي الصالح ص١٦٦ وقواعـــد التحديث ص١١٤

(٢) انظر قواعد التحديث ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٣) اختصار علوم الحديث ص ٥٣

(٤) انظر الدرايـــة للشهيـــد الثاني ص٤٧ .

(٥) التدريب ص٧٣ قارن بالكفايـــة ص ٢١ .

ما ارسله تابع التابعي . والمعضل اسوأ حالا من المنقطع ، والمنقطع اسوأ حالا من المرسل ، والمرسل لا تقوم به حجـــة (١) .

المُدَلَّـــس :

وسمي بالمدلس وذلك من الدلس وهو اختلاط الظلام ، فالراوي حدث في الخفاء دون ان يظهر وهو قسمان : احدهما (مدلس الاسناد) وهو الحديث الذي يؤديه الراوي عمن عاصره ولكنه من انه لم يصح سماعه عنه ، او عمن عاصره ولكنه لم يلقه موهما انه سمعه من لفظه . ثانيهما : (هو تدليس الشيوخ) وهو ان يصف راويه باوصاف اعظم من حقيقته او يسميه بغير كنيته ، قاصدا ذلك الى تمويه امره . من ذلك ان يقول حدثنا العلامة ـ الحافظ ـ الضابط (٢) .

والمدلس انواع منه :

١ ـ " تدليس العطف كأن يقول الراوي حدثنا فلان وفلان مع انه لم يسمع من الثاني .

٢ ـ تدليس السكوت : كأن يقول : " سمعت حدثني ثم يسكت ، ثم يقول " سمع منه مع انه لم يصح له السماع .

٣ ـ ومنه تدليس التسوية ، وهو ان يحمله على اسقاط غير شيخه لضعفه او لصغر (٣) سنه فيجعل الحديث مرويا عن الثقات فقط ، وذلك ليقوى في قبوله وصحته " .

وعبارات المدلسين خطرة جدا فقد يعمد بعضهم الى تعظيم شيخه فينسبه الى بلد عظيم معروف حتى يعلي من مكانته . فيقول "حدثني فلان بالقاهرة وهو يقصد حلب (٤) .
والتدليس لم ينحصر في اقليم معين او بلد معين من البلاد التي اشتهرت بالحديث والمدلسون منتشرون في كل انحـــاء الارض يؤدون عن شيوخ لم يسمعوا منهم ولم يروهم .
واني لاعجـــب كيف تأكد الدكتور صبحي الصالح في كتابه علوم الحديث (ص ١٧١) ان التدليس "عرف به اهل الكوفة ونفر يسير من اهل البصرة " فقط دون غيرهم من سائر الناس ؟ !

---

(١) انظر اختصار علوم الحديث ص ٥٥ .

(٢) التدريب ص ٢٢٣ ـ اختصار علوم الحديث ص ٥٩ ـ علوم الحديث ومصطلحه ص ١٧٢

(٣) المصـــدر نفســـه .

(٤) معرفـــة علوم الحديث ص ١٩٩ .

الشـــاذ :

سمي شاذا لانفراده عن الجمهور . وهـو عند الشافعي (١) : "ماروى الثقة مخالفا لروايـة الناس (٢) . وقال الخليلي (٣) : "ان الشاذ ما ليس له الا اسناد واحد يشذ به ثقة" وقال الحاكم (٤) : "هو ما انفرد به ثقـة وليس له اصل بمتابـع" (٥) .

فاذا كان الراوي بتفرده مخالفا احفظ منه واضبط ،كان شاذا مردودا ، وان لم يخالف الراوي ،فان كان عدلا حافظا موثوقا بضبطه كان تفرده صحيحا .

المُعَلَّـــل :

ومعرفة هذا النوع من الحديث الضعيف هو من اجل معرفة علوم الحديث وادقهـــا وهو ما فيه من اسباب خفيـــة غامضة تقدح في صحته ، وظاهره السلامة منها (٦) ونتمكن من معرفة تلك العلل الخفيـــة في متون تلك الاحاديث او رواته عن طريق الخبرة والدرية والمراس في علم الحديث ،نستعين بالذاكرة الثاقبة والنظر السديد لاكتشاف تلك العلة الغامضة التي تضعف الحديث وتعلـــه . (٧) .

---

(١) الشافعي : هو الامام صاحب المذهب الذي سمي باسمه ،عمر بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، والى جده الاخير نسب ، هو قرشي مكي ،كنيته ابو عبد الله ،حدث عن مالك بن انس واخذ الفقه عن مسلم ،له كتب كثيرة في التفسير والحديث والفقه والادب . توفي بمصر ٢٠٤ هـ عن اربع وخمسين سنة .

(٢) التدريـــب ص ٢٣٥ .

(٣) الخليلي : هو القاضي الحافظ الخليل بن عبد الله القزويني المتوفي ٤٤٦ هـ له : (الارشاد في علماء البلاد) ذكر فيه المحدثين وغيرهم من العلماء على ترتيب البلاد الى زمانه .

(٤) الحاكم : هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه ، المعروف بالحاكم النيسابوري صاحب التصانيف الشهيرة ، واهمـــا المستدرك على الصحيحين والمدخل توفي سنة ٤٠٥ هـ .

(٥) معرفـــة علوم الحديث ص ١١٩ (٦) الشهيد الثاني ص ٥٠ في علم الدرايـــة . ومعرفة علوم الحديث ص ١١٣ .

(٧) انظر توضيح الافكار ٢ ص ٢٩ .

فنلاحظ اما تفرد الراوى بدلك الطريق ، او المتن الذى تظهر عليه قرائن العلة بمخالفة غيره له .. من ارسال في الموصول او وقف في المرفوع ، او دخول حديث في حديث ، الى غير ذلك من الاسباب المعلة للحديث . يسيطر علينا الظن ولا نبلغ اليقين فنتردد من غير ترجيح . اما هذه العلة فهي طبعا مانعة من صحة الحديث . لذلك اشترط علماء الحديث في تعريف الصحيح سلامته منها .

وقد يوجد في الحديث نفسه اكثر من علة : كالانقطاع والتدليس وجهالة الكاتب والاضطراب في لفظه ومخالفته لما رواه عدد التواتر . فيصبح الحديث المعلول كالمريض المصاب باشتراكات في امراض مختلفة ، وعلى الطبيب النطاسي كشف هذه الامراض والعلل ليعطي الدواء الشافي وينقذ المريض من براثن الموت .

قال علي بن المديني : " الباب اذا لم تجتمع طرقه لم يتبين خطؤه " (١) ، والطريق الى معرفة المعلل هو جمع طرق الحديث والنظر في اختلاف رواته وضبطهم واتقانهم .

وسوف نورد في هذا المجال بعض العلل التي اوجزها السيوطي (٢) في التدريب (٣) احدها : (ان يكون السند ظاهره الصحة وفيه من لا يعرف بالسماع ممن روى عنه كحديث موسى بن عقبة عن سهيل بن ابي صالح عن ابيه عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : " من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل ان يقوم سبحانك اللهم وبحمدك " لا اله الا انت استغفرك واتوب اليك ، غفر له ما كان في مجلسه ذلك " فروى ان مسلما جاء الى البخارى وساله عنه فقال هذا حديث مليح ، الا انه معلول ، حدثنا به موسى بن اسماعيل عن وهيب عن سهيل عن عون بن عبد الله وهذا اولى لانه لايذكر لموسى بن عقبة سماع من سهيل) .

وثانيهما : (ان يكون الحديث مرسلا من وجه رواه الثقات ويسند من وجه ظاهره الصحة)

---

(١) انظر تدريب الراوى ص ٨٩ .

(٢) السيوطي : هو العلامة عبد الرحمن جلال السيوطي (- ٩١١ هـ) صاحب التصانيف الكثيرة في التفسير والحديث واللغة ، وله في مصطلح الحديث الفية . وتدريب الراوى .
وجميع هذه العلل التي ذكرها السيوطي في (تدريب الراوى) قد ذكرها الحاكم ابي قبله في كتابه معرفة علوم الحديث من ص ١١٣ الى ١١٩ .

(٣) تدريب الراوى ج ١ ص ٢٥٨ قال البلقيني "اجل كتاب صنف في العلل كتاب ابن المدينة وابن ابي حاتم واجمعها كتاب الدارقطني . وقد صنف شيخ الاسلام فيه "الزهر المطلول في الخبر المعلول " .

وثالثهما : (ان يكون الحديث محفوظا عن صحابي ، يروى عن غيره لاختلاف بلاد رواته ، كرواية المدنيين عن الكوفيين مثلا) والمدنيون اذا رووا عن الكوفيين زلقوا .

ورابعها : (ان يكون محفوظا عن صحابي ، يروى عن تابعي يقع الوهم بالتصريح بما يقتضي صحته) .

وخامسها : (ان يكون روى بالعنعنة وسقط منه رجل دل عليه طريق اخرى محفوظة) .

وسادسها : الاختلاف على رجل في تسمية شيخه او تجهيله) .

وسابعها : (ان يكون الراوى عن شخص ادركه وسمع منه ، الا انه يروى عنه احاديث لم يسمعها) .

وثامنها : (ان تكون طريقة معروفة ، يروى احد رجالها حديثا من غير تلك الطريق فيقع من رواه من تلك الطريق ـ بناء على الجادة ـ في الوهم (١)

وتاسعها : (ان يروى الحديث مرفوعا من وجه وموقوفا من وجه) . واذا اردنا ان نتابع في سرد العلل لطال بنا المجال طويلا .

المضطـــرب :

وهو الذى يروى على اوجه مختلفة متقاربة ، فان رجحت احدى الروايتين بحفظ راويها او كثرة صحبته المروى عنه وغير ذلك ، فالحكم للرواية الراجحة (٢) ومما لا شك فيه ان الاضطراب يضعف الحديث لاشعاره بعدم الضبط ، ويقع في الاسناد تارة وفي المتن اخرى ، او في المتن والاسناد معا . ويمكن ان يحصل هذا من راو او جماعة (٣) .

---

(١) انظر التفاصيل في تدريب الراوى ص٥٨ وما بعدها . ومعرفة علوم الحديث ص١١٢ ـ ١١٦ .

(٢) تدريب الراوى ج ١ ص٢٦٢ والمضطرب مأخوذ من اختلال الامر وفساد نظامه وأصله اضطراب الموج لكثرة حركته وضرب بعضه بعضا . انظر الفية السيوطي ص١١٨ .

(٣) قارن بالتدريب ص٩٣ .

وقال بعضهم ان الاضطراب قد يجامع الصحة ، وذلك بان يقع الاختلاف في اسم رجل واحد وابيه ونسبته ، ويكون ثقة ، فيحكم للحديث بالصحة ولا يضر الاختلاف فيما ذكر مع تسميته مضطربا (١) .

المقلـــوب :

المقلوب هو الحديث الذي انقلب في متنه لفظ او في اسناده اسم رجل . فقدم ما حقه التاخير او بالتالي اخر ما حقه التقديم ، فالقلب اذن هو في المتن كما هو في الاسناد (٢) ، نحو حديث مشهور لناصر جعل عن خالد ليرغب فيه ، فمثال المقلوب في المتن قاله حبيب ابن عبد الرحمن عن عمته انسية مرفوعا (٣) : "اذا أذن ابن ام مكتوم فكلوا واشربوا واذا أذن بلال فلا تأكلوا ولا تشربوا" رواه احمد في صحيحه . والمشهور من حديث عائشة : ان بلال يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن ام مكتوم" . فالحديث مقلوب .

وقد عني بهذا القسم الخطيب في كتابه "رفع الارتياب في المقلوب من الاسماء والانساب"(٤)

ومما يذكره السيوطي ايضا ان اهل بغداد قلبوا على البخاري مائة حديث امتحانـــا له فردها على وجوهها . واذا وضعنا هذه القصـــة على بساط النقد السليم والمنطق السوي علمنا انها بعيـــدة عنهما كل البعد . مع احترامنا الشديد للدكتور صبحي الصالح الذي اكدها نقلا عن تدريب الراوي ص١٠٦ وتوضيح الافكار ص١٠٣ ج ٢ والفيـــة السيوطي ص١٢٢ .

اما اوجه القلب فكثيرة ومختلفـــة نذكر اهمهـــا :

اولا — ان يقع القلب في المتن كما ورد في المثل اعلاه .

ثانيا — ان يؤخذ اسناد متن فيجعل على متن آخر وبالعكس . اما رواية البخاري وقدومه بغداد فنلخصها : ان محمدا بن اسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به اهل الحديث فارادوا امتحانه ، فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها على اسانيدها ، ودفعوا اليه بعشرة منها الى عشر رجال . فحضر المجلس جماعة من اصحاب الحديث ولما اطمأن المجلس باهله انتدب اليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث فقال البخاري : لا اعرفه ، فسأله عن الاخر : فقال : لا اعرفه وهكذا الى ان سأل الرجال عن كل احاديثهم وهو يجيب لا اعرف .

---

(١) انظر الباعث الحثيث ص٧٨

(٢) اخذت هذا التعريف من مجموع تأويل عند اكثر علماء الحديث في اقسام المقلوب وحادثة البخاري تلك ذكرها السيوطي في التدريب ص٢٦٣ ج ١ .

(٣) تدريب الراوي للسيوطي ص٢٦٢ ج ١ .

(٤) انظر الباعث الحثيث ص٩٧ .

ولما عرفوا التفت البخاري الى الاول منهم قائلا : اما حديثك الاول فهو كذا رانتاني كذا ... نرد كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه ، وفعل بالاخرين مثل ذلك .. فاقر له الناس بالحفظ . ولكن هل كل واحد منا بخاري ؟ كل عصر وله رجاله ، فالاطلاع الواسع والممارسة الطويلة والفهم الدقيق تكسب المتمرس بهذا الفن ملكة يميز بها السليم من السقيم .

قال الخطيب البغدادي : " ينبغي لصاحب الحديث ان يكون مثل الذي ينتقد الدراهم ، فان الدراهم فيها الزيف والبهرج ، وكذلك الحديث " (١)

ثالثا - قد يقع القلب غلطا لا قصدا كما يقع الوضع .

ومعرفة قلب الحديث تحتاج الى علم واسع ، وتمرس وثيق بالروايات والاسانيد ومنشأ الضعف في هذا النوع من الحديث ، قلة الضبط ، لما يقع فيه من تقديم وتأخير . وقد يكون الراوي احذق من السامع بحيث يخل فهم السامع ويحمله على الوقوع في الخطأ . ويبقى هذا الخطأ يتداول من راو الى اخر حتى يصل الى سامع ماهر كالبخاري ، فيكشف العلة ويعرى الحقيقة .

المتـــــروك :

وهو في اصطلاح المحدثين ، ما رواه واحد متهم بالكذب او ظاهر الفسق بفعل او قول ، او كثير الغفلة والوهم . فاذا ما قارنا هذا التعريف بتعريف الحديث الشاذ نراه يكاد يكون هو نفسه (٢) .

الموضــــوع :

وهو آخر ما نذكر من الاحاديث الضعيفة . ذلك لو اردنا ذكر جميع ما تحدث عنه القدامى من فروع للاحاديث الضعيفة لطال بنا المجال .

والحديث الموضوع (٤) او المكذوب ، والمختلق المصنوع ، هو شر الاحاديث الضعيفة ، بمعنى ان واضعه اختلقه وصنعه . وهو اخبث من المكذوب ، فان الحديث المكذوب قد يصدق في بعض

---

(١) الجامع لاخلاق الراوي واداب السامع ج ٧ ص ١٢٨ .

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٥٧

(٣) انظر تدريب الراوي ص ٨١

(٤) تلخيص لما ورد من تعاريف في تدريب الراوي وقواعد في علوم الحديث .

الاحيان وتكون قرائن الضعف فيه خفيفة • والموضوع لا تحل روايته على الاطلاق ، الا مبينا لحاله من كونه موضوعا ، اما الضعيف المحتمل الصدق ، فقد جوّز بعض علماء الحديث روايته في الترغيب والترهيب كما يأتي فيما بعـد •

ويعرف الموضوع باقرار واضعه بوضعه ، وقد يعرف بركاكة الفاظه • ولاهل العلم بالحديث ملكة قوية يميزونه بها عن طريق القرائن الدالة (١) •

اما الوضع وطرائقـه ، والواضعـون واصنافهم ، ومعرفـة الاحاديث الموضوعة ، ونتائج الوضع ، واسباب الوضع ، وفي اى عصر كثر وطغـى •

كل هذه الاسئلـة وهذه المواضيع ، سوف نأتي على ذكرها مفصلا فيما بعد ان شاء اللـــــــه •

---

(١) انظر علـم الدرايـة ص ٥٥ •

الفصـــل الرابـــع

الصفات الرئيسية

- صفات المحـدث -

الصفات الثانويـة

من تقبل روايتـــه

اجمع أئمة الحديث على قبول رواية الثقة الضابط "وهو المسلم العاقل البالغ سالما من اسباب الفسق وخوارم المروءة ، وان يكون مع ذلك متيقظا غير مغفل ، حافظا ان حدث من حفظه فاهما ان حدّث على المعنى . فان اختلّ شرط مما ذكرنا ردت روايتـــه " (١)

فاساس قبول خبر الراوي ان يوثق به في روايته ، ذكرا كان ام انثى ، حرا كان ام عبدا ، فاللون الاسود للرجل لا يسوّد الحقيقة ، كما ان اللون الابيض له لا يزيدها بهـــاء والمهم في الراوي ان يكون عدلا وضابطا . (٢)

والعـــادل : هو البالغ العاقل ، الذى سلم من اسباب الفسق وخوارم المروءة (٣)

واما الضابـــط : فهو اتقان ما يرويه الراوى . بان يكون متيقظا لما يروى ، غير مغفل ، حافظا لروايته اذا روى من حفظه ، ضابطا لكتابه ان روى من كتاب ، عالما بمعنى ما يرويه ، ان روى بالمعنى . وبعد كل ما ذكرنا يمكننا الوثوق بروايته ، بعد ان ادّى الامانة كما حملها ، لم يغير منها شيئا . (٤)

ويعرف ضبط الراوى بموافقة الثقات المتقنين الضابطين ، اذا قيس حديثه بحديثهم ، ولا تضر مخالفته النادرة لهم ، اما اذا كثرت مخالفته وندرت الموافقة ، اختلّ ضبطه ولـــم يحتّج بحديثه .

واما في علم الدراية فقد ورد بعض الشروط في الراوى نذكرها على التوالـــي (٥) :

الاولـــى : (ان يكون مسلما فلا تقبل رواية الكافر) (٦) ولا اظن ان جميع المسلميـــن ثقات فهناك ذميّون قبل المسلمين ، جاؤوا برسالة حقّة ، ويتحلون بصفـــات حميدة تبعدهم عن الفسق والكذب . والاسلام يحترم الذميين ، اذ جعـــل لهم نظاما خاصا وميزهم عن بقية الناس .

---

١ ـ الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٩٢ . قارن بالكفاية ص ١٤٣

٢ ـ معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٦٢ وتوضيح الافكار ج ٢ ص ١٢١

٣ ـ توضيح الافكار ج ٢ ص ١٢١

٤ ـ التدريب ص ١٠١

٥ ـ الشهيد الثاني في علم الدرايـــة . ص ٦٤ .

٦ ـ علم الدراية للشهيد الثاني . ص ٦٤ .

والثانية : بلوغه . يختلف سن البلوغ عند المحدثين بالنسبة لنضوج المحدّث ونموّه التفكيري . فمنهم من يبلغ في سن مبكرة ، ومنهم من يتأخر بلوغه . وقد تقدم مثل هذا في باب آداب المحدّث قال : " ينبغي للشيخ ان لا يتصدى للحديث الا بعد استكمال خمسين سنة . وقال غيره اربعين سنة ، وقد انكر القاضي عياض ذلك ، بان اقواما حدثوا قبل الاربعين ، بل قبل الثلاثين ، ومنهم مالك بن انس ، ازدحم الناس على بابه وكثير من مشايخه احياء " (١)

وقال الغزالي عن شروط السن " ان الطفل اذا كان مميزا عند التحمل بالغا عند الرواية فانه يقبل لانه لا خلل في تحمله ولا في ادائه " (٢)

اما السن الاعلى فقد حدّث عنه ابن كثير قال : " فاذا بلغ الثمانين احببت له ان يمسك خشية ان يكون قد اختلط . وقد استدركوا عليه : بان جماعة من الصحابة وغيرهم حدثوا بعد هذا السن . كما ان بعضهم حدّث بعد ان بلغ المائة كالقاضي ابي الطيب الطبري . اما اذا كان الاعتماد على حفظ الشيخ الراوي فينبغي الاحتراز من اختلاطه اذا طعن في السن (٣) . اما اذا كان الاعتماد على حفظ غيره وضبطه ، فهنا كلما كان السن عاليا كان الناس ارغب في السماع عليه .

ولا اعتقد ان التدقيق في السن يؤدي الى نتيجة ايجابية بالوصول الى حديث موثوق ، والاهم من كل هذا ان يكون المحدّث بالغا جميل الاخلاق ، حسن الطريقة ، صحيح النية ، عالما ، عاقلا ، ضابطا ، عادلا .

اما مشايخ المحدثين فلهم رأيهم ايضا في اختيار وقت اسماع الشباب .
اخبرنا القاضي عياض عن محمد بن عبد الله ، قال : سمعت ابا طالب بن نصر ، يقول : سمعت " موسى بن هارون " يقول :
(اهل البصرة يكتبون لعشر سنين ، واهل الكوفة لعشرين واهل الشام لثلاثين) (٤)
من هنا نعلم ان الحد من السماع كان خاضعا لبعض الاعتبارات الاقليمية .

١- الباعث الحثيث ص ١٥١ - لابن كثير . والكفاية ص ٥٤ باب ما جاء في صحة سماع الصغير
٢- المستصفى للغزالي ج ١ ص ١٥٦ .
٣- الالماع للقاضي عياض ص ٦٧ .
٤- الالماع ص ٦٥ . والمحدث الفاضل وعنه الخطيب البغدادي في الكفاية ص ٥٥ .

كما قال ايضا عن ابن خلاد في الصفحة التي تلي : (سمعت بعض شيوخ العلم يقول : الرواية من العشرين ، والدراية من الاربعين) .

وقد نظم هذا في شعر . فاخبرنا ابوعمر الحافظ قال : انشدني احمد بن محمد ابن هشام ، قال : انشدني علي بن عمر بن موسى القاضي ، قال انشدني ابو الحسين محمد بن عبد الله المقرى ، قال انشدني ابوعبد الله : نفطويه لنفسه في ابياته . (١)

اراني انسّى ما تعلمت في الكبر	ولست بناس ما تعلمت في الصغر
ولو فلق القلب المعلّم في الصبا	لالفي فيه العلم كالنقش في الحجر

اما الحد الادنى في الصغر فقد اخبرنا عنه القاضي ابوعلي الصدفي ، عن ابي منصور المالكي عن ابي بكر الخطيب البغدادى : ان القاضي اباعمر : محمد بن يوسف الحمادى ، كان يحدّث عن جده : يعقوب بن اسماعيل بن حماد بحديث لقّنه وهو ابن اربع سنين (٢) .

وقد يزول العجب عند ما نرى القاضي عياض يستدرك فيقول : (ولعلهم انما رأوا ان هذا السن اقل ما يحصل به الضبط وعقل ما يسمع وحفظه ، والا فمرجوع ذلك للعادة ، ورب بليد الطبع غبي الفطرة لا يضبط شيئا بعد هذا السن ، ونبيل الجبلة ذكي القريحة يعقل دون هذا السن (٣) .

الثالثة : عدالة الراوى : وكما تقدم يجب التثبت من خبر الفاسق ، وعدم الفسق لا يعدّ شرطا لقبول الرواية . وقول الآية : "اذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" وهذا لا يعني ان غير الفاسق تقبل روايته ، الحجرات : الآية ٦ ـ (٤) .

(والعدالة عبارة عن استقامة السيرة والدين ويرجع حاصلها الى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعا ، حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه فلا ثقة بقول من يخالف الله تعالى خوفا وازعا عن الكذب) . ثم يخلص الى القول : (التوقي الى بعض المباحات القادحة في المروءة نحو الاكل في الطريق ، والبول في الشارع ، وصحبة الارادل وافراط المزح (٤) . وهذه صفات مكملة وليست رئيسية ، فلا تبطل عمل الراوى ولا تقدح فيه .

١ـ الالماع ص ٦٧ . وقد اوردهما ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٨٤ .

٢ـ تاريخ بغداد ٣/ ٤٠٣ وكانت وفاة القاضي ابي عمر سنة ٣٢٠ هـ .

٣ـ الالماع ص ٦٤ . ـ (٤) راجع توضيح الافكار ج ٢ ص ١١٨

٥ـ المستصفى للغزالي ج ١ ص ١٥٧ . والكفاية ص ١١١ .

ثم ليس المراد بالعدالة كونه تاركا لجميع المعاصي ، بل بمعنى قوله سالما من اسباب الفسق التي هي فعل الكبائر او الاصرار على الصغائر (١) .

والرابعة : خوارم المروءة : وهي الاتصاف بما يحسن التحلي به عادة ، بحسب زمانه ومكانه وشأنه ، فعلا وتركا ، (اى فعل الجميل وترك القبيح) ، على وجه يصير ذلك له ملكه (٢) . اما السيوطي فقد اوجزلنا عمن يجب ان نأخذ الحديث ؟ فقال : انه لا يؤخذ العلم عن اربعة ، ويؤخذ عمن سواهم : " لا يؤخذ عن مبتدع يدعو الى بدعته ، ولا عن سفيه يعلن بالسفه ، ولا عمن يكذب في احاديث الناس ، ولو صدق في احاديث النبي (وهذا من باب اولى ان لا يكذب ابدا) ولا عمن لا يعرف هذا الشأن (مراده اذا لم يكن ممن يعرف علم الرجال او علم المتن) (٣) .

وطالب علم الحديث هذا عليه ان يتخلق باخلاق خاصة وآداب هي ليست عند سواه . وهذا يدل على علو هذا العلم وعلو منزلته في نظرهم .

قال القاضي عياض في " الالماع " :

" يجب اولا على كل طالب علم ، قبل الشروع فيه : التخلق باخلاق اهله ، والتزام زيهم ، والتأدب بادب حملته ، ولزوم السكينة والوقار ، والبكور لطلبه ، والمواظبة عليه ، واخلاص النية لله فيه ، والتواضع لمن يأخذ عنه والصبر على ما يلقاه منه او من رفاقه من جفاء ، وانتقاد من يأخذ عنه والبحث عن احواله قبل الاخذ عنه ، واختيار المشاهير من اهل العلم والدين " (٤) .

وبقي علينا الاوصاف الشخصية للمحدث ، وزمان التحدث ومكانه ، وكل ما يحيط به قالوا :

(لا ينبغي عقد مجلس التحديث ، وليكن المسمع على اكمل الهيئات ، كما كان مالك اذا حضر مجلس التحديث ، توضأ ، وربما اغتسل وتطيب ، ولبس احسن ثيابه وعلاه الوقار والهيبة .

١ـ علم الدراية للشهيد الثاني ص ٦٥ .
٢ـ = = = = = =
٣ـ تدريب الراوى ج ١ ص ٤٣ . وتوضيح الافكار ج ٢ ص ١١٨
٤ـ الالماع للقاضي عياض ص ٥٩ .

وتمكن في جلوسه وزبر من يرفع صوته) (١)

وقبل التحدث ينبغي افتتاح ذلك بقراءة شيء من القرآن تبركا وتيمنا بتلاوته ثم بعده التحميد الحسن التام ، والصلاة على الرسول (ص) . (٢)

اما المحدث فليكن حسن الصوت ، جيد الاداء ، فصيح العبارة ، فاذا مر بالنبي رفع صوته بالصلاة عليه واذا مر بتابعي ترضى عنه . اما اذا ذكر اسم الشيخ الذى اخذ عنه فعليه الا يضيف اليه القابا معينة ، كقوله ابن فلان او فلانة ، او لقب يتميز به فلا بأس . (٣)

وقد كان الحفاظ من العلماء المتقدمين ، يعقدون مجالس عامة لاملاء الحديث . ومن آدابها انه يجب على الشيخ ان يختار الاحاديث المناسبة للمجالس العامة ، لانها قد تضم عناصر لا تفقه كثيرا من العلم ، فيحدثهم باحاديث قدر طاقتهم ومستواهم كالزهد ومكارم الاخلاق ، ويتجنب احاديث الصفات ، لانه لا يؤمن عليهم الخطأ والوهم ، والوقوع في التشبيه والتجسيم وما شابه كما كان يحدث الطوسي العالم الجليل في مجلسه . (٤) .

وهذا الاملاء سنّة جيدة ، افضل من حديث الرواية دون املاء ، اتبعها القدماء حتى القرن التاسع أى من عهد ابن كثير ٧٠١ . ثم ابن حجر حتى موته ٨٥٢ . وقد انقطع الاملاء بعد ذلك ، الا فيما ندر وذلك لندرة العلماء الحفاظ وندرة الطالبين الحريصين على العلم والرواية . (٥)

وللمحدثين القاب مختلفة اعلاها امير المؤمنين ثم الحافظ ثم المحدث ثم المسنِد (بكسر النون) وهو الذى يقتصر على سماع الاحاديث واسماعها . واخيرا الراوية (٦) .

وقد حمل بعض النقّاد على المحدثين ، وطعنوا عليهم كثرة اللحن والتصحيف واللغة . واني ارى ان الناس لا يتساوون جميعا في المعرفة والفضل ، وليس صنف منهم الا وله حشو زائد ، حتى ان المختص بفن من الفنون ، وعلم من العلوم ، قد لا يخلو من كبوة . فليس على المحدث عيب فاضح ان زل في الاعراب مثلا ، كما وليس على الفقيه ان زلّ في الشعر .

١ـ الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٥٣ هـ كان مالك اذا رفع احد صوته في مجلسه وهو يحدث انتهره وزجره مرددا : " يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي " (الحجرات ٢)
٢ـ المفيد في ادب المفيد والمستفيد ص ٥٤ ـ (٣) المصدر نفسه ص ٥٥ ـ (٤) المصدر نفسه .
٥ـ انظر اختصار علوم الحديث ص ١١٩
٦ـ تدريب الراوى ص ٤ ثم انظر الجامع لاخلاق الراوى ٨/ ١٥٠ ثم الباعث الحثيث ص ١١٨ـ١١٩

يلتحق بمن كذب عمدا ، والا فلا . والله اعلم (١) .

ومن هنا ينبغي التحرز من الكذب كلما امكن ، فلا يحدث الا من اصل معتمد ويتجنب الشواذ والمنكرات ، وقد قيل : " من تتبع غرائب الحديث كذب " . وقيل " كفى بالمرء اثما ان يحدّث بكل ما سمع " (٢) .

وقفة عند _ العدالة _

لما كانت العدالة شرطا اوليا من شروط الحديث الصحيح وجب ان نقف عندها ونتعرض لوجوه تفسيرها . قال الله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون " (النحل الآية ٩٠) وقد عرّف الغزالى العدالة بقوله :

" وهي عبارة عن استقامة السيرة والدين ويرجع حاصلها الى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعا حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه فلا ثقة بقول من لا يخاف الله تعالى خوفا وازعا عن الكذب " . ثم لا خلاف في انه لا يشترط العصمة من جميع المعاصي ، ولا يكفي ايضا اجتناب الكبائر بل من الصغائر ما يرد به . وبالجملة كل ما يدل على ركاكة دينه الى حد يستجرئ على الكذب بالاغراض الدنيوية ، كيف وقد شرط في العدالة التوقي عن بعض المباحات في المروءة ... " (٣)

---

١ _ الباعث الحثيث . ص ١٠٣ : قال العراقي : قيد ذلك بعض المتأخرين بان يكون الذى بين له غلطه عالما عند المبين له . اما اذا لم يكن بهذه المثابة عنده فلا حرج . وهذا القيد صحيح ، لان الراوى لا يلزم بالرجوع عن روايته ان لم يثق بان من زعم انه اخطأ فيها اعرف منه بهذه الرواية التي يخطئه فيها . ولا بد بعد ذلك من الوقوف قليلا عند ابرز ما ذكرنا من صفات الراوى وهي العدالة فما معناها ؟ وما مفهومها عند الجميع ؟

٢ _ المصدر نفسه . ص ١٠٣

٣ _ المستصفى للغزالي ج ١ ص ١٩٧ _ الكفاية للخطيب البغدادى ص ٨٤

ومما يظهر ان المراد من العدالة حسب موارد استعمالها ، هي استقامة الراوى في امور الدين ، وسلامته من الفسق ، ومنافيات المروءة في جميع الحالات كما عرّفها الخطيب البغدادى في الكفاية : "على ان العدل من عرف باداء الفرائض ولزوم ما امر به ، وتوقى ما نهى عنه ، وتجنب الفواحش المسقطة ، وتحرى الحق والواجب في افعاله ومعاملاته ، والتوقي في لفظه مما يثلم الدين المروءة . واضاف ان من كانت هذه حاله فهو الموصوف بانه عدل في دينه ، واستدّل على ذلك بقول الرسول (ص) : (من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو من كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت اخوّته وحرّمت غيبته (١) .

يبدو من هذا النص وغيره من النصوص ، ان العدالة من الصفات القائمة بالنفس التي تعرف بآثارها كأداء الفرائض ، وتجنب المحرّمات ، ومنافيات المروءة ، وغير ذلك مما يكشف غالبا عن وجود تلك القوة الدافعة في العمل بالواجبات وترك المحرّمات ، وتحرّى الحق والواجب في جميع الافعال والمعاملات فلا بد والحالة هذه ، من تتبع احوال الراوى في اكثر حالاته ، ليصح الحكم عليه بالعدالة اوعدمها .

وقال الدكتور صبحي الصالح : "ولا ريب ان العدالة شيء زائد على مجرد التظاهر بالدين والورع ، لا تعرف الا بتتبع الافعال واختبار التصرفات ، لتكون صورة صادقة عن الراوى (٢)

وان هذا الاستقصاء لا يجرح كرامة احد ، بل يزكي الخبر المروى جاء في الكفاية :

" شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشهادة ، فقال له : لست اعرفك ، ائت بمن يعرفك . فقال رجل من القوم : انا اعرفه قال : فبأى شيء تعرفه ؟ قال : بالامانة والعدل . قال : فهو جارك الادنى الذى تعرف ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : فعاملك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع ؟ قال : لا . قال فرفيقك في السفر الذى يستدل به على مكارم الاخلاق ؟ قال : لا قال : لست تعرفه . ثم قال للرجل : أئت بمن يعرفك ! " (٣)

وقد فرقوا بين تعديل الراوى وتزكية الشاهد . قالوا ان التزكية لا تقبل الا بشهادة رجلين ، والتعديل يثبت بمعرّف واحد سواء اكان ذكرا ام انثى ، حرا ام عبدا ، شريطة ان يكون في نفسه عدلا مرضيا .

وهذا هو اختيار الامام فخر الدين (٣) ، وسيف الدين الآمدى (٤) .

١ــ دراسات في الكافي والصحيح ص٥٣ .

٢ــ علوم الحديث ومصطلحه ص١٣١ .   (٣) انظر الكفاية ص ٨٤

٤ــ هو الامام فخر الدين ، محمد بن عمر بن الحسين ، ابو عبد الله ، امام كبير في المنقول والمعقول صاحب التفسير الكبير المشهور . له كتب كثيرة منها " نهاية العقول " توفي ٦٠٦ هـ

٥ــ سيف الدين الآمدى هو ابو الحسن على بن محمد بن سالم التغلبي الآمدى : من علماء الاصول : من مؤلفاته : "دقائق الحقائق " منسوب الى آمد من ديار بكر . توفي سنة ٦٣١ هـ

وبعض العلماء من يسوّى بين الشاهد والراوى . والتعديل يثبت لكليهما بتعريف شخص واحد ، وقد انتصر القاضي ابو بكر لهذا الرأى (١) .

وذكر السيد هاشم الحسني ان اكثر النصوص الشيعية تؤكد : (ان العدالة صفة قائمة في النفس، وان الطريق الى معرفتها هو فعل الواجبات وترك المحرمات مكما أضاف بعضهم الى ما ذكرنا : ترك ما يتنافى مع المروءة وان لم يكن بذاته من المحرّمات) . (٢)

ونص جماعة على انها ليست شيئا آخر وراء فعل الواجبات وترك الحرام ، فمن فعل الواجب وترك الحرام كان عادلا ، وان لم يكن ذلك ناتجا عن وجود صفة في النفس، تدفعه الى فعل الواجب وترك الحرام .

وتشدد فريق آخر في تحديدها فقالوا : بانها الاستقامة في امور الدين الناتجة عن الملكة القائمة في النفس، وفرعوا عن ذلك بان من فعل الواجبات وترك جميع الكبائر ، اذا لم يكن ذلك منه بتأثير تلك القوة الدافعة على العمل والاطاعة ، لا يكون عادلا ، واحتجوا ببعض المرويات عن الائمة نذكر بعضها باختصار منها :

- ان العادل هو المعروف بالستر والعفاف ، وكف البطن والفرج واليد واللسان . واجتناب الكبائر التي توعد الله عليها سبحانه وتعالى بالنار (٣) .

وان هذه الصفات لا تكون متأصلة في الشخص ما لم يكن الخوف من الله مسيطرا عليه ومتأصلا في نفسه ، وليست الملكة في واقعها غير الخوف ، والرجاء الدافعين على الطاعة والاستقامة في امور الدين .

بعد كل ما ورد امامنا من تعاريف وشروح ، يظهر لنا ان الجميع متفقون على ان العدالة التي هي شرط في الشاهد والراوى والمحدث ، تترتب آثارها اذا كان الانسان معروفا بالستر والعفاف وترك المعاصي ، وفعل الواجبات ، سواء كانت من الامور القائمة في النفس ام كانت العدالة الشرعية التي تشير إلى أن العدالة ، ليست شيئا آخر وراء فعل الواجبات وترك المحرمات .

١ـ هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر المشهور بالقاضي الباقلاني . احد شيوخ الدين الذين انتهت اليه زعامة المذهب الاشعرى في النصف الثاني من القرن الرابع اشهر كتبه : "اعجاز القرآن" . توفي سنة ٤٠٣ هـ .

٢ـ دراسات في الكافي والصحيح ، ص ٥٤ .

٣ـ المصدر نفسه ص ٥٥ .

وقد تعرض الفقهاء بمناسبة حديثهم عن العدالة ومنافياتها الى تصنيف المعاصي الى صغائر وكبائر ، وعددوا كل نوع منها وسموه وعرّفوه . وقالوا : ان الاصرار على الصغائر وعدم التوبة عنها يعدّ استخفافا باوامر الله ويصبح من الكبائر .

واني ارى ان كل ما يفيد الوثوق والاطمئنان بعدالته ، حتى شهادة الفرد الواحد يمكن الاخذ به . فلا فرق في طريقة الحصول على الوثوق والاطمئنان . فقد تاتي من جماعة وقد تاتي من اثنين ، وقد تاتي من شاهد عدل واحد . وربما تقتصر على بينة او قرينة تؤدى الى اختصار كثير من البحث والسؤال .

فالتعديل والتجريح الموجودان في كتب الرجال مبنيان على الحدس الذى لا يفيد الا الظن ، والاكتفاء به يرجع الى الاعتماد على الاطمئنان والارتياح النفسي من اى طريق كان . تلك هي الصفات الرئيسية التي يجب ان تتوفر لدى المحدث حتى تقبل روايته وهذه صفات اخرى ثانوية حدثنا عنها الشيخ العلموي في مبحث سماه :

— في آداب المعلم والمتعلم —

وصف لنا القاضي عياض في " باب طالب السماع وما يجب ان يتخلق به " المحدث او الراوى ، وما يجب ان يتحلى به من صفات واخلاق . والآن نحن مع الشيخ الشافعي عبد الباسط بن الشيخ شرف الدين موسى بن محمد بن اسماعيل العلموى (٩٠٧ هـ — ٩٨١ هـ) يصف لنا ايضا المعلم والمتعلم او بالاحرى المحدث وطالب علم الحديث على وجه التخصيص اذا اردنا المقارنة .

على طالب علم الحديث كما على المعلم او الشيخ :

١ — الابتعاد عن المال والسمعة : (١)

" اول ما يجب على كل منهما (المعلم والمتعلم) ان يقصد وجه الله باشغاله واشتغاله لا لمال ولاجرة ، او شهوة ، او سمعة ، او تمييز عن الاشباه او تكثر بالمشتغلين .

---

١ — المعيد للعلموى ص٢٦ .

عليه ، او المختلفين اليه ، ولا يشين علمه او تعليمه بشيء من الطمع في رفق يحصل من تلميذ او خدمة ، او مال وان قلّ ولو على صورة الهدية التي لولا اشتغاله لما اهداها اليه ، كما ان المتعلم لا يشين طلبه بطمع في شيء يعطيه له الشيخ ، او ان ينزل اسمه في طلبة العلم لينال شيئا من معلوم او غيره ، ودليل هذا كله ما مرّ في تحذير من اراد بعلمه غير الله ". وفي مثل هذا قال الشافعي :

" وددت ان الناس انتفعوا بهذا العلم ، وما نسب اليّ شيء منه " (١) .

٢- (ان يكون كل منهما قوّي اليقين ، الذى هو رأس مال الايمان كله)
وقال صلى الله عليه وسلم (اليقين الايمان كله) ، وقال (ص) : " تعلموا الايمان ".(٢)

٣- (وان يحافظ على شعائر الاسلام) (٣) وظواهر الاحكام كاقامة الصلوات في مساجد الجماعات ، وافشاء السلام للخواص والعوام ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على الاذى بسبب ذلك ، صادعا بالحق عند السلاطين باذلا نفسه لله ، لا يخاف فيه لومة لائم ذاكرا قوله تعالى : " واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) . (لقمان الاية ١٧)

٤- (العالم قدوة حسنة) العالم الديني هو من رجال المجتمع البارزين في الحقل الانساني فهو يحتل مركزا معينا في قلوب الناس بما له من اقوال صالحة واعمال خيرة .

قال عنه العلموى : (انه يقوم باظهار السنن واخماد البدع ، ويقوم لله في امور الدين وما فيه من مصالح المسلمين على الطريق المشروع ، والمسلك المطبوع ، ولا يرضى من افعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها ، بل يأخذ بالاكمل فان العلماء هم القدوة واليهم المرجع في الاحكام ، وهم حجة الله على العوام ، وقد يراقبهم للاخذ عنهم من لا ينظرونه ، ويقتدى بهديهم من لا يعلمونه ، واذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره ابعد عن الانتفاع به ، كما قال الشافعي : (ليس العلم ما حفظ العلم ما نفع) ، ولهذا عظمت زلة العالم لما يترتب عليها من المفاسد لاقتداء الناس به) .(٤)

١- المعيد للعلموى ص٢٧ .
٢- المصدر نفسه ص ٩١ .
٣- = = = = .
٤- المصدر نفسه = =

٥ـ (التحلي بالمحاسن) :

(ومنها ان يتخلق كل منهما بالمحاسن التى ورد الشرع بها من الزهد والسخاء والجود وطلاقة الوجه ، من غير خروج الى حد الخلاعة وكظم الغيظ ، وكف الاذى عن الناس، واحتماله منهم ، وان يتنزه عن دنيء الاكتساب طبعا ، ومكروهها شرعا ، كالحجامة والدباغة والصياغة وملازمة الورع والخشوع ، والسكينة والوقار ، والتواضع وافشاء السر ، واطعام الطعام ، والايثار وترك الاستئثار ، ومجانبة الاكثار من الضحك والمزاح ، فانه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة) (١)

ونحن اليوم نحذر مثل هذه الامور على اصحاب بعض الوظائف الهامة ، كالقضاة ورجال الفكر والادب والتربية ...

٦ـ " ومنها ان يلزم نفسه الخوف والحزن والانكسار والصمت ".

فعليه ان يظهر الخشية على هيئته وكسوته ، وتكون صورته دليلا على علمه . قال عمر رضي الله عنه : (تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم) (٢)

وفي الخبر : " ان من خيار امتي قوماً يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ، ويبكون سرا من خوف عذابه ، ارواحهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة ". (٣) .)

٧ـ (آداب شرعية قوليه وفعلية) :

(كتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب واللسان ، والدعوات والاذكار آناء الليل واطراف النهار . وينبغي اذا تلي القرآن ان يتفكر في معانيه واوامره ونواهيه وليحذر من نسيانه بعد حفظه ، وان يقرأ القرآن في كل سبعة ايام فهو ورد حسن ، ويقال من قرأ القرآن في كل سبعة ايام لم ينسه قط . وعليه ان يضيف شرط فهم القرآن فهو ضروري قبل حفظه .) (٤)

١ـ المعيد للعلموي ص٢٧ و٢٨.

٢ـ المصدر نفسه ص٢٨ و ٢٩ .

٣ـ الكافي ج٢ ص ١٨٨ = =

٤ـ المعيد للعلموي ص ٢٩

٨ـ المظهر الخارجـــي :

(ومن الاداب التنظيف بازالة الاوساخ ، وقص الاظفار ، وازالة الشعور المطلوب زوالها . وليلازم الافعال الحميدة الظاهرة والباطنة .) (١)

٩ـ ومنها ان يطهر نفسه من الخبائث الباطنية : من مساوئ الاخلاق كالحسد والحقد والرياء واحتقار الناس . (فكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الا بتطهير الاحداث والاخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن الا بعد طهارته من خبائث الاخلاق) (٢) .
قال النبي (ص) "بني الدين على النظافة ، والقلب منزل الملائكة ، ومهبط اثرهم".

١٠ـ تجنب مواضع التهـــم (٣)

(فانه يعرض نفسه وعرضه للوقوع في الظنون المكروهة فان اتفق له وقوع شيء من ذلك لحاجة اخبر من شاهده واصحابه لحقيقة ذلك الفعل لئلا يأثموا بظنهـــم الباطل ، ولئلا ينفروا عنه) . قال الله تعالى : "ان بعض الظن اثم". الحجرات : الاية ١٢

١١ـ زاهد في الدنيا مقتصد في حياته (٤)

ان يكون زاهدا في الدنيا غير مبال بفواتها مقتصدا في مطعمه وملبسه واثاثه ومسكنه غير مترفه ، يقلل عـلائقه من اشغال الدنيا ، فان العلائق شاغلة وصارفـــة ، قال تعالى : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) . وقال (لا تعبدوا ربين : الله والمال) .(الاحزاب الاية ٤)
(سونجيل لكريم)

١٢ـ منعزل عن الملوك وابناء الدنيا :

عليه ان يكون منقبضا عن الملوك وابناء الدنيا ، لا يدخل اليهم صيانة للعلم ، كما صانه علماء السلف . (فمن فعل ذلك فقد عرض نفسه لما لا قبل له به ولا طاقـــــة ، وخان امانته . قال صلى الله عليه وسلم "العلماء امناء الرسل على عباده ما لم يخالطوا السلطان ، فان فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم". (٥) وقال حذيفة : اياكم ومواقف الفتن : قالوا : وما هو ؟ قال : ابواب الامراء ، يدخل احدكم على الامير

١ـ المعيد ص ٢٩
٢ـ المصدر نفسه ص ٣١ـ ٣٢
٣ـ = = = = =
٤ـ = = = = =
٥ـ = = = ٣١ـ ٣٣

فيصدقه في الكذب ويقول ما ليس فيه ، فان دعت الى ذلك ضرورة او مصلحة دينيـــــة فلا بأس ٠) (انظر المعيد ص ٣٢ـ٣٣)

١٣ـ عدم الاغترار بما جرى عليه الخير والسير على منهج الصحابـــة

(ان يكون شديد التوقي من محدثات الامور ، وان اتفق عليها الجمهور فلا تغتر باطباق الخلق على ما حدث بعد الصحابة ، وكن حريصا على التفتيش عن سيـــر الصحابة واعمالهم ، اكانوا مهتمين بالتصدير والمناظرة والقضاء والولاية ، وتولي الاوقاف والوصايا ٠ ومال الايتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ؟ !) (١)

١٤ـ الاهتمام بجوهـــر الاشيـــاء

(ومنها ان يكون اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب الذى تنفجر منه منابع الحكم الخارجة عن العد والحد من طريق مفتاح الالهام ، ومنبع الكشف لا بالكتـــب المدونة ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ، وكم من مقتصـــر على المهم في التعلم فتح الله عليه من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوى الالباب ، ولذلك قال رسول الله (ص) : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ٠ (٢) ومن بعض الكتـب السالفة يا بني اسرائيـــل :

لا تقولوا : " العلم في السماء من ينزل به ، ولا في الارض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يأتي به ٠ العلم محصور في قلوبكم ، فتأدبوا بين يدى تأدب الروحانيين وتخلقوا الي تخلق الصديقين) " (٣)

١٥ـ معرفـــة الشر للتوقي منـــه

(ومنها ان يبحث عما يفسد الاعمال ، ويشوش القلب ، ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فان اصل الدين التوقي من الشر ولذلك قيل : اعرف الشر لا للشر ، ولكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيـه ٠) (٤)

١ـ المعيد للعلموى ص ٣٣ "

٢ـ المصدر نفســه ص ٣٥ـ ٣٦

٣ـ = = = = =

٤ـ = = = = =

١٦ـ الاكل الكثير يعـــوق التفكيـــــر :

ومنها اكل القدر اليسير من الحلال الذى لا شبهة فيه ، قال الشافعي : " ما شبعت منذ ست عشرة سنة ، وسبب ذلك ان كثرة الاكل جالبة لكثرة الشرب ، وهي جالبة للنوم والبلادة ، وفتور الحواس " (١)

وقد جمع بعض الحكماء في كثرة الاكل خمسين آفة ، ونظمها والد المؤلف الشيخ شرف الدين قال فيها :

في كثـرة الاكل يا ذا العقل والنظـــر	خمسون آفة كن منها على حـــذر
توليد سقم وثقل ثم طول كـــــرى	ووصمة النفس مع غم ومع بطــــــر
وقسوة وعمى قلب تؤثـــــــــره	وهزل روح ونقص الخوف والحـــذر

١٧ـ التوقيت في النـــوم :

ومنها ان يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ، ولا يزيد في نومـــه في اليوم والليلة على ثمان ساعات ، وهو ثلث الزمان . (٢)

(ولا بأس ان يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره . ويتفرج في المستنزهات بحيث يعود الى حاله . ولا بأس بمعاناة المشي ، ورياضة البدن ، فقد قيل : انه ينعش الحرارة . ولا بأس بالوطىء الحلال فانه يخفف الفضول ويصفي الذهن اذا كان عند الحاجة اليه باعتدال ويحذر كثرته كل الحذر ، فانه يضعف السمع والبصر والعصب والهضم . (٤)

ان ما لمسناه من هذه الحكم والمواعظ التي يخص بها المتعلم والعالم ، هي فعلا تصلح لجميع طلاب العلم ان علم الحديث او غيره من العلوم الاخرى ، كما هي لكل زمان ولا ضر لرواد العلم في العصر الحاضر من السير عليها والعمل بها .

اما فيما يختص بالدرس وخاصة حضور حلقات التدريس فقد اتحفنا العلموى ببعض الفوائد والنصائح تهم طالب علم الحديث ، كما تهم غيره من رواد العلم نذكر منهـــا :

١ـ المعيد للعلموى ص ٣٥ ـ ٣٦

٢ـ = = = ٣٦ ـ ٣٧

٣ـ المصدر نفسه = ٣٩ ـ ٤٠

٤ـ = = = ٤٢

١- تهذيب السؤال :

(فعلى طالب العلم ان يتأمل ويهذب ما يريد ان يسأله قبل التفوه به ، وذلك حرصا منه من وقوع هفوة او صدور زلة او وهم ، وهذا ضروري جدا اذ يحافظ على سمعة السائل بين نظرائه وجلسائه ويمنع عدر وقت المسؤول في الرد على سؤال مغلوط .) (١)

٢- الاخذ من الجميع ولو كانوا اقل منه علما وقدرا (٢)

فلا يستنكف من التعلم والاستفادة ممن هو دونه في منصب او سن او نسب او شهرة ، بل يجعل همه الفائدة اين كانت ، وقد استفاد كثير من السلف من تلاميذهم ما ليس عندهم . وعلينا نحن ان لا نستهين بقدرات الطلاب مهما كان سنهم ، فنعدهم في اكثر الاحيان ، ولا بأس ابدا ان اخذنا من بنات افكارهم وجوهر تفكيرهم في بعض الاحيان ، وفي هذا المجال قال احمد ابن حنبل : (قال لنا الشافعي : "انتم اعلم بالحديث مني ، فاذا صح عندكم الحديث فقولوا لي حتى آخذ به (٣) "كما ثبت في الصحيحين وغيرهما رواية جماعة من الصحابة عن التابعين وروى جماعات من التابعين عن تابع التابعين فقال صلى الله عليه وسلم "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها التقطها " (٤) وقال سعيد بن جبير في نفس المصدر : (لا يزال الرجل عالما ما تعلم فاذا ترك التعلم وظن انه قد استغنى واكتفى بما عنده ، فهو اجهل ما يكون .)

وانشد بعضهم :

وليس العمى طول السؤال وانما   تمام العمى طول السكوت على الجهل (٥)

٣- ان لا يستحي من السؤال عما لا يعلم :

قال : مجاهد : (لا يتعلم العلم مستح ولا مستكبر) (٦) وذلك ان الانسان خير له ان يقول لا اعلم من ان يقول ما لا يعلم ، فالذلة ليست في السؤال وانما الذلة في الجواب الخطأ .

١- المعيد ص ٤٢

٢- المصدر نفسه ص ٤٢

٣- = = = =

٤- = = = ٤٣

٥- = = = =

٦- = = = =

٤ـ الانقياد الى الحق بالرجوع عن الهفوة

(فالمتحدث الذى ينسى او يسهو لا بأس عليه ان تراجع عند الهفوة ، ذلك ان اى انسان معرض للوقوع في الخطأ ، ولكن عليه ان لا يبقى متماديا في الباطل . فالاعتراف بالخطأ فضيلة ، والرجوع عن الخطأ هو عين الحقيقة .) (صفحة ٤٣ من المعيد)

٥ـ ترك العشرة وكثرة المزاح

(ان ترك العشرة والمزاح من اهم ما ينبغي لطالب العلم ، وخصوصا لمن كثر لعبه ومزحه ، ومنها ارتي من ارادة قد لا يستطيع من الجمود وعدم الانزلاق ، لان الطبع سراق ، وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة . فعلى طالب العلم ان لا يخالط الا من يفيده او يستفيد منه ، أما إن أخطأ وعاشر من يضيع عمره معه بلا فائدة فليتلطف في قطع عشرة قبل تمكنها ، فان الامور اذا تمكنت عسرت ازالتها) . (١) ومن الجارى على السنة الفقهاء والمحدثين : "الدفع اسهل من الرفع" (٢) وان احتاج الى المصاحبة وهذا امر طبيعي لكل انسان فعليه ان يختار التقي الورع والذكي نابه الذهن ، فهو كثير الخير قليل الشر ، حسن المداراة قليل المماراة ، ان نسي ذكره ، وان ذكر اعانه ، ومما نسب الى الامام علي بن ابي طالب :

لا تصحبن اخا جهل	واياك واياه
فكم من جاهل اردى	حليما حين واخاه
يقاس المرء بالمرء	اذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء	مقاييس واشباه (٣)

٦ـ عليه ان يختص بعلم ولا يتعداه الى علم آخر حتى يتقنه

على العالم ان يتقن اولا علما واحدا ، فاذا ما استكمله وبلغ اعلى درجاته فيه انتقل الى علم آخر ، ان احتمل عقله ذلك .

كما عليه ان لا ينتقل من كتاب الى كتاب حتى يتقنه فالانتقال من غير موجب علامة الضجر وعدم الفلاح . اما من تحققت اهليته وعرفت نباهته ، فالاولى له ان لا يدع فنا من العلوم المحمودة :

١ـ المعيد ص ٦١

٢ـ المصدر نفسه ص ٦١

٣ـ العلموى في المعيد ص ٦٢

ولا نوعا من انواعها ، الا وينظر فيه ويطلع على مقاصده وغايته ، ثم ان ساعده العمر والصحة واليسر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل بالاهم فالاهم . (والاهم بنظر علماء الدين هو علم التفسير ثم علم الحديث ثم علم الفقه)(١)

والعلموى وان كان من مواليد القرن العاشر فهو معنا حين يقول :

(العلوم متقاربة وبعضها مرتبط ببعض) (٢) ولا شك ان هذه نظرة صائبة فعالم الحديث يحسن به ان يكون فقيها وهو بحاجة الى علم التفسير وبذلك يأخذ من جميع هذه العلوم التي تساند بعضها بعضا ، في سبيل الوصول الى حسن التمييز وسعة المعرفة .

والناس اعداء لما جهلوا . قال تعالى : (واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم . (الاحقاف الآية ١١) وبما ان عمر الانسان قصير ، فلا يسمح له التخصص في جميع العلوم فالافضل له ان يختار العلم النافع الذي يتناسب مع هواه . قال الغزالي : (العمر لا يتسع لجميع العلوم ، فالحزم ان يأخذ من كل علم احسنه) (٣)

ولا شك انه يقصد العلوم الدينية او ما يسميها العلوم النافعة في الاخرة (علم معرفة الله) . وهو بلا شك اساس كل علم .

---

(١) العلموى في المعيد ص ٥٥

(٢) المعيد ص ٦٢

(٣) المصدر نفسه

الفصل الخامس: كيفيات تحمل الحديث

ان حرص العلماء الابرار على صدق الحديث ، دعاهم الى الاحاطة والعناية من كل جوانبه ، فراحوا يميزون في الاسلوب الذى صيغ به السند ، وفي طرق تحمل الراوى للحديث والسن الذى يمكن المرء من السماع والنقل ... كل هذا جمعه القاضي عياض في كتاب "الالماع" وفصله تفصيلا دقيقا .

فقال القاضي عياض في (الالماع) : (اعلم ان طريق النقل ، ووجوه الاخذ ، واصول الرواية ، على انواع كثيرة ويجمعها ثمانية ضروب ، وكل ضرب منها له فروع وشعوب ومنها ما يتفق عليه في الرواية اولا والعمل ثانيا ، ومنها ما يختلف فيه فيهما جميعا اوفي احداهما (١)

اولهـا : السماع من لفظ الشيخ

وثانيهما : القراءة على الشيخ وتسمى عند اكثر القدماء المحدثين (العرض) لان القارىء يعرضه على الشيخ ، سواء كانت الرواية من حفظ الراوى او من كتاب .

وثالثهما : الاجازة

ورابعهما : المناولة

وخامسها : الكتابة

وسادسها : الاعلام وهو ان يعلم الشيخ الطالب ان هذا الكتاب او الحديث روايته او سماعه .

وسابعها : الوصية

وثامنها : الوقوف على خط الراوى فقط او الوجادة .

وسوف نتكلم عن كل ضرب من هذه الضروب على حدة ، ونقسمها حتى نبين صحيحها من سقيمها .

١ـ الضرب الاول : السماع من لفظ الشيخ

يمكن للسامع ان يقول في هذا النوع: (حدثنا ، واخبرنا ، وانبأنا ، وسمعت فلانا ، يقول ، وقال لنا فلان ، وذكر لنا فلان ..) وهو منقسم الى املاء او تحديث سواء كان من حفظه او القراءة من كتابه ، وهو ارفع درجات انواع الرواية عند اكثر علماء الحديث. (١) وقال البعض

---

(١) الالماع للقاضي عياض، ص ٦٨ وانظر تدريب الراوى ص ١٢٩

الاخران القراءة على الشيخ اعلى مراتب الحديث • وان عبارة حدثنا واخبرنا دلالة على انه خاطبه به ورواه له • ثم عبارة انبأنا ونبأنا وهو قليل الاستعمال في هذا الضرب ويكثر استعماله في الاجازة •

واما قوله : قال لنا وذكر لنا ، فهو من قبيل حدثنا وهو اولى من انبأنا لدلالته على القول الصريح وينقص عن حدثنا بانه يستعمل في المجالس والمناظرة بين الخصمين • فالمجلس آنذاك لم يكن مقام التحديث •

واعلى عبارات السماع هي اخبرنا وحدثنا وهما واحد في نظر احمد بن حنبل (١) الكفاية (٢٨٦)

وادنى هذه العبارات ، قول الراوي بالسماع: (قال فلان ، ولم يقل لي او لنا ، لانه بحسب مفهوم اللفظ اعم من كونه سمعه منه ، او بواسطة) (٢) •

وقد جاء في الباعث الحثيث : (اذا قرأ على الشيخ من نسخة وهو يحفظ ذلك فيجيد قوي ، وان لم يحفظ والنسخة بيد موثوق به ، فكذلك ، على الصحيح الراجح ومنع من ذلك مانعون • وان لم تكن نسخته الا التي بيد القارىء وهو موثوق به فصحيح ايضا) (٢)

ولا يشترط ان يقر الشيخ بما قرئ عليه نطقا ، بل يكفي سكوته واقراره عليه ، عند الجمهور

اما اذا قرئ على الشيخ وهو وحده ، "حدثني " فان كان معه غيره "حدثنا " وفيما قرأه على الشيخ وحده : "اخبرني " فان قرأه غيره : "اخبرنا " (٣)

وقد اختلفوا في صحة سماع من ينسخ وهذا امر طبيعي ، فمن كان ضعيف السمع يختلط عليه الامر ، وعليه ان يقول : "حضرت " ولا يقول حدثنا أو أخبرنا •

قال الحافظ : (وكان شيخنا ابو الحجاج المزي (٤) يكتب في مجلس السماع وهو ينعس في بعض الاحيان ويرد على القارىء ردا بينا ، بحيث يتعجب القارئ نفسه : انه يغلط فيما في يده وهو مستيقظ ، والشيخ ناعس وهو انبه منه) (٥) والله يعطي من يشاء بغير حساب •

ومن جهة اخرى علينا ان نحاسب القارىء • فاذا كان سريع القراءة او كان السامع بعيدا من القارىء ، فاذا كان الكاتب يفهم ما يقرأ عليه مع النسخ فالسماع صحيح • وكذلك الواقع في عصرنا •

١ـ الشهيد الثاني في علم الدراية ، ص ٨٦ الكفاية ص ٢٨٦

٢ـ الباعث الحثيث لابن كثير ص ١١٣

٣ـ المصدر نفسه وانظر الجامع لاخلاق الراوي ج ٦ ص ١١٢

٤ـ المصدر نفسه ص ١١٥ وابو الحجاج المزي نسبة الى "المزة" وهي قرية كبيرة من ضواحي دمشق ، صاحب كتاب تهذيب الكمال في اسماء الرجال الذي اختصره الحافظ في كتابه تهذيب التهذيب •

٥ـ المصدر نفسه ، ص ١١٦

اليوم ، فقد يحضر مجلس السماع من يفهم ومن لا يفهم ، والبعيد من القارئ ، والناعس والمتحدث والشباب الذين لا ينضبط امرهم ، وقد يزجرهم القاضي اذا زادوا في التشويش وقد يكون السبب ان بعضهم لم يسمع جيدا من الشيخ فيسأل جاره :

اما وان كان المحدث امرأة ، فقد تحدث السامعين من وراء الحجاب ، كما كان السلف يروون عن امهات المؤمنين . واحتج بعضهم عن شعبة . (اذا حدثك من لا ترى شخصه فلا تروعنه ، فلعله شيطان قد تصور في صورته ، يقول حدثنا واخبرنا ، وهذا امر عجيب) (١)

هذا ولم يكن لديهم بالطبع ما لدينا نحن اليوم من آلات تسجيل وراديو وغير ذلك من وسائل نقل الكلام والاذاعة ، فقد يختلف الزمن وتتبدل الحياة ويعبر الانسان عن رأيه بطرائق مختلفة ، ولكن الحقيقة لا تخفى على احد وخاصة على العلماء المختصين ، ذوى النظر الثاقب والعقل المستنير بضوء الحكمة . ونقطة اخرى امة في القراءة يجدر بذكرها الا وهي القراءة اثبت من الحديث . وذلك انك اذا قرأت على شغلت نفسي بالانصات لك ، واذا حدثتك غفلت عنك .

٢ — الضرب الثاني : القراءة على الشيخ

لا فرق ان كنت انت القارئ ، اوغيرك وانت تسمع ، او قرأت في كتاب او من حفظ اوكان الشيخ يحفظ ما تقرأ عليه ، او يمسك اصله ، ولا خلاف انها رواية صحيحة . (٢)

وقد اختلف علماء الحديث في هذا النوع من الحديث (القراءة على الشيخ) هل هو سماع يجوز فيه من النقل ؟ بحدثنا واخبرنا وانبأنا نفس الالفاظ والكلمات التي تستعمل في السماع من لفظ الشيخ ام لا ؟ وهل هي مثل السماع ودونه او فوقه في الرتبة ؟

فمذهب مالك واصحابه ومعظم علماء اهل المدينة والحجاز والكوفة التسوية بينهما . وقد روى عن علي بن ابي طالب وابن عباس عليهما السلام قالا : (قراءتك على العالم كقراءته عليك) . وهو مذهب البخارى (٣) واكثر المحدثين يسمونه "عرضا " لان القارئ يعرض ما يقرأه على الشيخ كما يعرض القرآن على امامه .

---

١ — الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ١١٨ وشعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الازدى الواسطي ويكنى ابا بسطام ، محدث البصرة وامير المؤمنين في الحديث ، رأى انس بن مالك وسمع اربع مئة من التابعين . توفي سنة ١٦٠ هـ

٢ — القاضي عياض في الالماع ، ص ٧٠ تدريب الراوى ص ١٣٠

٣ — راجع صحيح البخارى كتاب العلم : باب القراءة والعرض على المحدث ١/ ١٢٧

وذكر قول ضمام بن ثعلبة (١) وقوله للنبي (ص) : الله امرك بكذا وكذا ...! فيقول نعم . قال البخاري : فهذه قراءة على النبي (ص) اخبر بها ضمام قومه فاجازوه (٢) .

وروى عن مالك قوله : "السماع" عندنا على ثلاثة اضرب :

الاول ـ قراءتك على الشيخ ، والثاني : قراءته عليك ، والثالث : ان يدفع اليك كتابا قد عرفه فيقول : اروه عني (٣)

والرأى المختار ان القراءة هي دون السماع ، فهي تليها في الدرجة الثانية ، لكن بعضهم يذهب الى مساواتها للسماع (٤) .

وهو رأى الامام مالك واصحابه واشياخه من علماء المدينة ومعظم علماء الحجاز والكوفة وهو كذلك رأى الامام البخاري (٥) .

والحقيقة في هذا ان الراوى ربما سها اوغلط فيما يقرأه بنفسه فلا يرده عليه الطالب السامع ذلك الغلط وذلك لاسباب : ١ـ اما لان الطالب جاهل فلا يهتدى للرد عليه . ٢ـ واما لهيبة الراوى وجلالته ، ٣ـ واما ان يكون غلطه في موضع صادف اختلافا فيجعل خلافا توهما انه مذهبه فيحمل الخطأ صوابا . (٦)

٣ـ الضرب الثالث : الاجـــازة

وهي في الاصل مصدر اجاز وهي مأخوذة من جواز الماء ، الذى يسقاه المال من الماشية والحرث ، ومنه قولهم اجزته فاجازني "اذا سقاك الماء لماشيتك او ارضك وكذلك الطالب الحديث يستجيز العالم علمه ، اى يطلب اعطاءه له على وجه يحصل به الاصطلاح لنفسه وبعد هذا يمكننا القول : اجزته مسموعاتي كما تقول : اجزته مائي " (٧)

وتكون الاجازة اما مشافهة او اذنا باللفظ مع المغيب او يكتب ذلك بخطه بحضرته او مغيبته والحكم في جميعها واحد . الا انه يحتاج مع المغيب لاثبات النقل والخط .

١ـ هو ضمام بن ثعلبة احد بني سعد بن بكر السعدى اوفده قومه سنة ٩ الى النبي (ص) وسأله عن الاسلام واسلم وعاد الى قومه فاخبرهم بذلك وحده فصدقوه وآمنوا .
٢ـ القاضي عياض في الالماع ص ٧٢
٣ـ ترجمة مالك : هو امام اهل المدينة ، امير المؤمنين في الحديث . مالك بن انس بن ابي عامر الاصبحي ، ويكنى ابا عبد الله . "استغرق تأليفه (الموطأ) اربعين سنة عرضه خلالها على سبعين من فقهاء المدينة . توفي سنة ١٧٩ هـ .
٤ـ راجع المحدث الفاضل ص ٩٩
٥ـ علم الدراية للشهيد الثاني ص ٧٢
٦ـ التدريب ص ١٣٨
٧ـ علم الدراية للشهيد الثاني ص ٩٤

ثم مع ذلك على عدة وجوه اما الرواية بها فجائزة عند البعض من الجمهور اما البعض الآخر فقد نقضها ومنهم ابن حزم فيراها (بدعة غير جائزة) وقال : "ومن قال لغيره اجزت لك ان تروى عني ما لم تسمعه مني كانه قال: اجزت لك ان تكذب علي"، لان الشرع لا يبيح رواية مالم يسمع" (١) (التدريب ص ١٣١) وقال (لو جازت الرواية بالاجازة لبطلت الرحلة) ثم هي عدة اقسام :

١ـ اعلى هذه الاقسام : هو اجازة معين لمعين (٢) . ويعني هذا الاجازة لكتب معينة او احاديث مخصصة ومفسرة اما في اللفظ او الكتب وبهذا تقترب من معنى المناولة التي سوف نأتي على شرحها .

٢ـ اجازة لمعين في غير معين ، وهو ان يجيز لمعين على العموم والابهام ، دون تخصيص ولا تعيين لكتب واحاديث كقوله :اجزت لك ان تروى عني جميع رواياتي او ما صح عندك من مسموعاتي . وقد جوزه بعضهم رواية وعملا .

هذا وجه لابد فيه من الخلاف ولا ارى انه يعمل به الا بعد التثبت من امرين هامين اولهما : تعيين روايات الشيخ ومسموعاته . وثانيهما : تحقيق وصحة مطابقة كتب الراوى لها .

قال القاضي عياض في الالماع: (سمعت ابا محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن الفقيه يقول : سمعت ابي يقول :

لا غنى في السماع من الاجازة ، لانه قد يغلط القارئ ويغفل الشيخ ، او يغلط الشيخ ان كان هو القارئ ويغفل السامع فينجبر له ما فاته بالاجازة .) (٣)

وقال : (والاجازة على الوجه الصحيح خير واقوى بكثير من السماع الردئ .) (٤)

اما بعض اهل الظاهر فلم يجيزوا العمل بها فقالوا : "يريدون ان يأخذوا الشيء الكثير في المقام القليل" . ولا ارى مانعا من ذلك لان المهم ليس كمية الاخذ وانما الاهم هو طريقة الاخذ . وان من لا يحسن سبل الاخذ لا يحسن سبل العطاء .

اما مالك فله ايضا شروط في الاجازة : ان يكون الفرع معارضا بالاصل حتى كانه هو ، وان يكون المجيز ثقة في دينه وروايته ،عالما معروفا ، كما ان يكون المجاز من اهل العلم متسما به ، حتى لا يضع العلم الا عند اهله . (٥) وقال : "يحب ان يدعى قسا ولم يخدم الكنيسة .

واني ارى ان الاجازة لا يعمل بها الا بشروط تبين العلة من تجويز الاجازة فعلى الشيء الذى اجيز ان يكون معلوما ومعينا او معلوما ومضبوطا ، ومن جهة اخرى على المتناول ان يكون عالما بطرق هذا الشأن والا لم يؤمن ان يحدث الذى اجيز له عن الشيخ بما ليس من حديثه ،

١ـ التدريب ص ١٣١.
٢ـ المصدر نفسه ، ص ٩٥ ـ الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ١١٩ والتدريب ١٢٧
٣ـ الالماع للقاضي عياض ، ص ٩٢
٤ـ المصدر نفسه ، ص ٩٢
٥ـ المصدر نفسه ، ص ٩٥

او ينقص من اسناده الرجل والرجلين . وهذا ما يضعف الاجازة ويبعدنا عن الاخذ بها .

وقد جاء قوم يسألون احمد بن المقدام العجلى (١) اجازة كتاب قد حدث به فاملى عليهم :

كتابي اليكم فافهموه فانه — رسول اليكم والكتاب رسول
وهذا سماعي من رجال لقيتهم — لهم ورع في فهمهم وعقول
فان شئتم فارووه عني فانما — تقولون ما قد قلته واقول
الا فاحذروا التصحيف فيه فانما — يحوّل من تصحيفه المعقول (٢)

٣ـ الاجازة لغير المعين :

وهي الاجازة للعموم من غير تعيين له ، (وهي اما معلقة بوصف ، او مخصوصة بوقت او مطلقة) (٣) بالمخصوصة والمعلقة بقولك : اجزت لمن لقيني ، او لكل من قرأ علي العلم او لاهل بلد كذا ، او لبني هاشم مثلا . وكل هذه الوجوه تفترق وفيها اختلاف .

٤ـ الاجازة للمجهول بالمجهول (٤) وهذا الوجه من افسد وجوه الاجازة ، فالقارئ او المسمع لا يستحضر جميع من يحضر مجلسه ، ولا يعلم ما هم عليه من صفات واخلاق وعلم وامانة ، كان تقول : اجزت هذا الكتاب لمن احب روايته عني (٥) او تقول : اجزتك ولولدك وعقبك رواية هذا الكتاب . ومن يدرى من سيخلفه من عقب صالح او فاسد كاذب او مجنون اما لو قلت ان تروى عني ما صح عندك مما سمعته ، او وكلتك في بيع ما املكه فهذا معقول وقد نوافق عليه ، اما ان تقول ان تروى عني كل ما سامسعه ، او وكلتك في بيع ما سامل‍كه فهذا رأى فاسد مرفوض .

والاجازة حتى في صورها المقبولة ليست في قوة القراءة فضلا على السماع فهي تاتي بعدهما (٦) .

ومختصر القول : ان الاجازة هي لمن كان اهلا للرواية وعالما من علماء الحديث عادلا ، ثقة ، معروفا باخلاصه وامانته ، وليست الاجازة للجهال ونحوهم .

هذه الطرق التي ذكرتها نستطيع ان نعتبرها من طرق النقل الشفهي أما الطرق الباقية يصح اعتبارها من طرق النقل الكتابي وهي :

الضرب الرابع : المناولة

وهي نوعان : احدهما : المناولة المقرونة بالاجازة وهي اعلى انواعها . وتفترق عن الاجازة في ان المناولة تفتقر الى مشافهة المجيز للمجاز ، وحضوره .

١ـ هو ابو الاشعث البصرى ، روى عنه البخارى والترمذى والنسائي وابن ماجة ولد سنة ١٥٦ هـ وتوفي ٢٥٣ هـ .
٢ـ الالماع للقاضي عياض ، ص ٩٧ ، وقد اورد هذه الابيات ابن عبد البر في جامع بيان العلم ٢/ ١٨٠ .
٣ـ المصدر نفسه ص ٩٨
٤ـ الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ١٢٠
٥ـ الالماع للقاضي عياض ص ١٠٣
٦ـ التدريب ص ١٣٨ وقارن باختصار علوم الحديث ص ١٣٢

وتوضيحا لذلك يمكن القول : ان يناول الشيخ الطالب كتابا من سماعه ، ويقول له : "ارو هذا عني " او يملكه واياه او يعيره لينسخه ثم يعيده اليه . او يأتيه الطالب بكتاب من سماعه فيتأمله ، ثم يقول : "اروعني هذا " ويسمى هذا عرض المناولة . (١)

اما اذا لم يناوله الشيخ الكتاب (لم يملكه) ولم يعره اياه ، فانه منحطعما قبله واذا كان الكتاب مشهورا ومعروفا بين الناس كالبخاري ومسلم وغيرهما ، فهو كما لو ملكه اياه ، ثم يضيف ابن كثير والله اعلم (٢) .

ولو تجردت المناولة عن الاذن في الرواية ، فالمشهور انه لا تجوز الرواية بها ، وهناك من عرض المناولة المقرونة بالاجازة بمنزلة السماع ، ويقولون في عبارة النقل انبأنا وحدثنا .

والذي عليه جمهور المحدثين : انه لا يجوز اطلاق "حدثنا " "واخبرنا " بل مقيدا اما الاوزاعي فقد خصصها بقوله : "خبرنا " بالتشديد . (٣)

ومما ورد في الالماع عن مالك ابن انس قال : كلمني "يحى بن سعيد الانصارى " فكتب له من احاديث " ابن شهاب " فقال له : قائل فسمعها منك ؟ قال : هو كان افقه من ذلك ومن غير هذا الطريق بل اخذها عني وحدث بها . (٤)

وهذا بين واضح ، لان الثقة بكتابه مع اذنه اكثر من الثقة بالسماع واثبت لما يدخل من الوهم على السامع والمسمع . والاصل عندهم في ذلك من الاثر في اعتماد عمال النبي (ص) في البلاد على كتبه . ومما يروى عنه (ص) انه بعث بكتابه الى كسرى مع "عبد الله بن حذافة " (٥) وامره ان يدفعه الى عظيم البحرين ويدفعه هذا بدوره الى كسرى .

اما ابن الاثير فقد قال في جامع الاصول (ان المناولة ارفع من السماع ، لان الثقة بكتاب الشيخ فوق الثقة بالسماع منه واثبت ، لما يدخل من الوهم على السامع والمستمع) ، والحقيقة انها منحطة عن السماع والقراءة ، هذا ما اراه من وجهة نظرى . (٦)

---

(١) انظر اختصار علوم الحديث ص ١٣٧

(٢) ابن كثير ، الباعث الحثيث ، ص ١٢٤ والقاضي عياض عرف المناولة بما يشبه ذلك ، ص ٧٦

(٣) انظر علم الدراية للشهيد الثاني ص ١٠٤

(٤) راجع الالماع ص ٨٠ ـ ٨١

(٥) الالماع للقاضي عياض ، ص ٨١

(٦) قارن بالباعث الحثيث ص ١٣٨ .

في المناولـــة : وقد احتاط العلموى في المناولة فوضع لها شروطا قال :

" لا يجوز ان يصلح كتاب غيره بغير اذن صاحبه قلت : وهذا محله في غير القرآن ، فان كان مغلوطا او ملحونا فليصلحه ، غاية ما في الباب ان لم يكن خطه مناسبا . فليأمر من يكتب ذلك بخط حسن . ولا يمشيه ولا يكتب شيئا في بياض فواتحه او خواتمه الا اذا علم رضى صاحبه ، ولا يعيره غيره ، ولا يودعه لغير ضرورة حيث يجوز شرعا ، ولا ينسخ منه بغير اذن صاحبه ، فان كان الكتاب وقفا على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنســـخ منه مع الاحتياط وانشد بعضهم :

" ايها المستفيـد مني كتابـــا ارض لي فيه ما لنفسك ترضى " (١)

وثانيهما : ونوع آخر من المناولة وهو ان يعرض الشيخ كتابه ، ويناوله الطالب ويأذن له في الحديث به عنه ، ثم يمسكه الشيخ عنده ولا يمكنه منه . (انظر الالماع ص ٨٢) . وهذه ايضا مناولة صحيحة ، يمكن الاخذ بها والرواية لها على ما تقدم ، ولكن لا يتم ذلك الا بشروط وهي : بعد وقوع كتاب الشيخ ذلك للطالب بعينه ، او انتساخه نسخة منه او تصحيح كتابه متى امكنه بكتابه هو ، او بنسخة وثق بمقابلتها منه . وبعد هذا فانني لا ارى من فرق بين هذا الوجه من المناولة وبين الاجازة للشيء المعين من التصانيـف المشهورة والاحاديث المعروفة المعينـــة .

٥ـ الضـــرب الخامس: المكاتبـــة

وهي بان يكتب الشيخ بعض حديثه لمن حضر عنده ، او لمن غاب عنه ، ويرسله اليـــه ، وسواء كتبه بنفسه ام امر غيره ان يكتبه . ويكفي ان يعرف الرجل المكتوب له خط الشيخ أو خط الكاتب عن الشيخ ، ولا بد من شرط في هذا ان يعلم بثقة الكاتب وامانته . وليس في المكاتبة ولا في المشافهة والسؤال اذن ولا طلب للحديث بها عنه . لان في نفس كتابه اليه بخط يده ، او اجابته الى ما طلبه عنده من ذلك ، اقوى اذن . (وقال البخاري وذكر المناولة وكتاب اهـل العلم بالعلم الى البلدان . (٢)

---

(١) المعيد في ادب المفيد والمستفيد للعلموى ، ص ١٣١

(٢) الالماع للقاضي عياض ، ص ٨٥ والبخاري في صحيحه . كتاب العلم : باب ما يذكر في المناولة وكتاب اهل العلم بالعلم الى البلدان ١/ ١٤٢ وقارن بتوضيح الافكار ج ٢ ص ٣٣٨ والتدريب ص ١٤٦

(ان عبد الله بن عمر ويحي بن سعيد ومالك بن انس رأوا ذلك جائزا) .

قال القاضي : (اذا تيقن انه بخطه فهو وسماعه والاقرار منه سواء ، لان الغرض من الخط كما باللسان التعبير عن الضمير ، فاذا وقعت العبارة عن الضمير باى سبب كان من اسباب العبارة : اما بكتاب واما باشارة واما بغير ذلك مما يقوم مقامه كان ذلك كله سواء) (١)

ومما لا شك فيه ان الكتابة او الخط اثبت من السماع الذى له محاذير كثيرة .

قال القاضي : (اخبرنا جماعة من اصحابنا ان "الشافعي" ناظر اسحق بن راهويه وابن حنبل حاضر ـ في جلود الميته اذا دبغت ، فقال الشافعي دباغها طهورها . واستدل بحديث ميمونه "هلا انتفعتم باهابها" فقال اسحق حديث ابن عكيم كتب الينا النبي (ص) "لا تنتفعوا من الميته باهاب ولا عصب" اشبه ان يكون ناسخا لحديث ميمونه ، لانه قبل موته بشهر .

فقال الشافعي : "هذا كتاب وذاك سماع" فقال : اسحق : (كتب النبي (ص) الى كسرى وقيصر ، وكان حجة عليهم "فسكت الشافعي) . (٢)

فذكر المكاتبة اثبت ولا بد منه لئلا يوهم الاطلاق السماع فيكون غير صادق بروايته (٣)

وحيث يروى المكتوب اليه ما رواه بكتابه ، يقول فيها : كتب الى فلان حدثنا فلان او اخبرنا مكاتبة لاحدثنا ولا اخبرنا مجردا ، ليتميز عن السماع وما في معناه . وقيل بل يجوز اطلاق لفظها ما حيث انهما اخبار في المعنى . وقد اطلق الاخبار لغة على ما هو اعم من اللفظ كما قيل .

وتخبرني العينان ما القلب كاتم (٤)

والخلاصة ان المكاتبة مع الاجازة ارجح من المناولة مع الاجازة بل ارى انها ارجح من السماع واوثق . وان المكاتبة بدون اجازة ارجح من المناولة بالاجازة .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ٨٦
(٢) المصدر نفسه
(٣) انظر الباعث الحثيث ص ١٤٥ ومقدمة ابن الصلاح ص ١٦٦
(٤) علم الدراية للشهيد الثاني ، ص ١٠٦

٦ ـ الضرب السادس: الاعلام للشيــــخ

(وهو أن يعلم الشيخ الطالب ان هذا الكتاب او الحديث (روايته او سماعه) من فلان مقتصرا عليه من غير ان يقول "اروه عني" او اذنت لك في روايتـــه ٠ (١)

وهذا ايضا وجه آخر صحيح للنقل والعمل ، عند الكثير (٢) لان اعترافه به وتصحيحه له انه سماعه ، كتحديثه له بلفظه وقراءته عليه الكتاب ٠

قال : (انما طالب مني كتبي ينتسخها فلا ادرى ما صنع)(الالماع ص ١٠٩)

ولم يجز النقل والرواية بهذا الوجه طائفة من المحدثين وائمة الاصوليين وجعلـــوه كالشاهد اذا لم يشهد على شهادته وسمع بذكرها ، فلا يشهد عليها ، وذلك لتشكـــك او ارتياب يداخله عند التحقيق او النقل عنه ، واختلف علماء الحديث بصحة هذا الوجـــه من الرواية فقالوا : حتى لو قالوا له هذه روايتي لكن لا تروها عني ، لم يلتفت الى نهيـــه وكان له ان يرويها عنه ، كما لو سمع منه حديثا ٠ (انظر الباعث الحثيث ص ١٤٠)

قال القاضي عيـــاض:

(وما اعلم مقتدى به في تأثير منع الشيخ ورجوعه عما حدث به من حدثه وان ذلك يقطع سنده عنـــه) (الالماع ص ١١١)

(وكذلك فعل مثل هذا بعض من لقيته من مشايخ الاندلس المعروفين ، قال بعضهـــم فانه اشهد بالرجوع عما حدث به بعض اصحابه لهوى ظاهر منه وامور انكرها عليـــه٠٠ وفـــي الاعلام مالو اوصي له عند موته او سفره بكتاب يرويـــه) (٣)

وقد اجازوه لان في دفع الكتابة اليه نوعا من الاذن ، وشبهها بالعرض والمناولـــة على عكس الشهادة التي لا تصح الا باذن الشاهد الاول للثاني بان يشهد على شهادته ٠ (٤)

---

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ١٢٦ وتدريب الراوى ص ١٤٨

(٢) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٠٨

(٣) الدراية للشهيد الثاني ، ص ١٠٧

(٤) انظر الباعث الحثيث ص ١٤٠

٧ـ الضرب السابع : الوصيــة

(وهو ان يوصي الشيخ بدفعه كتبه عند موته او سفره لرجل آخــر) (١)

وهذا الباب ايضا فيه رواية عن السلف المتقدم ، عمل به علماء الحديث لان في دفعه الكتب نوعا من الاذن وشبها من العرض والرواية ، وهو قريب جدا من الضرب الــذى سبق قبلــه .

وهذا النوع من الرواية نادر الوقوع ، لكن نرى ان وقع صحت الرواية به ، لانــه نوع من الاجازة ، ان لم يكن اقوى من الاجازة المجــردة .

والاعلام كما الاجازة من الموصي الى الموصى له برواية شيء معين مع اعطائه ايــاه ، ولا ارى فرقا واضحا بين الاعلام والاجازة فهو داخل تحت تعريفهـــا .

وقد اختلف العلماء في الانواع الاخيرة من الرواية وهي الاعلام والوصيــة ، وهل يجب العمل بها صح اسناده من الحديث المروى بها ؟ وعلى ما مر معنا وما وصلنا اليه ان الاعلام والوصية لا يقلان في القوة والثبوت عن الاجازة . (٢)

٨ـ الضرب الثامن ـ الوجادة او هي الوقوف على خط الراوى

قبل ان نبدأ بشرح الوجادة ينبغي ان نذكر ان الوجادة ليست نوعا من انــواع الرواية، وانما ذكرها العلماء الحاقا بهذا البــاب .

(والوجادة هي ان يجد حديثا او كتابا بخط شخص باسناده (٣)

والوجادة بكسر الواو ـ مصدره " وجد يجد " وهو مصدر مولّد غير مسمــوع مــن العرب (٤) . فالمولدون فرعوا قولهم (وجادة) فيما اخذ من العلم من صحيفــة من غيــر سماع ولا اجازة ولا مناولة (وقال العرب : وجد ضالتــه

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١١٥ ، وعلوم الحديث لابن الصلاح ، ص ١٥٧
(٢) انظار توضيح الافكار ٢ ص ٣٤٤
(٣) الباعث الحثيث ، ص ١٢٧ وعلوم الحديث لبن الصلاح ص ١٦٧
(٤) الدراية للشهيد الثاني ، ص ١٠٧ وعلوم الحديث لابن الصلاح ص ١٦٧

وله ان يقول فيما وجد من تصنيفه بغير خطه : " ذكر فلان " وقال فلان " ويقول بلغني عن فلان فيما لم يتحقق من تصنيفه او مقابلة كتابه (١) .

والوجادة ليست من باب الرواية ، وانما هي حكاية عما وجده في الكتاب .

واما العمل بها : فقد قطع بعض المحققين في الاصول بوجوب العمل بها عند حصول الثقة ، ومنعت طائفة كثيرة من الفقهاء والمحدثين العمل بها .

اما من قطع بوجوب العمل بها فقد استند الى حديث اسند الى الرسول (ص) ، " اى الخلق اعجب اليكم ايمانا ؟ قالوا : الملائكة ، قال : وكيف لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ وذكروا الانبياء ، فقال : وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ، قال : وكيف لا تؤمنون وانا بين اظهركم ؟ قالوا : فمن يا رسول الله ؟ قال : قوم يأتون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون فيها " . (٢)

والحديث مذكور بشرحه وتفصيله عند البخاري . فيؤخذ منه مدح من عمل بالكتب المتقدمة بمجرد الوجادة لها .

وقد اجترأ كثير من الكتاب في عصرنا ، ان في الصحف او المجلات او في جميع مؤلفاتهم ان ينقلوا من كتب السابقين من المؤرخين وغيرهم بلفظ التحديث ، فيقول احدهم : " حدثنا ابن اخلدون وحدثنا ابن قتيبة ... " وهذا خطأ لا محال ، لان التحديث والاخبار ونحوهما من اصطلاحات المحدثين والرواة بالسماع ، وليس النقل من الكتب . (٣)

وقال السيوطي في التدريب (ص ١٤٩ـ ١٥٠) الحديث الذى ذكرناه في ص (٤٥) (واني ارى ان وجوب العمل بالوجادة لا يتوقف عند هذا الحديث) .

والوجادة الجيدة التي يطمئن اليها قلب الناظر ، لا تقل في الثقة عن الاجازة بانواعها ذلك ان الوجادة على حقيقتها انما هي وجادة معها اذن من الشيخ بالرواية .

---

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ١٢٧

(٢) = = = = = ١٢٩ وفي مسند احمد احاديث كثيرة نقلها عن ابنه عبد الله يقول فيها : " وجدت بخط ابي في كتابه " ثم يسوق الحديث ولم يستجز ان يرويها عن ابيه .

(٣) راجع الباعث الحثيث ص ١٤٤

وان مختلف الاصول الخطية العتيقة الموثوق بها تواترت رواياتها الى مؤلفيها بالوجادة

وقد جزم ابن الصلاح بمذهب وجوب العمل بالوجادة . فقال : " هو الذى لا يتجه غيره في الاعصار المتأخرة ، فانه لو توقف العمل فيها على الرواية لا نسد باب العمل بالمنقول ، لتعذر شرط الرواية فيها " (١)

وهذه هي الطرق التي جمعها علماء الحديث في كيفية سماع الحديث ، وتحمله وحفظه وهي : من السماع الى القراءة على الشيخ ، الى الاجازة الى المناولة ، الى المكاتبة الى اعلام الشيخ ، ان هذا الكتاب سماعه من فلان ، الى الوصية ، واخيرا الى الوجادة ، نلاحظ انه لا بد لنا من نقاط هامة يجدر بنا ان نركز عليها الا وهي : العلم والمعرفة فيما نريد ان نقول والثقة والامانة والضمير الحي عند النقل او القول .

---

(١) انظر علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٦٩

الفصـــــل الســـــادس

طرق روايـــــة الحديـــــث وما يتصـــل به من مسائـــل

اختلف العلماء في رواية الحديث بالمعنى ، فذهب قوم الى عدم جواز ذلك مطلقـــا ، وذهب الاكثرون الى جوازها ، اذا كان الراوي عارفا بدقائق الالفاظ ، بصيرا بمقدار التفاوت بينها ، خبيرا بما يحيل معانيها . فاذا ابدل لفظا بلغه بلفظ آخر مقامه بحيث يكون معنـــاه مطابقا لمعنى اللفظ الذي بلغه ، جاز له ذلك . اما حديث النبي (ص) ، خاصة فلم يجوزوا به الا بلفظه . ومن لنا بذاكرة تتابع جميع الالفاظ دون زيادة او نقصان ؟

قال القاضي عياض : (لا خلاف ان على الجاهل والمبتدئ ومن لم يمهر في العلم ولا تقدم في معرفة تقديم الالفاظ ، وترتيب الجمل ، وفهم المعاني — ان لا يكتب ولا يروى ولا يحكي حديثا الا على اللفظ الذي سمعه ، ويقول : اذ جميع ما يفعله في ذلك تحكم بالجهالة ، وتصرف على غير حقيقة في اصول الشريعة ، وتقول على الله ورسوله ما لم يحط به علما) (١) والشهيد الثاني ايضا يوافق القاضي عياض فيقول : " ومن لا يعلم مقاصد الالفاظ وما يحل معانيهـــا ، ومقادير التفاوت بينها ، لم يجز له ان يروى الحديث بالمعنى " (٢)

وقد اورد السيوطي في التدريب حديثا لعبد الله بن سليمان بن اكتمة الليثي قال : (قلت يا رسول الله : اني اسمع منك الحديث ولا استطيع ان اؤديه كما اسمعه منـــك ، يزيد حرفا او ينقص حرفا ، فقال : "اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا واصبتم المعنى فلا بأس (٣) واستدل لذلك الشافعي بحديث :

انزل القرآن على سبعة احرف ، فاقرؤا ما تيسر منه " فالله قد نزل كتابه لتحل لهم قراءته وان اختلف لفظهم فيه ما لم يكن اختلافهم احالة معنى " (٤)

وورد في مكان اخر عن ابي الاسقع قالوا : (حدثنا بحديث سمعته من رسول الله (ص) ليس فيه وهم ولا مزيد ولا نسيان) فقال : (هل قرأ احد منكم من القرآن شيئا ؟ فقلنا : نعم ، ومـــا

---

(١) الالماع ص ١٧٤

(٢) علم الدراية ص ١١٢

(٣) تدريب الراوي للسيوطي ج ٢ ص ٩

(٤) المصدر نفسه ص ١٠١

نحن بحافظين جدا ، انا لنزيد وننقص، قال : فهذا القرآن مكتوب بين اظهركم لاتألونـــه حفظا ، وانتم تزعمون انكم تزيدون وتنقصون فكيف باحاديث سمعناها منه مرة واحدة ، ! حسبكم اذا حدثناكم بالحديث عن المعنـــى ٠(١)

وينبغي للراوى بالمعنى ان يقول عقيبة : اوكما قال ، او نحوه ، او ما اشبه هذا مـــن الالفاظ ٠ وقد كان قوم من الصحابة يفعلون ذلك وهم اعلم الناس بمعاني الكلام خوفا من الزلــل لمعرفتهم بما في الرواية بالمعنى من الخطــــر ٠

ومن بين الذين رفضوا الرواية بالمعنى الشيرازى في اللمع قال :

(والاختيار في الرواية ان يروى الخبر بلفظه ، بقوله (ص) نضّر الله امرأ سمع مقالتـــي فوعاها ثم اداها كما سمع ، فرب حامل فقه الى من هو افقه منـــه ٠(٢)

وقد احتج من منع الرواية بالمعنى بالنص والمعقول ٠ اما النص فهو الحديث الوارد ادناه ، واداؤه كما سمع هو اداء اللفظ المسموع ، ونقل الفقيه الى من هو افقه منه معناه : ان الا فطن ربما فطن بفضل فقهه من فوائد اللفظ بما لم يفطن له الراوى ، لانه ربما كان دونه في الفقــه ٠

واما المعقول : نرى ان المتأخر ربما استنبط من فوائد آية او خبر ما لم يتنبه له اهــل الاعصار السالفة من العلماء والمحققين ، فلو اطلقنا الجواز بالمعنى فربما حصل تفاوت عظيــم علما بان الراوى لا يظن ان هناك من تفاوت ٠

ونقطة اخرى : انه لو جاء للراوى تبديل لفظ بلفظ مشابه ، كان للراوى الثاني تبديل اللفظ الذى سمعه بلفظ آخر ، واخيرا هذا يفضي الى سقوط الكلام الاول ، لان الانسان وان اجتهد في تطبيق الترجمة ، لكن لا ينفك عن تفاوت وان قل ، فاذا توالت التفاوتات كان التفــاوت الاخير تفاوتا فاحشا ٠

واني ارى ان نقل الخبر بالمعنى جائز ولكن بشروط :

ان لا تزيد الترجمة ولا تنقص، ولا تكون اخفى ولا احلــى ، لان المقصود انما هو ايصال المعاني فلا يضر فوات غيرها ٠ ومتى زادت عبارة الراوى او نقصت فقد زاد المعنى او نقص، ومتى

---

(١) ٠ تدريب الراوى للسيوطي ج ٢ ص ٩٩

(٢) تدريب الراوى ج ٢ ص ٩٩ وما بعدها
من العجيب ان هذا الحديث نفسه قد جاءت روايته بصيغ كثيرة وكل رواية تختلف عن الاخرى في اللفظ والمعنى : قال ابن الجوزى بعد ان اورد قول الرسول : " نضر الله امرأ سمـــع روايتي فاداها كما سمعها ٠

كما ورد عن الخليل بن احمد قوله : " ورب مبلغ اوعى من سامع " فاذا رواه بالمعنى فقد ازال عن موضعه معرفة ما فيه ٠ التدريب للسيوطي ص ١٠١ ج ٢

كانت عبارة الحديث جلية فغيرها بعبارة خفيــة ، فقد اوقع في الحديث وهنا يوجب تقديم غيره عليه بسبب خفائـــه ، ذلك ان الاحاديث ان تعارضت في الحكم يقدم اجلاها على اخفاها وبذلك نبعد عن الاصل ونقع في الخطأ . هذه الشروط ان حصلت يجوز النقل ، اما عنـــد عدمها فلا يجوز اجماعـــا .

تحقيق في التقييـــد والضبط والسمـــاع

ان ما ذهب اليه اهل التحقيق من مشايخ الحديث وائمة الاصوليين ، انه على المحدث ان لا يقول الا بما حفظه في قلبه ، في كتابه ، فيصونه في قلبه كما يصونه في خزائنـه حتى لا يدخله فيه لا ريب ولا شك . فلو سمع كتابا وغاب عنه ثم وجده ، او اعاره ورجع اليه بعد مدة من الزمن وتحقق انه بخطه ، ولم يرتب في حرف منه ، ولا في ضبط كلمة ، عند ذلك يصـــح له ان يحدث به . ومتى كان بخلاف هذا او دخله ريب او شك ، لم يجز له الحديث بذلك .

ولا ارى من يخالفني الرأى ان على المحدث ان لا يحدث الا بما يحقق ، واذا ارتاب وخشي ان يكون مغيرا للحقيقة ، صار حديثه بالظن ، والظن اكذب الحديث ، والانسان انسان يجوز عليه السهو والنسيان حتى ان الصحابة ، قد هاب عليهم السلف بما سمعوه وحفظوه من الاحاديث ، مخافة تجويز النسيان والوهم والغلط على حفظهم . فكيف بنا اذا لم نحقـق فيما نريد ان نحدث به ، ونبني على الظن وسلامة الظاهر ؟

اما الذى يحدث من الكتب ولا يحفظ حديثه فلا يؤخذ عنه خوفا من الزيادة فيـــه .

ولنا مثل على ذلك ما ورد في الالماع للقاضي عياض (١) قال : " اخبرنا خلف بن تميــم قال : كتبت عن "سفيان "عشرة آلاف حديث او نحوها ، فكنت استفهم جليسي فقلت لزائـــدة يا ابا الصلت ، انت كتبت عن سفيان عشرة آلاف حديث او نحوها ، فقال لي : لا تحدث الا بما تحفظ بقلبك وتسمع باذنك : " فالقيتها " (٢)

وقد اختلف علماء الحديث في مسألة : اذا حقق السماع من ثقة ونسي ممن سمعه ، فهـــل تجوز روايته ؟ (انكره اكثر المحققين ، اذ لا يصح له تسميه من سمعه منهما الا على الارسال) . (٣)

اما الشافعي ، فقد تساهل فيما اشرنا اليه كما تساهل غيره من المحدثين من الصدر الاول ، وتركوا التشديد في الاخذ ، وقالوا نحو المسامحة والتسهيل .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٣٦ .

(٢) روى عنه محمد بن سعد كتاب الواقدى وهو ثقة صدوق مات ٢١٣ هـ .

(٣) المصدر نفســه ١٣٦

وما اراهم انهم ذهبوا هذا المذهب الا بناء على صحة الاجازة التي مر ذكرها معنا قبل قليل ، وان الحضور من الشيخ والاعلام بان هذا الكتاب روايته هو نفسه ، مقنع في الاداء والنقل .

ثم جاءت بعد ذلك القراءة والسماع قوة وزيادة كالمناولة ، وبعد هذا فالتحقيق الا يحدث احد الا بما حقق ولا يخبر الا بما اتقن .

فلو انه لا يجوز الا السماع او القراءة على الوجه المشترط ، لما صح في النقل الا اليسير لكن ان صح نقل الحديث او الخبر او الرواية كما قدمنا بالعرض ، والمناولة ، والاعلام والاقرار لم تضر على ما اعتقد المسامحة في القراءة ، اذا صحت المعارضة بالاصول والمقابلة بكتاب الشيخ ، وبعد هذا فلا غنى عن الاجازة مع القراءة ، وأن الاجازة خير من السماع الردى .(١)

وعلى هذا عمل الناس حتى اليوم في جميع اقطار الارض على تصحيح سماع الاعجمي الذى لا يتقن العربية ، والابله والصبي اللذين لا يفقهان ما يقرأ ، والسامع بغير كتاب ثم يكتبه بعد عشرات من الشهور او السنين ، من كتاب ثقة قد سمعه ، فلعل الضبط في كثير منه يخالف كتاب الشيخ او ما قرئ عليه .

وعلى هذا نتسامح اليوم الى حد معين من مجالس الاملاءات في الجامعات وغيرها من مراكز التعليم ، نرى تبليغ المستملين لمن لم يسمع جيدا بعض العبارات وكان بعيدا على المملي ، او الاستاذ المحاضر ، ويعمد السامعون الى تذكير بعضهم من بعض . ونحن اليوم في عصر يختلف تماما عن عصر الصحابة والتابعين ومن تبعهم من حيث وسائل الاذاعة وتوضيح نقل الافكار وسهولة التعليم . وقد اورد لنا القاضي عياض بعض الامثلة النادرة نذكر بعضا منها (٢) :

(وحدثونا عن احمد بن عمر العذرى " ان بعض شيوخه — واراه " ابا الحسن بن بندار القزويني " — كان يكثر نومه حين السماع ، فشق عليهم كثرة تنبيهه وايقاظه ، فعمد احد السامعين واعد قرطاسا فيه قطع حلاوة شديدة العقد ، (٣) صعبة على المضغ ، فكان اذا راى الشيخ يغازله النوم وتأخذه السنة ، ادخل في فيه قطعة من تلك القطع فيشتغل الشيخ بلوكها ، وتوقظه حلاوتها وشدة مضغها ، حتى اذا فنيت ومضت مدة وغازله النوم ثانية فعل به مثل ذلك ، فاستراحوا من تعب ايقاظه ومشقته عليه وعليهم بهذه الحيلة ومن افساد السماع بتركه ، ونومه ، وشكرت هذه الفعلة لفاعلها واستنبل فيها .)

---

(١) انظر تدريب الراوى ج ١ ص ١٢٨ وقارن باختصار علوم الحديث ١٣٢

(٢) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٤٤

(٣) شديدة الانعقاد وصعبة اللوك .

بـــاب في التقييد بالشكل والنقـــط

وهذا الباب يختص فيما يشكل ويشتبه " ومنه اشكل عليه اذا احتار به ولم يعرف الوجـــه الصحيح منه . وقال بعضهم : (انما يشكل ما يشكل . اما النقط فلابد منه . وقال آخرون يجب شكل ما اشكل وما لا يشكل) (١)

والحقيقة ان الشكلَ في اللغة العربية هو سِرُّ اللغة ، اذ هو يُعتَمدُ في الاعراب وما الاعراب الا متن اللغة وسرها . لا سيما للمبتدئ وغير المتبحر في العلم ، فهو ضروري جدا لانـــه لا يميز ما اشكل مما لا يشكل .

ولا بد من وقوع الجدل والنزاع بين الرواة فاذا جئتَ أَحَدَهم وسألته كيف ضبط هذه الكلمة او تلك ، بقي متحيرا لا يعرف الصواب .

حتى العلماء في اللغة قد يقع بينهم خلاف في الاعراب ولنضرب بعض الامثلة توضيحـــا : قال عليه السلام : " ذكاة الجنين ذكاة امه " فاذا كانت ذكاة الثانية مفتوحة بهذا يعنـــي ان الطفل يذكر مثل ذكاة امه (٢) .

اما اذا رفعت ذكاة الثانية تلك ، فلا ذكاة الطفل ويعني اسقاطها .

ومثل آخر : قوله عليه السلام : " لا نُورِّثُ ما تركناه صدقة " (٣)

فالارجح رفع صدقة على اعتبار انها خبر المبتدأ لاننا نعلم من احاديث متكررة في ان الانبياء لا تورث . وهو حديث دار حوله جدل طويل ؟

اما البعض من العلماء واكثرهم من الامامية فهم يرجحون الفتح على التمييز لما تركوه انـــه صدقة لا تورث دون غير ما ترك صدقة . وقد اجاز بعضهم نصبه على الحال . وكذلك قوله فـــي الحديث : " هو لك عبد بن رفعه " (٤) رواه جماعة " برفع عبد " على النداء ، واتباع ابن لـــه على الوجهين في نعت المنادى المفرد من الضم .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٥٠
(٢) انظر سنن ابن داود ٣/ ١٣٦ والترمذي ١/ ٢٧٩
(٣) انظر ما رواه البخاري ٦/ ١٤١ باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم .
(٤) روى ابن ماجة ١/ ٦٤٦ عن عائشة ، قالت : ان ابن رفعة وسعد اختصما الى النبي (ص) فاقبضه ، وقال عبد بن رفعة : اخي وابن امه (ابي) ولد على فراش ابي . رأى النبي شبهة بعتبة فقال : هو لك يا عبد رفعة ، الولد للفراش ، واحتجبي سا سودة .

وكثير من الامثلة لا تحصر لو اردنا ذكرها ، وهي ان اهملها السامع اذ لم ينتبه لوضع الخلاف فيه ، فاذا نوزع في اعرابه وضبطه ورجع الى كتابه فوجده مهملا دون شكل ، بقي متحيرا او انه يعمد الى الشكل والضبط بغير بصيرة ويقين . روى عن الرسول عليه السلام حديث متكرر اشرت اليه سابقا .

نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها . (ونضر : اى النضرة والنضارة وهي النعمة والبهجة(١)

وكيف يؤديها كما سمعها من لم يتقن حفظها ولم يحسن وعيها ؟ وكيف يبلغها من هو افقه منه وهو لم يملك حملها ؟

قال القاضي عياض : "اخبرنا ابو زكريا البخارى عن ابراهيم بن عبد الله قال : (اولى الاشياء بالضبط اسماء الناس، لانه لا يدخله القياس، ولا قبله شيء يدل عليه ولا بعده (٢) .

قال ابو علي الحافظ : روى عن عبد الله بن ادريس الأودي قال : (٣)

لما حدثني شعبة بحديث ابي الحوراء السعدى "عن الحسن بن علي ، كتبت اسفله : "حور عين" لئلا يغلط فيقرأه : "ابا الجوزاء" لشبهه في الخط . وابو الحوراء — بالجيم والزاء وهو ربيعة بن شيبان (٤)

وابو الجوزاء — بالجيم والزاى — هو اوس بن عبد الله الربعي ، ثم الجوزاء مثله ايضا . احمد بن عثمان النوفاني من شيوخ مسلم والنسائي (٥)

وهكذا ذهب المشايخ واهل الضبط في رسم هذه الحروف المشكلة والكلمات المشتبهة اذا ضبطت وصححت في الكتاب . غير رسم الحرف المشكل مفردا في حاشية الكتاب . بنقطة وضبطه حتى يستبين امره ، ويرتفع الاشكال عنه ، لا سيما واذا كانت الحروف دقيقة والسطور ضيقة المدى .

---

(١) وقد رويت (نضر) بتخفيف الضاد وتثقيلها ويحتمل معناه الوجهين احدهما ان يكون في معنى البسم الله النضرة وهي الحسن وخلوص اللون . والثاني : في معنى اوصله الله الى نضرة الجنة . انظر الكفاية ص ١٧٢

(٢) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٥٤

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٥

(٤) تهذيب التهذيب ٣/ ٢٥٦

(٥) طبقات ابن سعد ٧/ ٢/ ١٦٢

اما الحروف المهملة فعلينا ان نرسم تحتها ما يقابلها ، فنجعل مثلا تحت الحاء ، حاء صغيرة وكذلك تحت العين عينا صغيرة ، والصاد والطاء والدال والراء .

ومنهم من يقتصر على مثال النبرة تحت الحروف المهملة او يشير بخط صغير فوقها .

وقال محمد بن عبد الملك الزيات في صفة دفتر ، فيما ذكره لنا بعض شيوخنا (١) .

واری وشوما في كتابك لم تـدع	شكا لمرتاب ولا لمفكر
نقط واشكال تلوح كأنها	ندب الخدوش تلوح بين الاسطر
تنبيك عن رفع الكلام وخفضه	والنصب فيه بحاله والمصدر

وهذا كله على طريق من سامح من السماع وعلى من يجيز امساك اصل الشيخ عليه عند السماع .

ولاهمية هذا النص نورده من مصدره الاصيل ، وهو ادب الكتاب للصولي ، فقد جاء فيه ص ٤٩ "واستهدى احمد بن اسماعيل دفترا فيه " حدود الفراء " فاهداه الى مستهديه وكتب على ظهره : خذه فقد سوغت منه .. ونظمت .. وبعدهما :

وشكلته ونقطته فامنت من	تصحيفه ونجوت من تحريفه (٢)
بستان خط غير ان ثماره	لا تجتنى الا بشكل حروفه

واما مقابلة النسخة باصل السماع ومعارضتها به فامر لا بد منه .

فلا يحل للتقي الورع الامين ، الرواية ما لم يقابل باصل الشيخ الذى اعتمده او نسخة تحقق ووثق بمقابلتها بالاصل ، وتكون مقابلته تلك مع الثقة المامون لما ينظر فيه ، فاذا جاء حرف مشكل نظر معه حتى يحقق ذلك .

هذا اذا كنا ممن سامحوا في السماع ، واجازوا امساك اصل الشيخ عليه عند السماع ، اذ لا فرق بين امساكه عند السماع وعند النقل .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٥٨ هذا النص الذى ذكره لعياض بعض شيوخه ، هو من كتاب المحدث الفاضل للرامهرمزى ص ١٢٧ وفيه بعد هذين البيتين :

تنبيك عن رفع الكلام وخفضه	والنصب فيه بحاله والمصدر
وتريك ما يعني به فبعيده	كقريبه ومقدم كمؤخر

وقد نقل هذه الابيات الاربعة الخطيب البغدادى في الجامع لاخلاق الراوى ص ٢٧

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٩

واما من منع ذلك من اهل التحقيق فقالوا : (انه لا يصح مقابلته مع احد غير نفسه ، ولا يقلد سواه ، ولا يكون بينه وبين كتاب الشيخ واسطة ، كما لا يصح ذلك عنده في السماع ، فليقابل نسخته من الاصل بنسخته من الاصل نفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها به ومطابقتها له ، لا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف دون مقابلة ، ولا على نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح . فان الفكر يذهب والقلب يسهو والنظر يزيغ والقلم يطغى) . (١)

والخلاصة ان الاصل في الكتابة ، المقابلة فمن كتب ولم يقابل كانه لم يكتب . كما روى عن زيد بن ثابت شاعر النبي (ص) انه قال :

كنت اكتب الوصي عند الرسول (ص) وهو يملي علي ، فاذا فرغت قال : اقرأه فاقروءه ، فان كان فيه سقط اقامه . (٢) ولبعض الشعراء في هذا :

الحح كتابك حين تكتبه	واحرسه من وهم ومن سقط
واعرضه مرتابا بصحته	ما انت معصوما عن الغلط (٣)

ونعود فنتوقف عند الاسماء والكنى والالقاب وما يرافقها من ملابسات وما وضع في صحتها وضبطها . لان الاسماء لا يدخلها القياس وليس قبلها او بعدها شيء يدل على صحتها .

معرفة الاسماء والكنى :

لقد وضع الكثير من العلماء والحفاظ تصانيف عديدة في معرفة الاسماء والكنى منهم النسائي والدولابي (٤) . وقد ورد في الباعث الحثيث لابن كثير شيء من هذا القبيل مفيد وكاف نذكر اهمه :

اولا : من ليس له اسم سوى الكنية : كأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم المدني ، ويكنى بابي محمد ايضا . قال الخطيب البغدادي . ولا نظير لهما في ذلك وقيل : لا كنية لابن حزم هذا .

---

(١) الالماع ص ١٦٠ وقد نقله السخاوي في فتح المغيث ص ٢٥٣

(٢) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٦١

(٣) المصدر نفسه

(٤) الباعث الحثيث ، ص ٢١٥ والحافظ ابو بشر محمد بن احمد الدولابي وكتاب (الكنى والاسماء) وقد اعطى مثل هذا التقسيم ابو عمرو بن الصلاح .

ثانيا :ـ من لا يعرف بغير كنيته ، ولم يوقف على اسمه ، كابي شيبة الحذرى المدني ، قتل في حصار القسطنطينية ، ودفن هناك :

ثالثا :ـ من له كنيتان ، احدهما لقب مثل : على بن ابي طالب كنيته : ابو الحسن ، ويقال له : ابو تراب لقبا . وكأبي الرجال لكثرة اولاده وابي الاذان لطول اذنيه .

رابعا ـ من له اسم معروف ، ولكن اختلف في كنيته ، فاجتمع له كنيتان ، واكثر ، مثل زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) وقد اختلف في كنيته فقيل ابو خارجة وقيل ابو زيد ، وقيل ابو عبد الله .

خامسا :ـ من عرفت كنيته واختلف في اسمه ، كابي هريرة ، اختلف في اسمه واسم ابيـــه بما يقارب العشرين ، قولا . واختار ابن اسحق انه عبد الرحمن بن صخر .

سادسا :ـ من اختلف في اسمه وفي كنيته ، وهو قليل ، كسفينة ، قيل : اسمه ، مهران ، وقيل عميــــر .

سابعا :ـ من اشتهر باسمه وكنيته كالائمة الاربعة : ابوعبد الله : مالك : والشافعي ، واحمد بن حنبل ، وابو حنيفة والنعمان بن ثابت . كل واحد من هؤلاء يكنى ابا عبد الله . (١)

معرفة من اشتهر بالاسم دون الكنيــة

وهذا كثير جدا يكاد لا يعد ولا يحصى .

معرفة الالقـــاب : (٢)

وقد الف كثير من العلماء منهم شيخ الاسلام احمد بن حجر العسقلاني . وما يجدر التنبيه له : ان لا يظن ان هذا اللقب لغير صاحب الاسم .

واذا كان اللقب مكروها الى صاحبه فانما يذكره ائمة الحديث على سبيل التعريف والتمييـــز ، على وجه الذم واللمز . نذكر بعضا منهـــم :

(عنجار) لقب لعيسى بن موسى التميمي ، ابي احمد البخارى ، وذلك لحمرة وجنتيـــه . وعنجار آخر متأخر وهو ابوعبد الله محمد بن احمد البخارى الحافظ صاحب تاريخ بخـــار .

---

(١) راجع الباعث الحثيث ص ٢١٥ وما بعدها

(٢) الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ٢٢٠ كما الف في هذا الفن ، ابو بكر احمد بن عبد الله الرحمن الشيرازى وكتابه مفيد وكثير النفع ، وأبو الفرج بن الجوزى .

(صاعقة) لقب محمد بن عبد الرحيم شيخ البخاري ، لقوة حفظه وحسن مذاكرته .
(بندار) محمد بن بندار شيخ الجماعة . والبندار المكثر من الشيء يشتريه ثم يبيعه .
(الاخفش) لقب لجماعة وهو الذي لا يرى رؤية صحيحة واضحة .
(جزره) صالح بن محمد البغدادي . وروى انه كان يرقى بخرزة فصحفها جزرة فذهبت عليه لقبا له . وكان ظريفا له نوادر .

(عبيد العجل) لقب مركب لابي عبد الله الحسين بن محمد البغدادي الحافظ (ما غمه) اى ما دمه .

(عبدان) لقب جماعة ، منهم عبد الله بن عثمان ، شيخ البخاري .

معرفة المؤتلف والمختلف من الاسماء والانساب : (١)

وهو ما تتفق في الخط صورته وتفترق في اللفظ صيغته . وهو من جليل وكثير الفائدة ، ومن لم يعرفه من المحدثين كثير غلطة . واشهر من الفقيه : الحافظ ابو عبد الله البخاري ومن امثلة ذلك :

سلّام وسلام ، وعمارة وعمارة ، وحزام وحرام ، وعباس وعيّاش ، وبشّار وبسّار ، وجرير وحريز ، عبّاد وعباد ، وكثير غير ذلك .

وكما يقال : الحمّال والجمّال والبزّاز والبزّار ، والجريرى والحريرى - والهمذاني والهمداني ، وهذا لا يضبط الا بالشكل في مواضعه .

معرفة المتفق والمفترق من الاسماء والانساب (٢) :

وهو ان يتفق اثنان او اكثر بالاسم الخاص واسم الاب ، ومثالنا على ذلك :

"الخليل بن احمد"

ستة : احدهم : النحوى البصرى وهو اول من وضع علم العروض . والثاني ابو بشر المزني ، بصرى ايضا ، والثالث : اصبهاني . والرابع ابو سعيد السجرى ، القاضي الفقيه الحنفي المشهور بخراسان . الخامس : ابو سعيد البستي القاضي حدث عن الذى قبله . والسادس ابو سعيد البستي ايضا ، شافعي اخذ عن ابي حامد الاسفرائني ، دخل بلاد الاندلس .

---

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٢٢٣
(٢) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٢٢٨

والقسم الثاني : احمد بن جعفر بن حمدان اربعة : القطيعي والبصرى والدنيورى والطرطوسي .

الثالـــث : محمد بن عبد الله الانصارى اثنان ، احدهما المشهور صاحب الجزء وهو شيخ البخارى والاخر ضويف يكنى بابي سلمة .

والرابع : ابو بكر عياش ، ثلاثة : القارئ المشهور ، والسلمي الباجدائي من قرية من نواحي العراق صاحب غريب الحديث ، توفي ٢٠٤ هـ ، واخر حمصي مجهول .

معرفة المنسوبين الى غير آبائهـــــــم : (١)

وهم كثر نذكر بعضا منهم : كمعاذ ومعوّذ ، ابني عفراء وهما اللذان اثبتا ابا جهل يوم بدر وامهما هذه عفـــراء ، وابوهما ابن رفاعة الانصارى . وبلال بن "حمامة " وهو المؤذن ، ابـو رياح سهيل ابن بيضاء واخواه منهما : سهل وصفوان ، واسم بيضاء (دعد) واسم ابيهم وهب .

شرحبيل ابن "حسنة " احد امراء الصحابة على الشام هي امه ، وابو عبد الله الكندى ومنهم من ينسب الى جدته : ابو احمد عبد الوهاب ابن على البغدادى ، يعرف بابي "سكينة " وهي ام ابيـــــه .

وكذلك شيخنا العلامة "ابو العباس" "ابن تيمية " وهي ام احد اجداده الابعديـــــن ، وهو احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن ابي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني .

ومنهم من ينسب الى جده : ومنهم الرسول الاعظم حيث قال : انا الرسول لا كذب ، انا ابن عبد المطلب ، وذلك يوم حنين ، وهو رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

وكأبي عبيدة بن الجراح ، وهو عامر بن عبد الله بن الجراح الفهرى ، كانت ولايته بعد خالد بن الوليد ولقب بامير الامراء بالشام .

احمد بن حنبل : هو احمد بن محمد بن حنبل الشيباني احد الائمة .

وممن نسب الى غير ابيه : المقداد بن الاسود ، وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة (الكندى) البهراني ، والاسود هو : ابن عبد يغوث الزهرى ، وكان زوج امه وهو ربيبه فتبناه فنسب اليه

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ص ٢٣١

والحسن بن دينار هو الحسن بن واصل "ودينار" زوج امه وقال ابن ابي حاتم : الحسن بن دينار بن واصل . (١)

ولنا جولة اخرى وهي مهمة ايضا حـــول :

معرفة وفيات الرواة ومواليدهم ومقدار اعمارهـــم !

وهذا فن عميم النفع كثير الفائدة يحاسب الرواة على جميع هفواتهم ، ليعرف من ادركهم ممن لم يدركهم : من كذاب او مدلس ، فيتحرى المتصل والمنقطع وغير ذلك .

قال سفيان الثوري (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التأريخ) . (٢)

وقال حفص بن غياث : (اذا اتهم الشيخ فحاسبوه بالسنين) .

وقال الحاكم : (لما قدم علينا محمد بن حاتم الكشّي فحدث عن عبد الله بن حميـــد . سألته عن مولده ؟ فذكر انه ولد سنة ستين ومائتين ، فقلت لاصحابنا : انه يزعم انه سمع منه بعد موته بثلاث عشرة سنة . (٣)

وقد اورد الشيخ ابو عمر بن الصلاح رحمه الله وفيات اعيان من الناس نذكر ابرزهـــم :

رسول الله (ص)

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب : توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ، على المشهور يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الاول سنة احدى عشرة من الهجرة .

وابو بكر : عن ثلاث وستين ايضا في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة . وعمر : عن ثلاث وستين ايضا في ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين . وعثمان : وقد جاوز الثمانين في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين . وعلي : في رمـضان سنة اربعين عن ثلاث وستين سنة . وطلحة والزبير قتلا يوم الجمل سنة ست وثلاثين وكان كل منهما في سن الاربع والستين . (٤)

---

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ، ص ٢٤٧

(٢) الكشي نسبة الى كش بفتح الكاف وتشديد الشين المعجمة وهي قرية قريبة من جرجان .
(راجع الكفاية ص ١١٩ والكامل لابن عدى ص ٤

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه .

في الضرب والحك والشق والمحو

وهذا باب آخر من ابواب التقييد والضبط ، ووجه من وجوه تحرى النقل بدقة ، وامانة حدثنا عنه القاضي عياض في الالماع واصول تقييد الرواية ، ليتم لنا بذلك الوقوف على دقة النقل ومعرفة الطرق التي اعتمدها علماء الحديث والرواة والحفاظ في نقل رواياتهم واحاديثهم .

قال : (اخبرنا احمد بن محمد الاصبهاني من كتابه ، اخبرنا القاضي ابو محمد بن خلاد قال : قال اصحابنا : الحك تهمة واجود الضرب الا يطمس الحرف المضروب عليه ، بل يخط من نوقه خطأ جيدا بينما يدل على ابطاله ويقرأ من تحته ما خط عليه) (١) .

وقال ايضا : (كان شيوخنا يكرهون حضور السكين مجلس السماع حتى لا يبشر شيء لان ما يبشر منه قد يصح من رواية اخرى ، وقد يسمع الكتاب مرة اخرى على شيخ آخر يكون ما بشر وحك من رواية هذا صحيحا في رواية الاخر (٢) .

وهو اذ خط عليه واوقفه من رواية الاول وصح عند الآخر اكتفى بعلامة الآخر عليه بصحته (٣)

واختلفت آراء الضابطين في الضرب . فذهب اكثرهم الى ما تقدم من مد الخط عليه . وهذا الخط يكون مختلطا بالكلمات المضروب عليها ، وهو الذى يسمى الضرب والشق .

ومنهم من كان يعطف طرف الخط على اول المبطل واخره ليميزه من غيره . ومنهم من كان يستقبح هذه الطريقة ويراه تسويدا في الكتاب بل يحوق على الكلام المضروب عليه بنصف دائرة وكذلك في آخره .

وربما كتب عليه (لا) في اوله (والى) في آخره اما ما هو خطأ محض بالتحويق التام عليه افضل من الحك .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٧٠

(٢) المصدر نفسه

(٣) تدريب الراوى ، ج ٢ ص ٨٤

ومن اشياخ من يبتعد عن الضرب والتحويق ويكتفي بدائرة صغيرة اول الزيادة واخرها ، ويسميها (صفرا) ومعناها خلو موضعها عندهم من الصحة المرتقبة .

اما اذا تكرر الحرف واحتاج الكاتب الى الضرب على احدها لابطاله : ايها اولى به ؟ قال بعضهم : اولاهما بالابقاء الاول ، لانه صحيح ، ويبطل الثاني ، لانه الخطأ وهو المستغنى عنه .

وقال آخرون : (اولاهما بالابقاء اجودهما صورة ، واحسنها كتابة) (١) . لئلا يطمس اول السطر . وان كان قد تكرر في آخر السطر فليضرب على الاول الذى في آخر السطر واواخرها في الكتاب احسن واجمل ، الا اذا اتفق آخر السطر واول الآخر . فمراعاة الاول من السطر اولى .

اما في الكلمات كالمضاف والمضاف اليه ، والموصوف . ففي حال التكرار ، ينبغي الا يفصل بينهما في الخط ، ويضرب على المتكرر من ذلك . ومراعاة هذا ضرورى ، لسلامة الفهم . اما اذا ادخل الفصل بينهما بالضرب فقد يحدث اشكالا وتوقفا في سير المعاني فمراعاة المعاني والاحتياط لها اولى من مراعاة تحسين الصورة في الخط .

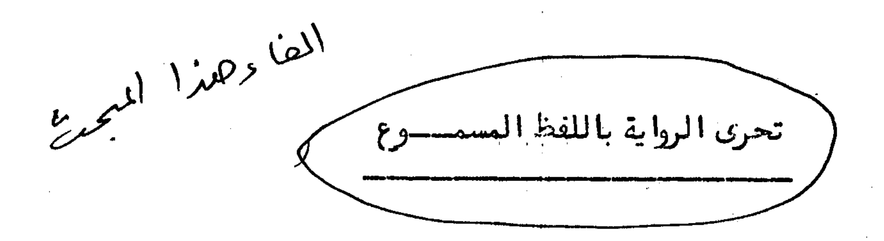
واخيرا اخبرنا سفيان بن العاصي الاسدى عن منصور ، قال : (كان ابراهيم النخعي يقول : (من المروءة ان يرى في ثوب الرجل وشفتيه مدادا لان في مثل هذا دليل على جواز لعق الكتاب بلسانه (٢) وكان صاحبنا المشار اليه صاحب المروءة ربما كتب الشيء ثم لعقه ! . .

ان الضرب افضل من الحك والمحو ، وذلك اولى لبيان الحقيقة لمن اراد التبصر واراد ان ينظر الحقيقة بالعين المجردة .

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، ص ١٧١

(٢) المصدر نفسه



تحرى الرواية باللفظ المسموع

ان الجاهل والمبتدئ الذي لم يمهر بعد في العلم ، ولم يتقن معرفة تقديم الالفاظ ، وتأخيرها ، وترتيب الجمل وفهم معانيها ، عليه أن لا يكتب ولا يروى ولا يحكي حديثا الا على اللفظ الذى سمعه . ولا يجوز له التعبير بغير اللفظ المسموع . والا تصرف على غير اصول الحقيقة ، وتقول على المبادئ الصحيحة لاصول الرواية .

وقديما هاب الصحابة الحديث عن النبي (ص) وتبديل اللفظ المسموع منه . حتى النبي (ص) كان يحض على ايراد كل ما سمع منه كما سمع وقال (ص) :

" نضّر اللهُ امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها فربُ مبلّغ اوعى من سامع ورب حامل فقه الى من هو افقه منه . ورب حامل فقه ليس بفقيه (١) فاشترط الرسول (ص) في تحرى الرواية : الوعي اولا والاداء الصحيح ثانيا . واذا ذهب شرط من هذين الشرطين تساءلنا كما تساءل القاضي عياض فقال : "كيف يؤديها كما سمعها من لم يتقن حفظها ولم يحسن وعيها ؟ وكيف يبلغها من هو افقه منه وهو لم يملك حملها ؟ فهو منتصب الفقه حقه ، قاطع لطريق العلم على من بعده " (٢) .

اما اهل العلم فهل لهم ان يحدثوا على المعنى او لا يباح لهم ؟ لقد اختلف ارباب الحديث والفقه في هذا الموضوع فبعضهم اجازه ان كان المحدث من اهل العلم والاختصاص والامانة ، جامعا لمواد المعرفة ونحو ذلك .

ومنعه آخرون ولم يجيزوا لاحد ولا سوغوا الا الاتيان به على اللفظ نفسه في الحديث النبوى . اما في حديث غيره فقد رخصوا على الرواية بالمعنى وفي التقديم والتأخير وذهب ائمة الحديث هذا المذهب وعلى رأسهم مالك الذى كان يتشدد كثيرا في الرواية ويستحب بالمجيء بنفس اللفظ ما استطاع . وقد حدثنا محمد بن احمد القاضي ـ عن اسحق بن موسى ، سمعت معن بن عيسى يقول : "كان " مالك " يتقي في حديث رسول الله (ص) الباء والتاء ونحوهما ، وعن مالك بن انس ايضا ما يشبه ما قلنا قال : (اما حديث رسول الله (ص) فاحب ان يؤتى به على الفاظه) (٣)

---

(١) التدريب للسيوطي ، ص ٢١٠

(٢) الالماع ص ، ١٥٣ و ص ١٧٨

(٣) المصدر نفسه

من الذين تشددوا في رواية الحديث النبوى باللفظ المسموع الخطيب البغدادى . فقد اورد لنا البخارى في كتاب الوضوء (باب فضل من بات على الوضوء) ج ١ ص ٣٠٨ هذا الدعاء "اللهم اسلمت وجهي اليك ، وفوضت امرى اليك ، والجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى الا اليك ، آمنت بكتابك الذى انزلت ، وبنبيك الذى ارسلت ، فان مت مت على الفطـــرة .

فقلت : أستذكرهن : ورسولك الذى ارسلت . فقال : لا ونبيك الذى ارسلت"

فقد رد الخطيب في الكفاية ان يستدل بهذا على عدم جواز الرواية بالمعنى مطلقا وان يكون هذا حكما عاما فقد يكون في هذا خصوصية ليست في غيره وقد قال :

"اما رد النبي صلى الله عليه وسلم على الرجل في الحديث قولـــه :

"ورسولك" الى "وبنبيك الذى ارسلت" فان النبي امدح من الرسول ، ولكل واحد من هذين النعتين موضع ، الا ترى ان اسم الرسول يقع على الكافة واسم النبي لا يتناول الا الانبياء خاصة ، وانما فضل المرسلين من الانبياء لانهم جمعوا النبوة والرسالة معا ، فلما قال : "ونبيك الذى ارسلت" جاء بابدع النعت وهو النبوة ، ثم قيده بالرسالة حين قال : (الذى ارسلت) . (١)

ان وجهات نظار الناس في هذا الشأن مختلفة ، وافهامهم متباينة ، وكما قال رسول الله (ص) (ورب حامل فقه الى من هو افقه منه) فاذا ادى اللفظ سليما من الغلط بقي الحديث المنقول على حاله لمن يأتي بعد . وهذا انزه للراوى واخلص للمحدث .

ومن جهة اخرى نقول : هل يتساوى الناس في الدرجة العلمية والكفاءة الخاصة ؟ هذا اذا سلمنا ان الجميع يتحلون بضمير حي حر وامانة علمية خالصـــة . فالصحابة مثلا وهم اقـــرب الـــى الرسول (ص) هل تتساوى درجاتهم العلمية جميعا ؟ وهل نقلوا الحديث الواحد بنفس الالفاظ ؟ لا اظن ان مثل ذلك يحدث فعلا عند الجميع ، ذلك ان ذاكرة الانسان تسهو بعض الاحيـــان مهما كانت قوية ، وحافظته تنسى كل الكلمات والعبارات التي ذاتها كما سمعت .

فالذين شاهدوا قرائن تلك الالفاظ واسباب تلك الاحاديث ، وفهموا معانيها حقيقـــة فعبروا عنها بما اتفق لهم من العبارات والالفاظ ، مع المحافظة على المعاني ، فكانت تلـــك الالفاظ المعبرة ترجمة صحيحة لما ورد من معان .

---

(١) انظر الكفاية ص ٢٠٣

هذا ما جاء به الصحابة اما من بعدهم فقد ذهبوا الى المحافظة على الالفاظ المبلغة اليهم التي منها تستخرج المعاني ، وقد تشددوا في المحافظة على الالفاظ حتى تضبط وتتحرى . واذا ما تسومح في العبارات والتحدث على المعنى (انحل النظم واتسع الخرق حسب قولهم .

وعلى هذا فلا نعدم من اختلاف المحدثين والفقهاء والاصوليين في اختصار الحديث والتحدث به على المعنى ، فمنهم من تسامح واجاز كمسلم ، ومنهم من تشدد وتحرى كالبخاري . ومن الذين تشددوا عفان بن مسلم يحض اصحاب الحديث على الضبط والتقيد اذا اخذوا عنه . قال لهم : ويحكم قيدوا واضبطوا "" (١)

اورده عن الخطيب البغدادي في الكفاية والجامع لاخلاق الراوي ص ٥٧

وعفان بن مسلم : محدث بغداد ، روى عنه ابن المديني ويحي بن معين . ثقة ثبت صاحب سنة . ولد ١٣٠ وتوفي ٢١٩ .

ورخص قوم فيما يقع من الكلمات موقع امثالها ، كالجلوس موضع القعود والقيام موضع الوقوف وشبهه وتساهل اخرون في الرواية على المعنى من غير لفظ الرسول (ص) ، وذكر هذا عن مالك كما اشرنا . وذهب المحققون الى ان الراوي ان كان ممن يستقل بفهم الكلام ومعانيه ويعرف مقاصده ويفرق بين الظاهر والاظهر والمحتمل والنص فجائز لهذا الحديث على المعنى (٢)

ولكن لحماية هذا الباب من تسلط من لا يحسن المعرفة ويقع في الشطط والوهم فيه عن المعرفة وهو قاصر عنها ويعمد الى كشف الحقائق فيزداد بعدا عنها ، لذلك يجب سد هذا الباب . فمن لم يبلغ درجة الكمال في معرفة المعاني فلا يجوز ان يحدث الا كما سمع .

---

(١) الالماع ص ٥٧

(٢) انظر الالماع ص ١٨١

وقد منع ابو حامد الغزالي ايضا (نقل الحديث بالمعنى دون اللفظ على الجاهل بمواقع الخطاب ودقائق الالفاظ ، اما العالم بالفرق بين المحتمل وغير المحتمل والعام والاعم ، فقد جوز له الشافعي ومالك وابو حنيفه ان ينقله على المعنى اذا فهمه . وقد استند هؤلاء في تسامحهم هذا على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم . فاذا جاز ابدال العربية بعجمية ترادفها في المعنى فلا ارى ما يمنع من عربية بعربية ترادفها وتساويها) (١) .

وكذلك كان سفراء رسول الله (ص) في البلاد يبلغونهم اوامره بلغتهم . ثم ان من سمع شهادة الرسول (ص) فله ان يشهد على شهادته بلغة اخرى . لانا نعلم ان لا تعبد في اللفظ وانما المقصود فهم المعنى وايصاله الى الخلق . (٢)

والخلاصة ان نقل الحديث عن طريق اللفظ دون المعنى ، لايسمح به على الاطلاق للجاهل ، خوفا من اختلال المعاني وتحويرها فعلى الجاهل هذا ان ينقل كما سمع حرفيا دون زيادة او نقصان في الالفاظ ، او تبديل من تقديم وتأخير للكلمات . لان العربية هي لغة البلاغة كل كلمة لها مكانها في الجملة ، ووضعها في مكان آخر ، او نقلها من المكان المعد لها يعرضها لكسب معنى جديد . وهنا نقع في التحوير والابهام .

اما العالم المتبحر بعلوم اللغة ويفقه معانيها ، ويعي الحقيقة والمجاز منها ، ويتقن فن اللغة من استعارات وتشابيه وكناية ومجاز فهو ماهر حاذق ضليع ، هذا لا خوف على الحديث ان غير في بعض مترادف كلماته . ولا خوف على الرواية ان قدم او اخر في بعض عباراتها من ضياع المعنى المقصود ، والتاريخ يشهد معنا في نقل اكثر المعارف الانسانية التي ترجمت الى العربية من اللغات الاخرى من طب الى فلك الى فلسفة الى ما هنالك من علوم ، اقتضتها ظروف العرب وحضارتهم النامية . فالحضارة العربية نمت كغيرها من الحضارات عن الاخذ من افكار الغير بلغتها العربية ، كما اعطت فيما بعد الى امم اخرى اتصلت بها او دخلت في حكمها ، ولايمكن لمركبة الحياة ان تسير الا بمثل ما ذكرنا من الاخذ الخيّر والعطاء المبارك .

---

(١) المستصفى للغزالي ١/ ١٦٨ .

(٢) راجع صحيح البخاري ج ٣ ص ٧٢ والسنة قبل التدوين ص ٧١ .

المحاذير من ضرر رواية الحديث بالمعنى

لما كان من المتعذر نقل احاديث النبي (ص) كلها عن طريق اللفظ ، جاء نقل معظمها عن طريق الرواية بالمعنى . وقد شعر علماء الحديث بهذا الواقع فاباحوا لرواتها ان يزيدوا فيها ويختصروا منها ، وان يؤخروا ويقدموا في الفاظها ، لما كان الامر قد جرى على ذلك استساغ اللاحقون رواية الحديث كل حسب طاقته وامانته .

ولا جرم ان ينتج عن رواية الحديث بالمعنى ضرر عظيم .

قال السيد البطليوسي الاندلسي :

(بعد البحث والتتبع ، تبين ان كثيرا مما روى بالمعنى قد قصّر في الاداء ، ولذلك قال بعضهم : "ينبغي سد باب الرواية بالمعنى لئلا يتسلط من لا يحسن ممن يظن انه يحسن ، كما وقع لكثير من الرواة قديما وحديثا) (١) .

كما قال ايضا : " اعلم ان الحديث المأثور عن رسول الله (ص) وعن اصحابه والتابعين لهم تعرض له ثماني علل " . و "ان الخلاف قد عرض للامة من ثمانية اوجه " (٢) وجميع وجوه الخلاف متولدة منها ومتفرعة عنها وننقل هذه العلل باختصار من اصل كتاب البطليوسي .

الاول : منها اشتراك الالفاظ واحتمالها للتأويلات .

الثاني : الحقيقة والمجاز .

الثالث : الافراد والتركيب .

الرابع : الخصوص والعموم .

الخامس : الرواية والنقل .

السادس : الاجتهاد فيما لا نص فيه .

السابع : الناسخ والمنسوخ .

الثامن : الاباحة والتوسيع .

وقال : " في الخلاف العارض من جهة الرواية والنقل (هذا الباب لا تتم الفائدة التي قصدناها الا بمعرفة العلل التي تعرض للحديث فتحيل معناه ، فربما اوهمت فيه

---

(١) توجيه النظر للعلامة الجزائري ص ٣٣٧ وما بعدها .

(٢) قال العلامة الجزائري في كتابه "توجيه النظر" : وقد نشأ عن الرواية بالمعنى ضرر عظيم حتى عد من جملة اسباب اختلاف الامة قال بعض المؤلفين في ذلك في مقدمة كتابه (فلما نبحث عن هذا المؤلف حتى وجدته انه صاحب الانصاف في التنبه على الاسباب التي اوجبت الاختلاف بين المسلمين وآرائهم . وقد طبع ١٣١٩ هـ في مصر مصححا بقلم الشيخ احمد عمر المحمصاني الازهري . وصاحب المؤلف هو ابو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي الاندلسي المتوفي سنة ٥٢١ هـ .

معارضة بعضه لبعض ، وربما ولدت فيه اشكالا يحوج العلماء الى طلب التأويل البعيد) •

وسوف نذكر اهم هذه العلل التي نوّه عنها المؤلف ونذكر عن كل نوع منها مثالا نستدل به توضيح ما ذكرنا •

العلة الاولى :

وهي فساد الاسناد (١) :

وهذه العلة هي من اكثر العلل واشهرها حتى ان بعض الناس يتوهمون انه اذا صح الاسناد صح الحديث ؟

والحقيقة ليست كذلك فانه قد يتفق ان يكون رواة الحديث مشهورين بالعدالة ، معروفين بالامانة ، غير مطعون عليهم ، ويعرض من ذلك لاحاديثهم اعراض وعلل على وجوه شتى من غير قصد منهم

والاسناد يعرض له الفساد من عدة اوجه • (منها الارسال وعدم الاتصال ، ومنها ان يكون بعض رواته صاحب بدعة ، او متهما بالكذب ، او مشهورا ببله وغفلة ، او يكون متعصبا لبعض الحكام ، فهذا اخطر جدا لانه يروى الاحاديث التي تناسب حاكمه ، ذلك ان افراط عصبية الانسان لمن يتعصب له يحمله على انتحال الاحاديث وتغيير بعض حروفه او كلماته) (٢) • ... •

وهذا ما يبعث على الاسترابة خاصة عندما نعلم تهافت هؤلاء للاتصال بالحكام ونيل الحظوة عندهم • فان من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والانتحال للحديث فيلفق ويدبج ، ويغير ويبدل ، حرصا على مكسب يحصل عليه (٣) •

وقد روى ان قوما من الفرس واليهود وغيرهم ، لما رأووا الاسلام قد ظهر وعم ، ورأوا انه لا سبيل الى مناصبته ، رجعوا الى الحيلة والمكيدة ، فاظهروا الاسلام وتعبدوا وتقشفوا حتى اصبحوا مصدر ثقة ، فلما حمد الناس طريقتهم ولدوا الاحاديث والمقالات وفرقوا الناس • وما زال التاريخ يعيد نفسه •

---

(١) توجيه النظر للجزائري ص ٣٣٧ نقل عن الانصاف في التنبيه •
(٢) المصدر نفسه
(٣) كما هو شأن بعضهم في عصرنا •

واذا كان عمر بن الخطاب يتشدد في الحديث ويتوعد عليه، والبدع لم تظهر بعد ، فما ظنك في الازمنة التي تلت وذهبا رسول الله (ص) وقد كثرت البدع وقلت الامانة ! والزمان هو الزمان ، والناس هم الناس .

العلة الثانية :

وهي نقل الحديث بالمعنى دون الاهتمام باللفظ بعينه :

وهذا الباب يعظم الغلط فيه جداً ، وذلك ان اكثر المحدثين لا يراعون الفاظ النبي (ص) التي نطق بها ، وانما ينقلون الى من بعدهم معنى ما اراده (ص) بالفاظ اخرى ، ولذلك نجد بعض الاحاديث ذات المعنى الواحد ترد بالفاظ شتى يزيد بعض الفاظها على بعض . (١)

اما اختلاف الاحاديث فمردّه الى سببين :

السبب الاول :

(هو تكرار بعض الاحاديث من النبي (ص) بالذات في مجالس مختلفة تتطلبها ظروف الناس آنذاك) . (٢) ... اذ يردون عليه جماعات جماعات في اوقات مختلفة ، مما يضطره الى اعادة الحديث اكثر من مرة . وقد لا يكون طبعا بنفس الالفاظ . وما كان من الحديث بهذه الصفة فلا يهمنا في هذا المجال .

والسبب الثاني :

(هو اختلاف الالفاظ التي تعرض من اجل نقل الحديث على المعنى) (٣) .

ولا عجب من ذلك . لان الناس يتفاضلون في صورهم والوانهم واحوالهم ، فربما اتفق ان يسمع الراوي الحديث من النبي (ص) او من غيره ، فيتصور معناه في نفسه على غير الجهة التي ارادها ، واذا عبر عن ذلك المعنى الذي تصور في نفسه بالفاظ اخرى ، كان حدث بخلاف ما سمع من غير قصد منه ، وذلك ان الكلام الواحد قد يحمل معنيين او ثلاثة وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التي تقع

./.

١ـ انظر توجيه النظر ص ٣٢٧ وما بعدها

٢ـ المصدر نفسه

٣ـ المصدر نفسه

على الشيء وضده، كقوله : قصوا الشوارب واعفوا اللحى) فاذا ما زاد المحدث او قدم او اخر اختلف المعنى المقصود .

العلـة الثالثة :

وهي الجهل بالاعراب ومباني كلام العرب ومجازاتها (١)

وذلك ان كثيرا من رواة الحديث هم جهال باللسان العربي، واللغة العربية من عرب وغير عرب، فلا يفرقون بين المنصوب والمرفوع والمخفوض .

واللغة العربية قوام فهم معانيها الاعراب المعتمدة على الحركات، على عكس ما نرى في اللغات الاخرى كالافرنسية مثلا حيث ينوب عن الحركات الحروف الصوتية اذ لا مجال للالتباس في فهم المعاني .

ولعمري، لو ان العرب وضعوا لكل معنى لفظا يؤدى عنه، لا يلبس بغيره لكان لهم عذر في ترك الاعراب وتعلم القواعد العربية في اللغة، حيث لا حاجة لهم اليه في معرفة الخطأ من الصواب . ولكن العرب قد يفرقون بين المعنيين المتضادين بالحركات فقط، واللفظ الواحد كلفظة " بِرّ " يعني البر بالوالدين والعطف عليهما، وبَرّ : وهو السهول والارض، و " بُرّ " وهو الحب حيث وردت عند الشاعر شوقي في وصفه للهدهد :

" مت من حبة بُرٍّ احدثت في الصدر غلة " .

وما اكثر مثل هذه الكلمات التي لا نعرف معناها مفردة الا اذا اردناها بالحركة .

الا ترى ان الفاعل والمفعول ليس بينهما اكثر من الرفع والنصب، فربما حدث المحدث في الحديث — وهو يجهل الاعراب — فرفع لفظة منه ينوى بها انها مفعولة، ونصب اخرى ينوى بها انها فاعلة، فنقل عنه السامع ذلك الحديث فرفع ما نصب ونصب ما رفع جهلا منه بما بين الامرين، فانعكس المعنى الى ضد ما اراده المحدث الاول، فكيف بنا ولو نقل الحديث اكثر من جاهل لامور اللغة ؟؟

---

(١) المصدر السابق ص٣٣٩ — ٣٤٠ .

العلـة الرابعة :

وهـي التصحيـف .

وهذا باب لايقل فسادا عن العلة السابقـة .

ومما حصل ان كثيرا من المحدثين لايضبطون الحروف ، فيرسلونها ارسالا غير مقيدة ، اتكالا منهم على الذاكرة والحفـظ ، فاذا غفل المحدث عما كتب مدة من زمانه ثم احتاج الى قراءة ما كتب ، اوان غيره قرأه له ، فرفع المنصوب ونصب المرفوع انقلبت المعاني على اضدادها . وربما تصحب له الحرف بحرف آخر لعدم ضبطه فانعكس المعنى الى نقيض المراد به ، اوانه اعطى معنى آخر . وذلك لان الخط العربي شديد الاشتباه ، فلربما لم يكن بين معنيين متضادين غير النقطـة اوالحركة كقولك مكرم بكسر الراء اذا كان فاعلا ومكرم بفتح الراء اذا كان مفعولا . ورجل أفْرَع بالفاء اذا كان تام الشعر واقرع بالقاف لا شعر في رأسه .

وكقولك خبز وهو العيش فتأمل لو غيرنا النقاط المرسومة على هذه الحروف الثلاثـة التـي تتركب منها الكلمة لحصلنا على : " خبر ، حبر ، وحبر ، وخير ، وجبر ، وحيّز ، وغير ذلك من الكلمات الكثيرة التي يتوقف معناها على حركة او نقطة ، كما صحف ابن الصلاح في مقدمته احجم الرسول (ص) وهي احتجر (١) .

العلة الخامسة :

وهي اسقـاط شيء من الحديث لايتم الا به .

وقد وردت مثل هذا النوع اشياء كثيرة ، واحاديث لا مجال لذكرها كلها الان ، نذكر منها ما رواه قوم عن ابن مسعود انه سئل عن ليلة الجن ، فقال (٢) " ما شهدها منا احد " - وروى عنه من طريق آخر ، انه رأى قوما من الزط فقال : " هؤلاء اشبه من رأيت بالجن ليلة الجن " . فهـــذا الحديث يدل على انه شهدهـا . والحديث الاول يدل على انه لم يشهدها .

١- توجيه النظر ص ٣٤٠ ومقدمة ابن الصلاح ص ١١٤ .

٢- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٣١ . وتوجيه النظر ص ٣٤٠

فالحديثان كما ترى متناقضان . والذي اوجب التعارض ، ان الذي روى الحديث الاول اسقط منه كلمة رواها غيره — وانما الحديث — ما شهدها من احد غيره . فاسقاط (غيري) غيرت معنى الحديث واتهم الرجل بالكذب .

العلة السادسة :

وهي ان ينقل المحدث الحديث ويغفل عن نقل السبب الموجب له :

فاذا اغفل المحدث السبب الذي من اجله نقل الحديث فانما يحصل اشكال في الحديث او معارضة لحديث آخر . ولنا مثل على ذلك حديث مشهور عن الرسول (ص) عندما اتى العرنيين لما ارتدوا عن الاسلام ، فأمر بقطع ايديهم وسمل عيونهم وتركوا بالحرة حتى ماتوا . وقد وردت عنه روايات شتى ينهى عن المثلة .

وقد حصل هذا التعارض لان الذي روى الحديث الاول اغفل نقل سببه الذي اوجبه ، ورواه غيره فقال : " انما فعل بهم ذلك لانهم مثلوا برعائه فجازاهم بمثل فعلهم "(١) .

العلة السابعة :

وهي ان يسمع المحدث بعض الحديث ويفوته بعضه (٢) .

كنحو ما روي من ان عائشة ، اخبروها ان ابا هريرة حدث ان رسول الله (ص) قال : " ان يكن الشوم ففي ثلاث : — الدار — والمرأة — والفرس — " وهذا الحديث معارض لحديث آخر هو : " لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول " .

وقد روى عنه (ص) احاديث كثيرة نهى فيها عن التطير والتشاؤم ، لما وصلت هذه الاخبار الى عائشة قالت : " والله ما قال هذا رسول الله قط ، وانما قال : " اهل الجاهلية يقولون ان يكن الشوم ففي ثلاث : " الدار والمرأة والفرس " فدخل ابو هريرة فسمع الحديث ولم يسمع اوله — فذهب يحدث بما حدث فترك قسما مهما من الحديث ادى الى التناقض الذي حصل .

١— توجيه النظر ص ٣٤٢ .

٢— المصدر نفسه وتأويل مختلف الحديث ص ٣٢ .

ولا عجب ان يحصل مثل هذا في مجلس الرسول (ص) فالمألوف انه كان يحدث في مجلسه الاخبار حكاية ويتكلم بما لا يريد ان يجعله اصلا في دينه، وشيئا يستن بـه .

العلة الثامنـة :

وهي نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيخ (١) .

وهو باب يتسع للاخطاء الكثيرة، فكثير من الناس يتسامحون فيه جدا معتمدين على اجازة الشيخ لهم دون اذنه او لقائه . فيأخذون من الصحف المسودة والكتب التي لا يعلم بصحتها او سقمها . وقد تكون مخالفة لرواية شيخه، فيصحف الحروف ، ويبدل الالفـاظ ، ويجر بذلك الضرر ظالما على شيخه لا عليـه .

ونوجـز اخيرا :

ان الرواية بالمعنى على ما تجر من العلل، التي ذكرناها قد احس بضررها كثيـر من العلماء وشكوا منها على اختلاف علومهم، ان في علم الحديث او غيره ، وقد نسب لكثير من العلماء الاعلام اقوال عاريـة من الصحة ، اتخذها خصومهم ذريعة للطعن فيهم والازراء بهم، ثم تبين فيما بعد انما نشأت نسبتها اليهم من اقوال رواها الراوي عنهم بالمعنـى ، فقصـر في التعبيـر عما قالوه .

واني رأيت بعد اطلاعي على اكثر علماء الحديث ، ومحاذيرهم عن كل ما ذكرت ، ان اعظم المحاذيـر في التأليف النقلي ، اهمال نقل الالفـاظ باعيانها ، والاكتفاء بنقل المعاني مع جهل الناقل وقصوره عن استيفاء مراد المتكلم الاول بلفظه ، وربما كانت بقيـة الاسباب ناتجة بالاصل عن هذا السـبب .

ذلك ان القطع بحصول مراد المتكلم بكلامه، او الكاتب بكتابته، مع ثقة الراوي تتوقف على امور عدة هي : انتفاء الاضمار والتخصيص، والتقديم والتأخيـر، والتجوز والتقديـر ، والمعارض العقلي . وقد قال الحراني الحنبلي في هذا المجال ما معنـــاه :

١ـ توجيه النظر ص ٣٤٣ .

(فكل نقل لا يؤمن معه حصول بعض الاسباب ، لا نقطع بانتفائها نحن ولا الناقل ولا نظن عدمها ، ولا نجزم فيها بمراد المتكلم ، بل ربما ظنناه او توهمناه ، اما فيما لو نقل لفظه بعينه ، وتاريخه واسبابه ، انتفى هذا المحذور واكثره) (١) وهذا من حيث الاجمال .
ونورد بعض الكلمات القيمة لكبار علماء الحديث نذكر منهم ابا محمد علي بن حزم الاندلسي الظاهري .

قال ابن حزم : " وحكم الخبر عن النبي (ص) ان يورد بنص لفظه ، لا يبدل ولا يغير " الا في حال واحدة ، وهي ان يكون المرء قد تثبت فيه ، وعرف معناه يقيناً ، فيسأل فيفتي بمعناه وموجبه فيقول : حكم رسول الله بكذا واباح عليه السلام بكذا ونهى عن كذا وحرم كذا ، والواجب في هذه القضية ما صح عن النبي (ص) وهو كذا " (٢) .

وكذلك فيما جاء من الحكم في القرآن ولا فرق ، وجائز ان يخبر المرء بموجب الاية ، وبحكمها بغير لفظها ، وهذا ما لا خلاف فيه من احد في ان ذلك مباح ، واما من حدث واسند القول الى النبي (ص) وقصد التبليغ عن النبي (ص) فلا يحل له الا تحري الالفاظ كما سمعها لا يبدل حرفا مكان حرف وان كان معناهما واحدا ، ولا يقدم حرفا ولا يؤخر حرفا ، وكذلك من قصد تلاوة آيته او تعليمها فلا فرق . وبرهان ذلك ، ان النبي (ص) علم البراء بن عازب دعاء وفيه " ونبيك "الذي ارسلت ، فلما اراد البراء ان يعرض ذلك الدعاء على النبي قال : " وبرسولك الذي ارسلت ، فقال النبي : " لا " ونبيك الذي ارسلت فامره (ص) ان لا يضع لفظة "رسول " في موضع لفظة "نبي " وذلك حتى لا يحيل المعنى فكيف يسوغ للجهال المغفلين ان يقولوا انه (ص) كان يجيز ان يوضع في القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، او سميع عليم ، وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنا ، والله يقول مخبرا عن نبيه (ص) " ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي " وليس هناك من تبديل اكثر من وضع كلمة مكان اخرى (٣) .

---

١ — نجم الدين احمد بن حمدان الحراني الحنبلي في كتابه صفة المفتي آخر الكتاب .
٢ — الاحكام في اصول الاحكام ج ٢ ص ٨٦ و ٨٧ .
وللحراني تفصيل دقيق نافع يمكن الرجوع اليه في كتابه " صفة المفتي الفصل الاخير " وكذلك للعلامة الجزائري في كتابه "توجيه النظر ص ٣٤٠ وما بعدها) .

٣ — المصدر نفسه راجع ص ٩٤ من هذا الكتاب . يونس الاية ١٥

في اصلاح الخطأ وتقويم اللحن

قال الفقيه القاضي ابو الفضل عياض المؤلف : " حدثنا الفقيهان ابو محمد عبد الله بن ابي جعفر الخشني ، وعبد الرحمن ابن محمد بن عتاب - بقراءتي عليهما - قالا : اخبرنا ابو القاسم حاتم بن محمد قال : اخبرنا ابو الحسن القابسي الفقيه ، قال : سمعت ابا الحسن بن هشام المصري يقول : سئل ابو عبد الرحمن النسائي عن اللحن في الحديث فقال : "(ان كان شيئا تقوله العرب - وان كان في غير لغة قريش - فلا يغيّر (١) لان النبي (ص) كان يكلم الناس بلسانهم ، وان كان مالا يوجد في كلام العرب فرسول الله لايلحن .

كما روى عن الاصمعي قوله : " ان اخوف ما اخاف على طالب العلم اذا لم يعرف النحو ان يدخل في جملة قول النبي (ص) من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار " لانه لم يكن يلحن فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه (٢) .

اما الاوزاعي فكان يقول : " أعربوا الحديث ، فان القوم كانوا عربا " وعنه ايضا قوله : " لا بأس باصلاح اللحن في الحديث "(٣) .

واللحن في الحديث مرض اللغة ، اصاب العربية كما اصاب سواها . وهو يتفشى ويعم بالنسبة لظروف البلد وانفتاحه على الشعوب الاخرى . فاختلاط الاعاجم وغير العرب بالشعوب العربية اثر على لغتها في الاجيال اللاحقة ، فقد تزوج العرب من النساء الاعجميات . وكلنا يعلم ما للام من تأثير في تلقين اولادها من لغتها ولهجتها العربية غير السانية المشوبة باللحن .

علما بان هؤلاء الاولاد لايمكن فصلهم عن خؤولتهم واجدادهم لامهم ، فيصيبهم ما يصيبهم من اللحن في لغتهم والالتواء في السنتهم .

ولئن اغنى الاعاجم اللغة العربية التحريرية ، فقد افسدوا اللغة اللسانية بما ادخلوا من لحن . ومن نتيجة هذا اللحن كما نرى لغتين : " لغة الكتابة ، وهي لغة العرب الفصحاء ومن جرى مجراهم ، ولغة يسميها الجاحظ لغة المولدين ، يقول الجاحظ :

١- الالماع للقاضي عياض ص١٨٣ .

٢- المصدر نفسه ص١٨٤ . وقد اورده الصنعاني في توضيح الافكار ج ٢ ص٢٩٣ - ٢٩٤ . وعقب عليه بقوله : انما قال الاصمعي انصاف ولم يجزم لان من لم يعلم بالعربية وان لحن لم يكن متعمدا الكذب .

٣- المحدث الفاضل ص١٢٢ والكفاية ص١٩٥

" ومتى سمعت بنادرة من كلام الاعراب فاياك وان تحكيها الا مع اعرابها ، ومخارج الفاظها
" فانك ان غيرتها بان تلحن في اعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين خرجت من تلك
" الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح
" الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب ، او ان تتخير لها لفظا حسنا ، او ان
" تجعل لها من فيك مخرجا سريا " (١) .

ويقول لاهل المدينة التي يسكنها شعوب مختلفة الاجناس والالوان واللغات :
" ولاهل المدينة ألسنة ذلقة والفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم
" ينظر في النحو منهم غالب " المصدر نفسه .

ويقول ايضا : " واللحن من الجواري الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب
" الملاح ومن ذوات الخدور الغرائر ايسر ، وربما استملح الرجل ذلك منهم ما لم تكن الجارية
" صاحبة تكلف " (٢) .

وذكر ابن قتيبة : " ان اعرابيا دخل السوق ، فسمعهم يلحنون . فقال (سبحان
" الله : يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح (٣) وكان هذا اللحن انواعا :

فلحن في الاعراب ، ولحن في بناء الكلمة ، ولحن في تركيب الجمل . كالذي حكى
الجاحظ : " قلت لخادم لي : " في اي صناعة اسلم هذا الغلام ؟ قال : اصحاب
" سند نعال ، يريد في أصحاب النعال السندية " (٤) ".

واخيرا يلجأ رجل منهم الى اسكان آخر الكلمات كالضعاف في القراءة في عصرنا
الحاضر ، فيتركون الاعراب خوفا من اللحن ، وهروبا من الوقوع في الخطأ النحوي .

وكان هذا اللحن فاشيا ، حتى في العلماء فقد لحن ابو حنيفة (٥) ولحن عمرو بن
عبيد ، وبشر المريسي . وقد يجيد الرجل معرفة قواعد لغة وضبطها وفهمها ، ثم هو لا يحسن
التكلم بها ، وان اكثر علماء العرب هم من غير العرب .

---

١ - البيان والتبيين ١ - ١١١
٢ - المصدر نفسه ١ - ١٢٣
٣ - عيون الاخبار ٢ - ١٥٩
٤ - البيان والتبيين ١ - ١٢٢
٥ - المصدر نفسه ٢ - ١٠٦

نستنتج من هذا كله : ان فساد اللغة من الناحية اللسانية نتج عنه لغتان :
لغة عامية هي التي يسميها الجاحظ لغة المولدين ، ولها الفاظ غير منتقاة وتتسامح في الاعراب ، وتميل الى اسكان آخر الكلمات • ولغة الطبقة الراقية المتعلمة ، وهي لغة معربة متخيرة هي لغة الكتابة •

ومما يروى حادثة طريفة وقعت للرشيد من اللاحنين • ذكر الاغاني ان الرشيد كان يعجبه غناء الملاحين ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال : " قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقيل له ليس احد اقدر على هذا من ابي العتاهية فعمل قصيدته : "خانك الطرف الطموح " (١) •

بعد كل ما عرضنا عن اللحن ومساوئ اللحن في اللغة والاعراب والحديث نرى ان البعض من الناس اصحاب اللسان الصحيح قد يلحنون لكثرة ما يسمعون من اللحن •

اخبرنا القاضي عياض عن الحضرمي عن محمد بن العلاء عن عثام بن علي ، عن الاعمش عن عمارة ، عن ابي معمر ، قال :

" اني لاسمع الحديث لحنا ، فالحن كما سمعت " (٢) •

والذى استمر عليه عمل الاشياخ نقل الرواية كما وصلت اليهم وسمعوها ولا يغيرونها من كتبهم • لكن اهل المعرفة منهم نبهوا على خطئها عند السماع والقراءة •

ومنهم من كان يتخطى العقبات ويجسر على الاصلاح ، وكان اجرأهم على هذا من المتأخرين القاضي ابو الوليد هشام ابن احمد الكناني الوقشي (٣) فانه لكثرة مطالعته وتفننه كان في الادب واللغة واخبار الناس واسماء الرجال وانسابهم وفهمه الثاقب وذهنه الحاد جسر على الاصلاح كثيرا ، وربما نبه على وجه الصواب ، لكنه ربما وهم وغلط في اشياء من ذلك •

وان حماية باب الاصلاح واجب وضروري ، لئلا يجسر على ذلك من لا يحسن ، ويتسلط على هذا العلم من لا يعلم ، وطريق الاشياخ اسلم مع التبيين ، فيذكر اللفظ عند السماع ، كما وقع ، وينبه عليه ، ويذكر وجه صوابه فيقول : " وقع عند شيخنا او في

١ـ الاغاني ج ٣/ ١٧٧ البيان والتبيين ج ١/ ١٢٢ •
٢ـ الالماع للقاضي عياض ص ١٨٥ وقد ورد الخبر نفسه في الكفاية ص ١٨٦ وجامع بيان العلم ج ١ ص ٨١ •
٣ـ المصدر نفسه ص ١٨٦ •

روايتنا كذا ، او من طريق فلان كذا ، وهو اولى لئلا يقول عن احد من الناس ما لم يقل (١)

واحسن طريقة في الاصلاح ، على ما اعتقد ، ان ترد تلك اللفظة المغيرة صوابا في احاديث اخرى ، فان الذي ذكرها على الصواب في الحديث أمن ان ينقلها على حقيقتها كما هي . هنا لابد للمحقق الا ان تبدو له الحقيقة واضحة .

على خلاف ما لو اصلحها بناء لاعتقاده وعلمه ومقتضى آراء علماء عصره .

ولابدّ لنا من وقفة قصيرة هنا نلقي من خلالها نظرة على الواقع الذي نعيشه نحن اليوم ان كان في نقل الاخبار ، او سماعها ، او روايتها ، ثم تتبع الطرق في نشر الاخبار والاحاديث وما يرافقها من ملابسات ، نستطيع القول بعد عرض هذا الباب القصير ، ان نقول :

ان بيروت اليوم هي صورة مصغرة عن بغداد قديما ، ففيها الفئات المختلفة من الناس من كل مذهب ، ولغة وعرق ، ولون ، وما الى ذلك من فروق في الثقافة والعلم ، والثقة والامانة ، والتخصص والاتقان ، والاطلاع الدقيق على الماضي الذي ما يزال يتصل في بعض اطرافه بالحاضر ، الى ما هنالك من فروق وابعاد وتمايز . بعد هذا هل يصح ان نأخذ الحديث عن اىّ كان ؟ وهل يصح ان نروى كل ما نسمع ؟ وهل يمكن ان نعطي لأىّ كان عاقلا كان ام جاهلا ؟ او اننا نعمل بوصية رسول الله (ص) في عيسى (ص) قال :

" ان عيسى عليه السلام قام في بني اسرائيل فقال : يا بني اسرائيل لا تتكلموا " بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تضعوها عند غير اهلها لتكتموها " (٢)

وما احوجنا نحن اليوم للسير على ما رسم سيدنا عيسى ، والعمل بما قال من حكم صائبة .

١ـ الالماع للقاضي عياض ص ١٨٧ .
٢ـ المصدر نفسه ص ٢٣٣ .

اسباب الاختلاف في رواية الحديث

لمحة تاريخية :

كانت سنة اربعين من الهجرة هي الحد الفاصل بين السنة الصافية لخالصة من كل زيادة او كدر ، وبين التزيد فيها واتخاذها وسيلة لخدمة الاغراض السياسية والانقسامات الداخلية في الاسلام ٠

لم يرض معاوية بالحكم شورى كما قال الرسول (ص) لان حبه للدنيا دفعه الى اعتماد الحكم بالوراثة على سنة الملوك والحكام الدنيويين ٠ وعلي الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين الذي تَسَلَّم الخلافة عن طريق الشورى والمبايعة ، رفض الانحراف عن مبادئ الاسلام الصحيحة ، ودارت المعارك بين خليفة المسلمين والوالي على الشام وسالت اثره دماء وازهقت ارواح ، وانقسم المسلمون الى طوائف متعددة : فالجمهور مع علي في خلافه مع معاوية ، والخوارج ينقمون على علي ومعاوية معا ، بعد ان كانوا من شيعة علي المتحمسين له ، وآل البيت وفريق منهم اخذوا بعد قتل علي وخلافة معاوية يطالبون بحقهم في الخلافة ويشقون عصا الطاعة على الدولة الاموية ، وهكذا كانت السياسة سببا في انقسام المسلمين الى شيع واحزاب ٠ وما دخلت السياسة شيئا الا افسدته ٠

ومن المؤسف ان هذا الانقسام كان له اكبر الاثر في قيام المذاهب الدينية في الاسلام ، فلقد حاول كل حزب من تلك الاحزاب ، ان يؤيد موقفه بالقرآن والسنة ، ومن الطبيعي ان يقوم عدة مناوئين يجحدون وينكرون ٠ يدحضون

فحمل بعض الاحزاب على ان يتأولوا نصوص السنة مالا تتحمله ، لدعم افكارهم ، وان يضع بعضهم على لسان الرسول (ص) احاديث تؤيد دعواهم ، بعد ان عزّ عليهم مثل ذلك في القرآن الكريم كما فعل معاوية بن ابي سفيان (١) ...

من هنا كان اختلاف الاحاديث ، وبدأ الوضع فيها ، ومن هنا كان الاختلاف في الاحاديث واختراع العلل المختلفة ٠

(ولنا شواهد على تلك الخلافات الحزبية والمذهبية في مراجع عدّة نذكر منها : (تدريب الراوي والباعث الحثيث والجرح والتعديل)

---

(١) تاريخ الاسلام ا ص ٢٦٨ — فجر الاسلام ص ٢٥٦

بعد ان انتشر الصحابة في الارض الواسعة ينشرون تعاليمهم بين الناس، ويعملون على تركيز الحكم في البلاط ، لابدّ لهم من مشاكل عديدة تعترضهم اثناء الحكم من قضايـــا اجتماعية وشرعية واخلاقية • ولاشك ان مرجعهم الاوحد هو كتاب الله (القرآن) واذا لم يجدوا ما ارادوا في القرآن عملوا بسنة رسوله محمد (ص) واذا لم يجدوا احكامهم في السنة،فليس لهم الا الاجماع والشورى بين المسلمين، او القياس على سنن الماضين الصالحين قبلهم (١) (انظر صحيح البخاري ج ٣ ص ٧٢) •

ومن المعلوم ان اعتبار القياس والاجماع من ادلة الاحكام، ينتج عنه اختلاف لا نهاية له بين المفتين وعلماء المذاهب والمجتهدين فيما صدر عنهم من احكام وآراء ،ولا سيما بان الاجماع لا يمنع من الخلاف في المسألة الواحدة ، بل من الاجماع المعارض من جهة اخرى وذلك على ضوء مفهوم الاجماع المختلف على تعريفه عند اهل السنة وعند الشيعة (٢) •

الذي لا دليل على حجيته من كتاب أو سنة أو عقل

اذن الاختلاف في الحديث وبالتالي في الاحكام امر لابدّ منه، لاعتمادهم القياس الذي قد يؤدي في بعض الاحيان الى تحريم الحلال وتحليل الحرام • وهذه نتيجة طبيعية متى لاحظنا ان القياس هو تعدية حكم منصوص عليه، الى مورد لا نص فيه، لمجرد انهما اشتركا في العلة، وذلك يقتضي ان الشارع قد ساوى في الاحكام بين الامور المتماثلة (٣) (انظر المستصفى ج ٢ ص ٥٦) • ولكن هل استطاع الحكام ان يحسنوا المساواة والمماثلة الصحيحة في جميع احكامهم وشرائعهم ؟ لا اظن ذلك قد حصل •

وكذلك الحال بالنسبة للاجماع : الذى اعتبروه دليلا بمجرد اتفاق جماعة على رأى معين (٤) (راجع العدة للشيخ الطوسي ص ٢٣٢) • ولكن من هم هؤلاء الجماعة ؟ وهل يمثلون فعلا وقولا الامة اصدق تمثيل؟ وهل هم من خيرة واعلم واخلص افراد امتهم ؟ •

كل ذلك قد سبب الفوضى ، ان كان في عصر الصحابة ، او في العصور التي تلت • واصبح كل يفتي برأيه ويروى ما طاب له وحفظ من احاديث لتأييد رأيه ، او ارضاء لسادة الحكام ، كما يأتي بيان هذا في الحديث اللاحق عن اسباب الوضع في الحديث •

---

(١) صحيح البخاري ج ٣ ص ٧٢

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٦

(٣) المستصفى ج ٢ ص ٥٦

(٤) راجع العدة للشيخ الطوسي ص ٢٣٢

ولنا في ابن حزم الاندلسي خير دليل على ما نقول ، قال :

" وقد علم كل احد ان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا حوالي رسول الله (ص)
" بالمدينة مجتمعين، وكانوا ذوي معايش يطلبونها ، وفي ضنك من القوت
" شديد ، فكانوا من متحرف في الاسواق، ومن قائم على نخلة، ويحضر رسول
" الله (ص) في كل وقت منهم الطائفة اذا وجدوا ادنى فراغ مما هم بسبيله
" وقد ذكر ذلك ابو هريرة فقال : " ان اخواني من المهاجرين ، كان يشغلهم
" القيام على نخلهم ، وكنت امرأ مسكينا اصحب رسول الله على ملء بطني .
" وقد ذكر ذلك عمر فقال : الهاني الصفق في الاسواق " (١) .

فلما مات النبي (ص) وولي ابو بكر الصديق رضي الله عنه، حينئذ تفرق الصحابة للجهاد ، الى مسيلمة والى اهل الردة، والى الشام والعراق ، وبقي بعضهم بالمدينة مع ابي بكر . فكان اذا جاءت القضية ليس عنده فيها عن النبي امر، سأل من بحضرته من الصحابة عن ذلك ، فان وجد عندهم رجع اليه، والا اجتهد في الحكم ليس عليه غير ذلك .

وكذلك الامر كان في عهد عمر ابن الخطاب ، زاد تفرق الصحابة في الاقطار واختلفت احكامهم ، فقد يجتهد امير مدينة في قضية يجدها في سنة الرسول، وقد تجد عند قاض آخر حكما مخالفا في نفس القضية . وعلل ابن حزم هذا الخلاف فقال :

" وقد حضر المديني ما لم يحضر المصري، وحضر المصري ما لم يحضر
" الشامي ، وحضر الشامي ما لم يحضر البصري، وحضر البصري ما لم يحضر
" الكوفي ، وحضر الكوفي ما لم يحضر المدني " (٢) .

ومن اسباب اخرى في الاختلاف في الحديث

انهم كانوا يتركون بياضا او فراغا لاضافة تاريخ معين فيما بعد (٣) ويحسن

١ـ الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ج ٢ ص ٢٣٢ . والمحدث الفاضل ص ٣٢ ـ ٣٣ والجامع لاخلاق الراوي ص ١٢
٢ـ المصدر نفسه .
٣ـ ابن خلكان ج ٣ ص ٧٤ .

بنا ان نشير هنا الى عبارة لابن حجر العسقلاني تتعلق باختلاف القراءات في صحيح البخاري، التي نتج عنها دون شك اختلاف في متن الاحاديث وفي اسانيدها فقد رأى هذا العالم في النسخة الاصلية انها كانت ناقصة في بعض الصفحات ، وان بعضها كان بياضا • وفيها عناوين فصول ولكن لم يكن هنالك حديث او احاديث تتعلق بهذه العناوين • وعلى عكس هذا وجد احاديث في فصول غير معنونة (١) •

ان هذه الحالة التي كانت عليها نسخ صحيح البخاري، والتي دامت بعض الزمن عرضة للوضع فيها من يريد كل ما يشاء ، كانت سببا في اختلاف النسخ فيما بعد • ويرى ابن حجر انه من المستحسن ترك فراغ اذا كان من العسير ايجاد عنوان يدل دلالة دقيقة على الاحاديث التي يتضمنها ذلك الفصل (٢) •

ومن اسباب الاختلاف ايضا واضطراب النص ، موت المؤلف قبل انهاء تأليف الكتاب • ولو ان المؤلف او عالما آخر حاول ان يعيد النظر في مصنف ما ، ويعيد كتابته لخلف للاجيال التالية احاجي لغوية ، يصعب حل رموزها • وهاهو تاريخ الطبري فان المأثور عنه انه ينتهي بانتهاء عام ٣٠٢ هـ ، ولكن ابن الاثير كان يعرف نسخة خطية لهذا التاريخ تحتوي على احداث سنة ٣٠٣ هـ (٣) •

تنازع الحديث :

كثرت الاحاديث النبوية التي كان الناس يتناقلونها في مديح النبي/للصحابة ، وخاصة في عهد علي بن ابي طالب حتى انها احدثت مشكلة بين المسلمين •

كان النبي اذا مدح احدا من اصحابه بحديث اصبح ذاك الحديث عندهم بمثابة وسام شرف ، يحمله صاحبه ويفتخر به •

اما في عهد الرسول (ص) فلم تكن تلك الاوسمة وتلك الرتب ، يكافأ بها اصحاب الخدمات العالية ، واذا اراد مدح احد منهم فبكلمة قصيرة تدرج على الالسن ، وتصبح بمثابة وسام يفتخر به صاحبه ويتباهى على اقرانه •

١ـ ابن حجر : فتح الباري ـ القسطلاني ج ١ ص ٢٣ وما يليها •

٢ـ المصدر نفسه •

٣ـ " " •

ولا شك ان عددا كبيرا من اصحابه قام باعمال خيرة ونضال مريــره وابلوا بلاء حسنا ، نكرمهم النبي (ص) ومنحهم اوسمة لهم ولاولادهم .

هذا في حياة الرسول (ص) اما بعد موته فقد ذهب هؤلاء الى جمع تلك الالقاب والاوسمة يقدسونها ، وعلى مرور الايام ، والانسان يرغب من طبعه في الزيادة والمفاخرة ، ارتفعت قيمة تلك الاحاديث وصارت في نظر المسلمين بمثابة احكام مطلقة ، لا يأتيها الباطل لا من خلفها ولا من امامها .

ولا اظن ان غاية النبي من ذلك لم تكن سوى التشجيع والمكافأة ، ولكن اصحابهــا بل عموم المسلمين اغفلوا النظر في تلك الظروف ، التي دعت الى صدور تلك الاحاديث ، واعتبروها تنبوءات عن المستقبل . كيف لا وهو لا ينطق عن الهوى ؟ (النجم الآية ٣) .

وكان هذا الذى فرق بين صحابة النبي ، فقد اختلفوا فيما بينهم ، وأخذ كل واحــد منهم يدّعي انه وحده المصيبُ من بين بقية الصحابة ، معتمداً على "اوسمته "النبوية . وقد حار المسلمون في امر كبار الصحابة (اصحاب الاوسمة) يتنازعون ويتحاربون ويؤلفون الاحــزاب المتناحرة ، فذهلوا من اخطائهم تلك الكبيرة وتساءلوا : ترى كيف يتنازع اصحاب "محمــد " وهم على حد قولهم : كالنجوم في السماء لا فرق بينهم وهم اصحاب الهدى والورع والرشاد " ؟ (راجع باب الوضع في الحديث من هذا الكتاب) .

هذا ما اوصاهم به الرسول ؟ وكيف قدموا ارواحهم رخيصــة ، وبذلوا ما بذلوا في سبيل الدعوة الاسلامية والدين الجديــد ، ويقومون بالحرب والتناحر والبغضاء ؟ ! .

ولنا دليل على صحة ما نقول ، الواقعة الشنعاء التي حدثت في البصرة بين اصحاب عائشــة ام المؤمنين وزوج الرسول ، واصحاب علي صهره وحبيبه وابن عمه ، ولديه اكبر وسام شرف في التضحية والنضال في سبيل نصرة الدين واعلاء كلمة الله . فقد كان علي وعمــار والحســن والحسين في جانب ، وكانت عائشــة وطلحة والزبيــر في الجانب الاخر .

ولا يخفى ما كان يؤدى اليه هذا الوضع الدقيق من صراع نفسي كبيــره وتســاؤلات

./.

تساور خيالهم ، ففي كل جانب من الطرفين افراد يحملون وسمة رفيعة مطرزة فعائشة ام المؤمنين وقد خصها الرسول بحب جم وآثرها على سائر ازواجه حسبما يقولون ، ومعها طلحة الذى يقال ان النبي سماه : " طلحة الخير " والزبير الذى بشّرَ النبيُ قاتِلَهُ بالنار .

ونجد في الجانب المضاد عليا ، وهو يحمل اكبر عدد من الاوسمة واعلاها ومعه عمار " تقتله الفئة الباغية " ومعه الحسن والحسين اللذان قال عنهما جدهما النبي " سيدا شباب اهل الجنة " .

انها اذن مشكلة عويصة .

جاء رجل الى عليّ اثناء موقعة الجمل وهو يعاني من هذه المشكلة عناء مرا ، قال الرجل : " ايمكن ان يجتمع طلحة والزبير وعائشة على باطل ؟

قال علي وهو لا يبالي باحاديث النبي بقدرما يبالي بالهدف الاجتماعي الذى كان النبي يسعى نحوه .

قال علي : " انك لملبوس عليك . . إنَّ الحقَ والباطلَ لَيُعْرفان باقدار الرجالِ ، اعرف الحقَ تعرفْ اهلَه ، واعرف الباطل تعرفْ أَهْلَه " (١)

فالمسألة في نظر علي هي مسألة نزاع بين الحق والباطل - لا مسألة نزاع بين الاحاديث ولا مسألة الحصول على الجاه والمنصب . فكل مساعي علي كانت في سبيل الله ، لانه يريد ان يقيم الشرعية الاسلامية الصحيحة كما ارادها الرسول الكريم (ص) .

يقول الدكتور طه حسين : في تعليقه على هذا الجواب :

" وما اعرف جوابا اروع من هذا الجواب الذى لا يعصم من الخطأ احدا
" مهما تكن منزلته ، ولا يحتكر الحق لاحد مهما تكن مكانته بعد ان
" سكت الوحي وانقطع خبر السماء " (٢) .

١- طه حسين الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٤٣ .
٢- المصدر نفسه .

والمشكلة في هذا ان عامة الناس لايستطيعون التمييزبوضوح بين الحق والباطل حين يلتبس عليهم الامر. كل فريق يدّعي انه مع الحق ويأتي بالادلة النقلية او العقلية لتأييد رأيه .

ان الناس في الغالب يتحيزون في رؤية الحق والباطل من حيث لايشعرون ، فكل انسان على عقله اطار يحد من تفكيره، وهو لا يستطيع ان يرى شيئا الا اذا كان ذلك الشيء واقعاً في مجال اطاره .

وهذه سُنَّةُ الدنيا حتى يومنا هذا، اذ نرى الناس يتعامون عن الحق ، وينظرون اليه بمنظارهم هم، ولو خالفوا بذلك انظار الناس اجمعين .

كل هذا موجود في الاثار وفي ضرورة العلم بما قدمنا من مغيب بعضهم عن مجلس النبي (ص) في بعض الاوقات وحضور غيره، ثم مغيب الذى حضر امس ، وحضور الذى غاب فيدرى كل واحد منهم ما حضر ، ويفوته ما غاب عنه . هذا معلوم ببديهة العقل (١) .

هذا في عصر الصحابة عصر الهداية والرشد والنور عصر القرب من الرسول (ص) عصر التسامح والمشاورة في اكثر القضايا والامور، عصر التقى والورع والخشوع ،

فكيف بالعصور التي تلت حيث طغت السياسة على جميع امور الحياة ؟

ونخص بالذكر العصر الاموى ويليه العصر العباسي .

وبعد هذا لا نرى مانعا من ذكر طبقات الرواة اذا صح التعبير ؟

وتعرف كل طبقة منها وما قامت به من دور مهم في نقل الحديث وضبطه واتقانه قدر المستطاع، فنذكر اولا :

١- الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ج ١ ص ٢٣٩ وانظر ايضا صحيح البخارى ج ٤ ص ٥٢ .

× ×
×

الفصل السابع: طبقات الرواة

الصحابة :

الصحابي لغة (مشتق من الصحبة ، وليس مشتقا من قدر خاص منها ، بل هو جار على كل من صحب غيره قليلا كان او كثيرا ، كما ان القول : مُكَلِّمٌ من المكالمة ومُخَاطِبٌ من المخاطبة وضارب من الضرب ، وكذلك جميع الاسماء المشتقة من الافعال) . (١)

والصحابي عند المحدثين : هو كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ ابن كثير في الباعث الحثيث : " والصحابي : من رأى الرسول (ص) في حال اسلام الراوي وان لم تطل صحبته ، وان لم يرو عنه شيئا " هذا قول جمهور العلماء ، خلفا وسلفا . (٢) .

وقال الامام احمد : كل من صحبه سنة او شهرا او يوما او ساعة او رآه فهو من اصحابه ، له من الصحبة على قدر ما صحبه وكانت سابقته معه ، وسمع منه ونظر اليه " . (٣)

وقالوا ان مجرد الرؤية كاف في اطلاق الصحبة . وقد صنف كثير من العلماء في الصحابة كابن الاثير في كتابه أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة (٤) والبخاري صاحب الصحيح ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي جمع تراجم الصحابة ومن بعدهم الى عصره ، وهو اقدم من البخاري ، وآخر الصحابة موتا انس بن مالك على حد قول ابن كثير في الباعث الحثيث .

وقال آخرون : (لابد من اطلاق الصحبة مع الرؤية ، ان يروى حديثا او حديثين (٥)

وعن سعيد بن المسيب : (لابد من ان يصحبه سنة او سنتين ، او يغزو معه غزوة او غزوتين . وسنعود الى تفصيل واف عن الصحابة ، لنعرف من هم الصحابة ؟ وهل كلهم طبقة واحدة ؟

---

١ ـ : لسان العرب ج ٢ ص ٧ ... ١٣١١ ... بمصر
٢ ـ انظر الباعث الحثيث ص ٢٠١ ومقدمة ابن الصلاح ص ١١٨
٣ ـ الكفاية ص ٥١
٤ ـ اسد الغابة في معرفة الصحابة ، كما هو مذكور على طرة الكتاب المطبوع بمصر
٥ ـ الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٨٠

وهم كلهم عدول ؟ وما هي شروط العدالة ؟ الى ما هنالك من اسئلة نقف عندها ان شاء الله . (١)

(والصحابة كلهم عدول عند اهل السنة والجماعة (. (٢)

وللنظر الى قول ابن حجر لنتلمس ماذا اضاف الى ما ذكرنا .

قال ابن حجر (اصح ما وقفت عليه من ذلك ان الصحابي : من لقي النبي (ص) مؤمنا به، ومات على الاسلام ، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته او قصرت ، ومن روى عنه او لم يرو ، ومن غزا معه او لم يغز ، ومن رآه رؤية ولم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى) . (٣)

والرؤية عند أنس بن مالك (رضي) لاتكفي لجعل الرائي صحابيا . (٤)

والصحابي عند الاصوليين : " هو كل من طالت مجالسته للرسول (ص) على طريق التبع له والاخذ عنه " وقول أنس وسعيد بن المسيب قريب من الاصوليين . (٥)

١ـ قواعد التحديث ص ٩٦
٢ـ الباعث الحثيث ص ١٨٠ وتدريب الراوي ص ٣٩٨
٣ـ الاصابة ج ١ ص ٤
٤ـ الباعث الحثيث ص ٢٠٣
٥ـ تدريب الراوي ص ٣٩٧

التابعـــون :

نقل لنا ابن كثير عن الخطيب البغدادي : " ان التابعي من صحب الصحابي (١) ومنهم من قال : " من لقي صحابيا مؤمنا بالنبي ومات على الايمان (٢) .

اما الخطيب البغدادي يشترط صحبة الصحابي ، لا مجرد اللقاء فقط .

وقد شهد القرآن الكريم بفضل هذه الطبقــة ، فقال الله تعالى : " والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه " (التوبة ١٠٠) .
وقال عليه السلام في حديث كرر مرارا : (خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم) " (معرفة علوم الحديث ص ٤١)
وآخر التابعين من بقي آخر الصحابة موتا ، وآخرهم من لقي ابا طفيل بمكــة ، والسائب بالمدينة ، وابا امامة بالشام ، وعبيد الله بن ابي اوفى بالكوفة ، وانس بن مالك بالبصرة " (اختصار علوم الحديث ص ٢٣٠) .

ويعتبر خلف بن خليفة المتوفي سنة ١٨١ هـ آخر التابعين موتا ، لانه لقي بمكة آخــر الصحابة موتا ابا طفيل عامر بن واثلــة . وانس بن مالك بالبصرة (انظر اختصار علوم الحديث ص ٢٣٠) . ومن هنا قيل : ان عصر التابعين انقضى سنة ~~١٨١~~ ٢٢٠ هـ (٣) وقد لحق بهذه الطبقة طبقة اخرى سميّت بتابعي التابعيــن .

اتباع التابعيــن :

(تابع التابعي هو الذي لقي مؤمنا بالنبي (ص) ومات على الاسلام) (٤) وكان من بين افراد هذه الطبقة الامام مالك بن انس والامام الشافعي وسوف نأتي على ذكر كل منهما فيما بعد . واما الامام احمد بن حنبــل فالظاهــر انه لم يكتب لــه الحــظ ليكون من التابعيــن

١ـ الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٩١ وتدريب الراوي ص ٤١٦ .

٢ـ علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح ص ٣٥٧ قارن باختصار علوم الحديث ص ٢٣٢ .

٣ـ علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح ص ٣٥٧ قارن باختصار علوم الحديث ص ٢٣٢ .

٤ـ المصدر نفسه ص ٣٥٨ والمختصر في علم رجال الاثر ص ٤٤ لعبد الوهاب عبد اللطيف .

لان وفاته كانت سنة ٢٤١ هـ وعهد التابعين ينتهي سنة ٢٢٠ هـ فيكون اذن من اتباع اتباع التابعين ٠ (١)

وهناك من اسلم في حياة الرسول (ص) ولم يروه، فكأنهم قطعوا عن نظرائهم من الصحابة وهؤلاء اشبه بالمخضرمين ٠ وقد ورد ذكر لهم عند مسلم في صحيحه ٠ ولا ننسى ان النساء قد شاركن في الحديث نذكر منهم في طبقة التابعين السيدة : حفصة بنت سيرين ، وعمرة بنت عبد الرحمن (٢) ٠

وان اطلق اصحاب الحديث اسم الصحبة على كل من رأى وروى عن النبي كلمة او حديثا، الا ان الصحابة هم طبقات ودرجات،

فهناك السابقون في الاسلام الذين طالت صحبتهم ، وبذلوا اموالهم ودماءهم للدعوة الاسلامية ٠

وهناك من رآه في حجة الوداع رؤية عابرة ٠

وبين هؤلاء وهؤلاء درجات ومراتب بعيدة

وهناك من لازمه في الليل والنهار، في حله وترحاله، في صيامه وفطره، في عبثه وجده ، في جهاده ومناسكه ٠

وهؤلاء عرفوا عنه كثيرا من دقائق الاعمال وشريف السنن ، فلا يعقل ان يكون جميع الصحابة في مرتبة واحدة ،

ولا يمكننا ان نتصور هذا في ميزان العدالة والمنطق ٠

لذلك كان الصحابة، شأنهم شأن بقية الناس، طبقات ودرجات متفاوتة ٠ فجعلهم ابن سعد خمس طبقات ، وجعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقة ٠ وجعلهم الدكتور صبحي الصالح كلهم عدول ! (٣)

١ـ علوم الحديث ومصطلحه ص ٣٩٨ ـ معرفة علوم الحديث ص ٤٦

٢ـ الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٩٤ (ومعرفة علوم الحديث ص ٤٥) ٠

٣ـ الباعث الحثيث ص ٢٠٧ وتدريب الراوي ص ٤٠٧ وعلوم الحديث لصبحي الصالح ص ٣٥٣

ومما يظهر ان الاختلاف في تقسيم الصحابة طبقاً، واضح ، فجعلهم البعض خمس طبقات ، وعليه عمل ابن سعد في كتابه • وجعلها الحاكم اثنتي عشرة طبقة وزاد بعضهم اكثر من ذلك • والمشهور ما ذهب اليه الحاكم ، وهذه الطبقات هي :

١ – قوم تقدم اسلامهم بمكة، كالخلفاء الاربعة •

٢– الصحابة الذين اسلموا قبل تشاور اهل مكة في دار الندوة ،

٣– مهاجرة الحبشة •

٤– اصحاب العقبة الاولى •

٥– اصحاب العقبة الثانية • واكثرهم من الانصار •

٦– اول المهاجرين الذين وصلوا الى النبي (ص) بقباء قبل ان يدخل المدينة •

٧– اهل بدر •

٨– الذين هاجروا بين بدر والحديبية •

٩ – اهل بيعة الرضوان •

١٠– من هاجر بين الحديبية وفتح مكة • كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص •

١١ – مسلمة الفتح ، الذين اسلموا في فتح مكة •

١٢– صبيان واطفال رأوا النبي (ص) يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرهما (١) •

اما عدد الصحابة فهو امر عسير يصعب ضبطه •

قال الشافعي : (روى عن رسول الله (ص) ورآه من المسلمين نحو من ستين الفا •

وقيل شهد حجة الوداع اربعون الفا ، وكان معه بتبوك سبعون الفا ، وقبض عليه السلام عن مائة الف واربعة عشر الفا من الصحابة (٢) •

١– الباعث الحثيث لابن كثير ص ١٨٤ ومعرفة علوم الحديث ص ٢٢ – ٢٤ •
٢– المصدر نفسه ص ١٨٥ •

هذا ما قيل في الصحابة ، وهذه هي طبقاتهم التي اصطلحوا على تسميتها ، وبعد هذا العرض نستطيع القول ان الصحابي هو صحابي بالقول والفعل ، فهو الذى صاحب النبي وناصره وآزره ، وعمل بسنته دون زيادة او نقصان ، وليس المقصود بالرؤية مجرد الرؤية بالنظر ، دون العمل بمضمون الرسالة الحقة .

اما من تقاعس عن مناصرة الرسول (ص) وتأخر عن مؤازرته في الشدائد والمحن ولم يعمل بسنته الحكيمة تماما ، ومن كان معتوها او فاسدا او صغيرا ، هؤلاء كلهم ليسوا بصحابة . واذا كانوا قد عدوا من الصحابة فهم يحملون اللقب وحده لاغير .

النبي الكريم لم يفرق بين الناس جميعا الا بمقدار ايمانهم بالدين ، وعملهم على نشر الدعوة التي جاهد وناضل طوال حياته في سبيلها . وله اقوال مأثورة في هذا المجال لا تعد ولا تحصى نذكر منها (انا جد كل تقي ولو كان عبدا حبشيا) .

(الخلق عيال الله واقربهم اليه انفعهم لعياله) (١)

والصحابة كلهم خلق الله واقربهم اليه انفعهم لعياله ، واخلصهم على نشر دعوة رسوله ، والعمل بسنته قولا وفعلا .

وما قيل في الصحابة أنهم جميعهم عدول هذا لايقبل به العقل ، ولا يقره المنطق ، ولا يسمح به التاريخ . واذا اختلف الرواة في تعريفهم وتصنيفهم وتقييمهم فلكلّ رأيه ، وكل انسان ينظر الى الحق بمنظاره هو الخاص ، ويقيس العدل بمقاييس قد تختلف عن مقاييس الاخرين .

وليس هذا بالشيء العجيب ، فهذا ما نراه نحن اليوم ، وهذا ما نعيشه ونحسه ، فالانسان كان وما يزال يقيم الامور بالنسبة لاستفادته منها ، وينظر الى الخير والشر ، ثم يقسم الناس فئتين خيرين وشريرين .

فمن هم هؤلاء البشر من الصحابة الى عصرنا الحاضر ؟ وكيف نستطيع ان نحلل اسلوبهم في تقييم الناس الخيرين منهم والاشرار ؟ وهم قد اعتادوا على نسبة كل مثالب

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٢١٤

الدنيا الى صنف الاشرار ، وكل فضائلها الى صنف الاخيار، وهذا التصنيف الثنائي هو تصنيف غير واقعي ، فالانسان في الواقع مزيج من الخير والشر، اذ لا يسلم اى انسان من افعال صالحة وافعال طالحة .

والفرق بين الناس في هذا هو فرق نسبي ، او بصورة اوضح هو فرق بالدرجة لا بالنوع . ولا ارى انسانا يخلص طوال حياته من عيب ، الا اذا كان ملاكا ، واظن ان من يجعل بعض بني آدم من نوع الملائكة انما هو خادع اومخدوع .

ماهو مذهب الصحابي ؟

يريدون بمذهب الصحابي : القول او السلوك الذى يصدر عنه الصحابي ويتعبد به من دون ان يعرف له مستند .

وقد اختلفوا في حجية هذا المذهب كما مرّ معنا . فذهب قوم "الى ان مذهب الصحابي حجة مطلقة، وذهب آخرون الى انه حجة وان خالف القياس، وقال قوم ان الحجة في قول ابي بكر وعمر خاصة معتمدين على قوله : " اقتدوا بالذين من بعدى ".

وذهب قوم : " الى ان الحجة في قول الخلفاء الراشدين اذا اتفقوا " (١) .

وفي رأي الامام الغزالي ان جميع هذه الاقوال باطلة (٢) .

ونحن مع الغزالي ، لان هذه الاقوال في تقديس جميع الصحابة تعارض قول القرآن الكريم : " ومِنَ الأعْرابِ منافقون ومن اهلِ المدينةِ مَرَدُوا على النفاقِ لاتَعْلَمُهم نحن نَعْلَمُهم " (التوبة . الآية ١٠١) .

ماهو دليل الغزالي في مذهب الصحابة ؟

يقول : " ان من يجوز عليه الغلط والسهو ولم تثبت عصمة عنه فلا حجة في قوله ،

١ـ المستصفى للغزالي ج ١ ص ١٣٥ .
٢ـ المصدر نفسه .

" فكيف يحتج بقولهم مع جواز الخطأ ، وكيف تدعى عصمتهم من غير حجة متواترة ، وكيف
" يتصور عصمة قوم يجوز عليهم الاختلاف ؟ وكيف يختلف المعصومان ؟ كيف وقد اتفقت
" الصحابة على مخالفة رأى الصحابة ؟ فلم ينكر ابو بكر وعمر على من خالفهما بالاجتهاد ،
" بل اوجبوا في مسائل الاجتهاد على كل مجتهد ان يتبع اجتهاد نفسه (١) ".

فانتفاء الادلة على العصمة - ووقوع الاختلاف بينهم - وتصريحهم بجواز مخالفتهم فيه - ثلاثة ادلة قاطعة (٢) .

ولكن الذي يجب ان يقال : ان القائلين بمذهب الصحابي لا يريدون اثبات العصمة له والا لاعتبروه سنّة .

وبما عكس وجهة نظرهم من قال : " انه اذا قال الصحابي قولا يخالف القياس فلا محمل له الا السماع خبر فيه (٣) يريدون بقولهم هذا ان الصحابة لا يقدمون على المخالفة الصريحة، فلا بدّ وان يكون هناك مستند لهذا العمل ، فالمسألة هي في حدود التماس المبرّرات الشرعية لتصرفات بعضهم :

وقول الغزالي في هذه النقطة واضح جدا : " فقوله عن الصحابي اذا لم يأت بنص صريح في سماع الخبر ، بل ربما قاله عن دليل ضعيف ظنه دليلا واخطأ فيه . والخطأ جائز عليه ، وربما يتمسك الصحابي بدليل ضعيف وظاهر موهوم ، ولو قاله عن نص قاطع لصرح به (٤)" ثم يزيد قوله : " اما وجوب اتباعه ولم يصرح بنقل خبر فلا وجه له (٥) ".

١- المستصفى للغزالي ج ١ ص ١٣٥ .
٢- المصدر نفسه .
٣- ٤ - ٥ - المصدر نفسه ص ١٣٥ و ١٣٦ .

وقد ناقش الغزالي كل ما يتصل بمثل هذه الاحاديث ، مناقشات لايخلو اكثرهـا من أصالـة .

وان مصدر صحة الحديث وتقويمه والوقوف على ضبطـه وتقييده ، له اصـول وشرائط فان توفرت في الصحابي تعين الاخذ به والرجوع اليـه ، وحسابهم نفس حساب الذى لم تتوفر فيه شرائط المحدث العادل الضابط الثقـة ، اما الصحبة فلا علاقـة لها بعوالم جعل الحجية لاقوالهم ومذهبهم اصلا .

اما المعتزلـة ، فقد وضعوا لانفسهم مبدأ هاما جدا وهو ان الصحابة ليسـوا معصومين ، وان الخطأ يجوز عليهم سواء في ذلك كبيرهم وصغيرهم . وقد استدل المعتزلة على ذلك بما كان من نقد الصحابة بعضهم لبعض . حتى توصلوا في حريتهم تلك الى نقد ابي بكر وعمر وعثمان وعلي (١) .

- مقياس الخيـر والشـر -

الخير والشر امران اعتباريان . وكل انسان ينظر فيهما بمنظاره الخاص ويقيسهمـا حسب المقاييس التي نشأ عليها وعرفها . والملاحظ بعد هذا ان كل انسان يدعي انـه اقرب الى الحق والخير من غيره . وكل فريق يدعي ان هذا الحق والخيـر بجانبه ، ويتعصب له بأي حال ، ويسأل الله ان يحقق له احلامه .

اما البعض من محدثينا ومؤرخينا ، فمن المؤسف انه لو سَمِعَ أَحَدُهم خَبَراً أَوْ حديثا او رواية تشير الى وجود بعض الشـر عند اصحاب الحق ، كابـر وعاند وجزم بان الخبـر مكذوب من اساسه ، هذا اذا لم يعمد الى حياكة اخبار معاكسـة لينفي عنه التهم ويثبت عدالة قضيتـه .

١ـ ظهر الاسلام ج ٤ ص ٣١ لاحمد امين .

وبهذا يصبح عقل هؤلاء المحدثين كالغربال ، لا يأخذ من الاحاديث الا ما يلائم مقياسه الخاص . ومن يُلقِ نَظْرةً على التاريخ الاسلامي ، يجد كل طائفة من المسلمين تملك صورة خاصة من التاريخ تختلف عما يملك غيرها منه . وهذا امر لابدّ منه اذ ان كلا من هذه الطوائف لديها مقاييس اعتبارية جاءتها من عقائدها الدينية، فما لاءم تلك المقاييس اخذته وما خالفها رفضته . (١)

ونعود الى الصحابة ، صحابة النبي ، فنراهم بشرا مثل غيرهم من الناس ، تغرى بَعْضَهم الدُنيا وَمَباهِجُها ، وتؤثر في سلوكهم القيم الاجتماعية ، والذي قال انهم ملائكة معصومون من الذنوب هو مغال بلا شك .

ولكن المؤرخين احاطوا اخبارهم جميعهم بهالة من القدسية لا ينفذ اليها العيب ، فكل خبر يشينهم عللوه حتى صار فضيلة يعتزون ويفخرون بها .

فالمؤرخون ينسبون الى ابي جهل كل عيب ونقيصة ، ويجردونه من كل فضيلة ، بينما هم يأتون الى اقرانه ، الذين اسلموا في اللحظة الاخيرة ، ولم يساعدوا الرسول في اشد حروبه ، فينزهونهم عن كل نقيصة ، ويضعون عليهم هالات الثناء والتكبير .

ان الفرق بين ابي جهل وبعض نبلاء قريش الذين وصفناهم ، لا اراه كبيرا ، فمعظمهم كانوا من الطبقة المرابية التي تستغل الضعفاء ، وتتعالى على الناس ، كل اثرياء قريش من طينة واحدة ، والاختلاف بينهم هو اختلاف بالدرجة لا بالنوع .

فمن سوء حظ ابي جهل انه قتل في معركة بدر ، في صف المشركين ، ولو ان الصدفة ساعدته كما ساعدت غيره ، فنجا من تلك المعركة ، ثم بقي الى يوم الفتح فاسلم ،

١ـ راجع تدريب الراوي ص ١٨١ والباعث الحثيث ص ٩٠ والجرح والتعديل ج ١ ص ٣٢ .

لصار من كبار الصحابة او القواد ، الذين رفعوا راية الاسلام . انها مسألة صدفة ، والصدفة تلعب بمقدرات الرجال لعبا هائلا ، وهذا امر نشاهد مصداقه يجري امام اعيننا كل يوم . اذ نرى الكثير من امثال ابي جهل ، أوصلتهم الصدف الى اعلى المراتب ، والمحدثون والاخباريون من حولهم يحيطونهم بهالة من العظمة والمعروف والصفات النبيلة .

ومن الطبيعي لهؤلاء الاخباريين ان يتجمعوا حيث ينتثر الحب ؟ .

اما بعض المؤرخين ، فهم ينظرون في الامر نظرة مثالية ، لا تستند على اساس من الواقع ، فلا يكاد الرجل يرى محمدا (ص) او يصحبه فترة بسيطة ، او ينطق بكلمة الشهادة بين يديه ، حتى تنقلب طبيعته انقلابا كليا ، ويصبح خيرا بعدما كان شريرا . ان الله على كل شيء قدير سبحان من يغير العباد !! ..

ان هذا المقياس وهذا الامر يختلف عن كل ما نعلمه من نواميس الطبيعة البشرية . فالانسان لا تتغير اخلاقه كليا بمجرد ان ينتمي الى دين ، او يدخل في حزب اذ لا تغير العقيدة اخلاق البشر الا قليلا بمجرد الانتماء اليها .

فالذي نشأ على الخير والفضيلة ، او على الشر والرذيلة يبقى في اصالته شيء من هذا ، وان أوهم الناس البعد او التستر والخفاء ،

وهذا ما يذكرنا بقول زهير بن ابي سلمى :

وَمَهْمَا يَكُنْ عندَ إمرِيءٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وإِنْ خَالَهَا تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمِ (١)

١- شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ص ٣٢ يقول من كتم خليقته تستظهر عند الناس.
والخليقة : الطبيعة والسليقة والتحيزة

والبشر قديما لم يكونوا على غير ما نحن عليه اليوم، والمؤرخون الذين كانوا يعتقدون غير ذلك هم في خطأ مما يظنون . فالناس هم الناس - قديما وحديثا - .

ان من انظم الاخطاء التي اقترفها مثل هؤلاء المؤرخين ، هو انهم يتصورون المسلمين الاولين انقلبوا أخياراً بعد ان كانوا اشراراً فجأة واحدة .

انهم اغفلوا بهذا مفهوم الشخصية البشرية .

قال النبي محمد (ص) : " الناسُ معادنٌ، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الاسلام اذا فقهوا " (١) .

ولعله كان يقصد بهذا القول : ان الشرير الظالم لاينقلب خيرا تقيا بمجرد دخوله في الاسلام . فهو قد يبقى ظالما عاتيا ولكنه يطلي ميوله واطماعه بطلاء من الورع، والتسبيح والتكبير .

كان الاسلام في بدء امره، ثورة كبرى على طغيان قريش كما كانت المسيحية ثورة على طغيان القياصرة (٢) .

ان دخول قريش في الاسلام افاد، من ناحية كما اضرّ بها من ناحية اخرى .

فقريش جعلت من الاسلام دولة فاتحة منتصرة ، تعنو لها الرقاب وتدفع ما عليها من جزية، ولكنها جعلت منه في الوقت نفسه نظاما للطغيان والفتح ، لايختلف عما شاهدنا من قبل في نظام القياصرة والاكاسرة .

١ـ المقدمة لابن خلدون ص ١٣٤ وانظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢١ وجامع بيان العلم ١ ص ١٨ .
٢ـ راجع كتاب الطريق الى الاسلام لمحمد أسد ص ٣٢٠ .

لقد حاربت قريش النبي محمدا (ص) حربا لا هوادة فيها، واضطهدت اتباعه اضطهادا قاسيا، لانها ظنت ان الدين الجديد يقضي على مصالحها التجارية، ومنزلتها الطبقيـة، وكرامتها الاجماعية. حافظت على الكعبة لكونها سوقا تجاريا هاما. وكانت تشجع الحج وترعى الاسواق الادبيـة والتجاريـة التي كانت تقام في موسم الحج. فنالت بذلك ثروة طائلة ومنزلة رفيعة.

" كانت لقريش رحلتان، يرحلون في الشتاء الى اليمن، وفي الصيف الى الشام، وكانوا في رحلتهم آمنين، لانهم اهل حرم الله وولاة بيته، فلا يتعرض لهم، والناس غيرُهم يُتَخَطفُون ويُغَارُ عليهم "(١).

ومعنى هذا ان الحج كان مغنما اجتماعيا واقتصاديا لقريش، تنتفع به لتدعيم تجارتها واعزاز شرفها بين القبائل.

فجاء النبي يسب الاوثان، ويصلي باتجاه بيت المقدس، فحاربت قريش الدين الجديد حربا عنيفا من اجل ذلك. وعندما فتح النبي (ص) مكة، عمد الى تحطيم اوثانها في نفس الليلة التي تلت يوم الفتح، واستيقظت قريش من نومها في الصباح التالي فوجدت اوثانها المقدسة مهشمة في التراب، ومن ثم دخلت في الدين الجديد فورا.

ان من المدهش حقا ان نجد قوما حاربوا الرسول نيفا وعشرين سنة من اجل اوثانهم، ثم يرونها فجأة مطروحة في التراب وهي مهشمة، فلا يهمهم ذلك ولا يبالون.

وهذه الظاهرة تشير بوضوح الى ان قريشا لم تكن مخلصة لاوثانها في محاربتها محمدا. انها كانت بالاحرى مخلصة لمصلحتها وكرامتها. فلما وجدت مصلحتها مصونة وكرامتها موفورة في الدين الجديـد، تركت آلهتها فورا وانضمت الى صفوفه.

واني لا اظن ان ابا بكر كان يضمر لقبيلـة قريش شيئا من الكراهيـة، وهي ايضا كانت تبادله الصفاء. فعندما تولى الخلافـة ابو بكـر الصديق، غضب خالد بن الوليـد وغضب ابو سفيان وهما من رؤساء قريش.

١ـ فجر الاسلام لاحمد امين ص ١٤.

جاء ابو سفيان الى علي والعباس يستثيرهما ويقول : يا علي ... وانت يا عباس .
" ما بال هذا الامر في احط قبيلة من قريش واذلها ؟ والله لو شئت لاملأنها عليه - على
" ابي بكر - خيلا ورجلا ، واخذنها عليه من اقطارها " فاجابه علي بنفس الاجابة لخالد
" بن الوليد أمُغالَبَةً ترى أم خِلافَة "؟ (١) .

وليس من المستبعد ان تكون قد نشأت في عقل ابي سفيان الباطن عقدة نفسية ضد الاسلام واهله . والعقدة اذا تكونت في النفس صعب زوالها في مدة قصيرة . يقول الاستاذ العقاد :

" وظل ابو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب ان غَلَبَةَ الاسلام غَلَبَةٌ عليه " (٢) .

من بعد كل ما استعرضنا نخلص الى القول ان الصحابة هم كغيرهم من الناس وليسوا بملائكة معصومين من الذنوب . واما عدالة الصحابة المطلقة فلا نأخذ بها . وانه يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من الغلط والنسيان والسهو ، كيف لا والرسول (ص) التقي النقي الورع ، العادل قال : " انما انا بشر مثلكم اصيب واخطيء " .

واصحاب الرسول اينما هم بشر يصيبون ويخطئون ، بعد ان نستأذن السيوطي في تدريب الراوي على التعاريف التي جمعها في اجماع المحدثين على تقديس الصحابة في نظر اهل السنة .

واني ارى ان البلاء الذي يصيب الاسلام انما يرجع الى امرين : " عدالة الصحابة المطلقة ، والثقة العمياء بكتب الحديث التي تجمع بين الغث والسمين ، فاننا لا نستبعد ولا نتجاوز الحقيقة .

---

١ - عباس محمود العقاد ابو الشهداء ص ٢٥ / ٢٦ .
٢ - المصدر نفسه ص ٢٣ .

ولو نحن سلكنا السبيل القويم ، والتزمنا الحجة الواضحة ، واتبعنا منطق العقل ، واتخذنا المنهج الذي اتخذه علماء العصر في دراستهم للامور العلمية الصرف ، غير متأثرين بأي اثر تقليدي او عاطفي ، سواء في دراستنا للصحابة وما رووه ، او لأي دراسة تاريخية اسلامية ، لبدا لنا وجه الحق واضحا لا لبس فيه .

- الحق ومقاييسه -

تقص لنا الاساطير ان غرابا رأى زميلا له من نوعه ، فهاله ما وجد في وجه زميله من سواد كالح بشع ، فامتعض من ذلك السواد الحالك وهو لو نظر وجهه في المرآة ، وأحسن الرؤية - لرآه لايقل سوادا وقبحا عن وجه زميله الاول . واين هي المشكلة وما سببها :

المشكلة آتية من كون الغراب لايملك مرآة ، يرى وجهه فيها ، وان امتلك المرآة ، ترى هل يحسن التمييز بين الالوان ؟ لا اظن انه يفعل ذلك .

وهذه هي مشكلة البشر جميعا ، فكل فريق يرى مساوئ غيره ، وهو لا يدري انه مبتل بمثل تلك المساوئ .

ان الذي ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ، ويشب على تقاليدها واوضاعها المعينة ، ويسير وفق مقاييسها الفكرية المحدودة ، يصعب عليه جدا ان ينظر الى الامور نظرة مجردة وبالتالي يصعب علينا نحن اقناعه والوصول به الى شاطئ الحقيقة .

ان المقاييس الفكرية الخاصة بمجتمعه قد شربها مع اللبن ، وانغرزت في عقله الباطن ، واصبحت توجه تفكيره من حيث لايدري ، وارادته قوتها محدودة او مشلولة لا تحسن الوقوف عند حد العاطفة والهوى ، وعقله محاط باطار لا شعوري . فهو يظن انه حر في تفكيره ولكنه واهم في ذلك .

كان المنطق في القديم - عند هؤلاء القوم وعند غيرهم من الشعوب في عصرهم - يعد الحق كل الحق في جانب ، وكل الباطل في الجانب المعاكس . فاذا اعتبر امرا من

الامور حقاً ، اعتبـــر الامر المناقض له باطلا • واني ارى ان هذا التصنيف الثنائي لايستسيغه المنطق الحديث •

ويؤلمني سماعُ بعضِ المحدثين ورجالِ الدين ، يكتبون ويخطبون انهم يطلبـــون الحقيقة المجردة • وماهي تلك الحقيقة واين هو طريقها ؟ •

انها الحقيقة التي يشتهونها ، وهم لايفهمون منها الا ذلك الوجه الذي يوافـــق عقدهم النفسية ، وقيمهم الاجتماعية ، ومصالحهم الاقتصاديـــة •

اما الوجوه الاخرى من حقيقـــة هؤلاء ، فهم يهملونها لاعتبارهم انها مكذوبة لم نر بينهم ذلك المشكك الذي ينظر في كل رأى نظرة الحياد ، لذلك هم بعيدون عن الحقيقـــة الكاملة المجردة •

ان الشك هو طريق البحث العلمي الصحيح ، ولم يستطع العلماء المحدثون ان يتجاوزوا اسلافهم في البحث ، الا بعد ان اتبعوا طريق الشك الذي قادهم الى اليقين •

اما الذين آمنوا بتقاليد آبائهم واعرافهم وتعاليمهم كماهي ، دون شك ولا ريب ، طالبين الحقيقة المجردة ، فلا يصلون اليها ولو بعد حيـــن • ذلك لان الجاهل السائـــر على غير طريق ، لا يزيده سعيه الا بعدا عن الهدف المنشود •

× ×

×

خاتمـــــة البـاب الثالـــــــث

منذ عصر الصحابة الى ان تم تدوين الحديث رسميا ، لا يسعنا الا ان نقف اجلالا للجهود التي بذلها علماء الحديث في سبيل الحفاظ على الحديث الشريف . وانا لنزداد اعجابا عند ما نطلع على تلك القواعد العلمية الدقيقة التي طبقوها في علم دراية الحديث . وصدق ابن المبارك حين قيل له : هذه الاحاديث الموضوعة ؟! فقال : تعيش لها الجهابذة . "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" (١)

واذا استعرضنا ما بذل علماء الامة الاسلامية في مجال هذا العلم لوجدنا انهم خطوا خطوات جليلة نذكرها تباعا .

١ — الاسناد — فالسند للحديث كالنسب للمرء . ورد في الحديث . قال عبد الله ابن المبارك : "الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء (٢)

٢ — بيان احوال الرواة : اهتم الصحابة والتابعون ومن تبعهم في معرفة رواة الحديث معرفة تمكنهم من الحكم بصدقهم أو كذبهم . كما وضعوا شروطا للراوي حتى تقبل روايته او ترد . وهكذا تكون علم الجرح والتعديل نتيجة حتمية لجهود النقاد فألف احمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) الجرح والتعديل وكذلك الجرح والتعديل لابي قاسم الرازي (٢٤٠ — ٣٢٧ هـ (٣)
ولم يكتف العلماء بالتزام الاسناد في الاحاديث النبوية ، وبمراجعتها ومقارنتها ، ومعرفة رواتها واحوالهم ، والثقة منهم والمجروح ، بل قسموها : الى صحيحة وحسنة وضعيفة ، وبينوا حد كل منها وما يندرج تحته . اما الحسن فلم يكن معروفا عند المحدثين في القرن الهجري الثاني حتى كان كتاب الترمذي الذي يعد أصلا في معرفة الحسن . (٤)

٣ — وضع قواعد لمعرفة الموضوع من الحديث . بالاضافة الى ما ذكرنا من وضع قواعد دقيقة لمعرفة الصحيح والحسن والضعيف من الحديث ، وضع علماء الحديث قواعد لمعرفة الوضع في سند الحديث وفي متنه (٥) هذه هي اهم القواعد التي وضعها جهابذة علم الحديث لتمييز الموضوع من الصحيح ، حتى تضيء لاهل العلم ولا تشتبه عليهم .

لم تقتصر جهود العلماء على نقد سند الحديث فقط دون متنه ، وان شددوا في السند ، بل نلاحظ ان القواعد التي وضعوها تناولت الحديث سندا ومتنا . وسوف نتحدث في الباب الرابع الذي يلي أهم القواعد التي اعتمدها علماء الحديث في نقد المتن أيضا .

---

١ — راجع تدريب الراوي ص ١٨٤ والكفاية ص ٢٧ الجرح والتعديل ج ١ ص ١٨ الاية ٩ سورة الحجر
٢ — صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٨٧ — ٣ — انظر معجم المؤلفين ج ١ ص ٩٦
٤ — راجع قبول الاخبار ص ١٦
٥ — انظر اختصار علوم الحديث ص ٤٣

" قال الله في كتابه المجيــد

" وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ " الضحى الاية ١١

" ن والقلم وما يَسْطُــرون " القلم الايــة ١

" يا ايها الرسول بلِّغ ما أُنْزِلَ اليك وإنْ لم تَفْعَلْ فما بلَّغْتَ رِسَالَته " المائدة الاية ٦٧

" وأَنْزَلْنا اليك الذِّكْرَ لِتُبَيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم ولَعَلَّهم يتفكرون " النحل الاية ٤٤

" وما آتاكُم الرسولُ فخُذوه ومانَهاكم عنه فانتهــوا " الحشــر الاية ٧

وقال صلى الله عليه وســلم :

" من سَنَّ في الاسلام سُنَّةً حسنةً فله اجرُها ، واجرُ من عمل بها بعدَه من غير ان ينقص من اجورهم شي٠ . ومن سَنَّ في الاسلام سُنَّةً سيئــة كان عليه وِزْرُها ووِزْرُ من عمِــلَ بها من بعده ، من غير ان يَنْقص من اوزارهم شي٠ . " صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٥

" عليكم بسنتي وسنة المهديين من بعدي عضُّوا عليها بالنواجذ " المجازات النبوية ص ١٣٤

" قيِّدوا العلمَ بالكتــاب " المجازات النبوية ص ١٧٩

" نضَّــر الله امرأً سَمِعَ منا حَديثاً فَحَفِظَــهُ حتى يُبَلِّغَه ، فرُبَّ مبلَّغ احفظُ له مـــن سَامِع . " مسند الامام احمد ج ٦ حديث ٤١٥٧ ص ٩٦

تمهيد

الباب الرابع

في النقد الداخلي

يشمل هذا الباب خمسة فصول :

الفصل الاول : الوضع في الحديث

متى بدأ الوضع – تحذير الرسول من حدّث عنه كذبا · واسباب الوضع وقد فصلناها موضحين بالامثلة · وجملة القول ان اسباب الوضع الرئيسية هي انقسام الامة الى احزاب سياسية اتخذت شكلا دينيا ، وحاول كل حزب دعم موقفه وتأييد آرائه بوضع أحاديث عن لسان رسول الله (ص)

الفصل الثاني : وهو بحث عن الجهود التي بذلت في مقاومة الوضع

لما كان الوضاعون كان لهم علماء الحديث فوضعوا قواعد قيمة في سبيل المحافظة على الحديث الشريف · منها ما يتعلق في السند ومنها ما يتعلق بالمتن ·

وكانت خاتمة الفصل اختلاف الناس في العطاء لاختلاف نظرتهم الى الحياة · فتغير الحديث بما يتناسب مع اهواء وميول حكام العصر ·

الفصل الثالث : يدور البحث فيه حول الجرح والتعديل ·

لما وقعت الفتنة بين المسلمين ، وركبَ الناسُ الصعبَ والذَّلولَ (١)

ولما كان هنالك رجال صالحون ، ولكنهم ليسوا من اهل الحديث (٢)

ولما قالوا : اخبرنه انه ليس بثبت · (٣)

تكون علم الجرح والتعديل الذى وضع اسسه كبار الصحابة والتابعون واتباعهم ، متأسين برسول الله (ص) حيث قال في الجرح : "بئس اخو العشيرة" وفي التعديل : "ان عبد الله رجل صالح" (٤) ·

الفصل الرابع : ويدور البحث فيه عن المراحل التي قطعها الحديث عبر العصور المختلفة · الحديث في صدر الاسلام – والحديث في العصر الاموى وكيف تحول على ايدى الحكام الامويين · والحديث مع العباسيين ثم الحديث في العصر الاندلسي · وكانت نهاية الفصل المفارقات التي تحملها الحديث من اهل السنة والشيعة ·

الفصل الخامس : انواع الحديث من حيث كونه متواترا او آحادا · ما قيل في شروط الحديث المتواتر من حيث الاخذ به – المتواتر باللفظ والمتواتر بالمعنى – ثم خبر الآحاد : تعريفه – حالاته – ما قيل في صحة الاخذ به ·

١– صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٨٠
٢– الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٥٢
٣– المصدر نفسه ص ٩٢
٤– المصدر نفسه ص ٥٢ والكفاية ص ٣٨ – ٣٩

الفصـــل الاول : الوضع في الحديث

قبل ان نباشر بمعالجة الوضع في الحديث وما يرافقه من مضاعفات وابعاد ، لا بد لنا من تمهيد بسيط حول التأخر في كتابة الحديث ، او بالاحرى حول المنع من التدوين ، ان في عهد الرسول (ص) اوبعد وفاته مباشرة .

النهي من كتابة الاحاديث :

روي عن الصحابة انهم كانوا ينهون عن كتابة الاحاديث ، والنهي وارد ، لا شك ، وخاصة في عهد ابي بكر وعمر ، لانهم لو دونوا ونشروا لتوافر ما دونوه .

فابو بكر يجمع الاحاديث ثم يحرقها ، قال الحاكم عن القاسم بن محمد عن عائشه قالت : جمع ابي الحديث عن رسول الله (ص) وكان خمسمائة حديث ، فبات ليلة يتقلب كثيرا ... فلما اصبح قال : (اي بنية ، هلمي الاحاديث التي عندك ، فجئته بها ، فدعا بنار فحرقها) (١)

وكان خوف عمر من اقدامه على كتابة السنة ان ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل . (٢)

وعن ابن عباس انه قال : وانا لانَكْتُبُ العلمَ ولا نُكْتِبُهُ . (٣)

كل هذا يدل انهم كانوا يكتبون الشيء من اجل حفظه ثم يمحونه ، والنقطة الاخرى عدم رغبة كبار الصحابة في التحديث ، حتى لا يجعلوا الاحاديث دينا دائما كالقرآن .

وقد ذكروا ان نهي النبي عن كتابة حديثه انما كان لخوفه من اختلاط الحديث بالقرآن وهو سبب غير مقنع في نظري لاسباب عديدة منها :

---

١ — انظر تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥

٢ — انظر تقييد العلم ص ٥٠

٣ — انظر جامع بيان العلم ج ١ ص ٦٦ ونحوه في تقييد العلم ص ٤٢

— ان بين الاحاديث والقرآن فروقاً كبيرة يعرفها كل من له بصر بالبلاغة ، وذوق بالبيان !

— لو كتبها الصحابة ووزعوا منها نسخا على الامصار كما فعلوا بالقرآن فيكون ذلك على اعتبارها احاديث ، ويتلقاها المسلمون على انها كلام النبي . ويظل أمرها على ذلك جيلا بعد جيل ، فلا يدخلها شوب ولا يعتريها التغيير ، كما حدث لها فيما بعد .

ثم ان السنة هي مكملة للقرآن ، ومفصلة لتعاليمه ، وموضحة لما جاء فيه من تلميح دون التفصيل ولنا الحق ان نسأل :

هل يصح ان يدع النبيُّ بعض ما اوحاه اليه الله يتردد بين الاذهان بغير قيد او ضبط يمسكه هذا ، وينساه ذاك ، ويتزيد فيه ذلك !

وهل يكون الرسول بعمله هذا قد بلّغ الرسالةَ على اكملها ، وادّى الامانة كاملة الى اهلها ؟!

فلعلهم اعتمدوا على الحديث المتناقل بينهم : " لاتكتبوا عني شيئا غير القرآن " . (١)

وهي حجة واهية لانه لم يقل : وغيرها اوتيته معه هو " مثله " .

قال النبي (ص) لعمر وهو يحتضر : " اكتب للناس كتابا لن يضلوا بعده ، فلماذا لم يخف عمر من ضياع هذا " المثل " وهو يزعمهم نصف ما اوحى الله به الى نبيه !؟ (٢)

واذا كان هم الصحابة نشر الدعوة المحمدية ، فلماذا لم يكتبوا السنة ويجمعوها كما كتبوا القرآن وجمعوه ، ووزعت نسخه على الامصار ؟

الا انهم باهمالهم هذا الامر الخطير ، انما يكونون قد تركوا ركناً رئيسياً وهاماً في شئ الدعوة الاسلامية ، واني ارى ان هذا الاهمال في التدوين هو الذى ادّى الى وضع تلك السيول الموضوعة في الحديث :

ولو ترك المسلمون بعد وفاة الرسول وشأنهم ، يدونون الحديث والاحكام التي شرعها الاسلام ، لم يقع شيء من الدس والوضع كما نرى ، ولو وقع لما كان بتلك الكثرة التي طغت على السنة الصحيحة ، وبددت اضواءها . ولكان من السهل اليسير علينا تصفية الاحاديث المكذوب منها والصحيح دونما جهد يذكر .

---

١ — جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٦٣

٢ — راجع فجر الاسلام ص ٢٠٩

متى بـــدأ الوضـــع ؟ :

قيل انه بدأ الوضع في السنة بشكله السافر واتخذه البعض من الخلفاء وسيلة لخدمة الاغراض السياسية ، بعد ان اتخذ الخلاف بين علي ومعاوية شكلا حربيا ، سالت فيه الدماء ، وازهقت الارواح ، وانقسم المسلمون الى طوائف واحزاب متعددة . (١)

فالجمهور مع علي في خلافه مع معاوية ، والخوارج ينقمون على علي ومعاوية معا ، بعد ان كانوا من شيعة علي وانصاره المتحمسين . واهل البيت انقسموا فيما بينهم ، وفريق اخذ يطالب بعد مقتل علي بالخلافة ، ويشقون عصا الطاعة على الدولة الاموية .

وهكذا كانت الاحداث السياسية سببا في انقسام المسلمين الى شيع واحزاب ، وقيام المذاهب الدينية المختلفة . ولا بد لكل حزب ان يؤيد موقفه من السنة والقرآن . مما دعا بعض الاحزاب الى تأويل القرآن الكريم نفسه ، وكذلك السنة فقد حملوها مالا تحتمله . كما وضع بعضهم الاحاديث على لسان الرسول في تأييد دعوته ، وذلك عندما عز عليه ما يطلب في القرآن . ولانعجب من هذا العمل اذ اننا نرى الدس والكذب في حياة الرسول نفسه (٢)

الكذب على النبي في حياتـــــه :

لقد حذر الرسول من الكذب عليه بعد ان سمع ان بعضهم ، افترى عليه كذبـــا وصوحي . فقد جاء في كتاب الاحكام لابن حزم عن عبد الله بن بريده عن ابن الخصيب الاسلمي قـال : كان حي من بني ليث على ميلين من المدينة ، فجاء هم رجل وعليه حلة فقال : ان رسول الله كساني هذه الحلة وامرني ان احكم في دمائكم واموالكم بما ارى وكان قد خطب منهم امرأة في الجاهلية فلم يزوجوه ، فانطلق حتى نزل على تلك المرأة فارسلوا الى رسول الله (ص) فقال : كذب عدو الله ، ثم ارسل رجلا فقال : ان وجدته حيا ـ ولا اراك تجده ـ فاضرب عنقـه فان وجدته ميتا فحرقـه بالنار (٣) .

هذا من يكذب عليه في حياته ! فكيف بعد موتـه ؟

---

١ ـ انظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٨٩

٢ ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١ ص ٦٨ ٢ وفجر الاسـلام ص ٢٥٦

٣ ـ جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة ، ص ٢٧

٠٠/٠٠

وحديث آخر قال :

" حدثنا علي بن ابراهيم بن هاشم عن ابيه عن حماد بن عيسى عن ابراهيم بن عمر اليماني ان ابان بن ابي عياش عن سليم بن قيس الهلالي قال : قلت لامير المؤمنين عليه السلام اني سمعت من سلمان والمقداد وابي ذر شيئا من تفسير القرآن واحاديث من نبي الله (ص) غير ما في ايدي الناس ، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم ، ورأيت في ايدي الناس اشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن احاديث عن رسول الله ، انتم تخالفونهم فيها وتزعمون ان ذلك كله باطل !

" افترى الناس يكذبون على رسول الله (ص) متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم قال : فاقبل علي فقال : سألت فافهم الجواب :

" ان في ايدي الناس حقا وباطلا ، صدقا وكذبا ، وناسخا ومنسوخا ، وعاما وخاصا ، ومحكما ومشابها وحفظا ووهما ، وقد كذب على رسول الله (ص) على عهده حتى قام فقال : ايها الناس قد كثرت علي الكذابة فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " (١)

الكذب على النبي بعد موته :

لقد كثر الكذب وفشا بعد وفاته (ص) والدين غض آنذاك واستفاض الكذب بعد موت الخليفة الثاني (عمر) الذي كان يخيف الناس ويعاقبهم على كثرة الاحاديث كما حدث لابي هريرة . (٢)

ثم كذب عليه من بعده :

وانما اتاكم الحديث من اربعة ليس لهم خامس .

١ — رجل يظهر الايمان متصنع بالاسلام لا يتأثم ولا يتحرج ان يكذب على رسول الله (ص) متعمدا فلو علم الناس انه منافق كذاب لم يأخذوا منه ولم يصدقوه ولكنهم قالوا هذا قد صحب رسول الله (ص) ورآه وسمع منه واخذ عنه وهم لا يعرفون حاله وقد اخبره الله من المنافقين بما اخبره ووصفهم بما وصفهم فقال عز وجل : (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم)ثم بقوا بعده فتقربوا الى ائمة الضلالة والدعاة الى النار بالزور والكذب والبهتان فولوهم الاعمال وحملوهم على رقاب الناس واكلوا بهم الدنيا وانما الناس مع الملوك والدنيا الا من عصم الله . (٣)

---

١ — الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ، ج ٢ ، ص ٨٢ وانظر ابن سعد في طبقاته ج ٢ ص ١٠٠ والسنة قبل التدوين ص ١٩١ ويقصد بامير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع)

٢ — انظر أضواء على السنة (٣) المنافقون الآية (٤)

ورجل سمع من رسول الله (ص) شيئا فلم يحمله على وجهه ووهم فيه ولم يتعمد كذبا فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول : انا سمعته من رسول الله (ص) فلو علم المسلمون انه وهم لم يقبلوه ، ولو علم هو انه وهم لرفضه .

ورجل ثالث : سمع من رسول الله (ص) شيئا أمر به ثم نهى عنه وهو يعلم او سمعه ينهى عن شيء ثم امر به وهو لا يعلم ، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ ، ولو علم انه منسوخ لرفضه .

وآخر رابع : لم يكذب على رسول الله (ص) فبغض الكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله (ص) من المنسوخ فان أمر النبي (ص) ناسخ ومنسوخ وناص وعام ومحكم ومشابه قد كان يكون من رسول الله (ص) والكلام له وجهان : كلام عام وكلام خاص مثل القرآن (١)

ما جاء في تحذير الرسول من حدث عنه كذبا :

ما نستخلصه من الاحاديث التي اوردناها ان الرسول (ص) كان يخاف من الكذب عليه ، فعمد الى تحذير هذه الفئة من المحدثين الكاذبين ، موضحا لهم ما يحدثون من ضرر واذى للناس في حياتهم ، ذلك لان السنة هي تشريع حكيم للناس على الارض ، في كل ما يحتاجون اليه فهي الدستور الشرعي والديني والاجتماعي والانساني لكل مسلم في حياته الخاصة والعامة . فكيف اذا دخلها زيغ وانحراف ؟ وكيف اذا اقتحم عليها ما ليس منها في شريعة الدين الحنيف الذي بشر به رسول الله محمد (ص) ليهدي الناس؟ لذلك كله قال رسول الله (ص) :

" من رد حديثا بلغه عني فانا مخاصمه يوم القيامه ، فاذا بلغكم عني حديث فلم تعرفوه فقولوا الله اعلم " (٢)

فالرسول الكريم يحثنا على البعد عن التحدث بالاحاديث التي يصعب علينا فهم معانيها . ويقول ايضا (ص) من حدث عني حديثا وهو يرى انه كذب فهو احد الكاذبين (٣) اما اذا عرفوا وفهموا معناه ، ثم رووه على غير ما سمعوه فهم لاشك من الكاذبين ، لانهم يتعمدون الكذب .

" من كذب علي متعمدا اورد شيئا امرت به ، فليتبوأ بيتا في جهنم (٤)

---

١ — جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة ، المقدمة ص ٢٩
٢ — المجيد للعلوي ، ص ١٧
٣ — المصدر نفسه
٤ — " — "

وقوله (ص) من بلغه عني حديث فكذب به فقد كذب ثلاثة : الله ، ورسوله ، والذى حدث به " (١)

الحديث الموضوع :

بعد هذا يمكننا القول ان الحديث : الموضوع هو المختلق والمصنوع المنسوب الى رسول الله (ص) زورا وبهتانا سواء أكان ذلك عمدا ام خطأ . (٢)

وسوف نورد كلمة قيلت في دائرة المعارف الاسلامية عما حدث من تغيير بعد وفاة الرسول (ص) . (٣)

بعد وفاة الرسول (ص) لم تستطع الآراء والمعاملات الدينية الاصلية التي سادت في الرعيل الاول ان تثبت على حالها من غير تغيير . فقد حل عهد للتطور جديد — وبدأ العلماء يدخلون شيئا من التطور في نظام مرتب من الاعمال والعقائد يتواءم والاحوال الجديدة . فقد اصبح الاسلام بعد الفتوح العظيمة يبسط سيادته على مساحات شاسعة واستعير من الشعوب المغلوبة على امرها آراء ونظم جديدة وتأثرت حياة المسلمين وافكارهم حين ذلك ، في كثير من النواحي لا بالنصرانية والاسرائيلية وحدهما ، بل بالهلينيسة والبوذيـة كذلك .

وعلى اية حال فان المسلمين التزموا ايما التزام المبدأ القائل : ان سنة النبي والسابقين الاولين في الاسلام هي وحدها التي يمكن ان تكون القانون الخلقي للمؤمنين ،

وسرعان ما ادى هذا بالضرورة الى وضع الاحاديث ، فاستباح الرواة لانفسهم اختراع احاديث تتضمن القول او الفعل ، وينسبونها الى النبي لكي تتفق وآراء العصر التالي . وكثرت الاحاديث الموضوعة وتداولها الناس منسوبة الى النبي بحيث تجعله يقول او يفعل شيئا مما كان بعد ذلك العصر من الامور المستحسنة ، وظهرت في الحديث اقوال مأخوذة من اقوال الرسل والاناجيل المنحولة ، ومن الآراء الاسرائيلية والعقائد الفلسفية اليونانية الخ ... تلك الآراء التي لقيت الحظوة عند فريق معين من المسلمين ونسبت كل هذه الاقوال الى النبي — ولم يتورع الناس عند ذلك ان يجعلوا النبي يفصل على هذا النحو القصصي التي وردت موجزة في القرآن ويدعو الى آراء ومعتقدات جديدة الخ .. بل كان كثير من هذه الاحاديث الموضوعة المنسوبة الى النبي تتناول الاحكام الحلال والحرام والطهارة واحكام الطعام والشريعة وآداب السلوك ومكارم الاخلاق والعقائد ويوم الحساب والجنة والنار الخ .. (٤)

---

١ — المصدر نفسه (المفيد للعلموى

٢ — انظر التدريب ص ٩٨

٣ — المجلد السادس دائرة المعارف الاسلامية ص ٣٢٠

٤ — انظر قولدزاهير ٢ ص ٨٨ وما بعدها .

ومع مضي الزمن ازداد ما روى عن النبي من قول او فعل شيئا فشيئا في عدده وفي غزارته ، وفي القرون الاولى التي تلت وفاة الرسول (ص) عظم الخلاف بين المسلمين على جملة من الآراء في مسائل تختلف طبائعها اشد الاختلاف ، وعملت كل فرقة على تأييد رأيها ، على قدر ما تستطيع بقول او تقرير منسوب الى النبي ، ومن استطاع ان يرد رأيه الى اثر من آثار النبي فهو على الحق من غير شك ، ولهذا كثرت الاحاديث الموضوعة المتناقضة اشد التناقض في سنة محمد (ص) وفي الخلافات الكبيرة التي نشأت عن العصبية جرى كل فريق على التوسل بمحمد (ص) فمثلا ان نسب الى النبي قول يتنبأ به بقيام دولة العباسيين ، وجملة القول انهم جعلوه يتنبأ على نحو تمتزج فيه الرؤية بالنبوة بما جرى بعد ذلك من حوادث سياسية وحركات دينية ، بل بالظواهر الاجتماعية الجديدة التي نشأت من الفتوح العظيمة " كازدياد الترف " وكان غرضهم من ذلك " تبرير " كل اولئك في نظر الجماعة الاســـــــلامية الجديدة .

وهناك قسم خاص من تلك الاحاديث التنبوئية وضعت في صورة اقوال نسبت الى محمد (ص) تتعلق بفضائل اماكن متعددة ونواح لم يفتحها المسلمون الا في عصر متأخر .

وعلى هذا لا يمكن ان نعد الكثرة من الاحاديث وصفا تاريخيا صحيحا لسنة النبي ، بل هي على عكس ذلك تمثل آراء اعتنقها بعض اصحاب النفوذ في القرن الاول بعد محمد (ص) ونسبت اليه عند ذلك فقط " (١)

بعد هذه الكلمة الشاملة من دائرة المعارف الاسلامية يمكننا القول ان اسباب الوضع كثيرة ومختلفة نلخصها باختصار :

- منها ما كان كذبا لم يقله رسول الله (ص) اصلا .
- ومنها تساهلا في الرغائب والفضائل وهم جملة الحديث
- ومنها تعصبا واحتجاجا كالمبتدعة ومتعصبي المذاهب .
- ومنها اشباعا لاهل الدنيا فيما ارادوه .
- ومنها من قصد التقرب الى الملوك والحكام .

---

١ — انظر دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٢٢٠ — ٢٢٥ ج ٧

٢ — راجع السنة للسباعي عن ابن عساكـــــر ص ٩٢

ذكرنا فيما مضى ان الخلافات السياسية التي استفحل امرها في خلافة علي ، كانت سببا مباشرا في وضع الاحاديث . وكانت الارض الخصبة والمناخ الجيد للوضع ، العراق ، منجم الاحاديث . قال الزهري : " يخرج الحديث من عندنا شبرا فيرجع الينا من العراق ذراعا " (١) ثم يزيد وكان مالك يسمى العراق : دار الضرب ، يعني بذلك : تضرب فيها الاحاديث وتخرج الى الناس كما تضرب الدراهم وتخرج للتعامل . ولا شك ان اسبابا اخرى دعت الى الوضع سوف تأتي على ذكرها تباعا .

اولا — الخلافات السياسيـــــة :

لقد طغى موج الماء السياسي وفاضت انهاره في عهد معاوية ، فجمع المحدثين المرتزقين وساعدهم بنفوذه ، ونقوده . فلم يقف هؤلاء عند بيان فضله والاشادة بما تمصرة الصحابية — ناسين او متناسين انه هو الذي شق عصا الاسلام واحدث الفتن — فصنعـــوا في مناصرته وامعن في عطائهم . وتخطوا ذلك حتى رفعوا مقام الشام وحمص ومن يسكنهما ، وكان من ابرز المقربين اليه من المحدثين : كعب الاحبار وابو هريرة حيث عمدا الى دس الاخبار في السنة النبوية واصبحت بين الاحاديث المروية في صحاح اهل السنة .

ومعاوية كما هو معروف اسلم هو وابوه ، يوم فتح مكة . فهو بذلك من الطلقاء ، وكان كذلك من المؤلفة قلوبهم الذين كانوا يأخذون ثمنا لاسلامهم .

اخرج ابن الجوزي من طريق عبدالله بن احمد بن حنبل ، سألت ابي ماتقول في علي ومعاوية ؟ فاطرق ثم قال : اعلم ان عليا كان كثير الاعداء ، ففتش اعداؤه له عيبا فلم يجدوا ، فعمدوا الى رجل قد حاربه فاطروه كيدا منهم لعلي ، فاشار بذلك الى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا اصل له (٢)

ومما اخرجه الترمذي : ان النبي قال لمعاوية : اللهم اجعله هاديا مهديا .

وفي حديث آخر : اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب .

وقولهم ايضا : الامناء ثلاثة : انا وجبريل ومعاوية . ثم انت مني يامعاوية وانا منك (٣) ثم : لا انقد في الجنة الا معاوية فيأتي آنفا بعد وقت طويل : فاقول : من اين معاوية ؟ فيقول من عند ربي يناجيني واناجيه ، فيقول : هذا بما نيل من عِرْضك في الدنيا (٤)

---

١ — السنة للسباعي عن ابن عساكر مخ اوط ، ص ٩٣

٢ — فتح الباري لابن حجر ، ص ٨٣ ، ج ٧

٣ — ٤ — السنة للسباعي ، ص ٩٦ وان هذا الحديث المعارض الذي قاله الرسول (ص) في علي (علي مني كهارون من موسى) وانظر ايضا الفوائد المجموعة ص ٤٠٢

../..

اما قال المرتزقة والوضاعون في فضل دمشق ؟

قال كعب الاحبار : (اهل الشام سيف من سيوف الله ، ينتقم الله بهم ممن عصاه) (١)

ومن حديث : ستفتح عليكم الشام ، فاذا خيرتم المنازل فيها فعليكم بمدينة يقال لها " دمشق " فانها معقل المسلمين في الملاحم وفسطاطها منها بارض يقال لها الغوطة (٢)

واخيرا جعلوا دمشق الربوة التي ذكرت في القرآن الكريم " وآويناهما الى رَبْوَةٍ ذات قرارٍ ومَعين " (المؤمنون الاية ٥٠) " . وقد جعلها ابو هريرة — صديق كعب الاحبار — من حدائق الجنة في حديث رفعه الى النبي هذا نصه : " اربع مدائن من مدائن الجنة : مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق) . واما مدائن النار : فالقسطنطينية وطبرية وانطاكية وصنعاء " ٣ "

والغريب انهم يجعلون القسطنطينية من مدن النار في هذا الحديث ، ويجعلونها من خيرة المدن في حديث آخر ، ويظهر ان الحديث الموضوع هذا في فضلها تمثل بعد ان اصبحت القسطنطينية مطمح الانظار ، فقالوا : لتُفتحُنَّ القسطنطينيةُ فنعم الاميرُ اميرُها ونعم الجيشُ ذلك الجيش . ولعل هذا الحديث قد وضع من اجل يزيد بن معاوية ، لانه كان امير الجيش في غزو القسطنطينية . (المصدر نفسه) .

وليس من الغريب ان ينعم الله سبحانه على الشام ، ويسبغ عليها رحمته ، لان بها معاوية وولده يزيد ، ويفضلها على مدينة الرسول التي تضم جسده الطاهر واجساد الصفوة من المسلمين الذين جاهدوا ضد الكفار والمنافقين امثال معاوية وابي سفيان وغيرهما من مشركي قريش !!

ويجب ان يكون لمدينة حمص ايضا الشأن العظيم ، الا وهي المدينة التي سكنها كعب الاحبار وضمت رفاته فهي ايضا ذات فضل !

اما من جهة الشيعة فلم يقصروا في هذا المجال .

---

١ — المصدر نفسه ، ولا شك ان النبي يسأل عن معاوية لانه ابن ابي سفيان الذي حارب الرسول وكان من الد اعداء الاسلام . ومهما اخذ معاوية من ابيه يبقى صاحب الفتن ومغير شريعة محمد (ص) على الارض حبا للدنيا وشهواتها .

٢ — اضواء على السنة ص ١٢٩ لمحمود ابورية .
تاريخ الفقه الجعفري ص ١٤٢ لهاشم معروف الحسني والاثر وضع هذا الحديث وخاصة في ركاكة المتن .

٣ — اضواء على السنة ص ١٢٩ وقد اخرج ابو داود عن ابي الدرداء الكثير في فضل دمشق .

قال السباعي : عن منهاج السنة ج ١ ص ١٣ سئل مالك عن الرافضة (وهم الشيعة) فقال : لاتكلمهم ولا ترووا عنهم فانهم يكذبون . (١)

ويستشهد اهل السنة لما وضعوه من الاحاديث بحديث " الوصية في غدير خم "

وخلاصته ان النبي (ص) في رجوعه من حجة الوداع جمع الصحابة في مكان يقال له " غدير خم " واخذ بيد علي ووقف به على الصحابة جميعا وهم يشهدون وقال : " هذا وصي واخي والخليفة من بعدي فاسمعوا له واطيعوا " .

وقال اهل السنة : انه حديث مكذوب وضعته الرافضة . (٢) ونحن نؤكد انه صحيح .

واوردوا عنهم ايضا : " من اراد ان ينظر الى آدم في علمه والى نوح في تقواه والى ابراهيم في حلمه ، والى موسى في هيبته ، والى عيسى في عبادته ، فلينظر الى علي " وكذلك ايضا (حب علي حسنة لايضر معها سيئة وبغضه سيئة لاينفع معها حسنة (٣)

ويقال ان الشيعة وضعوا الاحاديث في فضل علي وآل البيت ، كما وضعوا الاحاديث في ذم بعض الصحابة ، حتى قال ابن ابي الحديد : " فاما الامور المستبشعة التي تذكرها الشيعة ، من ارسال قنفذ الى بيت فاطمة وانه ضربها بالسوط فصار عضدها كالدملج وان عمر ضغطها بين الباب والجدار فصاحت : يااباه ، وجعل في عنق علي حبلا يقاد به ، وفاطمة خلفه تصرخ ، وابناه الحسن والحسين يبكيان ، ثم قال : " كل ذلك لا اصل له عند اصحابنا ولايثبته احد منهم ، ولا رواه اهل الحديث ولا عرفوه ، وانما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله " ٤ "

نستنتج من كل مامضى ان اهل السنة وضعوا الاحاديث لتأييد خلافتهم ، والشيعة وضعوا الاحاديث بالمقابل دفاعا عنهم ، وبيانا لحقهم في الخلافة ايضا .

---

١ - السنة للسباعي ، ص ٩٢ - السنة قبل التدوين ص ٢٠٠ .

٢ - السنة للسباعي عن راجع كتاب الغدير للاميني ج ١

٣ - اضواء على السنة ، ص ١٢٩ والكفاية ص ١٢٦ - المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢١ .

٤ - شرح نهج البلاغة لابن ابي حديد ج ١ ، ص ١٢٥

فكان كلما اوغل الامويون في سب علي وفي ثلبه ، اوغل أهل الحديث في حبه وفي جمع مدائحه الصحيحة وغير الصحيحة . وهذا الوضع ليس بدعا في الاوضاع الاجتماعية العامة فقد وجدنا له مثيلا في مختلف مراحل التاريخ . واوضح مثل عليه ما حدث لدى النصارى الاولين من غلو في تقديس المسيح عندما اضطهدهم الرومان .
والخلاصة ان عليا ليس بحاجة لمن يمدحه مثل هؤلاء أو غيرهم (فعلي مع الحق والحق مع علي)

والواقع ان ما لقي الشيعة من عذاب وتقتيل وسبي وحرمان ، لم يكن يختلف عما لقي المسيحيون الاولون في عهد الرومان .

استخدم معاوية زيادا في مطاردة الشيعة وكان زياد في بدء امره مع الشيعة فهو يعرفهم شخصيا ويعرف مكانهم . وبهذا كانت وطأته عليهم شديدة (لقد مرت فترة على الشيعة كانوا يفضلون ان يقال لهم زنادقة ولا يقال لهم شيعة علي بن ابي طالب (ع) (١))

ان هذا الاضطهاد قد أدى الى انتشار فكرة التشيع والى الغلو في جميع الاحاديث وكل ما يؤيد حقهم في الحياة والخلافة ولا ينفع الفكرة شيء كالاضطهاد .

فلا شيء يجعلنا كبارا الا الالآم الكبيرة . وما انبل الالم في سبيل الوصول الى الحقيقة وما الآلام التي قضاها الحسين الشهيد الا نبلا واكبارا .

لقد وقع بنو امية في خطأ فادح ، فبعد ان حققوا انتصارات رائعة اخذوا يتعالون على غيرهم من الامم المغلوبة ، ويعدون ابناءها عبيدا لهم .

وعندما دخلت تلك الامم العريقة في حضارتها في الاسلام ، لم تعفهم دولة الامويين من الجزية ، ولم تساوهم بالعرب في كثير من الامور .

ولا ريب ان هذا الوضع الاجتماعي ينذر بالخطر ولا سيما ان الموالي هم اصحاب علم وحضارة ، فعمدوا الى الدراسة والتحصيل ومنها العلوم الدينية .

وهذا امر طبيعي لا غرابة فيه ، فالمضطهد يميل دائما الى اتباع ما يسمى في علم النفس التسامي (sublimation)

---

١ - شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ٣ ص ٢٥
١ - المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥

لم يسأ به الامويون ما كان يمكن في باطن المجتمع من سخط فكري شديد . اخذ الموالي يشتغلون بجمع الحديث وبتزويقه والمبالغة فيه ، كما اشتغلوا باكثر العلوم التي ادت الى قيام الحضارة العربية ، من علم وادب وفلسفة . واتخذوا علم الحديث سلاحا معنويا في ايديهم يحاربون به حكامهم الطغاة . وقد حصل علي بن ابي طالب من الحديث الذي جمعه هؤلاء الموالي على حصة الاسد . فعلي اصبح في نظرهم بطلا دينيا . فاخذوا يتهافتون على جمع الاحاديث الناطقة بفضله في كل وجه .

هذا مافعلته السياسة بالحديث ، وما دخلت السياسة شيئا الا افسدته .

ثانيا — التعصب للجنس والقبيلة والبلد :

اتصف العرب بالعصبية القبلية البغيضة ، فكانوا ينقسمون قبائل وبطونا وافخاذا ، والفرد في القبيلة ليس له اي صوت يسمع ، وسبب انشقاقهم وتفرقهم هو ظروف البيئة القبلية البدائية لما فيها من شظف عيش وتناحر حول الكلأ والماء ، عنصر الحياة في عصرهم وفي كل عصر . (١)

ولما جاء الرسول (ص) برسالته السمحاء حارب هذه العصبية بكل ما استطاع من وسائل ودعا الناس الى المحبة والتسامح والوحدة . (٢)

وما ان مات الرسول (ص) حتى عاد العرب الى الحروب والانشقاق والفتن ولم تؤثر فيهم هداية ثلاثة وعشرين عاما من الهداية والنصح والارشاد .

ومن بين هذه العصبيات المختلفة (العصبية للبلد او القطر ايضا فالعراقيون يتعصبون للعراق على الحجاز ، ثم في نفس القطر الواحد يتعصب الكوفيون للكوفة على البصرة ، ونرى هذا النوع من العصبية اخذ يقوى ويزداد في العصر العباسي ويحل محل العصبية القبلية التي كانت عماد المعيشة العربية . (٣) .

---

١ — انظر المقدمة لابن خلدون ص١٢٧ — ١٢٨
وتاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص١٩٥

٢ — راجع تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص١٥٩

٣ — السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للسباعي ، ص١٠٠

وقد رأينا ان اثر ذلك انتقل الى العلم ، فالفقه العراقي يقف امام الفقه الحجازي ومدرسة البصرة في النحو تقف امام مدرسة الكوفـــة .

وهذه العصبية حملت على وضع الاخبار في مزايا البلاد وعيوبها ، واثرت الاقوال المتناقضة بعضها بذم المصر وبعضها يمدحه ، وبعضها وضع على سبيل الحقيقة وبعضها وضع على سبيل التمثيل ، وان بعض هذه الاقوال وضعت على اثر ما كان بين الشاميـــين والعراقيين من قتال ، فقد انحاز الشاميون الى معاوية والعراقيون الى علي ، فتراموا بالاقوال كما تراموا بالسهام ، واليك بعض الامثلة : " روى عن علي (ع) انه قال لاهل العراق : " والله لوددت أن اصرفكم صرف الدينار بالدرهم ، عشرة منكم برجل من اهل الشام (١) .

ومثل ماقيل ايضا : " اذا كان علم الرجل حجازيا وخلقه عراقيا ، وطاعته شامية فناهيك به فانه قد كمل (المصدر نفسه)

وقالوا : (ان الله خلق اربعة اشياء واردفها اربعة ، خلق الجدب واردفه الزهد واسكنه الحجاز ، وخلق العفة واردفها الغفلة واسكنها اليمن ، وخلق الريف واردفه الطاعون واسكنه الشام ، وخلق الفجور واردفه الدرهم واسكنه العراق) (٢) وقال الجاحظ

" قال الدين اسكن الحرمين ، قالت الامانة وانا معك ، وقال الغنى واليسار اسكن مصر ، قال الذل وانا معك ، وقال السخاء اسكن الشام ، قالت الشجاعة وانا معك ، وقال العقل اسكن العراق ، قالت المروءة وانا معك ، وقالت التجارة اسكن الخوزستان واجان ، قالت النذالة وانا معك ، وقال الجفاء اسكن المغرب ، قال الجهل وانا معك ، وقال الفقر اسكن اليمن ، وقالت القناعة وانا معك . "

---

١ ـ ضحـــى الاســـلام ، ج ٢ ص ٨٤

٢ ـ المصـــدر نفســـه = = ٨٤

../..

وقيل لمحدث : " اى الحديث اصح ؟ قال : حديث اهل الحجاز . قيل ثم من ؟ قال : حديث اهل البصرة . قيل ثم من ؟ قال : اهل الكوفة . قيل ثم من ؟ فنفض يده وتنابزوا فعيّر اهل المدينة بالسماع والقيان ، واهل مكة بالمتعة ، واهل العراق بالنبذ ، واهل الشام بالطِّلاَ ، الى كثير مثل هذا " . (١)

وان منشأ وضع الاحاديث في فضائل بعض القبائل العربية يرجع — في الغالب — الى اثارة تلك العصبية القبلية التي ظهرت في الدولة الاموية عقب وفاة يزيد بن معاوية . (٢)

كل هذه الامثلة التي ذكرنا تفيدنا :

١ — فحص الناس لخصائص كل بلدة من مزايا وعيوب علمية وخلقية .

٢ — عصبية كل قوم لبلادهم ، ودفع السوء عنها ورميهم به لغيرهم .

ثالثا — الزندقة

لبس الزنادقة لباس الاسلام ، وعمدوا الى افساد الدين وايقاع الفتنة والخلاف بين المسلمين . وقد مر معنا ان دولة الاسلام اكتسحت عروشا وامارات تعتنق مذاهب واديانا مختلفة بالاضافة الى الوثنية . ولما لم يستطع هؤلاء من القضاء على الاسلام ، عمدوا الى بث التشويه في محاسنه وافساد عقائده ، عن طريق دس الاحاديث في السنة ومن هذه الاحاديث الموضوعة : " ينزل ربنا عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة " ثم " خلق الله الملائكة من شعر ذراعيه وصدره " ثم " رأيت ربي ليس بيني وبينه حجاب فرأيت كل شيء منه حتى رأيت تاجا مخوصا من اللؤلؤ " ثم " ان الله استكت عيناه فعادته الملائكة " ثم " ان الله لما اراد ان يخلق نفسه خلق الخيل واجراها فعرقت فخلق نفسه منها " ثم " ان الله لما خلق الحروف سجدت الباء ووقفت الالف " ثم " النظر الى الوجه الجميل عبادة " ثم " الباذنجان شفاء من كل داء " . (٣)

---

١ — ضحى الاسلام ٢ ص ٨٥ وقد ورد مثل هذه الأخبار في عيون الاخبار وتاريخ ابن عساكر في مواضع متفرقة منه .

٢ — تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج ١ ص ٣٢٧ .

٣ — السنة للسباعي ص ٩٩ وهذا المعنى في علوم الحديث لصبحي الصالح ص ٢٦٥ عن ابي هريرة .

وقد جاء في أضواء على السنة المحمدية ص ١٢١ قالوا : " لما أُخِذَ ابن ابي العوجاء ليضرب عنقه قال : " وضعت فيكم اربعة الاف حديث ، احرم فيها الحلال واحل الحرام (١)

وهكذا دس هؤلاء الزنادقة الاف الاحاديث في العقائد والاخلاق ، والحلال والحرام (٢) وبقي الحال يتقدم بهم الى ان لمس خلفاء بني العباس ما وراء حركة الزنادقة من خطر على كيان الاسلام السياسي فتعقبوهم بالقتل والتشتيت وابرز من اعمل السيف في رقابهم الخليفة المهدي ، الذي تتبع اوكارهم من شعراء وادباء ورؤساء وقضى عليهم ، ونذكر منهم ابن ابي العوجاء الذي مر ذكره قتله امير البصرة ومحمد بن سعيد المصلوب قتله ابو جعفر المنصور . (٣) .

رابعا — التقرب للملوك والامراء بما يوافق اهواءهم :

تميل الناس على دين ملوكهم ، فما يرغب فيه الحاكم يرغب فيه اكثر الناس مجالسة واستعطافا ، وما هذا التزلف الا لمنافع شخصية ومآرب أخرى . وعلماء الحديث من بين هؤلاء الناس ، كانوا يضعون الاحاديث وما يعجب حكامهم منها رغبة فيما في ايديهم كالذي حكي عن غياث بن ابراهيم انه دخل على المهدي ابن المنصور ، وكان يعجبه اللعب بالحمام فروى حديثا : (لا سبق الا في خف او حافر او جناح ، فامر له بعشرة الآف درهم فلما قام ليخرج قال المهدي : اشهد ان قفاك قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله " جناح " ولكنه اراد ان يتقرب الينا) (٤) والخليفة العباسي اعترف انه كذاب وامر له بمكافأة او ما هذا الا تشجيعا على الكذب . (٥) .

خامسا — الخلافات الفقهية والكلامية :

لما كثرت المذاهب في الاسلام نزع اصحاب المذاهب الى تأييد مذاهبهم باحاديث مكذوبة ، يضعون فيها حتى على التفاصيل الدقيقة التي ليس من مسلك الرسول (ص) التعرض لها ، وكذلك في الفقه فلا تكاد تجد فرعا فقهيا الا وحديث يؤيد هذا ، وحديث مناقض يؤيد ذاك .

---

١ — فجر الاسلام ص ٢١١ وهو عبد الكريم بن ابي العوجاء خال معن بن زائدة الشيباني (انظر توضيح الافكار . ج ٢ ص ٧٥

٢ — فجر الاسلام ص ٢١٥ اما ما ورد عن السباعي في السنة ص ١٠٢ فهو نفس الحديث ولكنه زاد : وامر المهدي بذبح الحمام .

٣ — المصدر نفسه .

٤ — انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥٦ لعبد القاهر البغدادي ، الباعث الحثيث ص ٩٤ وتدريب الراوي ص ١٨٧

٥ — انظر السنة للسباعي ص ١٠٤ فقد كتب السباعي كلمة طيبة جريئة عن تساهل الخلفاء والامراء مع الوضاعين وما كان لها من أثر سيء في الدين .)

قال احمد امين في فجر الاسلام : " وحتى مذهب ابي حنيفة الذى يذكر العلماء انه لم يصح عنده الا احاديث قليلة " (١)

ومن هذه الاحاديث : " من قال : القرآن مخلوق فقد كفر " كل من في السموات والارض وما بينهما فهو مخلوق غير الله والقرآن وسيجيء اقوام من امتي يقولون : القرآن مخلوق فمن قال ذلك فقد كفر بالله العظيم وطلقت منه امرأته من ساعته ، لانه لاينبغي لمؤمنة ان تكون تحت كافر الا ان تكون سبقته بالقول " (٢)

وعلائم الوضع في هذا الحديث ظاهرة جلية في تعليلاته وركاكة لفظه . ومن ذلك مارواه زهير بن معاوية قال اخبرنا محرز أبو رجاء — وكان يرى راي القدر فتاب منه — فقال : لاترووا عن أحد من أهل القدر شيئا ، فوالله لقد كنا نضع الأحاديث ندخل بها الناس في القدر نحتسب بها ولقد ادخلت أربعة آلاف من الناس . قال زهير : فقلت له : كيف تصنع بمن ادخلتهم ؟ قال : هاانا اذا اخرجهم الاول فالاول . (٣)

سادسا — القصص والوعظ :

قام بهذه المهمة قصاص لايخافون الله ، ولا يهمهم سوى ان يبكي الناس في مجالسهم واستمالتهم لحضور تلك المجالس الفقهية والوعظية . فكانوا يضعون القصص المكذوبة وينسبونها الى النبي (ص) .

قال ابن قتيبه وهو يتكلم على الوجوه التي دخل منها الفساد على الحديث : والوجه الثاني ، القصاص فانهم يميلون وجه العوام اليهم ، ويشيدون ماعندهم بالمناكير والاكاذيب من الاحاديث ، ومن شأن العوام القعود عند القاص ماكان حديثه غريبا عجيبا خارجا عن نظر العقول ، او كان رقيقا يحزن القلب فاذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك او زعفران ، وعجيزتها ميل في ميل ، ويبوء الله وليه قبة فلا يزال هكذا السبعين الفا لايتحول منها . (٤) .

١ — فجر الاسلام ، ص ٢١٤

٢ — السنة للسباعي ، ص ١٠٢ والسنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب ص ٢١٦

٣ — انظر الجرح والتعديل ج ١ ص ٢٢

٤ — تأويل مختلف الحديث ، ص ٣٥٧

ومن امثلة هذا القسم ما اورده السباعي في السنة " من قال لا اله الا الله خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب وريشه من مرجان " . (١)

وقد استحدث هذا النوع من افساد الحديث في عصور الاسلام وصورته هو ان يجلس القاص في المسجد ومن حوله الناس يذكرهم بالله ويقص عليهم احاديث وقصصا واساطير من امم اخرى فلا هم عنده صدق الحديث بل كل همه الترغيب والترهيب وكان للعامة قصاص وللخاصة ايضا . قال الليث بن سعد : (هما قصاصان قصص العامة وقصص الخاصة ، فاما قصص العامة فهو الذي يجمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم . وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ، واما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية . ثم يزيد فقد ولى معاوية رجلا على القصص فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده وصلى على النبي (ص) ودعا للخليفة ولاهل ولايته وحشمه وجنوده ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافـة (٢) .

وقد نما هذا الفن (القصص) بسرعة عند العامة لانه يتفق وميولهم ، قد اكثر القصاص من الكذب حتى رووا ان علي بن ابي طالب (ع) طردهم من المساجد ، حرصا على احاديث الرسول (ص) وخوفا من الدس في شريعة الله . (٣)

وقد تولى مهمة الوعظ قصاص لا يخافون الله ، ولا يهمهم سوى ان يبكي الناس في مجالسهم وان يعجبوا لما يقولون ، وما همهم ان صدقوا او كذبوا .

ويظهر انه اتخذ اداة سياسية وخاصة في عهد الفتن بين علي ومعاوية ، يستعينـ بها كل على ترويج حزبه حتى توصل معاوية الى ان امر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولاهل الشام (٤) . واخيرا اصبح القصص عملا رسميا (يعهد به الى رجـال رسميـيـن يعطون عليه أجـرا .

---

١ ـ السنـة للسباعـي ، ص ١٠١

٢ ـ فجـر الاسلام لاحمد امين ص ١٥٩ ، طبعة عاشرة عن خطط المقريـزي ج ٢ ص ٢٥٣

٣ ـ انظـر فجر الاسلام ، ص ١٦٠

٤ ـ فجـر الاسلام لاحمد امين ، ص ١٦٠

ولا بد ان نشير هنا الى منبعين كبيرين لهؤلاء القصاص وامثالهم ، تجد ذكرهما كثيرا في رواية القصص في التاريخ وفي الحديث والتفسير هما : وهب بن منبه ، وكعب الاحبار .

فاما وهب بن منبه فيمني من اصل فارسي وكان من اهل الكتاب الذين اسلموا وله اخبار كثيرة وقصص واخبار تتعلق باخبار الاول ومبدأ العالم وقصص الانبياء .

واما كعب الاحبار فيهودي من اليمن كذلك . اسلم في خلافة ابي بكر وانتقل بعد اسلامه الى المدينة ثم الى الشام حيث وجد ما يرغب اليه .

يروي ابن جرير (انه جاء الى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة ايام وقال له : اعهد فانك ميت في ثلاثة ايام . قال وما يدريك ؟ قال : اجده في كتاب الله عز وجل في التوراة قال عمر : انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال : اللهم لا ولكن اجد صفتك وحليتك وانه قد فني اجلك . (١)

وهذه القصة ان صحت دلّت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الاسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل .

(والوجه الثاني ، القصاص فانهم يميلون وجوه العوام اليهم ، ويشيدون ما عندهم بالمناكير والاكاذيب من الاحاديث ، ومن شأن العوام الجلوس عند القاص ما كان حديثه غريبا خارجا عن نظر العقول ، او كان رقيقا يحزن القلب فاذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك او زعفران وعجيزتها ميل في ميل ، ويبوء الله وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيها سبعون الف مقصورة في كل مقصورة سبعون الف قبة فلا يزال هكذا في السبعين لا يتحول عنها (٢)

ولاسباب عملية مهمة كان الوضع ارحب مجالا في علم الحديث ، اذ وجد الوضاعون عملهم سهلا ميسورا لان فترة العنعنة او الرواية الشفوية تفتح الباب على مصراعيه لكل نوع من التزوير . وكذلك كان تزوير الوثائق التاريخية لصالح فئات ، او لالحاق الضرر بها فاشيا على نطاق واسع بين الناس .

---

١ — فجر الاسلام ص ١٦٠ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ٧٩

٢ — تأويل مختلف الحديث ، ص ٣٥٧ والسنة ص ١٠١

وقد اهتم علماء المسلمين ان من واجبهم ان يضعوا مبادئ وقوانين عامة لمعرفـــة الصحيح من المزور ، ولاشك ان ماتعرفنا عليه عند كبار علماء الدين ، من اصول وقواعد في نقد الحديث ، ان في السند او المتن ، له فضل يذكر في غربلة الأحاديث وتنسيقها وتهذيبها كما صنف الكثير من المؤلفات في علوم الحديث كانت وما تزال نوراً هداية لمن اراد الاطلاع والوقوف على صحة علم الحديث .

ومن عجيب امر هؤلاء القصاص جرأتهم ووقاحتهم في الكذب

ونذكر بعض طرائفهم ما حدث لأحمد بن حنبل ويحي بن معين .

صلى احمد ويحي في مسجد الرصافة فقام بين ايديهم قاص فقال : (حدثنا احمد بن حنبل ويحي بن معين قالا : حدثنا عبد الرزاق عن قتادة عن انس : قال : قال رسول الله (ص) وساق الحديث السابق ، واستمر يذكر فيه نحوا من عشرين ورقة فجعل احمد ينظر الى يحي ويحي ينظر الى احمد فقال انت حدثت بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت بهذا الا الساعة فلما انتهى اشار له يحي فجاء متوهما نوالا .

فقال يحي من حدثك بهذا ؟ قال : احمد بن حنبل ويحي بن معين . فقـال يحي " انا يحي وهذا احمد ، ما سمعت بهذا قط في حديث رسول الله . فان كان ولابد فعلى غيرنا . فقال القاص : لم ازل اسمع ان يحي بن معين احمق ماتحققته الا الساعة . فقال له يحي وكيف ؟ فقال : اليس في الدنيا يحي بن معين واحمد ابن حنبل غيركما ؟ لقد كتبت من سبعة عشر احمد ابن حنبل ويحي بن معين (١)

ومن المؤسف ان هؤلاء القصاص والوعاظ قد لقوا من العامة آذانا صاغية وهذا ما شجعهم على المغالاة في السرد والوضع على الله وعلى رسوله .

سابعا — التساهل في أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب

لم يكن وضع الحديث مقتصرا على اعداء الدين واصحاب الاهواء فحسب ، وانما كان الصالحون الجاهلون من المسلمين يضعون الأحاديث حسبة لله !

واذا سألهم سائل كيف تكذبون على رسول الله قالوا : نحن نكذب له لا عليه) ولكن نسوا ان الكذب على من تعمده " (٢)

---

١ — الباعث الحثيث ص ٨٥ وكثير مثل هذه الأحاديث تجدها في الموضوعات عند ابن الجـــوزي .

٢ — راجع السنة للسباعي ص ١٠٢ وفتح الباري ج ١ ص ١٦١

قال الحافظ ابن حجر وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا احاديث الترغيب والترهيب وقالوا : نحن لم نكذب عليه بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته (١)

ومما نذكره في هذا المجال ايضا مارواه محمود ابورية في اضواء على السنة : ص١٢٨ قال عبدالله النهاوندي لغلام خليل — هو احمد بن محمد بن غالب الباهلي — وقد كان مشهورا بزهده حتى عرف بزاهد بغداد . توفي ٢٧٥ هـ)

(قلت لغلام احمد من اين لك هذه الاحاديث التي تحدث بها في الرقائق ؟ فقال وضعناها لنرقق بها قلوب العامة) وهذا مايحدث الان في عصرنا الحاضر وقد حدث معي شخصيا بعض الطرائف من هذا النوع

وهنالك اسباب اخرى لا سبيل لحصرها جميعها كالرغبة في الاتيان بغريب الحديث والانتصار للفئة والانتقام من فئة معينة والترويج لنوع من المآكل او الطيب او الثياب .

هل يمكن معرفة الموضوع بضابط من غير نظر في سنده ؟

ان من تضلّع في معرفة السنن الصحيحة ، واطلع على اسرارها وخفاياها ، تكون في نفسه ملكة واختصاص يجوزان به الحدود المرسومة والسدود المانعة عن رؤية النور ، نور الحقيقة . فالانسان لا يستطيع معرفة كنه الامور عن طريق بصره وانما عن طريق بصيرته . تلك البصيرة التي يشحذها المران والدربة والنظر البعيد السديد . فالطاهي يعرف جودة الطعام قبل ان يذوقه ، وربما اكتفى بحاسة الشم واغنته عن حاسة الذوق التي يتذوق بواسطتها الناس العاديون .

قال ابن دقيق العيد : كثيرا ما يحكمون بالوضع باعتبار أمور ترجع الى المروي والى الفاظ الحديث . وحاصله يرجع الى انه حصلت لهم لكثرة محاولة الفاظ النبي (ص) هيأة نفسانية ، وملكة قوية عرفوا بها ما يجوز ان يكون من الفاظ النبوة وما لا يجوز " (٣)

---

١ — عن اضواء على السنة ١٢٨ وفتح الباري ١ ص١٦١ واختصار علوم الحديث ص٨٦

٢ — انظر تدريب الراوي ص١٨٥

٣ — انظر توضيح الافكار ٢ ص٩٤) و (قواعد التحديث ص١٦٥)

وقد روى الخطيب عن الربيع ابن خثيم التابعي الجليل قال : " ان للحديث ضوءا كضوء النهار يعرف ، وظلمة كظلمة الليل تنكره " (١)

ان معرفة سيرة الرسول الكريم (ص) وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ، وفيما يحبه ويكرهه ثم التعرف على جميع احواله فيما يجوز وفيما لا يجوز ، وكل ما نطق به من اقوال وقام به من اعمال ، كل هذا يمنحنا النور الكاشف لانظارنا والاطمئنان المريح لانفسنا .

بعد هذا فلا اظن ان من اعطي هذه المعرفة ومنح مثل هذه الصفات يتعثر في الوصول الى معرفة الحديث الموضوع وذلك عن طريق المتن دون السند اذ يقشعر جلده وينفر قلبه على نحو ما قال ابن الجوزي : " الحديث المنكر يقشعر منه جلد طالب العلم ، وينفر منه قلبه " وهو يعني الممارس لالفاظ الشارع ، الخبير بها وبرونقها وبهجتها .

والخلاصة انه :
ان الذي زاد في تحريف الحديث وتلفيقه منذ
لم يكن الحديث النبوي صافيا لا يعتريه الكذب ولا يتناوله التحريف والتلفيق طوال اجتماع كلمة الامة على الخلفاء الاربعة الراشدين ، قبل ان تنقسم الى شيع واحزاب وقبل ان يندس في صفوفها اهل المصالح والاهواء ، وكانت البادرة الاولى التي ترتبت عليها الاضطرابات الكثيرة في القرن الهجري الاول ، هي فتنة عثمان واستشهاده ، فقد هزت العالم الاسلامي هزة عظيمة واورثت الامة عواقب وخيمة ، امتدت آثارها الى يومنا ، ثم اجتمعت بعد الفتنة كلمة المسلمين على امير المؤمنين علي (ع) ، الخليفة الراشد عاليه الا ان الاحداث كانت اقوى من ان تفسح للهدوء والسلام سبيلها الى الدولة آنذاك ، فحصل انقسام كبير في صفوف الامة تجسم في معسكر امير المؤمنين علي (ع) الذي انطوى تحت جناحه اهل الحجاز والعراق ، ومعسكر والي الشام معاوية الذي انضم اليه اكثر اهلها واهل مصر .

وقد جر هذا الانقسام على الامة الحروب الطاحنة وما لبثت ان انتهى بالتحكيم الذي كان سببا لظهور فرق سياسية مختلفة (٢)

---

١ — قواعد التحديث ص١٦٥
٢ — المصدر نفسه ص ١٦٥
٣ — تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ص٦٨ ، ج ١ وفجر الاسلام ص٢٥٦

فالجمهور يؤيد عليا ، لانه الخليفة الذى بايعته الامة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وحزب معاوية قام مطالبا بثأر عثمان ، وانتهى الامر الى طلب الخلافة وممارسة الحكم فعلا بعد التحكيم . والخوارج قوم من شيعة علي انشقوا عنه لانه قبل التحكيم ونادوا (لا حكم الا لله) ونقموا على معاوية لانه لا يصلح ان يتولى امر المؤمنين ، وهذا لا يكون الا بالشورى بينهم وكان هؤلاء اشداء اقوياء جلهم من العرب الجفاة القساة وكان لامير المؤمنين علي كرم الله وجهه مواقع كثيرة معهم وحروب دامية مدة خلافته ، كما كان لهم اثر بعيد في اقلاق مضاجع خلفاء بني امية طيلة الحكم الاموي .

وبعد استشهاد علي (ع) غدرا قام شيعته يطالبون بحقهم في الخلافة

وهكذا نشأت الاحزاب والفرق التي اتخذت شكلا دينيا كان له ابلغ الاثر في قيام المذاهب الدينية في الاسلام (١)

وقد حاول كل حزب ان يدعم ما يدعي بالقرآن والسنة ومن البديهي الا يجد كل حزب ما يؤيد دعواه في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة .

فتأولوا بعضهم القرآن وفسروا بعض نصوص الحديث بما لا تحتمله ، الا ان هذا لم يحقق ما يرمون اليه ، ولم يجد بعضهم الى تحريف القرآن ، او تأويله سبيلا ، لكثرة حفاظه ، فتناولوا السنة بالتحريف وزادوا عليها — وهي اسهل لهم من القرآن — ووضعوا على رسول الله ما لم يقل (٢)

ونشأت حركة الوضع مع الزمن حتى اختلط الحديث الصحيح بالموضوع ، وظهرت احاديث موضوعة في فضائل الخلفاء الاربعة ، كما ظهرت احاديث في دعم المذاهب السياسية والفرق الدينية وكانت الاحاديث الموضوعة تولد مع ظهور الفرق ، فينبرى من يضع احاديث تنتصر لتلك الفرق كما يقف الواضعون من الخصوم للدفاع عنها وهكذا ... حتى تكونت مجموعة من الاحاديث الموضوعة التي كشفت عنها جهابذة هذا العلم ورجاله ، ولم يقتصر الوضع على فضائل الاشخاص ودعم الاراء والافكار العقائدية والمذاهب السياسية بل تعداها الى مختلف ابواب الحديث ، وكانت الاحاديث الموضوعة تتناول جميع جوانب

---

١ — السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٨٩

٢ — اللآلىء المصنوعة ج ٢ ص ٢٤٨

الحياة الخاصة والعامة ، فوضعت احاديث في الفضائل والمثالب ، واحاديث في مناقب البلدان والايام ، واخرى في العبادات المختلفة وفي المعاملات ، والاطعمة ، والزهد ، والذكر والدعاء ، وفي الطب والمرض والفتن والمواريث وغيرها . (١)

ويجدر بنا ان نلاحظ ان الوضع لم يصل الى ذروته في القرن هذا ، لانه نشأ قبل منتصف القرن الهجري الاول بقليل ، وسرعان ما كان يعرف الحديث الموضوع لكثرة الصحابة والتابعين الذين عرفوا الحديث وحفظوه ، ولم يؤخذوا باراجيف الكذابين واخبار الوضاعين وكانت الاحاديث الموضوعة تزداد بازدياد الفتن والبدع .

ولما كثرت الفتن واهمها فتنة الحرة بالمدينة (٢) وغيرها لما مات يزيد جرت فتنة بالشام بين مروان والضحاك بمرج راهط ، فقتل المختار ابن زياد وجاء مصعب بن الزبير فقتل المختار ، ثم ذهب عبد الملك الى مصعب فقتله ، وارسل الحجاج الى ابن الزبير فحاصره مدة ثم قتله ، وتولى الحجاج العراق فخرج عليه محمد ابن الاشعث مع خلق عظيم من العراق وكانت فتنة كبيرة ، كل هذا بعد موت معاوية . ثم جرت فتنة ابن المهلب بخراسان وقتل زيد بن علي بالكوفة وقتل خلق كثيراً آخرون ، ثم قام ابو مسلم وغيره بخراسان وجرت حروب وفتن يطول وصفها (٣)

وعلى هذا فانا نستبعد ظهور الوضع قبل الفتنة ، كما نستبعد احداً من الصحابة المعروفين بعلمهم وورعهم بوضع الحديث على لسان رسول الله (ص) ، ولا يعقل ان يتصور مسلمو الصحابة الذين بذلوا نفوسهم واموالهم في سبيل الله ، وخاضوا المعارك الدامية وهجروا اوطانهم ، وقاسوا الوان العذاب ومرارة العيش ، لا يعقل ان يفتروا على رسول الله (ص) ويضعوا الاحاديث وهم الذين نشأوا في رعايته ، وتخرجوا من جامعته ، ونهلوا من معينه ، وساروا على خطته ، فكانوا بلا شك على جانب عظيم من التقى والورع والخشية وهؤلاء هم الصحابة الذين نعنيهم وليس غيرهم .

ذكرت فيما سبق ان اسباب الوضع الرئيسية في الحديث هي انقسام الامة الى احزاب سياسية اتخذت شكلا دينيا ، وحاول كل حزب ان يدعم موقفه ويؤيد آراءه بوضع احاديث على لسان رسول الله (ص) ثم ازدادت الاسباب التي كان لها اثر بعيد في وضع الحديث عن رسول الله (ص) . فكانت تلك الفوضى في الحديث .
هذا ما دعا جماعة من العلماء الصادقين لتنقية الحديث الشريف مما ألم به من زيف وعلل ، ولتمييز جيده من رديئه وقد سلكوا في ذلك جملة قواعد واصول حتى اعادوه سليما صحيحا كما قيل . وكل ذلك بفضل العلم والخبرة والاطلاع والدربة على السنة الكريمة فحصلت لهم هيئة نفسانية وملكة قوية (٤) ونحن نسأل بدورنا ، ماذا فعل علماء الحديث مقابل هذا الوضع

---

١ ـ انظر تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج ١ ص ٢٦٨ وفجر الاسلام ص ٢٥٦
٢ ـ وقعة الحرة مشهورة كانت سنة ٦٣ ايام خلافة يزيد بن معاوية بالمدينة
٣ ـ المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧
٤ ـ راجع السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ١١٥ وتوضيح الافكار ٢ ص ٩٤

معـــرفـة الحديث الموضـــوع

تســال آوس بن حجـــر :

الالمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا . (١)

لمعرفة الحديث الموضوع قواعد عديدة واصول كثيرة اتبعها القدماء ولا يسعنا من حصرها كلها ، وانما نشير الى ابرزها علنا نهتدي كما اهتدى غيرنا الى حسن التمييز الصحيح والموضوع .

لا يعرف مثل هذا العلم الا من تمرسوا بـه ووقفوا على كنـه فنه .

قال الربيع بن خثيم - " ان للحديث ضوءا كضوء النهار ، تعرفه وظلمة كظلمة الليل تنكره (٢) وقد ورد الحديث نفسه في المحدث الفاصل بعبارات مختلفة جاء كضوء النهار تعرفه بـه ، وان من الحديث حديثا له ظلمة كظلمة الليل تعرفه بها (٣)

روى لنا الشيخ ابو رية عن ابي الحسن علي (ح) بن عروة الحنبلي قال :

" القلب اذا كان تقيا نظيفا زاكيا ، كان له تمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، والهدى والضلال ، ولا سيما اذا كان قد حصل له اضاءة وذوق من النور النبوي ، فانـه حينئذ تظهر له خبايا الامور ودسائس الاشياء ، والصحيح من السقيم . ولو ركب على متن الفاظ موضوعة على الرسول (ص) اسناد صحيح او على متن صحيح اسناد ضعيف ، لميز ذلك وعرفه ، وذاق طعمه ، وفرق بين غثه وثمينه ، وصحيحه وسقيمه ، فان الفاظ الرسول لا تخفى على عاقل ذاقها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم :

" اتقوا فراسـة المؤمن فانـه ينظر بنور الله " (٤)

---

١ - التدريب ص ١٠٢

٢ - صبحي الصالح علوم الحديث ص ٢٦٤ من التوضيح ٢ / ٩٤

٣ - انظر المحدث الفاصل ص ٦٢ والكفاية ص ٤٣١ . وذكر الربيع بن خثيم في بعض المصادر (خثيم) والصواب خثيم كما في طبقات ابن سعد ص ١٢٧ ج ٦ وغيره .

٤ - اضواء على السنة المحمدية ، ص ٤٢ ١ رواه الترمذي من حديث ابي سعيد

وكما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : " ان في ذلك لآيات للمتوسمين (الحجر الاية ٧٥) اى المتفرسين هذا ويمكننا القول ان للقلب الصافي في الشعور بالزيغ والانحراف في الافعال ، فاذا سمع الحديث عرف مخرجه من اين ، وان لم يتكلم فيه الحفاظ واهل النقد . والصدق طمأنينة والكذب ريبة . قال تعالى :

" ولتعرفنّهم في لحن القول " (سورة محمد الآية ٣٠)

وقد كان ابو سليمان الداراني يسمي احمد بن عاصم الانطاكي : " جاسوس القلب " لحدة فراسته . (١)

وفي ذلك قال ابن تيمية (القلب المعمور بالتقوى اذا رجح بمجرد رايه فهو ترجيح شرعي ...) (٢)

فهو يرى أن الالهام هو الطريق الى الحقائق المطلقة . (٣)

ان في قلب المؤمن سراجا يزهر ، فكلما قوي الايمان في القلب قوي انكشاف الامور له ، وعرف حقائقها من بواطنها ، وكلما ضعف الايمان ضعف الكشف وذلك مثل السراج القوي الضوء والسراج الضعيف النور في البيت المظلم .

فالحديث الصحيح لا يمجه الذوق السليم ، والقلب المستنير بالايمان .

والواضح انه ليس من السهولة بمكان الحكم على حديث ما بالوضع ، لان التسرع في الوصف بالوضع كالتسرع في الوصف بالصحة .

وبعد هذا لا يحق لنا ان نروي خبرا موضوعا ، علمنا يقينا بوضعه ، الا بعد التنبيه انه مختلق مصنوع .

---

١ – أضواء على السنة المحمدية ص ١٤٢ وقواعد التحديث ١٦٨

٢ – المصدر نفسه ص ١٤٢

٣ – وقواعد التحديث ص ١٦٨ .

الفصـــــل الثانـــــي

الجهـــــود التي بذلـت في مقاومـة وضـع الحديث

اذا تدبرنا الجهود العظيمة التي قام بها الصحابة والتابعون وتابعوهم في مقاومـة وضع الحديث ، ولاحظنا الدقة التي اعتمدوها في اساليبهم وطرقهم ، تكون أبدا من صميم النقد الذي نحن بصدده في هذه الدراسـة .

كان الوضاعون يسيئون الى الدين اساءة خطيرة فيشوهون بكذبهم وجه الاسلام الصحيح ، ويدخلون في تعاليمه القويمة ما ليس منه . فانبرى لهم من الامة رجال مخلصون امناء علماء . قاوموا الوضاعين وتتبعوهم ومازوا الباطل من الصحيح ، وكان لجهودهم تلك ، الفضل الكبير في بلورة الحديث وتصفيته من الشوائب التي اشتبهت على كثير من الناس في امور دينهم ، لكثرة ما اختلقه الوضاعون ونسبوه زورا وبهتانا الى الرسول (ص)

ان المرء ليعجب الى حد بعيد بتلك القواعد العلمية الدقيقة التي طبقها العلماء لتنقية السنة الشريفة مما ادخلته فيها يد الوضع ، وبذلك المنهج الخاص الذي ابتدعوه ، في سبيل الحفاظ على حديث رسول الله (ص) . وقد ندرك قيمة بحثهم ودراستهم وصبرهم ، ازاء تلك الكثرة الغالبة من الاحاديث الموضوعة التي يصعب استقصاؤها وحصرها . ويكفينا بشهادة عبد الكريم بن ابي العوجاء) ، واعترافه بوضع اربعـة الاف حديث ، كما اقر محرز ابو رجاء القدري التائب بانهم وضعوا احاديث في القدر ، ادخلت اربعـة الاف انسان فيـه ، وما يترتب عليها من الاثار الجليلة (١)

كل ذلك حتى تحفظ السنة من عبث العابثين وتأويل المغرضين وتحريف الباطلين المضلين ، وصدق ابن المبارك حين قيل لـه : هذه الاحاديث الموضوعة !!؟ فقال تعيش لها الجهابذه " انا نحن نزّلنا الذكر وانـا لـه لحافظون " (٢)

---

١ ـ تدريب الراوي ص١٨٤ والكفاية ص٣٧ والجرح والتعديل ص١٨ للرازي ، الآية ٩ : الحجر

٢ ـ فجر الاسلام ص ٢١١

ونستعرض الآن مابذله علماء الاسلام في سبيل حفظ الحديث الشريف ، وما نهجوا من قواعد دقيقة في كل مايتعلق بالحديث النبوي رواية ودراية ، وخطوا خطوات جليلة ساهمت الى حد بعيد في نقد الحديث وسلامته من العبث والفساد ونلخصها فيما يلي :

اولا : التزام الاسناد

قلنا ان الحديث بقي سليما حتى كانت الفتنة ، وتكونت الفرق والاحزاب ، وبدأ الكذب على رسول الله يتخذ مطيه لاهل الاهواء ، فوقف بعض الصحابة والتابعون من هذه الظاهرة وقفة قوية للحفاظ على الحديث الشريف ، واصبحوا يشددون في طلب الاسناد من الرواة والتزموه في الحديث ، لان السند للخبر كالنسب للمرء ، ويخبرنا الامام محمد بن سيرين (١) عن ذلك فيقول : " لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم ، فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى اهل البدع فلا يؤخذ حديثهم ". (٢)

ان رواة الاحاديث ومعرفتهم من حيث العلم والفقه والضبط ، اى معرفة مشخصات الرجل (caractères) تؤثر بصورة مباشرة على تاريخ الاسلام ، لان الرواة هم حملة الاسلام بين عالم ، وقائد ، وشخصيات سياسية كبيرة ، (علي بن يقطين) وهو احد كبار الرواة ووزير في البلاط العباسي .

والائمة المعصومون عند الشيعة نعتبرهم قادة المعارضة البناءة في التعاليم الاسلامية وهم المصدر الرئيسي في الحديث الصحيح .

ويرتبط نقد الحديث من حيث السند ، ارتباطا وثيقا بعلم العقيدة ، والمثال على ذلك : ان اناسا مثل بني فضال وهم من كبار الرواة الذين يروون عن الامام الهادى والعسكرى شذوا عن الخط الشيعي السليم ، لانهم تنكروا لامامة الامام العاشر (الهادى) وقد قال فيهم الامام : (خذوا عنهم ما رووا ودعوا ما رأوا) . وكذلك بعض كبار الرواة كالبرقي صاحب المحاسن اتهم بالغلو واخرجه ابن بابوية (الصدوق) من مدينة قم . وغير ذلك مما يؤكد ان معرفة آراء الراوى تدخل في نطاق النقد الذى نحن بصدده .

---

١ محمد بن سيرين : هو الفقيه الزاهد بن سيرين الانصاري ، وكان ابوه سيرين مولى لانس بن مالك اشتراه من خالد بن الوليد . توفي سنة ١١٠ هـ وقد ادرك ثلاثين من الصحابة : روى احاديث عن زيد بن ثابت وروى عنه الاوزاعي . قال عنه ابن سعد : "كان ثقة مأمونا عالي القدر ، رفيعا اماما كثير العلم " انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٢١٤

٢ - صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٨٤ وسنن الدارمي ١ ص ١١٢ ومحمد بن سيرين تابعي جليل ولد سنة ٣٣ هـ توفي ١١٠ هـ .

وهذا النقد نقد رجال الحديث، لم يعره الصحابه والتابعون جل اهتمامهم قبل الفتنة الا قليلا ، وذلك لانهم كانوا على جانب كبير من الصدق والامانة والاخلاص ومع ذلك لا نعدم بعض الروايات القليلة التي تشير الى شيء من اهتمامهم لنقد السند قبل الفتنة ، مثل ماحدث به علي بن ابي طالب (ع) ومنه البراء بن عازب " ان فاطمه اخبرته ان رسول الله (ص) امرها ان تحل ، فحلت ونضحت البيت بنضوح " ١ "

وبعد التحقيق تبين ان راوي الحديث هو جابر بن عبد الله الانصاري عن رسول الله (ص) كما اورده مسلم في صحيحه ج ٨ ص ١٧٠ (٢)

وخلاصة القول ، ان المسلمين قبل الفتنة لم يلتزموا الاسناد دائما لما كانوا عليـــه من الصدق والامانة ، علما بان الاسناد لم يكن طارئا وجديدا على العرب بعد الاسلام ، بل عرفوه قبل الاسلام وكانوا احيانا يسندون القصص والاشعار بعد الجاهلية (٣)

اذا التزموا هذا التثبت في الاسناد ، في عهد صغار الصحابة وكبار التابعين ، الذين كانوا يسألون عن الحديث ويلتزمونه ، ومن هذا ما يرويه ابن عبد البر عن الشعبي عن الربيع بن خثيم قال : " من قال (لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، عشر مرات كن له كعتق رقاب او رقبة . قال الشعبي فقلت للربيع من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : عمرو بن ميمون الاودي ، فلقيت عمر بن ميمون فقلت من حدثك بهذا الحديث ؟ فقال : عبد الرحمن بن ابي ليلى ، فلقيت ابن ابي ليلى فقلت : من حدثك ؟ قال ابو ايوب الانصاري صاحب رسول الله (ص) (٤) قال يحيى بن سعيد وهذا اول من فتش عن الاسناد (٥) .

---

١ - اورده مسلم في صحيحه ج ٨ ص ١٧٠

٢ - الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ، ص ١٨٢

٣ - وقد ينتهي الاسناد الى الشاعر او الى روايته ولم يكن الاسناد المتصل دائما بل من النادر اما الاسناد المرسل فهو الاكثر ويكاد يكون ملتزما في رواية الادب التزاما لا اخلال فيه " انظر مصادر الشعر الجاهلي " ص ١٤

٤ - مقدمة التمهيد لابن عبد البر ، ص ٤

٥ - المحدث الفاصل ، ص ٢٠

فالسؤال عن الاستاذ وعن التلميذ ضروري جدا في الاسناد • عمن اخذ المحدث ولمن حدث • اما اليوم وقد ابتعدنا كثيرا من مصدر الحديث ، وكلما كان البعد شاسعا كلما كانت الصعوبة اكثر في الوصول الى الحقيقة • فعلينا ان نكون اكثر حذرا ، وابعد نظرا ، واوسع افقا ، حتى نتمكن من سلوك تلك الطريق البعيدة والعسيرة •

والتابعون ايضا واتباعهم كانوا يتواصون بطلب الاسناد ، قال هشام بن عروة اذا حدثك رجل بحديث فقل عمن هذا ؟ (١) وكان الزهري اذا حدث اتى بالاسناد ويقول : لا يصلح ان يرقى السطح الا بدرجة " (٢) وقال : الاوزاعي " ماذهب العلم الا ذهاب الاسناد " (٣) كما قال الاوزاعي (٣) الاسناد سلاح المؤمن ، فاذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل " (٤) وعلى مذهب الاوزاعي فسلاحنا في نقد الحديث معرفة الاسناد او ما يعرف (بعلم الرجال) •

ويقول عبدالله ابن المبارك في هذا المجال : " الاسناد من الدين ولولا الاسناد لقال من شاء ماشاء ، وعنه ايضا قال : " بيننا وبين القوم القوائم يعني الاسناد (٥)

وقد اتقن التابعون الاسناد وبرزوا فيه كما برزوا في غيره من علوم الحديث ، وهكذا نرى ان الاسناد المتصل ، كان قد اخذ نصيبه من العناية والاهتمام في عهد التابعين حتى اصبح من واجب المحدث ان يبين نسب ما يروي • وقد شبه بعضهم الحديث من غير اسناد ، بالبيت بلا سقف ولا دعائم ونظموه في قولهم •

والعلم ان فاته اسناد مسنده كالبيت ليس له سقف ولا طنب (٦)

وكان المحدث باسناده الحديث يرفع العهدة عن نفسه ، ويطمئن الى صحة ما ينقل عندما ينتهي

---

١ — الجرح والتعديل ، ج ١ ص ٤٦ لابي حاتم الرازي •

٢ — المرجع السابق ج ١ ص ١٦

٣ — مقدمة التمهيد لابن عبد البر ص ١٥

٤ — شرف اصحاب الحديث ص ٨٠ المكتبة الظاهرية بدمشق ج ١ ص ٢٩

٥ — صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٨٨

٦ — المحدث الفاصل ، ص ٢٢

سنده المتصل الى رسول الله (ص) (١)

ونثبت هنا كلمة للدكتور ناصر الدين الاسد عن مرد التزام الاسناد المتصل في رواية الحديث يقول : " ويبدو لنا ان مرد التزام الاسناد المتصل في رواية الحديث الى أمرين : امر داخلي وآخر خارجي . اما الداخلي فمبعثه من نفس الراوي ، ومصدره شعوره بالتحرج الديني ، وذلك انه ينقل كلاما من كلام رسول الله (ص) وهو الذي قال في حديثه المشهور " من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار " وفي الاسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن الى أن غيره من شيوخه وشيوخ شيوخه ، ثم التابعين والصحابة — يشتركون معه في تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وانه لا يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وان تبعته لا تعدو النقل الامين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت .

واما الامر الخارجي ، فمرجعه الى سامعي الحديث من المحدث ، وذلك ان الحديث يتضمن جزءا كبيرا من السنة ، أو هو السنة كلها ، وهو من اجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الاسلامي ، بل انه المصدر الثاني الذي يلي في القيمة كتاب الله ، فلذلك كان من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة في نفوس السامعين ، ويوحي اليهم بالثقة في حديث المحدث — ان يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدثين ، كلهم يشهد انه سمعه ممن قبله حتى يصل الاسناد الى الصحابة فالرسول " ٢ "

ثانيا — التثبت في الحديث :

كان كثيرا من طلاب العلم يرحلون الى الصحابة فيقطعون الفيافي والقفار للتأكد من حديث سمعوه من تابعي عندهم ، وهذا معنى قول ابي العالية : كنا نسمع الرواية عن اصحاب رسول الله (ص) بالبصرة فلم نرض حتى ركبنا الى المدينة فسمعناها من افواههم " (٣)

---

١ — راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٩

٢ — مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٨ — ٢٥٩

٣ — الجامع لاخلاق الراوي آداب السامع ص ١٦٨ وجامع بيان العلم ص ٩٣ ج ١

بعض ان الصحابة رحل بعضهم الى بعض في سبيل هذا ، فقد ارتحل ابو ايوب الى عقبه بن عامر في مصر (١) ورحل جابر بن عبدالله الى عبدالله بن انيس في حديث (٢)

واما التابعون واتباعهم فقد كانوا على نطاق واسع من التنقل والارتحال في سبيل تحمل الحديث عن الثقات مذاكرة الاحاديث ، فهناك من ارتحل الى ابي الدرداء لحديث عنده في دمشق (٣) . كما رحل ابن شهاب الى الشام ، الى عطاء بن يزيد ورحل يحي بن ابي كثير الى المدينة ، للقاء من بها من اولاد الصحابة ، ورحل محمد بن سيرين الى الكوفة ليلقى عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن بن ابي ليلى ، كما رحل سفيان الثوري الى اليمن (٤)

وكثيرا ما كان التابعون واتباعهم يتذاكرون الحديث ، فيأخذون ما عرفوا ويتركون ما نكروا ، وما الاخذ والترك حسب اصول الرواية ، الا النقد الصحيح . قال الامام الاوزاعي : كنا نسمع الحديث فنعرضه على اصحابنا كما يعرض الدرهم الزيف ، على الصيارفة فما عرفوا منه اخذنا وما تركوا تركناه (٥) وكانوا دائما يرجعون الى من يثقون به ، فاذا اختلف شعبة وسفيان الثوري قالا : " اذهبا بنا الى الميزان مسعر (٦) " ومسعر هو ابن كدام الهلالي العامري ، ابو سلمة الكوفي ، كان آية في الحفظ ثقة من الطبقة السابعة توفي سنة (١٥٢ هـ) (٧)

وكان ائمة الحديث في هذا العصر على جانب عظيم من الوعي والادراك ، فقد كانوا يحفظون الصحيح والضعيف والموضوع حتى لا يختلط عليهم الحديث وليميزوا الخبيث من الطيب . وفي هذا يقول الامام سفيان الثوري : "اني لاروي الحديث على ثلاثة اوجه اسمع الحديث من الرجل اتخذه دينا ، واسمع من الرجل اقف حديثه ، واسمع من الرجل لا اعبأ بحديثه واحب معرفته (٨)

---

١ ـ جامع بيان العلم ج ١ ص ٨٢
٢ ـ الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٨ وجامع بيان العلم ص ٩٣ ج ١
٣ ـ الجرح والتعديل ج ١ ص ١٢
٤ ـ المحدث الفاصل ص ٢١
٥ ـ الجرح والتعديل ج ١ ص ٢١ المحدث الفاصل ص ٦٤
٦ ـ المحدث الفاصل ص ٧٥
٧ ـ تهذيب التهذيب ج ١ ص ١١٢ ومسعر هو ابن كدام العامري آية في الحفظ توفي ١٥٢
٨ ـ الكفاية ص ٤٠٢ وانظر الجامع لاخلاق الراوي ص ١٥٧

ويروى لنا ابو بكر بن الاثرم " ان احمد بن حنبل رأى يحيى بن معين بصنعاء في زاوية وهو يكتب صحيفة معمر عن ابان عن انس ، فاذا طلع عليه انسان كتمه ، فقال له احمد بن حنبل : تكتب صحيفة معمر عن ابان عن انس وتعلم انها موضوعة ، فلو قال لك قائل : انك تتكلم في ابان ثم تكتب حديثه على الوجه ، فقال : رحمك الله يا ابا عبد الله ، اكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فاحفظها كلها ، واعلم انها موضوعة حتى لا يجيء بعده انسان فيجعل بدل ابان ثابتا ويرويها عن معمر عن ثابت عن انس بن مالك ، فاقول له : كذبت انما هي معمر عن ابان لا عن ثابت (١)

ثالثا — تتبع الكذبة :

والى جانب كل ما ذكرنا واحتياط العلماء وتثبتهم في قبول الاخبار ، كان بعضهم يحاربون الكذابين علانية ويمنعونهم من التحديث ، ويستعدون عليهم السلطان ، فقد كان عامر الشعبي " يمر بابي صالح صاحب التفسير فيأخذه بأذنه ويقول : ويحك كيف تفسر القرآن وانت لا تحسن ان تقرأ (٢)

وقال الشافعي : " لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق ، كان يجيء الى الرجل فيقول : لا تحدث والا استعديت عليك السلطان " (٣) وقد كان شعبة شديدا على الكذابين قال عبد الملك بن ابراهيم الجدى الثقة المأمون : " رأيت شعبة مغضبا مبادرا فقلت : " مه يا ابا بسطام فاراني طينة في يده وقال : استعدى على جعفر ابن الزبير يكذب على رسول الله (ص) (٤) وفي رواية " على هذا يعني جعفر بن الزبير وضع على رسول الله (ص) وفي رواية " على هذا يعني جعفر بن الزبير وضع على رسول الله (ص) اربعمائة حديث كذب " (٥)

وكان الامام الثوري شديدا على الكذابين لا يتوانى عن اظهار عيوبهم

---

١ — الجامع لاخلاق الراوى ص ١٥٧

٢ — قبول الاخبار ص ٤٢ وفيه ان ابا صالح اعترف للكلبي بان كل ما حدثه كان كذبا .

٣ — الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٤٩

٤ — المصدر نفسه ص ١٤٩ والطينة واحدة الطين وهو الوحل ولعل الراوى اراد بها اللبنة التي يبنى بها الجدار

٥ — تهذيب التهذيب ، ج ٢ ص ٩١

حدث حماد المالكي وكان كذابا - حديثا فجاء عمر الانطاطي وقال له : والله لاتفارقني حتى استعدي عليك فاقرأنه لم يسمعه من الحسن ، وحلف لايحدث به ، قال فكتبت عليه كتابا واشهدت عليه شهودا (١)

وكان بعض المحدثين لايتحملون هؤلاء وكذبهم فيضربونهم ويهددونهم بالقتل .
روى الامام مسلم باسناده المتصل عن حمزة الزيات قال : سمع مُرّة الهمذاني من الحارث (الامور) شيئا فقال له : اقعد بالباب ، قال : فدخل مُرّة واخذ سيفه ، قال : وأحس الحارث بالشر فذهب" (٢)

وكان نتيجة هذا ان توارى كثير من الكذابين وكفوا عن كذبهم ، كما اصبح عند العامة وعي جيد : يميزون به بين المتطفلين على الحديث واهله ورجاله الثقات ، ويدل على هذا مارواه ابن حجر عن يزيد بن هارون قال : كان جعفر بن الزبير وعمران بن حدير في مسجد واحد مصلاهما ، وكان الزحام على جعفر بن الزبير وليس عند عمران احد ، وكان شعبه يمر بهما ويقول : " ياعجبا للناس ا اجتمعوا على أكذب الناس وتركوا اصدق الناس ، قال يزيد : فما اتى عليه قليل حتى رأيت ذلك الزحام على عمران ، وتركوا جعفرا وليس عنده احد " (٣) .

وكان الناس لايجرأون على الكذب في زمن سفيان الثوري ، لانه كان شديدا على الكذابين : يكشف عنهم ، ويبين عوارهم ، وفيه قال قتيبة بن سعيد " لولا سفيان الثوري لمات الورع" (٤)

رابعا - بيان أحوال الرواة :

ان معرفة رواة الحديث تمكن النقاد من الحكم بصدقهم او كذبهم ، حتى يتمكنوا من تمييز الحديث الصحيح من المكذوب ، لذلك درسوا حياة الرواة وتاريخهم وتتبعوهم

---

١ - هو حماد بن مالك ويقال المالكي شيخ روى عن الحسن ورده بالكذب المحدث الفاصل ص ٦٢ والجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٥٠

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٩٩ الحارث كذاب توفي ٦٥ هـ ومُرّة تابعي ثقة عابد جليل توفي ٧٦ هـ . انظر تهذيب التهذيب ج ١ ص ٨٨ - ٨٩

٣ - تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٩١

٤ - الكامل لابن عدي ج ١ ص ٢

في مختلف حياتهم وعرفوا بجميع احوالهم ، كما تعمقوا في البحث بعيدا (حتى عرفوا الاحفظ فالاحفظ ، والاضبط فالاضبط ، والاطول مجالسة لمن فوقه ممن كان اقل مجالسة (١) وقد قال سفيان الثوري " لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ (٢)

وكانوا يبينون احوال الرواة وينقدونهم ويعدلونهم ، لاخوفا من عقاب ولا طمعا بمكافأة فلا تأخذهم خشية احد ، ولا تتطلهم عاطفة فليس احد من اهل الحديث يحابي في الحديث اباه ولا اخاه ولا ولده ، فهذا زيد بن ابي انيسة يقول " لا تأخذوا عن اخي ..." (٣) وقال علي بن المديني عندما سألوه عن ابيه : " سلوا عنه غيري فاعادوا المسألة فاطرق ، ثم رفع رأسه فقال : هو الدين ، انه ضعيف " (٤) وكان وكيع بن الجراح لكون والده كان على بيت المال يقرن معه اخر اذا روى عنه (٥)

وكان ائمة النقاد يعينون اياما للتكلم في الرجال واحوالهم : قال ابو زيد الانصاري ، النحوي : اتينا شعبة يوم مطر ، فقال ليس هذا يوم حديث ، اليوم يوم غيبة ، تعالوا نغتاب الكذابين " (٦) وكانوا يأمرون طلابهم واخوانهم ان يبينوا حال الراوي الذي يكثر غلطه والمتهم في حديثه . قال عبد الرحمن ابن مهدي : " سألت شعبة ابن المبارك والثوري ومالك بن انس الرجل يتهم بالكذب فقالوا : " انشره فانه دين " (٧) .

وكان النقاد يدققون في حكمهم على الرجال يعرفون لكل محدث ماله وما عليه ، قال الشعبي " والله لو أصبت تسعة وتسعين مرة واخطأت مرة لعدوا علي تلك المرة الواحدة (٨) وكانت العوامل لاتخريهم وكل ما يهمهم ان يخلصوا العمل لله . ويصلوا الى ماتوتاح اليه ضمائرهم لخدمة الشريعة الاسلامية ودفع مايشوبها وبيان الحق من الباطل .

---

١ — شرف اصحاب الحديث ص ٢٨
٢ — الكامل لابن عدي ج ٢ ص ٤ والكفاية ص ١١٩
٣ — صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١٢١
٤ — الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٦٦
٥ — المرجع نفسه
٦ — مقدمة التمهيد ص ١٢
٧ — تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٧٧
٨ — المصدر نفسه

قال يحيى بن معين : " انا لنطعن على اقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة منذ اكثر من مائتي سنة (١) قال السخاوي : " اي انا س صالحون ولكنهم ليسوا من اهل الحديث " ٢) وعن ابي بكر بن خلاد قال : قلت ليحيى بن سعيد القطان اما تخشى ان يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال : " لان يكون هؤلاء خصمائي احب الي من ان يكون خصمي رسول الله (ص) . يقول : " لم حدثت عني حديثا ترى انه كذب ؟ (٣)

وهكذا تكون علم الجرح والتعديل الذي وضع اسسه كبار الصحابة والتابعين واتباعهم على ضوء الشريعة الاسلامية متأسين برسول الله . قال تعالى : " يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة . فتصبحوا على مافعلتم نادمين (٤) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الجرح : " بئس اخو العشيرة " وفي التعديل : " ان عبدالله رجل صالح " (٥) وقد مضى القرن الاول ودخل القرن الثاني وكان في اوائله من اواسط التابعين جماعة من الضعفاء الذين ضعفوا غالبا من قبل تحملهم وضبطهم للحديث .

قال الامام مالك : لايؤخذ العلم من اربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك :

لايؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس الى هواه ، ولا من سفيه معلن بالسفه ، وان كان من اروى الناس ، ولا من رجل يكذب في احاديث الناس ، وان كنت لاتتهمه ان يكذب على رسول الله (ص) ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة . اذا كان لايعرف مايحدث " (٦) صاحب الهوى والسفيه والكذاب والجاهل : يطرح حديثهم : وقيل لشعبة بن الحجاج متى يترك حديث الرجل ؟ قال : اذا روى عن المعروفين مالا يعرفه المعروفون فاكثر ، واذا اكثر الغلط ، واذا اتهم بالكذب ، واذا روى حديثا غلطا مجتمعا عليه فلم يتهم نفسه فيتركه ، طرح حديثه وما كان غير ذلك فارووا عنه " (٧) .

---

١ — الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٠
٢ — الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٥٢
٣ — الكفايـــة ص ٤٤
٤ — الحجـــرات : ٦
٥ — الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٥٢ وانظر الكفاية ص ٣٨ — ٣٩
٦ — المحدث الفاصل ص ٧٩ والجرح والتعديل ج ١ ص ٣٢ والكفاية ص ١١٦
٧ — الجرح والتعديل ج ١ ص ٣٢ والمحدث الفاصل ص ٨٢ والكفاية ص ١٤٢ روى مثل هذا عن الامام أحمد انظر الكفاية ص ١٤٤

وهكذا منذ صدر الاسلام ، نرى اعلام الحديث يضعون اصول النقد الصحيحة في احوال الرواة : المقبول منهم والمتروك ، وتكامل علم الجرح والتعديل ، والفت مصنفات ضخمة في الرواة واقوال النقاد فيهم ، حتى انه لم يعد يختلط الكذابون والضعفاء بالعدول الثقات ، كما الفت معاجم خاصة بالضعفاء والمتروكين ، واصبح من السهل جدا على اصحاب الحديث ان يميزوا الخبيث من الطيب في كل عصر ، استنادا على تلك المقاييس .

وقد بنى النقاد حكمهم في الرواة على قواعد دقيقة فقدموا للحضارة الانسانية اعظم انتاج في هذا المضمار فخدموا السنة الشريفة وصانوها

قال المستشرق الالماني " شبرنجر " في تصدير كتاب الاصابة لابن حجر — طبعة كلكتا سنة ١٨٣٥ — ١٨٦٤ " لم تكن فيما مضى امة من الامم المعاصرة اتت في علم اسماء الرجال بمثل ماجاء به المسلمون في هذا العلم الخطير العظيم . الذى يتناول احوال خمسمائة الف رجل وشؤونهم ... " (١)

ولم يكتف العلماء بالتزام الاسناد ، والتثبت من الاحاديث بالارتحال الى الصحابة والتابعين ومراجعتها ومقارنتها ومعرفة ارتقها واسانيدها ومعرفة احوال رواتها (٢) ، بل قسموا الحديث الى درجات يعرف بها المقبول منه والمردود ، يندرج تحت كل قسم فروع اخرى . وقسمه ابن الصلاح اقساما كثيرة باعتبار الصفة التي فقدها من صفات القبول الستة وهي :

الاتصال ، والعدالة ، والضبط ، والمتابعة في المستور ، وعدم الشذوذ ، وعدم العلة

وباعتبار فقد صفة مع صفة اخرى تليها اولا ، او مع اكثر من صفة الى ان تفقد الستة فبلغت فيما ذكره العراقي في شرح الالفية اثنين واربعين قسما (٣) وقسمه غيره الى اقسام اكثر .

---

١ — اضواء على التاريخ الاسلامي ص١٣٦

٢ — انظر اختصار علوم الحديث ص ٤٢

٣ — تدريب الراوي ص ١٠٥ وفتح المغيث ج ١ ص ٥٥

خامسا — وضع قواعد لمعرفة الموضوع من الحديث

وكما وضع العلماء قواعد دقيقة لمعرفة درجات الحديث : الصحيح والحسن والموثق والضعيف ، وضعوا ايضا قواعد لمعرفة الموضوع منه ، وذكروا ما يدل على الوضع في سند الحديث ، وما يدل عليه في متنه ، وقد قسموا هذه القواعد الى قسمين :
أ — علامات الوضع في السند — ب — وعلامات الوضع في المتن .

أ — من علامات الوضع في السند

١ — ان يعترف راوي الحديث بكذبه ويقر باختلاقه ما يروى كما اقر عبد الكريم الوضاع وكما اعترف ابو جزي وهو مريض فقال : " ولولا انه حضرني من الله ما ترون ، كنت خليقا الا اقر ولا اعترف ولكني اشهدكم اني وضعت من الحديث كذا ، واني استغفر الله منها واتوب اليه (١) وهذا اقوى دليل على كون الحديث موضوعا .

٢ — وجود قرينة تقوم مقام الاعتراف بالوضع :

كأ يروى عن شيخ لم يلقه ، او يروى عن شيخ في بلد لم يرحل اليه ، او يروى عن شيخ ولد بعد وفاته او توفي هذا الشيخ والراوي صغير لا يدرك ، قيل لشعبه ، لم لا تحدث عن عثمان بن ابي اليقظان وهو عثمان بن عمير ؟ فقال : كيف احدث عن رجل كنت جالسا معه فسألته عن سنه فاخبرني بمولده ، ثم حدث عن رجل مات قبل ان يولد ؟ وان هذا الصنف لا يمكن معرفته الا بمعرفة مولد الشيخ ووفاتهم ، والبلدان التي رحلوا اليها ، والاماكن التي اقاموا فيها ، كيلا يستغل الوضاعون الشيوخ الثقات لترويج ما يضعون وقد وفق علماء الامة في هذا ، فقسموا الرواة طبقات ، وعرفوا كل شيء عنهم . ولم يخف عليهم من احوالهم شيء . وفي هذا قال حفص بن غياث ، " اذا اتهم الشيخ فحاسبوه بالتاريخ — يعني احسبوا سنه وسن من كتب عنه — وقال حسان ابن زيد : لم نستعن على الكذابين بمثل التاريخ ، نقول للشيخ : كم سنه ؟ وفي اي تاريخ ولد ؟ فان اقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه (٢) .

---

١ — قبول الاخبار ، ص١٦ ، لابي القاسم البلخي وانظر التدريب ص ١٠٢
٢ — قبول الاخبار ، ص ١٦
٣ — تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ، ج ١ ص ٢٦

٣ — ان يتفرد راو معروف بالكذب برواية حديث ، ولا يرويه ثقة غيره ، وبينوا ماكذبوا فيه حتى لم يخف منهم أحد .

٤ — ومن القرائن التي يدرك بها الوضع ، ما يؤخذ من حال الراوي ، كما حدث للمأمون بن احمد ، انه ذكر بحضرته الخلاف في كون الحسن سمع من ابي هريرة اولا ، فساق في الحال اسناده الى النبي (ص) انه قال سمع الحسن من ابي هريرة (١)

ومن هذا ما ذكر ايضا من سيف بن عمر الذى روى خبر وضع سعد بن طريف الحديث " معلمو صبيانكم شراركم ... " (٢)

كل هذه العلوم اعتقد انها ضرورية جدا ، لمن اراد البحث في علم الحديث . ذلك ان النبي حدث في جميع الميادين التي يحتاج اليها الانسان ، ان في حياته الدنيا وعلاقته مع اخيه الانسان ، او في الحياة الاخرى اى في اصول العقيدة وما يرافقها من شروح واستيضاح .

والباحث في علم الحديث كالطبيب الذى لابد له من تشخيص المرض ، اذ يسأل المريض من تاريخ حياته وما جرى له من حوادث وعلل ، ثم يسأل من اهله وذويه ان مرضوا قبله بنفس المرض ، فهناك بعض الامراض بالوراثة . ثم يسأل من شعور المريض بالالم .. الى ما هنالك حتى يستطيع من اعطاء الدواء الشافي الذى

والعالمين من محياهم ومعاشرتهم ، كما لابد له من وجهة اخرى من البحث في علل الحديث وامراضه المختلفة . التى طرأت على متنه من زيادة او نقص ، او تحريف او لحن او تصحيف .

---

١ — قواعد التحديث ص ١٢٣ وقيل لمأمون بن احمد الهروى : الا ترى الى الشافعي ومن تبعه بخراسان ؟ حدثنا احمد بن عبدالله . من انس مرفوعا يكون في امتي رجل يقال له محمد بن ادريس اضر على امتي من ابليس . انظر تدريب الراوى ، ص ١٨١

٢ — انظر ص ٢١٧ — ٢١٨ في الفصل السابق من هذا الباب .
تدريب الراوى ج ١ ص ١٠٠ .

فللطبيب ادوات خاصة يستعين بواسطتها وقواعد يقيس عليها ليستطيع من معرفة السقم في جسم الانسان ، وللمحدث ادواته وطرقه ومقاييسه ليعرف ايضا مكان المرض ونوعه ، فيسقطه من الحديث .

ب — من علامات الوضع في المتن :

قال الامام ابن قيم الجوزية : (وسئلت : هل يمكن معرفة الموضوع بضابط من غير ان ينظر في سنده ؟ وهذا سؤال عظيم القدر ، وانما يعلم ذلك من تضلّع في معرفة السنن الصحيحة ، واختلطت بدمه ولحمه ، وصار له فيها ملكة ، وصار له اختصاص شديد بمعرفة علوم الحديث ، والاثار ، ومعرفة رسول الله (ص) وهديه ، فيما يأمر به ، وينهى عنه ويخبر عنه ، ويدعو اليه ، ويحبه ويكرهه ويشرعه للامة بحيث كأنه مخالط للرسول (ص) كواحد من اصحابه ، ومثل هذا يعرف — من احوال الرسول (ص) وهديه وكلامه ، وما يجوز ان يخبر عنه ، وما لا يجوز — ما لا يعرفه غيره .

ثم يزيد :

وهذا شأن كل متبع مع متبوعه ، فالاختص به ، الحريص على تتبع اقواله وافعاله في العلم بها ، والتمييز بين ما يصح ان ينسب اليه وما لا يصح — ما ليس لمن لا يكون كذلك وهذا شأن المقلدين مع ائمتهم : يعرفون من اقوالهم ونصوصهم ومذاهبهم واساليبهم ومشاربهم ما لا يعرفه غيرهم (١) .

وقال ابن دقيق العيد : (وكثيرا ما يحكمون بذلك (اي بالوضع باعتبار يرجع الى المروي والفاظ الحديث ، وحاصله انها حصلت لهم بكثرة محاولة الفاظ النبي (ص) هيئة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز ان يكون من الفاظه وما لا يجوز .. فان معرفة الوضع من قرينة حال المروي اكثر من قرينة حال الراوي ٢) .

---

١ — المنار لابن قيم الجوزية ص ١٥ وقواعد التحديث ص ١٤٨

٢ — توضيح الافكار ٢ ص ٩٤

اختلاف الناس في العطـــاء

يقال ان الانسان هو ابن البيئة التي يعيش فيها ، ولها تأثير كبير على نفسيته وتفكيره وبذلك يختلف عطاؤه كمّا ونوعا بالنسبة لبيئته • وقد اولى علماء الاجتماع البيئة جهدا كبيرا في دراستها واختلاف البلدان ، وبالتالي اختلاف البشر جميعا على وجه هذه الارض •

والبيئة التي تهمنا نحن في هذا المجال هي بيئة الحديث ، ولا يخفى ان ينابيع الحديث كانت تتفجر من مدينتين عظيمتين وعريقتين هما العراق والشام •

ليس على الارض من حديث الا ولاهل العراق والشام من عرب وغير عرب من يد في صياغتـــه • ولنقارن بين هاتين البيئتين لما لهما من اهمية بالنسبة لجميع العلوم في ذلك العصر، وخاصـــة "الحديث" الذى هو مدار بحثنـــا •

والحقيقـة التي نريد البحث عنها ، هي في اواخر النصف الاول من القرن الاول من الهجرة عهد خلافة علي بن ابي طالب (ع) الخليفة الراشدى الرابع •

وصف علي الناس في عصره قائلا : "واعلموا انكم صرتم بعد الهجرة اعرابا وبعد المـــوالاة احزابا ما تتعلقون من الاسلام الا باسمه ، ولا تعرفون من الايمان الا اسمه ، تقولون (النار ولا العار) كأنكم تريدون ان تكفئوا الاسلام على وجهه ٠٠٠"(١) وعلي كان ثائرا وبقي ثائرا حتى مـــات ، ثائرا قلبا وقالبا فلم يكن مزدوجا ، ولهذا وجدناه متألما لما رأى في جماعته من ازدواج في الشخصية اذ كانوا يؤيدونه باقوالهـم ويثبطونه باعمالهم •

واظن ان هذا من اهـم الاسباب في فشل الثـورات التي انتفض بها المجتمع الاسلامي فـي ايامه الاولى ، قلوب الناس مع الثائر وسيوفهـم عليـه •

يقال ان معاوية سأل الخبراء باحوال الامصار الاسلامية ، عن طبيعة كل مصر منهـــا ،

---

(١) نهج البلاغـة لمحمد عبـــده ، ج ٣ ص ١٨٠

فاجابه الخبير : " اهل المدينة احرص الامة على الشر واعجزهم عنه . واهل الكوفة يردون جميعا ويصدرون شتى ، واهل مصر اوفى الناس بشرا واسرعهم الى الندامة . واهل الشام اطوع الناس لمرشدهم واعصاهم لمغويهم (١) .

ولا يخفى ان هذا التصنيف للامصار الاسلامية ، هو تصنيف رجل من المرتزقة ، يريد ان يتقرب من السلطان . فقد اعتبر ان جميع الامصار ، راغبة في الشر باستثناء اهل الشام . فاهل الشام هم الوحيدون من رجال الخير في نظر الخبير ! !

وللحجاج بن يوسف ، وصف لاهل العراق عندما تولاها ، سار مثلا على السنة الناس حتى عصرنا هذا : " اهل العراق اهل الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق " (٢) .

ولننا في محاولة الجاحظ من مقارنته بين اهل العراق مع اهل الشام ، فقال معللا : " العلة في عصيان اهل العراق على الامراء وطاعة اهل الشام ، ان اهل العراق اهل نظر وذوو نظرة ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث . ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح ، والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء .

واهل الشام ذوو بلادة وتقليد من تقلب الاحوال ومازال العراق موصوفا اهله بقلة الطاعة وبالشقاق على اولي الرئاسة (٣) .

لم يأت الجاحظ بشيء جديد في هذا التعليل ، فلماذا اهل العراق اهل نظر ، واهل الشام اهل تقليد ؟ فهو حكم غير دقيق . فلربما حاول الجاحظ ان يعلل تلك الظاهرة الاجتماعية على اساس التفاوت الطبيعي بين جبلة اهل الشام وبين جبلة اهل العراق . وهذا تعليل لا يقره عليه علم الاجتماع الحديث .

---

١ — الكامل لابن الاثير ج ٥ ص ٢٤

٢ — البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٢٤٧

٣ — = = = ج ٢ ص ٩٤

ان طبيعة البشر هي نفسها في كل زمان ومكان ، ويعود الاختلاف على الغالب الى اختلاف في تكوين المجتمع الذى ينشأون فيه .

واذا القينا نظرة على المجتمع الاسلامي العراقي ، نجده مختلفا تماما من المجتمع الاسلامي الشامي . فكلا المجتمعين مؤلف من البدو في معظمه ، ولكن الطبقة العليا الحاكمة في العراق تختلف من تلك التي كانت تسود الشام .

لقد لجأ الى الشام اشراف قريش من الامويين وغيرهم — اولئك الاشراف الذين كانوا يسودون مكة في الجاهلية . والعراق لجأ اليه اشراف من نوع اخر . اشراف العراق معظمهم من المهاجرين والانصار دخلوا الاسلام وجاهدوا في سبيله ، فتدرجوا في سلم حياتهم الاجتماعية عن طريق الدين .

من هنا نرى ان القيم الاجتماعية التي كانت منتشرة في هذين المجتمعين غير متشابهة فكان كل ما يتعلق بالدين من توجيه وارشاد وحديث وفقه ، يعنى به في العراق عناية فائقة .

اما اهل الشام فكانت القيم البدوية مسيطرة عليهم ، وقد وصفهم الجاحظ ايضا " دولة الامويين دولة عربية اعرابية "(١)

ومن الطبيعي انه عندما تتغير الظروف والاسباب تتغير النتائج . لم يحدث عند اهل الشام صراع نفسي ، كالذى شهدناه عند اهل العراق .

اهل الشام ، واكثرهم ، لم يعرفوا من الاسلام الا شعائره ورسومه الظاهرة . فلم يكن هناك من جديد بالنسبة للاعراب ، فساروا مطمئنين ليس هناك من صراع نفسي يتجاذبهم ولا من تردد في السير على خطى حكامهم . فاعتباراتهم وقيمهم القديمة بقيت على حالها محترمة في مجتمعهم الجديد .

اما في العراق فالامر كان على النقيض ، كان هناك النزاع بين القيم البدوية والتعاليم الاسلامية عنيفا جدا . لان معظم سادة العراق جاهدوا مع النبي وناصروه وتحملوا الاضطهاد والعذاب ، وصاحبوه في اشد حالات العسر .

---

١ — البيان والتبيين ج، ٢ ص ٢٤٧

ولقد تحدثنا عن الصحابة ودرجاتهم فيما مضى ، فوجدنا ان الصحابة الذين سكنوا الشام ، يختلفون عن الصحابة الذين سكنوا العراق .

ولو قيمنا الصحبة بالنسبة لمناصرة الرسالة الاسلامية ، وبالنسبة للجهاد في سبيل الدين ، لوجدنا فرقا كبيرا بين صحابة اهل العراق وصحابة اهل الشام ، وانا شاهد على ما نقول من الدكتور احمد امين ، قال :

" الحق ان النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية ، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية ، كان شديدا ، وكان عهده طويلا ، وان الاسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السواء ، بل ان خير من تأثر به السابقون الاولون من المهاجرين والانصار ، اولئك وصل الدين الى اعماق نفوسهم ، واخلصوا له ونفذوا أوامره ، فاما من أسلموا يوم الفتح أو بعده ، وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبي واصحابه ينتصرون فلم يمسهم الا الاسلام ، فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقا " (١)

والواقع ان العهد الاول من الاسلام غربل جميع المسلمين ، فالذين برزوا كانوا متصلبين في عقيدتهم ، مؤمنين كل الايمان بدينهم ، دخلوا الاسلام لا خوفا من السيف ولا طمعا بالغنيمة .

فالعراق سكنه افراد من اولئك الذين اسلموا قبل الفتح ، وقاتلوا النبي وناصروه فكانوا واقعين اذن تحت تأثير دافعين متناقضين : دافع النفسية القبلية القديمة من جهة ودافع النزعة الاسلامية الجديدة من جهة اخرى .

وقد ظهر هذا الامر واضحا في واقعة صفين عندما نشبت الحرب بين اهل الشام واهل العراق ، فالشاميون كانوا كما قالوا عنهم طائعين لامرائهم ، يستمعون لاوامرهم ويعتبرونها مقدسة ، بينما كنا نجد اهل العراق في شغب وتساؤل وجدل (٢)

وبعدها نستطيع القول ، ان طبيعة البشر في العراق والشام هي نفسها ، ولكن الخلاف يعود الى اختلاف في تكوين المجتمع . وبالتالي اختلاف في التعبير عن الفن بشتى اشكاله وصوره ، ولاشك ان طبيعة مدرسة الحديث وروادها في العراق ، تختلف عن طبيعة مدرسة الحديث في الشام .

---

١ — فجر الاسلام لاحمد امين ص ٨٢

٢ — شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد

فعلي لا يصانع الروؤساء والامراء ، ولا يفضل عربيا على اعجمي ولا قريشيا على موال ، ويروى ان طائفة من اصحابه ارادوا نصحه فقالوا : " يا أمير المؤمنين اعط هذه الاموال ، وفضل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس . وانما قالوا ذلك لما كان معاوية يصنع بالمال — فقال لهم : اتأمرونني ان اطلب النصر بالجور ؟ ! " (١) . وما خالف الله وما خالف الرسول (ص)

فالمشكلة هي ليست مشكلة من يكون مع الله ظاهرا ، وانما المشكلة هي من يكون الله معه .

فمن كان الله معه . لا يستطيع ان يحدث الا بما جاء من عند الله في القرآن الكريم ، وما جاء به رسوله الكريم (ص) بسنته القويمة النيرة . اما من تظاهر انه مع الله فقط ، فلا هم له لا السنة ولا القرآن الا ما يوافق هدفه في الدنيا ، وما يؤيد ويثبت حكمه ، سواء من طريق السلم او من طريق الحرب . والمحدثون بين هذا وذاك كصحافتنا اليوم .

يحكى ان رجلا رأى عليا ومعاوية يتحاربان فقال :

الصلاة خلف علي اتم

والطعام عند معاوية ادسم

والقعود على الجبل اسلم (٢)

والواقع ان من قعد على الجبل من المحدثين انذاك في مثل هذا الموقف الحرج ، اسلم . كما فعل سعد بن ابي وقاص وعدد من الصحابة ، حيث تركوا الحرب تأكل الناس ، وهم قابعون في ابراجهم العاجية يتأملون . فالغني المترف يعمد الى السياسة والاعتزالية لانه يريد ان يحافظ على امتيازاته الدابقية . اما الاخر المحروم الذي تلهب النار احشاءه فلا يستطيع ان يهدأ او يقعد على التل البعيد !

وهل بعد هذه المحن والاحداث الدامية ، والفتن والمطامع الشخصية ، وبعد ان لمسنا من الحكام نهمهم في الوصول الى الحكم باي وسيلة وباي ثمن ، نأمل من الحديث الشريف ان يبقى صحيحا منزها كما اراده الرسول (ص) ؟ !

---

١ — ضحى الاسلام لاحمد امين ج ١ ص ٢٣ — ٢٤

٢ — شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد .

الفصل الثالث الجرح والتعديل

تمهيد :

قلنا انه نشأ من عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الاولى ، واكتفاء المحدثين بالاعتماد على الذاكرة ، ان استباح قوم لانفسهم الوضع في الحديث ، ونسبته الى الرسول (ص) وخاصة عندما توسع المسلمون في فتوحاتهم ودخل في الاسلام كثرة غالبة من الامم كالفرس والروم والبربر ، وكان من هؤلاء من لا يتجاوز ايمانهم حناجرهم فكثر الوضع كثرة مزعجة ، وقد حمل الوضاع على وضع الاحاديث امور عديدة سوف نورد اهمها .

لهذا كله عمد العلماء الصادقون لتنقية الحديث مما الم به من الدس والشوائب وسلكوا في ذلك جملة مسالك ، منها انهم طالبوا باسناد الحديث ، ليتمكنوا من معرفة قيمة المحدث صدقا او كذبا ، وهل عمد الى التحدث حبا في بدعة أراد الترويج لها ؟

جاء في مقدمة صحيح مسلم : " عن ابن سيرين قال : " لم يكونوا يسألون عن الاسناد " فلما وقعت الفتنة قالوا : " سموا لنا رجالكم ، فينظر الى اهل السنة فيؤخذ حديثهم " وينظر الى اهل البدع فلا يؤخذ حديثهم " (١)

ولزم بعد هذا تعديل الرواة وتجريحهم وقواعد في الجرح والتعديل ، وذلك منذ عهد الصحابة ، وقد رويت اقوال في ذلك عن عبد الله بن عباس وعبادة بن الصامت وانس ، وعن التابعين كالشعبي وابن سيرين والحسن البصري وسعيد بن المسيب ،

فمن يعدله قوم يجرحه آخرون (٢)

---

١ ـ فجر الاسلام ص ٢١٦

٢ ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٢٤٥ (انظر تدريب الراوي ص ١٠٥

والحقيقة ان العلماء وضعوا بعض القواعد في الجرح والتعديل ، واهتموا بنقد السند اكثر مما اهتموا بنقد المتن . والسبب في ذلك يعود في الارجح حسب ما علله احمد امين قال : " فقل ان تظفر بنقد من ناحية ان ما نسب الى النبي (ص) " لا يتفق والظروف التي قيلت فيه ، او ان الحوادث التاريخيه الثابتة تناقضه ، او ان عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبي (ص) " او ان الحديث اشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه)

وتابع قائلا : ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار طعنوا به من جرح الرجال وتعديلهم حتى نرى البخاري نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه ، يثبت احاديث دلت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على انها غير صحيحة ، لاقتصاره على نقد الرجال (١)

كانوا ينظرون الى الحديث الصحيح بالنسبة لصحة سنده . وفي هذا قال ابن الصلاح : " ومتى قالوا : هذا حديث صحيح فمعناه انه اتصل سنده مع سائر الاوصاف " المذكورة ، وليس من شرطه ان يكون مقطوعا به في نفس الامر . وقد وضح هذه الفكرة العراقي في شرح الفيته فقال :

" وحيث قال اهل الحديث ، هذا حديث صحيح فمرادهم - فيما ظهر لنا عملا بظاهر الاسناد - لا انه مقطوع بصحته في نفس الامر ، لجواز الخطاء والنسيان على الثقة (٢)

فالعراقي جدد نوعا في النقد وقال ان مجرد التدقيق في السند لا يكفي لمعرفة الحديث الصحيح ، حتى ان البخاري لو اخبرك انه : " من اصطبح كل يوم سبع تمرات لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم الى الليل " لما امكنك تصديق الخبر ، ولما استطعت الاعتماد عليه لمجرد ان البخاري يرويه ، مع جلالة قدره وبعد ايمانه " (٣)

---

١ - فجر الاسلام لاحمد امين ص ٢١٧

٢ - المحدث الفاضل ص ٧٩ والجرح والتعديل ج ١ ص ٣٢ والكفاية ص ١١٦

٣ - المصدر السابق .

كلُّ انسانٍ معرَّضٌ للسهو وكل انسان معرض للنسيان هذا بالاضافة الى ان ليس جميعُ البشر يستوون علما ومعرفة وسلامة ذوق . وليس من الضروري ان من تحلّى بجميع هذه الصفات — على سبيل الافتراض — ان نأخذ حديثه وكأنه من السماء ، كلام منزل لا يجوز النظر في صيغته وتركيبه ، او ان نناقش في صحته .

ونخلص الى القول ان النظر في سند الحديث فقط لا يكفي للتأكد من صحته ، بل لابد لنا ايضا من النظر في متن الحديث حتى يسلم من كل ما يشوبه من علل وشوائب ، فاذا صح السند وسلم المتن ، كان لنا الحديث الصحيح .

ويمكن ان نعطي مثلا واقعيا من حياتنا اليومية ، فاذا اخبرك رجل عن آخر خبراً ، كان اول ما يسبق الى خاطرك ، ان تستوثق من صدق المخبر بالنظر في حاله وامانته ومعاملته ، وغير ذلك من الملاحظات التي تراها ضرورية لك للتأكد منه ، فاذا استوثقت من الرجل نظرت بعد ذلك في الخبر نفسه ، وعرضته على ما تعرف من صاحبه من أقوال وأحوال ، فاذا اتفق مع ما تعلمه من ذلك ، لم تشك بصدق المُخْبِر والاطمئنان اليه ، والا كان لك ان تتوقف في قبول الخبر لا لريبة في المخبر — فانت واثق من صدقه — بل لشبهة رأيتها في المُخْبَر نفسه ، ويصح ان يكون مَرْجِعُها وَهْما او نسيانا من المخبر ، كما يصح ان ترجع الى سرفي الامر لم تتبيَّنْهُ ، فلعل في مستقبل الزمن ما يكشف السر ويوضح لك ما غاب عنك ، ففي هذه الحالة علينا ان نتوقف عند الخبر لنطمئن الى صحته ، ولا نتسرع في حكمنا انه كاذب ، واذا فعلنا ذلك يكون منا افتئاتا على من اخبرنا ونحن له مصدقون وبه واثقون .

ان هذا الموقف الذي عنه تحدثنا ، هو نَفْسُه حدث للعلماء في احاديث رسول الله (ص) .

في الجـــرح والتعــديـــل

لما استساغ اهل الهوى وضع الاحاديث على رسول الله (ص) ارضاءً لاهوائهم شاب الاحاديث الصحيحةَ الفسادُ والعِلَلُ ، فاخذ يُحدِّث من لم يتصف بالضبط والعدالة ، وهما الشرطان الواجبان لصحة الرواية ، قام علماء نقد الحديث بالوقوف على احوال الرواة وصفاتهم ، وعمدوا الى تصنيفهم والاطلاع على صحة ما يصدر من رواياتهم ، وقد سَمُّوا هذا النقدَ " بالجرح والتعديل " . وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ما ورد في شأنهم مما يُشينُهم أو يُزَكِّيهم بالفاظ مخصوصة " (١)

والنَّقْدُ قد أُمِرَ به القرآنُ الكريم ودعا اليه ، قال تعالى : " يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " (الحجرات ٦) وقال : واشهدوا ذوي عدل منكم (الطلاق الآية ٢) " واثني فقال : نعم العبد إنه أوَّاب " (ص ٤٤) " وذم فقال " هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بعد ذلك زَنِيمٍ " القلم (١١)

وما المدح والذم الا نقدا وتجريحا . ونقد الرجال واقع من عهد الرسول (ص) فمن الصحابة ابن عباس (٦٨ هـ) (٢) ومن التابعين ابن سيرين (١١٠ هـ (٣) وكان اشهر النقاد في اواخر القرن الثاني الحافظان الحجتان يحي بن سعيد القطان (١٩٨ هـ) وعبد الرحمن بن مهدي (١٩٨ هـ) (٤) وكان للناس وثوق بهما . واول من جمع كلامه في الجرح والتعديل : يحي بن سعيد القطان (٥) ثم جاء بعده احمد بن حنبل (٢٤١ هـ) (٦) ثم محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) (٧) كاتب الواقدي في طبقاته .

---

١ — انظر معرفة علوم الحديث ص ٥٢

٢ — انظر المقدمة من كتاب الكامل لابن عدي المتوفي سنة ٣٦٥ هـ

٣ — معرفة علوم الحديث ص ٥٢ وعلوم الحديث ص ١٠٩

٤ — المصدر السابق

٥ و ٦ — السنة قبل التدوين ص ٢٨١ عن ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢

٧ — المصدر السابق .

الفاظ الجرح والتعديل ومراتبهـا

الفـاظ التعـديـل :

اعلى مراتب التعديل وارفعها عند المحدثين : وهي صيغ المبالغة او ما دل عليها وعبر عن هذه الصيغة بالفعل ، كأوثق الناس ، واضبط الناس ، واثبت الناس ، او ما يشابه مثل : اليه المنتهى في التثبت ، ولا احد اثبت منه ، ومن مثل فلان ؟ ولا اعرف له نظيرا ، وفلان لا يسأل عنه (١)

ماكرر فيه لفظ التوثيق : كثقة ثقة ، وثقة ثبت ، وثقة حجة ، وثقة حافظ وثبت حجة ، وثبت حافظ ، وثقة متقن ، ونحوها .

مالم يتكرر فيه ذلك كثقة ، او متقن ، او ثبت ، اوحجة ، اوعدل ، او حافظ ، او ضابط ، او كأنه مصحف ، او امام . والحجة اقوى من الثقة (٢)

وقال الحافظ الذهبي في مقدمة الميزان ١ / ٤ وهو يتحدث عن الفاظ التعديل :

١ — ثبت حجة — ٢ — ثقة ثقة — ٣ ثقة — ٤ — صدوق ، ولا بأس به ، ٥ جيد الحديث — صالح الحديث ، شيخ وسط ، شيخ حسن الحديث . لقد عد مرتبة صدوق دون مرتبة ثقة واعلى من مرتبة جيد الحديث .

اما الحافظ ابن حجر في فاتحة كتابه تقريب التهذيب ، فقد جعل مراتب الجرح والتعديل اثنتي عشرة مرتبة .

---

١ — وقد عد الحافظ ابن حجر اولى مراتب التعديل كون الراوي صحابيا . قال : فاولها الصحابة ، وبديهي ان هذا التقديم انما هو بالنظر الى العدالة ، اما بالنظر الى الضبط والحفظ فلا مدخل للصحبة فيه . فبعض الصحابة احفظ من بعض ، وبعضهم ينسى ، وقد يكون غير الصحابي احفظ من الصحابي (قواعد في علوم الحديث للتهانوي ص (٢٤٢)

٢ — قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ ص ٩٧٩ الحافظ اعلى من المفيد في العرف ، كما ان الحجة فوق الثقة . وجاء في تهذيب في ترجمة محمد بن اسحق صاحب المغازي ٩ / ٤٤ قال ابن معين : محمد بن اسحق ثقة وليس بحجة . المصدر نفسه .

١ - الصحابة ٠ ٢ - من اكد مدحه ٠ ٣ - من افرد بصفة كثقة او متقن او ثبت او عدل ٠ ٤ - من قصر عن درجة الثالثة قليلا ، واليه الاشارة بصدوق او لا بأس به ٠ ٥ - من قصر عن درجة الرابعة قليلا واليه الاشارة بصدوق ، سيء الحفظ اوله اوهام اويخطيء ٠٠

وقد اشار الحافظ ابن حجر الى ان الفاظ هذه المرتبة الفاظ توثيق ٠ واشار ايضا الى انه من كان في هذه المرتبة يكون حديثه حسنا (١)

المرتبة الرابعة :

صدوق ، التي عرضنا لها آنفا ، او ليس به بأس ، او مأمون ، او خيار ونحوها (٢)

المرتبة الخامسة :

شيخ ، جيد الحديث ، حسن الحديث ، صدوق سيء الحفظ ، صدوق له اوهام ، صدوق يخطيء ، وسط مقارب الحديث ونحوها ٠ (٣)

المرتبة السادسة :

صالح الحديث ، صدوق ان شاء الله ، ارجو انه لا بأس به ، ما اعلم به بأسا ، صويلح مقبول ، ليس ببعيد عن الصواب ، يروى حديثه ، يكتب حديثه ، ونحوها ٠ ومن قيل فيه ذلك يكتب وينظر فيه ، لان هذه العبارة لاتشعر بالضبط فيعتبر حديثه بموافقة الضابطين ، واما اذا قلت : لا بأس به فهو ثقة كما في توثيق الامام ابي حنيفة في تذكرة الحفاظ للذهبي (٤) واذا قلت هو ضعيف ، فليس هو بثقة ، لا يكتب حديثه كما جاء في تدريب الراوى ص(٢٢١)

---

١ - وقد نقل العلامة الشيخ احمد شاكر في الباعث الحثيث ص١١٨ هذه المراتب الاثنتي عشرة التي ذكرها الحافظ ابن حجر ، ثم بين درجات ما ينقل بها من الاحاديث فقال : من الفئة (١ - ٢ - ٣) درجة اولى ٠ الفئة الرابعة (صحيح من الدرجة الثانية) وما بعدها فمن المردود الا اذا تعددت طرقه ٠ كما عددها نفسها الحافظ في (تقريب التهذيب) يقي لفظة "صدوق" فقد وقع فيها اشتباه لبعضهم ٠ فهي من مادة صدق فتقال في من هو تام الصدق لا يتطرق الى صدقه اى شك او اشتباه وانما الشك في قوة ضبطه لما يرويه ٠ وقد وصف بها الشافعي : فقال فيه ابو حاتم الرازى (صدوق) وقال البعض صدوق وثقة تتعادلان كما جاء في تهذيب التهذيب

٢ - تهذيب التهذيب ١ ص٢٧٠

٣ و ٤ - قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص٢٥٠) وتدريب الراوى ٢٢٩ و ٢٢١ و ٢٣٢

الفـــــاظ الجـــــرح

واما الفاظ الجرح فلها مراتب ست ايضـا :

المـــرتبـــة الاولـــى :

وهي ادنى رتبة من مراتب التعديل ، فاذا قالوا : (لين الحديث ، كتب حديثه ، وينظر فيه اعتبارا ، كما قالوا ايضا : فيه لين ، فيه مقال ، تعرف وتنكر ، ليس بالمتين ، ليس بحجة ، ليس بعمدة ، ليس بمرضي ، فيه خلف ، طعنوا فيه ، مطعون فيه سيء الحفظ ، في حديثه ضعف ، ليس بذاك القوى .) (١)

المـــرتبـــة الثانيـــة :

واذا قالوا : ليس بقوى : يكتب حديثه ايضا للاعتبار ، وهو دون لين (المصدر نفسه)

المرتبـــة الثالثـــة :

ضعيف الحديث ، فهو دون ليس بقوى ، ولا يطرح بل يعتبر بـه ايضا ، ثم منكـــر الحديث ، واه ، ضعفوه ، مضطرب الحديث ، لا يحتج به ، مجهول (المصدر نفسه)

المرتبـــة الرابعـــة :

رد حديثه ، مردود الحديث ، ضعيف جدا ، واه بمرة ، طرحوا حديثه ، مطرح الحديث ، ارم بـه ، ليس بشيء ، لا يساوي شيئا .

المرتبـــة الخامســـة :

فلان متهم بالكذب او الوضع ، ساقط ، هالك ، ذاهب ، متروك ، فيه نظر كما عند البخاري ، سكتوا عنه ، لا يعتبر به ، لا يعتبر بحديثه ، ليس بالثقة غير ثقة ولا مأمون ، ومن قيل فيه ذلك اى في الرابعة والخامسة فهو ساقط لا يكتب حديثه ولا يعتبر به ولا يستشهد (٢)

---

١ — قـــواعد في علوم الحديث ص ٢٥١

٢ — قـــواعد في علوم الحديث ص ٢٥٢

المـــرتبـــة الساد ســـــة :

وهي اسوء ها كلها يقال فيها : فلان كـذاب ، دجال ، وضاع يضع حديثـــا (١)

ومن قيل فيه ذلك ، اى لفظ من السادسة — فهولا لا يجوز روايـــة حديثه الا لبيان حالـه والـرد عليه ، ويدخل فيه ايضا منكر الحديث ، كما عنـد البخاري (٢)

اما اذا اختلف نقاد الحديث في رجـل ، فعدله بعضهم ببعـض الفاظ وجـرحه آخرون ، فالحكم فيه لتـرجيح المُعَدِّل الا اذا اتى الجارحُ بسببٍ مُفَسَّرٍ .

اذا اجتمع في الراوى جرح وتعديل فايهما يقدم ؟

(اذا اجتمع في الراوى جرح وتعديل ، فان كانا مبهمين يقدم التعديل وان الجرح مفسرا والتعديل مبهما قدم الجرح) . وذلك لان المُعَدِّل يُخبِر على ماظَهَرَ من حالة والجارحُ يُخبِرُ عن باطنٍ خَفِيٍّ على المعدل . وان كان عدد المعدلين اكثر فقد قيل التعديل اولى ، والذى عليه جمهور العلماء والاصوليين ان الجرح اولى(٣) والسبب في التقديم كما اشرنا ، ان مع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل . اما ان كان التعديل مفسرا والجرح غامضا على المعدل ان يقول : عرفت السبب الذي ذكره الجارح ولكنه تاب وحسنت حالته ، فانه عندئذ يقدم التعديل : (٤) .

---

١ — تدريب الراوى ص ٢٢٢ — ٢٢٤

٢ — طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٩

٣ — لسان الميزان لابن حجر ج ١ ص ١٦ وقواعد التحديث للقاسمي ص ١٨٨

٤ — تدريب الراوى ص ٤٢٩ و ٢ / ١٥٢

وقال ابن خلدون وهو يتكلم عن السبب الذى حمل بعض الرواة على تقليل الرواية .
" وانما قلل منهم من قلل الرواية لاجل المطاعن التي تعترضه فيها ، والعلل " التي تعرض في طرقها ، لاسيما : والجرح مقدم عند الاكثر ، فيؤديه الاجتهاد الى " ترك الاخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ، ويكثر ذلك فتقل " روايته لضعف في الطرق " (١) .

من ثبتت عدالته عند الامة لايؤثر فيه جرح ولو مفسرا

ان من ثبتت عدالته واذعنت الامة لامامته ، لايؤثر فيه جرح ولو مفسرا ، وكان حديثه صحيحا لاحسنا فقط .

قال ابو جعفر ابن جرير (الطبرى) : ولم يكن احد يدفع عكرمة من التقدم في العلم بالفقه والقرآن وتأويله وكثرة الرواية للاثار ، وانه كان عالما بمولاه ، وفي تقريض جلة اصحاب ابن عباس اياه ما بشهادة بعضهم تثبت عدالة الانسان ، ويستحق جواز الشهادة ومن ثبتت عدالته لم يقبل فيه الجرح وما تسقط العدالة بالظن (٢)

ولما كثرت الاقاويل وزاد الجرح على التعديل اصبح من الصعب ومن الصعب جدا ان نأخذ بكل تلك الادعاءات . وقال ابن جرير في هذا المجال : " لوكان كل من ادعي عليه مذهب من المذاهب الرديئة ، ثبت عليه ما ادعي به ، وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته بذلك ، للزم ترك اكثر محدثي الامصار ، لانه مامنهم وقد نسبه قوم الى ما يرغب به منه (٣) .

ولنا مثل في البخاري المعروف عند جميع المحدثين . لما ترجم له ابن ابي حاتم الرازى في كتابه " الجرح والتعديل " ٣ / ٢ ١٩١ قال : " محمد بن اسماعيل " البخارى ابو عبدالله ، قدم عليهم الرى سنة ٢٥٠ ، سمع منه ابي — ابو حاتم —

---

١ — ابن خلدون المقدمة ص ٤٤٤ .

٢ — قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ١٧٦ ويقصد بمولاه عبدالله بن عباس

٣ — وتدريب الـــراوى ص ٢٠٣

" وابو زرعة — الرازيان — ثم تركا حديثه عندما كتب اليهما محمد بن يحي النيسابوري انه اظهر عندهم ان لفظه بالقرآن مخلوق " انتهى . وبسبب ذكره الذهبي في كتابه " الضعفاء والمتروكين . (١)

فهل نترك حديث البخاري لما تركه ابو حاتم وابو زرعة النيسابوري ؟ ؟ بعد هذا نستطيع القول :

— لا يؤخذ بقول كل جارح :

من البديهي ان لا نأخذ بقول كل جارح وفي أي راو كان ، وان كان ذلك الجارح من الائمة ، او من مشاهير علماء الفقه ، فكثيرا ما يوجد عدة امور مانعة من قبول جرحه ، وحينئذ يرد الجرح ولا يؤخذ به ويبقى الحديث على ما هو .

ولهذه الموانع التي ذكرنا صور مختلفة نذكر اهمها :

اولا — ان يكون الجارح نفسه مجروحا ، فعندئذ لا يجوز له ان يجرح احدا ، وكيف يحق له ان يعيب غيره من كان مبتليا بنفس تلك العيوب . وكذلك تعديله . قال الحافظ في تهذيب التهذيب : " عن احمد بن شبيب الحبطي البصري " بعد ما نقل عن الازدي فيه " غير مرضي : قلت : اي الحافظ — لم يلتفت احد الى هذا القول بل الازدي غير مرضي (٢)

وقال ايضا في ترجمة عكرمة ما نصه : " اما الوجه الاول فقول ابن عمر (فيه) لم يثبت عنه ، لانه من رواية ابي خلف الجزار عن يحي البكاء انه سمع ابن عمر يقول ذلك ويحي البكاء متروك الحديث (٣) قال ابن حبان : " ومن المحال ان يجرح العدل بكلام المجروح .

---

١ — المصدر نفسه ص ١٧٧
وانظر قواعد التحديث ص ١٨٩
٢ — من التهانوي من الحافظ ص ٢٦ / ج ١
٣ — (هو يحي بن مسلم الازدي) ترجمته في تهذيب التهذيب ١١ / ٢٧٨

ثانيا - ان يكون الجارح من المتعنتين في الجرح والمتشددين في الحكم ، فان هناك بعض ائمة الجرح والتعديل ، يجرحون الراوي بادنى جرح ، ويطلقون لسانهم في احكام لاينبغي اطلاقه ، فمثل هذا جرحه لايعتبر الا اذا وافقه غيره ممن يُنصِفُ ويُعْتَبَرُ . ومن هؤلاء المتشددين : النسائي ويحي بن سعيد القطان ، وغيرهم ممن عرف بالاسراف في اطلاق كلمات الجرح (١)

ان الهدم هَيِّنٌ بالنسبة لهؤلاء ، اما البناء والبناء الصحيح فصعب جدا .

قال الحافظ في مقدمة الفتح عن النسائي وتشدده في الجرح ، جاء ذلك في ترجمة (محمد بن ابي عدى البصرى) : ابو حاتم عنده عنت (٢)

وهناك من يتساهل في التعديل ويتشدد في الحكم . كابن حبان . قال : من كان منكر الحديث على قلته لا يجوز تعديله الا بعد السَّبر (انظر لسان الميزان ج ١ ص١٤ ر ١٥ .

ولو كان ممن يروى المناكير ووافق الثقات في الاخبار لكان عدلا مقبول الرواية ، اذ الناس في اقوالهم على الصلاح والعدالة حتى يتبين منهم مايوجب القدح ، هذا حكم المشاهير من الرواة . فاما المجاهيل الذين لم يرو عنهم الا الضعفاء فهم متروكون على الاحوال كلها . هذا ماورد عند الحافظ ابن حجر (٣) .

وقد افصح ابن حبان بقاعدته فقال : (العدل من يعرف فيه الجرح ، اذ التجريح ضد التعديل ، فمن لم يجرح فهو عدل حتى يتبين جرحه ، اذ لم يكلف الناس ماغاب عنهم) (المصدر نفسه)

---

١ - قواعد في علوم الحديث ص ١٧٨

٢ - قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ١٨٧ عن الحافظ في " مقدمة الفتح " ص ٤٤١

٣ - عن التهانوى عن الحافظ ابن حجر في مقدمة (لسان الميزان ج ١ ص١٤ ر ١٥

ومن هذا يتبين لك مذهب ابن حبان وتساهله في التوثيق . فاذا رأيت في كتب الرجال او كتب الجرح والتعديل قولهم : " وثقه ابن حبان فالمراد بتوثيقه عنده : ان جهالة عينه قد انتفت ، ولم يعلم فيه جرح . وهذا المسلك قد خالف به جمهور غفير من ائمة الجرح والتعديل فكان به من المتساهلين في التوثيق (١) قواعد في علوم الحديث ص ١٨٣)

وهناك غريبة من محمد بن حبان اذكرها اخيرا من فلسوف اهل الجرح والتعديل : قال في كتابه في الضعفاء في ترجمة حنيفة : " كان اجل في نفسه من " ان يكذب ، ولكن لم يكن الحديث شأنه ، فكان يروى فيخطئ من حيث لا يعلم ، ويقلب الاسناد من حيث لا يفهم ، حدث بمقدار مئتي حديث ، أصاب منها في اربعة احاديث والباقية اما قلب اسنادها ، او غير متنها " (٢) .

هكذا يقول ابن حبان في حفظ ابي حنيفة الامام الذى دانت الرقاب لعلمه وفقهه وحفظه ، وشهر عنه انه لا يبيح للراوى الرواية بما طرأ عليه نسيانه لحظة . هكذا جعل من الامام العظيم الذى كان مضرب الامثال في حفظه وامانته العلمية كاحد المغفلين .

والخلاصة ان للجرح والتعديل قواعد واصولاً وتنبيهات علينا ان نحذرها ، اورد التهانوى في (قواعد في علوم الحديث) عن الذهبي في الميزان في ترجمة ابي نعيم احمد بن عبدالله : ١١١ قال :

(كلام الاقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، ولا سيما اذا لاح لك انه لعداوة ، " او لمذهب ، او لحسد . وما ينجو منه الا من عصمه الله ، وما علمت ان عصرا " من الاعصار سلم اهله من ذلك سوى الانبياء والصديقين) . (٣)

---

١ — قواعد في علوم الحديث ص ١٨٣ .

٢ — قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ١٨٦

٣ — قواعد التحديث ص ١٨٩ .

ولنا مثل على ما نقول ما قاله الحافظ ابن حجر في ترجمة (الحسين بن علي الكرابيسي) الفقيه الشافعي وصاحب الامام الشافعي رضي الله عنه : قال الخطيب : كان فهما عالما فقيها ، وله تصانيف كثيرة في الفقة وفي الاصول تدل على حسن فهمه وغزارة علمه . كان أحمد يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ — اي خلق القرآن — وكان هو يتكلم في أحمد ، فتجنب الناس الاخذ عنه . وقال ابن حبان في " الثقات " : كان ممن جمع وصنف ، وممن يحسن الفقة والحديث ، أفسده قلة عقله " (تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٢) (١)
فانظر ووازن بين ابن حبان كيف وصف هذا الرجل بقلة العقل وان ذلك افسده ، وبين الخطيب كيف اثنى عليه ووصفه بالفهم ! وبحسن الفقه وغزارة العلم ؟!

وهو يبغي من وراء ذلك : " ان الجرح اذا صدر من تعصب او عداوة او منافرة او نحو ذلك فهو جرح مردود ، وكذا جرح الاقران بعضهم في بعض ولا سيما ، اذا كان الجرح بغير حجة او برهان ، او كان مبنيا على التعصب والمنافرة (٢)

واني ارى ان الطعن المبهم حتى ولو كان من ائمة الحديث لا يجرح الراوى ، بان يقول : هذا الحديث مجروح او حديث منكر ، الا اذا فسره بما هو جرح متفق عليه الكل لا اختلاف فيه ، بحيث يكون جرحا عند بعض ، وتعديلا عند البعض الآخر ، ولا شك ان مثل هذا البيان قليل الخبرة بحديث من تكلم فيه او بحاله ، فهو لم يعتمد على المضعف للحديث وليس لديه الدربة والممارسة ، وبعد النظر وكفاية المعرفة .

---

١ — تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٣٥٩ — ٣٦٢ ،
فانظر ووازن بين ابن حبان كيف وصفا هذا الرجل بقلة العقل وان ذلك افسده ، وبين الخطيب كيف أثنى عليه ووصفه بالفهم وبحسن الفقه وغزارة العلم ؟!

٢ — قواعد في علوم الحديث للتهانوى ص ١٩٧ وانظر قواعد التحديث ص ١٨٩

حكم انكار الراوي لروايته :

المروي عنه اذا انكر الرواية كأن يقول : كذبت علي وما رويت لك هذا ، يسقط العمل بالحديث اتفاقا . اما اذا قال : لااذكر او نسيت او اعرفه ،(فعند احمد بن حنبل يسقط العمل به ، وعند الشافعي ومالك لا يسقط) (١)

حكم عمل الراوي بخلاف روايته :

اذا عمل الراوي بخلاف روايته بعد الرواية بيقين : (يسقط العمل به ، واما اذا كان قبل الرواية ، او لم يعرف تاريخه ، فليس ذلك بجرح . اما امتناع الراوي عن العمل بما روى هو مثل العمل بخلافه) (٢)

حكم عمل العالم وفتياه على وفق حديث رواه :

(ان عمل العالم وفتياه على وفق حديث رواه ليس حكما بصحته ، ولا مخالفته في صحته ولا في رواته) (٣) وفرق ابن تيمية بين ان يعمل به في الترغيب وغيره .

(اما مخالفة العالم له لاتقدح) منه (في صحته وفي رواته) لامكان ان يكون ذلك من معارض او غيره) .

هل يقبل تعديل المرأة والعبد العارفين :

قال السيوطي في التدريب : (يقبل تعديل العبد والمرأة العارفين ، ومن عرفت عينه وعدالته وجهل اسمه احتج به) (٤) . جزم الخطيب بعد ان حكى عن اكثر فقهاء المدينة وغيرهم انه لا يقبل تعديل النساء لا في الرواية ولا الشهادة واستدل الخطيب على القبول بسؤال النبي (ص) بريرة عن عائشة في قصة

---

١ — قواعد في علوم الحديث ص ٢٠١ قارن بالمنار ص ١٩٩
٢ — = = = = = ٢٠٢ = = ص ١٩١
٣ = التدريب للسيوطي ص ٣١٥
٤ — انظر تدريب الراوي ص ٢١٠

الافـك . قال هذا بخلاف الصبي المراهق فلا يقبل تعديله اجماعا اما من عرفت عينه وعدالته وجهل اسمه ونسبه ، احتج بـه ، ورد في الصحيحين كثير من ذلك كقولهم : " ابن فلان او والد فلان (١)

فما علاقة اللون بصحة القول ؟ الم يكن هنالك من الرجال الرواة السود ولكنهم من الثقات والضابطين للرواية ؟ ثم وما علاقة النسب ايضا ؟ اولم يكن في عصر النبي وبعد عصره من العبيد ينطقون بالحق ، ويتحلون بانبل الصفات ؟ وما بلال الحبشي وسلمان الفارسي الا مَثَلٌ واضِحٌ لصدق مانقول ..

لقد حارب الرسول هذه الفكرة وبذل الكثير من التضحيات المريرة ، حتى يخلص العرب الجهال من دنس مثل هذه الاخلاق ، وله اجمل الكلمات الخالدة واحسن العبارات المأثورة ، التي مازالت ترددها الالسن وتلهج بها الافئدة : " ان الناس متساوون في الحقوق والواجبات كاسنان المشط " وانه كان جد كل تقي ولو كان عبدا حبشيا " . " وان الناس كلهم عيال الله واقربهم اليه انفعهـــــم لعيالـه " (٢)

وبالفعل كان الرسول الكريم يحب اصحاب الاخلاق العالية والشيم الكريمة يفضل الثقات الامناء الفاضلين ، ويتقرب من الصادقين المخلصين دون تمييز بيـــــن انسابهم واحسابهم . والخلاصة ان الجهل باسم الرجل لايخل بالعلم بعدالته ، وفي الصحيحين من ذلك الكثير . (٣)

اما اذا قال : " اخبرني فلان او فلان ، وهما عدلان احتج به ، اما اذا جهل عدالة احدهما فلم يحتج بـه (٤)

ولا يفوتنا ان نذكر ان علماء الجرح والتعديل قد بذلوا جهدا كبيـرا في تمحيص ماروى من احاديث رسول الله ، بيد انهـم على فضلهم وتدقيقهم ، لم يبلغوا

---

١ — قواعد في علوم الحديث ص ١٩٢

٢ — جامع السعادات ج ٢ ص ٢٤٤

٣ — تدريب الـــراوى ص ٢١٤

٤ — المصدر نفســه ص ١٧٢ و ٢٠٥

الغاية المنشودة من عملهم ، اذ لاتزال كتب الحديث ، تحمل الكثير من الاحاديث المشكلة . كما ان قسما كبيرا منها يظهر عليه الوضع . وسوف نوضح هذه الناحية المهمة من بحثنا في النقد الداخلي من هذا الكتاب ان شاء الله .

وما وصلوا في علمهم من الرجال الى دخائل نفوسهم ومطويات ضمائرهم ، وان هذا امر من وراء ادراكهم ، فرب رجل حسن السمت طيب المظهر ، اذا كشف من دخيلته تبين لك سوء مخبره .

ان الاجماع منعقد على الاعتبار بالظاهر دون الباطن . وقد ورد مثل هذا في القرآن الكريم . الاية الكريمة لاتعلمهم نحن نعلمهم)) اي انه (ص) لم يتمكن معرفة المنافقين : " وممن حولكم من الاعراب منافقون ، ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم " نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم (1

كانت طريقة العلماء القدماء تعتمد على دراسة السند اي علم الرجال ، فيحققون من ان الراوي كان نقي السيرة صادق الايمان بالله ورسوله ، صادق في حديثه عامة ، وفي حديثه عن النبي خاصة . ولاننكر ما لهذا الجهد من قيمة تذكر ، ولكنه مع الاسف على خصبه ليس كافيا .

ولا بد من ان يضاف الى هذا الجهد آخر ، الا وهو درس النص نفسه او ما نسميه بدرس المتن (متن الحديث) فقد يكون الرجل مأمونا صادقا في ظاهر امره ، يحسن التحدث والكلام المديح على أحسن وجه ، وقد يكون على عكس ما نرى في ضميره وسره . والله يعلم سرائر الناس وما تخفيه القلوب .

---

1 - التوبة الاية 101

تعـــدد الـروايـات في امـر واحـد :

في حال تعدد الروايات في امر واحد فاما ان تتوافق ، واما ان تتناقض ، ففي حال التناقض يحسن بالباحث اولا ، ان يؤكد وقوع التناقض ، فقد نتوهم امورا متناقضة كثيرة ، وسرعان ما يتلاشى هذا التناقض لدى التحقيق والتدقيق • وقد لاتتفق الروايات في الزمان او المكان او الشخص المقصود ، وما شاكل ذلك • (١)

اما عندما نتثبت من التناقض ، فعلينا بالملاحظات التالية :

١ — الا يتخذ موقفا وسطا بين الطرفين ، فاذا ما اخبرنا احد الرواة ان من صلى النوافل ، او من صام كل خميس وجمعة ، بنى له الله في الجنة سبعين قصرا ، في كل قصر سبعون الفا من حور العين ثم وقعنا بعد ذلك على زاهد متعبد ، يروي على نسق ما ذكرنا ولكنه بدل السبعين بتسعين من القصور ، وبدل السبعين الفا من حور العين بتسعين الف •

فانه من الخطاء الفاضح ان نوفق بين الطرفين فنزعم ان العدد الوسطي ثمانون ••••••

٢ — ان يعيد النظر في الطرفين ، لعله يكشف الستار عن عيب او نقص في احدى الروايتين ، لم ينتبه اليه اولا ، اولعله يجد بعض القرائن ربما تجعله يثق بالواحدة اكثر من الاخرى ، فيسقط ما قلت ثقته فيه ويرجح الخبر الاخر •

٣ — ان يمتنع عن الحكم بين الطرفين اذا عم الشك وبانت قلة الثقة فليس هناك ما يضطره لابداء رأيه واصدار حكمه • ولاعيب على العالم بان يقر ويعترف انه لايعلم فيما لايعلم • وقد يصح هذا التناقض

---

١ — راجع قواعد في علوم الحديث ص ٢٨٩

بين رواية من جهة وروايتين او اكثر من جهة اخرى ، وحكمنا يبقى هو كما فصلنا ولا عبرة للعدد في مثل هذه الحالة ، لان الحقيقة العلمية لاتثبت بالتصويت ولا بالاكثرية . (١)

اما في حال توافق الروايات والاخبار فيجدر بنا ايضا ، ان نلتفت الى الامور التاليـــــة :

١ — الا نتسرع في الحكم فنظن ان جميع مالدينا من الروايات هو من النوع الذي يعول عليه . فالرواة كثيرا ما ينقل بعضهم عن بعض . وهذا مانلمسه في صحفنا اليوم ، حيث ينقل الخبر نفسه في عدة صحف ؟ ويكون مختلقا او مبالغا فيه . فعلينا ان ندقق ونتروى في الامر ونعيد النظر في الروايات ، لنؤكد عدم اعتماد الرواة بعضهم على بعض .

ولا اظن ان سبل التأكد صعبه وعسيرة لمن اراد وسعى . وقد سبق ان تطرقنا الى هذه الناحية في باب " تحري الرواية " والمجيء باللفظ " فقلنا : (ان النساخ والرواة لا يتفقون على خطأ الا ويكون احدهم قد اخذ عن غيره على الارجح ، كما وانهم لا يتفقون منفردين على الصحة) .

اذن علينا ان نمعن النظر في الروايات التي تتفق على خطأ معين . فان ثبت لنا انها اعتمدت في الاخذ من بعضها تعين الخطأ ، وان اعيانا الامر في اعطاء الحكم الصحيح ، نبقى متمسكين بالشبهـــــة والاتهـــــــام .

٢ — وعلينا ان نذكر ايضا ان شدة الانطباق بين الروايات المختلفة لاتوجب الثقة بل على العكس انها توجب الشك . وفي هذا المجال يزداد قلقنا ويشتد ريبنــــا . (٢)

---

١ — المقـــدمـــة لابن الصلاح ص ٩٠ — ٩١

٢ — راجع التفاصيل في مصطلح علم التاريخ للدكتور أسد رستم ص ٨٦

٢ — وقد تكتمل جميع الشروط في رواية من الروايات . ولكننا نجد تناقضا بين مضمونها وناموس من نواميس العلوم الاخرى . فنضطر والحالة هذه الى صرف النظر عن الرواية واسقاطها . (١)

فلو حدثنا محدث بما يتناقض مع قواعد علم الطب ، لاضطررنا ان نصدق الطبيب ونترك قول الراوى . وكذلك الحال في العلوم الاخرى كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء او الحيوان ، اذ ان لهذه العلوم نواميس راسخة لاتتزعزع . ولا مفر من الاعتراف بها وقبولها ، ان في الحاضر او الماضي او المستقبل . وقد فصلنا هذا في قواعد الاحاديث الموضوعة .

واذا اردنا مثلا تطبيقيا لكل ماذكرنا يجدر بنا ان نطالع ماقاله الدكتور جبرائيل جبور في موت عمر ابن ابي ربيعة في الجزء الثاني من مؤلفه المشهور .

روايـــة الحديث من غيــر لقاء رجاله

لقد اشتد الاقبال على دراسة الحديث والقرآن في القرن الرابع ، لان ذلك واجب من اول الواجبات المفروضة على كل مسلم ومسلمة .

لكن نشأ رسم جديد ، وهو الذى يجيز للمحدث رواية الحديث من غير لقاء رجاله ، ومن غير اجازة مكتوبة تخوله حق الرواية ، كما نصت عليها اصول الرواية .

ولكنا يعلم ماكان يعاني الرحالة من مشقات السفر من اجل تعلم الحديث . وبهذا الرسم الجديد ، حلت دراسة الكتب محل الاسفار التي كان يقوم طلاب الحديث من قبل للقاء رجاله (٢)

وهذه الطريقة ، الاخذ من الكتب دون لقاء الرجال ، يعمل بها ويصح اعتمادها ، بشروط واصول لايجوز اهمالها . وقد ، بارك هذه الطريقة ابن الصلاح فقال : " فطريقة ان يأخذه من نسخة معتمدة قابلها هو أو ثقة باصول صحيحة " (٣)

---

١ — راجع مصطلح التاريخ لاسد رستم ص٨٦

٢ — انظر الجامع لاخلاق الراوي ج ٩ ص١٦٨ — ١٦٩

٣ — تدريب الراوي ج ١ ص ١٤٩

وقد استطاع ابن يونس الصفدى المتوفي ٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م ان يكون اماما متيقظا حافظا في الحديث ، وان كان لم يرحل ، ولا سمع بغير مصر (١) .

وكان مثل العالم الذى يطلب الحديث مثل التاجر او عامل السلطان في كثرة غشيانه للخانات التي يأوى اليها المسافرون او في طوافه في السكك ، وهكذا بقي شأنه في الحركة والتجوال زمانا طويلا . وفي سنة ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م توفي ابن مندة خاتمة الرحالين " الذين رحلوا لسماع الحديث ، وقد جمع الفا وسبع ماية حديثا ورجع الى وطنه ومعه اربعون وقرا من الكتب (٢) كما يقول ابو حاتم السمرقندى (المتوفى ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م) لعلنا كتبنا عن الف شيخ ما بين الشام والاسكندرية (٣)

ويروى عن ابي يعقوب القراب السرخسي (المتوفى ٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م) انه طلب الحديث فاكثر ، حتى زاد عدد شيوخه على الف ومائتي شيخ (٤)

على ان الغزالي على شهرته ، ومع انه صار اكبر حجة للعلم عند اهل القرون التي جاءت بعده ، لم يسافر في طلب العلم الا قليلا ؛ فقد خرج من بلد طوس ، وسمع بجرجان في الشمال ، ودرس في نيسابور ، وكانت اكبر مدينة علمية في بلاده ،

وهذا كل ما عرف من اسفاره لطلب الحديث . وقد بين صاحب كتاب بستان العارفين في القرن الرابع اختلاف الاراء في هذا الباب اوضح بيان (٥) .

ومن امثلة النقد الذى وجه للمحدثين ، ان النوبختي يصف ابا الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني (المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م) وهو الذى سمع منه الدارقطني المحدث المشهور ، بانه أكذب الناس ، لانه " كان يدخل سوق الوراقين " وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشترى شيئا كثيرا من الصحف ويحملها الى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها (٦) .

---

١ — حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٦٤ ، آدم متز الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٦٦

٢ — الزرقاني ج ١ ص ٢٢٠ — ٣ — السبكي ج ٢ ص ١٤١

٤ — السبكي ج ٢ ص ١١٤

٥ — بستان العارفين للسمرقندى ص ١٨ وما يليها

٦ — تاريخ بغداد طبعة ترتكو ص ٧١ — الحضارة الاسلامية متز ص ٢٢٧ ج ١

مقدرة المحدثين في الحفظ

كان المحدثون يعتبرون من اكبر العلماء شأنا ، وكانوا يعدون من اعظم رجال الاسلام فلا يفوت المؤرخين ذكر وفاتهم الى جانب القليلين الذين يختارون ذكرهم ، وهم يقصون الحكايات العجيبة التي تدل على مقدرتهم في الحفظ . فيحكى ان عبدالله بن سليمان بن الاشعث (المتوفي عام ٣١٦ هـ ٩٢٨ م) كان محدث العراق ، وكان يحدث في دار الوزير علي بن عيسى ، وقد نصب له السلطان منبرا حدث عليه ، وقد دخل سجستان فسأله اهلها ان يحدثهم فقال : " ما معي اصل ، فقالوا : ابن ابي داود واصول ، فاملى عليهم من حفظه ثلاثين الف حديث ، فلما قدم بغداد ، قال البغداديون : مضى ابن ابي داود الى سجستان ولعب بالناس ، (ثم فيجوا فيجا) بستة دنانير الى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتبت ، وجيء بها وعرضت على الحفاظ فخطأوه في ستة احاديث لم يكن الخطأ الا في ثلاثة منها (١)

ويحكى ان ابن عقدة (المتوفى ٣٣٢ هـ ٩٤٣ م) كان يحفظ بالاسانيد والمتون خمسين ومائتي الف حديث (٢) وكان قاضي الموصل (المتوفى عام ٣٥٥ هـ ٩٦٦ م) يحفظ مائتي الف حديث عن ظهر قلب (٣) .

ويحكي العلماء مع الفخر ماجرى لابي الفضل الهمداني بنيسابور مع الحاكم النيسابوري ، ذلك ان ابا الفضل لما ورد نيسابور وتعصب الناس له ، ولقب بديع الزمان اعجب بنفسه ، اذ كان يحفظ المائة بيت اذا انشدت بين يديه مرة واحدة ، وينشدها من اولها الى آخرها مقلوبة ، فانكر على الناس قولهم : فلان الحافظ في الحديث ، ثم قال : وهل حفظ الحديث مايذكر ؟ فسمع به الحاكم النيسابوري فوجه اليه بجزء وأجله جمعة في حفظه . فرد اليه الهمداني الجزء بعد جمعة ، وقال : من يحفظ هذا ، محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان ، اسام مختلفة والفاظ متباينة ، فقال له الحاكم فاعرف نفسك ، واعلم ان حفظ هذا أضيق مما انت فيه (٤) .

---

١ — المنتظم للسبكي ص١٢٦ ج ٢)
٢ — المنتظم للسبكي ص٧٢ ج ٢
٣ — الحضارة الاسلامية ص٢٢٨ عن كولز يهرج ٢ ص ٢٠٠ —
٤ — طبقات السبكي ج ٢ ص٦٦ ـ ٦٧

السرعة في الحفظ :

اما من حيث السرعة في تعلم الحديث فنستطيع معرفة ذلك مما حكي عن الخطيب البغدادى انه قرأ صحيح البخاري في خمسة ايام (١)

وكان من اكبر محدثي القرن الرابع : علي بن أحمد بن مهدي ابو الحسن المشهور بالدارقطني ، نسبة الى دار القطن ببغداد . أمير المؤمنين - في الحديث ، صاحب السنن ، توفي سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) والحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٠٥ هـ - ١٠١٤ م) (٢) وقد وجدوا من كتب الحديث التي الفت قبلهم موضوعا لبحثهم ، مع مافيها من تناقض . فالفوا كتبا جديدة في الحديث لها قيمة تذكر ، ومازالت حتى اليوم مصدرا مهما لمن رغب الاطلاع على هذا الفن من التأليف . فقد الف الدارقطني كتابا في السنة ، فاستدعاه الوزير جعفر بن الفضل من الفرات من بغداد ، وسره بمال كثير . وكان لهذا الوزير مجالس املاء كتبها الدارقطني وآخرجاها (٣) كما قاموا بتأليف الاستدراكات او المستدركات ، كما فعل الدارقطني والحاكم ، لاعتقادهما ان كثيرا من الحديث الصحيح قد فات جامعيه الاولين .

---

١ - الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧

٢ - الرسالة المستطرفة ١١١

٣ - المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٨

الفصـــل الرابـــع

مراحـل الحديث في التاريخ الاسلامـــي :

كانت قبيلة " قريش " من اكبر القبائل العربيــة ، وكان لها مكانتها الاجتماعية آنذاك ، وكانت تحاول الترؤس على تلك القبـائل منذ عهد الجاهلية . وقد ساعدها على ذلك سدانةُ الكعبة ورعايةُ الاسواق الادبيــة .

فاحسنت وفادة الذين يأتون الى الحج منهم من جهة ، ومنحت الجوائز في الاسواق الادبية من جهة اخرى .

جاء الاسلام برسالته السمحاء التي تدعو الى المحبة والعدل والمساواة بين الناس اجمعين ، فانزل قريشا من عليائها ، وافقدها تلك المكانة الدينية والادبية التي كانت تباهي بها غيرها من القبائل الاخرى .

فاخذ الشعر يتضاءل في عهد النبي ، وقد كرهه واعتبره من تراث الجاهلية البائد ، ولم يأذن به ابدا ، إلاّ في سبيل الدفاع عن الدين

" والشعراء يتبعهم الغـاوون " (١)

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ، ووسيلة كبرى من وسائل فخارهم القبلي . كما كان سلاحا نافذا يساعد السيف في تنازع البقاء ، في الحياة القبلية الصحراوية . يقول جرجـي زيدان : " وربما فَضَّل العربُ الشاعرَ على الفارسِ " (٢)

اما في الاسلام ، فقد ذهبت دولة الشعر ، وحلت محلها دولة الخطابة والاحاديـث ، وبذا امست الحاجة الى الخطيب والمحدث ، اشد منها الى الشاعر .

١ـ الشعـــراء ٢٢٤

٢ـ جرجي زيــدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٧

الحديث في العصر الامـــوى :

بقي الحال على ما هو عليه ، من عدم عناية بالشعر ، والاهتمام بالحديث ، طيلة حكـم الخلفاء الراشدين . ورأينا فيما سبق كيف ان عمر بن الخطاب عزل خالدا من القيادة لانه كان يغدق الاموال على الشعراء ، ويهبهم الجوائز القيمة ، وهذا ما لا يرضى عنه الخلفــاء الراشدون ، لانه ينافي طبيعة الاسلام . وجاء معاوية ، ولعله اراد ان يجذب قلوب الاعـراب اليه ، فاخذ يرعى الشعر بعد ان كاد يميته الاسلام ، مبدلا به الخطب والاحاديث ، وينفـخ الحياة فيه من جديـد .

قال معاوية : "اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم ، فانه مآثر اسلافكم ومواضـع ارشادكم " (١) فاكرم الشعراء واقتدى به من جاء بعده من خلفائه . واعادوا الى الاذهـان سؤدد قريش الماضي ، واحيوا في النفوس العصبية القبلية التي حاربها الرسول حربا شعواء . وجاء بعد معاوية ابنه يزيد ، فسار على خطة ابيه ، بعد ان ورث الحكم عنه . يقول الدكتـور طه حسين :

"واما يزيد فقد كان صورة لجده ابي سفيان ، كان رجل عصبية وقوة وفتك وسخط على
"الاسلام وما سنه للناس من سنن . فاغرى كعب بن جعيل بهجاء الانصار ، فاستعفاه
"وقال : اتريد ان تردني كافرا بعد اسلام ؟
"فاغرى الاخطل وكان شاعرا نصرانيا ، فاجابه وهجا الانصار هجاء مقذعا مشهورا " (٢) .

واقذع بيت قالــه :

ذهبت قريش بالمكارم والعلــى   واللؤم تحت عمائم الانصـــار (٣)

---

١ - جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٠٢ - و ١١٥
٢ - طه حسين في الادب الجاهلـي ص ١٣٥
٣ - احمد الشايب تاريخ الشعر السياسي ٣٠٨ - ٣٠٩

وكان يزيد يكره بني هاشم ويكره الانصار كرها شديدا ، فهو لا يعرف المداراة والمداجاة كابيه ، ولا عجب من ذلك ، لانه فقد في معركة بدر ، على ايدى هؤلاء من كبراء اسرته ، افرادا لهم وزنهم . وظلت جدته هند تتحاهم وتلبس الحداد عليهم مدة طويلة . وقيل انها افتخرت على الخنساء في سوق عكاظ بشدة حزنها على من فقدت في واقعة بدر المشؤومة . وهي التي حرضت على اغتيال حمزة عم النبي ، ثم اكلت كبده . (١)

فيزيد لا يستطيع ان ينسى ثارات عائلته . وان ثارات العائلة اهم من عقائد الدين في نظر اهل البداوة .

ومن يدرس مثل هذه القيم البدوية ، ير مصداق هذا بكل وضوح . ولعل تلك القسوة الجاهلية التي قتل فيها بنو هاشم في موقعة كربلاء ، وقتل فيها الانصار في موقعة الحرة ، تشير الي عصبية يزيد وحمقه وحقده الدفين اتجاه هؤلاء الابرار . (٢)

استرجعت قريش في العهد الاموى مجدها الذى كان لها في الجاهلية ، وانتقمت ممن ساعدوا محمدا على دعوته ، وذلك عن طريق السيف والشعر ، وهما سلاحا البادية .

وعاد العرب في عهد بني امية ، كما يقول الدكتور طه حسين ، الى شر مما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتناحر القبلي (٣)

وعمل الامويون كذلك على اثارة قلوب العرب ضد غيرهم من الاقوام ، فصارت دولة بني امية بذلك ، دولة عربية شعرية ، لا تفهم الاسلام الا على اساس قومي بدوى (٤)

---

(١) الاغاني - شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد

(٢) شرح نهج البلاغة - الاغاني

(٣) طه حسين في الادب الجاهلي ص ١٣٥

(٤) الجاحظ البيان والتبيين ج ٣ ص ٢١٧

جاء الاسلام يقضي على الكسروية ، فاقام الامويون كسروية اخرى ، فالفرس استعبدوا الناس باسم (هرمز) والامويون استعبدوهم باسم الاله الواحد القهار .

الى ان جاء عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الزاهد العادل ، فارجع الامور الى ما كانت عليه ايام جده عمر بن الخطاب ، وسار سيرة جده العظيمة ، وهو الذى امر بجمع الحديث والاهتمام به اهتماما كبيرا . ولكن المنية عاجلته قبل ان يتم ما شرع به . والله اعلم بسبب موته ؟

وبعد هذا العرض التاريخي السريع الذى اوقفنا على ظروف تكوين المجتمع الامـــوى ، نرى ان الامويين قد اهملوا اهل الحديث . واهتموا بالشعراء كما يفعل البدو تمامـــا . ونسوا ان شاعر القبيلة البدوية جزء لا يتجزأ منها ، وان شاعر الحضر يطلب بشعره المكافأة ، وهو لا يتردد ان يشتم اليوم من كان يمدحه بالامس .

لذلـــك نرى ان :

اهل الحديث سجلوا مثالب الامويين وفضائل اعدائهم فبقي هذا التسجيـــل خالدا حتى اليوم يقرأه الناس جيلا بعد جيل .

اما الشعر الذى قيل في مدح الامويين ، فقد قرأه الناس بعد ذلك ، على اساس ان اعذب الشعر اكذبه ، وذهبت الاموال الفائضة التي انفقت في سبيلـــه .

وبهذا صار التاريخ الاسلامي مملوءا بمثالب الامويين ، حيث لم يذكـــر المحدثون مـــن محاسنهم الا قليـــلا .

جاء في القرآن الكريم : " يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبـا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبيـــر " . (١)

---

١ ـ الحجرات : ١٣

وروى عن الرسول (ص) انه قال في خطبته في حجة الوداع: "يا ايها الناس، ان الله تعالى اذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالاباء، كلكم لآدم، وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى". (١)

وروى عنه ايضا: "من قتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، او يدعو لعصبية، او ينصر عصبية، فقد قتل قتلة جاهلية" (٢)

لقد عمل النبي (ص) طيلة حياته باقواله واعماله، الى بث الروح الانسانية الرحبة في قلوب المسلمين، فدعا جميع القبائل العربية الى ترك العصبية القبلية، والوقوف صفا واحدا ويدا واحدة، يربط بين افرادها اخوة الاسلام ومحبة الاسلام، وانسانية الاسلام، يدعوهم على اختلاف بلدانهم ولهجاتهم امة واحدة متماسكة، تلتف حول عقيدة واحدة، فلا يمزقها التناحر القبلي الجاهلي. ولكن متى بدأ الانحراف؟ وماذا كانت نتيجته؟

عادت الروح القبلية البغيضة الى الظهور، وبانت آثارها الوبيلة في المجتمع الاسلامي منذ عهد عثمان، وذلك حكم بنو امية في رقاب الناس. ولا شك ان هذا العمل مجاف لروح الاسلام. فهذا سعيد بن العاص والي الكوفة قال في ملأ من رجال القبائل ردا على احدهم: "انما السواد بستان لقريش" فرد عليه الاشتر النخعي: "اتزعم ان السواد الذى افاءه الله علينا باسيافنا، بستانا لك ولقومك" (٣) فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل في ذلك الحين.

واذا ذكرنا الامويين، ذكرنا على رأسهم معاوية بن ابي سفيان. وسوف نقف عنده قليلا، وعند اتباعه الذين اقتفوا اثره، لنبين بعد ذلك مدى تأثير سياسته على المجتمع الاسلامي عامة، وعلى المحدثين خاصة.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام

(٢) المجازات النبوية ص ٣٣٣

(٣) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ٤ ـ ٥٧ ـ ٥٨ والسواد: العراق

عمد معاوية الى احياء العصبية القبلة عند جميع القبائل العربية ، وسوف نورد امثلة موضحة ، وهو يهدف من وراء ذلك غايات بعيدة - ليضمن ولاء تلك القبائل ، ومن ثم ليضرب بعضها ببعض حين يخشى الخطر على عرشه .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى احياء العصبية العنصرية عند العرب عموما ضد المسلمين غير العرب (الموالي) .

ففي حياة علي اثار معاوية الروح القبلية في سكان العراق ، فتارة يلوح لزعمائهم بالامتيازات المادية ، وتارة يميز بعضهم بالفروق الاجتماعية ، حتى صارت بعد ذلك الشام ، ملاذا يحتمي فيها كل من يغضب عليه علي ، لخيانة افتعلها ، او لكل من اراد الجاه والغنى والمنزلة الاجتماعية الرفيعة .

وقد كتب علي الى عامله على المدينة (سهل بن حنيف) في شأن قوم لحقوا بمعاوية : " وانما هم اهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون اليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه ، وسمعوه ووعوه ، وعلموا ان الناس عندنا اسوة ، فهربوا الى الاثرة فبعدا لهم وسحقا " (١)

ومن جملة الفتن التي حرّض عليها معاوية ، وعمل من اجل اشعالها . انه ارسل في سنة ٤٨ هـ ابن الحضرمي الى البصرة ، ليضرم الفتنة بين قبائلها . فذهب هذا واثار ذكرى حرب الجمل ومقتل عثمان . قال له معاوية : "فانزل في مضر واحذر ربيعة ، وتودد الاسد ، وانع ابن عفان ، وذكرهم الوقعة التي اهلكتهم ، ومنّ لمن سمع واطاع ، دنيا لا تفنى ، واثرة لا يفقدها " (٢)

ومما يجدر ذكره ، هو انه لما بويع لمعاوية بالخلافة ، لم تخضع له البلاد الاسلامية خضوعا تاما . فالشيعة يوالون عليا واهل بيته ، والخوارج يتفقون معهم في عدائهم للامويين .

---

(١) نهج البلاغة ج ٤ ص ٧٣ - ٧٤

(٢) نصر بن مزاحم في كتاب صفين ١٥٣ - ١٥٦

واهل العراق لا يرغبون بنقل بيت المال من بلدهم الى الشام ، فضلا من ان اقواما كثيرة ، تكره غطرسة الامويين وكبرياءهم ، واثارتهم للاحقاد القديمة ونزوعهم للروح الجاهليـة (١)

لم يتبع معاوية سياسة (فرق تسد) بالنسبة للقبائل العربية عامة ، بل حتى اسرتـه الاموية ذاتها ، كان يسوسها بهذه الطريقـة .

"هو يسعى الى ان يُدْخِلَ القطيعةَ بين مختلفِ فروعِ الاسرةِ الامويـةِ بالمدينة ليقضي بذلك على شوكتهـم" (٢)

واذا كانت هذه خطته بالنسبة الى اسرته بالذات فهل لنا ان نرجو سلوكا افضل بالنسبة الى سائر القبائل ، التي كانت تجمعها الدوافع المشتركة ضده ؟ ولقد كان بارعا في استغلال بعض مفكري عصره ، ومنهم الشعراء ، كما ذكرنا عن الاخطل وهجائه الانصار .

حتى الانصار انفسهم ، عمل معاوية الى الفتنة بينهم ، فاثار الاوس والخزرج كما أوعز الى المغنين بانشاد الشعر الجاهلي ، الذي تهاجت به القبائل الجاهليـة .

قال ابو الفرج الاصبهاني : "كان اويس ولعا بالشعر الذى قالته الاوس والخزرج فـي حروبهم ، وكان يريد بذلك الاغراء ، فقل مجلس اجتمع فيه هذان الحيان فغنى فيـه طويس الا وقع فيه شيء ... فكان يبدى السرائر ويخرج الضغائن" (٣)

ولقد سار اتباع معاوية على نفس الطريقة التي رسمها كبيرهم لهم ، باثارة العصبيات بين القبائل ليشغلوهم بذلك عن مراقبتهم والاتحاد ضدّه .

وكثيرا ما كانوا يخلعون زعيم هذه القبيلة ، ويولون مكانه زعيما جديدا من قبيلة اخرى ، فينتج من ذلك ان القبيلة التي نحيت عن الحكم تصبح عدوا لدودا للقبيلة التي تحكـم .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٢٧٨ _ ٢٧٩ لحسن ابراهيم حسن

(٢) الطبرى في شرح نهج البلاغة = ١١/ ١٩ نقلا عن الجاحظ : وكان معاوية يحب ان يغرى بين قريش _ .

(٣) الاغانـي (طبعة ساسي) ج ٢ ص ١٧٠ او فجر الاسلام ص ٨٠

وقد كان زياد بن سمية والي الكوفة ، من عمال معاوية البارعين في هذا المجـــال .
كما ان ابنه عبيد الله ، سلك نفس المسلك الناجح ، عندما ولاه معاوية على البصـــرة .

ومما يروى عن هذا الخبير في شؤون السياسة ، انه اغرى بين شاعرين انس بن زنيم الليثي ، وحارثة بن بدر الغداني (١) وكلاهما صديق حميم له كان يكره احدهما علـــى هجاء الاخر وقومه معه ، (طبعا لقاء مبالغ معينـــة) حتى وقع بينهما شر عنيف بسبـــب ذلك - وعبيد الله ماهر في الدفع ، وبالتالي في الايقاع بينهما .

ولنا مثل آخر من هذا السبيل ، عن المغيرة بن شعبة ، والي الكوفة من قبل معاوية ، وانجح الولاة في السياسة الاموية المروانيـــــة .

كان همه الوحيد عند توليه الكوفة ، ايقاع الفتنة بين الخوارج والشيعة ، فاختار صفوة الشيعة في الكوفة والبصرة ، وجهز منهم جيشا لمحاربة الخوارج ، وبذلك نجح في اشغال الكوفيين بالحروب عن مطالبتهم الامويين ومعارضتهم لهم (٢)

لقد كان من نتيجة هذه السياسة ، ان عادت نار العداوة والاحقاد الى الاشتعال مـــن جديد في صدور القبائل العربية ، واندلعت نيران الهجاء السياسي بين الاحزاب ، وعلـــى رأس كل حزب شاعر يدافع عن قبيلته بكل ما اوتي من قوة في المخيلة والابداع بما اعطي مـــن معرفة نقائص الاحزاب الاخرى ، وكشف معايبها . ولنا بالمثلث الاموى خير دليل علي ما نقول (٣)

والعمل آلاخر الذى قام به معاوية فيما نذكر من اثارة العصبية القبلية ، هو اثارته العصبية العنصرية كما ذكرنا ، عند العرب عموما ضد المسلمين غير العرب .

---

(١) الاغانـــي (طبعة ساسي) ج ٢ ص ١٧٠
(٢) بروكلمن تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٤٦ والطبرى ايضا
(٣) جرير والاخطل والفرزدق)

قالوا : " لا يصلح للقضاء غير عربي فتفطرسوا وتبجحوا كثيرا على الموالـــي . "

وقالوا : " لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار ، او كلب ، او مولى ". (١)

وكانوا ان حضر العرب طعاما وقفوا على روؤسهم ، وان مشوا في موكـب لا يقدمونهـم في الموكب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائـز اذا مات عربي (٢)

كما كان الخاطب لا يخطب المرأة منهم الى ابيها ولا الـــى اخيها ، وانما يخطبها الى مواليها ، فرضى مولاها ضروري وواجب ، وان زوّجها الاب او الاخ بغير اذن مواليـه فسخ عقد الزواج وعد ذلك سفاحــا .

اما اذا اقبل العربي من السوق ، ومعه شيء ، فرأى مولى ، دفعه اليه ليحمله ، عنه فلا يمتنع ، وكان اذا رآه واراد ان ينزله فعل .

ان هذا الموقف اللاانساني ، البعيد كل البعد عن دين الاسلام ، والمعادى عداء صارخا لسنة رسول الله ، سبب شق عصا المسلمين ، واثار الاحقاد العفنة والعدوات الشرسة بينهم . وقد نخر في جسم الدولة الاسلامية ومزقها شر تمزيق . تلك هي السياسة البغيضة التي سنها معاوية واتباعه لتدعيم سلطانهم . وما ابغض السياسة اذا تدخلـت في الدين ، وما ابغض الخلفاء ، الذين يحترفون الدين في سبيل مصالحهم الدنيويــة ، عن الله وكتابه والرسول وسنتــه (٣)

بعد هذا العرض لتلك السياسة الاموية ، هل يمكن ان يبقى الفقهاء والمحدثون بمنجى من التدخل في معترك الحياة الدينيــة ؟ .

وان تدخلوا فهل يسمح لهم من التعبير الحر عما يحفظون من سنة النبي الكريــم ؟ لا يظن ذو بصر وبصيرة الا ان يتخذ هؤلاء المحدثــون مسلكيــن لا ثالـث لهما :

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٨ ـ ٣٤ . التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٠ ـ ٦٤ ـ ٩١ ـ ٩٦

(٢) المصدر نفسه ـ ضحى الاسلام ج ١ ص ١٨ ـ ٣٤ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٠ ـ ٦٤ ـ ٩١ ـ ٩٦ العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

(٣) اذا اردنا التوسع في القبلية وما احدثته من فتن وانحراف نراجع فيليب حتي ج ٢ ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢ من تاريخ العرب . وبروكلمن : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ، وحسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٣٧ ـ ٣٤١

١ ـ اما ان يسكتوا عن الحديث بكل ما يعلمون سكوتا تاما ، لان في سكوتهم خلاصا لهم .

٢ـ واما ان يحدثوا بشيء مما يعلمون ويضيفون له ما يتناسب وتدعيم حكم الحاكمين . وهذا امر طبيعي . ان الحديث عن فضائل اعداء الامويين السياسيين من العرب اوغير العرب ، من الصحابة اوغيرهم من الطبقات ، يعد افتراء على نظام الحكم الاموى .

وبالتالي تهديدا مباشرا للخلفاء الامويين (اتباع معاوية) كيف لا كأن المحدثين يظهرون معايب الخليفة وانحرافه ، عوجاء في كتاب الله وفي سنة نبيه (ص) وبهذا تهديد لكرسي الحكم ، الذى كان وما زال غاية الغايات .

لقد اراد معاوية ان يتغلب على الشعور العام الذى يتمتع به المسلمون بسلاح الدين نفسه ، وقد برع في هذا الميدان كل البراعة، فقد توصل الى تحطيم ما لاعدائه من سلطان روحي على المسلمين .

وقد سجل لنا التاريخ بعض اسماء بارزة من اعوانه ، نشطوا في هذا اللون . قال ابن ابي حديد : " ذكر شيخنا ابو جعفر الاسكافي ، ان معاوية وضع قوما من " الصحابة ، وقوما من التابعين ، على رواية اخبار قبيحة في علي عليه السلام ، تقتضي " الطعن فيه ، والبراءة منه ، وجعل لهم على ذلك جُعْلا يرغب في مثله ، فاختلقوا " ما ارضاه ".

منهم ابو هريرة ، وعمر بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ومن التابعين عروة بن الزبير " (١) .

١ـ شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٦١ .

وقد استغل معاوية هؤلاء الرجال وما شابههم في ايجاد تبرير ديني لسلطان بني امية ، او على الاقل لاسكات الجماهير وكبح جماحهم ، من القيام بثورة وذلك عن طريق الدين نفسه ، لان الحاكم آن ذاك يحاسب بمخالفته الدين ، وليس لاسباب اخرى .

فالقى معاوية على عاتق هؤلاء مهمة صعبة جدا ، ولم يرض عنها الا القليل من الفقهاء والمحدثين ، اولئك الذين يفضلون الجاه والثروة ، كلفهم باختلاق "الاحاديث" التي تتضمن الطعن في علي واهل بيته ، ثم نسبة هذه الاحاديث الى الرسول (ص) ويوضح لنا النص الاتي ما نقول :

" كتب معاوية نسخة واحدة الى عماله بعد عام الجماعة : " ان برئت الذمة ممن روى شيئا من فضائل ابي تراب واهل بيته " (١) .

وكان له ما اراد اذ عمد الخطباء الى لعن علي علنا على المنابر ، وقد دامت اللعنات والمسبة لعلي حتي جاء عمر بن عبد العزيز ، العادل الورع فمنعهم عن ذلك . (شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد) .

وكتب اليهم : الا يقبلوا لاحد من شيعة علي واهل بيته شهادة ،

وكتب اليهم ايضا : " انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه والذين يروون فضائله ومناقبه ، فادنوا مجالسهم ، وقربوهم واكرموهم ، واكتبوا اليّ بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم ابيه وعشيرته ، ففعلوا ذلك حتى اكثروا في فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه معاوية اليهم من الصلات ، والكساء والحباء والقطائع ، ويفيضه في العرب منهم والموالي ، فكثر ذلك في كل مصر ، وتنافسوا في المنازل والدنيا ، فليس يجيء احد مردودا من الناس ، عاملا من عمال معاوية ، فيروى في عثمان فضيلة او منقبة ، الا كتب اسمه وقربه وشفعه . فلبثوا بذلك حينا " (٢) .

١ـ شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٤٤ ـ ٤٦ .
٢ـ المصدر نفسه .

" ثم كتب الى عماله : ان الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر ، وفي
" كل وجه وناحية، فاذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس الى الرواية في فضائل الصحابة
" والخلفاء الاولين، ولا تتركوا خبرا يرويه احد من المسلمين من ابي تراب الا وتأتوني
" في مناقض لهفي الصحابة ، فان هذا احب اليّ واقر لعيني ، وادحض لحجة ابي تراب
" وشيعته " (١) .

فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى اشادوا بذكر ذلك على المنابر، والقي الى معلمي الكتاتيب ، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع ، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

لهذا كله ظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان اعظم الناس في ذلك بلية ، القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك ، فيفتعلون الاحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الاموال والضياع والمنازل .. " فلم يزل الامر كذلك حتى مات الحسن
" بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة " (٢) .

وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه — وهو من اكابر المحدثين واعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر وقال :

" ان اكثر الاحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في ايام بني
" امية تقربا اليهم بما يظنون انهم يرغمون به انوف بني هاشم " (٣) .

١— شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٤٤— ٤٦ .
٢— المصدر نفسه .
٣— المصدر السابق ج ١١ ص ٤٦ .
ابن عرفة المعروف بنفطويه : ابراهيم بن محمد الاسدي العتكي ابو عبد الله من احفاد المهلب ابن ابي صفرة امام في النحو وكان فقيها رأسا في مذهب داود (المخالف للمذاهب الاربعة) وهو المذهب الظاهري ولد ٢٤٤ هـ — ٣٢٣ هـ (الاعلام للزركلي ج ١ ص ٥٧) .
٨٥٨ م — ٩٣٥ م

ويبدو وضع معاوية الذكي وكرمه الحاتمي ، ما بذل للصحابي سمرة بن جندب ، اربعمائة الف درهم على ان يروي هذه الآية من القرآن الكريم :

" ومن الناس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياة الدنيا ، ويُشْهِدُ اللهَ على ما فـي
" قَلْبِهِ ، وهو أَلَدُّ الخِصَامِ . واذا تولّى سعى في الارضِ لِيُفْسِـدَ فيها ويُهْلِـكَ
" الحَرْثَ والنَّسْلَ ، واللهُ لا يحب الفسادَ " (١) .

على ان يرويها انها قد نزلت في علي بن ابي طالب .

ولم يرق له هذا الوضع بل طلب اليه ايضا ان يروي هذه الاية في ابن ملجم (قاتل عليّ) وهي قوله تعالى : " ومن الناس من يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغاءَ مرضاة اللهِ واللهُ " رؤوفٌ بالعبادِ " (٢) .

فروى ذلك والله يعلم كم كانت المكافأة ؟

الحقيقة تبقى حقيقة مهما تناوب عليها من ظروف ، تشوهها وتبعدهـــا عن مراميها الصحيحة ، فان كان للبحر مَدٌّ وجَزْرٌ ، وللقمر نَقْصٌ وكَمَالٌ ، وللزمن صيف وشتاء ، فالحق يبقى لا يتحول ولا يزول ولا يتغير مهما شوّه وجهه .

ويأتي الآن دور ابي هريرة الذي كافأه معاوية مكافأة لا تضاهى ، اذ ولاه المدينة ، لانه روى الكثرة الكاثرة في شأن علي ، وآل بيته من جهة ، وفي تمجيد فضائل بني امية من جهة اخرى ، باحاديث تلائم ذوق معاوية واهدافه السياسيـــة .

وحقا ان قال علي : " لقد حاربناكم على التنزيل واليوم نحاربكـم علـى التأويل " (٣) .

نتج عن مدرسة معاوية الوانٌ من وضع الاحاديث ، منها ما يتعلق بان الثورة على الظالم لا يرضى عنها الدين ويحذّر المسلمين منها :

١ـ سورة البقرة ٢٠٤ ـ ٢٠٥

٢ـ سورة البقرة ٢٠٧ ـ شرح نهج البلاغة ج ١١ ص٤٤ ـ ٤٦ وقد كانت المكافأة اربع مئة الف درهم لم يرض باقل منها .

٣ـ المصدر نفسه وقد روى الخبر نفسه عمار بن ياسر . ج ٤ ص٧٣ .

عن عبد الله ابن عمر ، قال : " قال رسول الله : انكم سترون بعدى اثرة واموراً تنكرونها . قالوا : فماذا تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : ادوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم " ومما رواه ابو هريرة حديثا طويلا قال: حدث العجاج قال : " قال لي ابو هريرة : ممن انت ؟ قال ، قلت : من اهل العراق . قال: يوشك ان يأتيك بقعان " اهل الشام فيأخذوا صدقتك ، فاذا اتوك فتلقهم بها ، فاذا دخلوها فكن في اقاصيها " وخل عنهم وعنها . واياك ان تسبهم ، فانك ان سببتهم ذهب اجرك ، واخذوا صدقتك ، " وان صبرت جاءتك في ميزانك يوم القيامة " (١) .

وكثير غير هذه الاحاديث التي تدعو المسلمين الى الخضوع لامرائهم الظالمين ، وضعت على السنة محدثين مأجورين ؟ .

ولون آخر من الوان الوضع ، ابتدعه الامويون لتثبيت ملكهم ، عن طريق التضليل الديني ، هو تأسيس الفرق الدينية السياسية ، التي تقدم للجماهير تفسيرات دينية ، تخدم سلطة الامويين، من هذه الفرق نذكر المرجئة (٢)

كان الامويون يواجهون الشيعة ، الذين يعتبرون بني امية قتلة غاصبين لتراث النبي . والخوارج الذين يرونهم كفرة تجب الثورة عليهم . ولا بد لكل فريق من ان يقدم لدعواه حججا دينية لا يملك الامويون ما يقابلها .

لذلك انشأ المرجئة التي قدمت ادلة مقابلة لادلة الشيعة والخوارج لذلك احتفي بهم الامويون وعطفوا على قادتهم (٣).

والى جانب ما تقدم اعتمد الامويون اسلوبا آخر من اساليب التضليل الديني وهي عقيدة الجبر.

١ـ ابن قتيبة عيون الاخبار ج ١ ص ٧ كما اننا نجد هذه النصوص وغيرها في البخارى .
٢ـ الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤
٣ـ انظر التفصيل في فجر الاسلام ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠

لما قامت عقيدة القدرية القائلة بحرية الارادة والاختيار ، والانسان هو حر ولكنه مسؤول عن افعاله ، لان كل حرية تستتبع حتما المسؤلية ، وجد الامويون في هذه العقيدة خطرا على ملكهم ، فاخترعوا عقيدة الجبر ، فهذه العقيدة تلائم ميدانهم السياسي ، لانها توحي الى الناس ، بان تصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ، ليست سوى قدر مرسوم من الله ، لا يمكن تبديله ، وهم مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر (١) .

فمعاوية يتظاهر بالجبر والارجاء لاجل تبرير افعاله امام الملأ .

من نتائج ذلك ان المرجئة لا يوافقون الخوارج والشيعة على محاسبتهم للامويين ، وازالة دولتهم ، لان حكومة الامويين حكومة شرعية لا يجوز الخروج عليها . ولم يسلم المرجئة بان انصراف خلفاء بني امية عن تطبيق احكام الشريعة كاف لحرمانهم من حقوقهم كاولياء الامر في الاسلام (٢) .

ولابد انه عهد في نشر هاتين العقيدتين ـ الجبر والارجاء ـ الى ولاته واجهزة الدعاية عنده ، ومنها القصاص ، قال الليث بن سعد :

" واما قصص الخاصة فهو الذي اوجد ، معاوية ، ولى رجلا على القصص ،
" فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ،
" وصلى على النبي (ص) ودعا للخليفة واهل بيته وحشمه وجنوده ،
" ودعا على اهل حربه وعلى المشركين كافة " (٣) .

---

١ ـ فجر الاسلام ص ٢٨٣ وفيليب حتي تاريخ العرب ج ٢ ص ٣١٦ .

٢ ـ لما استخلف يزيد بن عبد الملك بن مروان قال : سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فمكث كذلك اربعين ليلة ، فاتى باربعين شيخا فشهدوا له انه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب .

انظر ابن كثير ج ص ٢٣٢ .

٣ ـ فجر الاسلام ص ١٥٩ .

ولابد ان هذا الدعاء ، كان استهلالا او مقدمة يبتدئ به القاص، ثم يأخذ بعده في سرد قصصه المسندة بالاحاديث .

ان كل هذه القصص والعقائد والاحاديث ، اختلقها معاوية واتباعه، لترسيخ حكمه وتدعيم ملكه، ولا هم له بعد ذلك ان وافقت السنة او لم توافقها .

الحديث في العصر العباسي :

جاء العباسيون بعد معاوية وابنه يزيد ، فاخذوا يهتمون باهل الحديث اهتماما بالغا ، وكأنهم ادركوا ما جر اهمال هؤلاء على الامويين من وبال ، فعمدوا الى تقريب المحدثين اليهم فصغوا اليهم، وقد يقبلون ايديهم ويبكون على اثر مواعظهم ، فاغدقوا عليهم الاموال والجوارى معا .

والعباسيون لم يكونوا يختلفون عن اسلافهم الامويين ، من حيث الترف والطغيان ، والسفك والنهب ، واقتناء القصور الشامخة وما تستلزم من الخدم والجوارى . فالامويون كانوا ينفرون من اهل الحديث ، والعباسيون يذرفون الدموع الغزيرة عند المواعظ ، ويسلون السيف عندما تقتضي الحاجة (١) .

ومما يلفت النظر في هذا الصدد ، ان كبار الفقهاء واهل الحديث ، لم ينخدعوا بهذا المظهر الخلاب ، ولم يقعوا في حبال اشراك حكامهم .

كان فقهاء العصر العباسي الاول يميلون الى التشيع ، ويفضلون عليّا ومبادئه، فابو حنيفة (٨٠ هـ — ١٥٠ هـ) الامام الاعظم كان علوي الهوى ، ثوريا من طراز فذ .

مالك بن انس (٩٣ — ١٧٩ هـ) امام المدينة المعروف كان من تلاميذ الامام العلوي جعفر الصادق ، وقد ساعد محمدا الحسني في ثورته على المنصور (٢) .

١— ضحى الاسلام فصل الفقه .
٢— جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١١٩ .

واذا جئنا الى الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) وجدناه اشد من سلفه ابي حنيفة تشيعا للعلويين وحبا لهم . واتهم بانه رافضي لشدة تشيعه وقد قال في ذلك شعرا :

قالوا ترفضت قلت كلا	ما الرفض ديني ولا اعتقادى
ولكن توليت غير شك	خير امام وخير هادى
ان كان حب الولي رفضا	فانني ارفض العباد (١)

وحين نأتي الى الامام الرابع احمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١) ، نجده لا يقل عن اسلافه في الرواية في فضل علي ، وفي الاشادة بفضله . ومن يقرأ مسنده يجد فيه من فضائل علي عددا يفوق بكثير ما جاء في غيره من الصحابة . ولكنه كان منحرفا عن نهج علي .

ومع ان العباسيين من الشيعة فكانوا لا يستحبون ما وجدوا في رجال الدين من ميل للعلويين ، وتأييد ثورتهم .

كتب محمد بن عبد الله الحسني الى المنصور يقول له : " إنَّ الحقَ حَقُنا ، وانكم " انما طلبتموه منا ونهضتم فيه بشيعتنا ... وان ابانا عليا كان الوصي والامام فكيف ورثتموه " دوننا ونحن احياء . وقد علمت ان ليس احد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ، ولا يفخر " بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا .. " (٢) فاجابه المنصور بكتاب طويل يقول : " قتلكم " بنو امية وحرقوكم بالنار ، وصلبوكم على جذوع النخل ، حتى خرجنا عليهم فادركنا بثأركم اذا " لم تدركوه ورفعنا اقداركم واورثناكم ارضهم وديارهم " (٣) .

بعد هذا الجدل ، بدأ الانشقاق بين اسرتي هاشم : آل علي وآل العباس ، واعقب نزاع الكلام نزاعاً بالسيف . ومن المؤسف ان هذا النزاع اتخذ لونا دينيا دخل في صميم العقائد المذهبية .

١ـ جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١١٩ .
٢ـ٣ أحمد امين ضحى الاسلام ج ٣ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

وقد اشتد هذا العداء ايام الرشيد ، الذى كان شديد الكره للعلويين (١) ومما يذكر ان احد الشعراء جاء البرامكة يرجوهم ان يقربوه الى الرشيد فقالوا له : اتبع في شعرك مذهب الهجاء لآل ابي طالب وذمهم . ففعل ونال ما تمنى (٢) ولاشك ان حال المحدثين لم يكن بافضل من حال الشعراء .

وبلغ العداءُ أشُدَّه على عهد المتوكل ، اذ كان شديدَ البُغْض لعلي بن ابي طالب ولا اظن اننا نبعد عن الصواب اذا قلنا : بان الفقهاء واهل الحديث قد ساءهم هذا العداء الناشب بين اسرتي اهل البيت .

فهم في اعماق نفوسهم يميلون نحو العلويين والحكم القائم كان ضدهم ، والان نرى الحكام يتقربون من الفقهاء والمحدثين ، الذين كانوا بوجه عام يفضلون العلويين على العباسيين لانهم كانوا يرونهم لا يختلفون عن اسلافهم الامويين الا بالمظاهر واقامة الشعائر .

يستبان من هذا ان رجال الدين الاولين لم تنطل عليهم الدلقوس والشعائر ، لانهم كانوا يريدون حبا لا عدلا ، فهم على عكس محدثي الامويين لا يبالون بالقشور الزائفة .

اما الرشيد فقد لمسنا تغيرا على يديه ، اذ جذب اليه صاحب ابي حنيفة ، ابا يوسف (٣) ، فعينه قاضيا على بغداد ، وكان للقاضي شأنه آنذاك ، وابو يوسف من كبار العلماء ووافر الذكاء ، وعليه وقعت مسألة تدبير الامور بين الدين والسياسة .

١-٢ احمد امين ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٨٤ .

٣- المصدر نفسه ج ٢ ص ١٨٤ .

هو يعقوب بن ابراهيم ابن حبيب الانصارى الكوفي كان تلميذ ابي حنيفة ومن اتباعه قيل اول من لقب بقاضي القضاة ذكره ابن خلكان وذكر روايات عنه وتوفي ١٨٢ هـ (الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي ج ١ ص ١٨٤ .

ورجال الدين يكرهون التعاون مع الحكام ، لان الحكام في نظرهم من الظالمين ولا يجوز مساعدة الظالم على المظلوم بأى حال .

وان كثيرا من المحدثين كانوا لا يقبلون رواية من تقرب الى السلطان ، ذلك ان الانسان لا يستطيع على الاطلاق ان يرضى السلطان والله معا . ولهذا عابوا ابا يوسف من اجل توليه القضاء (١) قبل ابو يوسف الوظيفة التي رفضها استاذه ابو حنيفة مرتين عندما طلب اليه ذلك ، وقد حبس في زمن المنصور، وهو القائل للمنصور :
" لو هَدَّدْتني ان تُغْرِقَني في الفرات أو أن الي الحكم ، لاخترت أن أغرق ، فلك حاشية " يحتاجون الى من يكرمهم لك ، فلا اصلح لك (٢) .

وهذا امر طبيعي ان مثل ابي حنيفة، الصادق في قوله ، الذى لا يعرف الممالقة والاطراء والتدجيل ، لا يصلح لمثل المنصور، الظالم المارق المزور على لسان رسول الله (ص) .

بعد ابي يوسف كان الحادث الذى سماه المؤرخون " المحنة " (٣) .

وفعلا كانت المحنة بمثابة امتحان ، امتحن به المأمون والمعتصم والواثق من بعده، الفقهاء في خلق القرآن . ومسألة خلق القرآن ، اصبحت بمثابة سؤال يستدل به على عقيدة الممتحن .

كان المأمون شديد التعلق بمبادئ المعتزلة ، قوم يريدون ان يقيموا العقيدة الدينية على اساس العقل والتفكير المنطقي . لقد ابتلي الحديث بالمأمون ، ووقف المحدثون والفقهاء موقفا جريئا تحملوا لاجله الاضطهاد والعذاب.

ان التفكير المنطقي في نظرهم يؤدى الى الشك ، والشك يؤدى الى ضعف العقيدة الدينية وخاصة عند العامة .

١ـ احمد امين ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٨٥ .
٢ـ المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢٨.
٣ـ انظر ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٩٨.

وقف العامة والمحدثون والفقهاء من جهة ، ووقف ارستقراطيو الفكر من جهة اخرى .

واعتقاد المعتزلة ان ترك الدين ، من غير تمنطق ، يؤدي في النهاية الى حشوء بالخرافات والمبالغات والاباطيل . لهذا كانوا شديدي الوطأة على الفقهاء والمحدثين عامة ، فجادلوهم واضطهدوهم بمساعدة الدولة (١) ولابد من ردة فعل تجاه هذا الاضطهاد ، وبالفعل عندما مات الواثق وجاء المتوكل ، بدأت رَدَّةُ الفعلِ ضد المعتزلة تظهر بشكل عنيف جدا ، وبدا هنا نقطة تحول هامة في التاريخ .

في عهد المتوكل عُدَّ مذهبُ المعتزلة مذهبُ البدعة ، وظهر للوجود اهلُ السُّنَّة والحديثِ . ونلاحظ ان الحديثَ يسمى " سنة " وصار معنى السنة مضادا لمعنى البدعة . " وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " .

ومنذ ذلك الحين سد باب الاجتهاد ، لان كل من يدعو الى التجديد يعد مبتدعا .

ان المحنة التي احدثها المتوكل ، هي محنة مخزية هدامة ، ولا اظن انه اقل خطرا من هولاكو ، لان هذا خرب تراث الاسلام المادي ، اما المتوكل فقد خرب تراث الاسلام الفكري .

اخذ المتوكل بالتنكيل بالمعتزلة وتتبعهم واحدا واحدا ، فاقصاهم عن مناصبهم . ويروى انه امر عامله بمصر ، ان يحلق لحية قاضي القضاة هنالك ، اذ كان معتزليا شديدا ، وان يضربه ويطوف به على حمار في الاسواق (٢) .

استقدم المتوكل المحدثين والفقهاء واجزل عطاءهم ، وامرهم بان يحدثوا الناس بالاحاديث المأثورة . يقول المسعودي :

١ـ التفاصيل في ضحى الاسلام لأحمد امين ج ٣ ص ١٦١ ـ ٢٠٧ .
٢ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٨ .

" لما افضت الخلافة للمتوكل امر بترك النظر والمباحثة في الجدل
" والترك لماكان الناس عليه في ايام المعتصم والواثق ، وامر الناس
" بالتسليم والتقليد . وامر الشيوخ المحدثين بالتحديث واظهار
" السنة والجماعة " (١) .

وقال ابن الجنازة في مدح المتوكل :

" وبعد فان السنة اليوم اصبحت	معززة حتى كأن لم يذلل
" وولى اخو الابداع في الدين هاربا	الى النار يهوى مدبرا غير مقبل
" شفى الله منها بالخليفة جعفر	خليفته ذي السنة المتوكل (٢)

ولا يخفى ان المتوكل كان من الحكام الظالمين ، يحرق ويسفك الدم ، ولا يقل شراسة وخسة عمن سبقه من الخلفاء العباسيين ، ولكن فعله هذا باحياء السنة واماتة البدعة ، جعل الفقهاء يمجدونه ويحسنون سوء فعله ، حتى ان بعض المحدثين ، على ذمته ، رأى في المنام ان الله غفر له جميع ذنوبه (٣) .

عهد المتوكل هو عهد جديد بالنسبة للدين في تاريخ الاسلام ، ونقطة تحول هامة يصح الوقوف عندها . لقد صار الدين والدولة دينا واحدا .

فالدين يؤيد الدولة بالاحاديث ، والدولة تساند هؤلاء بسيفها .

وبذلك نزل الدين والمحدثون الى مستوى الدولة ، ولم ترتفع هي الى مستوى الدين العظيم ، والمحدثين العادلين .

١ــ المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٨ .
٢ــ احمد امين المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٨ .
٣ــ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٩٨ .

الحديث في الاندلس :

وحدث حدث آخر ، بعد " المحنة " كان له اهمية كبرى في تطوير الفكر الاسلامي ، الا وهو مغالاة خلفاء الاندلس في مذهب اهل السنة، وتنافسهم في تشجيع الفقهاء والمحدثين ، وذلك بعد ان احسوا بخطأ اسلافهم الشاميين في الابتعاد عنهم " فاخذوا يقربون اليهم المحدثين ، ويشترون كتبهم باغلى الاثمان ويستدعون بعض من اشتهر " منهم في المشرق الى الاندلس، وصار العلماء الذين يضيق بهم الشرق من الفاقة ، " يرحلون الى الاندلس، ليجدوا فيه الغنى والتوفير والمكانة " (١) .

وتجدر الاشارة الى ان علماء الاندلس لم ينهجوا نهج ابي حنيفة والشافعي في فقههم واحاديثهم، ولكنهم قلّدوا واوغلوا في التقليد .

اخذوا بتمجيد الاسرة الاموية التي ينتمون اليها ، فينشرون فضائل الامويين اسلافهم ، وهم بذلك يسيرون عكس فقهاء الشرق آنذاك لما كان ذم الامويين قد اصبح سنة عندهم ، ولو درسنا مؤلفات ابن حزم ، الذي يعد من اعظم فقهاء الاندلس في ذلك العهد ، ان في الاحكام في اصول الاحكام، او في الملل والنحل ، وجدناه يميل ظاهرا نحو الامويين، وينفر من علي والعلويين .

فهو يعدّ حديث " الغدير " الذي جاء في فضل علي غير صحيح وهو من مخترعات الرافضة ، بينما كان علماء الحديث في المشرق يعتبرونه صحيحا بلا شك (٢) ولا عجب من ذلك اذا علمنا انه :

" يقال ان جده كان مولى ليزيد بن ابي سفيان . ومن الاقوال الشائعة في " الاندلس آنذاك " إنَّ قَلَمَ ابنِ حزمٍ كَسيفِ الحجاجِ ماضٍ حادٍ " (٣) .

١ـ احمد امين ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢١ ـ ٢٤ .

٢ـ ابن حزم ـ الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٤٨ .

٣ـ احمد امين ج ٣ ص ٥٨ المصدر السابق .

ولا فرق بين البطلين فابن حزم كان يدافع عن الامويين بقلمه واحاديثه ، والحجاج دافع عنهم بسيفه .

ان حب فقهاء الاندلس للبيت الاموى اخذ يدخل شيئا فشيئا في اوساط الشرق ، نتيجة التلاقح الفكرى، الذى ان لم يكن قد تم عاجلا فقد تمّ آجلا .

نلاحظ ذكر معاوية يعلو من جديد ، واسمه يرتفع في نظر اهل السنة في الشرق حتى صار من اصحاب رسول الله وكاتب وحيه (١) .

يقول البروفسور (متز) ان اهالي اصفهان كانوا يغالون في حب معاوية في القرن الرابع الهجرى . ويحكي المقدسي ان رجلا من اهالي اصفهان ، وصف له بالزهد والتعبد ، فقصده ليسائله، فرآه يقول: " ان معاوية نبي مرسل " فلما انكر عليه المقدسي ذلك اخذ يشنع عليه ، وثار عليه اهالي اصفهان وكادوا يبطشون به لو لم يلحق بالقافلة على عجل ويترك البلدة (٢) .

ثم يكمل المقدسي ايضا : " انه رأى في جامع واسط رجلا يروى حديثا عن النبي ان الله يدني معاوية يوم القيامه فيجلسه الى جنبه ويغلفه بيده ثم يجلوه على الناس كالعروس " فسأله المقدسي " بماذا ؟ " اجاب الرجل: " بمحاربته عليّا " فقال المقدسي " كذبت يا ضال " فهتف الرجل " خذوا هذا الرافضي " ... فاقبل الناس عليه ... فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه " (٣) .

ان معظم الفرس كانوا في ذلك الحين من اهل السنة، والظاهر ان اصفهان كانت مركزا لهم . اما اهل العراق فكان يغلب عليهم التشيع العلوى ومركزهم الكوفة (٤) .

١- راجع الفوائد المجموعة ص ٤٠٣ .

٢- آدم متز الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٠١ .

٣- آدم متز الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٠٢ .

٤- المصدر السابق ج ١ ص ١٠١ .

الحديث بين اهل السنة والشيعة :

ومن غرائب التاريخ ان يجتمع في بغداد اناس من الطرفين، وكانت الفتنة بين اهل السنة والشيعة . واخذت الفتنة تزداد على مرور الايام، وتزداد معها الحوادث المتتالية من الشغب بين تينك الطائفتين .

ولا شك ان النزاع المستمر يحدث التطرف البشع والمغالاة الفارغة التي تعتمد على العاطفة والميل والهوى ليس الا .

فاهل السنة تعصبوا لاصحاب النبي من جهة ، والشيعة تعصبوا لآل النبي . فريق للاصحاب وفريق للآل . وكل منهم يعتمد على احاديث مسندة صحيحة .

اعتمد اهل السنة على الحديث النبوي القائل " اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ، (واختلاف اصحابي رحمة) وهما حديثان موضوعان .

واعتمد الشيعة بالمقابل على الحديث القائل: " انما مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (١) .

اولئك جعلوا مقياس الفضيلة في الصحبة النبوية التي قدسوها ، واولئك اعتمدوا على النسب العلوي .

وبهذا اختلفت المقاييس، هذا افقي والاخر شاقولي ، وبالتالي اختلفت الاحاديث " لقد اختفى في نظرهم مقياس المبدأ ، وظهر الى الوجود مقياس جديد ، هو مقياس التقديس الافقي والشاقولي .

نحن نرفض المقياس الافقي لانه متناقض حيث الاصحاب كانوا مختلفين في آرائهم ورو...
عن الرسول (ص) فكيف يقتدى بجميعهم في حين انا نرجح المقياس العمودي لانه استمرارية ...

فاطلق اهل السنة على الشيعة لقب " الروافض " وذلك يعني انهم رفضوا الصحابة ". ولي تفسير آخر للروافض، وهو انهم الذين رفضوا الحكام غير الشرعيين الذين ...
...هم على الشعوب دونما صلاحية ولا اصلاح وعلى كل المسلمين ان يكونوا روافض واولهم بهذا ...

١ـ غاية المرام للسيد هاشم البحراني نقل ذلك عن مسند الامام احمد بخمسة طرق . ص ٢٧٤ طبع حجر.

...ولهم صلاحي (٤) والشيعة هم الذين شايعوه في تمسكه بسنة الرسول (ص) فليكن المسـ...
...هم سنة وكلهم شيعة وكلهم رفضة لما ينافي الشريعة، وعلى المسلمين كله ان يرفضوا ال...
السلطة البغيضة.

بينما اطلق الشيعة على اهل السنة " النواصب " لانهم نصبوا العداء لاهل البيت • وبهذا تمادى الغلو عند كلا الجانبين واصبح داء اجتماعيا خطيرا ، يهدم ويفرق •

لم يكن الشيعة " روافض " في اول امرهم ، بل اهل السنة اخترعوا لهم هذا اللقب ، وكذلك لم يكن اهل السنة " نواصب " انما هو التطرف والتعصب الاعمى وما ينتج عنهما من نتائج محزنة •

واذا اراد الشيعة واهل السنة ان يتحدوا ، فعليهم ان يرجعوا الى شعارهم القديم ، الذى اتخذه زيد بن علي وابو حنيفة • الا وهو الثورة على الظلم في شتى صوره ،

فلا ارى بعد هذا من فرق بين مفهوم الظالم ، ان كان عند الشيعة او عند اهل السنة ، او عند اى كان من البشر •

ان هدف الدين هو العدل الاجتماعي ، وانسانية الانسان باجلى مظاهرها وارفع معانيها ، وما الرجال فيه الا وسائل لتحقيق هذه الاهداف النبيلة •

ومن طرائف الامور ان يجتمع في بلد واحد خلفاء وامراء ، كل يهدف الى هدف ، وكل ينظر الى الامور بمنظاره الخاص •

وقد حدث مثل هذا التناقض في عهد البويهيين ، في القرن الرابع ، فكانوا الامراء وكان بنو العباس الخلفاء ولكنها خلافة صورية •

البويهيون من الشيعة ، اما خلفاء بني العباس فكانوا من اهل السنة • خلفاء سنيون ، وامراء شيعة ، وحكم مزدوج ، وبلاء عظيم •

واشراف بغداد في ذلك الحين على نوعين : علويين وعباسيين • كل شريف يتعصب لطائفته ويذكي نار الخلاف •

كان اهل السنة يوءمنون بالخلافة ، ولهذا ايدوا العباسيين واعتبروهم ظل الله على ارضه . اما الشيعة فقد آمنوا بالامامة ، وجعلوها في آل علي لاتخرج عنهم ، واعتبروا الخلافة العباسية مغصوبة باطلة .

وصار اشراف العلويين والعباسيين يستغلون تعصب الجمهور البغدادي لهم ، فيهيجونه في سبيل اغراضهم الشخصية (١) .

فالقضية خرجت عن كونها نزاعا حول مبادئ عامة ، واصبحت قضايا خاصة ، ونزاعا على الرئاسة . كما هي الحال في اكثر قضايانا نحن في عصرنا الحاضر . والامثلة على ذلك في حياتنا التي نعيشها لاتعد .

يروى انه سكر ذات يوم من عام ٣٥٠ هـ عباسي وعلوي في العراق ، فتنازعا على الشرب وقتل العلوي . فثارت العامة وعظمت الفتنة ، وتحيز الشرفاء كل فريق نحو الجانب الذي ينتمي اليه ، علما بان القضية تتعلق بسكيرين لابعظيمين او قضية كبرى او مبدأ عام ، فاخطر مدير الشرطة ان يعاقب المهيجين من كلا الجانبين ، وامر بان يقرن العباسي بالعلوي ويغرقا في نهر دجلة نهارا ... فهدأت الفتنة (١) وانتهى الامر .

ومن طرائف ذلك العصر ايضا . انه ظهر في اواخر القرن الرابع رجل من الشرفاء ، يدعي المهدوية فتطلعت اليه نفوس العامة من سواد الناس ، وبدأ دعاته يطلبون له البيعة (٢) .

ومن المفارقات المضحكة ان دعاته كانوا يقولون لاهل السنة : " انه عباسي ويقولون للشيعة انه علوي . فجاء اليه احد روءساء الشيعة يريد نصره ، فلما تبين له انه عباسي لا علوي تغيرت نيته عليه وتركه (٣) .

١ـ آدم متز الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٥٧ .

٢ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٤ .

٣ـ المصدر السابق .

بعد هذا الاستعراض السريع للمراحل التي مر بها الحديث عبر التاريخ يمكننا رسم خط بياني ، يشير الى الحقبات الزمنية التي ازدهر فيها الحديث ، ونال قسطا وافرا من الحرية على ايدى حكام عادلين ورعين، كما يشير ايضا الى العقبات التي عاقت الحديث من السير في الخط السليم المعد له، والعلل التي اصابته على ايدى الحكام واصحاب المذاهب .

كل حاكم يريد ان يسخر المحدثين الى صياغة الاحاديث التي تثبت دعائم حكمه ، وكل صاحب مذهب يتخذ من الحديث ما يوافق عقيدته ، فيسلط عليه الاضواء ويبرزه اكثر مما يستحق ، فيزيد ما يوافقه متناسيا الاحاديث التي تعارض مبادئه .

وقد يأتي الحاكم من اصحاب عقيدة معينة ، او مذهب معين ، فيساعد الفقهاء والمحدثين على نشر افكاره بين الملأ ، كما قد يأتي بعده من يعاكسه فيعمد الى التنكيل والاضطهاد لمن سبقه ، ويلقى المحدثون والداعون الى المذهب السابق ، الوانا شتى من المرارة والالم ، او انهم يتنكرون لمبادئهم السالفة ، ويعتنقون مبادئ المذهب الجديد ، وافكار الحاكم الجديد .

ولابد لنا في هذا المجال من وقفة حول الحديث والحاكم .

من اصعب الامور في الحياة الفكرية ان يبتلي الانسان بالتناقض، او ما يسمونه بازدواج الشخصية .

وان هذا المرض اصاب المسلمين بعد عصر الخلفاء الراشدين ، واستلام الامويين الحكم . فهؤلاء كانوا اولى نزعة بدوية ، صريحة ، بينما كانت حياتهم الفكرية متأثرة بالتعاليم الاسلامية . وجل اهتمامهم كان منصرفا الى تدعيم ملكهم وتوسيع فتوحاتهم بحد السيف ، دون ان يستطيعوا التخلي عن قيمهم البدوية ونزعتهم العصبية القديمة ، فكانوا لا يبالون ما يقول الفقهاء والمحدثون واهل الدين .

كانت الدولة الاموية راسخة الدعائم في الشام ، تؤيدها سيوف القبائل العربية ، بينما حملة الفقه والحديث كانوا ينشرون دعوتهم في صفوف الفلاحين واهل الحرف ، وبذلك كان الدين والدولة يسيران باتجاهين متعاكسين (١) .

وقد ادى هذا الوضع المتناقض الى حدوث قلق اجتماعي ، وتأزم لا بد ان ينتهي الى حل . وكان الحل قيام الدولة العباسية على يد العباس الملقب بالسفاح .

جاء العباسيون الى الحكم وهم يريدون احياء السنة التي اماتها بنو امية ، وبالتالي الى ازالة الثغرة التي كانت بين الحاكم والمحكوم ، او بالاحرى بين الدين والدولة .

قرب العباسيون الفقهاء واهل الحديث واجزلوا لهم العطاء ، متظاهرين بالخشوع والتقى والورع ، اما حياتهم العملية فلم تكن سوى قسر واستغلال ومساومة ، كغيرهم من الملوك .

فالحلال عند الخليفة الاموي هو ما حل بيده ، واستطاع الحصول عليه ، والخليفة العباسي يبكي عند الموعظة ويطغى في وقت السياسة .

فهل يستطيع المحدثون ان يصلوا به الى سنة النبي الصحيحة ؟ وهل تستمر ارشاداتهم واحاديثهم طويلا في قلوب حكامهم ؟ ثم هل يمكن للخلفاء العباسيين الذين ملكوا القصور والنعم والغنائم ، وكل مباهج الدنيا ، ان يجمحوا لجام العاطفة ويتذكروا سير الخلفاء الراشدين فيحذوا حذوهم ويقتفوا سيرتهم ؟ .

لا اظن ذلك قد حدث فهم اشبه بهذا المثل :

١ـ جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٩٢ ـ ١٩٤ .

" ان رجلا اخذ ذئبا فجعل يعظه ويقول له : " اياك واخذ اغنام الناس لئلا تعاقب " والذئب يقول " خفف يا اخي واختصر فهناك قطيع من الغنم اخشى ان يفوتني ".

فالحديث وان كان صحيحا ، وخالف طبيعة السامع ، لا يثمر ولا يفيد .
يقول آدم متز : " كان من عادة الكثيرين من الكبراء ان يستدعى احدهم واعظا مشهورا ، ويقول له : عظني وخوفني . وكثيرا ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول " (١) .

كان بعض الصحابة يتجرأون من نقد حكامهم ، دون مواربة ، عندما يلمسون منهم مواربة لاحكام القرآن او للسنة الشريفة . كما حصل لابي ذر مع معاوية .

كان معاوية يبني داره الخضراء ، فمر به ابو ذر ، الصحابي المعروف ، وبدلا من ان يبارك له ، هتف في وجه معاوية قائلا : من اين لك هذا ؟ ان كنت انما بنيتها " من مال المسلمين فهي الخيانة ، وان كنت انما بنيتها من مالك فانما هو السرف " (٢) .

ولست ادرى ما كان يفعل ابو ذر لو رأى الرشيد ، الذى كان يملك الفين من الجواري اختص منهم ثلاثمائة للغناء . وقد طرب ذات مرة فعين المغني الذى اطربه واليا على مصر (٣) .

هذا محض افتراء ودليل عليه بل المعروف والمشهور عن هارون الرشيد انه كان يحج عاما ويغزو عاما

فهل يمكن لمثل هذا ان يأخذ باقوال الرسول الكريم ، وهل يمكن للمحدثين ان يخرجوا عن الحد الذى يرسمه هو لهم ؟ .

ان مثل معاوية والرشيد ، وغيرهم ممن جرى مجراهم ، لن يهتموا بامور الدين بقدر اهتمامهم للدنيا ، وبذلك خرجوا عن خط الخلفاء الراشدين ، وبالتالي عن الخط الصحيح الذى اوحته السنة الكريمة .

١ـ آدم متز الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٨١ .
٢ـ طه حسين الفتنة الكبرى ج ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .
٣ـ جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١١٨ ـ ١٢٦ .

يروى ان عمر بن الخطاب دخل ذات يوم على النبي محمد (ص) فوجده مضطجعا على حصير ، وقد آثر الحصير في جنبه . فبكى عمر اشفاقا وقال : " الا تتخذ لك فراشا لينا يا رسول الله " فاجابه الرسول (ص) : " ماذا يا عمر ... اتظنها كسروية ، انها نبوة لا ملك (١) .

وقال النبي ايضا : " اذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده ... واذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده ... ولقد اظلكم من الله خبر جديد ... نبوة ورحمة " (٢) .

ولقد فاق خلفاؤه من بعده كسرى وقيصر بترفهم واسرافهم .

اين هؤلاء من الخلفاء الراشدين العادلين ، السائرين على كلام الله وسنة نبيه . اين جشع هؤلاء من زهد اولئك الاتقياء .

قال علقمة : " دخلت على علي عليه السلام ، فاذا بين يديه لبن حامض آذتني حموضته وكسر يابسة ، فقلت : يا امير المؤمنين ، اتأكل مثل هذا ؟ فقال لي : " يا ابا الجنوب : كان رسول الله يأكل ايبس من هذا ويلبس اخشن من هذا — واشار الى ثيابه — فأن لم آخذ بما اخذ به خفت الا الحق به " (٣) .

اين هذا الخليفة التقي الذى يتمسك بسنة رسول الله (ص) ويعمل بما احب ، ويكره ما يكره ، من خليفة المسلمين ، الامين الذى قال :

" ان مغنيا غنى له بعض ابيات من الشعر النواسي الرقيق في التغزل
" بالغلمان فطرب الامين طربا شديدا حتى وثب من مجلسه وركب
" على المغني ، واخذ يقبل رأسه . ثم امر له بجائزة . فقال له المغني
" مدهوشا : " يا سيدى قد اجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف درهم ؟

---

١ — خالد محمد خالد الدين في خدمة الشعب ص ٢٦ .
٢ — المصدر نفسه ص ١١ .
٣ — عباس العقاد — عبقرية الامام ، ص ٥٢ .

"فابدى الامين استصغارا لهذا المبلغ البالغ عشرين مليون درهم وقال : " وهل "ذلك الا من خراج بعض الكور ؟ " . (١)

بعد ان استعرضنا هذه الصور المختلفة للحكام القائمين على الدين وجميع ما يرافقه من امور — هل يستطيع المحدثون ، وهو ما يهمنا امرهم الان ، من التحدث بشريعة الله وسنة رسوله ؟ امر عجيب غريب ، ان تجتمع النارُ والماءُ في يد واحدةٍ ؟ اللهم الا المحدثين التجار المرتزقة الذين سوف نتحدث عنهم عند الوضع في الحديث .

ومع ذلك وفي هذا الجو البعيد كل البعد عن شريعة الله ، وعن سنة نبيه ، كنت ترى المساجد تقام ، والاذان ترتفع وتردد عاليا ذكر الله . ولكن من كان يتردد الى هذه المساجد ، ومن كان يقوم بسدانتها من الفقهاء والمحدثين سوى الذين يتحذلقون بجيد اللفظ وبلاغة الاسلوب .

اما اذا اجتهد احدُ المحدثين ، جاء الخليفةُ واهلُ بيته وحاشيته يستمعون منه ويبدون الكثيرَ من مظاهرِ التوقير والاحترام وذلك حتى يتشجع غيرُه على اتباع الاسلوب .

يعتقد هؤلاء الحكام ، انه يجوز لهم ان ينهبوا من يشاؤون من الناس ، ولكي يرضى عنهم ربُّ الناس يعطون مما يجمعون الى العباد والزهاد والمحدثين ، لينوبوا عنهم امام الله ويستغفرونه لهم ، عله يغدق عليهم من الحور العين ما يعوض لهم عما فقدوه في الدنيا الفانية من الجواري والغلمان " ومن ذا الذى يقرض اللهَ قرضا حسنا يضاعفه له . (٢)

لقد صار الحديث في تلك الفترة من الزمن مهنة تدر على اصحابها الاموالَ والنعمَ ، وتمنحهم مركزاً اجتماعياً مرموقاً . انها مهنة سهلة على اى حال ، فهي لا تحتاج الا الى حفظ بعض الآيات والاحاديث الملائمة للوضع ، وارتداء الملابس الفضفاضة التي تخلب النظر وتوحي بالاحترام . (٣) .

---

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٥

(٢) البقرة الآية ٢٤٥

(٣) انظر الكفاية ص ١٥٦ والباعث الحثيث ص ١١٦

والواقع ان المحدث الوضاع المحترف ، والحاكم الطاغي الظالم ، هما من نوع واحد ، فهذا يظلم الناس باعماله ، وذاك يظلمهم باقواله . فكيف لو اتفق الحاكم مع المحدث او الفقيه على التحايل ؟

وقد برع ايضا بعض الفقهاء والمحدثين بما يسمونه (الحيل الشرعية) في العصر العباسي ، كما برعوا في العصر الاموي . فهم يحاولون جهدهم ليجدوا مسوغا شرعيا لبعض الخلفاء العباسيين ، لكل عمل مهما كان منحرفا عن الاسلام الصحيح . وهذا هو الرشيد يجمع الفقهاء والمحدثين ويعرض عليهم امره ، لعلهم يجدون ما في جعبتهم من آيات او احاديث متناقضة ، يبسطونها امامه على الطبق ، ويختار منها ما يلائمه .

يروى ان يحي بن عبد الله العلوي كان ثائرا على الرشيد في نواحي طبرستان (١) فكثر اتباعه واشتدت شوكته ، وهرع الناس لتأييده من الكور والامصار . فندب اليه الرشيد الفضل بن يحي البرمكي . ولجأ الفضل هذا الى طريقة الاستمالة والمصالحة مع الثائر ، بدل الحرب والقتال ، فطلب من الرشيد ان يكتب له امانا بخط يده .

اسرع الرشيد الى كتابة الامان ، واشهد على نفسه فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم . ووجه الكتاب مع جوائز سنيه وهدايا فاخرة الى الثائر العلوي . وجاء العلوي هذا مع الفضل الى الرشيد ، فاكرمه الخليفة العباسي السخي ، واغدق عليه النعم .

ثم تغير الرشيد بعد ذلك واراد الوقيعة بالرجل . فجمع الفقهاء والمحدثين عنده واستفتاهم في نقض الامان .

حاول الفقيه الاول ، وكان محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة ، ان يظهر للرشيد صحة الامان وانه لا يمكن نقضه الامان . فجادله الرشيد في ذلك وحقد عليه .

---

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١١٠ وما بعدها

فنظر الرشيد الى فقيه آخر ، وابو البحتري القاضي ، وسأله فكان الجواب عنده حاضرا . فقد افتى بان الامان منتقض من عدة وجوه ، ثم ابتكر طريقة شرعية لتمزيقه .
" والشرع باب واسع لمن اراد " ؟

هتف الرشيد مسرورا : " انت قاضي القضاة وانت اعلم بذلك (١)

وهذا اسلوب عباسي في طريقة الوضع في الاحاديث ، حتى تتلاءم مع مصالحهم في الحكم ، باسلوب ديني منحرف . وكان لا يعدم الرشيد واتباعه من وجود فقهاء ومحدثين يماشونهم على الوضع ، وينحرفون معهم عن الطريق الصحيح .

ومما يروى عن الرشيد انه كان في مكة ، في سنة من سنى حكمه ، يقوم بشعائر الحج . فشوهد يدعو دعاء كثيرا لطبيبه جبريل بن بختيشوع المسيحي . فانكر عليه ذلك من حضر من اقربائه وقالوا له : " انه ذمي ؟ " فاخذ الرشيد يبرهن لهم عن طريق الفتاوى الدينية بأن دعاءه لطبيبه المسيحي جائز ، وهو بالاحرى في مصلحة المسلمين .

ولو تدرى ما كانت حجته في ذلك ، قال :

" ان صلاح بدن الخليفة بيد طبيبه ، ولما كان صلاح المسلمين
" بصلاح خليفتهم ، فصلاحهم اذن متوقف على تطويل عمر الطبيب
" واسعاده ، بغض النظر عن دينه (٢) .

والحقيقة انها حجة منطقية قوية . انها تعتمد على القياس الارسطوطاليسي في تسلسلها المنطقي . وهو قياس عجيب جدا . ففي الامكان الاتيان به لتأكيد اى رأى وتأييد نقيضه ايضا .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٤
(٢) ابن ابي اصيبعة ، طبقات الاطباء ، ج ١ ص ١٣٠

قال : ان صلاح المسلمين بصلاح خليفتهم . ولكن اى مسلمين يقصد واى خليفة ؟ المسلمون الذين يتبعونه من فقهاء ومحدثين وغيرهم ، هم مسلمون ظاهرا ، مسلمون قولا . فالاسلام يتنكر لهم ولامثالهم ، لانه لا يعرف المواربة ، فهو دين الحق والصلاح ، وهو دين الخير والاصلاح ، وهو كما قال عنه الرسول الكريم : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا" (انظر السيرة حجة الوداع) .

والمسلمون هم المؤمنون بكل ما جاء في القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من امامه (بين يديه) ، وهم من فهموا سنة رسول الله وساروا على هديها ، لا يبدلون ولا يؤولون حسب اهوائهم ومقاصدهم ، ومصالحهم ، وما لسنة الله تبديلا . فمهما برع المحدثون في تغيير وتبديل ووضع الاحاديث ومهما تحذلق الفقهاء في التأويل والتفسير ، ومهما اجتهد المنحرفون عن الدين من معاوية واتباعه ، والرشيد واتباعه ، تبقى الحقيقة واضحة لذوى الافكار النيرة ولذوى القلوب العامرة بالمعرفة والايمان .

ولا شك ان من يطلع على التاريخ الصحيح ، وعلى صفحاته البيض التي سجلت مآثر النبي الكريم وسيرته الشريفة ، من قول او فعل او تقريره ثم يطلع ايضا على سيرة الخلفاء من امويين وعباسيين وغيرهم ، ويتعرف على جميع اعمالهم واطماعهم وميولهم ونزعاتهم ، يرى الدليل الواضح بين ما كان وما يجب ان يكون .

× ×

×

الفصل الخامس : رواية الحديث

المتواتر والآحاد

قسم علماء الحديث الاخبار الى قسمين :

١- الاخبار المتواترة وهي الاخبار القطعية .

٢- اخبار الاحاد وهي من الاخبار غير القطعية .

الخبر المتواتر : تعريفه : عرف عند ابن حزم (٤٥٦ هـ)

(وهو ما نقلته كافة بعد كافة حتى تبلغ به النبي (ص) وهذا خبر لم يختلف مسلمان في وجوب الاخذ به ، وفي انه حق مقطوع على غيبه) (١) .

كما عرفه عنه الغزالي (٥٠٥ هـ) واصفا له الشروط الدقيقة ومنها : (تعدد المخبرين تعددا يمنع التواطؤ على الكذب) (٢) .

وحديثا وجدنا له تعريفا شاملا لما سبق عند استاذ الاصول والفقه المقارن الاستاذ محمد تقي الحكيم :

" يراد به اخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب وصدورهم جميعا عن
" اخطاء او اشتباه او خداع حواس ، على ان يجري هذا المستوى في
" الاخبار في جميع طبقات الرواة ، حتى الطبقة التي تنقل عن المعصوم
" مباشرة . ولو تأخر المتعدد في طبقة ما ، او فقد احد تلك الشروط
" خرج عن كونه متواترا الى اخبار الاحاد " (٣) .

اما الشهيد الثاني فقد عرفه مايقرب من تعريف (تقي الحكيم) فقال: " هو ما بلغت رواته في الكثرة مبلغا احالت العادة تواطؤهم على الكذب واستمر ذلك الوصف في جميع الطبقات حيث تتعدد ، بأن يرويه قوم عن قوم وهكذا الى الاول . فيكون اوله كآخره ووسطه كطرفيه" (٤) .

١- الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ص٩٣ ج ١ وقارن باختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٢١ .
٢- المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١١٥ .
٣- الاصول العامة للفقه المقارن لمحمد تقي الحكيم ص١٩٤
٤- الدراية للشهيد الثاني ص ١٢

شــــروطـــــه :

اختلف العلماء في تعدد شروط المتواتــر ويمكن انتزاعها جميعا من نفــــس التعاريف السابقة باختصار :

الاول : ان يخبروا عن علم ضروري مستنــد الى محسوس .

الثاني : ان يستوى طرف الخبر ووسطه من هذه الصفة وفي كمال العدد لان كل عصــر يستقل بنفسه فلا بد من وجود الشروط فيه .

الثالث : في العدد الذى يحصل به التواتر واختلاف الناس فيه .

اما فيما يخص عدد النقلة ، فقد عددهم ابن حزم متعجبا من تقديرهم لارقام مبهمة غير مفسرة . فقال " وقد اختلف الناس في مقدار عدد النقلة للخبر ، فطائفــة قالت : لا يقبل الخبر الا من جميع اهل المشرق والمغرب ، وقالت طائفة لا يقبل الا من عدد لا نحصيه نحن ، وقالت طائفة لا يقبل من اقل من ثلاثماية وبضعة عشر رجلا . عدد اهل بدر ، وقالــت طائفة لا يقبل الا من سبعين وقالت طائفة لا يقبل الا من خمسين عدد القسامة ، وقالـــت طائفة لا يقبل الا من اربعين لانه العدد الذى لما بلغه المسلمون اظهروا الدين . وقالـــت طائفة لا يقبل الا من عشرين وقالت طائفة لا يقبل الا من اثني عشر وقالت طائفة لا يقبل الا من خمسة وقالت طائفة لا يقبل الا من اربعة وقالت طائفة لا يقبل الا من ثلاثـــة ، لقول رسول الله (ص) حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه انه قد نزل به جائحة . وقالت طائفة لا يقبل الا من اثنين (٢) . وقال : وهذه اقوال كلها بلا برهان ، وما كان هكذا فقد سقط .

ويزيد متعجبا من الذين يدعون الاعداد : ولا بد من ان يكون لذلك التواتر الذى يدعونه في ذاته عدد ان نقص منه واحد لم يكن متواترا ، والا فقد ادعوا ما لا يعرف ابدا ولا يعقل واذن لا بدّ من تحديد عدد ضرورة ، فنقول لهم :

١ـ الدراية ، ص ١٢ ، مطبعة النعمان النجف .

٢ـ الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ، ج ١ص ٩٤ .

" ما تقولون ان سقط واحد من هذا الحد الذى حددتم ،ايبطل سقوط ذلك الواحد قبول ذلك الخبر ام لا يبطله ؟ " (١) .

ثم يقول: " وايضا ما في العقول فرق بين ما نقله عشرون ، وبين ما نقله تسعة عشر ، ولا بين ما نقله سبعون ولا ما نقله تسعة وستون ، وليس ذكر هذه الاعداد في القرآن وفي القسامة وفي بعض الاحوال وفي بعض الاخبار بموجب ان لا يقبل اقل منها في الاخبار ، وقد ذكر الله تعالى في القرآن اعدادا غير هذه ، فذكر تعالى الواحد والاثنين والثلاثة واربعة والمائة الف وغير ذلك ، ولا فرق بين ما تعلق بعدد اخر منها (٢) .

فان نظروا في هذا بما لا يمكن حده من الاشياء ، كانوا مدعين بلا دليل ومشبهين بلا برهان .

وحكم كل شيء يجعله المرء دينا له ان ينظر في حده ويطلبها ، الا ما صح اجماع او نص او اوجبت طبيعة ترك طلب حده .

ثم يرد على الذين يحددون اعدادا يجعلونها مقياسا لمن بعدهم .

" وهو ان لا يصلح عندهم كل امر حصره عدد من الناس ، وكل امر لم يحصره اهل المشرق والمغرب ، فتبطل الاخبار كلها ضرورة على حكم هذه الاقوال الفاسدة ، وهم يعرفون بضرورة حسهم صدق اخبار كثيرة ، من موت وولادة ونكاح وعزل وولاية واعتقال سنزل وخروج عدو ، وشر واقع ، وسائر عوارض العالم مما لا يشهده الا النفر اليسير ، ومن خالف هذا فقد كابر عقله ولم يصح عنده شيء مما ذكرنا ابدا ، ولاسيما اذا كان ساكنا في قرية ليس فيها الاعدد يسير مع انه لا سبيل له الى لقاء اهل المشرق والمغرب كما يزعمون " (٣) .

فان سألنا سائل فقال: ما حد الخبر الذى يوجب الضرورة ؟ فالجواب :

" ان الواحد من غير الانبياء المعصومين ، قد يجوز عليه تعمد الكذب ، يعلم ذلك

١ـ الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ص ٩٥ .
٢ـ المصدر نفسه ص ٩٦ .
٣ـ المصدر نفسه .

بضرورة الحس ، وقد يجوز على جماعة كثيرة ان يتواطئوا على كذبة اذا اجتمعوا ورغبوا او رهبوا . ولكن ذلك لا يخفى من تبلهم بل يسلم اتفاقهم على ذلك الكذب بخبرهم اذا تفرقوا لا بد من ذلك " (١) .

ولكننا نقول : اذا جاء اثنان فاكثر ، وقد تيقنا انهما لم يلتقيا ولا دسسا ، ولا كانت لهما رغبة فيما اخبرا به ، ولا رهبة منه ولم يعلم احدهما بالاخر ، فحدث كل واحد منهما مفترقا عن صاحبه بحديث طويل ، لا يمكن ان يتفق خاطر اثنين على توليد مثله ، وذكر كل واحد منهما مشاهدة او لقاء لجماعة ، شاهدت او اخبرت عن مثلها بانها شاهدت ، فهو خبر صادق ، يضطر بلا شك من سمعه الى تصديقه ، ويقطع على غيبه .

ولو انك كلفت انسانا واحدا اختراع حديث طويل كاذب ، لقدر عليه ، يعلم ذلك بضرورة المشاهدة اما لو ادخلت اثنين في بيتين لا يلتقيان ، وكلف كل واحد منهما توليد حديث كاذب ، لما جاز بوجه من الوجوه ان يتفقا فيه من اوله الى آخره .

اما اتفاق الخواطر على الكلمات اليسيرة ، فقد يحصل في الندرة النادرة .

واخبرني من لا اثق به : " ان خاطره وافق خاطر شاعر آخر في بيت كامل واحد ولست اعلم ذلك صحيحا . واما الذى لا اشك فيه وهو ممتنع في العقل ، اتفاقهما . في قصيدة او حتى في بيتين متتاليين " (٢) .

ويأتي بعد ابي محمد علي بن حزم الاندلسي الظاهرى (٤٥٦ هـ) الامام ابو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) فوضع شروطا للمتواتر نذكر اهمها :

قال : للتواتر شروط ينتفي بانتفاء واحد منها .

- فمنها تعدد المخبرين تعددا يمنع التواطؤ على الكذب لا عمدا ولا سهوا ولا نسيانا وفي تعيين هذا العدد خلاف .

- ومنها الاستناد الى الحس . بان احس المخبرون الاولون بمضمون الخبر (فلا تواتر في العقليات) فلم تقبل حماقة المشائين من الفلاسفة ان لا حشر للأجساد وذلك لان العقل لو كان بديهيا فيفيد العلم بنفسه (٣) .

١- الاحكام في اصول الاحكام لابن حزم ص ٩٦ .
٢- المصدر نفسه .
٣- المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١١٦ .

- ومنها استواء جميع الطبقات ، ان كان هناك طبقات ، فيجب ان يكون المخبرون الاولون جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب وكذا المخبرون عنهم كذلك .

- ومنهم كونهم عالمين ، متيقنين ، لا ظانّين ولا شاكين (بالمخبر عنه اذ لا علم الا عن علم) وقال ابن الحاجب : ان هذا الشرط لا لزوم له ، لانه ان اريد علم الجميع) من المخبرين (فباطل لجواز ان يكون بعضهم ظانا) فانه اذا استعين من المخبرين جماعة وكان بعضهم ظانا يفيد العلم قطعا . فان كون الجماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة لا يلزم منه كونهم عالمين ، وهو ظاهر جدا . فان قلت الاستناد الى الحس مغن عنه ، فانهم اذا اخبروا بخبر بانهم احسوا به ، لزم علمهم قطعا ، قلت المراد بالاستناد الى الحس ان يكون الخبر في المحسوسات لا انهم اخبروا بانهم احسوا به فلا اغناء .

والاستناد الى الحس (لانه اذا بلغ عدد المخبرين حدا يمتنع العقل الاتفاق على الكذب لا يكون ذلك الا في المحسوس ، فان العقلي لا يمنع فيه الاتفاق على الكذب (١) .

ثم اختلف في اقل العدد ، المشروط في التواتر ، فقيل اربعة قياسا على شهود الزنا ، فعلم ان الاربعة مفيدة للقطع .

وقيل ذلك العدد (خمسة قياسا على اللعان) فانه خمس شهادات ، واذا قيل اخبار رجل خمس مرات وافاد اليقين فاخبار خمسة رجال بالطريق اولى (٢) .

وقطع القاضي الباقلاني (٤٠٣ هـ) بنفي الاربعة اذ لو افاد خبر الاربعة اليقين ، لم تحتج شهود الزنا الى التزكية) لان العدالة غير معتبرة في التواتر .

ويرد عليه ردودا ظاهرا ، ان التزكية في الشهادة امر تعبدي لا لتحصيل اليقين ، الا ترى ان سبعين الفا لو شهدوا بالزنا لوجب التزكية ايضا ، ولذا لو حصل اليقين لا عن شهود لم يجب الحد . فان قلت غاية مالزم من دليله عدم افادة الاربعة في الزنا ، ولا يلزم منه عدم الافادة في صورة اخرى (٣) .

١- المستصفى للغزالي ، ج ٢ ص ١١٦ .

٢- انظر المصدر نفسه .

٣- " " " .

والخلاصة ان كل عدد افاد علما بواقعة لشخص، فمثله - اي مثل هذا العدد - ، يفيد العلم بغير تلك الواقعة لشخص آخر (١) .

واني ارى انه زيادة على ما ذكره لا بأس ان نظرنا في نوع القضية المراد الاخبار عنها، ثم مكان وقوع الرواية، واخيرا العدد . ولا اظن ان حصر هذا العدد وحده يفيد اليقين مهما بلغ رقمه ، الا بمقدار ما يرتاح اليه الضمير وتطمئن له النفس. وان العدد الذي يصلح لبلوغ العلم في قضية ما ، قد لا يصلح هو نفسه او دونه لقضية اخرى .

اما الغزالي فقد احب ان يزودنا ببعض المقاييس والامثلة عليها ، نذكرها تباعا :

قيل : اقل العدد المعتبر (سبعة قياسا على غسل الاناء من ولوغ الكلب سبع مرات".

قال النبي (ص) اذا شرب الكلب في اناء احدكم فليغسله سبعا رواه البخاري .

وقيل اقل عدد في المشروط في التواتر (عشرة لقوله) تعالى (تلك عشرة كاملة) حيث وصف العشرة بالكمال فيكون مفيدا للعلم . (البقرة الآية ١٩٦) .

وقيل اقله (اثنا عشر عدد نقباء بني اسرائيل، حيث جعلهم موسى على نبينا (ص) امناء وارسلهم ليعرفوا من اخبار الجبابرة ، ولولا ان خبرهم مفيد للعلم لما بعثهم لذلك .

وقيل اقله عشرون قال تعالى (ان يكن منكم (عشرون صابرون) يغلبوا مائتين) (الانفال ٦٥) حيث فرض عليهم الجهاد لما كان خبرهم بمجيئ الرسول ، وايجابه الايمان مفيدا للعلم حتى وجب قتالهم بالمخالفة عنهم .

وقيل اقله اربعون، قال عليه وعلى آله واصحابه الصلاة والسلام "خير السرايا اربعون" وليس الخيرية الا لان خبرهم مفيد للعلم حتى وجب القتال بمخالفتهم .

وقيل اقله خمسون (قياسا على القُسامة فان فيها اخبار خمسين رجلا انهم ما قتلوا وما عرفوا قاتلا ، فتخصيص الخمسين انما هو لكون خبرهم مفيدا للعلم دون الاقل منهم .

وقيل اقله (سبعون لاختيار موسى) على نبينا (ص) سبعين رجلا لميقاته حتى يسمعوا كلام الله تعالى ويخبروا من وراءهم ، فلولا خبرهم مفيد للعلم لاختار اكثر ولو كان خبر الاقل مفيدا لاكتفى بهم (٢) .

١- المستصفى للغزالي ، ص١١٧ ج ٢ .
٢- المصدر نفسه .

وقيل انه ازيد من ثلاثمائة عدد اهل بدر ، عليهم وجه الاستدلال كما مر في (عشرون صابرون) .

وقيل الاقل مالا يحصرهم عدد لكثرتهم اذا لكثرة مانعة من التواطؤ على الكذب (١) .

وبعد ان عرض الغزالي ماقيل في المتواتر من تعاريف وآراء مختلفة قال :

" وهذه المذاهب كلها باطلة لاتستحق ان يلتفت اليها وشبهاتهم واهية لاحاجة الى التصريح بدفعها والمختار عدم تعيين العدد الاقل للقطع بالعلم باخبار الجماعة" (٢) .

ولو كان العدد المعين شرطا لوجب العلم بالعدد المشروط (متقدما عند من يقول بكسبية العلم بها ، ومتأخرا عند من يقول ببداهته ، وفيه انه على تقدير البداهة لا يجب العلم بالشروط وانما يجب التحقق في نفس الامر لاغير .

- وقد اشترط قوم منهم : العدالة والاسلام ، لئلا يرد اخبار النصارى بقتل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام . فقال : فلاتواتر ههنا ثم ايد عدم اشتراط الاسلام والعدالة بقوله : " ولو اخبر اهل القسطنطينية بقتل ملكهم حصل العلم بلا ريب ، فعلم ان العدالة غير مشروطة وكذا الاسلام (٣) .

- واشترط الشيعة في التواتر (المعصوم فيهم) اى في الرواة وهذا بهت ، فانه اذا كان روى المعصوم فروايته وحده تفيد اليقين ولا حاجة الى التواتر . والعاملي منهم لما تفطن ان هذا الشرط مكابرة لوقوع العلم بدونه ، اختار سبيل التكذيب والجحود . وقال هذا النقل تهمة عليهم ، كيف لا ، وانهم لا يقبلون خبر الواحد ، فيجب ان تكون الاخبار المنقولة من الامام الثاني عشر او الحادى عشر ، كلها متواترة عندهم . والعصمة قد انحصرت في اربعة عشر على زعمهم . فلو كان التواتر مشروطا باخبار المعصوم لما كانت هذه الاخبار عندهم حجة (٤) . وهو رأي ترفضه الشيعة ولا تأخذ به .

- واشترط (اليهود اهل الذلة والمسكنة) في التواتر لامكان تواطؤ من عداهم من اهل العزة على الكذب لعدم خوفهم ولك ان تقلب عليهم ان خوفهم يورث احتمال التواطؤ ، مرضاة لاهل العز بخلافهم ، فانهم لا يطلبون مرضاة احد لعدم الخوف .

١- المستصفى للغزالي ، ص ١١٧ ج ٢ .
٢- المرجع نفسه ، = ١١٩ = ج ٢ .
٣- = =
٤- = =

التواتـــر المعنـــوى

ومما يظهر ان علماء الحديث قسموا الخبر المتواتر الى قسمين : أ- متواتـــر لفظـــي ، هو ما تواتر لفظـــه ، وهو صعب وعسير الحصول عليه . ب - ومتواتر معنوى وهو ما تواتـــر القدر المشترك فيه . (١)

والخبر المتواتر اما ان يكون متواترا بلفظه ومعناه ، كما لو اتفق المخبرون على نقـــل الحديث بلفظ واحد ، والمتواتر اللفظي عزيز جدا وهو شبه مفقود . يقول ابن الصلاح : "عزيـــز جدا ، بل يكاد لا يوجد . ومن سئل عن ابراز مثال لذلك اعياه تطلبه " . (٢)

واما ان يكون متواترا من حيث المعنى ، كما لو اختلفت الفاظ المخبرين مع وحدة المعنى ، وحصل العلم بذلك المعنى من الفاظهم المختلفة بواسطة دلالة الخبر على المعنى بالتضمن ، او بالمطابقة ، اذا كانت الالفاظ المختلفة مشتركة في معنى واحد ، وهذا التواتر الذى اطلقوا عليـــه بالتواتر المعنوى ، موجود ومطرد بين المرويات ، اما التواتر اللفظي في جميع مراحله ووسائطـــه فهو قليل ، وربما كان نادرا ، وقد بالغ بعضهم فانكر وجوده من الاساس .

من علماء الحديث من لا يرى بأسا في ان يكون المتواتر المعنوى أحاديا في اولـــه ، ثم يشتهر بعد الطبقة الاولى ويستفيض ، فيعدون حديث "انما الاعمال بالنيات" ما تواتر معنـــى . جاء في التدريب : "لم يروه الاعمر ابن الخطاب ولم يروه عن عمر الا علقمة ، ولم يروه عن علقمـــة الا محمد بن ابراهيم التيمي ، ولم يروه عن التيمي الا يحي بن سعيد الانصارى ، وانما طرأت لـــه الشهرة من عند يحي " (٣)

---

(١) قواعد التحديث ص ١٤٦

(٢) صبحي الصالح علوم الحديث ومصطلحه ص ١٤٨ - تدريب الراوى ص ١٩٠

(٣) تدريب الراوى ص ١٨٩

قال الغزالي : " (كثرة الاحاد المتفقة في معنى ولو التزاما) اى ولو كان المعنى الزاميا (توجب العلم بالقدر المشترك) بين تلك الاحاد ، ولا يحتاج في ذلك الى الدليل لان هذا العلم ضروري يعلم تحققه عند الرجوع الى الوجدان ولو وجد منكر لا يلتفت اليه ويكذب ببداهة العقل (وهو التواتر المعنوى) في الاصطلاح . (١) .

وذلك كوقائع حاتم في عطاياه ووقائع علي امير المؤمنين رضي الله عنه (في حروبه) ووقائع امير المؤمنين عمر رضي الله عنه في عدله وجلادته في الدين . ووقائع ابي ذر رضي الله عنه (في زهده) الى غير ذلك من اخبار الصحابة والتابعين وغيرهم (٢)

ويزيد فيقول عن المتواتر المعنوى المركب من كثرة الاحاد المتفقة في المعنى :
" وهي ان الكلي اذا كان كل واحد من افراده جائز العدم انفرادا او معا كان هذا الكلي ايضا جائز الانتفاء ، والا . جائز العدم " (٣) .

" اما انتفاؤه (انفرادا منا لغرض) لانه فرض ان كلا منها آحاد جائز العدم والكذب لعدم اليقين واما انتفاؤها معا فلأنه لاعلاقة بينهما ، بحيث يلزم من انتفاء واحد منها وجود الاخر) لان هذا انما يجوز في المتنافيين . ولا تنافي ههنا . ثم هذا يجرى في المتواتر لفظا لانه لاعلاقة بين الاخبار ان يوجب انتفاء واحد تحقق الاخر . ولك ان تمنع اختصاص هذه العلاقة بالمتنافيين ألا ترى انه يجوز لزوم شيء ووجوب مع تفارق جميع افراده وامكانها كما بين في العلوم العقلية " (٤) .

على ان هذه التحديدات ، ليست بذات ثمرة الا في حدود تشخيص المصطلح للخبر المتواتر وتحديد مفهومه وكل ما كتب في هذا الشأن فانما هو لتشخيص صغريات ما يقع به العلم عادة ، وهذه الشرائط واشباهها من موجبات ما يحصل بها التشخيص والا فان المدار على العلم فان حصل منها فهو الحجة وان لم يحصل ، احتجنا الى التماس دليل على الحجية .

١ـ المستصفى للغزالي ، ج ٢ ص ١١٩ .
٢ـ انظر تدريب الراوى ، ص ١٩٠ـ ١٩١ .
٣ـ المصدر نفسه للغزالي ج ٢ ص ١٢٠
٤ـ المصدر نفسه

وامثلة المتواتر كثيرة ، وقد عدوا منها كل ما يتصل بضروريات الدين ، كالفرائض اليومية واعدادها واعداد ركعاتها وصوم شهر رمضان ٠٠

وتشبيه التواتر بهذه الامور الثابتة بالضرورة من دين الاسلام هذا التشبيه يشعر بان التواتر في الحديث يكاد ان يكون في حكم المعدوم من حيث ندرته ، وعدم وجوده بين المرويات عن النبي ٠ والغزالي يوافقنا في هذا الرأى ٠
يؤكد

" المتواتر من الحديث قيل لا يوجـــــد " (١)

ثم يروى لنا رأيا لابن الصلاح " من المحدثين لا يوجد (الا ان يدعي في حديث من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار ، فان رواته ازيد من مائة صحابي وفيهم العشرة المبشرة بالجنة رضوان الله عليهم (وقد يقال مراده التواتر لفظا) اى لم يوجد التواتر اللفظي الا في ذلك الحديث " (٢) ٠

بعد هذا العرض للخبر المتواتر نستطيع القول مع الآمـــــدى :

" اتفق القائلون بحصول العلم عن الخبر المتواتر على شروط واختلفوا في شروط ، فاما المتفق عليه فمنها ما يرجع الى المخبر ومنها ما يرجع الى المستمعين " (٣) ٠

فاما ما يرجع الى المخبرين فاربعة شروط :

الاول : ان يكونوا قد انتهوا من الكثرة الى حد يمتنع معه تواطؤهم على الكذب

الثاني : ان يكونوا عالمين بما اخبروا به لا ظانين ٠

ثالثا : ان يكون علمهم مستندا الى الحس لا الى دليل العقل

الرابع : ان يستوى طرفا الخبر ووسطه في هذه الشروط لان خبر كل عصر مستقل بنفسه ، فكانت هذه الشروط معتبرة فيه ٠ (٤)

---

(١) المستصفى للغزالي ، ج ٢ ص ١٢٠

(٢) المصـــدر نفســـه "

(٣) الاحكام في اصول الاحكام للآمـــدى ج ٢ ص ٢٤

(٤) انظر علم الدراية للشهيد الثاني ص ١٤

واما ما يرجع الى المستمعين ، فان يكون المستمع متأهلا لقبول العلم بما اخبر بـه ، غير عالم به ، قبل ذلك . والا كان فيه تحصيل الحاصل . غير ان من زعم ان حصول العلم بخبر التواتر نظرى ، شرط تقدم العلم بهذه الامور ، على حصول العلم بخبر التواتر ، ومن زعم انه ضرورى لم يشترط سبق العلم بهذه الامور . (١)

ثم اختلف هؤلاء في اقل عدد يحصل معه العلم فقال بعضهم خمسة ، وقال الآخرون اعدادا مختلفة لا مجال لذكرها كلها .

وبالجملة ، فضابط التواتر ما حصل العلم عنده من اقوال المخبرين .

وعلى قولنا بان ضابط التواتر حصول العلم عنده ، يمتنع الاستدلال بالتواتر على من لم يحصل له العلم منه ، وانما المرجع فيه الى الوجدان ، هذا ما يرجع الى الشروط المعتبرة المتفق عليها .

واما الشروط المختلف فيها فستة :

الاول : ذهب قوم الى ان شرط عدد التواتر ان لا يحويهم بلد ، ولا يحصرهم عدد ، ومذهب الباقين خلافه ، وهو الحق لانه قد يحصل العلم بخبر اى بلد من البلدان .

الثاني : ذهب قوم الى اشتراط اختلاف انساب المخبرين واوطانهم واديانهم وهو فاسد ، لان لو قدرنا اهل بلد اتفقت اديانهم وانسابهم واخبروا بقضية شاهدوها لم يمتنع حصول العلم بخبرهم .

الثالث : ذهب بعضهم الى شرط المخبرين ان يكونوا مسلمين عدولا لان الكفر عرضة للكذب والتحريف والاسلام والعدالة ضابط الصدق والتحقيق في القول ، وهذا مذهب مخالف لبعض شروطهم في التواتر ولم يتفق عليه الجميع . (١)

الرابع : ذهب قوم الى ان شرط ان لا يكونوا محمولين على اخبارهم بالسيف ، وهو باطل ، فانهم ان حملوا على الصدق لم يمتنع حصول العلم بقولهم ، كما لو لم يحملوا عليه . (٢)

---

(١) قارن هذا بما ورد في قواعد التحديث ص ١٤٧

(٢) الاحكام في اصول الاحكام للآمدى ج ٢ ص ٢٤

الخامس: شرط الشيعة وجود المعصوم في خبر التواتر حتى لا يتفقوا على الكذب وهو باطـــل ايضا ، لانه لو اتفق اهل بلد من بلاد الكفار على الاخبار عن قتل ملكهم او اخـــذ مدينة فان العلم يحصل بخبرهم ٠

(وهذا بالنسبة الى الشيعة خطأ) (١)

السادس: شرطت اليهود في خبر التواتر ان يكون مشتملا على اخبار اهل الذل والمسكنة وهو شرط فاسد لانه لو صح ذلك لثبت غرضهم من ابطال العلم بخبر التواتر بمعجزات عيسى ونبينا عليهما السلام حيث انهما لم يدخلا في الاخبـار بهما وهما اهل الذل والمسكنة ٠ وهل يجوز ان لا نأخذ ولا يحصل العلم باخبار الشرفاء العظماء بامـر ... بالمجسن وكانوا خلقا كثيرا !

وبالجملة ، لا يمتنع ان يكون شيء من هذه الشروط اذا تحقق كان حصول العلـم بخبر التواتر معه اسرع من غيره ٠ اما ان يكون ذلك شرطا ينتفي العلم بخبر التواتـــر عنـــد انتفائه فـــلا ٠ (٢)

اخبـــــار الآحـــــاد

تعريف خبر الواحـــد :

" قال بعض اصحابنا : خبر الواحد افاد الظن ، وهو غير مطرد ، ولا منعكس "

وبعد شرح المطرد والمنعكس قال :

" والاقرب في ذلك ان يقال : خبر الآحاد ما كان من الاخبار غير منته الى حد التواتر ٠ وهو منقسم الى ما لا يفيد الظن اصلا ، وهو ما تقابلت فيه الاحتمالات علـى السواء ، والـى ما يفيد الظن وهو ترجح احد الاحتمالين الممكنين على الاخر في النفس من غير قطع " (٣)

اختلفوا في الواحد العدل ، اذا اخبر بخبر هل يفيد خبره العلم ؟

" الاكثر من اهل الاصول (على ان خبر الواحد ان لم يكن) هذا الواحد المخبر (معصوما)

---

(١) انظر الشهيد الثاني في علم الدرايـــة

(٢) الاحكام في اصول الاحكام للآمدى ، ج ٢ ص ٢٤ ـ ٢٩

(٣) المصدر نفســـــه ج ٢ ص ٣١

نبيا (لا يفيد العلم مطلقا) سواء احتف بالقرائن او لا " . وهو قول فيه مغالاة اذ لا نرى من الضرورة أن يكون المعصوم نبيا وان كان النبي معصوما .

وقيل يفيد خبر الواحد العدل الخبر معصوم المحفوف (بالقرينة) زائدة كانت ولازمة يفيد العلم مطلقا محفوفا بالقرائن اولا ، فعن الامام احمد هذا الحكم (مطرد) فيكون كلما أَخبرَ العدلُ حَصَلَ العِلْمُ وهذا بعيد عن مثله فانه مكابرة ظاهرة (١)

كما يزيد ايضا : " لا يفيد الخبر المحفوف بالقرائن والا فنقول (ان دلت القرينة على تحقق مضمون الخبر (قطعا كالعلم بخجل الخجل ووجل الوجل) الحاصلين من مشاهـــدة الحمرة والصفرة (فالعلم بها) اى بالقرينة دون الخبر (وان) دلت عليه القرينة (ظنا) والخبر على تحقق مضمون نفسه ايضا يدل ظنا . فمن (الظنين) الحاصل احدهما بالقرينة والاخـــر بالخبر (لا يلزم العلم) ضرورة . ثم لك ان تقول على اصل الاستدلال انه لعل القرينة انما تفيد صدق المخبر واستحالة كذبه في هذه الحال ، لا انها تدل على تحقق مضمون الخبر حتى تكون هي بنفسها كافيه من غير حاجة الى الخبر ، فاذا دلت القرينة على صدق المخبر وقد اخبر هـــو نفسه حصل العلم بسماع هذا الخبر قطعا (٢) .

وقد يقال ان عدم افادة الظنين للقطع انما هو على تقدير ان تكون الافادة على طريق الكسب ، اما اذا كانت على وجه الضرورة فلا ، بل يجوز ان يحصل باحدهما ظن ثم يتقوى هـــذا الظن بظن آخر حتى يعد الذهن لقبول اليقين ، كما يكون في المتواتر بعينه " . (٣)

اما ابن حزم فيشرح لنا في فصل (هل يوجب خبر الواحد العدل العلم مع العمل) .
"قال ابو محمد : اما احتجاج من احتج بان صفة كل خبر واحد هي انه يجوز عليـــه الكذب والوهم فهو كما قالوا ، الا ان يأتي برهان حسي ضروري او برهان ، فنقول نقلا يوجـــب العلم من نص ضروري على ان الله تعالى قد برأ بعض الاخبار من ذلك . فيخرج بدليله عن ان يجوز فيه الكذب والوهم . وقد وافقنا المعتزلة ـ وكل من يخالفنا في هذا المكان ـ على ان خبر النبي (ص) في الشريعة لا يجوز فيه الكذب ولا الوهم لقيام الدليل على ذلك " (٤) . وقـــد اورد لنا امثلة من القرآن الكريـــم .

---

(١) المستصفى للغزالي ، ج ٢ ص ١٢١ وقارن بقواعد التحديث ص ١٤٧

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه

(٤) الاحكام في اصول الاحكام ج ٢ ص ١٠٧ لابن حزم ، راجع قواعد التحديث ص ١٤٨

قال علي : " وهذا حين نأخذ ان شاء الله تعالى في ايراد البراهين ، على ان خبر الواحد العدل المتصل الى رسول الله (ص) في احكام الشريعة ، يوجب العلم ، ولا يجوز فيه البتة الكذب ولا الوهم . فنقول وبالله تعالى التوفيق : قال الله تعالى عن نبيه (ص) : " وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى " (١) وقال الله آمرا نبيه (ص) ان يقول : " ان اتبع الا ما يوحى الي " (٢) وقال تعالى : " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (٣) . وقال تعالى : " لتبين للناس ما نزل اليهم " . (٤) ولا خلاف بين احد من اهل اللغة والشريعة في ان كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل " .

فبالضرورة ندرى انه لا سبيل البتة الى ضياع شيء قاله رسول الله (ص) في الدين ولا سبيل البتة الى ان يختلط به باطل موضوع اختلاطا لا يتميز عن احد من الناس بيقين . (٥)

وبعضهم قال : انه ينسب الى الرسول (ص) كذب عليه وتعليل هذا : ان سبب الكذب على رسول الله (ص) نسيان الراوى . فيحفظ مكان حديث حديثا آخر ، وذلك قد يكون لغلبة الصلاح والزهد والاشتغال بالعبادة بحيث لم يتفرغ لضبط الحديث كما حكى عن ثابت بن موسى الزاهد .

" دخل على شريك القاضي والمستملي بين يديه وشريك يقول : حدثنا الاعمش عن سفيان عن جابر قال : قال رسول الله (ص) ولم يذكر متن الحديث ونظر الى ثابت بن موسى فقال : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار . فظن ثابت انه روى الحديث بالاسناد المذكور فكان ثابت يرويه عن شريك " . (٦)

اذا اخبر واحد بين يدى رسول الله (ص) بخبر ، ولم ينكر عليه ، هل يعلم كونه صادقا فيه ؟

منهم من قال بان هذا دليل العلم بصدقه فيما اخبر به ، فانه لو كان كاذبا لانكر النبي (ص) عليه . والا كان مقرا له على الكذب مع كونه محرما ، وذلك محال في حق النبي وهو غير صحيح فانه من الجائز ان يكون النبي (ص) . غير سامع له بل هو ذاهل عنه ، وان غلب على الظن السماع عدم الغفلة . (٧)

---

(١) النجم الاية ٣
(٢) يونس الاية ١٥
(٣) الحجر الاية ٩
(٤) النحل الاية ٤٤
(٥) الاحكام في اصول الاحكام ج ٢ ص ١٠٩
(٦) المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١٢٤
(٧) الاحكام في اصول الاحكام ج ٢ ص ٣٩

ومن الجائز ان لا يكون فاهما لما يقول . أو ان يكون فاهما له ، ولكن قد يتعلق ذلك الخبر اما بالدين واما بالدنيا . فان كان متعلقا بالدين ، وقدر كونه كاذبا فيه ، فيحتمل ان يكون قد بينه له ، وعلم ان انكاره عليه ثانيا غير منجع فيه ، فلم ير في الانكار عليه فائدة ، ورأى المصلحة في اهماله الى وقت آخر (١) .

وان كان اخباره بامر دنيوى فيحتمل ان النبي (ص) لم يعلم بكونه كاذبا فيما اخبر به وان ظن علمه به ، وبتقدير ان يكون عالما بكذبه ، فيحتمل انه امتنع من الانكار لمانع او لعلمه بانه لا فائدة في انكاره ، وبتقدير عدم ذلك كله ، فيحتمل ان يكون ذلك من الصغائر ، والصغائر غير ممتنعة على الانبياء ، كما علم ، وعلى هذا ، فعدم الانكار لا يدل على صدقه قطعا وان دل عليه ظنا " (٢)

اذا اخبر واحد بخبر محس بين يدى جماعة عظيمة وسكتوا عن تكذيبه .

قال قوم : علم من ذلك صدقه لانه يمتنع عادة ان لا يطلع واحد منهم على كذبه ، وبتقدير الاطلاع ، يمتنع عادة سكوت الجمع العظيم عن التكذيب ، مع اختلاف امزجتهم وطباعهم واختلاف دواعيهم ، فحيث سكتوا عن التكذيب دل على صدقه ، (وليس بحق ، لانه من الجائز ان يكون لهم اطلاع على ما اخبر به ، ولا يعلمون كونه صادقا ولا كاذبا ولا واحد منهم ولا العادة مما تحيل بعض الناس على امر لم يطلع عليه غيره . وبتقدير ان يعلم واحد منهم او اثنان كذبه ، فيحتمل ان مانعا منعهم عن تكذيبه ، ومع هذه الاحتمالات يمتنع القطع بتصديقه وان كان صدقه مظنونا) (٣) .

هذا ما رآه الآمدى .

كما وافق الغزالي قبل الآمدى بصحة هذا الرأى ، فقال :

" لان سكوت جماعة عن استكشاف ما يحمل الكذب عندهم بعيد غاية البعد ، ولا (حامل لهم على السكوت) من موانع الانكار بل يظهر بقرائن الحال ان سكوتهم لصدق الخبر عندهم (فيفيد القطع) بصدق الخبر (بالعادة) فان العادة تحيل كذب هذا الخبر وهذا ظاهر جدا (وهذا تواتر سكوتي) (٤) .

---

(١) الاحكام في اصول الاحكام للآمدى ج ٢ ص ٣٩
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠
(٤) المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١٥٢

ثم يعطي مثلا عن امير المؤمنين عمر حين بايع امير المؤمنين الصديق بحضرة جم غفير قد شاركوه في سبب العلم وكان اجتماعهم لتعيين الخليفة .

اذا روى واحد خبرا ، ورأينا الامة مجمعة على العمل بمقتضاه

قال جماعة من المعتزلة "ان ذلك يدل على صدقه قطعا والا كان عملهم بمقتضاه خطأ ، والامة لا تجتمع على الخطأ ، وهو باطل . وذلك من المحتمل انهم لم يعملوا به ، بل بغيره من الادلة او بعضهم به ، وبعضهم بغيره ، وبتقدير عمل الكل به ، فلا يدل ذلك على صدقه قطعا لانه اذا كان مظنون الصدق ، فالامة مكلفة بالعمل بموجبه ، وعملهم بموجبه مع تكليفهم بذلك لا يكون خطأ ، لان خطأهم انما يكون بتركهم لما كلفوا به ، او العمل بما نهوا عنه . ومع هذه الاحتمالات ، فصدقه لا يكون مقطوعا وان كان مظنونا . وعلى هذا ، لو روى واحد خبرا ، واتفق اهل الاجماع فيه على قولين فطائفة عملت بمقتضاه وطائفة اشتغلت بتأويله ، فلا يدل ذلك على صدقه قطعا ، وذلك لان الطائفة التي عملت بمقتضاه لعلها لم تعمل به ، بل بغيره كما سبق . وبتقدير ان تكون عاملة به فاتفاقهم على قبوله لا يوجب كونه صادقا قطعا لما ذكرناه من تكليفهم باتباع الظني (١) .

اما الغزالي فله رأى ايضا مشابه لما ورد عند الآمدى . قال :

"وان لم يدل على الصدق قطعا احتمل الاجماع الخطأ واعلم ان الخبر الموافق للاجماع على نحويين : احدهما ان يكون ذلك الخبر سندا للاجماع والاخر ان لايكون سندا وحينئذ لو احتمل الخطأ لاحتمل بطلان دليل حكم الاجماع فيكون الاجماع على خطأ ويجوز لو احتمل الخطأ لاحتمل بطلان دليل حكم الاجماع فيكون الاجماع على خطأ ، ويجوز ان لا يكون الحديث مسموعا من الرسول (ص) ويكون حكمه مطابقا .

ثم يتابع قائلا :

واعلم انه ان كان منعهم في الخبر الذى هو سند الاجماع فليس بشئ اذ الاجماع على حكم بالاستدلال يوجب الاجماع على ان الخبر صالح للاحتجاج ، فيجب كونه حجة مطابقا لنفس الامر قطعا ، واستدلال اهل الاجماع سبيل لهم وسبيلهم لايكون كذبا وضلالة في نفس الامر ،

---

(١) الاحكام في اصول الاحكام للآمدى ج ٢ ص ٤٠

فالحكم وخبرته الخبر كلاهما اجماعان متطوقان على ان ظن السماع لا بد منه والا لم يكن حجة فاذا ظن الكل السماع صار السماع مجمعا عليه وهو قطعي (١) ° وذهب السواد الاعظم الى ان طريق كونه حجة السمع دون العقل (٢) واما ادلة حجيته من القرآن الكريم فهي الآية (٣) ٠

اذا انفرد واحد عن باقي الخلق برواية خبر وقع بمشهد من الخلق

اختلفوا فيما لو وجد شيء بمشهد من الخلق الكثير لتوفرت الدواعي على نقله اذا انفرد الواحد بروايته عن باقي الخلق ، كما اذا اخبر بان الخليفة ببغداد قتل في وسط الجامع يوم الجمعة بمشهد من الخلق ولم يخبر بذلك احد سواه ،

فذهب الكل الى ان ذلك يدل على كذبه ، لان الله تعالى قد ركز في طباع الخلق من توفير الدواعي على نقل ما علموه والتحدث بما عرفوه حتى ان العادة لتحيل كتمان ما لا يؤبه له مما جرى من صغار الامور على الجمع القليل ، فكيف على الجمع الكثير فيما هو من عظائم الامور ومهماتها ، والنفوس مشرئبة الى معرفته ، وفي نقله صلاح للخلق بل السكوت عن ذلك واشاعته في احالة العادة له ، اشد من احالة العادة لسكوتهم وتواطئهم على عدم نقل وجود مكة وبغداد ٠ (انظر الخبر الذى انفرد به الزبير بن بكار عن سكينة بنت الامام الحسين (ع) في باب (الوضع في الحديث)

ثم يتابع قوله :

فلو جاز كتمان ذلك لجاز ان يوجد مثل مصر وبغداد ولم يخبر احد عنهما ، وذلك محال عادة ٠ وبمثل هذا عرفنا ، كذب من ادعى معارضة القرآن والتنصيص على امام بعينه ، من حيث انه لو وجد ذلك لشاع وتوفرت الدواعي على نقله ٠

فان قيل : العادة انما تحيل اتفاق الجمع الكثير على كتمان ما جرى بمشهد منهم من الامور العظيمة ، اذا لم يتحقق الداعي الى الكتمان معارضا لداعي الاظهار وذلك لاسباب :

- اما الغرض واحد يعم الكل نظرا الى مصلحة تتعلق بالكل في امر الولاية واصلاح المعيشة - او خوف ورهبة من عدو غالب وملك قاهر ، او لاغراض متعددة كل غرض لواحد ، ويدل على ذلك الوقوع وهو ان النصارى مع كثرتهم كثرة تخرج عن الحصر ، لم ينقلوا كلام المسيح في المهد ، مع انه من اعجب حادث حدث في الارض ، ومن اعظم ما تتوفر الدواعي على نقله واشاعته ونقلوا ما دون ذلك من معجزات ٠ وايضا فان آحاد المسلمين قد انفردوا بنقل ما تتوفر الدواعي على نقله مع شيوعه فيما بين الصحابة والجمع الكثير ، كنقل ما عدا القرآن من معجزاته كانشقاق القمر ونبع الماء من بين اصابعه ٠٠٠

---

(١) المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١٢٦ - (٢) العدة للشيخ الطوسي ص ٢٣٢

(٣) "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا" النساء الاية ١١٥

قلنا : ان العادة تحيل اتفاق الجمع الكثير على كتمان ما يجرى بينهم من الوقائع العظيمة . وان العادة تحيل اشتراك الخلق الكثير من الداعي الى الكتمان كما يستحيل اشتراكهم في الداعي الى الكذب .

ويبدأ الآمدى في التفصيل والتعليل قائلا :

اما كلام عيسى في المهد ، فانما تولى نقله الاحاد لانه لم يتكلم الا بحضرة نفر يسير حيث لم يكن امره قد ظهر ، ولا شأنه قد اشتهر ، ولا عرف برسالة ولا نبوة وذلك بخلاف احياء الميت وابراء الاكمه والابرص فانه كان وقت اشتهاره ودعواه الرسالة مستدلا بذلك على صدقه وتطلع الناس اليه وامتداد الاعين الى ما يدعيه . فلذلك لم يقع اتفاقهم على كتمانه .

واما نقل معجزات الرسول غير القرآن فانما تولاه الاحاد لانه لم يوجد شيء من ذلك بمشهد من الخلق العظيم ، بل انما ما جرى منها بحضور طائفة يسيرة ولا سيما انشقاق القمر فانه كان من الايات الليلية وقعت والناس بين نائم وغافل في لمح البصر ولم يكن النبي (ص) قد دعاهم الى رؤيته ولا نبههم على ذلك سوى من رآه من النفر اليسير .(١)

وبعد البراهين والتعليلات يعطي الخلاصة :

ولهذا فانه كم من امر مهول يقع في الليل من زلزلة او صاعقة او ريح عاصف او انقضاض شهاب عظيم ولا يشعر به الا الاحاد ، وهذا بخلاف القرآن فانه كان يردده ، بين الخلق في جميع عمره ، فلم يبق احد من الجمع العظيم في زمانه الا وقد علمه وشاهده فلذلك استحال تواطؤهم على عدم نقلـــه (٢) .

انكـــار اخبـــار الاحـــاد

انكر بعضهم حجية خبر الاحاد معتمدا على الاسس التاليـــة :

اولا — قال الله تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم) (٣) وقال ايضا (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) (٤) وطريق الاحاد طريق ظني لاحتمال الخطأ والنسيان علـــى الراوى وما كان كذلك فليس بقطعي فلا يفيد بالاستدلال .

---

(١) الاحكام في اصول الاحكام للآمدى ج ٢ ص ٤١ — ٤٣ (٢) المصدر نفسه
(٣) الاسراء : ٣٦ —
(٤) النجم : ٢٨

ثانيا ـ وقال آخرون ممن انكروا ايضا حجية خبر الاحاد :

لو جاز العمل بخبر الواحد في الفروع لجاز في الاصول والعقائد والاجماع بيننا وبينكم ان اخبار الاحاد لا تقبل في هذه ، فكذا في الاولى .(١)

وجوابنا على الشبهة الاولى نوجزه فيما يلـــــي :

ان ما ورد في الآيتين المذكورتين هو ان ذلك في اصول الدين وقواعده العامـــة كما ذكرنا ، اما في فروع الدين وجزئياته فالعمل بالظن واجب ، ولا سبيل اليها الا بالظن غالبا ، الا ترى ان الافهام تختلف في نصوص القرآن والمجتهدون يذهبون فيها مذاهب متعددة وليس احد منهم يقطع بصحة اجتهاده ، مع ذلك فالاجماع قائم على وجوب العمل بما ادى اليه اجتهاده ، وليس لذلك سبيل الا الظن وايضا فان حجية خبر الاحاد ليست ظنيـة بل هي مقطوع بها لانعقاد الاجماع على ذلك بين العلماء منذ عصر الصحابة فمن بعدهـم لا يضر دعوى الاجماع مخالفة هؤلاء فانه خلاف لا يعتد به ـ فلا يكون العمل بها دليـــلا ظنيا بل بدليل مقطوع به مفيد للعلم وهو الاجماع (٢) .

وقد جاء في الكتاب العزيز قوله : (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) امرنا بالتثبت مشروطا بالفسق ، فما لم يظهر الفسق لا يجب التثبت فيه (٣)

وما نحن فيه فالظاهر من حاله الصدق . ولما جاء الاعرابي وقال : اشهد ان لا اله الا الله " وشهد برؤية الهلال عنده ، قبل شهادته ، وامر بالنداء بالصوم لما ثبت عنده اسلامه ولم يعلم منه ما يوجب فسقه .

واما الاجماع فهو ان الصحابة كانوا متفقين على قبول اخبار العبيد والنسوان والاعراب المجاهيل لما ظهر اسلامهم وسلامتهم من الفسق ظاهرا . (٤)

واما الجواب عن الشبهة الثانيـــة :

فهو ان الاجماع منعقد على ان اصول الدين والعقائد لا يجوز اخذها من طريق ظني قطعا ، وليس الامر كذلك في الفروع .

---

(١) الاحكام للامدي ج ٢ ص٧٢ والاحكام لابن حزم ج ١ ص ٢١٤ ـ (٢) المصدر نفسه

(٣) الحجرات الاية ٦

(٤) المصدر نفســـه

قال الآمــــدى : "ان هذه الشبهة منتقضة بخبر الواحد في الفتوى والشهادة كيف والفرق حاصل بين الاصول والفروع ، وذلك ان المشترط في اثبات الرسالة والاصول الدليل القطعي فلم يكن الدليل الظني معتبرا فيهما بخلاف الفروع (١)

والحق ان قياس الفروع على الاصول في وجوب القطع تحكم ومحال ، اذ لا سبيل الى ذلك في الفروع ، بينما الامر على العكس في الاصول ٠

اما من ينقل الينا خبر الاحاد فقد وصفه لنا ابن حزم قوله : من اتفق على عدالتـه كالصحابة وثقات التابعين ، واما من اختلف فيه فعدله قوم جرحه آخرون فان ثبتت عندنا عدالتـــه قطعنا على صحة خبره ، وان ثبتت عندنا جرحته قطعنا على بطلان خبره ٠ وان غيرنا لا بد ان يثبت عنده احد الامرين فيه ، وليس خطأنا نحن ان اخطأنا ٠ وجهلنا ان جهلنا حجة على وجوب ضياع دين الله تعالى ، بل الحق ثابت معروف عن طائفة وان جهلته اخرى ، ولا يصح الخطأ في خبر الثقة الا باحد ثلاثة اوجه : اما تثبت الراوى واعترافه بانـه اخطأ فيه ، واما شهادة عدل على انه سمع الخبر مع رواية نوهم فيه فلان ، واما بان توجب المشاهدة بانه اخطأ ٠ (٢)

---

(١) الاحكام للآمدى ج ١ ص ٦٨

(٢) الاحكام لابن حزم ص ١٢٢ _ ١٢٣ ج ١

الباب الرابع

خاتمـــة :

لما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان اهتز العالم الاسلامي هزة عنيفة فانشئت الاحزاب ودب مرض الوضع في الحديث الشريف ، ثم اتسعت دائرة الوضع في عهد التابعين ، ولكنها بقيت محدودة لضيق اسباب الوضع آنذاك . الى ان طغى سيل الوضع وازداد عمقا وبعداً ، فبلغ ذروته في عصر الامويين وكان لها اسباب عديدة ذكرنا اهمها في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ولا شك ان عملية الوضع هذه قد اساءت الى الدين اساءة خطيرة ، وشوّهت وجه الاسلام الصحيح بما ادخلت فيه ما ليس منه . وقد نسي المغرضون واعداء الاسلام ان كل شيء ممكن التغيير الا الحق فانه ثابت لا يتزعزع . فان كان للزمن صيف وشتاء وللبحر مد وجزر ، فالحق يبقى كما هو لا يتغير ولا يتحور مهما شوّه وجهه . ولكن عناية الله اقوى من كل شيء قال تعالى : " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (١) .

رزقت الامة الاسلامية عالمين امناء مخلصين قاوموا الوضاعين وبذلوا جهودا جبارة بما اجتددوا من قواعد واصول علمية دقيقة طبقوها في رواية الحديث ودرايته . فبفضل هذه الجهود المشكورة - فالحديث رسول الله ، وبفضل ذلك المنهج الخاص الذي اتبعوه تميز الصحيح من الباطل ، وشلت يد الوضع الصاغرة .

ومهما تقلب الحديث في عهد الامويين والعباسيين ، واستغله الامراء والحكام ، لخدمة اغراضهم وتمكين عروشهم ، ومهما ابتدع معاوية من طرق واساليب مع محدثيه المتكسبين ، يبقى الحديث ويبقى مشرقا واضحا اذا ما طبقناه على القواعد في الجرح والتعديل التي مرّت معنا في الفصل الثالث من هذا الباب .

وعلى الاصول التي الفها علماء الحديث في علم الدراية وعلم الرواية ، نقد متن الحديث الذي نفصل القول فيه في الباب الخامس .

١ـ الحجر . الآية ٩

" قال الله في كتابه الكريم :

" ... فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا"
فاطر الاية ٤٣

" ولقد سبقت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِين . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورون .
وإِنَّ جُنْدَنَا لهم الغَالِبُون" الصافات الاية ١٧١ـ١٧٢

" كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن
المنكر وتؤمنون بالله " آل عمران الاية ١١٠

" أَتَخْشَوْنَهُم فالله أَحَقُّ أن تَخْشَوْهُ إن كنتم مؤمنين" التوبة الاية ١٣

" يَسْتَخْفُونَ من النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُون من الله وهو معهم" النساء الاية ١٠٨

وقال صلى الله عليه وسلم :

" لا تزال امتي في خير مالم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما"
محمد المثل الكامل ص ٤٧

" ثلاث منجيات وثلاث مهلكات . فاما المنجيات فخشية الله تعالى في
السر والعلانية . والاقتصاد في الغنى والفقر والحكم بالعدل في الرضى
والغضب" الكافي ج ٢ ص ٢٠٦ والمجازات النبوية ص ١٩٦

" الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما امور متشابهات ، فمن اتقى
الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام
كالراعي يرعى حول الحمى ، ويوشك ان يقع فيه . الا وان لكل ملك حمى ،
الا وان حمى الله محارمه ، الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح
الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهي القلب ".

رواه الشيخان

" من اسخط الله في رضى الناس سخط الله عليه ، واسخط عليه من ارضاه
في سخطه . ومن ارضى الله في سخط الناس ، رضي الله عنه ، وارضى من
اسخطه في رضاه ، حتى يزينه ، ويزين قوله ، وعمله " رواه الطبراني "

" اذا اضيعت الامانة فانتظروا الساعة ، قيل وما اضاعتها يا رسول الله ؟
قال : " اذا وسّد الامر الى غير اهله " المجازات النبوية ص ٤٠٦

الباب الخامس : أصول نقد متن الحديث

تمهيـد :

يتضمن هذا الباب فصلين مهميـن .

الفصل الاول : قواعد في نقد متن الحديث او ما سموه بعلم رواية الحديـث .

جمعت في هذا الفصل اهم القواعد التي وضعها علماء الحديث من امات المصادر والمراجع الهامة . ومما اجمعوا عليه ان الحديث النبوي لايكون ركيك اللفظ ولايخالف الحكم العامة في الاخلاق والحس والعقول ، ولايخالف كتاب الله والعقيدة وضرورات التشريع ، ولايكون مخالفا لحقائق التاريـخ او حقائق الطب ... الى ما هنالك من قواعد فصلناها بين دفتي هـذا الفصـل .

الفصل الثاني : المعالجة النقدية

ان مصادر البحث لها اهمية كبرى بالنسبة للمؤلف . وهي تختلف صعوبة ودقة حسب نوع مادة البحث . ولاشك ان علماء الحديث اعتمدوا في مادة بحثهم على الدقة والامانة في ذكر المصدر المأخوذ عنه وقدموا الامثلة اللازمة .

ثم تعرضت للنقل ومايرافقه من مشاكل وصعوبات خطيرة، تعتمد في الدرجة الاولى على الضمير والامانة التاريخية . وقد اعطيت من آداب النقل وضبطـه وتقييده للعلموي من كتابه (المفيد والمستفيد من ادب المعلم والمتعلم) .

كل هذا قادنا الى البحث في اصول النقد . فقسمت العمل الى ثلاث مراحل .

المرحلة الاولى : وهي جمع اصول البحث أو ما دعي بالتقميش .
المرحلة الثانية : العلوم الموصلة وسمّيت الموصلة لانها تصل الباحث الى الهدف الذي يريد .
المرحلة الثالثة : نقد العلوم الموصلة وتمحيصها .

هذا ما توصل اليه علماء الحديث في القرون الاولى للهجرة ، من قواعد اعتمدهـا علماء التاريخ سابقا والمعول عليها الان لدى المؤرخين المعاصرين .

- الباب الخامس - أصول نقد متن الحديث -

- الفصل الاول - قواعد في نقد المتن -

بعد الاطلاع على اكثر القواعد التي جمعها علماء الحديث ، وبعد تنسيقها طوائف متشابهة، وجدت ان القرائن التي تدل على الوضع في المتن هي التالية :

قواعد في نقد متن الحديث :

١ - الا يكون ركيك اللفظ بحيث يقوله بليغ او فصيح ، مع مراعاة الزمان والمكان وثقافة السامع .

٢ - الا يخالف القواعد العامة في العقول والحس .

٣ - الا يخالف القواعد العامة في الحكم والاخلاق .

٤ - الا يخالف البديهي في الطب والحكمة .

٥ - الا يكون مخالفا لاصول العقيدة وضرورات التشريع .

٦ - الا يخالف سنّة الله في الكون والانسان .

٧ - الا يخالف القرآن الكريم او محكم السنّة الشريفة او المعلوم من الدين بالضرورة او المجمع عليه .

٨ - الا يشتمل على سخافات يصان عنها العقلاء .

٩ - الا يكون مخالفا للحقائق التاريخية المعروفة في عصر النبي .

١٠ - الا يوافق مذهب الراوي الداعي الى مذهبه او يكون بدافع نفسي .

١١ - الا يكون ناشئا عن باعث نفسي ، حمل الراوي على روايته .

١٢ - الا يخبر عن امر وقع بمشهد عظيم ثم ينفرد راو واحد بروايته .

١٣ - الا يشتمل على افراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير، والمبالغة بالوعيد الشديد على الامر الحقير .

١٤ - الا يكون ساقطا عنه بعض الكلمات اينما كانت .

كان العرب يعيشون قبائل تختلف فيما بينها - كثرة وقلة - في اللغة وفي اللهجة ، فقد تستعمل قبيلة عبارات لا تستعملها القبيلة الاخرى ، او تستعمل غيرها ، خصوصا وان بعض البيئات الطبيعية والاجتماعية لقبيلة ، قد تخالف ما للقبيلة الاخرى .

./.

ثم ان الطاقات البشرية في عصر صدر الاسلام ، تختلف قوة وضعفا وموهبة ككل عصر فيما بينها ، فما يستوعبه الجاهل غير ما يستوعبه العالم ، كما ان لغة العامل تختلف عن لغة المثقف .

ولما جاء الرسول الكريم (ص) بالدين الجديد ، يبشر وينذر ويهدي العالمين ، قال تعالى : " اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا " (المائدة الآية ٣) (وانظر السيرة ج ٢ حجة الوداع ص ٦١٠ وما بعدها) . وبعد ذلك اخذت تأتيه القبائل والوفود من كل حدب وصوب ، مستوضحة عن دينها ، ومستفسرة عن تعاليم ذلك الدين بما يعود عليها بالخير العميم ، في الدنيا والآخرة . ولاشك انها لم تكن على مستوى واحد من حيث الثقافة والمعرفة فكان يعمد الرسول (ص) إلى مخاطبتهم على قدر عقولهم .

يذكرنا بذلك الشيخ عبد الصمد الحارثي العاملي . قال :

" واذا روى الحديث ، قدم ارجحهم وينبه على صحة الحديث وما فيه من علو او فائدة ،
" ويتجنب ان يحدث بما لا يحتمله عقول السامعين او ما لا يفهمونه " .

ثم يتابع قوله :

" فقد روينا باسانيدنا عن محمد بن يعقوب عن جماعة من اصحابه عن احمد بن محمد بن
" عيسى عن الحسن بن علي بن فضال عن بعض اصحابنا عن ابي عبد الله صلى الله عليه
" وسلم ، قال : إِنَّا مَعَاشِرُ الانبياءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ على قَدْرِ
" عُقُولِهِم " (١) .

ومن القرائن التي تدل على الوضع في المتن :

١- ركاكة اللفظ في المروي بحيث يدرك من له الالمام باللغة ، ان هذا ليس من فصاحة النبي (ص) فقد وضعت الفاظ ركيكة تشهد الفاظها ومعانيها لوضعها . قال الحافظ ابن حجر : " المدار في الركة على ركة المعنى ، فحيثما وجدت دلت على الوضع ، وان لم ينضم اليها ركة اللفظ ، لان الدين

١- الوجيزة في علم الدراية الشيخ عبد الصمد الحارثي العاملي ص ١١٠ .

كله محاسن ، والركة ترجع الى الرداءة ، اما ركاكة اللفظ فقط فلا تدل على ذلك ، لاحتمال ان يكون رواه بالمعنى ، فغيَّر الفاظه بغير فصيح ، نعم ان صرّح بانه من لفظ النبي (ص) فكاذب (١) . والركة ان في اللفظ او المعنى يستحيل صدورها عن افصح من نطق بالضاد (ص) وهذه القاعدة يسهل ادراكها على المتمرسين بهذا الفن . قال الربيع بن خيثم : " ان للحديث ضوءا كضوء النهار ، تعرفه ، وظلمة كظلمة الليل ، تنكره " (٢) .

٢ — الا يكون مخالفا للحس والمشاهدة :

كحديث " لا يبقى على ظهر الارض بعد مائة سنة نفس منفوسة " (٣) .

هذا الحديث اخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من ائمة الحديث ، وفهم منه ان مراد الرسول (ص) الاخبار بانتهاء الدنيا بعد مائة سنة ، ومن هنا حكم عليه بالوضع لمخالفته للحوادث التاريخية والحس والمشاهدة . وغايتهم انه لو صحّ هذا الحديث وقد مضى مئات السنين ، لبان صدقه ، ولكن مرور الزمن فضحه واثبت وضعه .

وقد ورد نفس الحديث في فجر الاسلام عند احمد امين فقال : " حتى نرى البخاري نَفْسَه " على جليل قدره ، ودقيق بحثه ، يثبت احاديث دلت الحوادثُ الزمنيةُ والمشاهدةُ التجريبيةُ " على انها غيرُ صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال ، كحديث : " لا يبقى على ظهر الارض بعد " مائة سنة نفس منفوسة " (٤) .

غير انه ثبت لي ان هذا الحديث قد ورد بعد ان اسقط الرواة منه كلمة .

روى ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث . قالوا : " رويتم عن ابي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله ، وانس بن مالك ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ، وذكر سنة مائة : " انه لا يبقى على ظهرها يومئذ ، نفس منفوسة " .

---

١ — الباحث الحثيث ص ٩٠ وتدريب الرازي ص ٩٩ .
٢ — توضيح الافكار ج ٢ ص ٩٤ — معرفة علوم الحديث ص ٩٢
٣ — نالمصدر نفسه ص ٩٦ .
٤ — فجر الاسلام لاحمد امين ص ٢١٨ .

قالوا وهذا باطل ، بيّن للعيان ، ونحن طاعنون في سني ثلاثمائة ، والناس اكثر مما كانوا .

قال ابو محمد : ونحن نقول : " ان هذا الحديث قد اسقط الرواة منه حرفاً (اى كلمة) اما لانهم نسوه ، او لان رسول الله (ص) اخفاه ، فلم يسمعوه . ونراه بل لا نشك - انه قال " لا يبقى على الارض منكم يومئذ نفس منفوسة .

ويعني ، ممن حضره في ذلك المجلس ، او يعني الصحابة فاسقط الراوى (منكم) (١) .

وقد ورد هذا الحديث معللا عند ابن حجر في حديثه عن شروط الصحابة .

قال ابن حجر في الاصابة : واما الشرط الثاني وهو المعاصرة ، فيعتبر بمضي مائة سنة وعشر سنين من هجرة النبي (ص) في آخر عمره للصحابة :

" ارأيتكم ليلتكم هذه ؟ فان على رأس مائة سنة منها لايبقى على وجه الارض ممن هو عليها " اليوم احد " رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر ، زاد مسلم من حديث جابر ان ذلك كان قبل موته بشهر " (٢) .

فهذا نص الحديث واضح في ان الرسول اخبر صحابته في آخر حياته ، وكما جاء في رواية جابر قبل موته بشهر ، ان من كان منهم على ظهر الارض حيا حين قال الرسول تلك المقالة ، لا يُعَمَّرُ اكثر من مائة سنة ، وهذا امر جد معقول . ولم يفطن بعض الصحابة الى تقييد الرسول بمن هو على ظهرها - اليوم - فظنوه على اطلاقه وان الدنيا تنتهي بعد مائة سنة .

والذى حدث ان آخر من ضبط امره ممن كان موجودا حينئذ : " ابو الطفيل عامر بن واثلة ، وقد اجمع اهل الحديث على انه كان آخر الصحابة موتا وقد حقق لنا امر الوفاة ابن الصلاح في مقدمته . قال : آخرهم على الاطلاق موتا ابو الطفيل عامر بن واثلة مات

١- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٩ .

٢- الاصابة في معرفة الصحابة لابن حجر : ١/ ٨ وقد روى الحديث نفسه السباعي في السنّة ومكانتها من التشريع الاسلامي عن البخاري ومسلم ص ٢٥٩ .

سنة مائة من الهجرة (١) ٠

والخلاصة من الحديث ان كل نفس منفوسة كانت الليلة على الارض، لا تعيش بعدها اكثر من مائة سنة، سواء قل عمرها قبل ذلك ام لا ٠ وليس فيه نفي عيش احد يوجد بعد تلك الليلة فوق مائة سنة ٠

ونحن نرى كيف ان هذا الحديث ينقلب في نظر النقد الجديد ،كما مرّ معنا في فجر الاسلام ،الى ان يكون مكذوبا ؟ ومما يظهر ان مؤلف فجر الاسلام اقتصر على جزئه الذى اقتصره البخارى في كتاب العلم واغضى عن تفسير ابن عمر للحديث في البخارى نفسه ، وعن رواية جابر في صحيح مسلم ٠ هذا عذر احمد امين، اما عذر البخاري فهو ما جرى عليه من تقطيع الحديث في ابواب متعددة ٠

ان من السهل جدا تكذيب اى حديث ، ولكن من الصعب جدا اثبات ما ندعيه ٠

وقد قال كاتب انكليزى من رجال القرن الثامن عشر : " ان من يروى اخبارا وروايات لا تتعدى نطاقَ الاحتمال ، له ملءُ الحق ان يطلبَ من الذين لا يستطيعون ان يَدْحَضُوا رواياتِه ، أو يُبْطلوا اخبارَه ، ان يصدِّقوه " (٢) ٠

ومثل آخر شبيه لما ذكرنا جاء في التهذيب جاء في الحديث :

" ان سفينة نوح طافت بالبيت سبعا وصلت عند المقام ركعتين " (٣) ٠

وهذا الحديث حدث به عبد الرحمن بن زيد بعد ان سألوه ، هل حدثك ابوك عن جدك ٠٠٠ قال : نعم ٠ وواضع هذا الخبر (عبد الرحمن ابن زيد بن اسلم ،

١ــ مقدمة علوم الحديث لابن الصلاح ص ١٥٠ ٠
٢ــ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي تأليف فرانتز روزنتال وترجمة انيس فريحة ص ١٥٧ ٠
٣ــ التهذيب ٦/ ١٧ وقارن بالتدريب ص ١٠٠ ٠

مشهور بكذبه وافترائه وقد عرفنا ذلك بعد ان وجدنا في التهذيب نقلا عن الامـــام الشافعي : " ذكر رجل لمالك حديثا منقطعا ، فقال : اذهب الى عبد الرحمن بن زيد " يحدثك عن ابيه عن نوح ! " (١) .

ومن ذلك ما رواه ابن الجوزي في كتابه " الموضوعات " من طريق محمــد بــن شجاع الثلجي عن حبان بن هلال عن حماد بن سلمة عن ابي المهزم عن ابي هريـــرة مرفوعا : " ان الله خلق الفرس فاجراها ، فعرقت فخلق نفسه منها (٢) .

كل حديث يمجه العقل ويخالف المنطق نسبته الى الرسول (ص) زور وبهتان .

فالاحاديث النبوية توضيح للقرآن الكريم وتفسير لمكنونه آياته الخالدة ، فكيـف تخالف العقول وقد تبنت لتنوير تلك العقول وارشادها ! .

ولنسمع ما روي في صحيح البخاري ، في باب طلب الولد للجهاد . قال ابو هريرة : " ان النبي قال : قال سليمان بن داوود : لا طوفنّ الليلةَ على مائة امرأة كُلُّهـن يأتي بفارس ، " فلم تحمل منهنّ الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمد بيده لو قال ان شـاء " الله : لجاهدوا في سبيل الله فرسانا اجمعين (٣) .

ان سليمان بن داود كان من انبياء الله الصالحين ، وقد وهبه الله ملكا ليس لاحد مثله فسخر له الجن والانس، وعلمه منطق الطير وبقية الحيوانات ، وليس بمحال على الله ان يعطيه قوة عشرات الرجال ، ويمدد له في ليلته، ليستطيع ان يقوم بعملية الجماع مع مائة امرأة في ليلـة واحدة . ولكن نحن نتساءل :

١ـ الباعث الحثيث ص ٩١ .

٢ـ التدريب ص ١٠٠ يعلق السيوطي على هذا الحديث فيقول : " هذا لا يضعه مسلم والمتهم به " محمد بن شجاع ، كان زائغا في دينه ، وقال شعبة : رأيته لو اعطي درهما وضع خمسين حديثا ؟ " .

٣ـ صحيح البخاري باب طلب الولد للجهاد ج ٢ ص ١٣٩ ـ ١٤١ .

أ - الم يفكر ابو هريرة بوسيلة اخرى يمدح بها الانبياء وخاصة النبي داود ؟ ولا ادري ان كان يمدح ، بل انه يذم ويستخف . ولكن هذا ما سمح به خياله آنذاك .

ب - ان مقام النبوة اسمى واعلى من ان ينحدر بصاحبه الى هذا المستوى الذي لا يليق الا بالحيوانات ، وهل بلغ بهذا النبي الكريم الغرور الى حد انه اصبح يرى نفسه مستطيعا لان يحقق هذه الاعجوبة التي لم يُسْمَعْ بها ؟

ج - كيف ينشيء جيشا مؤلفا من مائة فارس في ليلة واحدة ، مع العلم بان الزمان لا يتسع للاتصال بمائة امرأة في ليلة واحدة .

د - ثم اين جمع هذه النساء ؟ في فندق او قصر ؟ وفي اي مدينة ؟ او وضع كل منهن في منزل مستقل ؟ وكم استغرق وقت الانتقال من منزل الى منزل او من غرفة الى غرفة ؟؟ .

ومهما كان فالله يغفر لمحمد بن اسماعيل البخاري او لمن تَقَوَّلَ عنه لو انه ترك هذا الحديث مع الستمائة الف التي اختار منها صحيحه ، لكان من الذين (يستمعون القول فيتبعون احسنه) (الزمر الآية ١٨) .

وحديث النيل والفرات من انهار الجنة ؟ ومن الاحاديث المخالفة لبديهات العقول . روى احمد ومسلم عن ابي هريرة ، ان رسول الله قال : " النيل ، وسيحان ، وجيحان ، والفرات " من انهار الجنة " وهذا الحديث نفسه رواه كعب الاحبار اذ قال : " اربعة انهار من " الجنة وضعها الله عز وجل في الدنيا ، فالنيل نهر العسل في الجنة ، والفرات نهر الخمر ، " وسيحان نهر الماء في الجنة ، وجيحان نهر اللبن في الجنة " (١) .

ان القول بان هذه الانهار تنبع من الجنة اسطورة قديمة ليست اسرائيلية فحسب ، وانما يرجع تاريخها الى ما وراء ذلك باحقاب طويلة .

وفي الاسلام الذي اتى به الله ليتم نعمته على البشر ، قال ابو هريرة : ان رسول الله (ص)

---

١ - النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤ .

" قال : " النيل، وسيحان ، وجيحان ، والفرات من انهار الجنة (١) .

اما ابن عباس فيزيد هم نهرا بحديث مرفوع الى النبي يقول: " انزل الله تعالى من الجنة الى الارض خمسة انهار: سيمون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، انزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من اسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل، واستودعها الجبال واجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس " (٢) .

وفي رواية اخرى ، او بالاحرى في حديث آخر : " نهران مؤمنان ؟ ونهران كافران ؟ اما المؤمنان ؟ فالنيل والفرات ؟ واما الكافران فدجلة ونهر بلخ ؟ وقد فسر ايمانهما بانهما يفيضان على الارض فيسقيان الحرث بلا مؤونة وكلفة ، وفسر كفرهما بانهما لا يسقيان ولا ينتفع بهما الا بمؤونة وكلفة (٣) .

وهكذا يتسلسل الى دين الاسلام مثل هذه الاساطير والخرافات التي تفضحنا بين الامم ، ويضحك منها حتى الاطفال، وللاسف فانهم يرفعونها الى النبي (ص) ويثبتونها في كتب صحيحة ؟

ولا شك ان مثل هذه الاخبار، تلقاها ابو هريرة عن كعب الاحبار. وقد قال ابن كثير : " لعل ابا هريرة تلقاه من كعب الاحبار فانه كان كثيرا ما يجالسه ويحدثه ، فحدث به ابو هريرة فتوهم بعض الرواة انه مرفوع فرفعه والله اعلم " (٤) .

ونلاحظ ان هذا الحديث الذى روى بطرق مختلفة، بعيد عن العقل والمنطق ، وهو من جملة الاحاديث الموضوعة التي دسها المغرضون ورواها البسطاء الكاذبون.

١ـ ذكره السيوطي في حسن المحاضرة طبع مصر ج ٢ ص ١٧٩ نقلا عن الامامين احمد ومسلم .
٢ـ قال السيوطي : اخرجه الخطيب في تاريخه النهاية لابن الاثير ج ٣ ص ١٠٤ .
٣ـ النهاية لابن الاثير طبع مصر ج ١ ص ٥٤ .
٤ـ تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابو هريرة يروي عن رسول الله ان الانهار الاربعة من انهار الجنة .

وكعب الاحبار قال: انهار من الجنة وضعها الله في الدنيا ثم اعطاها صفات وميزات خاصة يتشوق لرؤيتها كل من يحب اللبن والعسل والماء والخمر.

وابن عباس: يضيف اليها نهرا آخر وهو دجلة (وذلك حتى ينسجم مع الفرات) .

ثم يعين منبعها جميعها من عين واحدة، ثم يدقق فيحدد مكان النبع في الجنة وطبعا على جناحي جبريل ؟ واخيرا يعلل سبب هبوطها من الجنة الى الارض لينتفع بها الناس .

- اما الرواية الاخرى وهي الابعد نظرا والاحذق حرفة فقالت: نهران مؤمنان ونهران كافران مع تفسير لسبب الايمان وسبب الكفر على الاسلوب الاسطوري البدائي القديم .

ومما يرويه الغزالي في المستصفى عن اخبار الاحاد وما ورد فيها ما يخالف العقل، قوله عن حنين الشجرة . قال: " عن جابر رضي الله عنه قال: " كان رسول الله (ص) اذا خطب استند الى جذع نخلة من سواري المسجد، فلما صنع له المنبر فاستوى عليه، صاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت ان تنشق فنزل النبي حتى اخذها فضمها اليه فجعلت تئن انين الصبي الذي يسكت حتى استقرت قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر رواه البخاري (١) .

٣ - الا يخالف القواعد العامة في الحكم والاخلاق :

مثل: (ان ولد الزنا لا يدخل الجنة) (٢) رواه عبد الله بن عمر وابو هريرة .

فاما حديث عبد الله فله طريقان: الطريق الاول عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يدخل الجنة اربعة: مدمن خمر، ولا عاق والديه، ولا منان، ولا ولد زنا " .

الطريق الثاني: " عن عبد الملك بن عمر قال . قال رسول الله: " لا يدخل الجنة عاق

---

١ - المستصفى للغزالي ج ٢ ص ١٢٧ .

٢ - انظر الموضوعات لابن الجوزي ج ٣ ص ١١٠

ولا مُدْمِنُ خَمْرٍ ولا وُلْدُ زنا ولا من اتى ذاتَ مُحْرَم ولا من ارْتَدَّ اعرابيا بعد هجرة ".

والطريق الثالث: عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال . قال رسول اللـه :

" لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مرتد اعرابيا بعد هجرة ولا ولد زنا ولا من اتى ذات محرم ".

اما حديث ابي هريرة فله ثلاثة طرق :

الاول : " لا يدخل الجنة ولد زنا ، ولا والده ، ولا ولد ولده ".

الثاني : " فرخ الزنا لا يدخل الجنة ".

الثالث : " لا يدخل ولد الزنا ولا شيء من نسله الى سبعة آباء الجنة " (١) .

وهذا الحديث بالاضافة انه مخالف لما ذكرنا هو مخالف ايضا للقرآن الكريم ، حيث قال : " (ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ اخرى) " فكيف يخطئ الاب ويتحمل العقاب ولده ؟ ".(٢)

٤ ـ الا يخالف البديهي في الطب والحكمة :

روى البخاري وابن ماجة عن ابي هريرة ان النبي (ص) قال :

" اذا وقع الذباب في اناء احدكم فليغمسه كله فان في احد جناحيه داء والاخر شفاء " (٣) .

ولهذا الحديث الفاظ مختلفة منها : فان في احد جناحيه سما وفي الاخر شفاء وانه يقدم السم ويؤخر الشفاء ، ومنها ان تحت جناح الذباب الايمن شفاء وتحت جناحه الايسر سما ، فاذا سقط في اناء او في شراب او في مرق فاغمسوه فيه فانه يرفع عند ذلك الجناح الذي تحتـه الشفاء ويحفظ الذي تحته السم .

---

١ ـ كتاب الموضوعات لابن الجوزي ج ٣ ص ١١٠ .
٢ ـ الانعام الآيـة ١٦٤ .
٣ ـ ابو هريرة لمحمود ابو رية ص ٢٤٨ واضواء على السنة المحمدية ص ٢٢٣ .

وما يدعو الى العجب ان الذباب تنفر النفوس من رؤيته لقذارته ، فكيف يأمر النبي بغمسه اذا سقط في الاناء ؟ .

فاذا قيل ان هذا الحديث قد رواه البخاري - وهو لا يروى الا ما كان صحيحا فاننا نستطيع ان نرد عليه ، بانه قد روى في كتابه ما عده هو صحيحا عملا بظاهر الاسناد ، وليس ما ثبت انه صحيح في الواقع . ولذلك لا يلزم غيره ما اعتبره هو لنفسه .

على اننا اذا سلمنا - كما قلنا - بأن النبي (ص) قد نطق بهذا الحديث ثم اثبت العلم ضرر الذباب ، فليس علينا من بأس من الرجوع عنه وعدم الاخذ به لانه من امور الدنيا ، ولنا بذلك اسوة حسنة بما فعل النبي نفسُهُ (ص) حينما رأى اهل المدينة يأبرون النخل ، فاشار عليهم بترك تأبيره - ولما ثبت بعد ذلك ضَرَرُ عدم التأبيره قال لهم حديثه المشهور : " انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به (١) . "

ثم قال حكمته التي بقيت ازلية على مر العصور تصلح لكل زمان ومكان : " انتم اعلم بأمر دنياكم " (٢) .

ومن ناحية اخرى ان راوي الحديث هو ابو هريرة ، وهو من المكثرين بين المحدثين وقد ردوا له احاديث كثيرة في حياته وبعد مماته ، حتى من التي صرح بانه سمعها من النبي مثل حديث " خلق الله التربة يوم السبت ... " .

(حديث الذبـــاب)

ومن الغريب في هذا الحديث ان العرب كانوا كغيرهم من الشعوب يعلمون ضرر الذباب ، ويرون كما نرى نحن ، انه يحط على الاوساخ والاقذار ، ويحمل ما يحمل منها ، وكانوا يأنفون من تناول الطعام الذى يقع فيه الذباب ، ويرفعون ايديهم عنه استقذارا له وأنفة ، ومن اجل ذلك قال شاعرهم :

" اذا وقع الذباب على طعامي ... رفعت يدى ونفسي تشتهيه "

١- اضواء على السنة المحمدية ص ٩٣ .

٢- المصدر نفسه .

ولما ذكر هذا البيت لابي هريرة عندما روى حديثه هذا وقيل له : " كيف يَسْتَقْذِرُ العَرَبِيُّ الجافُّ منظَرَ الذبابِ وهو يقع على طعامه ويرفع يدَه عنه ونفسُه تشتهيه؟ ".

ثم يأتي الرسول الكريم ذو النفس العالية والذوق السليم، فيأمر امته بان يغمسوا الذباب الذي يقع على طعامهم ويأكلونه بعد ذلك ؟ فاجاب ابو هريرة بان رواة هذا البيت لم يحفظوا ما قاله الشاعر، وانه كما رويناه عن شيخنا اشعب :

اذا وقع الذباب على طعامي غمست يدي ونفسي تشتهيه

وبذلك لا يكون مناقضا لنص حديث النبي (١) .

ولا شك ان هذا الحديث موضوع لانه غريب عن الرأي وعن التشريع جميعا ، فمن قواعد التشريع العامة ، ان كل ضار قطعا فهو محرم قطعا ، وكل ضار ظنا فهو مكروه كراهة تحريمه. اما الرأي فلا يمكن ان يصل الى التفرقة بين جناحي الذبابة في ان احدهما سام وضار ، والاخر ترياق واق من ذلك السم .

حديث باطل لمخالفته للواقع المعروف في علم الطب ، وتجربة الناس .

" الباذنجان شفاء من كل داء " (٢) ثم حديث " عليكم بالعدس ، فانه مبارك يرقق القلب ويكثر الدمعة ".

٥ ــ الا يكون مخالفا لاصول العقيدة وضرورات التشريع :

ان الذين قاموا بوضع مثل هذه الاحاديث هم اعداء الاسلام واعداء المسلمين .

---

١ ــ ابو هريرة لمحمود ابو رية ص ٢٥٢ .

٢ ــ المنار لابن قيم الجوزية ص ١٩ والسنة ومكانتها من التشريع الاسلامي ص ١١٦ .

لما قَوَّضَتْ دَوْلَةُ الاسلام دولتي كسرى وقيصر، رقعت عروش الملوك والامراء الذين كانوا يحكمون الشعوب الخاضعة لهم، يذيقونها العذاب، وكان حول هؤلاء الحكام طبقة من المستغلين، الذين كانوا يقفون وراء هؤلاء الحكام ولهم وسائلهم الخاصة في استغلال رعاياهم، فعندما انتشر الاسلام، وخالط قلوب الامم المظلومة، تذوق هؤلاء نعمة الحرية، وشعروا بالكرامة الانسانية، في حين افلتت السلطة من يد الحكام وخسروا مناصبهم، وضاعت تلك المنافع التي كانوا ينالونها باستغلال ابناء الشعب، الذي عرف قيمة الحياة بعد ان حطم قيود الظلم باعتناق الاسلام، ولم يرق الوضع الجديد اولئك المتسلطين، فاضمروا الحقد والكيد للاسلام والمسلمين، ولم يستطيعوا ان يحققوا آمالهم بقوة السيف، لمناعة الدولة الاسلامية، فراحوا ينفرون المسلمين من العقيدة الجديدة، بدس الاباطيل والاكاذيب السخيفة على رسول الله، قاصدين من وراء ذلك ابعادَ الناس عن الاسلام، الذين حاولوا ان يصوروه ابشع الصور في عقائده وعباداته وافكاره، وظاهر هؤلاء بمظاهر مختلفة، الا انهم لم يوفقوا الى ما ارادوا .

ومن ذلك ما قالوا : في غير حديث ان رسول الله (ص) كان يقبل وهو صائم (١)

وحديث آخر من هذا النوع المخالف لاصول العقيدة وصفات الله ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابي هريرة انه قال : (٢) " سمعت رسول الله يحكي عن موسى على المنبر " (ان سمعه كل الصحابة) قال : " وقع في نفس موسى هل ينام الله عز وجل " فارسل الله تعالى اليه ملكا فأَرَّقَهُ ثلاثا، واعطاه قارورتين في كل يد قارورة وامره ان يحتفظ بهما، فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس احداهما عن الاخرى، حتى نام نومة فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان " (تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦١) .

قال ابن كثير والظاهر ان هذا الحديث ليس بمرفوع، بل هو من الاسرائيليات المنكرة فان موسى (ع) اجل من ان يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم، وقد اخبر الله عز وجل في كتابه العزيز بانه (الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم له ما في السموات وما في الارض) (البقرة الآية ٢٥٥) .

١ـ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٤٣ .

٢ـ تفسير ابن كثير ص ٥٦١ ج ٣ .

فهل من المعقول بعد هذا الحديث الذي يطعن في صفات الله عز وجل ، من انه ينسب الى نبي كريم ؟ مما لا شك فيه انه دس من جملة الاحاديث التي رواها ابو هريرة عن كعب الاحبار . وقد بلغ الدهاء من هذا واستغلاله لسذاجة ابي هريرة وغفلته ان كان يلقنه كل ما يريد بثه للتشويه في الدين الاسلامي من خرافات واساطير .

كما روى احمد عن ابي هريرة ما يشبه مثل هذا الحديث قال " يخرج من خراسان رايات سود لا يردها حتى تنصب بايليا (١) وقد قال الحافظ ابن كثير انه من كعب الاحبار .

ان كل سهو او نسيان ينسب الى النبي هو قول باطل ، لانه لا يتفق مع الغاية التي ارسل الله الرسل من اجلها ، وكل حديث ينص ان النبي كان ينسى او يسهى في امور الدين ، هو بلا شك حديث باطل مردود .

روى البخاري عن علقمة عن عبد الله ان الرسول (ص) صلى الظهر خمسا فقيل له : " ازيد في الصلاة يا رسول الله ، فقال وما ذاك : قيل له : صليت خمسا فرجع وسجد سجدتين واكتفى بصلاته (٢) .

كما روى حديثا آخرا عن ابي هريرة في امر النسيان فقال : صلى (ص) العصر ركعتين ثم سلم وقام الى خشبة في المسجد ووضع يده عليها ، وفي المسجد ابو بكر وعمر ، فهابا ان يكلماه ، وخرج الناس وقالوا قصرت الصلاة يا رسول الله ، فقال النبي (ص) : لم انس ولم اقصر ، قال : بلى : نسيت ، فرجع النبي وصلى بهم ركعتين ، وسلم ثم سجد سجدتين .

١ـ البداية والنهاية لابن كثير ص ٥١ ج ١٠ .
٢ـ صحيح البخاري ص ٢١٢ باب السهو في الصلاة .

وروى غير هاتين الروايتين عن سهو النبي ونسيانه في باب السهو في الصلاة (١) .

كيف يمكن ان تنسب مثل هذه الاحاديث الى الرسول الكريم ، علما بان زيادة الركعة مبطلة للصلاة ، سواء كانت من عمد او سهو ، ثم ان نسبة السهو والنسيان الى النبي تعد من المنكرات ، ذلك انه اذا جاز عليه السهو والنسيان في صلاته ، جاز في غيرها ، حتى في حال تبليغ الاحكام والوحي وغيرهما ، واذا كان بهذه الحالة ، فهل يحصل للناس الجزم والوثوق بما يأتي به ؟

كما روى في باب الحشر عن ابي هريرة ايضا ما يمس باصحاب النبي (ص) قال :
" يرد علي يوم القيامة رهط من اصحابي فيحلون عن الحوض ، فاقول يا رب اصحابي ،
" فيقول : انك لا علم لك بما احدثوا بعدك ، انهم ارتدوا على ادبارهم القهقرى " (٢) .

وقد روى بهذا المضمون اكثر من عشر روايات جاء في بعضها انه لا يخلص منهم الا مثل همل النعم .

حديث الاستسقاء :

روى التاريخ ان الارض اجدبت اجدابا شديدا في خلافة عمر ، وكان ذلك في عام الرمادة ، فلم يدع (كعب) هذه الفرصة تفلت من غير ان يتخذ منها وسيلة ليرمي الاسلام والعقيدة الاسلامية طعنة اخرى - فقال لعمر : ان بني اسرائيل كانوا اذا اصابهم مثل هذا استسقوا بعصبة الانبياء (٣) .

---

١ - صحيح البخاري ص ٢١٢ و ٢١٣ باب السهو في الصلاة .
٢ - المصدر نفسه ص ١١٠ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٤١ - ١٤٣ - ١٥٨ - الامثل همل النعم . اى القدر البسيط .
٣ - البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٩٢ .

ومما لا مراء فيه ان كعب الاحبار - اليهودي - اراد بقوله هذا ان يخدع عمر عن اول اساس قام عليه الدين الاسلامي - وهو التوحيد الخالص ، ليزلقه الى هوة الشرك ، حتى اذا هوى فيها عمر اتخذت سنة من بعده ، وكان لها اثر بالغ لدى المسلمين جميعا في العقيدة الاسلامية على مد العصور . لكن عمر كان ابعد نظرا ، فطن للخدعة ولم يقع في الفخ ، فلم يستسق باحد حتى بالنبي (ص) ولم يزد على الاستغفار .

ثم خرج عمر يستسقي فصلى ركعتين فقال : اللهم انا نستغفرك ونستسقيك ، فما برح من مكانه حتى مطروا (١) .

وعن الشعبي قال : خرج عمر يستسقي بالناس فما زاد على الاستغفار حتى رجع فقالوا يا امير المؤمنين : ما نراك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ، ثم قرأ : " استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا " ، ثم قرأ " وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه " (٢) (نوح الآية ١٠) .

وقال الجاحظ : ولما صعد عمر " المنبر ، قابضا على يد العباس يوم الاستسقاء لم يزد على الدعاء ، فقيل له : انك لم تستسق وانما تستغفر ، قال : قد استسقيت بمجاديح السماء - ذهب الى قوله تعالى : " استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا " (٣) .

واذا كان الامر قد وقع على هذه الصورة فلا بأس به ما داموا جميعا كانوا يدعون الله ، وانا نكاد نقطع بان عمر لم يتوسل باحد في الاستسقاء ولم يتخذ من وسيلة فيه الى الله غير الدعاء والاستغفار ، كما جاء في الاخبار الصحيحة المؤيدة بآيات من كتاب الله العزيز .

١- البداية والنهاية لابن كثير ج ٧ ص ٩٢ .
٢- المصدر نفسه .
٣- البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٦) الا يخالف سنة الله في الكون والانسان .

يذكر لنا البخارى في صحيحه عن ابي هريرة حديثا لم نر ما يشبهه في سنة الله والانسان يقول: " اوصاني خليلي بثلاث لا ادعهن حتى اموت ، صوم ثلاثة ايام في كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر " (١) .

فالنبي (ص) هو خليل لابي هريرة : هكذا يدعى محدثنا .

بحثت عن هذا الحديث لاقف على سبب تلفيقه ، فوقفت عند العاملي على القصة التالية : " معاوية يحدث صلاة موقوتة من اجل هواه وابو هريرة يؤصلها له " . ذلك لما بلغ معاوية نعي عليّ بن ابي طالب وقت الضحى ، قام فصلى ست ركعات ، ثم امر بني امية بالاحاديث في فضلها عن النبي (٢) وهذه الصلاة لم يصلها النبي (ص) ولا ابو بكر ولا عمر ولا ابن عمر (٣) .

(٧) الا يخالف القرآن او محكم السنة ، او المعلوم من الدين بالضرورة او المجمع عليه :

كل حديث مخالف لصريح القرآن هو بلا شك حديث موضوع مثل :

" ولد الزنا لا يدخل الجنة الى سبعة ابناء " (٤) فانه مخالف لقوله تعالى " ولا تزر وازرة وزر اخرى " (الانعام الآية ١٦٤) .

او كان مخالفا لصريح السنة المتواترة : مثل (ان النبي (ص) قال : البنت الباكر " لا تنكح حتى تستأذن ، والثيب حتى تستأمر واضاف الى ذلك البخارى ، ان البكر اذا لم تستأذن ولم تتزوج من احد وادعى رجل بانه تزوجها زورا واقام شاهدى زور عند القاضي ، فحكم له ، تصبح زوجة شرعية له ويصح وطؤها . (٥)

١ـ صحيح البخارى ج ٣ ص ٤٤ .
٢ـ الصراط المستقيم للعاملي ج ٣ ص ١٨٥ .
٣ـ صحيح البخارى ج ٣ ص ٤٠ .
٤ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص ٢٤٤ .
٥ـ صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٠٥ .

ومنه يقول : اذا احتال انسان بشاهدى زور على تزويج امرأة فاثبت القاضي نكاحهما والزوج يعلم بانه لم يتزوجها ولم يتعرف عليها، فانه يسعه هذا النكاح ويحل له وطؤها والمقام معها ولو علم ببطلان ذلك (١) .

وبعد هذا الحديث ، نستنتج ان الحكم بصحة النكاح في مثل ذلك ، مبني على ان الواقع تابع لحكم المجتهد ، وليس وراء حكمه شيء آخر ، وهو حتما من اسوأ انواع التصويب ، ومن ابعد الاحكام عن منطق الكتاب وسنة الرسول .

وحديث آخر نذكره في هذا المجال طعن فيه ابو هريرة لعبد الله بن مسعود بقوله : " ان القمر انشق ، وانه رأى ذلك ، ثم نسبه فيه الى الكذب (٢) يقول ابن قتيبة في تعليقه :

" وهذا ليس باكذاب لابن مسعود ، ولكنه بخس لعلم النبوءة واكذاب للقرآن الكريم ، لان الله تعالى يقول : " اقتربت الساعة وانشق القمر " (القمر الآية ١) فان كان القمر لم ينشق في ذلك الوقت وكان مراده سينشق القمر فيما بعد ، فما معنى قوله : " وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " (القمر الآية ٢) .

بعقب هذا الكلام ؟

اليس فيه دليل على ان قوما رأوه منشقا فقالوا : " هذا سحر مستمر " من سحره ، وحيلة من حيله كما قد كانوا يقولون في غير ذلك من اعلامه ، وكيف صارت الآية من آيات النبي (ص) والعلم ومن اعلامه لايجوز عنده ان يراها الواحد والاثنان والنفر دون الجميع ؟ (٣) .

١ـ صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٠٥ .

٢ـ تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٥ .

٣ـ المصدر نفسه .

ومنها احاديث مناقضة للسنة مناقضة بينة : (احاديث مدح من اسمه محمد او احمد، وان كل من يسمى بهذه الاسماء لايدخل النار) (١) . وهذا مناقض لما هو معلوم من دينه (ص) ان النار لايجار منها بالاسماء والالقاب، وانما النجاة منها بالايمان والاعمال الصالحة) .

٨ ـ الا يشمل على سخافات يصان عنها العقلاء :

روى لنا البخاري في صحيحه، في باب استعمال البقر للحراثة، عن ابي هريرة ان النبي قال: " بينما رجل راكب على بقرة التفتت اليه وقالت له: " اني لم اخلق لهذا " بل خلقت للحراثة، قال النبي: " امنت به انا وابو بكر وعمر، واخذ الذئب شاة، فتبعها " الراعي، فقال الذئب : من لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري، فقال النبي (ص) " امنت انا وابو بكر وعمر، قال ابو سلمة راوي الحديث عن ابي هريرة وماهما يومئذ في القوم، اي حينما حدث الرسول بهذا الحديث لم يكونا معه (٢) .

ان مثل هذا الحديث ليس له شبه في السنة، ولا يؤيده العقل، ولعل لو حدث مثل هذا النوع من المرويات في عصر الصحابة، لقطعوا لسان الراوي دون شك .

كما روى ايضا من باب هذه السخافات التي يصان عنها العقلاء ، ما روى عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قال: ان موسى كان رجلا حييا يتستر كي لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني اسرائيل، فقالوا : ما استتر هذا الا من عيب بجلده ، اما برص، واما أدره ، واما أفة ، وان الله اراد ان يبرئه مما قالوا فيه، فخلا يوما وحده ووضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ اقبل الى ثيابه ليأخذها ، وان الحجر عدا بثوبه ، فاخذ موسى عصاه وطلب الحجر وجعل يقول: " ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، ثم انتهى الى ملأ من بني اسرائيل فرأوه عريانا احسن مما خلق الله وابرأه مما يقولون، وقام

---

١ ـ (السنة قبل التدوين ص ٢٤٥) عن المنار لابن قيم الجوزية ص ٣١ .

٢ ـ صحيح البخاري ج ٢ ص ٤٥ .

الى الحجر فاخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه ، والله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا او اربعا او خمسا ، كما جاء في الرواية ، واضاف الى ذلك ان الاية : " يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى فبرأه اللهُ مما قالوا وكان عند الله وجيها " نزلت بهذه المناسبة (١) .

واني لاعجب اليس هناك من طريقة غير هذه يبرئ بها الله نبيه الكريم موسى ؟

وهل ان المرض الجسمي والعيب الجسدي يحط من مقام النبوة ؟

ثم كيف ان النبي ينزل الى هذا المستوى من السخافة التي يأباها العقل السليم للرجال العاديين ، فكيف بعقول الانبياء والرسل ، الذين امتازوا عن بقية الناس بعقولهم النيرة التي ترشد الناس الى مستوى السبيل .

اما عن تفسير الآية وسبب نزولها فلا يذكر المفسرون انها نزلت بهذه المناسبة (٢) .

وحديث طريف آخر هو حديث المزود - مزود ابي هريرة -

قال : " أصبت بثلاث مصيبات في الاسلام : لم اصب بمثلهن ؟ موت رسول الله وكنت صويحبه ، وقتل عثمان ، والمزود " (٣) . قالوا : وما المزود يا ابا هريرة ؟ قال : كنا مع رسول الله في سفر ، فقال : يا ابا هريرة ، امعك شيء قلت : تمر في مزود ، قال : جيء به ، فاخرجت تمرا قال : فمسه ودعا فيه ، ثم قال : ادع عشرة فاكلوا حتى شبعوا ، ثم كذلك حتى أكل الجيش كله ، وبقي من تمر معي في المزود ، فقال يا ابا هريرة : اذا اردت ان تأخذ منه شيئا فادخل يدك ولا تكفه ، قال : فأكلت منه حياة النبي ، واكلت منه حياة ابي بكر كلها ، واكلت منه حياة عمر كلها واكلت منه حياة عثمان كلها ، فلما قتل عثمان ، انتهب ما في يدى ؟ وانتهب المزود ؟ .

---

١ - صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٤٧ (الاحزاب ٦٩) .
٢ - في ظلال القرآن المجلد ٦ ج ٢٢ ص ٤٨ .
٣ - انظر شيخ المضيرة للشيخ محمود ابو رية (حديث المزود) .

" الا اخبركم كم اكلت منه ؟ اكلت منه اكثر من مائتي وسق ؟ (الوسق حمل بعير) .

وجاء في رواية اخرى في مسند احمد : اعطاني رسول الله شيئا من تمر فجعلته في (مكتل) لا مزود — فعلقناه في (سقف البيت) فلم نزل نأكل منه حتى كان آخره " اصابه اهل الشام حيث اغاروا على المدينة " .

ومما يظهر ان حديث المزود هذا قاله بعد ان اصبح ذا حظوة دالة في دولة بني امية — وقد نال مبتغاه من تعويضه، بما ادعى انه فقده بسبب ضياع هذا المزود الذى اكل منه مائتي وسق : ولو لم يقض عليه جيش معاوية لظل يأكل منه طوال حياته ؟

والشيء العجيب في هذا الحديث السخيف الملفق المصنوع الامور التالية :

اى جيش كان ذلك ؟ وفي اية غزوة ؟ وهل كان معلقا في الصفة حيث كان يسكن ابو هريرة، وحيث لم يكن عنده لا بيت ولا سقف ؟ واذا كان يطعم من المزود حياة النبي وخلفائه الثلاثة فلم كان يركب الصحب في سبيل طعامه ويستقرئ الناس الايات وهي معه ليطعموه ؟ وقد ذكر مصائب ثلاث ، موت النبي وقتل عثمان، والمزود . اي انه جعل مصيبته في فقد المزود عظيمة وكبيرة كالمصيبتين المذكورتين وذلك حتى يشايع الامويين ، كي يعوضوا عليه ما خسره بسببهم ، عندما اغار اهل الشام على المدينة بجيش بسرة بن ارطاة ، الذى بعثه معاوية لينكل بأهل المدينة ومكة . وما دام جند معاوية هم الذين اغاروا على هذا المزود فليكن عوضه من معاوية .

٩ — الا يكون مخالفا للحقائق التاريخية المعروفة في عصر النبي (ص) مثل حديث (ان النبي وضع الجزية على اهل خيبر ورفع عنهم الكلفة والسخرة بشهادة سعد بن معاذ وكتابة معاوية بن ابي سفيان) (١)

---

١ — السنة قبل التدوين ص ٢٤٦ — انظر المنار ص (٣٧) .
وقد بيّن ابن قيم الجوزية كذب هذا الحديث في عشرة ادلة قوية .

مع ان الثابت في التاريخ ان الجزية لم تكن معروفة ولا مشروعة في عام خيبر وانما نزلت آية الجزية بعد عام تبوك ، وان سعد بن معاذ توفي قبل ذلك في غزوة الخندق ، وان معاوية انما اسلم زمن الفتح . فحقائق التاريخ ترد هذا الحديث وتحكم عليه بالوضع.

ومن امثلة ذلك ايضا حديث أنس . " دخلت الحمام فوجدت رسول الله جالسا عليه مئزر فهممت ان اكلمه فقال : يا انس انما حرمت دخول الحمام بغير مئزر من اجل هذا " (١) مع ان الثابت تاريخيا ان الرسول لم يدخل حماما قط ، بالاضافة ان الحمامات لم تكن معروفة في الحجاز في عصره ؟

وتعليقا على هذا الحديث نورد بعض الشواهد عن تاريخ الحمامات في الشرق ، ونظرة العرب لها عن الحضارة الاسلامية لادم متز . يقول متز : " لم يكن اتخاذ الحمامات " العامة من مظاهر الحياة في الشرق القديم ، حتى انه ليحكى عن بلاش ملك الفرس (٤٨٤ م - ٤٨٨ م) " انه لما امر بانشاء الحمامات للناس في مدن مملكته ، جلب على نفسه سخط الكهنة ، لانهم " رأوا في ذلك انتهاكا لحرمة الدين "

على ان المتشددين من المسلمين كانوا دائما ينظرون الى اتخاذ الحمامات العامة نظرة ارتياب . ويحكى عن ابي بكر السلمي (المتوفي عام ٣١١ هـ - ٩٢٣) انه قيل له : لو حلقت شعرك في الحمام : فقال : لم يثبت عندي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط (٢) .

وعن علي بن ابي طالب : قال : بئس البيت الحمام تكشف فيه العورات وترتفع " فيه الاصوات ، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله " (٣) بعد كل هذا يثبت وضع

١- انظر المنار ص ٣٨ .

٢- الحضارة الاسلامية آدم متز ج ٢ ص ٢١٧ - طبقات السبكي ج ٢ ص ١٣١ .

٣- المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١٨ - مطالع البدور ج ٢ ص ١٧ .

هذا الحديث لان الحمامات ، لم تكن معروفة في عصر النبي (ص) .

ومثاله ما رواه الامام مسلم بسنده عن ابي وائل قال :

" خرج علينا ابن مسعود بصفين ، فقال ابو نعيم : اتراه بعث بعد الموت " (١)
فابن مسعود توفي قبل صفين سنة ٣٢ هجرية .

(١٠) _ الا يوافق مذهب الراوي الداعي الى مذهبه .

اسند الزهري هذه الرواية الى سعيد بن المسيب ، وهي من مخترعاته على الارجح ، قالها ارضاء للامويين لانه كان من اتباعهم وقضاتهم . نسب الى الرسول انه قال : " لا تشد الرحال الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الاقصى ، وان الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة (٢) .

واعتقد ان الزهري وضع هذا الحديث استجابة لطلب عبد الملك حينما منع الناس من الحج الى مكة في عهد ابن الزبير ، وبعد ان اذاع الحديث ، بنى على الصخرة قبة ، وامر الناس ان يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة في موسم الحج .

وكان الانتصار للمذاهب منذ اول الامر من اهم الاسباب الداعية الى وضع الاخبار ، واختلاق الاحاديث . ولقد دأب اصحاب الاهواء في مختلف العصور على الافتراء على رسول الله (ص) حتى قال عبد الله بن يزيد المقرئ : " ان رجلا من اهل البدع رجع عن بدعته ، فجعل يقول : " انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه ، فانا كنا اذا رأينا رأيا جعلنا له حديثا (٣) .

١ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ١١٧ .
٢ـ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٨ .
٣ـ التدريب ص ١٠٣ .

ومن اصحاب الاهواء الفقهاء الذين يتخذون الحديث سلاحا للدفاع عن مذاهبهم ، فيضعون الاحاديث زورا وبهتانا او يأخذونها عن وضاعين خدمة لهم وتأييدا لهواهم . وغالبا ما يكون هؤلاء الفقهاء من مدرسة الرأي التي تعني بالقياس عناية خاصة .

قال ابو العباس القرطبي : " استجاز بعض فقهاء اهل الرأي نسبة الحكم " الذي دل عليه القياس الجلي الى رسول الله (ص) ولهذا ترى كتبهم مشحونة "باحاديث تشهد متونها بانها تشبه فتاوى الفقهاء ، لانهم لايقيمون لها سندا" (١) .

١١ ـ الا يكون ناشئا عن باعث نفسي ، حمل الراوى على روايته .

لابدّ انه من الضرورة دراسة شخصية الراوى وبيئته، والاسباب التي قد تحمله على الوضع . وقد ورد عند المحدثين اشياء من هذا القبيل، فابن خلدون مثلا : يقول في اسباب قلة رواية ابي حنيفة للحديث : " انه ضعّف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسي (٢) وهذه العبارة وان كانت غامضة بعض الغموض ، الا انها تدلنا على هذا الاتجاه ، وهو عدم الاكتفاء بالرواة ، بل عرضها على الطبائع النفسية والبيئة الاجتماعية .

ومن هذا القبيل ما يروى عن ابن عمر ان رسول الله (ص) قال : "من اقتنى " كلبا الا كلب صيد او ماشية انتقص من اجره في كل يوم قيراطان" .

وقد رواه ابو هريرة هكذا : " الاكلب صيد او ماشية او كلب زرع" فزاد كلب زرع ، فقيل لابن عمر : كيف يروى هذا الحديث وحذفت : كلب زرع وابو هريرة " صحح الحديث ؟ فقال ابن عمر : ابو هريرة زاد وما حذفت لان له زرعا " (٣) وهو نقد لطيف لابن عمر في الباعث النفسي .

---

١ ـ ابو العباس القرطبي هو صاحب كتاب " المفهم في شرح صحيح مسلم" وعبارته هذه عن السخاوى في مصطلح الحديث ص ١١١ .

٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ٣٧١ .

٣ ـ مسلم ٤/ ٤٣

واغرب من ذلك ما اسنده الحاكم عن سيف بن عمر التميمي قال: " كنت عند " سعيد بن طريف ، فجاء ابنه من الكتّاب يبكي ، فقال: " مالك ؟ قال : ضربني المعلم قال : لاخزينهم اليوم ، حدثني عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : " معلمو صبيانكم شرارُكم " اقلُّهم رحمة لليتيم ، وأَغْلَظُهم على المسكين " (١) ٠

وسعد بن طريف هذا قال فيه : يحي بن معين : " لايحل لاحد ان يروى " عنه " وهو في الرواية ساقط (قارن بالباعث الحثيث) (٨٩) ٠

١٢ ـ الا يخبر عن امر وقع بمشهد عظيم ثم ينفرد راو واحد بروايته :

كما روى الزبير بن بكار عن سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب ٠ جاء في كتاب حب ابن ابي ربيعة وشعره لزكي مبارك : " نكتفي بايراد حديثها مع رواية " جرير ورواية كثّير ورواية الاحوص ، حين اجتمعوا بالمدينة وافتخر كلُّ رجل منهم بصاحبه ، وذهبوا اليها يحكّمونها لما كانوا يعرفون من بصرها بالمعاني الجيدة ٠

قالت لراوية جرير بعد ان استأذنوا عليها فأذنت لهم وعرفت ما كان من امرهم : اليس صاحبُك الذى يقول :

طَرَقَتْكَ صائدَةَ القلوبِ وليس ذا	وقتُ الزيارة فارجعي بسلام
وأيُّ ساعةٍ احلى من الطروق (٢)	قبح الله صاحبك وقبح شعره ؟

ثم قالت لراوية الاحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

يَقِرُّ بعيني ما يَقِرُّ بعينها	واحسنُ شيء ما به العينُ قَرَّتِ

فليس شيء اقرَّ لعينها من النكاح ، افيحب صاحبك ان يُنكح ؟ قبحه الله وقبح شعره ؟

---

١ ـ التدريب ص ١٠٠ ٠ قارن بالباعث الحثيث ص ٨٩

٢ ـ الطروق زيارة الليل سمي كذلك لحاجة من يقدم ليلا الى طرق الباب ودقه ٠

ثم قالت لراوية جميل: اليس صاحبك الذى يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما ارى صاحبك من هوى ، انما يطلب عقله . قبح الله صاحبك وقبح شعره .
ثم قالت لراوية نصيب: اليس صاحبك الذى يقول:

اهيم بدعد ما حييت فان أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فلا ارى له همة الا فيمن يتعشقها بعده . قبحه الله وقبح شعره ؟ الا قال:

اهيم بدعد ما حييت فان امت فلا صَلُحَتْ دَعْدٌ لذى خِلَّةٍ بعدى

ثم قالت لراوية الاحوص: اليس صاحبك الذى يقول:

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا اذا نجم الثريا حلقا
باتا بانعم ليلة والذها حتى اذا وضح الصباح تفرقا (١)

قال نعم . قالت: قبحه الله وقبح شعره الا قال: تعانقا .

ثم حديثها مع الفرزدق فى حجه ودخل المدينة مسلما . قالت سكينة له:
" يا فرزدق من أشْعَرُ الناس؟ قال انا . قالت كذبت: اشعر منك الذى يقول:

بنفسي من تَجَنُّبُه عزيزٌ عليَّ ومن زيارَتُه لِمَامُ
ومن أُمسي وأُصبح لا اراه ويطرقني اذا هجع النيام

قال: والله لئن اذنت لي لاسمعتك احسن منه قالت: لا احب؟ فأخرج عني؟
ثم عاد اليها من الغد . فاعادت السؤال واعاد الجواب فقالت: صاحبك اشعر منك حيث يقول:

١ـ حب عمر ابن أبي ربيعة وشعره لزكي مبارك ص ١١٨ .

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت اذا هجر الضجيع فراشها كتم الحديث وعفت الاسرار
لا يلبث القرناء ان يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال والله لئن اذنت لي لاسمعتك احسن منه، فأمرت به فاخرج ، ثم عاد اليها في اليوم الثالث وحولها مولدات كأنهن التماثيل فنظر الفرزدق الى واحدة منهن فاعجب بها، فقالت يا فرزدق ؟ من اشعر الناس فقال انا ؟ فقالت كذبت ، صاحبك اشعر منك حيث يقول :

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن اضعف خلق الله اركانا
أتبعتهم مقلة انسانها غرق هل ما ترى تارك للعين انسانا

فقال : يا بنت رسول الله ! ان لي عليك حقا عظيما • ضربت اليك من مكة ارادة السلام عليك • فكان جزائي منك تكذيبي ومنعي من ان اسمعك • وبي ما قد عيل معه صبري ، وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلي لا افارق المدينة حتى اموت • فان انا مت فامري ان ادرج في كفني وادفن في (حر) تلك الجارية، يعني الجارية التي اعجبته، فضحكت سكينة وامرت له بالجارية، فخرج بها آخذا بريطتها، وامرت الجواري ان يضربن الدفوف تهنئة لهما • ثم قالت : يا فرزدق احسن صحبتها " فاني آثرتك بها على نفسي ".

ولم يكتف صاحبنا بسرد مثل هذه الروايات الكاذبة حتى يذكر صلتها بابن ابي ربيعة وان بيتها كان عبارة عن ملهى لرواد الجمال والعشق •

يقول : ذكر صاحب الاغاني (١) :

١ـ عن زكي مبارك عن الاغاني في اخبار عمر في الجزء الاول •

" انه اجتمع نسوة من اهل المدينة من اهل الشرف نتذاكرن عمر بن ابي
" ربيعة وشعره وظرفه وحسن حديثه، نتشوقن اليه وتمنينه ، فقالت سكينة بنت الحسين :
" انا لكن به ؟ فأرسلت اليه رسولا وواعدته الصورين وسمت له الليلة والوقت وواعدت
" صواحباتها، فوافاهن عمر على راحلته، فحدثهن حتى اضاء الفجر وحان انصرافهن .
" فقال لهن : " والله اني لمحتاج الى زيارة قبر رسول الله (ص) في مسجده ،
" ولكن لا اخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف الى مكة وقال :

قالت سكينة والدموع ذوارف ... منها على الخدين والجلباب (١)

الى ما هنالك من اخبار تشبه هذه التي بين ايدينا عن سكينة والمطربات والمغنيات والمولدات وكل ما يشير الى البهجة والسرور والمتعة .

فكيف وصلت هذه الاخبار الكاذبة الينا ؟ وكيف ننقدها ونبين كذبها بوضوح في روايات الزبير بن بكّار عن سكينة بن الحسين والتي يرويها ابو الفرج الاصبهاني في الاغاني ، ثم يرويها مؤخرا زكي مبارك في كتابه " حب ابن ابي ربيعة " وشعره " تكذبها الملاحظات التالية :

١ - الزبير ابن بكار هو الراوي الوحيد لكل هذه الروايات ولم نعثر في اي مصدر آخر عن مثل هذه الاخبار او ما يشابهها . ثم كيف وقع مثل هذه الاخبار بمشهد عظيم بين الناس ولم يشتهر بروايتها الا واحدٌ ، الزبير بن بكار المعروف بعدائه وبغضه لآل البيت ؟

قال الامدي في مثل هذا النوع من الاحاديث : " لو وجد شيء بمشهد من الخلق الكثير ، لتوفّرت الدواعي على نقله، فاذا انفرد الواحد بروايته عن باقي الخلق، ذهب الكل ان ذلك يدل على كذبه " (٢) .

١- عن زكي مبارك عن الاغاني في اخبار عمر في الجزء الاول ص ١٢٨ .
٢- الاحكام في اصول الاحكام للامدي ج ٢ ص ٤١ .

ثم يزيد في نفس الموضوع :

" لان الله تعالى قد ركز في طباع الخلق من توفير الدواعي على نقل ما علموه ،
" والتحدث بما عرفوه ، حتى ان العادة لتحيل كتمان ما لا يؤبه له مما جرى من صغار
" الامور على الجمع القليل فكيف على الجمع الكثير ؟ " (١) .

٢ ــ ملاحظة شخصية وهو ان سكينة التي شهدت مأساة كربلاء التي لم يذكر التاريخ فاجعة تفيض بالاسى والحزن والالم المرير مثل تلك المأساة ، ثم انه قتل فيها ابوها الحسين ، واخوتها ، وسباها الامويون واذلوها .

فاني اعتقد ، ان هذا المانع الشخصي لسكينة او غيرها من النساء ، لا يسمح لها ان تمارس ، ما نسب اليها .

٣ ــ اخوها الامام زين العابدين علي بن الحسين ، الذي كان نافذ الكلمة في الهاشميين ، هل يعقل ان يسمح لاخته بان تمارس هذا اللون من النشاط ؟ فتجمع المطربات والمغنيات من الجواري في بيتها وتحضر لهن عمر بن ابي ربيعة ؟ ! .

اعتقد ان هذا مانع عائلي ، يمنع سكينة من ان تمارس مثل هذه الاعمال .

٤ ــ ان هذه الاحداث يفترض انها وقعت في المدينة ، ونحن نعرف صرامة اهل المدينة وتمسكهم بالدين في جميع مظاهره ولا يسمحون بممارسة هذا اللون من النشاط ، ولذا فاننا نشك حتى فيما ينسب الى غير سكينة في ذلك العصر وفي ذلك المكان . ونرجح ان اكثر من وضع مثل هذه الاخبار ، هم عملاء العباسيين ، وذلك ليبرروا مفاسدهم في بغداد .

---

١ ــ الاحكام في اصول الاحكام للآمدي ج ٢ ص ٤١ .

فهذا مانع زماني اذا صح التعبير ، حتى في عصرنا الحاضر هناك الكثير من العائلات المحافظة والمتمسكة بدينها اقل بكثير من اهل البيت ، مع فارق العصر ، ولا يسمحون لبناتهم ان يمارسن اقل مما روى عن سكينة بنت الامام الحسين ، الذى استشهد في سبيل الدين ، ومن اجل نصرته واعلاء ذكره ، وبقائه كما اراده ابوه وكما اراده جده (ص) .

٥ - الاحداث التي رواها ابن بكار يدعي انها حدثت في مدينة رسول الله (ص) .

وادعاؤه هذا شبيه بادعاء من قال : ان امام المسجد شرب الخمر امام المصلين في المسجد ؟ .

١٣ - ألا يشتمل على افراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير ، او المبالغة بالوعيد الشديد على الامر الحقير .

وقد اكثر القصاص من مثل هذا النوع ترقيقا لقلوب الناس واثارة لتعجبهم مثل : " من صلى الضحى كذا وكذا ركعة اعطي ثواب سبعين نبيا " (١) .

ومثل : " من قال لا اله الا الله خلق الله تعالى له طائرا له سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف لغة يستغفرون له " .

اما الخلود في جنات تجرى من تحتها الانهار ، في رفقة الاف من الحور العين لفعل مندوب او ترك مكروه (٢) .

او الخلود في جهنم مع مقت الله وغضبه لترك مندوب او فعل مكروه .

---

١ - التدريب ص ٩٩ .

٢ - علوم الحديث لصبحي الصالح ص ٢٦٥ عن لقط الدرر ص ٨٣ وانظر ايضا المنار ص ١٩ فيه كثير مثل هذا .

كمثل ما حدثنا عنه ابن قتيبة قال : " من سرق حبة خردل ، ثم مات غير
" تائب من ذلك ، فهو خالد في النار ، مخلد ابدا ، مع اليهود والنصارى "(١) .

روى هذا الحديث في مجال القول عن التناقض والخلل ، من اهل الكلام والقياس
واهل النظر . وقد علق عليه ابن قتيبة منتقدا :

" لقد وسع الله تعالى للمسلم ان يأكل من مال صديقه ، وهو لا يعلم .
" ووسع لداخل الحائط (٢) ان يأكل من ثمره ، ولا يحمل .

ووسع لابن السبيل - اذا مر في سفره بغنم وهو عطشان - ان يصيب من
" رسلها (٣) فكيف يعذب من اخذ حبة من خردل ، لا قدر لها ، ويخلده في النار
" ابدا ؟ .

واي ذنب هو اخذ حبة من خردل ، حتى يكون منه توبة ، او يقع فيه اصرار (٤)
وقد يأخذ الرجل الخلال من حطب اخيه ، والمدر من مدره ، ويشرب الماء من حوضه ،
وهذا اعظم قدرا من الحبة .

وامثال هذه المجازفات الباردة التي لايخلو حال واضعها من احد امرين :
اما ان يكون في غاية الجهل والحمق . واما ان يكون زنديقا قصد التنقيص بالرسول
الكريم صلى الله عليه وسلم (٥) .

والى جانب هذه القواعد ، التي لاتكفي وحدها - تتكون عند اكثر العلماء ملكة
خاصة ، نتيجة لدراستهم حديث رسول الله (ص) وحفظه ومقارنة طرقه فيحصل لديهم قوة
ومعرفة - لكثرة ممارستهم هذا - ما هو من كلام الصادق المصدوق وما ليس من كلامه ،

١- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٤٦ .
٢- الحائط : اى البستان .
٣- رسلها : اى لبنها .
٤- لعله اراد : اضرار .
٥- المنار لابن قيم الجوزية ص١٩ .

وفي هذا يقول ابن الجوزي : " الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب (١) ".

ويقول الربيع بن ختيم التابعي الجليل - احد اصحاب ابن مسعود : " ان من الحديث حديثا له ضوء كضوء النهار نعرفه بـه ، وان من الحديث حديثا له ظلمـة كظلمة الليل نعرفه بها " (٢) .

١٤ - الا يكون ساقطا عنه بعض الكلمات اينما كانت :

قالوا في التشبيه: " رويتم عن النبي صلى الله عليـه وسلم ان الله عز وجل ، خلق آدم على صورته (٣) .

والله تبارك وتعالى - يجلّ عن ان يكون له صورة ، او مثال . الا ترى ان اللـه تعالى يقول في وصفه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (الشورى الآية ١١) .

ومما يروى عن سبب هذا الحديث : ان رجلين من اصحاب النبي تسابا عنده فقال احدهما لصاحبه : قبح الله وجهك ووجه من يشبهك . فقال النبـي (ص) "لا تقل هذا فان الله خلق آدم على صورته ".

تراهم ينقلون ذيل الحديث ويفسرون ان الانسان على صورة اللـه كما جاء في التوراة " ان الله جل وعز ، لما خلق السماء والارض قال : نخلق بشرا بصورتنا فخلق آدم من أدمة الارض ، ونفخ في وجهه نسمة الحياة (٤) .

١- الباعث الحثيث ص ٩٠ .

٢- معرفة علوم الحديث ص ٦٢ والمحدث الفاضل ص ٦٣ كما ذكر الربيع بن ختيم في بعض المصادر (خيثم) كما في كتاب (الجمع بين رجال الصحيحين)ج ١ ص ١٣٤ والصواب (ختيم) كما في طبقات ابن سعد ج ٦ ص ١٢٧ .

٣- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢١٧ .

٤- المصدر نفسه ص ٢٢١ والادمة بفتحتين بمعنى باطن الارض .

والمعنى المقصود من هذا الحديث ان الله خلق آدم الاول وبنيه على صورة هذا الانسان الذى تسبه، فسبابك يرجع الى كل نوع بني الانسان (١) .

وحديث آخر يشبه الحديث الذى ذكرنا وهو :

" ان الارض على قرني ثور (٢) وزاد آخرون كلما حرك الثور قرنيه تحركت الارض واهتزت " .

وحقيقة هذا الحديث ان رجلا مزارعا جاء الامام الصادق سائلا : ان لي ثورين " ازرع بهما الارض وانا شيخ كبير اريد بيعهما لانعزل لعبادة ربي واعيش بثمنهما . " قال عليه السلام : لا تفعل فان الارض على قرني الثور . وهذا يعني ان زراعة الارض " مربوطة بقرني الثور . ولا ان الثور يحمل الكرة الارضية ! .

١ـ معاني الاخبار لمحمد بن علي بن الحسين المسمى ببابويه القمي المعروف بالصدوق .

٢ـ وسائل الشيعة باب المزارعة .

الفصـــل الثانـــــي : المعالجـــة النقديـــة

لقد سبق وذكرنا في منهج البحث عن المصادر وما لها من أهمية لدى المؤلف ثم ما يرافقها من مشاكل في كل بحث علمـــــي .

كما ذكرنا ايضا "النقل الشفهي وطرقه ثم النقل الكتابي وما يرافقه من علـل على الناقـل ان يتفاداها ويحذرهـــا .

ولا بد بعد ذكر العنصرين السابقين من التعرض للوضع والسرقات التي دست اين فـــي المتن او السند واسدلت ستارا "على الحقيقة يزيده كثافة كلما ابتعدنا زمنيا "عن الهدف المنشود .

المصادر واهميتهـــا :

اذا نظرنا نظرة تقيمية الى منزلة العلماء والادباء الذين ترجم لهم ، يظهـــر لنا جليا "التمييز بين التأليف العلمي الرفيـــع (او شبه العلمي الرفيع) ، وبين التأليف لعامة الناس . والواقع ان عامة العلماء المسلمين ، كانوا يشعرون بهذا التفاوت فـــي النشاط الفكري الموجه للعلماء المفكرين ولعامة الناس .

وكلما كان الكتاب علميـا "يستهدف جماعة العلماء ، كانت عناية المؤلف بذكـــر مصادره ومراجعه ادق واشمل مما لو كان كتابا "لعامة الناس .

والادب الكلاسيكي والعصري كان ولا يزال يتأثر من حيث الجودة والاتقـان بمثـل هذه الاعتبارات .

وفي انواع الادب العربي المتنوعة ، دليل واضح على صحة ما نقوله . فالادب العربي يتراوح بين ادب المختارات ، الذي يقصد المؤلف به تسلية الناس والترفيه عنهم ، وبين الادب الذي يتناول بالبحث والدرس امورا مواضيع "فنية عالية . وفي كلا النوعين من الادب العربي يتراوح الدقة والامانة ، في الاشارة الى المصادر التي اخذ عنها المؤلف ، بين الكسل والاستخفاف ، وبين الاهتمام والدأب المضني .

اما التأليف الطبي ، فقد كان اصحابه في غنى عن ذكر مصادرهم التي اخذوا عنها لشعورهم انهم يدونون من الامور الطبية ما قد اصبح حقائق علمية معروفة .

واني اعتقد ان مثل هذا يصدق ايضا "على التأليف في سائر العلـوم الطبيعيـة .

اما في التأليف الفلسفي ، فلم يكن هناك من حاجة الى دقة متناهية في دعم مختلف النظريات ، بذكر المصادر والمراجع . واذا حصل بعض القصور كما يتطلب الاسلوب العلمي فان المؤلف يعتذر الى القارئ " موضحا " الاسباب والظروف .

كما روى الجوزجاني عن ابن سينا عندما الف "كتاب الشفاء " ولم يستطع ان يذكر بدقة وامانة مصادره التي اخذ عنها . وذلك انه عندما جاء الجوزجاني الى ابن سينا يطلب اليه تأليف شروح او تعاليق على مؤلفات ارسطو ، اجابه : ان ليس لديه من الوقت متسع للقيام بعمل خطير كهذا ، يقول :

ولكن ان رضيت مني بتصنيف كتاب اورد فيه ما صح من هذه العلوم ، بلا مناظرة مع المخالفين ، ولا اشتغال بالرد عليهم ، فعلت ذلك ، فرضيت (١) .

وكذلك اصحاب التأليف الديني ، فانهم كانوا يكتفون بذكر المصادر الرئيسية ، التي يأخذون عنها مرة بعد اخرى . غير ان اثر علم الحديث الذى يستند على صحة علم الاسناد وعلم الفقه ايضا ، كان لهما اثر ظاهر في اسلوب التأليف عن سائر العلماء . وعندنا شاهد على ذلك فيما يقوله مؤلف مسلم ، من رجال القرن التاسع عشر ، كتب سيرة النبي " محمد " بدافع الشعور الديني .

غير ان المؤلف شكا من كثرة " المباحث " والاستشارات والاختلافات بين " سيرة " واخرى (٢) .

ان علماء الحديث والفقه كانوا يستندون في الدرجة الاولى على الدقة والامانة في ذكر المصدر المأخوذ عنه ، لان الاسانيد هي جزء من مادة البحث ، وكل علم آخر ، له علاقة بهذين العلمين ، الحديث والفقه ، تأثر الى حد بعيد بالاسلوب المتبع في درسهما ومعالجتهما . مثال ذلك : كتب التراجم ، التي نشأت بدافع تدعيم علمي الحديث والفقه ، او لتكون في عون المحدث والفقيه فان اصحابها كانوا يعنون عناية خاصة بذكر المصادر التي يأخذون عنها .

ويأسف الذهبي في تاريخه " تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام " لان النشاط الادبي والتأليفي في الاسلام ، بدأ في عصر متأخر ، ولذلك لم تتوفر لنا جميع المعلومات عن المسلمين الاوائل ، وما جاءنا منها جاء مبتورا ناقصا (٣)

وقد كانت معرفة العصر الذى عاش فيه محدث ما ، من الاهمية في علم الحديث جعلت العلماء يتركون في مصنفاتهم فراغا " ليدونوا فيما بعد زمن وفاة المحدث اذا كان لا يزال حيا " عندما كان المؤلف يكتب كتابه .

وهذا مما دعا الذهبي يقـــول :

---

(١) ابن ابي صبيحة ، ج ٢ ص ٥ وما يليها
(٢) السيرة احمد دحلان ج ١ ص ٢
(٣) السخاوي في الاعلان ص ١٦٠

اذا قرأ الحديث علي شخـــص   واخلى موضعا لوفاة مثلـــي
فما جاز باحسان لانـــــــــي   أريد حياته ويريد قتلـــي (١)

وعندما سئل عبد اللطيف بن القاهر السهروردى (توفي ١٢١٣) عن تاريخ مولده ، لم يجب عن السؤال برحابة صدر ، بل قال غاضبا : "ما ادرى ايش مقصود اهل الحديث ، يسألون الانسان عن مولده وكانهم يتهمونه (بانه يزور الاحاديث وينقلها عن لسان اناس لا يمكن ان يكون قد سمع عنهم ، وذلك للتفاوت في الزمن بينه وبينهم) (٢)

غير انه يمكن ان يكون هنالك اعتبارات اخرى لاخفاء المرء تاريخ ولادته فان محمد بن عبد الباقي الانصاري (توفي ١١٤٠) كان يقول اذا سئل عن تاريخ ولادته : "اقبلوا علـــى شأنكم . لا ينبغي لاحد ان يخبر عن مولده ، ان كان صغيرا يستحقرونه ، وان كان كبيـــرا يستهرمونـــه " (٣)

ولكن على مر الزمن ازدادت المصادر الادبية ازديادا "عظيما " ، وكذلك بعدت شقة الزمن بين العالم وبين المصدر الذى يأخذ عنه .

ولذا كان يشعر بان الوسيلة الوحيدة ليقي نفسه من سهام المنتقدين كانت ان يذكر المصدرَ الذى اخذ عنه بكل دقة وامانـــــة .

وبهذه الامانة العلمية استطاع السيوطي (توفي ١٥٠٥) ان يقول بكل ارتياح انـــه ليس في جميع مؤلفاته الكثيرة خبرا او رواية أو رأى ، لم يدعمه بالاستشهاد . (٤) والمؤلفون الذين يحرصون على ذكر مصادرهم ، يشعرون بانهم قاموا بما عليهم ، لان العهدة في صحـــة الخبر اوكذبه تقع الان على كاهل صاحب المصدر .

وقد طبق المقريزى هذه الدقة في اخذه من الاصول مشيرا "الى المصادر الثلاثـــة التي رجع اليها عند تأليفه "خطط مصر" فقال : هي :

اولا : ـ المصنفات الادبيـــــة .

ثانيا : ـ المعلومات التي استطاع جمعها من اساتذته ومعاصريه من العلمـــــاء .

---

(١) ذكر هذه الابيات السخاوى : الاعلان ص ١٦٩ والصفدى : نكت : ص ٢٤٣

(٢) ابن حجر : لسان ج ٤ ص ٥٤ ، راجع ايضا "السخاوى : اعلان ص ١١ وما يليها

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٦٧ (طبعة القاهرة)

(٤) السيوطي المزهر ج ٢ ص ١٦٥

ثالثا : - المعلومات المبنية على اختباره وعلى مشاهداتـــه (١)

وعن كلامه عن اسلوبه التاريخي المتبع يقول : "واما الرواية عمن ادركت من الجلـــة العلماء والمشايخ ، فاني في الغالب واكثر اصرح باسم من حدثني الا ان لا يحتاج الى تعبيينه او اكون قد انسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك (١)

اما ما شاهدته فاني ارجو ان اكون ، ولله الحمد ، غير متهم ولا ظنين . اما المؤرخ الذى يفوته ذكر المصادر التي اخذ عن بعضها ، فانه لا شك يتعرض الى نقد شديـــــد .

النقـــــــل

كان العلماء المسلمون يشددون على ضرورة الامانة والدقة في النقل ، ففي كتاب مقدمة "معجم البلدان " لابن ياقوت يقول المؤلف عن نفسه . "انه كان ينقل عن المصــادر بكل دقة وامانة ، وسواء اكان المنقول حقا (او باطلا) فان الصدق في ايراده ، كما يقــول ياقوت ، له اهمية في البحث العلمي عند العلماء ، لانه ييسر للطالب اطلاعه على اراء اهل الخبرة في ذلك العلـــم (٢) .

وللعالم ان يؤثر مصدرا على غيره من المصادر ، وعندما تناقض ترجمة رجل ما في مؤلف ترجمة اخرى في مؤلف آخر ، فان المصدر الاخير يجب ان لا يعتبر خطأ تاريخيا لا قيمة لـــــه بل بالاحرى يجدر بالعالم ان يذكر الروايتيـــن (٣) اما النقل من الذاكرة فلم يكن يعتبـــــر نقلا "دقيقا " .

واليك ما يقوله الصولي عن قيمة ذكرياته عن الخليفة الراضي : "٠٠ وما حكيت ألفاظه التي سرت ، وما احكيه من كلامه بعد ، فهو كما احكيه او شبهه او مقاربه ، اذ كنت لا اقدر ان احفظ لفظه على حروفه وانا احفظ معناه (٤) .

اما الروايات الشفوية التي كانت تدون فيما بعد في التأليف ، بالرغم من انها كانت لا تحتوى على جميع الكلمات التي وردت في الاصل ، وبالرغم من انها كانت تختلف قليلا "عن اسلوب العبارة الاصيلة ، يقول عنها ابو حاتم الرازى : "انها احتفظت بالمعنى المقصود بكل دقة وامانة (٥)

وقد روى القفطي ، من ذاكرته ، بعض الامور التي ذكرها ابن سينا عن ابن مسكويه .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٤
(٢) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٩
(٣) ياقوت ارشاد ج ٥ ص ٢١٥
(٤) الصولي اخبار الراضي والمتقي ص ١٨
(٥) ابو حاتم الرازى كتاب اعلام النبوة ، في الرازى .

ليس بالالفاظ والعبارات التي استعملها ابن سينا . يقول القفطي : .. " هذا معنى ما ابن سينا ، لاني كتبتُ الحكاية من حفظي " (١) اما البيروني فيقول صراحةً انه نسيَ در الذى نقل عنه نصاً "عن نظرية الهنود في دورة السنين (٢)

وكان يجوز للمؤلف ان يختصِرَ نصَّ خبرٍ ينقله ، او ان يضيفَ اليه بعضَ ملاحظاته حسبما . فان صاحبَ الفهرست ادخلَ في كتابه موجزا لرسالة عن الاديان القديمة المنزلة ، ضيفا اليها من القرآن الكريم والحديث الشريف ، ما يقابلها او له علاقة بها . (٣)

اما ياقوت فقد جمع بين روايتين مختلفتين عما دار من حديث بين الشافعي وابن راهويه ، وذلك باختصار . ولكنه ذكر مصدر كل رواية من الروايتين . (٤) وبما انه كان يعتبر يتيمة الدهر للثعالبي افضلَ مَصْدَرٍ لترجمة حياة بديع الزمان الهمداني ، فانه أثبتها في كتابه "الارشاد" ولكنه اغفل ذِكْرَ الاشعار الواردة في الثعالبي . (٥)

الوضع والسرقات :

كان الجاحظ يعرفُ كثيرا عن عادة الوضع والسرقات الادبية الفاشية في عصره ، لان معرفته كانت تقوم على اختبارات شخصية .

كان الجاحظ يزعم ان النقاد الحسودين كانو يسرون بتشويه احسن مؤلفاته ، وخاصة عندما يكون الكتاب مهدى الى شخصية مرموقة يتوقع صاحب الكتاب جزاء ماديا كبيرا اذا حاز لديه قَبولا . وانهم كانوا يسرقون من مادة الكتاب ، ويجعلون من سرقاتهم هذه مادة لكتب يدعون انها من تصنيفهم ، ويهدونها الى شخصية كبيرة اخرى .

وبما ان الجاحظ لم يكن يرغب في ان يرى مؤلفاته تقع فريسة حساده ، وبما انه لم يكن ليتخلى عن هذه المؤلفات ليدعيها الآخرون ، فانه كان يصرح بانه كان ينشر مؤلفاته بتوقيع مستعار مما اكسبها شهرة ورواجا (٦) وليس يستغرب ان نجد بعض المؤلفين الذين يسعون وراء الشهرة يغفلون ذكر اسمائهم وينتحلون ذكر اسماء ادباء مشهورين ، يوقعون بها مؤلفاتهم .

وقد يكون هناك اسباب اخرى غير الحسد الذى اشار اليه الجاحظ منها ان المؤلف الناشيء يعمد الى ذكر اسماء كتب وتعمير مكتبة بها على سبيل الفخر ، ان مثل هؤلاء الكتاب الكبار يقتني كتبهم الشهيرة .

---

(١) القفطي ص ٣٣٢
(٢) البيروني : الهند ، ص ١٧٨
(٣) ابن النديم الفهرست ص ٢١ وما يليها
(٤) ياقوت ارشاد ج ٦ ص ٣٧٦
(٥) ياقوت ارشاد ج ١ ص ٥٩
(٦) الجاحظ فصل ما بين العداوة والحسد في مجموعة رسائل الجاحظ نشر كرلوس وطه الحاجرى ١٩٤٣ ص ١٠٨ ـ ١٠٩

ومنها قد يحدث ان اسم المؤلف الذى يظهر في الجزء الاول من مخطوطه ذات اجزاء اخرى تعالج مواضيع مختلفة يعتبر خطأ اسم المؤلف لجميع تلك الاجزاء . ويبدو ايضا "في تاريخ الادب العربي ان كتبا " بجملتها او قصائد كاملة تنتحل ، وذلك بتغيير الاسم ، فيحل اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقي . والانتحال والوضع في الشعر الجاهلي اكثر من ان يحصى ويعد ، وقد دار حولها دراسات مطولة ، وانقسم الناس الى منازع وموال . ومنهم من عارض بشدة وانتقد مجرحا " كما حدث لطه حسين عندما اصدر مؤلفه : "في الشعر الجاهلي " ثم عدله فيما بعد مراعاة للوضع الذى يعيش فيه .

من آداب النقل وضبطه وتقييده :

جاء عن العلموى في ادب المفيد والمستفيد انه :

" لا يهتم المشتغل بالمبالغة في حسن الخط ، وانما يهتم بصحته وتصحيحه ويتجنب التعليق جدا ، وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقها ، والمشق وهو سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف ، قال عمر رضي الله عنه : شَرُّ الكتابةِ المَشْقُ وشَرُّ القراءة الهَذْرَمَةُ ، وأَجْوَدُ الخط أَبْيَنُهُ ، ولا يكتب الكتابة الدقيقة لانه ربما لم ينتفع به وقت حاجة الانتفاع به من كِبَرٍ وضَعْفِ بصر ، ثم محله فيمن عجز عن ثمن ورق او حمله في سفر فيكون معه خفيف المحمل فلا كراهة في ذلك ولا منع للعذر "كما اضاف ايضا "ادوات الكتابة والورق والحبر ... " والكتابة بالحبر اولى من المداد ، وينبغي ان لا يكون القلم صلبا "جدا " فيمنع سرعة الجرى ، ولا رخوا فيسرع اليه الحفى . قال بعضهم : اذا اردت ان تُجَوِّدَ خَطَّكَ فَأَطِلْ جِلْفَتَكَ واسمنها ، وحَرِّف قطتك وايمنها ، ولتكن السكين حادة جدا " لبراية الاقلام وكشط الورق ، ولا تستعمل في غير ذلك وليكن ما يقطع عليه القلم صلبا وهم يحمدون القصب الفارسي اليابس جدا ، والابنوس الصلب الصقيل . (١)

من هنا يظهر مدى اهتمام العرب بالدقة والعناية البالغة في العلوم الدينية وخاصة الحديث ، حتى انهم دققوا في صيغة العبارة بالذات فقالوا مثلا : "من المكروه ان تفصل مضاف اسم الله تعالى منه كعبد الله اوعبد الرحمن اورسول الله ، فلا يكتب عبد او رسول آخر السطر والله او الرحمن او رسول اول السطر الآخر وذلك تقبح صورة الكتابة (٢) .

---

(١) المعيد في ادب المفيد والمستفيد للعلموى ص ١٣٢

(٢) المصدر نفسه .

وهذه الكراهة للتنزيـــــه .

قال العراقي في اسماء النبي (ص) واسماء الصحابة (رضي) كقوله : ساب النبي (ص) كافر وكقوله : قاتل ابن صفيه في النار (يعني الزبير بن العوام) فلا يكتب ساب او قاتل في آخر السطر وما بعده في اول السطر الآخر ، فهو قبيح جدا في صورة الكتابة (١)

كما كرهوا فصل احد عشر ونحوها لكونهما بمنزلة اسم واحد ، وكرهوا تبعيض الكلمة المركبة تركيبا "مزجيا" او نافيا" ونحو ذلك .

ونقطة هامة اخرى تعترى من اراد النقل الا وهي مقابلة كتابة باصل صحيح موثوق به ، فالمقابلة متعينة للكتاب الذى يرام النفع به .

قال عروة بن الزبير لابنه هشام رضي الله عنهم : كَتَبْتَ ؟ قال نعم فقال عَرَضْتَ كتابَـكَ ؟ اى على اصل صحيح قال : لا قال : لم تكتب . " (٢)

" وقال الامام الشافعي ويحي بن ابي كثير : من كتب ولم يعارض اى لم يقابل كمن دخل الخلاء ولم يستنج ، واذا صح الكتاب بالمقابلة على اصل صحيح اوعلى شيخ فينبغي ان يعجم المعجم ، ويشكل الشكل ، ويضبط الملتبس ، ويتفقد مواضع التصحيف . اما ما يفهم بلا نقـط ولا شكل ، فلا يعتن به لعدم الفائدة . فان اهلَ العلم يكرهون الإعجامَ والإعرابَ الا فـــي الملتبس والمشتبه . (٣)

ومن كلام بعض البلغاء : اعجام الخط يمنع من استعجامه ، وشكله من إشكاله ، وقال بعضُهم : ربَّ علمٍ لم تُعْجَم فصوله فاستعجم محصوله ، وقيل :

" ينبغي الاعجام الشكل للمكتوب كله المشكل وغيره ، لاجل المبتدئ في ذلك الفن (٤) وقد صوبه القاضي عياض ، لان المبتدئ لا يميز ما يشكل مما لا يشكل ، ولا صواب الاعراب مـن خطائه ، ولان ربما يكون الشيء واضحا "عند قوم مشكلا" عند آخريـن ، بل ربما يظن لبراعة المشكل واضحا " ثم قد يشكل عليه بعد . وربما وقع النزاع في حكم مستنبط من حديث يكون متوقفا على اعرابه ، كحديث ذكاة الجنين ذكاة امه . وقد ورد تفصيل هذا الحديث في فصل التحريف .

اذا وقع في الكتاب زيادة او كتب شيء على غير وجهه تخير فيه بين ثلاثة امور :

الاول : الكشط ويعبر عنه القاضي عياض بالحك ، الثاني : المحو ، الثالث : الضرب عليه وهو اجود من الكشط والمحو لا سيما في كتب الحديث .

---

(١) المعيد للعلموى ص ١٣٤

(٢) المعيد في ادب المفيد والمستفيد للعلموى ص ١٣٤ _ ١٣٥

(٣) المصدر نفسه

(٤) المصدر نفسه

وعن بعضهم كان الشيوخ يكرهون حضور السكين مجلس السماع ، لان الروايات مختلفة فعسى ان يحك شيئا يكون صحيحا "فيحتاج الى اثباته ثانيا " .

وفي كيفية الضرب خمسة اقوال مشهورة :

١ ـ ان يصل بالحروف المضروب عليها ويخلق لها خطا ممتدا "

٢ ـ ان يجعل الخط فوق الحروف منفصلا "عنها منعطفا " طرفاه على اول المبطل وآخره كالباء المقلوبة ومثاله هكذا .

٣ ـ ان يكتب لفظة (لا) او لفظة (من) فوق اوله ولفظة (الى) فوق آخره ومعناه من هنا ساقط الى هنا .

٤ ـ ان يكتب في اول الكلام المبطل وفي آخره نصف دائرة ومثاله هكذا .

٥ ـ ان يكتب في اول المبطل وفي آخره صفرا ، "وهو دائرة صغيرة سميت بذلك لخلو ما اشير اليه بها من الصحة ، كتسمية الحساب لها بذلك لخلو موضعها من عدد ، ومثاله هكذا (٥) واذا تكررت كلمة او اكثر سهوا ضرب على الثانية لوقوع الاولى صوابا "في موضعها الا اذا كانت الثانية اجود وادل على القراءة . (١) نلاحظ تلك الدقة المتناهية في طرق النقل وتلك المحاذير التي نبهوا عليها واعتمدوها وهي تصلح ان نستعملها نحن اليوم ان اردنا .

اصول في النقد :

نرى لزاما "في اعناق الباحثين في علوم الرواية ، التفرغ للبحث ، والتفتيش عن شتى الآثار التي تخلفت عن السلف ، والتي اصطلح على تسميتها أصولا " . فأذا ضاعت الاصول ضاعت الرواية معها ، ذلك ان التاريخ المروى على لسان الرواة ، والذى حفظ في صدورهم قبل ان يروى فترة من الزمن ، لا يقوم الا على الاثار التي خلفتها عقول السلف ، ثم سجلتها ايديهم ، وانتقلت من الصدور الى السطور .

فاذا صحت هذه القاعدة العامة ـ اذا ضاعت الاصول ضاعت الرواية ، لزم على الباحث في علم الرواية ان يبدأ عمله بجمع الاصول (او التقميش) وهي لعمرى حقيقة اساسية لازمة عرفها علماء الحديث قرونا "عديدة وعملوا بها قبل ان يدرك فائدتها وينوه بصحتها ويحبذ العمل بها المؤرخون الحديثون . قال المحدث الشهير ابو حاتم الرازى . (٢) من اعيان القرن الثالث الهجرى "اذا كتبت فقمش واذا حدثت ففتش" (٣)

---

(١) المعيد في ادب المفيد والمستفيد للعلموى ص ١٢٧ والماع الالماع ص ١٧٠

(٢) محمد بن ادريس المولود في الرى والمتوفي سنة ٢٧٧ وهو صاحب كتاب طبقات التابعين .

(٣) مقدمة ابن الصلاح ص ٢١١

فالمرحلة الاولى من مراحل البحث هي ما يسمى بمرحلة (التقميش) ولا شك ان الرازى المحدث له فضل يذكر على علماء التاريخ الذين اتبعوا فيما بعد خطواته المشكورة .

وبعد التقميش ، هل نكتفي بكمية معينة من جمع تلك الاصول او نجمعها كُلَّها ؟ ما اعتقده ان الحقيقة لا تتجزأ وهي وحدة كاملة شاملة .

ونعود الى علماء الحديث الذين نوهوا بهذه القاعدة قبل علماء التاريخ بقرون . قال الامام الحافظ : ففي الديار الشامية وشيخ الاسلام الشيخ تقي الدين الشهرزوري في مقدمته المشهورة ، وبمناسبة الكلام في معرفة آداب طالب الحديث :

" ليكتب وليسمع ما يقع اليه من كتاب او جزء على التمام وينتخب . فقد قال ابن المبارك رضي الله عنه : ما انتخبت على عالم قط ولا ندمت . وروينا عنه انه قال لا تنتخب على عالم الا بذنب . وروينا او بلغنا عن يحيى بن معين انه قال : سيندم المنتخب في الحديث حين لا تنفعه الندامة . " (١)

المرحلة الثانية

العلوم الموصلة

للوصول الى الحقيقة لا بد للعالم الباحث في اصول الرواية ان يُقَلِّبَ ما قَمَّشَه ، ويُنْعِمَ النظر فيه ، ليرى اذا كان بأمكانه ان يُدْرِكَ كنهه . وهذا ما نسميه بالعلوم الموصلة والاستعارة في هذه التسمية هي من (علم التفسير) .

فقد اجمع المفسرون على وجوب التمكن من العلوم الموصلة الى علم التفسير قبل الشروع في قراءة القرآن الكريم ، وبيان معانيه ، واستخراج حكمه واحكامه . والعلوم الموصلة في عرف المفسرين الى علم التفسير هي :

علم اللغة وعلم النحو وعلم التصريف وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع وعلم القراآت واسباب النزول ، واحكام الناسخ والمنسوخ ، واخبار اهل الكتاب وعلم اصول الفقه وعلم الجدل . وان كل هذه العلوم هي ضرورية للراغب في تعلم القرآن ، وبالتالي هي اكثر ضرورة للباحث في علم الحديث . لان السنة الشريفة ما هي الا توضيح وتفصيل للخطوط العريضة التي اتى بها القرآن الكريم . فمن اراد ان يَدْرُسَها وَيَفْهَمَها ، لا بد له من دراسة وفهم الينبوع الاصيل لها ليستطيعَ بذلك من طرح كل ما يتعارض مع القرآن الكريم ومحكم أصول السنة .

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٢١٢

والحكم النهائي للنقد لا يأتي الا بعد فهم الاصل ، ومن ثم فهم المواضيع المقارنة به ، ندرس فنفهم ، فنقارن ، فنميز ، فنحكم ، وبهذه الخطوة الثانية كان لعلماء الدين فضل الاسبقية على علماء التاريخ .

وهناك طائفة اخرى من العلوم الموصلة ، علينا ان نقف عليها ونسترشد بنظرياتها ونواميسها كي نفهم الماضي . فلا بد للباحث العصرى في علم الحديث ، من التبحر في العلوم الاجتماعية والفلسفية ، اذا ما اردنا النظر الى باطن المجتمع الماضي . وذلك لنتوصل الى العوامل الاساسية التي اثرت في عقول السلف ، ودفعتهم لرواية ما رووا . وان كل حادث مضى ، انما هو مظهر لقوى شتى اجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية وغير ذلك . ولذا نرى محتما على الباحث في هذا العلم ، اذا ما اراد فهم حقيقة الماضي ان يحيط علما بهذه القوى وان يطلع على نتائج ما اعطته قرائح العلماء في كل ما يرتبط بهذا العلم .

المرحلة الثالثة

- وهذه المرحلة مهمة جدا وهي تبحث في :

نقد العلوم الموصلة التي اعتبرناها اصولا

بعد جمع الاصول في الرواية ، علينا ان نتريث قليلا في مطالعتها لاستخراج المهم منها ، لان من الممكن ان يكون قد وضع في بعضها خصيصا للمغالطة والتضليل ، فعلينا والحالة هذه التثبت من خلوها من كل دس او وضع .

ولا يخفى ان التثبت من صحة الاصول امر صعب الممارسة عزيز المنال . ومن الضرورى الحذر الى الاستسلام بالثقة العمياء ، فنقنع بكل ما روى ، ونصدق كل ما يقرأ . (١)

وهذا ما اعتنى به علماء الحديث عناية فائقة ، فقاوموا الاحاديث الموضوعة بجهود جبارة مشكورة ، فالفوا في الموضوعات ووضعوا اصولا لها ان في سند الحديث او في متنه ، وسوف نتحدث عنها بتفصيل دقيق . نذكر منهم العلامة السلفي الامام ابا الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى القرشي ٥١٠ هـ - ٥٩٧ هـ .

التعرف الى الراوى وتعيين الزمان والمكان

وبعد التثبت من الاصول ، وخلوها من كل دس وتزوير ، فهل نأخذ بما حصلنا عليه ام انه يجب التعرف الى شخصية الراوى ؟

وجدنا لزاما علينا كما حدثنا علماء الحديث - انه يجب درس المكان الذى عاش فيه الراوى والزمان الذى دون فيه اخباره .

اوليس من فرق في قبول الرواية وردها ، بين رجل سياسي مرموق ، تمرس بالسياسة وعانى

١- انظر مصطلح علم التاريخ للدكتور اسد رستم ص ١٢

مشاكلها ، وبين حلاق او لحام يروى عن الاعمال نفسها ؟

أو ليس من فرق ايضا " بين رواية دونت في اثناء الحوادث المروية ، وغيرها دونت بعد وقوع الحادث باعوام او قرون . ؟

بلى هناك فرق كبير ومن المحتم التعرف الى شخصية الراوى ، والتثبت من ميوله ونزعاته ودرجة علمه وذكائه ، واتصاله بالاخبار التي يرويها ، والزمن الذى كتبت فيه هذه الاخبار ، والمكان الذى سطرت فيه .

ولنتصور ان أحداً منا جَرَّبَ ان يُدَوِّنَ الآن عن الحركة التي حدثت في لبنان عام ١٩٥٨ ، كم ينسى وكم يذر من المعلومات الدقيقة التي توضح لنا الحقيقة لتلك الحادثة . علما " بأننا متأكدون من علم الراوى وعدله وضبطه وقوة ذاكرته وتجرده واخلاصه .

ان كل هذه الاصول وما يماثلها ، سجلها لنا القاضي عياض في كتابه " الالماع في اصول الرواية وتقييد السماع "(١) وبذلك يكون قد ساهم في وضع اصول الرواية لعلماء التاريخ ، الذين لا بد لهم من مثل هذه الاصول ، حتى عصرنا الحاضر .

واني ارى ان مهمتنا من هذا القبيل هي اصعب بدرجات من مهمة القضاة والمحامين ، اذ ان هؤلاء يتحدثون الى من ينقل الخبر اليهم ويمتحنونه بالاستنطاق فهو مخبرٌ حيٌ ماثلٌ امامهم . اما مخبرنا نحن فأنه ميت شُغِرَ مكانه وطُوِيَتْ صَفْحَتُهُ .

تحرى النص والمجيء باللفظ

وهذه مأثرة اخرى من مآثر علماء الحديث فأنهم قالوا بالامانة في نقل الحديث وفرضوا وجوب تحرى النص ، لاجل الوقوف على اللفظ الاصلي . ومنهم من ابى ان يصلح الخطأ او يقوم اللحن واكتفى بابداء رأيه فقط .

" قال القاضي عياض في موضوع تحرى الرواية والمجيء باللفظ " (٢)

لا خلاف " ان على الجاهل المبتدئ ومن لم يَمْهَرْ في العلم ، ولا تقدم في معرفة تقديم الالفاظ وترتيب الجمل وفهم المعاني ، ان لا يكتب ولا يروى ولا يحكى حديثا " الا على اللفظ الذى سمعه . وانه حرام عليه التغيير بغير لفظه المسموع ، اذ جميع ما يفعله من ذلك تحكم الجهالة ، وتصرف على غير حقيقة في اصول الشريعة . والنبي (ص) حضَّ على ذلك وامر بايراد ما سمع منه كما سمع . ثم اختلف السلف وارباب الحديث والفقه والاصول ، وهل يسوغ اهل العلم

---

(١) الالماع للقاضي عياض ، الباب ١٤ ص ١٧٣

(٢) ـ المصدر نفسه

فيحدثون على المعنى ، او لا يُباحُ لهم ذلك . فاجازه جمهورهم اذا كان ذلك من مشتغل بالعلم نافذ بوجوه تصرف الالفاظ والعلم بمعانيها ومقاصدها ، جامعا لمواد المعرفة بذلك . وروى عن مالك نحوه (١)

ومنعه آخرون وشددوا فيه من المحدثين والفقهاء . ولم يجيزوا ذلك لاحد ولا سوغوا الا الاتيان به على اللفظ نفسه في حديث النبي (ص) وغيره .

وروى غيره عن مالك ايضا ." وشدد مالك ايضا " الكراهة منه في حديث النبي (ص) وحمل ائمتنا هذا من مالك على استحباب كما قال : ولا يخالف احد في هذا .فان الاولى والمستحبّ المجيءُ بنفس اللفظ ما استطيع " (٢)

ومما له علاقة بالموضوع نفسه ما ورد عن هذا الامام المحدِّث العظيم نقلا في باب " اصلاح الخطأ وتقويم اللحن (٣) من رسالته الشهيرة المشار اليها - الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع " .

قال القاضي عياض: " الذى استمر عليه عمل اكثر الاشياخ نقل الرواية كما وصلت اليهم وسمعوها ، لا يغيرونها من كتبهم حتى اضطردوا ذلك في كلمات من القرآن فاستمرت الرواية في الكتب عليها بخلاف التلاوة المجمع عليها وذلك حماية للباب ولكن اهل المعرفة منهم ينبهون على خطئها عند السماع والقراءة وفي حواشي الكتب وكان اجرأهم على هذا من المتأخرين ، القاضي ابو الوليد (٤) فانه لكثرة مطالعته وتفننه في الادب واللغة واخبار الناس واسماء الرجال وانسابهم ، وثقوب فهمه وحدة ذهنه جسور على الاصلاح كثيرا " . (٥)

وربما نبه وصححه على وجه الصواب . لكنه ربما وهم وغلط في اشياء من ذلك او بما رآه في حديث آخر . وربما كان الذى اصلحه صوابا ." وربما ايضا "غلط فيه واصلح الصواب بالخطأ . وحماية باب الاصلاح والتغيير اولى ، لئلا يجسر على ذلك من لا يحسن ، ويتسلط عليه من لا يعلم . وطريق الاشياخ اسلم مع التبين بذكر اللفظ عند السماع كما وقع . وينبه عليه ويذكر وجه صوابه اما من جهة العربية او النقل او وروده كذلك في حديث آخر " (٦)

---

(١) الالماع ص ١٧٨ - ١٨٠

(٢) الالماع ص ١٨٠ وقارن الكفاية للخطيب البغدادى ص ١٧٩ والتدريب للسيوطي ج ٢ ص ١٠١

(٣) الالماع للقاضي عياض ص ١٨٥ - ١٨٦

(٤) هو هشام بن احمد بن سعيد ، يعرف بابن العواد ، من اهل قرطبة . اخذ العلم عن محمد بن فرج الفقيه وابي علي القاني . وكان من جلة الفقهاء وكبارهم وعلمائهم وخيارهم محافظا للرأى ، مقدما فيه ، بصيرا بالفتيا ، دعي الى القضاء فامتنع عن ذلك . ولد سنة ٤٠٩ هـ وهو شيخ القاضي عياض . ترجمته في ازهار الرياض ٣/ ١٦١ وتوفي ٤٥٢

(٥) انظر فتح المغيث للسخاوى ص ٢٨٨

(٦) الالماع ص ١٨٧

هذا ما توصل اليه علماء الحديث في القرون الاولى . وهو المعول عليه الآن لدى المؤرخين المعاصرين ، وقد درج عليه علماء التاريخ القدماء ، والفرق ان المؤرخين المعاصرين يعممون القول المحدثين على الحديث وغيره من النصوص التاريخية ، ويندفعون بعملهم بدافع علمي بحت ، اما المحدثون فانهم اقتصروا فيما اوردوه من هذا القبيل على الحديث الشريف ، واندفعوا في تحرى الحقيقة بعاطفة دينية قلما نجد مثلها .

بعد هذا الاعتراف الواضح بفضل علماء الحديث ، يمكننا القول ان التاريخ علم في تحريه الحقيقة وككل علم يطلب الحقيقة كما هي .

والاصول هي صلة المؤرخ الوحيدة بحوادث الماضي . فيصبح هدف المؤرخ المنقب التحقيق من هذه الصلة ومن حرفية نص الشهادة التي ينظر فيها ، ثم يروى هذه الشهادة كما صدرت عن صاحبها الاصلي ، متحريا " في ذلك درس ما يمكن ان يكون قد عرض عليها من زيادة او نقصان . ونحن اتجاه هذا الامر علينا ان نثبت الحقائق كما رواها شاهدها لا كما يجب عليه ان يرويها " وهذا يختلف تمام الاختلاف عن الفنون بأسرها أدبا "كانت أم تصويرا " .

وبأنتهاء الباحث من نقد الاصول على الوجه الذى مر معنا لينتهي النقد الخارجي ، وينتقل الباحث من ظاهر النص ومن صفات الراوى ، الى باطن الكلام وفهم المعنى ويكون عندئذ في صميم النقد الداخلي ، نقد متن الحديث ، والنقد الداخلي في مصطلح علماء الحديث على نوعين . نقد داخلي ايجابي ، ونقد داخلي سلبي ، فالايجابي يفسر النص ويظهر معناه على حقيقته ، والسلبي يكشف الستار عن غاية المحدث واهوائه ودرجة ضبطه وتدقيقه في الروايـــة .

وتفسير الحديث يكون على نوعين : اولهما تفسير ظاهر النص ، وثانيهما : ادراك غرض المؤلف ،

وبعد هذا على الباحث ان يلم اولا " بلغة الاصل الذى يدرس ويجيد فهمها كما عرفت واستعملت واستعملت في العصر الذى عاش فيه راوى الرواية . ذلك ان معاني المفردات تتغير وتتطور مع تغير البيئة وظروف معيشتها واحوالها . ودليلنا على ذلك ما قامت وتقوم به المجامـــع اللغوية في عصرنا اليوم . وقد ينجح الباحث في تفسير ظاهر النص فيتوصل الى ادراك المعنى الحقيقي ، وقد يصادف غموضا "او نقصا "او تناقضا " في المعنى اذا اكتفى بظاهر النص ووقف عنده . وقد يكون من الكلام المروى كناية او مجازا او استعارة او تشبيها او هزلا او مداعبـــة او تلميحا او تعريضا وما الى ذلك . قال ابن عبد ربه في عقده الفريد في باب الكنايـــة : والتعريض

" وقد كنى الله تعالى في كتابه عن الجماع بالملامسة وعن الحدث بالغائط ... وقال تعالى : (واضم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) فكنى عن البرص. ولنا في رسالة الفخـــر للرازى " نهاية الايجاز في دراية الاعجاز "كل ما كان يجول في عقول السلف من هذا القبيل .

---

(١) طه الآية ٢٢

في الكناية وضروبها والتجنيس وانواعه ، والسجع والتضمين والمجاز والتشبيه (١)

ولا شك ان علماء التفسير لهم في هذا الباب فضل يذكر قال شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية في رسالته في اصول التفسير (٢) وهناك نقد داخلي سلبي .

العدالة والضبط :

وهذا الوجه من النقد الداخلي يكشف الستار عن مآرب المؤلف واهوائه ودرجة تدقيقه في الرواية فيظهر لنا مقدار ما عنده من العدالة والضبط او ما ينقصه منهما . ونحن باشد الحاجة لمثل هذا النقد .

والانسان عرضة للنسيان ، فالراوي قد تخونه الذاكرة او يخلط بين حادثين ، فيضيف من بعض هذه الرواية الى الرواية الاخرى . وقد يقول احيانا "فيما لا يفهم ، او انه يقصد اشعال نار الفتنة ، او يتعمد الكذب ارضاء لنزعة في نفسه ، او ارضاء لسلطان .

فلابد لنا من طرح اسئلة عديدة نستطيع بواسطتها اخراج الحقيقة من سترة الريب الى صحن اليقين . فيترتب علينا والحالة هذه ان نتسائل عن امور عدة منها :

١ ـ هل لـراوي الرواية مصلحة فيما يروي ؟ فيزين لنا الامر ويحسنه ليسوقنا الى استنتاج معين؟ فاذا خامرنا شك تحرينا غرضه فيما يكتب فلعله ينتمي الى فئة معينة من الناس او يدين بمذهب من المذاهب ...

٢ ـ هل خضع الراوي لظروف قاهرة (من سياسية اوغيرها) اكرهته على التلفيق ؟ فحاول ان ينظر بعين الرضى الى الفئة التي ينتمي صاحبه اليها ، فيناصرها على الاخرى ؟ او انه يعمل بالمثل القائل ما دمت في دارهم فدارهم ؟

٣ ـ كيف كان اسلوبه في الرواية فهل تطغي عليه العاطفة فيغالي ، ويزيد فيبدع في طريقة الاخراج ، او انه يتفلسف ويجادل ؟ ومن الملاحظ انه كلما ازداد الراوي ابداعا "في اسلوبه كلما ازددنا شكا "في عدله ، وهناك سلسلة من نوع آخر من الاسئلة يحسن بنا التعرض لها وهي :

١ ـ هل كان الراوي يتمتع بحواس سليمة وعقل صحيح ؟ ام كان عرضة للخطأ من هذا القبيل ؟ فقد ينوي الصدق والاخلاص ، ولكن حواسه تخونه ، فلا يسمع جيدا " او ان عقله يتوهم غير الواقع ، وذاكرته تخونه من حيث لا يدري .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٢٨٨ ـ ٢٦٠

(٢) مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية عني بتحقيقها الشيخ جميل الشطي ص ٢٤ ـ ٣٢

٢- سن الراوى عندما نقل الخبر وقد ورد فيه "اخبار واقاويل مختلفة مفادها جميعـــا" تنحصر في سن النضوج العقلي اى سن الادراك والتحصيل .

ونريد ان نلاحظ امرا "وهو من الاهمية بمكان . ذلك ان امر العدالة والضبط عنـــد الراوى الواحد ليس جامعا "مانعا "فلا يجوز مثلا" ان نثبت عدالة البخـــارى مثلا "وجمعه للاحاديث ثم نأخذ بها جميعها على الاطلاق .(١) لذلـــك من الافضـــل للباحث في علم الحديث ان ينظر في كل خبر من اخبـــار الراوى على حدة ، فيطبق كل ما اوردناه من اصول وقواعـــد ، ليتبين له دقة الصحة في كل قول .

وملاحظة هامـــة اخرى وهي السؤال التالـــي : عمن اخذ الراوى حديثـــه ؟ هل نقله مباشرة عن المحدث ؟ ام انه اخذ عن طريق التسلســـل ؟

ولذلك علينا ان نتتبع الذين تسلسل عنهم الخبر حتى نصل الاصل . ولا شك ان ذلك امر صعب المسلك اكثر الاحيان لبعدنا في الغالب عن زمن الاحاديث المرويـــــة . ولكن من اراد الوصول لا بد ان يصـــل .

---

(١) انظر فجر الاسلام ص ٢١٨

الباب الخامس

خاتمة

اعتقد ان ما عرضت من قواعد واصول له قيمة كبرى في تسهيل طرق البحث لانه يكسب طالب العلم الدقة في البحث والامانة العلمية ، وبهما تتبدد الغيوم السوداء التي تكتنف الحقيقة وتحجب الرؤيا الواضحة .

بالاضافة الى ما ذكرنا من تلك القواعد لا يمكن ان ننسى ما لثقافة العالم ، وطول معاناته وحسن دربته وبعد ممارسته للعلم الذى يحصله بحيث يتكون عنده من هذه الصفات جميعها (ملكة وهيئة نفسانية) يعرف بها ما يجوز وما لا يجوز . ونعيد القول مع ابن دقيق العيد : " وكثيرا ما يحكمون بالوضع باعتبار يرجع الى المروى والفاظ الحديث ، وحاصله انها جعلت لهم بكثرة محاولة الفاظ النبي صلى الله عليه وسلم هيئة نفسانية وملكة يعرفون بها ما يجوز ان يكون من الفاظ وما لا يجوز ... فان معرفة الوضع من قرينة حال المروى اكثر من قرينة حال الراوى " (١)

والخلاصة انه الى جانب هذه القواعد في علمي الدراية والرواية تكونت عند اكثر العلماء مَلَكَةً خاصة نتيجة لدراستهم حديث رسول الله (ص) ، وحفظه ومقارنة طرقه . وفي هذا ايضا يقول ابن الجوزى : "الحديث المنكر يقشعر له جلد الطالب للعلم ، وينفر منه قلبه في الغالب " . (٢)

ان في حديث النبي نورا ساطعا ، يعرفه ويهتدى به كل من الم بهذا العلم وتمرس به .

اما القواعد والاصول التي وضعت في هذا العلم فقد استفاد منها الكثير من المؤلفين وخاصة علماء التاريخ ، فهم اول من نهجوا نهجها وسارعوا في تطبيقها وقد افردت لهذا البحث في الباب السادس .

---

(١) توضيح الافكار ج ٢ ص ٩٤

(٢) الباعث الحثيث ص ٩٠

" قال الله في القـــرآن المجيــــد :

" يَرْفَعُ اللهُ الذينَ آمنوا منكم والذين أُوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ " المجادلة الاية ١١

" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون " الزمر الاية ٩

وقال صلى الله عليـه وسلـم :

" اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاثة اشياء : من صدقة جاريـــة وعلم ينتفع به بعده ، او ولد صالح يدعو لـه " جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ١٥

" من غدا الى المسجد لا يريد الا ان يتعلم خيرا ، او يعلمه كان بمنزلـــة المجاهد في سبيل الله " اخرجه الطبراني ووثقه البخارى . سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥١

" انه سيأتي بعدى قوم يسألونكم الحديث عني ، فاذا جاؤكم فالطفوا بهـــم ، وحدثوهم " شرف اصحاب الحديث ص ٢٢

" خير دينكم ايسره ، وخير العبادة الفقـه " رواه البخـارى

" انما العلم ثلاثـة : آية محكمة او فريضة عادلة او سنة قائمة ، وما خلاهـن فهو فضـل لا يضر من جهل ولا ينفـع من علـم " الكافي باب العلـم

الباب السادس

فضل علماء الحديث على علماء التاريخ

تمهيد : في هذا الباب فصلان مهمان

الفصل الاول : بعد عرضنا لاهم القواعد التي وضعها علماء الحديث في علم دراية الحديث وعلم رواية الحديث تساءلنا عما وضع علماء التاريخ من قواعد في هذا المجال ، لان التاريخ هو سرد اخبار ونقلها من جيل الى جيل ، فوجدنا ان علماء الحديث هم اسبق من علماء التاريخ في هذا العلم .

كانت الامثلة الموضحة عن اهم علماء الحديث ، فاخترت ابن قتيبة في كتابه : تأويل مختلف الحديث (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) .

في هذا الكتاب امثلة تطبيقية في نقد الحديث من جميع الوجوه وفي شتى الحالات . وبعد ابن قتيبه كان الكليني (٣٢٩ هـ) فتحدثت بايجاز عن حياته ثم عن كتابه المشهور "الكافي في اصوله وفروعه) وقد كان الكافي كافيا في عصره لمن اراد البحث عن علوم الحديث ، واهم ما في الكافي الجديد الذى اعطاه صاحبه في الحديث : فبوّب الاحاديث ، واهتم بالقرائن وتكلم في الاصول ثم الفروع متفحصا الاخبار ، دارسا الاسناد والمتون .

ثم جاء الغزالي (٥٠٥ هـ) فاقترح شروطا دقيقة في خبر الواحد وخاصة في شرط العدالة ، ففصلها وشرح اصولها الرئيسية والثانوية في كتابه المستصفى .

وبعد الغزالي كان القاضي عياض (٤٧٩ - ٥٤٤ هـ) في كتابه : "الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع . وهو من خيرة الكتب التي الفت في علم دراية الحديث لانه يجمع بين الدقة والشمول . لذلك بحثت فيه مفصلا في جميع فصول الكتاب . ومن ميزات (الالماع) الهامة ، جمعه لمختلف الاراء واستقطابه لاكثر العلماء المعروفين في رحاب علم الرواية في عصره .

والمحطة الاخيرة كانت عند ابن الصلاح (٦٤٣ هـ) فاستعرضنا مع المؤلف العظيم الشروط اللازمة للراوى حتى تقبل روايته نجمعها في خمسة عشر شرطا فيها الكثير من العناية .

الفصل الثاني : تتبعت في هذا الفصل اصول علم الرواية منذ القرن الثالث الهجرى حتى القرن الثامن . القرن الذى انجب ابن خلدون (٨٠٨ هـ) كبير المؤرخين .

استعرضت مع مؤرخنا نظرياته في علم الرواية والاخطاء التي وقع فيها المؤرخون من قبل فانتقدها مبينا عللها لجملة اسباب .

ثم قابلت نظريات ابن خلدون مع نظريات علماء الحديث الذين سبقوه بعدة قرون ، فوجدت تشابها قريبا جدا ، حتى ان بعض النظريات هي نفسها عند الطرفين .

./.

مقارنة بين المحدثين والمؤرخين

الفصل الاول : فضل علماء الحديث على علماء التاريخ

وبعد هذا العرض الموجز لاهم اصول النقد نلاحظ ان لعلماء الحديث فضلا على علماء التاريخ ، في وضع اصول وقواعد (نقد علم الدراية وعلم الرواية) فالمؤرخون اقتفوا اكثر هذه القواعد ، ودرجوا عليها . وقد ذكر ذلك الدكتور اسد رستم في كتابه مصطلح علم التاريخ فقال : " احياء لذكر الرازى واعترافا بجهود المحدثين وفضلهم على علم التاريخ ، نرى من الواجب ان نسمي اولى خطوات المؤرخ المدقق المنقب التقميش ، فنقول : على المؤرخ قبل كل شيء ، ان يعنى بتقميش الاصول ، لانه اذا ضاعت الاصول ضاع التاريخ معها " (١)

وفي كلامه هذا ما يحثنا على التساؤل : ترى من كان اسبق الى وضع اصول الرواية ، علماء الحديث ام علماء التاريخ ؟ وهل اقتفى علماء التاريخ ، الاصول والقواعد التي وضعها جهابذة علماء الحديث ؟ حتى نصل الى المؤرخ العظيم ابن خلدون ، فهل قلد هذا علماء الحديث ، او انها مسألة توارد افكار بين المؤرخ العظيم وبينهم ؟ وهل يعد اذن هو واضع حجر الزاوية في اصول علم التاريخ ؟

اسئلة عديدة سوف نجيب عليها باذن الله ، بنماذج وامثلة ، تهدينا الى كشف الستار عن حقيقة كل هذه الامور .

ومما يذكر فعلا مع مزيد من الاعجاب والتقدير ، هو ما توصل اليه علماء الحديث من وضع اصول وقواعد في الراوى والمروى ، سجلها التاريخ لهم بنور ساطع وسار على هديها الكثير الغالب من علماء التاريخ .

وكل ذلك يعود الى اهتمام علماء المسلمين بالدين ، فعملوا كل ما يلزم لخدمته ونشره على العالمين . لقد بذلوا جهودا جبارة في جميع العلوم الدينية في الفقه ، والتفسير ، والقراءات ، والجرح والتعديل ، والناسخ والمنسوخ ، والحديث الذى نحن بصدده .

جاء في مصنفات علماء الحديث ما نورده بحروفه وحذافيره ، تنويها بتدقيقهم العلمي ، واعترافا بفضلهم على التاريخ .

قال الامام مالك بن انس ١٧٩ هـ) لا يؤخذ العلم من اربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ من سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس الى هواه ، ولا من كذاب يكذب في احاديث الناس ، وان كان لايتهم على احاديث رسول الله (ص) ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدث به (٢) . وقال اسحق بن محمد الفروى : سئل مالك

---

(١) مصالح علم التاريخ للدكتور اسد رستم

(٢) انظر توجيه النظر الى اصول الاثر للشيخ طاهر الجزائرى ص ٣٦

ايؤخذ العلم ممن ليس له طلب ولا مجالسة فقال : لا . فقيل ايؤخذ ممن هو صحيح ثقة ، غير انه لا يحفظ ولا يفهم ما يحدث به ؟ فقال : لا يكتب العلم الا ممن يحفظ ، وقد طلب وجالس الناس وعرف وعمل ويكون معه ورع (١)

وقال اسماعيل بن ابي اويس سمعت خالي مالكا يقول : ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . لقد ادركت سبعين ممن يقول :

قال رسول الله (ص) " عند هذه الاساطين فما اخذت عنهم شيئا وان احدهم لو اتمن على بيت مال لكان به امينا لانهم لم يكونوا من اهل هذا الشأن . وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم عند بابه " (٢)

وقال شعبة بن الحجاج كان مالك من المميزين ولقد سمعته يقول : ليس كل " الناس يكتب عنهم وان كان لهم فضل في انفسهم انما هي اخبار رسول الله (ص) فلا تؤخذ الا من اهلها . (٣)

وقال الامام ابو الحسين مسلم (٢٦١ هـ) (٤) " واعلم وفقك الله تعالى ان الواجب على كل احد عرف التمييز بين صحيح الروايات ، وثقات الناقلين لها ، من المتهمين ان لا يروى منها الا ما عرف صحة مخارجه ، والستارة في ناقليه وان يتقي منها ما كان منها عن اهل التهم والمعاندين من اهل البدع " وقال ايضا :

حدثني محمد بن عبد الله بن قهزاد من اهل مرو قال : " اخبرني علي بن حسين بن واقد قال : قال عبد الله بن المبارك قلت لسفيان الثوري : ان عباد بن كثير من تعرف حاله واذا حدث جاء بامر عظيم فترى ان اقول للناس لا تأخذوا عنه قال سفيان : بلى قال عبد الله فكنت اذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد اثنيت عليه في دينه واقول : لا تأخذوا عنه " (٥)

وحدثني محمد ابن ابي عتاب قال حدثني عفان عن محمد بن يحي بن سعيد القطان عن ابيه قال : " لم نر الصالحين في شيء اكذب منهم في الحديث . قال مسلم : يقول " يجرى الكذب على لسانهم ولا يتعمدون الكذب " (٦) .

ومن ابرز علماء الحديث الذين لهم شأنهم في اصول الرواية والدراية :

---

(١) انظر توجيه النظر الى اصول الاثر للشيخ طاهر الجزائرى ص ٣٦
(٢) المصدر نفسه
(٣) مما اقتطفه الشيخ طاهر الجزائرى عن السيوطي في اسعاف المبطا برجال الموطا . راجع كتابه توجيه النظر في اصول الاثر ص ٣٦
(٤) الجامع الصحيح ج ١ ص ٦
(٥) المصدر نفسه
(٦) الجامع الصحيح ج ١ ص ١٣ - ١٦

ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبـــة
(٢١٣ هـ - ٢٧٦ هـ)

في كتابه المشهور تأويل مختلف الحديث وقد صححه وضبطه السيد محمد زهرى النجار من علماء الازهر الشريف .

سبب تأليف الكتاب : لما اتسعت الفتوحات الاسلامية ، اعتنقت الشعوب المغلوبة الاســـلام . فبعضهم كان صادق الايمان ، والبعض الاخر كان غير صادق في اسلامه ، بل في قلبه من الدغـل والحقد على الاسلام واهله ، والحزن الشديد على تلك العروش الكسروية والقيصرية التـــي مثلها الاسلام ودك صروحها - ما دفعه لان ينتقم من الاسلام والمسلمين ، فتألفت الجمعيـات والمؤامرات السرية . واول عمل نفذته تلك الجمعيات هو اغتيال امير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ، مع ان عدله ومكانته في السياسة كانت مضرب الامثال .

فلما ان رأى هؤلاء ، الذين امتلأت رؤوسهم ، واشربت نفوسهم الفلسفة الفارسيـة ، ومنطق اليونان ، عمدوا الى محاربة الاسلام بسلاح ما يسمونه علم الحكمة والمعقول ، فصـــاروا يوردون الشبه على النصوص النبوية ، والايات القرآنية ، فنبتت رؤوس ائمة الالحاد والزندقـة وتظاهروا بالاسلام وارتدوا ثوبه ، ولكن لم يَنْفَذْ من روحه شيء الى قلوبهم . (١)

فانبرى لهم ائمة الاسلام ، وفندوا تلك الشبه فارتدوا على اعقابهم مخذولين مدحورين ومن هؤلاء الذين انبرى للدفاع عن النصوص النبوية المقدسة علامة الاسلام :

" ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من رجال القرن الثالث الهجرى " الّف كتابه هذا ، وبقي مدفونا في ضمن تلك المخطوطات التي جادت بها اقلام سلفنا الصالح ، الى ان قيض الله المرحوم العلامة السلفي الشيخ اسماعيل الخطيب الاسعردى ، واخرجه الى عالـــــم المطبوعات ، اخراجا علميا دقيقا مع تعليقاته النفيسة وذلك في اواسط جمادى الاول سنة ١٣٢٦ هـ .

ترجمة المؤلـــف : اجمع علماء التراجم على ان ابن قتيبة من اسرة فارسية كانت تقطن مدينة مرو ، وانه ولد في سنة ٢١٣ هـ في اواخر خلافة المأمون بن هارون الرشيد ، كما انهم اتفقـوا على انه نشأ ببغداد التي كانت حاضرة الخلافة العباسية الاسلامية ، وموطن العلماء والاعـلام من كل فن وكعبة العلم التي يحج اليها رواد الثقافة والمعرفة من جميع انحاء البلاد الاسلامية .

وقد كان ابن قتيبة شغوفا بالعلم ، وانواع المعارف ، لذلك يجد من يتتبع مؤلفاتـــه انه قد حظي بسهم وافر من كل نوع من انواع العلوم ، ذلك ما جعل افئدة الناس تهوى اليـــه للاستفادة منه والتتلمذ عليه .

---

(١) انظر السنة ومكانتها في التسريع الاسلامي ص ٩٩

واليك اقوال بعض العلماء فيه وشهاداتهم له :

قال الذهبي في الميزان : "عبد الله بن مسلم بن قتيبة صدوق، قليل الرواية .
وقال الخطيب : كان ثقة دينا فاضلا .
وقال شيخ الاسلام ابن تيمية ، في كتاب تفسير سورة الاخلاص طبعة الخانجي بعد ان حكى عن الذين يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه : منهم ابن قتيبة من المنتصرين لمذاهب السنة المشهورة . وقال : هو لاهل السنة ، مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب اهل السنة، كما ان الجاحظ خطيب للمعتزلة (١)

وبعد هذه النبذة القصيرة عن حياة المؤلف يحسن بنا ان نورد بعض ما اتحفنا به ابن قتيبة في كتابه " تأويل مختلف الحديث " ونلاحظ الجديد في تطبيقه الاحاديث على مقاييسه المنطقية التي يمكن الاخذ بها والاعتماد عليها .

يبدأ الكتاب بما وقف عليه من ثلب اهل الكلام اهل الحديث وامتهانهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية التناقض ، حتى وقع الاختلاف - وكثرت النحل - وتعادى المسلمون واكفر بعضهم ، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث .

فالخوارج : تحتج بروايتهم (ضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم ابيدوا خضراءهم) " لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خلاف من خالفهم " (٢)

والمرجىء : يحتج بروايتهم "من قال لا اله الا الله ، فهو في الجنة ، قيل وان زنى وان سرق ، قال : وان زنى وان سرق" ثم حديث واعددت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي "(٣)

والمخالف له : يحتج بروايتهم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن " وحديث : " لم يؤمن من لم يأمن المسلمون من لسانه ويده (٤)

والقدري : يحتج بروايتهم : "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه يهودانه او ينصرانه" (٥)

والمفوض : يحتج بروايتهم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له . اما من كان من اهل السعادة فهو يعمل للسعادة ، ومن كان من اهل الشقاء ، فيعمل للشقاء " (٦)

والرافضة : يحتجون في تقديم علي بروايتهم : "انت مني بمنزلة هارون من موسى ، غير انه لا نبي بعدي" وحديث : "من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" - وانت وصيتي " (٧)

---

(١) انظر الترجمة عن حياة المؤلف في المقدمة ص (ح) من تأويل مختلف الحديث
(٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦) تأويل مختلف الحديث ص ٣ - ٤ - ٥

ويتعلق مفضلو الغنى برواياتهم "اللهم اني اسألك غناى وغنى مولاى اللهم اني اعوذ بك من فقر مرب اوملب (١) .

ويتعلق مفضلو الفقر برواياتهم "اللهم " احيني مسكينا ، وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين .

ويتعلق القائلون بالبداء برواياتهم " صلة الرحم ، تزيد في العمر، والصدقة تدفع القضاء المبرم " (٢)

هذا مع روايات كثيرة في الاحكام اختلف لها الفقهاء في الفتيا ، حتى افترق الحجازيون والعراقيون في اكثر ابواب الفقه ، وكل يبني على اصل من رواياتهم .

يظهر لنا من هذه الروايات ان كل فريق يتخذ من الاحاديث ما يقوى حجته وما يتناسب مع ميوله واهدافه .

وبعد ان ذكر بعض الاحاديث التي سفّه بها علماء الكلام لعلماء الحديث ، وقالوا عنهم انهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه . عمد الى علماء الكلام يعيبهم ويقول عنهم : انهم يبصون القذى في عيون الناس ، وعيونهم تطرف على الاجذاع (٣) ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل . ثم يتابع قوله : ولو ردوا المشكل منهما ، الى اهل العلم بهما وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج (٤)

ثم يتعجب ابن قتيبة من علماء الكلام كيف يتهمون علماء الحديث بالاختلاف وهم اشد منهم اختلافا . فيقول :

" وقد كان يجب - مع ما يدعونه من معرفة القياس واعداد آلات النظر - ان لا يختلفوا كما لا يختلف الحساب والمساح ، والمهندسون ، لان آلتهم لا تدل الا على عدد واحد ، والا على شكل واحد وكما لا يختلف حذاق الاطباء في الماء وفي نبض العروق لان الاوائل وقد وقفوهم من ذلك على امر واحد ، فما بالهم اكثر الناس اختلافا ، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على امر واحد في الدين (٥) ثم يزيد :

" فاذا نحن اتينا اصحاب الكلام ، لما يزعمون انهم عليه من معرفة القياس وحسن النظر وكمال الارادة ، واردنا ان نتعلق بشيء من مذاهبهم ونعتقد شيئا من نِحَلِهم ، وجدنا النظّام شاطرا من الشطار يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها " (٦) ويدخل في الادناس ويرتكب الفواحش والشائنات وهو القائل :

---

(١) مرب اوملب : شك من الراوي واللفظتان مترادفان بمعنى ملازم غير مفارق .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٧
(٣) تطرف بالبناء للمجهول اطبق احد جفنيه على الاخر والاجذاع : جذع النخل
(٤) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٤
(٥) المصدر نفسه
(٦) ولعل الصواب على جرائره جمع جريرة وهي الذنب . تأويل مختلف الحديث ص ١٧

ما

ما زلت آخذ روح الزق في لطف واستبيح دما من غير مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والزق مطرح جسم بلا روح (١)

ثم ينتقل الى اصحاب الرأى فيراهم ايضا مختلفين ليس لهم قياس موحد ولا حكم واحد يرجعون اليه.

قال ابو محمد : ثم نصير الى اصحاب الرأى، فنجدهم ايضا يختلفون ويقيسون ثم يدعون القياس ويستحسنون ، يقولون بالشيء ويحكمون به ، ثم يرجعون . ثم ينهى عن الاخذ بالقياس وكان يقول : " اياكم والقياس، فانكم ان اخذتم به ،حرمتم الحلال، واحللتم الحرام (٢)

وقال ابو محمد ايضا عن اصحاب القياس :
(وكيف يطرد لك القياس في فروع لا يتفق اصولها ، والفرع تابع للاصل؟)

ويعطي مثلا : كيف يقع في القياس ان يقطع سارق عشرة دراهم ويمسك عن غاصب مائة درهم ؟ . ويجلد قاذف الحر الفاجر. ويعفى عن قاذف العبد العفيف (٣) .

ثم يحط عند شيخ المعتزلة الجاحظ فيقول :

" ثم نصير الى الجاحظ ، وهو اخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين واحسنهم للحجة استثارة ، واشدهم تلطفا ، لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ويبلغ به الاقتدار الى ان يعمل الشيء ونقيضه ويحتج لفضل السودان على البيضان" (٤)

وتجده يقصد بكتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك ، استمالة الاحداث وشراب النبيذ .

ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على اهل العلم . كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الاسود وانه كان ابيض ، فسوده المشركون ، وكان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا . واشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد امه في رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة واشباه هذا".

ويختم ابن قتيبة حديثه عن الجاحظ : وهو مع هذا ، من اكذب الامة واوضعهم لحديث وانصرهم لباطل (٥) اما ابو يوسف فقد انتقدهم قائلا : " من طلب الدين بالكلام ، تزندق ومن طلب المال بالكيمياء ، افلس، ومن طلب غرائب الحديث كذّب" (٦)

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٧
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٥٨
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩
(٤) المصدر نفسه ص ٥٩ .
(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٠
(٦) المصدر نفسه ص ٦١

مقياس ابن قتيبة في خبر الواحد

قال عن المتكلمين وخطأ اقيستهم : " واختلفوا في ثبوت الخبر فقال بعضهم يثبت الخبر بالواحد الصادق (١) "

وقال اخر : " يثبت باثنين ، لان الله تعالى امر باشهاد اثنين عدلين " .

وقال اخر : " يثبت بثلاثة ، لان الله عز وجل قال : " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم " (٢)

قالوا : واقل ما تكون الطائفة ثلاثة ؛
وغلطوا في هذا القول ، لان الطائفة تكون واحدا ، واثنين ، وثلاثة واكثر ، لان الطائفة ، الواحد قد يكون قطعة من قوم .

وقال الله تعالى : (وليشهد عذابهم طائفة من المؤمنين) (٣) يريد الواحد والاثنين .

وقال اخر : يثبت باربعة ، لقول الله تعالى : (لوجاؤا عليه باربعة شهداء (٤)

وقال اخر : يثبت باثني عشر ، لقول الله تعالى : (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) (٥)

وقال اخر : يثبت بسبعين رجلا ، لقول الله عز وجل : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) (٦)

فجعلوا كلَّ عدد ذُكِرَ في القرآن ، حُجَّةً في صحة الخبر .

ولو قال قائل : ان الخبر لا يثبت الا بثمانية ، لقول الله تعالى في اصحاب الكهف وهم الحجة على اهل ذلك الزمان (سبعة وثامنهم كلبهم) (٧) .

ولا يجوز ان يكونوا ثمانية ، حتى يكونَ الكلبُ ثَامِنَهم او قال : لا يثبت الخبر الا بتسعة عشر ، لقول الله تعالى : " في خزنة جهنم ، حين ذكرها فقال : (عليها تسعة عشر) (٨) لكان ايضا قولا وعددا ، مستخرجا من القرآن . (٩)

وهذه الاختيارات انما اختلفت هذا الاختلاف ، لاختلاف عقول الناس ، وكل يختار على قدر عقله " .

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٥
(٢) التوبة : الاية ١٢٢
(٣) النور : = ٢
(٤) النور : = ١٣
(٥) المائدة : = ١٢
(٦) الاعراف : = ١٥٥
(٧) الكهف : = ٢٢
(٨) المدثر : = ٣٠
(٩) انظر التفاصيل في تأويل مختلف الحديث ص ٦٦

ولو رجعوا الى الله تعالى ، "انما ارسل الى الخلق كافة ، رسولا واحدا وامرهم باتباعه وقبول قوله ، وانه لم يرسل اثنين ولا اربعة ، ولا عشرين ، ولا سبعين في وقت واحد لدليهم ذلك على ان الصادق العدل ، صادق الخبر ، كما ان الرسول الواحد المبلغ عن الله تعالى ، صادق الخبر" (١)

دفاع ابن قتيبة عن اصحاب الحديث

قال ابو محمد : (فاما اصحاب الحديث فانهم التمسوا الحق من وجهته وتتبعوه من مضانه وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبهم لاثاره واخباره ، برا وبحرا وشرقا وغربا يرحل الواحد منهم مقويا في طلب الواحد ، او السنة الواحدة حتى يأخذها من الناقل لها مشافهة) .

اما في اخذهم الضعيف من الحديث فقال عنهم :

(قد يعيبهم الطاعنون بحملهم الضعيف ، وطلبهم الغرائب ، وفي الغريب الداء ، ولم يحملوا الضعيف والغريب ، لانهم رأوهما حقا ، بل جمعوا الغث والسمين والصحيح والسقيم ليميزوا بينهما ، ويدلوا عليهما ، وقد فعلوا ذلك فقالوا في الحديث المرفوع (٢)

وانى ارى ان دفاع ابن قتيبة ضعيف ذلك ان ما ذكره ليس بحجة قاطعة يؤخذ بها . لانهم متى جمعوا الغث والسمين والصحيح والسقيم ، عليهم ان يميزوا بينهما فيأخذون الصحيح ويطرحون السقيم .

" واما طعنهم عليهم بقلة المعرفة لما يحملون وكثرة اللحن والتصحيف فان الناس لا يتساوون جميعا في المعرفة والفضل ، وليس صنف من الناس الا وله حشو وشوب) (٣)

على ان المنفرد بفن من الفنون ، لا يعاب بالزلل في غيره . وهي نظرة صائبة وليس على المحدث ، عيب ان يزل في الاعراب ، ولا على الفقيه ان يزل في الشعر . وانما يجب على كل ذي علم ، ان يتقن فنه ، اذا احتاج الناس اليه فيه ، وانعقدت له الرئاسة به (٤) وهو يعني الاختصاص في العلم ولا شك ان نظرته هذه - مع فارق الزمن - هي نظرة حديثة . في عصر ابي محمد القرن الثالث الهجرى حتى عصرنا الحاضر .

" يستحيل ان تكون الصياقلة ، هم الاساكفة ، والنجار هو الحداد"

---

(١) انظر التفاصيل في تأويل الحديث
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧٤
(٣) المصدر نفسه ص ٧٨
(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٧٨- ٧٩
- ومقويا اى نازلا بالقواء ، وهو قفر الارض

وبعد هذا اذن :

عمن يؤخذ الحديث :

يؤخذ عن اهل العلم واهل الصدق في الرواية ٠
(ومن كان كذلك فلا بأس بالكتاب عنه ، والعمل بروايته ، الا فيما اعتقده من الهوى فانه لا يكتب عنه ولا يعمل به) (١)

وقد زاد في الدقة وضيق في اصول الاخذ حتى عن الثقة العدل فقال : " كما ان الثقة العدل ، تقبل شهادته على غيره ، ولا تقبل شهادته لنفسه ولا لابنه ولا لابيه ، ولا فيما جر اليه نفعا ، او دفع عنه ضررا) (٢)

وانما منع من قبول قول الصادق ، فيما وافق نحلته ، وشاكل هواه ، لان نفسه تريه ان الحق فيما اعتقده ، وان القربة لله عز وجل ، في تثبيته في كل وجه ، ولا يؤمن مع ذلك التحريف والزيادة والنقصان " (٣)

ونرى بوضوح هذه الدقة المتناهية والتحفظ الشديد في اخذ الحديث ٠

مخارج بعض الاحاديث وتحليلها

الاحاديث التي ادعوا عليها التناقض :

قالوا : رويتم ان الله تعالى (مسح على ظهر آدم عليه السلام ، واخرج منه ذريته الى يوم القيامة ، امثال الذر ، واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ قالوا بلى ٠

وهذا خلاف قوله تعالى : " واذ اخذ رَبُّك من بني آدم من ظهورهم ذريتَهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى " (٤)

لان الحديث يخبر انه اخذ من ظهر آدم والكتاب يخبر انه اخذ من ظهور آدم (٥)

قال ابو محمد : ونحن نقول ان ذلك ليس كما توهموا ، بل المعنيان متفقان بحمد الله ومنه ، صحيحان لان الكتاب يأتي بجمل ، يكشفها الحديث واختصار تدل عليه السنة٠

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٥
(٢) المصدر نفسه
(٣) ابن قتيبة تأويل مختلف الحديث ص ٨٥ ـ ٨٦
(٤) الاعراف : الاية ١٧٢
(٥) ابن قتيبة تأويل مختلف الحديث ص ٨٧

الا ترى ان الله تعالى حين مسح ظهر آدم عليه السلام،على ماجاء في الحديث ، فاخرج منه ذريته امثال الذر الى يوم القيامة، ان في تلك الذرية الابناء وابناء الابناء وابناءهم الى يوم القيامة.

فاذا اخذ من جميع اولئك العهد واشهدهم على انفسهم ، فقد اخذ من بني آدم جميعا ، من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم.

ونحو هذا قول الله تعالى في كتابه : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم بعد خلقناكم " و " صورناكم " (١)

وانما اراد بقوله تعالى " خلقناكم " و " صورناكم " خلقنا آدم وصورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم "

وجاز ذلك لانه حين خلق آدم خلقنا في صلبه ، وهيأنا كيف شاء . فجعل خلقه لادم خلقه لنا ، اذ كنا منه.

ثم يضرب لنا مثلا موضحا فقال : ومثل هذا مثل رجل اعطيته من الشاء ، ذكرا وانثى وقلت له : قد وهبت لك شاء كثيرا - تريد اني وهبت لك بهبتي هذين الاثنين ، من النتاج شاء كثيرا .

ثم يتابع ابن قتيبة قوله :" ومما يشبه هذا ، قول العباس بن عبد المطلب في رسول الله (ص) من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق .

يريد طبت في ظلال الجنة ، وفي مستودع يعني الموضع الذى استودعه من الجنة حيث يخصف الورق ، اى : حيث خصف آدم وحواء عليهما من ورق الجنة.

وانما اراد انه اذ ذاك ، طيبا في صلب آدم . ثم قال :

ثم هبطت البلاد لا بشر انت ولا مضغة ولا علق

يريد ان آدم هبط البلاد ، فهبطت في صلبه ، وانت اذ ذاك لا بشر ولا مضغة ، ولا دم.

بل نطفه تركب السفين وقد الجم نسرا واهله الغرق (٢)

ان ما اعطاه من امثلة وبراهين وحجج قاطعة ومسنده لمن تصلب في الاقناع واحتجب عن الرؤيا الواضحة.

---

(١) الاعراف : الاية ١١
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٨٩ ومابعدها . ونسرا : صنما من اصنام قوم نوح

ثم اورد لنا امثلة مختلفة من الاحاديث التي احتجوا عليها ولم يعوا دقائق معانيها فقال : "حديث يفسد اوله آخره مثلا : قالوا : رويتم عن النبي انه قال : "اذا قام احدكم من منامه ، فلا يغمس يده في الاناء حتى يغسلها ثلاثا فانه لا يدري اين باتت يده" (١)

وحديث يفسد بعضه بعضا ، مثلا : رويتم ان رسول الله (ص) "لولا ان الكلاب امة من الامم ، لامرت بقتلها ، ولكن اقتلوا منها كل اسود بهيم".

وقال "الاسود شيطان" قالوا : فكأنه انما قتله لانه اسود ، او لانه شيطان ، مع عفوه عن جماعة الكلاب ، لانها امة ، وليس في كونها امة علة تمنع من القتل ، ولا توجبه . قالوا :

ثم رويتم انه (ص) امر بقتل الكلاب ، حتى لم يبق بالمدينة كلب فكيف قتلها وهي امة ، اولا منعه ذلك من قتلها ؟ (٢) وقد صارت العلة التي بها عنا عنها هي العلة التي قتلها بها .

فاجاب ابو محمد باجابات مدللة تحليلا منطقيا واورد امثلة مشابهة من القرآن ومحكم السنة . فلم يعر اي اهتمام للقياس وخاصة في الامور الدينية . قال : "وهذه الامور لا تدرك بالنظر والقياس ، وانما ينتهي فيها الى ما قاله الرسول (ص) او ما قاله من سمع منه وشاهده (٣)

ثم ما زال يروي جميع ما ورد من انتقادات عن مختلف الاحاديث :

منها ما يبطله النظر ، ومنها ما يبطله القياس ، ومنها ما يكذبه الكتاب ، ومنها ما تكذبه الروايات (اي الاجماع) وكثيرا من الاحاديث المتناقضة التي اولوها حسب ميولهم وعقولهم .

ومختصر القول ان مقاييس ابن قتيبة التطبيقية هي :

- لا قيمة للعدد في خبر الاحاد وانما يجدر البحث عن صدق الخبر وصحته .
- لا عيب على علماء الحديث في جمعهم الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، ما داموا ميزوا بينهما ودلوا عليهما .
- الاختصاص ضروري لاي فن من الفنون لان المعرفة والتصحيف واللحن وان كانت موجودة عند بعض المحدثين لا تدينهم ، ذلك ان الناس لا يتساوون جميعا في المعرفة والفضل .
- العلم والصدق والعدالة صفات ضرورية للراوي ، ولا بد منها جميعا .
- ومع وجودها جميعا في الراوي لا تقبل شهادة : لا لنفسه ولا لابنه ولا لابيه ولا فيما جر اليه نفعا ، او دفع عنه ضررا .

(ويعني بهذا الا يكون الحديث لغاية خاصة او متعة شخصية او ميل وهوى)

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٣٠
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥

الكلينـــــي (٣٢٩ هـ)

سيرتـــــه : سيرة الكليني معروفة في التواريخ وكتب الرجال ، وكتابه النفيس "الكافي" مطبوع رزق من الذكر الجميل والصيت الذائع والشهرة والفضل ولا يبرح اهل الفقه ممدودي الطـرف اليه ، شاخصي البصر نحوه ، ولا يزال رواد الحديث وحملته يستوضحون بانواره ، وهو مـدد لرواة آثار النبوة ، وحماة شريعة اهل البيت . وان نقلة اخبار الشيعة ، ما انفكوا يستندون فـي استنباط الفتيا اليه ، وهو ممن ان يعتمد عليه في استخراج الاحكام ، جديران يعني بما تضمن من محاسن الاخبار وجواهر الكلام وطرائف الحكم .

كنيتـــــه : في ايران الان عدة مواضع يقال لكل واحد منها : كلين ، قال ياقوت الحمـوي ، "كلين : المرحلة الاولى من الرى لمن يريد خوارا على طريق الحاج (١) وقال السيد محمـد مرتضى الزبيدى : الكليني ، ضبطه ابن السمعاني كزبيره قلت وهو المشهور على الالســن ، والصواب بضم الكاف ، وامالة اللام ، كما ضبطه الحافظ في التبصيره بالرى منها ، ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني .." (٢)

اسمه ومولده : هو محمد بن يعقوب بن اسحق (٣) ، الكليني (٤) ، الرازى (٥) ، كما يعرف ايضا بالسلسلي (٦) ، البغدادى . وكان هو شيخ الشيعة في عصره ، ثم سكن بغداد في درب السلسلة بباب الكوفة وحدث بها سنة ٣٢٧ هـ (٧) وقد انتهت اليه رئاسة فقهاء الامامية في ايام المقتدر (٨)

والعلامة الطباطبائي يرجح في رجاله ان الكليني اخذ الحديث عن جماعة عاصروا الائمة الثلاثـة : (الرضا والجواد والهادى (ع)) ورووا عنهم ، منهم احمد بن محمد بن عيسى الاشعرى شيخ القميين ، ولم يذكر المؤلفون في الرجال تاريخ وفاته ، ولكنهم نصـوا على انه لم يلق الامام العسكرى ، مما يدل ان وفاته كانت قبل انتقال الامامة اليه ، على كـل حال لم اجد فيما لدى من كتب تراجم ما يشير الى تاريخ ولادة الكليني ، والمقطوع به انه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وفي اوائل القرن الرابع .

والنجاشي يقول انه توفي في بغداد سنة (٣٢٩ هـ) (٩) اما الشيخ الطوسي فيذكر وفاته في الفهرست سنة (٣٢٨ هـ) (١٠) والنجاشي هو اقرب الى عصر الكليني والمرجح ان سنة الوفاة (٣٢٩ هـ) .

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٣٠٣
(٢) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٢٨ ثم تاج العروس ج ٩ ص ٣٢٢ مادة ك . ل . ن
(٣) المصدر نفسه ج ٨ ص ١٢٨
(٤) الرجال للنجاشي ص ٢٦٦
(٥) لسان الميزان ج ٥ ص ٤٣٣
(٦) لنزوله درب السلسلة ببغداد - تاج العروس ج ٩ ص ٣٢٢
(٧) الاستبصـار ج ٢ ص ٣٥٢
(٨) تاج العروس ج ٩ ص ٣٢٢
(٩) الرجال للنجاشي ص ٧٢٦
(١٠) الفهرست للشيخ الطوسي ص ٢٦٦

مدحــــه: قال النجاشي : "شيخ اصحابنا في وقته بالري ، ووجههم وكان اوثق الناس بالحديث واثبتهم (١) .

وقال الشيخ الطوسي : "ثقة ،عارف بالاخبار" وقال : "جليل القدر، عالـــم بالاخبار" (٢)

وقال ابن حجر : "وكان من فقهاء الشيعة ، والمصنفين على مذهبهم (٣) .

وقال السيد محمد مرتضى الزبيدي : ... من فقهاء الشيعة ورؤساء فضلائهـــم في ايام المقتـــدر (٤)

وقال المحدث النيسابوري في كتابه منية المرتاد في ذكر نقاة الاجتهاد : "ومنهـــم ثقة الاسلام ، قدوة الاعلام ، جامع السنن والاثار، في حضور سفراء الامام عليه افضل السلام الشيخ ابو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي محي طريقة اهل البيت على رأس المائـــة الثالثة (٥) .

مؤلفاتـــــه: من ابرز مؤلفات الكليني كتابه (الكافي) . وهو كاف لمن اراد البحث في العلوم الدينية. وقد عرفه المؤلف نفسه بقوله : "وقلت انك تحب ان يكون عندك كتاب كاف يجمع من جميع فنـــون علم الدين ، ما يكفي به المتعلم ، ويرجع اليه المسترشد ، ويأخـــذ منه من يريد علم الدين ، والعمل به بالاثار الصحيحة ، عن الصادقين عليهم الســلام (٦) .

استغرق الكليني في تأليفه كتابه هذا الكبير مدة عشرين عاما (٧) وقد كان شيـــوخ اهل عصره يقرؤنه عنه سماعا واجازة . كما رواه جماعة من افاضل رجالات الشيعة عن طائفـــة من كلمة حملته ، ومن رواته الاقدمين النجاشي (٨) والصدوق الطوسي وغيرهم .

ومما قاله اعاظم الناس في هذا الكتاب العظيم ما قاله بعض الافاضل : "اعلم انه الكتاب الجامع للاحاديث ، في جميع فنون العقائد ، والاخلاق ، والاداب والفقه - من اولـــه الى آخره - مما لم يوجد في كتب احاديث العامة ، وانى لهم بمثل الكافي في جميع فنـــون الاحاديث وقاطبة اقسام العلوم الالهية الخارجة عن بيت العصمة ودار الرحمة" (٩) وكلمـــة مجملة يقولها المولى محمد امين الاستربادي في خصائص الكافي وميزاته :

---

(١) الرجال للنجاشي ص ٢٦٦
(٢) الفهرست للشيخ الطوسي ص ١٣٥ - والرجال للشيخ الطوسي ص ١١٩
(٣) لسان الميزان ج ٥ ص ٤٢٣
(٤) تاج العروس ج ٩ ص ٣٢٢
(٥) روضات الجنات ص ٥٥٣
(٦) اصول الكافي ص ٨
(٧) الرجال للنجاشي ص ٢٦٦
(٨) الرجال للنجاشي ص ٢٦٧ والاستبصار ج ٢ ص ٣٥٣
(٩) نهاية الدراية ص ٢١٨

خصائص الكافي وميزاته :

ان خصائص هذا الكتاب القيم التي ما زالت حتى اليوم تحثنا على الاهتمام به كثيرة نذكر منها :

- ان مؤلفه كان حيا في زمن سفراء المهدي (ع) فاذا ما تعثرت به الطريق الى تحقيق حديث ما ، يرحل في سبيله يقابل ويسأل يقارن فيما يقوله الاحياء وهو دون شك اهون بكثير واصح من البحث مما قاله الاموات .

قال السيد ابن طاووس : "فتصانيف هذا الشيخ محمد بن يعقوب ، ورواياته في زمن الوكلاء المذكورين ، يجد طريقا الى تحقيق منقولاته" (١)

مما يظهر ان الكليني دقق اكثر من غيره من الذين اهتموا في هذا العلم ان في عصره او قبل عصره في تحرى الرواية .

- والكافي يحتوى على ما لا يحتوى غيره ، من العلوم حتى ان فيه ما يزيد على ما في الصحاح الست للعامة ، متونا ، واسانيد . فلقد جمعت احاديث الكافي ، فبلغت (١٦١٩٩) حديثا وجملة ما في كتاب البخاري الصحيح (٧٢٧٥) حديثا بالاحاديث المكررة (٢) وقد قيل : "انها باسقاط المكررة (٤٠٠٠) حديثا (٣) .

والكليني ملتزم في (الكافي) ان يذكر في كل حديث - الا نادرا - جميع سلسلة السند بينه وبين المعصوم ، واذا ما حذف السند ، فلعله لنقله عن اصل المروى عنه ، من غير واسطة او لحوالته على ما ذكره قريبا ، وهذا في حكم المذكور (٤) .

ثم ان من طريقة الكليني في وضع الاحاديث المخرجة ، والموضوعة على الابواب مرتبة حسب الصحة والوضوح . لذلك نجد احاديث اواخر الابواب في الاغلب لا تخلو من اجمال وخفاء . ومما يذكر عن الكليني في هذا المجال ما قاله الوحيد البهبهاني كلمة جامعة جاء فيها : "الا ترى ان الكليني ، مع بذل جهده في مدة عشرين سنة ومسافراته الى البلدان والاقطار وحرصه في جمع آثار الايمة ، وقرب عصره الى الاصول الاربعمائة والكتب المعول عليها ، وكثرة ملاقاته ومصاحبته مع شيوخ الاجازات والماهرين في معرفة الاحاديث ، ونهاية شهرته في ترويج المذهب ..(٥)

ومن ميزات الكافي الخاصة ، انه لا يورد الاخبار الخارجة عن موضوع الباب بل يقتصر على ما يدل على الباب الذي عنونه ، وقد يدل ذلك على ترجيحه لما ذكر على ما لم يذكر (٦) .

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٥٣٢
(٢) نهاية الدراية ص ٢١٩ "
(٣) منهاج السنة ج ٤ ص ٥٩
(٤) الوافي ج ١ ص ١٣
(٥) نهاية الدراية ص ٣٢٠
(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٢

وبعد دراستنا للكافي رأينا انه يورد الاخبار المتعارضة احيانا دون ترجيح .

الجديد عند الكليني في الحديث

- ومن الجديد عند الكليني الذى لم يسبقه احد اليه في عصره في دراسة الحديث امران :

١- تبويب الاحاديث حسب المتون والمواضيع في الاصول والفروع بعدما كانت فوضى ومبعثرة . فاننا نجد الاصول الاربعمائة التي رواها اربعمائة من رجال الاحاديث انها تشمل مختلف الاحاديث في مختلف الموضوعات ، كما سمعوها في مناسبات عدة عن ائمة اهل البيت (ع) ولم يرتبوها في ابواب . ونجد الكليني اول من بوبها من المحدثين في تأليفاته (الكافي) وغيره .

٢- عدم الاقتصار على احاديث الفروع الاحكامية ، اذ الف الاصول قبل الفروع فبوبها هنا كما هناك .

ومما يلفت النظر عند الكليني انه لا ينقل احاديث الضعاف مهما كانت اسانيدها صحيحة ، حتى ولو كانت النقد ، وهذا مما يظهر دقته في نقد الحديث ، ويجعله اضبط من غيره ، كما هو معروف عند ائمة الحديث ، فاذا ورد حديث في الكافي وحديث اخر يعارضه في غيره ، يرجحون الكافي لانه اكثر دقة وضبطا .

٣- يهتم الكليني بالقرائن اكثر مما يهتم بعدالة الرواة :

ان جميع الذين اعتمدوا على الكافي واعتبروا كل مروياته حجة عليهم هؤلاء لم يعتمدوا عليها الا من حيث الوثوق والاطمئنان بالكليني . ووثوق الكليني بمروياته لم يكن مصدره بالنسبة الى جميعها عدالة الرواة ، بل كان يهتم بالقرائن التي افادته الى حد بعيد بحيث انها يسرت له الوقوف عليها نظرا لقرب عهده بالائمة ،كما اشرت قبل قليل ، هذا بالاضافة الى عنصر الاجتهاد الذى كان له دور يذكر في جميع هذه البحوث . ويؤيد ذلك ان الكليني لم يَدَّعِ ان جميع مروياته من الصحيح المتصل سنده بالمعصوم بواسطة العدول ، ولقد اجاب من سأله ، تأليف كتابه قال : وقد يسر لي الله تأليف كتاب جامع يصح العمل به والاعتماد عليه وارجو ان يكون بحيث توخيت . وهذا الكلام منه يدل انه قد بذل اقصى جهده في جمعه واتقانه ، معتمدا على اجتهاده الشخصي وثقته بتلك الاصول الاربعمائة التي كانت مرجعا لاكثر المتقدمين قبله .

(١)

نظـرة الكليني لمرويات الكافي تعتمد على وجهيـــن :

اولا_ كل الاخبار والمرويات الموجودة في الاصول والكتب المعمول بها ، والمعلوم الانتساب الى اربـابها قد تلقاها من الثقات الذين لا يتوقف معرفتهم على الامور النظرية ، لكون عصرهم قريبا من عصره ، ولعدم اشتباههم بغيرهم .

ثانيا_ فحص الكليني الاخبار واجتهد في دراسته لاسناد الحديث ومتـونه مدة طويلة من الزمـــن ، وبذلك يمكن اعتبار مروياته خاضعة كغيرها للنقد والجرح والتعديل ، ذلك لان اجتهاد شخـص لا يكون حجة على غيره ، ولا بد في مثل ذلك من عرض ذلك الموضوع على الاصول والقواعد الموضوعـة ، والمتعارف عليها عند اكثر علماء الحديث ، لتمييز الصحيح من غيره ، وفي الحالين يتعين عليـــه العمل بما ادى اليه اجتهاده .

بقي الكافي على رأس الكتب الاربعة (١) بنظر المتقدمين من الفقهاء الى اواخـــر القرن السابع الهجري الذي ظهر فيه العلامة الحلـــي (٢) ومن الطبيعي بدأت تلك الثقـــة للكافي تتضاءل على مرور الزمن . ولا يخفى ما للعلامة الحلي من دور يذكر في تصنيف الحديـــث ، حيث انفتح باب التشكيك في تلك المرويات على مصراعيه ، فصنف الحديث الى اصنافه الاربعة وعرض مرويات الكافي وغيره على اصول علم الدراية وقواعده ، فما كان منها مستوفيا للشروط المقررة ، اقروا العمل به والاعتماد عليه ، وما لم يستوف الشروط المطلوبة ردوه ورفضوه .

ولا شك ان الكافي بقي الكتاب الذى يؤخذ بعين الاعتبار والتقدير ، لما فيه من اصـــول دقيقة في علم الحديث وفوائد جليلة سماعا عن مشايخه " اذ لم يصنف في الاسلام كتاب يوازى الكافي وان الكليني رأس المئة الثالثة " (٣) ومن الذين الفوا في احوال الرجال ووصفوا اصول علم الدرايـة في القرن الثالث واوائل القرن الرابع : محمد بن خالد البرقي (٤) ومحمد بن مسعود السمرقندى (٥)

---

(١) الكافي للكليني ، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق ، والتهذيب والاستبصار للطوسي
(٢) سفينة البحار المجلد الثاني ص ٤٩٥
(٣) الحلي ٦٤٨ـ ٧٢٦ هـ ، هو الحسن بن يوسف بن علي ابن المطهر الحلي الشهير بالعلامة من القرن السابع صنف في كل علم كتبا . كان فقيها متكلما حكيما منطقيا هندسيا رياضيا جامعا لجميع العلوم والفنون في المعقول والمنقول سلك في الحديث مسلك التنويع الى الانـــواع الاربعة : الصحيح والموثق والحسن والضعيف . قرأ على المحقق الطوسي في الكلام وغيره مـــن العقليات والمحقق هذا قرأ على الحلي في الفقه . له عدة مؤلفات منها : منتهى المطلب في تحقيق المذهب طبع ايران ١٣٣٣ هـ ـ انظر تنقيح المقال للعلامة المامقاني المجلد ١ ص ٣١٤

(٤) محمد بن خالد البرقي هو محمد بن خالد ابو عبد الله البرقي وثقه الشيخ الطوسي في رجاله وعده من اصحاب الكاظم والرضا من القرن الثاني للهجرة . روى عن الامام الكاظم والرضا والجواد وروى عنه ابنه احمد واحمد بن عيسى وجميل بن دراج ـ تنقيح المقال ج ١ ص ٣١٥

(٥) السمرقندى : هو محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السمرقندى المعروف بالعياشي . يقول عنه الشيخ الطوسي : اكثر اهل المشرق علما وادبا وفضلا وفهما ونبلا في زمانه صنف اكثر مـــن مئتي مصنف ذكرها الشيخ في كتابه الفهرست . انفق تركة ابيه التي بلغت ثلاثمائة الف دينار على العلم والحديث وقد وثقه النجاشي في رجاله وروى عنه الكشي صاحب كتاب الرجال مـــن القرن الثالث (المصدر نفسه) .

المعروف بالعياشي (١) وغيرهم من المؤلفين في الحديث واحوال الرجال وشروط الرواية واقسامها ، وقد بذلوا كل ما لديهم من الامكانيات لتصفية الحديث من الموضوعات ومن المشتبهات . وهؤلاء وضعوا الاساس للمتأخرين . وكانوا الركيزة التي اعتمدها المحمدون الثلاثة : محمد بن يعقوب الكليني ، ومحمد بن بابويه الصدوق ومحمد بن الحسن الطوسي في اختيار مجاميعهم الاربعة : الكافي للكليني ، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق ، والتهذيب والاستبصار للطوسي .

لقد وضعت الاصول التي يبنى عليها فقه الحديث وتكامل بناؤها بناء كاملا في القرن الرابع الهجري . فان الكليني (توفي ٣٢٩ هـ) بنظر الكثيرين من العلماء والمحدثين المُجدِّد الاول في عالم الحديث بالنسبة لمن تقدمه ، بالرغم من ان الذين تقدموه من المحدثين والمؤلفين ، قد تحروا جهدهم لتصفية الاحاديث وغربلتها وتمييزها من المكذوب والمشبوه .

وقد بحثنا مع الكليني في الكافي والاصول التي وضعها في الحديث ، وما اعطى من جديد في هذا الفن . وكتابه الجليل هذا تحرى فيه اقصى ما لديه من جهد لتصفية الاحاديث الصحيحة من غيرها كما نص على ذلك في مقدمة كتابه . وقد تم تأليفه بعد رحلات شاقة وجهاد مرير استمر نحوا من عشرين عاما ، جاب فيها البلدان بحثا عن الحديث ومذاكرة المحدثين في اسناده ومصادره واصوله . والتنقيب عن مؤلفات القميين التي جمعوها في اواخر القرن الثاني من مرويات اصحاب الامامين جعفر بن محمد وابيه الباقر (ع) .

---

(١) العدة للطوسي ص ٥٣

الصدوق : هو محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي ابو جعفر (المعروف بالصدوق . يقول النجاشي : انه شيخنا وفقيهنا له كتب كثيرة ثم عد ١٩٠ كتابا مات بالري ٣٨٦ هـ (المصدر نفسه .)

الطوسي : ٣٨٥ـ ٤٦٠ هـ هو محمد بن حسن بن علي الطوسي ابو جعفر المعروف بالشيخ وشيخ الطائفة . يقول فيه العلامة الحلي في الخلاصة ص ٧٢ : شيخ الامامية ووجههم قدس الله روحه رئيس الطائفة . جليل القدر عظيم المنزلة ثقة عين صدوق عارف بالاخبار والرجال والفقه والادب والاصول والكلام . وكان تلميذ الشيخ المفيد من اشهر مؤلفاته التهذيب والاستبصار (المصدر نفسه) .

وكان القميون والبعض من الرازيين قد تطوعوا لجمع الاحاديث وتصفيتها والفوا في علمي الرجال والدراية ، ووضعوا اصول هذين العلمين خلال النصف الاول من القرن الثالث ه وبذلك مهدوا الطريق للطبقة التي برز فيها الكليني ، والف كتابه الجامع ، الذي نال اعجاب العلماء والمحدثين على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم . وسوف ينال اعجابنا نحن لما فيه من نظرات جديدة في الحديث واصوله ، ما زالت تؤخذ بعين الاعتبار والتقدير ذلك ان الذين باشروا في عملية تصفية الحديث قبله ، كانوا ينظرون الى الراوي قبل كل شيء فاذا وجدوا فيه مغمزا او انحرافا ، تركوا مروياته مهما كان حالها ، ولو احيطت بعشرات القرائن بينما درس الكليني الرواية من ناحية السند والمتن والملابسات التي تحيط بها .

• • •

وقال حجة الاسلام الغزالـــي (٥٠٥ هـ)

"العدالة في الرواية والشهادة ، عبارة عن استقامة السيرة في الدين ويرجع حاملها الى هيئة راسخة في النفس تحمل على ملازمة التقوى والمروءة جميعا حتى تحصل ثقة النفوس بصدقه . فلا ثقة بقول من لا يخاف الله تعالى خوفا وازعا عن الكذب. ثم لا خلاف في انـــه لا تشترط العصمة في جميع المعاصي . ولا يكفي ايضا اجتناب الكبائر بل من الصغائر ما يرد به كسرقة بصلة وتطفيف في حبة قصدا" (١)

وبالجملة كل ما يدل على ركاكة دينه الى حد يجترئ على الكذب للاغراض الدنيوية كيف وقد شرط في العدالة ، التوقي عن بعض المباحات القادحة في المروءة ، نحو الاكل فـــي الطريق ، والبول في الشارع وصحبة الارذال ، والافراط في المزاح . والضابط في ذلك فيما جاوز محل الاجماع ان يرد الى اجتهاد الحاكم . فما دل عنده على جرأته على الكذب رد الشهادة به وما لا فلا ، وهذا يختلف بالاضافة الى المجتهدين ، وتفصيل ذلك من الفقه لا من الاصول .

ثم قـال : ورب شخص يعتاد الغيبة ويعلم الحاكم ان ذلك له طبع ، يصبر عنه ، ولو حمل على شهادة الزور لم يشهد اصلا ، فقبوله شهادته بحكم اجتهاد جائز في حقـــه . ويختلف ذلك بعادات البلاد واختلاف احوال الناس في استعظام الصغائر دون بعض (٢)

ومما له علاقة بهذا وهو من اجود ما حصلنا عليه في اصول الرواية كلام القاضي عيـاض بن عياض (٥٤٤ هـ) حيث يقـول :

" الذى ذهب اليه اهل التحقيق من مشايخ الحديث وائمة الاصوليين والنظـار ، انه لا يجب ان يحدث المحدث الا بما حفظه في قلبه او قيده في كتابه وصانه في خزانته ، فيكون صونه كصونه فيه في قلبه ، حتى لا يدخله ريب ولا شك في انه كما سمعه . وكذلك يأتي :

لو سمع كتابا وغاب عنه ، ثم وجده او عاره ورجع اليه ، وحقق انه بخطه ، او الكتاب الذى سمع فيه بنفسه ، ولم ترتب في حرف منه ولا في ضبط كلمة ، ولا وجد فيه تغييرا . فمتى كان بخلاف هذا ، او دخله ريب او شك ، لم يجـز له الحديث بذلك ، اذ الكل مجمعون علـــى انه لا يحدث الا بما حقق ، واذا ارتاب في شيء فقد حدث بما لم يحقق انه من قول النبـــي (ص) وصار حديثه بالظن . والظن اكذب الحديث (٣)

وقد هاب السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم الحديث بما سمعوه من قلق فيه وحفظوه عنه مخافة تجويز النسيان والوهم والغلط على حفظهم ولا تأثير في الشرع للتجويزات فكيف بما لا يحقق ويبنى على الظن وسلامة الظاهر . ولهذا قال مالك رحمه الله فيمن يحـدث من الكتاب ولا يحفظ حديثه : اخاف ان يزاد في كتبه بالليل . وقد قال مثل هذا جماعة مـن ايمة الحديث وشددوا في الاخذ " (٤)

---

(١) ابو حامد الغزالي المستصفى ج ١ ص ١٠٠ راجع ايضا ج ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣
(٢) الالماع للقاضي عيـاض ص ٥٦
(٣) الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع ص ٥٦ ـ ٥٧
(٤) المصدر نفسـه

لقد عرفنا علم الحديث رواية انه يقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما اضيف الى النبي (ص) من قول او فعل او تقرير او صفة (التدريب ٣)

وان علم الحديث دراية ، مجموعة مباحث ومسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد . (تعريف ابن حجر كما في التدريب ٣ - ٤)

فالراوي هو الذي ينقل الحديث باسناده والمروي هو الكلام المنقول بواسطة الراوي مضافا الى النبي او غيره من الصحابة والتابعين .

وهذا العلم علم الدراية هو ما يهمنا الان وهو ما اطلق عليه العلماء اسم "علم اصول الحديث او "علم الرجال" ولما كان للحديث سند ومتن فهذا العلم (علم الدراية) هو علم السند للحديث :

وان علم سند الحديث مهم جدا بالنسبة لدراسة الحديث ، فهو يقوم مقام دور التفسير بالنسبة للقرآن او الاحكام المستندة من الوقائع ، ولا شك ان علم الرواية او علم متن الحديث له اهمية كبرى لا تقل قيمته عن علم الرجال ، فكل علم مكمل للاخر ولا غنى لاي باحث في علم الحديث عن واحد منهما .

فاحوال الراوي الواجب معرفتها والبحث عنها هي : معرفة حاله من حيث تحمله للحديث ثم اداؤه وجرحه وتعديله ومعرفة موطنه واخلاقه ومولده ووفاته .

واحوال المروي يتعلق بشروط الرواية عند التحمل والاداء ثم البحث عن الاسانيد وما يرافقها من علل ومشاكل من اتصال وانقطاع وما شابه ذلك كما بينها وفصلها القاضي عياض .

وقد اعتنى علماء الحديث بعلم الاسناد عناية فائقة منذ النشأة الاولى لعلم الحديث اذ كانت مستقلة في موضوعها ومنهجها - مع شرتها - حتى اذا شاع التدوين وكثرت التصانيف والبحوث المتعلقة بهذه الدراسة ، اخذ كل عالم يتجه اتجاها خاصا وانبثق عن هذا العلم علوم كثيرة مثل :

١- علم الجرح والتعديل الذى يبحث عن شأن الرواة وما يشينهم او يزكيهم بالفاظ مخصوصة وان ظهور هذا النوع من المصنفات كان نتيجة حتمية لجهود النقاد ودراستهم احوال الرجال (١) .

٢- علم رجال الحديث الذى يعني برواة الحديث من حيث انهم رواة له واشهر من عرف عنه بهذا العلم البخارى (٢٥٦ هـ) (٢)

٣- علم مختلف الحديث وهو علم يبحث عن التناقض بين ظاهر الحديث وباطنه والجمع بينهما ومن المشهورين في هذا العلم (ابن قتيبة) (٢٧٦ هـ) (٣) قال النووى في التقريب : هذا فن من اهم الانواع ، ويضطر الى معرفته جميع العلماء من الطوائف(٤)

٤- علم علل الحديث : وهو علم دقيق يبحث في الاسباب الخفية الغامضة التي تقدح في صحة الحديث وتخيم الشك حوله ، والتي توهنه ولو كان ظاهره سليما من العلل . واهم من الف في هذا العلم الامام مسلم (٢١٦ هـ) وابن الجوزى (٥٩٧ هـ) (٥)

٥- علم غريب الحديث : وهو يبحث عن بيان كلما خفي على الناس معرفته من الحديث النبوى وذلك بعد ان دب فيه اللحن والفساد الى اللسان العربي ومن الذين عنوا بهذا العلم المازني ابو الحسن النضر بن شميل (٢٠٤) وابن قتيبة الذى مر ذكره(٦)

٦- علم ناسخ الحديث ومنسوخه : وهو يبحث عن الاحاديث التي لا يمكن التوفيق بينها من حيث الحكم على بعضها بانه ناسخ وعلى البعض الاخر بانه منسوخ (٧) .

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٥٢
(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢٣٠ هـ) تجد الكثير من ذلك
(٣) انظر توضيح الافكار ص ٤٢٣ ج ٢
(٤) تدريب الراوى ص ١٩٧
(٥) انظر الرسالة المستطرفة الكتب المؤلفة في علل الحديث ص ١٠٧
(٦) راجع الرسالة المستطرفة ص ١١٥ وتوضيح الافكار ج ٢ ص ٤١٢
(٧) الرسالة المستطرفة ص ٦٠

هذا عرض سريع للمعالم التي بحث فيها علماء الحديث في (علم دراية الحديث) والتي اعاروها اهتماما بالغا • وهي تدخل في بحثنا هذا في باب النقد الخارجي • للحديث ، وسوف نختار عالما اجتهد في هذا العلم واسفنا فيه بعض المقاييس الشاملة الدقيقة (في حال الراوي والرواية) وهو ابو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي في كتابه المشهور الا وهو : الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع • حققه السيد احمد صقر ونشر دار التراث في القاهرة والمكتبة العتيقة تونس •

وقبل ان نتبل على تلك الاصول والمقاييس يجدر بنا ان نتعرف على المؤلف من ترجمة اثبتها له المحقق السيد احمد صقر في الطبعة الاولى من الكتاب ١٩٧٠م ١٣٨٩هـ

جاء في هذه الترجمة :

عياض المحدث
٤٧٩ هـ - ٥٤٤ هـ

يعد عياض في طليعة الرعيل الاول من علماء المغرب ، الذين طار ذكرهم كل مطار على اختلاف الاجيال والاعصار، حتى قال قائلهم : لولا عياض ما ذكر المغرب • وشاع ذلك في كتبهم ودار على السنتهم في مجال التباهي والافتخار •

وقد عرّف به ابنه محمد في رسالة موجزة مركزة ، كانت العماد لكل من ترجم له من بعده ، قال فيها :

"انه عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى ابن عياض • وقد استقر اجداده في القديم بجهة بسطة من بلاد الاندلس، ثم انتقلوا الى المدينة فاس • وكان لهم استقرار بالقيروان •

وكما يهم القاضي عياض معرفة مواطن الرواة، وقد وضع شروطا اساسية لها ، يهمنا نحن ان نتعرف عن موطنه هو وموطن اسرته •

ويذكر ابنه محمد عن وفاة والده ، ان اباه عياض ، نهض لمراكش من سبته في (٥٤٣ هـ) فاجتمع فيها بعبد المؤمن ، وامره بلزومه محله الى ان خرج عبد المؤمن لغزو دكالة ، فخرج بصحبته ، فمرض بعد مسيرة مرحلة ، فاذن له في الرجوع فرجع الى حضرة مراكش ، فاقام بها مريضا نحوا من ثمانية ايام ، ثم مات ليلة الجمعة التاسع من جمادى الاخره عام (٥٤٣ هـ) ودفن فيها في باب اللان داخل السور.

وان تلك الاوصاف الجميلة التي وصف بها ابن عياض اباه قد يكون لعاطفة البنوة دخل كبير في اسباغها عليه ، ولكن الذين خالطوا عياضا وخبروا احواله ، قد وصفوه بمثلها ، او باحسن منها .

وهذا القاضي ابن القصير يصف لقاءه الاول لعياض ويتحدث عن خلاله وسجاياه باوصاف جليلة للغاية.

وهذا تلميذه ابن بشكوال يقول عنه : انه عني بلقاء الشيوخ والاخذ عنهم ، وجمع من الحديث كثيرا وله به عناية خاصة ، واهتمام بجمعه وتقييده ، وهو من اهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم ، واستقضى ببلده مدة طويلة فحمدت سيرته فيها . (١)

اما معاصره الفتح بن خاقان فقد قال عنه في قلائد العقيان :

" جاء على قدر وسبق الى نيل المعالي وابتدره واستيقظ لها والناس نيام ، ثم يطيل كثيرا في مدحه والثناء عليه ..

حتى قال : وقد اثبت من كلامه البديع واللفظ والاغراض ، ما هو اسحر من العيون النجل والجفون المراض ..." (٢)

وتعاور المترجمون له من بعد ذلك تقريظه بما لا يخرج عن تلك المعاني التي ذكرها هؤلاء الذين شاهدوه وفي مقدمتهم ابن الآبار (٦٥٨ هـ) وقال فيه كلاما كالذى اوردناه عن تلميذه .

ولقد كانت اوقات عياض موزعة على ثلاثة اعمال رئيسية : القضاء ، والتأليف ، والافراد لما يؤلفه .

---

(١) انظر المقدمة لكتاب الالماع "

(٢) المصدر نفسه

ودارت مؤلفاته على ثلاثة علوم : الفقه والتاريخ والحديث . والطابع العام لكتبه هو طابع الرواية . والعلم كما يقوله الزمخشري : مدينة احد بابيها الرواية والثاني الدراية . وسعة رواية عياض هي التي احلته المحل الاول في الفقه المالكي ، وجعل ابناء عصره يعولون عليه في حل الفاظ مدونة . وضبط مشكلاتها ، وتحرير رواياتها . وهي التي مكنت له من اسباب التفوق في تأليف كتب الحديث التي نقتصر عليها هذا الحديث (١)

ألف القاضي عياض في شرح الحديث ثلاثة كتب هي : مشارق الانوار ، واكمال المعلم ، وشرح حديث ام زرع . والف في علوم الحديث كتابا هو كتاب الالماع .

كتاب الالماع للقاضي عياض وما يتضمن من مقاييس في اصول الرواية وتقييد السماع

ذكر في مقدمته ان راغبا رغب اليه في تلخيص فصول في معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية ، وتبين انواعها وما يصح وما يتزيف وما يتفق من وجوهها وما يختلف فاجابه الى ما طلب لانه :

" لم يحتن احد بالفصل ، الذى رغبته كما يجب ، ولا وقفت فيه على تصنيف يجد فيه الراغب ما رغب . وجمعت في ذلك نكتا غريبة من مقدمات علم الاثر واصوله . وقدمت بين يدى ذلك كله ابوابا مختصرة في عظم شأن علم الحديث وشرف اهله ، ووجوب السماع والادلاء له ونقله ، والامر بالضبط والوعي والاتقان ، وختمته بباب في احاديث غريبة ، ونكت مفيدة عجيبة ، من اداب المحدثين وسيرهم ، وشوارد من اقاصيصهم وخبرهم " (٢)

وغني عن البيان ان قول عياض : انه لم يقف في هذا العلم على تصنيف ليس على اطلاقه ، بل هو مقصور على اهل المغرب ، فهم الذين ليس لهم تأليف في علوم الحديث قبل كتابه . اما اهل المشرق فلهم فيه تآليف كثيرة قد اشار اليها في مقدمته حيث يقول : فاول فصوله :

معرفة ادب الطالب والاخذ والسماع . ثم معرفة علم ذلك ووجوهه وعمن يؤخذ ، ثم الاتقان والتقييد ، ثم الحفظ والوعي ، ثم التمييز والنقد بمعرفة صحيحة من سقيمة وحسنه من مقبوله ، ومتروكه وموضوعه ، واختلاف روايته وعلله ، وتمييز مسنده ومرسله ، وموقوفه من موصوله ، ثم معرفة طبقات رجاله : من الثقة والحفظ والعدالة والجرح والضعف والجهالة ، والتقدم والتأخر .

---

(١) الترجمة عن حياة المؤلف للسيد احمد صقر (دار التراث - القاهرة - الطبعة الاولى)
(٢) المقدمة من الكتاب ص ٢١

ثم تمييز زيادات الحفاظ وغيرهم فيه ، وفصل المدرج اثناءه من اقوال ناقليه .
ثم معرفة غريب متونه وتفسير الفاظه ، ثم معرفة ناسخه من منسوخه ، ومفسره من مجمله ، ومتعارضه ومشكله . ثم التفقه فيه واستخراج الحكم والاحكام من نصوصه ومعانيه .

ثم النشر وآدابه . وكل فصل من هذه الفصول علم قائم بنفسه . وفي كل منها تصانيف عديدة وتآليف جمة مفيدة .

ولو لم يقل عياض ذلك لما كان هناك مندوحة عن تفسير قوله بانه لم يجد بين مصنفات المشارقة مصنفا في علوم الحديث لانه قد جمع مواد كتابه من كتب المشارقة ولا سيما المحدث الفاضل للرامهرمزي ومعرفة علوم الحديث للحاكم ، والكفاية في قوانين الرواية ، والجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ، وغيرها من كتب الخطيب البغدادي وقد ذكر في الكتاب الذي ترجم فيه لمائة شيخ ممن اخذ عنهم رواية او اجازة : انه روى تلك الكتب وغيرها من كتب المشارقة في علوم الحديث (١)

بدأ عياض كتابه بباب تحدث فيه عن وجوب طلب الحديث واتقانه وضبطه وحفظه ووعيه ، اورد فيه طائفة من الاحاديث الدالة على وجوبه والرحلة في طلبه ، ووجوب تبليغه والتحذير من الكذب والافتراء فيه .

والباب الثاني : في شرف الحديث واهله ، وذكر فيه من الاحاديث والاثار والاشعار ما طاب له ايراده دون تمحيص اوتدقيق وهو اضعف فصول الكتاب .

والباب الثالث : تحدث فيه عن آداب طالب السماع وما يجب ان يتخلق به .

والباب الرابع : وهو موجز جيد عما يلزم من اخلاص النية في طلب الحديث وانتقاء من يؤخذ عنه .

والباب الخامس : متى يستحب سماع الطالب ، ومتى يصح سماع الصغير . ولكنه ذكر فيه حديثا رفعه اسماعيل ابن رافع ونصه : " من تعلم علما وهو شاب كان كوشم في حجر ومن تعلم بعد ما يدخل في السن كان ككاتب على ظهر الماء " واعقبه بقوله بحديث عن ابي هريرة : " ان رسول الله (ص) من تعلم العلم وهو شاب ، كان كوشم في حجر " وهو حديث موضوع لا يصح عن رسول الله .

---

(١) المقدمة من كتاب الالماع ص ٢٢

ويأتي بعد ذلك باب الابـــواب :

<u>الباب السـادس :</u> وهو الخاص بانواع الاخذ واصول الرواية ، وهي ثمانية ضــروب :

أ ـ السماع من لفظ الشيخ .
ب ـ القــراءة عليـــه .
ج ـ المناولـــة .
د ـ الكتابـــة .
هـ ـ الاجـــازة .
و ـ الاعلام للطالب بان هذه الكتب روايته .
ز ـ وصية الشيخ بكتبه له .
ح ـ الوقوف على خط الراوى فقط .

وقد فصل القول على هذه الضروب ضربا ، وبيّن اقسامها وماز صحيحها من سقيمهـــا فاجاد وافاد ، وضم فيه الى اقوال المشارقة اقوال المغاربة والاندلسيين التي تلقفهـــــن الشفاه او اجتناها من المصنفات .

ولقد بلغ عياض ذروة الكمال في حديثه على الضرب الخامس الخاص بالاجازة واستوفى الكلام على وجوهها الستة :

أ ـ الاجازة لكتب معينة واحاديث مخصصة مفسرة اما في اللفظ والكتب واما محال على فهرسة حاضرة مشهــورة .

ب ـ ان يجيز لمعين على العموم والابهام ، دون تخصيص ولا تعيين لكتـب ولا احاديث .
ج ـ ان يجيز للعموم من غير تعيين المجاز له .
د ـ الاجازة للمجهول وهي على ضــروب .
هـ ـ الاجازة للمعدوم كقوله : "اجزت لفلان وولده وكل ولد يولد له"
و ـ الاجازة لما لم يروه المجيز بعد .

والفضل للقاضي عياض في هذا الباب انه نقل في تضاعيف كلامه نصوصا قيّمة من كتـب اهل الفقه ومن غيرهم . ومما يزيد في قيمة هذه النصوص ان الكتب التي نقل منها مفقودة . والقليل الموجود منها مازال مخطوطا ، كنقله من كتاب الوجازة لابي العباس الغمرى المالكي ، وكتاب ابي مروان الطيني ، والبرهان لابي المعالي الجويني ، وابي الطيب الطبرى ، وابي الحســن الماوردى ، وابي الوليد الباجي .

وهو عندما يذكر الاقوال بين اوجه الوفاق والخلاف بينهما ، ويصطفي منها يرد بالحجة والبرهان .

وقد احسن عياض بتفوقه في شرحه لهذا الضرب من ضروب الرواية ، فقال في ختام كلامه عنها : " وقد تقصينا وجوه الاجازة بما لم نسبق اليه ، وجمعنا فيه تفاريق المجموعات والمشافهات والمستنبطات بحول الله وعونه وفعلا صدق فيما قال .

الباب السادس : وهو في العبارة عن النقل بوجوه السماع ، والاخذ ، والمتفق في ذلك والمختلف فيه ، والمختار منه عند المحققين ، وعند المحدثين ، وهو فصل جيد برزت فيه شخصيته ، ودقته في النقل والتلخيص .

الباب السابع : في تحقيق التقييد والضبط والسماع ، ومن سهل في ذلك وشدد .

الباب الثامن : ويبحث في التقييد بالكتاب والمقابلة والشكل والنقط والضبط وقد وفق في عرض هذين البابين كثيرا .

الباب التاسع : في التخريج والالحاق والنقد . وقد استشهد بابيات مطلعها :

خير ما يقتني اللبيب كتاب   محكم النقل متقن التقييد

ثم تحدث عن التصحيف والتمريض والتطبيب ، والضرب والحك والشق والمحو واختلاف العلماء في الحرف المتكرر ايهما اولى بالضرب .

الباب العاشر : ويدور حول تحري الرواية والمجيء باللفظ ومن رخص من العلماء في المعنى ومن منع . ولما تحدث فيه عن اختلاف العلماء في ذكر بعض الحديث لاستخراج نكته لا تعلق لها ببقيته قال : " وقد تقصينا الكلام في هذا في الاكمال المخطوط لتتم فائدة القارئ .

الباب الحادي عشر : ويبحث في اصلاح الخطأ وتقويم اللحن واختلاف العلماء في ذلك . وقال ان الذي استقر عليه عمل الاشياخ في نقل الرواية كما وصلت اليهم وسمعوها ، ولا يغيرونها في كتبهم ومنهم من كان يجسر على الاصلاح وربما نبه على وجه الصواب وربما وهم في اشياء وتحكم فيها بما ظهر له او بما رآه في حديث آخر ، وربما كان الذي اصلحه صوابا وربما غلط فيه واصلح الصواب بالخطأ .

الباب الثاني عشر: وهو باب ضبط اختلاف الروايات رأى : " ان اولى ذلك تكون الام على رواية مختصة ، ثم ماكانت من زيادة الاخرى الحقت ، او من نقص اعلم عليها ، او من خلاف خرج في الحواشي واعلم على ذلك كله بعلامة صاحبه ، من اسمه اوحرف منه للاختصار لا سيما مع كثرة الخلاف والعلامات.

ولا يغفل المحتبل بهذا عند كثرة العلامات واختلاف الروايات تقييد ذلك اول دفتره او على ظهر جزئه او آخره ، والتعريف بكل علامة لهذه لئلا ينسى وضع تلك العلامات مع طول الزمن ، وكبر السن ، واختلال الذهن ، فتختلط عليه روايته ، ويشكل عليه ضبطه . ومن الصواب الا يتساهل الناظر في ذلك ، ولا يهمله فربما احتاج الى تخريج حديث اوتصنيف كتاب فلا يأتي به على رواية من يسنده اليه ، ان لم يحتبل ذلك ، فيكون من جملة اصناف الكاذبين .

وهذا كلام جيد يصلح ان يكون اساسا للنشر والتحقيق في عصرنا الحاضر.

ثم يبين متى يستحب الجلوس للاسماع من المحدث ومتى يمتنع واعتمد في هذا الباب على ابن خلاد ، ونقده في اختيار سن الخمسين حدا لحسن التحديث . وقال: وكم من السلف ومن بعدهم من المحدثين من لم ينته الى هذا السن ولا استوفى هذا العمر ، ومات قبله ، وقد نشر من الحديث مالا يحصى وذكر منهم الكثير، ونقل قول ابن خلاد فاذا تناهى العمر فاحب ان يمسك في الثمانين وقال : ان الحد عنده في ترك التحديث التغير وخوف الخرف ، والا فانس بن مالك وغيره من الصحابة والتابعين ومن تلاهم : حدثوا ونيفوا على هذا العدد ، وقارب كثير منهم المائة ونيف عليها ، وقال بعد انتهائه من هذا الباب :

" هذه فصول وابواب انتخبناها في هذا الكتاب ، واتينا منها بالمحض اللباب مما يحتاج اليه طالب علم الحديث في طلبه ويلتزمه من وظائفه وآدابه ، ويضطر اليه في علم مآخذه ومباديه . وأتينا في ذلك من المعقول والمنقول ما يعترف المنصف بالاجادة فيه " (١)

ثم ختم الكتاب بباب جامع لفوائد من الحديث ، وشوارد من سير اهله ونوادر من الاثار تتعلق بالحديث وعلمه ومحاسن من آداب المشايخ في سماع الحديث ونقله .

---

(١) المقدمة لكتاب الالماع ص ٢٨

وكان في استطاعة عياض ان يلحق ما جاء به في هذا الفصل بما كتبه المناسبة له من الكتاب ، ولكنه فعل ذلك مستنا بامامه العظيم مالك بن انس فانه عقد في آخر الموطأ كتاب الجامع "جمع فيه كثيرا من الاحاديث التي استغرقت مائة وعشرين صفحة".

وظل كتاب الالماع مشرعا يستقي منه المؤلفون في علوم الحديث وممن انتفع به وصرح بانه قد قلده : ابو عمرو بن الصلاح المتوفي سنة ٦٤٢ هـ ولكنه كان في اكثر الاحيان يذكر قوله ولا يصرح باسمه ولا يشير اليه.

وكذلك استقى منه كل المؤلفين الذين داروا في فلك مقدمة ابن الصلاح ، وجعلوها كعبة يطوفون بها ، ويوجهون اليها وجوه ابحاثهم ، كالعراقي والزركشي والبقاعي وابن حجر والسخاوي والسيوطي والبلقيني وابن جماعة وغيرهم ممن يطول ذكرهم . (١)

وقد عده ابن حجر اول الكتب المؤلفة في المصطلح بعد كتب الخطيب ، ووصفه بانه كتاب لطيف ، في حين انه وصف المحدث الفاصل لابن خلاد بعدم الاستيعاب ومعرفة علوم الحديث للحاكم بعدم التهذيب ومعرفة ابي نعيم بالخصاصة الى التعقيب .

وقد وصل الينا كتاب الالماع من طريق تلاميذ عياض الذين رحلوا الى المشرق ومروا بالاسكندرية وحدثوا به فيها . ومن هؤلاء ابو الحسن علي بن عتيق بن مؤمن الانصاري (٥٢٣ هـ - ٥٩٨ هـ) وهو قرطبي نزل مدينة فاس ثم رحل مشرقا سنة ٥٦٠ هـ .

والنسخة الثانية نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق وعدد اوراقها ٤٩ ورقة وعلى صفحة العنوان كتب هذا السماع "قرأ جميع هذا التأليف على الفقيه .. ابو عبد الله: محمد بن احمد بن مرزوق فليرو ذلك عني ويروه لمن شاء . وكتب محمد بن احمد بن محمد اللخمي ، المعروف بابن ابي عزنة وكتبت في جمادى الاول سنة ٥٩٥ هـ " .

وجاء في اخر النسخة : "وكتبه لنفسه بخط يده: موسى بن عمران بن موسى بن عياض اليحصبي" (٢)

من الملاحظ بعد عرضنا لمقاييس عياض (٤٧٩ - ٥٤٤ هـ) ان كل هذه المقاييس هي نظرية ، ولذلك تدخل في منهج بحثنا في باب النقد الخارجي .

اذن خير من يمثل علم الدراية وبيان حال الراوي والمروي بحثا شاملا ، هو القاضي ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ولقد ازدهر علم اصول الحديث على يده ازدهارا قيما وهو مازال منهلا يأخذ منه كل من أراد .

---

(١) المقدمة لكتاب الالماع ص ٢٩
(٢) = = = ص ٣١

ابن الصلاح ٦٤٣ هـ .

وقد قام في القرن السابع للهجرة الحافظ الفقيه ابن الصلاح الشهرزوري (٦٤٣ هـ) ونزل دمشق ودرس الحديث في المدرسة الاشرفية . فاعتنى بتصانيف الخطيب المفرقة وجمع شتات مقاصدها وضم اليها من غيرها نخب فوائدها فاجتمع في كتابه ما تفرق في غيره . وعكف الناس عليه وساروا بسيره فنظموا اقواله واختصروها واستدركوا عليها واقتصروا وعارضوا وانتصروا .(١)

ويحسن بنا ان نقتطف من هذا المؤلف جميع ما ورد في معرفة من تقبل روايته ومن ترد .

قال ابن الصلاح : اجمع جماهير ائمة الحديث والفقه انه يشترط فيمن يحتج بروايته ان يكون عدلا ضابطا لما يرويه ، وتفصيله ان يكون مسلما بالغا عاقلا سالما من اسباب الفسق وخوارم المروءة متيقظا غير مغفل حافظا ان حدث من حفظه ، ضابطا لكتابه ان حدث من كتابه . وان كان يحدث بالمعنى اشترط فيه مع ذلك ان يكون عالما بما يحيل المعاني والله اعلم وتوضح هذه الجملة بمسائل .

الاولى : عدالة الراوي تارة تثبت بتنصيص المعدلين على عدالته وتارة تثبت بالاستفاضة فمن اشتهرت عدالته بين اهل النقل او نحوهم من اهل العلم وشاع الثناء عليه بالثقة والامانة استغنى فيه بذلك عن بينة شاهدة بعدالته تنصيصا . وهذا هو الصحيح في مذهب الشافعي وعليه الاعتماد في فن اصول الفقه . وممن ذكر ذلك من اهل الحديث ابو بكر الخطيب الحافظ ومثل ذلك بمالك وشعبة والسفيانين والاوزاعي والليث وابن مبارك ومن جرى مجراهم في نباهة الذكر واستقامة الامر فلا يسأل عن عدالة هؤلاء وامثالهم وانما يسأل عن عدالة من خفي امره على الطالبين . وتوسع ابن عبد البر الحافظ في هذا فقال : كل حامل علم معروف العناية به فهو عدل محمول في امره على العدالة حتى يتبين جرحه لقوله صلى الله عليه وسلم : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله . وفيما قاله اتساع غير مرضي والله اعلم .

والثانية : ويعرف كون الراوي ضابطا بان نعتبر رواياته الثقات المعروفين بالضبط والاتقان فان وجدنا رواياته موافقة ولو من حيث المعنى لرواياتهم او موافقة لها في الاغلب والمخالفة نادرة ، عرفنا حينئذ كونه ضابطا ثبتا . وان وجدناه كثير المخالفة لهم عرفنا اختلال ضبطه ولم نحتج بحديثه والله اعلم .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر ص ٣

- ابن الصلاح هو: تقي الدين ابو عمر عثمان ابن صلاح الدين عبد الرحمن الشهرزوري الاربيلي الشافعي . كان من فقهاء الجمهور وصاحب علم الحديث والفتاوى المعروفة جمع بعض اصحابه فتاواه في مجلد . توفي بدمشق سنة ٦٤٣ هـ (انظر الكنى والالقاب للشيخ عباس القمي، ج ١ ص ٣٣١

الثالثة ـ التعديل مقبول من غير ذكر سببه على المذهب الصحيح المشهور لان اسبابه كثيرة يصعب ذكرها فان ذلك يحوج المعدل الى ان يقول لم يفعل كذا لم يرتكب كذا ، فعل كذا وكذا فيعدد جميع ما يفسق بفعله او بتركه وذلك شاق جدا . واما الجرح فانه لا يقبل الا مفسرا مبين السبب لان الناس يختلفون فيما يجرح وما لا يجرح . فيطلق احدهم الجرح بناء على امر اعتقده جرحا وليس بجرح في نفس الامر فلا بد من بيان سببه لينظر فيما هو جرح ام لا . وهذا ظاهر مقرر في الفقه واصوله . وذكر الخطيب الحافظ انه مذهب الائمة من حفاظ الحديث ونقاده مثل البخاري ومسلم وغيرهما . ولذلك احتج البخاري بجماعة سبق من غيره الجرح لهم كعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما ، وكاسماعيل بن ابي اويس وعاصم بن علي وعمرو بن مرزوق وغيرهما واحتج مسلم بسويد بن سعيد وجماعة اشتهر الطعن فيهم . وهكذا فعل ابو داود السجستاني وذلك دال على انهم ذهبوا الى ان الجرح لا يثبت الا اذا فسر سببه ومذاهب النقاد للرجال غامضة مختلفة . وعقد الخطيب بابا في بعض اخبار من استفسر في جرحه فذكر ما لا يصلح جارحا . منها عن شعبة انه قيل له لم تركت حديث فلان فقال رأيته يركض على برذون فتركت حديثه ومنها عن مسلم بن ابراهيم انه سأل عن حديث الصالح المري . فقال ما يصنع بصالح ذكروه يوما عند حماد بن سلمة فامتخط حماد والله اعلم . قلت ولقائل ان يقول انما يعتمد الناس في جرح الرواة ورد حديثهم على الكتب التي صنفها ائمة الحديث في الجرح او في الجرح والتعديل . وقل ما يعترضون فيها لبيان السبب بل يقتصرون على مجرد قولهم فلان ضعيف وفلان ليس بشيء ونحو ذلك او هذا حديث ضعيف . وهذا حديث غير ثابت ونحو ذلك . فاشتراط بيان السبب يفضي الى تعطيل ذلك وسد باب الجرح في الاغلب الاكثر . وجوابه ان ذلك وان لم نعتمده في اثبات الجرح والحكم به فقد اعتمدناه في ان توقفنا عن قبول حديث قالوا فيه مثل ذلك بناء على ان ذلك اوقع عندنا فيهم ريبة قوية يوجب مثلها التوقف . ثم من انزاحت عنه الريبة فلم يبحث عن حاله اوجب الثقة بعدالته . قبلنا حديثه ولم نتوقف كالذين احتج بهم صاحبا الصحيحين وغيرهما ممن مسهم مثل هذا الجرح من غيرهم . فافهم ذلك فانه مخلص حسن والله اعلم .

الرابعة ـ اختلفوا في انه هل يثبت الجرح والتعديل بقول واحد او لا بد من اثنين ؟ فمنهم من قال لا يثبت ذلك الا باثنين كما في الجرح والتعديل في الشهادات ومنهم من قال وهو الصحيح الذي اختاره الحافظ ابو بكر الخطيب وغيره انه يثبت بواحد لان العدد لم يشترط في قبول الخبر فلم يشترط في جرحه رواية وتعديله بخلاف الشهادات والله اعلم .

التاسعة : اختلفوا في قبول رواية المبتدع الذي لا يكفر في بدعته . فمنهم من رد روايته مطلقا لانه فاسق ببدعته . وكما استوى في الكفر المتأول وغير المتأول يستوى في الفسق المتأول وغير المتأول . ومنهم من قبل رواية المبتدع اذا لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه او لاهل مذهبه سواء كان داعية الى بدعته او لم يكن . وعزا بعضهم هذا الى الشافعي لقوله اقبل شهادة اهل الاهواء الا الخطابية من الرافضة لانهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم . وقال قوم تقبل روايته اذا لم يكن داعية ولا تقبل اذا كان داعية الى بدعته وهذا مذهب الكثير او الاكثر من العلماء وحكى بعض اصحاب الشافعي رضي الله عنه خلافا بين اصحابه في قبول رواية المبتدع اذا لم يدع الى بدعته . وقال اما اذا كان داعية فلا خلاف بينهم في عدم قبول روايته . وقال ابو حاتم بن حبان البستي احد المصنفين من ائمة الحديث الداعية الى البدع لا يجوز الاحتجاج به عند ائمتنا قاطبة لا اعلم بينهم فيه خلافا . وهذا المذهب الثالث اعدلها واولاها . والاول بعيد مباعد للشائع من ائمة الحديث فان كتبهم طافحة بالرواية عن المبتدعة غير الدعاة . وفي الصحيحين كثير من احاديثهم في الشواهد والاصول والله اعلم .

العاشرة : التائب من الكذب في حديث الناس وغيره من اسباب الفسق تقبل روايته الا التائب من الكذب متعمدا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا تقبل روايته ابدا وان حسنت توبته على ما ذكر غير واحد من اهل العلم . منهم احمد بن حنبل وابو بكر الحميدي شيخ البخاري واطلق الامام ابو بكر الصيرفي الشافعي فيما وجدت له في شرحه لرسالة الشافعي فقال كل من اسقطنا خبره من اهل النقل بكذب وجدناه عليه لم نعد لقبوله بتوبة تظهر . ومن ضعفنا نقله لم نجعله قويا بعد ذلك وذكر ان ذلك مما افترقت فيه الرواية والشهادة . وذكر الامام ابو المظفر السمعاني المروزي ان من كذب في خبر واحد وجب اسقاط ما تقدم من حديثه . وهذا يضاهي من حيث المعنى ما ذكره الصيرفي والله اعلم .

الحادية عشرة : اذا روى ثقة عن ثقة حديثا ورجع المروي عنه فنفاه فالمختار انه كان جازما بنفيه بان قال ما رويته او كذب علي او نحو ذلك فقد تعارض الجزمان والجاحد هو الاصل . فوجب رد حديث فرعه ذلك . ثم لا يكون جرحا له يوجب رد باقي حديثه لانه مكذب لشيخه ايضا في ذلك . وليس قبول جرح شيخه له باولى من قبول جرحه لشيخه فتساقطا اما اذا قال المروي عنه لا اعرفه اولا اذكره او نحو ذلك . فذلك لا يوجب رد رواية الراوي عنه . ومن روى حديثا ثم نسيه لم يكن ذلك مسقطا للعمل به عند جمهور اهل الحديث وجمهور الفقهاء والمتكلمين خلافا لقوم من اصحاب ابي حنيفة صاروا الى اسقاطه بذلك . وبنوا عليه ردهم حديث سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا نكحت المرأة بغير اذن وليها فنكاحها باطل) . الحديث من اجل ابن جريج قال لقيت الزهري فسألته عن هذا الحديث فلم يعرفه . وكذا حديث ربيعة الرأي عن سهيل بن ابي صالح عن ابيه عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويمين .

الخامسة : اذا اجتمع في شخص جرح وتعديل فالجرح مقدم لان المعدل يخبر عما ظهر في حاله والجارح يخبر عن باطن خفي على المعدل . فان كان عدد المعدلين اكثر فقد قيل التعديل اولى والصحيح والذى عليه الجمهور ان الجرح اولى لما ذكرناه والله اعلم .

السادسة : لا يجزىء التعديل على الابهام من غير تسمية المعدل فاذا قال حدثني الثقة أو نحو ذلك مقتصرا عليه لم يكتف به فيما ذكره الخطيب الحافظ والصيرفي الفقيه وغيرهما خلافا لمن اكتفى بذلك . وذلك لانه قد يكون ثقة عنده وغيره قد اطلع على جرحه بما هو جارح عنده او بالاجماع فيحتاج الى ان يسميه حتى يعرف .

السابعة : اذا روى العدل عن رجل وسماه لم يجعل روايته عنه تعديلا منه له عند اكثر العلماء من اهل الحديث وغيرهم . وقال بعض اهل الحديث وبعض اصحاب الشافعي يجعل ذلك تعديلا منه له لانه يتضمن التعديل . والصحيح هو الاول لانه يجوز ان يروى عن غير عدل فلم يتضمن روايته عنه تعديله .

الثامنة : في رواية المجهول . وهو في غرضنا ههنا اقسام .

احدها المجهول العدالة من حيث الظاهر والباطن جميعا وروايته غير مقبولة عند الجماهير على ما نبهنا عليه اولا .

والثاني المجهول الذى جهلت عدالته الباطنة . وهو عدل في الظاهر وهو المستور فقد قال بعض ائمتنا المستور من يكون عدلا في الظاهر ولا تعرف عدالة باطنه . فهذا المجهول يحتج بروايته بعض من رد رواية الاول . وهو قول بعض الشافعيين وبه قطع منهم الامام سليم بن ايوب الرازى . قال : لان امر الاخبار مبني على حسن الظن بالراوى ولان رواية الاخبار تكون عند من يتعذر عليه معرفة العدالة في الباطن فاقتصر فيها على معرفة ذلك في الظاهر وتفارق الشهادة فانها تكون عند الحكام ولا يتعذر عليهم ذلك . فاعتبر فيها العدالة في الظاهر والباطن . قلت ويشبه ان يكون العمل على هذا الرأى في كثير من كتب الحديث المشهورة في غير واحد من الرواة الذين تقادم العهد بهم وتعذرت الخبرة الباطنية بهم . والله اعلم .

والثالث المجهول العين . وقد يقبل رواية المجهول العدالة من لا يقبل رواية المجهول العين . ومن روى عنه عدلان وعيناه فقد ارتفعت عنه هذه الجهالة . ذكر ابو بكر الخطيب البغدادى في اجوبة مسائل سئل عنها : ان المجهول عند اصحاب الحديث هو كل من لم تعرفه العلماء ومن لم يعرف حديثه الا من جهة راو واحد . واقل ما يرتفع به الجهالة ان يروى عن الرجل اثنان من المشهورين بالعلم الا انه لا يثبت له حكم العدالة بروايتهما عنه . قلت قد خرج البخارى في صحيحه حديث جماعة ليس لهم غير راو واحد ، منهم مرداس الاسلمي لم يروعنه غير قيس بن ابي حازم . وكذلك خرج مسلم حديث قوم لا راو لهم غير واحد منهم ربيعة بن كعب الاسلمي لم يروعنه غير ابي سلمة بن عبد الرحمن . وذلك منهما مصير الى ان الراوى قد يخرج عن كونه مجهولا مردودا برواية واحد عنه والخلاف في ذلك متجه في التعديل نحو اتجاه الخلاف المعروف في الاكتفاء بواحد في التعديل على ما قدمناه والله اعلم .

كان عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال لقيت سهيلا فسألته عنه فلم يعرفه . والصحيح ما عليه الجمهور . لان المروي عنه بصدد السهو والنسيان والراوي عنه ثقة عن ا[illegible] ويسوق الحديث . وقد روى كثير من الاكابر احاديث نسوها بعد ما حدثوا بها عن من سمعها منهم فكان احدهم يقول حدثني فلان عني عن فلان بكذا وكذا . وجمع الحافظ الخطيب ذلك في كتاب اخبار من حدث ونسي . ولاجل ان الانسان معرض للنسيان كره من كره من العلماء الرواية عن الاحياء منهم الشافعي رضي الله عنه قال لابن عبد الحكم اياك والرواية عن الاحياء والله اعلم .

الثانية عشرة : من اخذ على الحديث اجرا منع ذلك من قبول روايته عند قوم من ائمة الحديث . روينا عن اسحق بن ابراهيم انه سئل عن المحدث يحدث بالاجر فقال لا يكتب عنه . وعن احمد بن حنبل وابي حاتم الرازي نحو ذلك وترخص ابو نعيم الفضل بن دكين وعلي بن عبد العزيز المكي واخرين في اخذ العوض على الحديث وذلك شبيه باخذ الاجرة على تعليم القرآن ونحوه . غير ان في هذا من حيث العرف خرما للمروءة والظن يساء بفاعله الا ان يقترن ذلك بعذر ينفي ذلك عنه كمثل ما حدثنيه الشيخ ابو المظفر عن ابيه الحافظ ابي سعيد السمعاني ان ابا الفضل محمد بن ناصر السلامي ذكر ان ابا الحسين بن النقور فعل ذلك لان الشيخ ابا اسحق الشيرازي افتاه بجواز اخذ الاجرة على التحديث لان اصحاب الحديث كانوا يمنعونه عن الكسب لعياله والله اعلم .

الثالثة عشرة : لا تقبل رواية من عرف بالتساهل في سماع الحديث او اسماعه كمن لا يبالي بالنوم في مجلس السماع وكمن يحدث لا من اصل مقابل صحيح . ومن هذا القبيل من عرف بقبول التلقين في الحديث . ولا تقبل رواية من كثرة الشواذ والمناكير في حديثه — جاء عن شعبة انه قال لا يجيئك الحديث الشاذ الا من الرجل الشاذ . ولا تقبل رواية من عرف بكثرة السهو في رواياته اذا لم يحدث من اصل صحيح . وكل هذا يخرم الثقة بالراوي وبضبطه . وورد عن ابن المبارك واحمد بن حنبل والحميدي وغيرهم ان من غلط في حديث وبين له غلطه فلم يرجع عنه واصر على رواية ذلك الحديث سقطت روايته ولم يكتب عنه . وفي هذا نظر . وهو غير مستنكر اذا ظهر ان ذلك منه على جهة العناد او نحو ذلك والله اعلم .

الرابعة عشرة : اعرض الناس في هذه الاعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع ما بينا من الشروط في رواة الحديث ومشايخه فلم يتقيدوا بها في رواياتهم لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم وكان عليه من تقدم ووجه ذلك ما قدمناه في اول كتابنا هذا من كون المقصود

المحافظة على خصيصة هذه الامة في الاسانيد والمحاذرة من انقطاع سلسلتها ٠ فليعتبر من الشروط المذكورة ما يليق بهذا الغرض على تجرده وليكتف في اهلية الشيخ بكونه مسلما بالغا عاقلا غير متظاهر بالفسق والسخف وفي ضبطه بوجود سماعه مثبتا بخط غير متهم وبروايته من اصل موافق الاصل شيخه ٠ وقد سبق الى نحو ماذكرناه الحافظ الفقيه ابو بكر البيهقي رحمه الله تعالى ٠ فانه ذكر فيما روينا عنه توسع في السماع من بعض محدثي زمانه الذين لا يحفظون حديثهم ولا يحسنون قراءته من كتبهم ولا يعرفون ما يقرأ عليهم بعد ان تكون القراءة عليهم من اصل سماعهم ٠ ووجه ذلك بان الاحاديث التي قد صحت او وقعت بين الصحة والسقم قد دونت وكتبت في الجوامع التي جمعها ائمة الحديث ٠ ولا يجوز ان يذهب شيء منها على جميعهم وان جاز ان يذهب على بعضهم لضمان صاحب الشريعة حفظها ٠ قال البيهقي فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لم يقبل منه ٠ ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذى يرويه لا ينفرد بروايته والحجة قائمة بحديثه برواية غيره ٠ والقصد من روايته والسماع منه ان يصير الحديث مسلسلا بحدثنا واخبرنا وتبقى هذه الكرامة التي خصت بها هذه الامة شرفا لنبينا المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم والله اعلم ٠

الخامسة عشرة : في بيان الالفاظ المستعملة من اهل هذا الشأن في الجرح والتعديل وقد رتبها ابو محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم الرازى في كتابه في الجرح والتعديل فاجاد واحسن ونحن نرتبها كذلك ونورد ماذكره ونضيف اليه مابلغنا في ذلك من غيره انشاء الله تعالى اما الفاظ التعديل فعلى مراتب الاولى: قال ابن ابي حاتم اذا قيل للواحد انه ثقة او متقن فهو ممن يحتج بحديثه ٠ قلت وكذا اذا قيل ثبت او حجة وكذا اذا قيل في العدل انه حافظ او ضابط والله اعلم ٠ الثانية قال ابن ابي حاتم اذا قيل انه صدوق او محله الصدق اولا بأس فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه وهي المنزلة الثانية ٠ قلت هذا كما قال لان هذه العبارات لا تشعر بشريطة الضبط فينظر في حديثه ويختبر حتى يعرف ضبطه ٠ وقد تقدم بيان طريقه في اول هذا النوع وان لم يستوف النظر المعرف لكون ذلك المحدث في نفسه ضابطا مطلقا واحتجنا الى حديث من حديثه اعتبرنا ذلك الحديث ونظرنا هل له اصل من رواية غيره ٠ كما تقدم بيان طريق الاعتبار في النوع الخامس عشر ٠ ومشهور عن عبد الرحمن بن المهدى القدوة في هذا الشأن انه حدث فقال : حدثنا ابو خلده فقيل له اكان ثقة ؟ فقال كان صدوقا وكان مأمونا وكان خيرا ٠ وفي رواية كان خيارا الثقة شعبة وسفيان ٠ ثم ان ذلك مخالف لماورد عن ابن ابي خيثمة قال قلت ليحي بن معين انك تقول فلان ليس به بأس وفلان ضعيف ٠ قال اذا قلت لك ليس به بأس فهو ثقة ٠ واذا قلت لك هو ضعيف فهو ليس بثقة فلا تكتب حديثه ٠ قلت ليس لك في هذا حكاية ذلك عن غيره من اهل الحديث فانه نسبه الى نفسه خاصة بخلاف ماذكره ابن ابي حاتم والله اعلم ٠ الثالثة قال ابن ابي حاتم اذا قيل شيخ فهو بالمنزلة الثالثة يكتب حديثه وينظر فيه الا انه دون الثانية ٠ الرابعة قال اذا قيل صالح الحديث

فانه يكتب حديثه للاعتبار. قلت وقد جاء عن ابي جعفر احمد بن سنان قال كان عبد الرحمن بن مهدي ربما جرى ذكر حديث الرجل فيه ضعف وهو رجل صدوق فيقول رجل صالح الحديث والله اعلم.

واما الفاظهم في الجرح فهي ايضا على مراتب اولاها قولهم لين الحديث. قال ابن ابي حاتم اذا اجابوا في الرجل لين الحديث فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه اعتبارا.

قلت وسأل حمزه بن يوسف السهمي ابا الحسن الدراقطني الامام. فقال له اذا قلت فلان لين ايش تريد به. قال لا يكون ساقطا متروك الحديث ولكن مجروحا بشيء. لا يسقطعن العدالة. الثانية. قال ابن ابي حاتم اذا قالوا ليس بقوى فهو بمنزلة الاول في كتب حديثه الا انه دونه الثالثة. قال اذا قالوا ضعيف الحديث فهو دون الثاني لا يطرح حديثه بل يعتبر به. الرابعة: قال اذا قالوا متروك الحديث او ذاهب الحديث اوكذاب فهو ساقط الحديث. لا يكتب حديثه وهي المنزلة الرابعة.

قال الخطيب ابو بكر ارفع العبارات في احوال الرواة ان يقال حجة او ثقة. ودونها ان يقال كذاب ساقط اخبرنا ابو بكر بن عبد المنعم الصاعدي الفردي قراءته عليه بنيسابور قال اخبرنا محمد بن اسماعيل الفارسي قال اخبرنا ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي الحافظ اخبرنا الحسين بن الفضل اخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان قال سمعت احمد بن صالح قال: لا يترك حديث رجل حتى يجتمع الجميع على ترك حديثه. قد يقال فلان ضعيف فاما ان يقال فلان متروك فلا الا ان يجمع الجميع على ترك حديثه. ومما لم يشرحه ابن ابي حاتم وغيره من الالفاظ المستعملة في هذا الباب قولهم فلان قد روى الناس عنه. فلان وسط. فلان مقارب الحديث. فلان مضطرب الحديث فلان لا يحتج به. فلان مجهول. فلان لا شيء. فلان ليس بذاك. وربما قيل ليس بذاك القوى. فلان فيه او في حديثه ضعيف. وهو في الجرح اقل من قولهم فلان ضعيف الحديث. فلان ما اعلم به بأسا. وهو في التعديل دون قولهم لا بأس به. وما من لفظة منها ومن اشباهها الا ولها نظير شرحناه او اصل اصلناه ننبه ان شاء الله به عليها والله اعلم (١)

---

(١) مقدمة ابن الصلاح (طبع حلب) ص ١١٤ـ ١٣٧

الدقة في النقد عند علماء الحديث

ان ما يدلنا على مقدار الدقة التي اظهرها علماء الحديث في النقد ، ما ذكر عن الخطيب من انه ألف كتابا في " رواية الاباء عن الابناء " وآخر في " رواية الصحابة عن التابعين (١) وكانت تلك العلوم المتعلقة برجال الحديث تنال اعظم التقدير واكبر العناية من علماء الاسلام في ذلك الوقت ، ومما يروى عن القاضي ابي حامد احمد بن بشر المرزوي ( ) المتوفي (٣٦٢ هـ) كان بحرا زاخرا في حفظ السير والاخبار وكان يزعم ان السير بحر الفتيا وخزانة القضاء على قدر اطلاع الفقيه عليهما يكون استنباطه" (٢)

اما الخطيب البغدادي المتوفي ٤٦٣ هـ فكان آية في قدرته على نقد الوثائق المكتوبة واثبات تزويرها اعتمادا على معرفته بتواريخ حياة الرجال الذين يذكرون فيها (٣)

كما ظهرت كتب جديدة من نوعها في ذلك القرن الغني بالحديث والمحدثين تعالج تصفيحات الحديث منها كتب للخطيب والدارقطني المتوفي (٣٨٥ هـ) .

وكذلك يظهر حرص المسلمين على الحديث تشدد الرواة بالحروف ، فصور لنا الاعمش (٤) صورة واضحة قائلا : " كان العلم عند اقوام كان احدهم لان يخر من السماء احب اليه من ان يزيد فيه واوا او الفا او دالا ، وان احدهم اليوم يحلف على السمكة انها سمينة وانها مهزولة ."

فقد حرصوا على قول النبي (ص) "ينتبذ " لا " ينبذ " وقال الراوي : " نمي خيرا " لا نمّ خيرا " (٥) واعتبر الوثوق بالصدور مما كان مصدره شرطا اساسيا للاعتماد على الرواية .

وحدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، قال : " قال ايوب : " ان لي جارا ثم ذكر من فضله ولو شهد عندي على تمرتين " ما رأيت شهادته جائزة" (٦)

---

(١) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٨
(٢) السبكي ج ٢ ص ٨٢- ٨٣
(٣) الارشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧- ٢٤٨
(٤) الكفاية ص ١٧٨ والاعمش هو سليمان بن مهران (١٤٨ هـ)
(٥) الكفاية ١٨٧- ١٨٩
(٦) المصدر نفسه

ابن خلـــدون ومقاييسه النقديـــة (٨٠٨ هـ - ١٤٠٦م)

٠ ولم يغفل ابن خلدون عما توصل اليه علماء الحديث في هذا المضمار ولا عن تطبيقه على الروايات التاريخية ٠ فانه نظر في امر العدالة والضبط ، وذكر شيئا مـــن هذا القبيل في مقدمته الشهيرة ٠ وهذا بعض ما قاله في هذا الموضوع :

" اعلم انه لما كانت حقيقةُ التاريخ انه خبرٌ عن الاجتماع الانساني الذى هو عمرانُ العالم ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثلُ التوحش والتأنـــس والعصبيات واصناف تغلبات البشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملـــك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بعملهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلـــوم والصنائع وما يحدث عن ذلك العمران بطبيعته من الاحوال " (١)

ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله اسباب تقتضيه ٠ فمنها :

آ- التشيعات للاراء والمذاهب (٢) فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه فاذا خامرها تشيع لرأى او نحلة قبلت مايوافقها من الاخبار لاول وهلة ٠ وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص نتقع في قبـــول الكذب ونقله ٠

٢- ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضا الثقة بالناقلين ٠ وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح ٠

٣- ومنها الذهول عن المقاصد ٠ فكثير من الناقلين لا يعرف من القصد بما عايـــن او سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب ٠

٤- ومنها توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقليـــن ٠

٥- ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل مايداخلها من التلبس والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير حق في نفسه ٠

٦- ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسيـــن الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة ٠ فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها ٠

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٥

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ ومابعدها

ومن الاسباب المقتضية له ايضا وهي سابقة على جميع ماتقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران ، فان كل حادث من الحوادث، ذاتيا كان او فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله ، فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيرا مايعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلوها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها ، وتم بناؤها في حكاية طويلة من احاديث خرافة مستحيلة :

١- من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وامواجه بجرمه ،

٢- ومن قبل ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرور ، ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتقاض العقدة واجتماع الناس الى غيره وفي ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفة عين ،

٣- ومن قبل ان الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل ومايذكر من كثرة الرؤوس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لا انه حقيقة وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية ، والقادح المحيل لها من طريق الوجود ابين من هذا كله ،

٤- وهو ان المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه ، وهذا هو السبب في هلاك اهل الحمامات ، اذا اطبقت عليهم عن الهواء البارد والمتدلين في الابار والمطامير العميقة المهوى اذا سخن هؤلاء بالعفونة ولم تداخلها الرياح فتخلخلها ، فان المتدلي فيها يهلك لحينه ، وبهذا السبب يكون موت الحوت اذا فارق البحر ، فان الهواء لا يكفيه في تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذى يعدله بارد والهواء الذى خرج اليه حار فيستولي الحار على روحه الحيواني ويهلك دفعة ، ومنه هلاك المصعوقين وامثال ذلك ،

ومن الاخبار المستحيلة ما نقله المسعودي ايضا في تمثال الزرزور الذى برومة تجتمع اليه الزرازير في يوم معلوم من السنة حاملة للزيتون ومنه يتخذون زيتهم ، وانظر ما ابعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت ،

ومنها ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة وتشتمل على عشرة الاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون بها حصن ولا معتصم .

وكما نقله المسعودي ايضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسى بن نصير في غزوته على المغرب وانها مغلقة الابواب وان الصاعد اليها من اسوارها اذا اشرف على الحائط صفق ورمى بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص . وصحراء سجلماسه قد نفضها الركاب والادلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر . ثم ان هذه الاحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة مناف للامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية الموجود منها ان يصرف في الانية الخرثي واما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة والبعد (الخرثي بالضم - اثاث البيت)

وامثال ذلك كثيرة وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو احسن الوجوه واوثقها في تمحيص الاخبار وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق على التمحيص على تعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه ممكن او ممتنع واما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عد اهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ بما لا يقبله العقل . وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية لان معظمها اه تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط واما الاخبار عن الواقعات فلا بد في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب ان ينظر في امكان وقوعه . وصار فيها ذلك اهم من التعديل ومقدما عليه . اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة .

واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر بالاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلون وهذا هو غرض هذا الكتاب من تأليفنا (١)

---

(١) مقدمة العلامة ابن خلدون - المطبعة الادبية - بيروت ١٩٠١ ص ٣٥ - ٣٨

ويحق لنا ان نسأل عن نظرية ابن خلدون هذه في طبائع العمران . هل ان طبائع العمران شيء مستقر وراهن فيما يعود الى الطبيعة الجامدة، وفيما يعود الى المجتمع البشري المتحرك، على حد سواء ؟

اني اعتقد انه ان صحت النظرية فيما يعود الى طبائع العمران وما يتعلق منها بالطبيعة، فلا اظن ان ذلك ينسجم مع المجتمع البشري المتغير والمتطور.

وسنتابع في سرد بعضها اعطاه ابن خلدون من مقاييس وآراء في اصول الرواية ثم نقارن بما مرّ معنا عند علماء الحديث في تلك الاصول لنرى الى اى مدى تتّبع ابن خلدون المؤرخ العظيم، خطى علماء الحديث الذين سبقوه بقرون .

قال في وصفه العلّة :

اولاً - وادوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل .. وهي ملاحظة عامة وعابرة كما لا يخفى .

اما فيما يختص في طبيعة العمران في الخليقة، فقد ترك اصولا هامة تستحق الذكر ومنها هذا المقياس .

" للعمران طبائع في احواله ترجع اليها الاخبار، وتحمل عليها الروايات والاثار، فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر اعطته، حقه من التمحيص والنظر، حتى يتبين صدقه من كذبه . وهو يعني بذلك التجرد والبعد عن الهوى والميل .

وقد ورد هذا المقياس عند اكثر علماء الحديث من قبل .

ثانياً -

أ - من الاسباب المقتضية في الكذب في الاخبار الثقة بالناقلين وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح . وهنا يشير الى اعتماد اكثرهم على الاسناد فقط .

ب - ومنها الذهول عن المقاصد، فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع وينقل الخبر على مافي ظنه وتخمينه فيقع في الكذب . والخطأ سهوا يبقى خطأ

ج - ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التطبيق والتصنع فينقلها المخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه . وهذا جهل المخبر بمقتضى احوال الوقائع .

د - ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واضاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة ، فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا بالاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها . وهذا ما سماه علماء الحديث التقرب من السلطان وحب الثروة ومباهج الدنيا .

هـ - الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا ، لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله . فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها ، اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب . وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض ، فهو يركز على ثقافة الراوي وعلمه .

ثالثا - وكثيرا ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم . يقول ان الجاهل ينقل الخبر ولا يميز فيه .

ثم ينقد رواية نقلها المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر ، حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ، ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم بناؤها في حكاية طويلة . من احاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذه التابوت الزجاجي ومصادقة البحر وامواجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرور (١)

طرق النقد لهذه الرواية عند ابن خلدون

١- سبب عقلي : اتخاذ التابوت الزجاجي ومصادمة البحر وامواجه .

٢- سبب منطقي : شيء غير اعتيادي وغير مألوف ان الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرور .

٣- سبب وهمي : الناس البدائيين يقبلون مثل هذه الاخبار ، ان الجن لها رؤوس عديدة وهي قادرة على التشكل .. المراد بكل هذا البشاعة والتهويل لا انه حقيقة .

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٣٦

٤- سبب صحي : وهو ان المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق، يضيق عليه الهواء المتنفس الطبيعي، وتسخن روحه بسرعة لقلته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي ويهلك مكانه.

٥- تعليل صحة ما يقول باعطاء امثلة مشابهة :

موت الحوت اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رئته، اذ هو حار بافراط والماء الذى يعدل له بارد، لا بأس بهذه التعليلات، اذ اننا نراها دقيقة ومنطقية.

رابعا- نقد عدة روايات لبعض المؤرخين :

ثم رواية مانقله البكرى في بناء المدينة المسماة ذات الابواب.

ثم رواية مانقله المسعودى في حديث مدينة النحاس: كل بنائها نحاس ظفر بها موسى بن نصير في غزوته المغرب ويزيد في وصفها.

١- هذه الاحوال التي ذكروا عنها، وقوعها مستحيل عادة ومناف للامور الطبيعية في بناء المدن. ثم ان المعادن، الغاية منها صنع الاواني وليس للبناء.

٢- لا فائدة للنظر في التعديل والتجريح اذا كان الخبر مستحيلا.

٣- ولقد عد اهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل.

٤- الاخبار الشرعية اوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة وبعدالتهم وبضبطهم (١)

وهنا يستشهد بآراء الفقهاء وان كانت غير شاملة فيقول :

" مايذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد في ان "

خامسا :

أ- الزنى مخلط للانساب مفسد للنوع.

٢- القتل ايضا مفسد للنوع.

ج - الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧

ثم يزيد وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران (١)

وما يذكره علماء الحديث من قواعد واصول تفسد الحديث، يمكن ان تكون بالمقابل لما ذكرابن خلدون :

أ- الكذب مهما كانت اسبابه وانواعه مفسد للحديث.
ب- الغلط سواء كان مقصودا من عالم مثلا، او كان غير مقصود من جاهل، ومفسد للحديث
ج- السهـــو قـــد يصدر عن نية طيبة، ويكون سببه ضعف ذاكرة فينسى الراوي كلمة او يقلب كلمة مكان اخرى، او يزيد كلمة في اول الحديث او في اخره او في وسطه كل ذلك مفسد ايضا للحديث.

وبعد هذا نرى ان ما ذكرناه من مقاييس واصول في علم التاريخ عند ابن خلـدون، المؤرخ العظيم في عصره، قد ورد هو نفسه عند علماء الحديث من قبل، فهو اما انه اقتبس عنهم واما ان تكون قضية توارد في الافكار، وعلى الحالين، لا يعد مؤرخنا واضع حجر الزاوية في علم التاريخ .

وبعد عرض هذه المقاييس والاراء التي اوردها ابن خلدون والتي سبق وتكلمنا عنها عند علماء الحديث، نستطيع القول :

ان مقاييس الحديث الصحيح :

" الحديث بصحته، وصحته بروايته، وروايته بالحفظ والعدل وحفظه وعدلـــه بالتعديل والتجريح ، وهذا العلم يتم بالدربة والمران وفهم السنة والقرآن" .

وخلاصة القول : اننا نرى ان ما اعطاه ابن خلدون المؤرخ العظيم في عصـره من آراء ومقاييس في الرواية ، لا يعد جديدا ولا ابتكارا، بل هو موجود من عصور خلت قبل ابن خلدون، في بطون المراجع عند علماء الحديث . علما باننا نقدر جهود مؤرخنا الكبير ونعترف له بجل ما اعطى من قواعد واصول في نقد علم الرواية وخاصة فيما يتعلـق بطبائع الاحوال في العمران والطبيعـة.

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٣٩

الفصل الثانـــي

اهمية نقد الحديث بالنسبة للعلوم الدينية

نقد الحديث يهدف اصلين : الصدور وجهة الصدور

١- الصدور ويعني ان يكون صادرا عن النبي (ص) اوغيره من المعصومين
٢- جهة الصدور وهو ان يكون صادرا على وجه الحقيقة لاتقية فيه ٠ والتقية والمداراة لاتوجد في الاحاديث النبوية ، ذلك ان النبي لم يكن مضطرا لان يساير او يداري احـــدا ٠ فقد عمل بوحي الاله ، ونطق بالحق ، وبشر به في سبيل الناس اجمعين ٠

والاصل الجامع بينهما ان يكون الحديث ثابتا عن مصدر الوحي ، دون نقيصة او زيادة ، لكي يصح الاعتماد عليه والاخذ به ٠

والنقد ضروري للحديث ، ولا بد منه ، لان هناك فاصلا زمنيا ، واختلافات ظاهـــرة وتزويرات مدسوسة ، وزيادات وتحريفات من وثنية واسرائيلية ومسيحية وغيرها ٠

والاهتمام بالحديث ونقده نابع من القرآن نفسه فهو يقول : " ياايها الذين آمنـوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون " (١) واطاعة الله تعني اتباع الكتاب فـي محكماته ٠ واطاعة الرسول تعني اطاعته في سنته الثابتة ٠ فمتابعة السنة تعني متابعـــة الكتاب ، لان السنة مفسرة وموضحة لما اجمل في الكتب ٠ فاكثر ما في الكتاب هي القواعد الكلية في الاصول العقلية والفروع الاحكامية والسنة متكفلة بشرحها وبيان مصاديقها و تفاصيلها ٠ ولو لم يكن الحديث ، لذهبت الكثرة الهامة من علوم الدين ٠ ومثالا على ذلك :

ان القرآن يأمرنا بالصلاة في آيات عدة ، ولكن لا يبين الركعات المفروضات اليوميـة ، ولا الفرائض غير اليومية من الصلاة ، وكذلك الحج والزكاة والجهاد في سبيل الله والامـــر بالمعروف والنهي عن المنكر ٠

وكذلك الاحكام الاقتصادية والسياسية ، فلا نجد لها الا القواعد الكلية واشـارات عامة في القرآن الكريم ، وهذا ما يدعونا الى التمسك بالسنة النبوية ، والحديث اسلاميـــا لا يعني ماورد في الاحكام الشرعية والاصول العقائدية فحسب ، بل انه يشمل ايضا علـى

---

(١) الانفـال الايـة ٢٠ ٠

معالجة كافة جوانب الحياة ويفيد منه في جميع العلوم، ولا يستغني عنه اى انسان مهما كانت ثقافته ونبوغه • ذلك انه يرتبط ارتباطا وثيقا بحياة الانسان العملية والعقائديـــة •

وبما ان الانسان كانسان ، لا يحيط علما بكافة مصالح الحياة ومختلف جوانبها فهو بحاجة ماسة الى شريعة قويمة يستمد منها ويسير عليها • ولو فتشنا التاريخ لوجدنا كـــل الحضارات الصالحة لحياة البشر كبشر مستمدة من الشرائع الالهية بينما الحضارات المنهارة الراجعة الى فساد الانسان ، ليست الا من حيوانية الانسان • ولا قيمة للمجتمع مهمـا علا في صناعاته واختراعاته اذا تجرد من اخلاقه وقيمه الانسانية • والانسان اذا لم يتمتـع بمتع الاخلاق فقد تزل نفسه الى درجة الحيوان واضل سبيلا •

فضرورة علم الحديث ونقده هي بالذات ضرورة الحفاظ على انسانية الانسان ، لانـه يجد كافة الانظمة التربوية والاخلاقية والثقافية والسياسية والاقتصادية ، يجدها كلها في شريعة الله ، التي تحملها الاحاديث الصادرة عن النبي وسنته الكريمة ، كشرح لما اجمل في القرآن •

والحق يقال ان للحديث اهمية كبرى بالنسبة للعلوم الدينية وذلك فيما يعود فـي الواجبات والمحرمات حرصا على اصول التشريع ، حتى لا يتسرب الى الشريعة الاسلاميـة ما ليس منها •

ولقد اهتم علماء المسلمين اهتماما بالغا لمثل هذه الاحاديث لانها تمثل التشريع الاسلامي وتحافظ على سلامته فيما يعود على المسلم بالخير العميم • واهملوا الاحاديث في الترغيب والترهيب ، ونعني بذلك الترغيب في فعل الخير والعادات ، والترهيب مـن فعل الشر والعدوان والبغي •

لا يهم المسلم ان عرف او جهل مثلا هذه الاحاديث مثـلا :



في الترهيب : ان ينام المرء على سطح لا تحجير له او يركب البحر عند ارتجاجه (١) الترهيب من اللعب بالنرد (٢) الترهيب من اقتناء الكلب الا لصيد او ماشية (٣) ترهيب المرأة ان تسافر وحدها بغير محرم (٤) •

---

(١) الترغيب والترهيب الامام الحافظ ج ٤ ص ٦
(٢) ص ٤
(٣) ص ١٥
(٤) ص ١٤

اوالترغيب : في ذكر الله لمن عثرت دابته (١) الترغيب في كلمات يقولها من نزل منزلا (٢) الترغيب في التوبة (٣) الترغيب في الصبر ولا سيما لمن ابتلى (٤) الترغيب في عيادة المريض وتأكيدها والترغيب في دعاء المريض (٥)

وكثير مثل هذه الاحاديث ومايشبهها لا دخل لها في اصول الدين ولا يهم المسلم من ان يشترك في عقيدة ان عرفها او لم يعرفها . وقد رأيت ان اكثر هذه الاحاديث ضررها اكثر من نفعها ان لم يتساويا ، فالترغيب في الصبر الذى يخلق عند المرء الخنوع (٦) والدعاء للمريض بدون علاج (٧) هو ضرر واضح واكيد ، والترغيب في دعاء المرء لاخيه المسافر (٨) هو نوع من الاتكالية على الغير وعدم الاعتماد على النفس. وكثيرا مثل هذه الاحاديث التي يمكننا الاستغناء عنها ونبقى مسلمين مؤمنين بأذن الله ورضاه .

ان مثل هذه الاحاديث استغنى عنها الشيعة ولم يأبهوا لها وصبوا جل اهتمامهم على الاحاديث في التشريع والاحكام وهي التي تكون الركن الاساسي في العقيدة الاسلامية واى تسرب اليها من فساد هو كفر وجحود .

اما اذا لم يجدوا مايبغونه في القرآن او السنة من حكم او تشريع لما يعترضهم في حياتهم من مشاكل واحداث يعمدون الى الاجتهاد .

والاجتهاد درجات ، كل عالم يجتهد قدر علمه وتحصيله فقد يصيب وقد يخطىء .

والحكم ينبثق من اقوال المتخاصمين . قال الرسول (ص) انكم تختصمون الي ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض فاقضي على نحو ما اسمع ، فمن قضيت له بحق اخيه فلا يأخذ منه شيئا ، فانما اقضي له قطعة من نار . ولكنهم اتفقوا على انه صلى الله عليه وسلم لا يقره على خطأ فما اجتهد فيه واقر عليه كان - لا شك - حجة (٩)

واحاديث الاحكام كثيرة وردت في كل الانواع التي جاء فيه القرآن فبينت مجمله وقيدت مفصله وزادت اشياء كثيرة لم يذكرها القرآن وقد عني العلماء قديما بجمعها وترتيبها .

---

(١) الترغيب والترهيب الامام الحافظ ص ١٧ ج ٤
(٢) ص ١٨
(٣) ص ١٩
(٤) ص ٨٤
(٥) ص ١٠٠
(٦) ص ٨٤
(٧) ص ١٠٢
(٨) ص ١٨
(٩) المستصفى للغزالي ج ٢ ص ٣٥٥

انواع الاحاديث الشرعية
الاحكام الخمسة الاسلامية

بعد اطلاعي على الاحاديث النبوية التي جاءت في الشرع نستطيع ان نقسمها الى الاقسام التالية :

١ـ الواجب : وهو ما يجب فعله ولا يعذر في تركه : كالصلاة والصوم والزكاة والحج لمن استطاع واكرام الوالدين .

٢ـ الحرام : وهو ما يجب تركه ولا يعذر في فعله مثل : الزنى وشرب الخمر والتعدى على حقوق الغير والسرقة والقتل وما شابه .

٣ـ المستحب : وهو ما يكون فعله ارجح من تركه نظرا لوجود مصلحة فيه ، غير ملزمة مثل : اطعام الفقير ، الاحسان الى اليتيم ، الاتقان في العمل .

٤ـ المباح : وهو ما تساوى طرفاه من غير ان يكون لاحدهما ترجيح على الاخر ، وكل مايترتب على فعله مفسدة ولم ينص الشرع على فعله تقتضيه . كشرب الدخان والشاى (خمرة المؤمنين) وجميع الاعمال التي لم تذكر في الابواب السابقة .

٥ـ والمكروه : هو ما كان ~~رجحان تركه اقوى من رجحان فعله~~ تركه راجحا : كبيع القرآن كل عمل يتجاوز الحدود المرسومة له يصبح مكروها هذا ويعود الى ادارة الانسان وحسن تصرفه في ترتيبها اذ يحكم العقل في الارادة والعاطفة ويكون كالحوذى الماهر فلا يطلق جماح العاطفة ولا يشد زمام الارادة بل يسوى بينهما دون افراط او تفريط (١) .

هذان الاصلان - الكتاب والسنة - هما مصدر التشريع عند المسلمين ومن ذلك يتبين ان اساس القانون الاسلامي الهي ، لان مصدر الله فيما نص عليه من كتاب وحديث وليست لاية آية سلطة او حق في مخالفتها ولا الخروج على ماورد في نصوصها انما يجتهد علماء الحديث فيما لم يرد فيه نص ، مسترشدين بما ورد في الكتاب والسنة من قواعد كلية ، وبذلك تخالف القوانين الوضعية حيث تكون السلطة التشريعية في منتهى الحرية في تفسير قانون اوتعديله او الغائه (وهنا يبرز دور المحامين الفاعلين في هذا الحقل حول فلسفة القانون) وليس الشأن كذلك في القوانين الالهية فحرية الفقهاء والعلماء والخلفاء محدودة في فهم نصوص القرآن ومقدار الثقة بالحديث اوعدمه فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة صحيحة .

---

(١) انظر التفاصيل لهذه التقسيمات في الاصول العامة لمحمد تقي الحكيم ص ٥٨ـ ٦٥ والاحكام للامدى ج ١ ص ٦٤

وعلى الجملة فقد كان كثير من الصحابة يرى ان يستعمل الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة، والمتتبع لما روى في العصر الاول في هذا المجال يلاحظ ان ما يراه القلب بعد فكر سليم وتأمل بعيد ، هو طلب لمعرفة وجه الصواب .

وقد وردت بعض احداث تظهر بعد افق الصحابة في التشريع، واهتمامهم لهذا النوع اكثر من غيره . منها ما روى : ان عمر بن الخطاب لما استشار في ميراث الجد والاخوة قال زيد : وكان رأى يومئذ ان الجد اولى بميراث ابن ابنه من اخوته - فتحاورت انا وعمر محاورة شديدة فضربت له في ذلك مثلا : فقلت : لو ان شجرة تشعب من اصلها غصن ثم تشعب في ذلك الغصن خوطان (١) ذلك الغصن يجمع الخوطين دون الاصل ويغذيهما . الا ترى يا امير المؤمنين ان احد الخوطين اقرب الى اخيه من الاصل ؟

ومثل اخر يعطينا فكرة واضحة عن التزام الصحابة العادلين في تنفيذ الاحكام الشرعية حرصا منهم على سلامة السنة وصون العقيدة .

رفعت الى عمر قصة رجل قتلته امرأة ابيه وخليلها ، فتردد عمر : هل يقتل الكثير بالواحد؟ ، فقال له علي : أرأيت لو ان نفرا اشتركوا في سرقة جزور فاخذ هذا عضوا وهذا عضوا ، اكنت قاطعهم ؟ قال نعم قال فكذلك ، فعمل عمر برأيه - كما كان يستشيره في اغلب الامور وكتب الى عامله ان اقتلهما ، فلو اشترك فيه اهل صنعاء كلهم لقتلهم (٢)

ولو اردنا ان نسرد مثل هذه الاحكام واهتمام الصحابة ومن تبع خطاهم في أمور التشريع لطال بنا المجال .

ومما يلاحظ ان اهتمام الناس بنقد الحديث سببه حرصهم على شريعتهم وسنتهم التي تعد احد روافدها ، وخوفهم من الوضاعين الدساسين من الشعوب المغلوب على امرها .

---

(١) اعلام الموقعين ج ١ ص ٢٥٦ والخوط هو غصن الغصن النابت حديثا .
(٢) المصدر نفسه

بعض الاصول والقواعد لعلماء الحديث اهمية كبرى في التربية الحديثة

بعد ان عرضنا ما للحديث من اثر في التشريع يحسن بنا الان ان نرى ماله من دور ايضا في التربية الحديثة . وسوف نعرض اهتمام الصحابة والتابعين وتابعيهم بالحديث .

لم يكتف الصحابة بدراسة الحديث ، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة اهل العلم . والاخذ عنهم ولم يتركوا وسيلة لذلك الا افادوا منها . قال عمر بن الخطاب : " تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن (١) .

وقال علي بن ابي طالب (ع) : " تزاوروا وتذاكروا الحديث ، فانكم الا تفعلوا يدرس " (٢)

وابو ذر الغفاري كان مثلا رائعا لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله (ص) يروى عنه انه قال : لو وضعتم الصمصامة (السيف الصارم) على هذه واشار الى قفاه ، ثم ظننت اني انفذ كلمة سمعتها من النبي (ص) قبل ان تجيزوا علي لانفذتها (٣)

وما كان ابو ذر بدعا في الصحابة ، انما كان احد الالوف الذين ساهموا في حفظ السنة وكان ابن عباس يحض طلابه على مذاكرة الحديث فيقول : (تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم ، فانه ليس بمنزلة القرآن ، القرآن مجموع محفوظ وانكم ان لم تذاكروا هذا الحديث يفلت منكم ، ولا يقل احدكم حدَّثتُ امس لا احَدِّثُ اليوم ، بل احدث امس وحدث اليوم وحدث غدا ، كما يقول : اذا سمعتم منا شيئا نتذاكره بينكم (٤)

وقد سار التابعون واتباعهم على نهج الصحابة فكانوا يوصون اولادهم وتلاميذهم بحفظ السنة وحضور مجالس العلم وفي ذلك قال عبد الرحمن بن ابي ليلى يقول : احياء الحديث مذاكرته فتذاكروه (وتذاكروا الحديث فان الحديث يهيج الحديث (٥)

واكثر من هذا ، كان بعض الاباء يشجعون ابناءهم على حفظ الحديث ويقدمون اليهم جوائز كلما حفظوا شيئا منه ، ومن هذا ما رواه النضر بن الحرث قال : يا بني اطلب الحديث فكلما سمعت حديثا وحفظته فلك درهم فطلبت الحديث على هذا (٦) .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ٣٤
(٢) شرف اصحاب الحديث ص ٩٩ ومعرفة علوم الحديث ص ٦٠
(٣) فتح الباري ج ١ ص ١٧٠
(٤) شرف اصحاب الحديث ص ٩٩
(٥) الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٦ وشرف اصحاب الحديث ص ١٠٠
(٦) شرف اصحاب الحديث ص ٩٠ وابراهيم بن ادهم (١٦١ هـ) كان ورعا مجاهدا . (البداية والنهاية ص ١٣٥ ج ١)

ومهما يكن موقف المربين في هذا العصر من هذا التشجيع فانه وسيلة مبدئية لحفظ الحديث ودراسته ، ان كانت في نظر الطفل هي الغاية ، فانها لا تلبث ان تصبح وسيلة فاذا ما الف حفظ الحديث ، وتعطشت نفسه اليه تجسمت الغاية الاصيلة امامه ، وعرف قيمتها وتدبر نفع الحديث وعرف معناه واصبح من رواده سواء انقطعت تلك الجوائز ام لم تنقطع .

وقد قيض الله لهذه الامة اساتذة اوتوا العلم والادب واصول التربية ترعرعوا بين يدي رسول الله ، (ص) ويدي اصحابه الكرام ، واجتهد القائمون على التعليم منهم في ذلك العصر في تعليم تلاميذهم وجلسائهم ، واعتنوا عناية عظيمة بالنشئ الجديد . فكانوا يعلمونهم الحديث، والادب فيه ، واحترامه واجلاله (١) وكانت لحلقات العلم مكانة جليلة وكان طلاب الحديث يوقرون اساتذتهم بسلوك، في غاية الادب والاحترام ، سواء اكان هذا في التلقي عنهم ، ام في مناقشتهم ، ويوءثر عن كثير من الصحابة والتابعين نصائح لطلاب العلم في هذا الصدد (٢) .

واما حلقات العلم وشيوخها وطريقة تعليمهم فانها تحتاج الى بحث كبير قائم بنفسه، وفي هذه الحلقات كان يحصل الحوار البناء والجدل حول تفسير الاحاديث ، والتأكد من صحتها ومايشوبها من زغل وفساد . وماكل هذا الا اساس النقد البناء الصحيح .

ويكفينا ان نذكر شيئا موجزا من الصحابة والتابعين ، يتناول طريقة تعليمهم . واول ما يستدعي انتباهنا في هذا خطوط كبرى تعتبر من الاسس الهامة في التربية الحديثة .

من اهم تلك الاسس التربوية التي نهجها الصحابة والتابعون في تعليم الحديث :

١ - مراعاة احوال المحدثين :

لقد لاحظ الصحابة والتابعون احوال طلابهم ملاحظة دقيقة ، فكانوا لايحدثونهم الا بما يناسب مداركهم ، وهذه نظرة تربوية قيمة (خاطبوا الناس على قدر عقولهم) (٣) ثم يشرحون الاحاديث ويبينون مناسباتها حتى يدرك الطلاب مايرويه شيوخهم . ولقد ورد عن مسلم في صحيحه ج ٢ الكثير من الاحاديث تصح امثلة على مانقول) (٤)

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٣٤٥
(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٧٨
(٣) انظر الوجيزة في علم الدراية ص ١١٠
(٤) صحيح مسلم ج ٢ ورد فيه الكثير من هذه الاحاديث .

وهذا ايضا اصل من اصول النقد للحديث معرفة مناسبة القول ، لوضع السامع في الجو الملائم لفهم الشرح . يروى عن ابن مسعود انه قال : ان الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث ، فيكون عليه فتنة (١) وفي رواية عنه " ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة لبعضهم (٢) وعن حماد بن زيد قال : (قال ايوب) : " لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم " (٣)

ان الاهتمام بالعلم يحدو بصاحبه ان يدقق في كل ما يتعلق به ، فيقف عند كل امر يختص به فيدقق فيه ويُقَلِّبُه على شتى الوجوه ، لا سيما اذا كان هذا العلم يتعلق بجوهر حياته او يمس صلب العقيدة التي اعتنقها وضحّى من أجلها .

٢ـ القاعدة الثانية ـ الحديث لمن هو اهل لـه

كل علم يمارسه غير اهله يبوء بالفشل ، والفن الاصيل لا يظهر الا عند من صقلت الموهبة احساسه وذوقه ، واصبح لديه ملكة خاصة وقوة ذاتية فعالة . تلك القدرة هي التي تساعده في التمييز الحسن والبحث الدقيق والقول السليم .

وكما حرص الصحابة والتابعون على مراعاة احوال الرواة ، حرصوا ايضا على نشر الحديث بين اهله وطلابه ، فلم يحدثوا به اهل الغايات والاهواء ، بل رفعوه عن السفهاء وكانوا يحاولون جهدهم الا يحضر مجالسهم الا طلاب العلم . اما الذي لا يحسن اخذ الحديث فيُهَجِّنُه ويفسد فيه ، وفي ذلك كان الزُهري يقول : .. وهَجَّنه (اي الحديث) نشره عند غير اهله " (٤) .

وكان الاعمش يرى ان اضاعة التحديث التحديث به عند غير اهله " (٥) وكثيرا ماكان يقول : " لا تحدثوا الحديث بغير اهله " (٦) .

ورأى الاعمش شعبة بن الحجاج يحدث قوما ، فقال له : ويحك ياشعبة ! تُعَلِّقُ الدُرَّ في اعناق الخنازير ؟ (٧) قال مجالد بن سعيد : حدثني الشعبي بحديث ..

---

(١) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٢٩
(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٥ وروى نحو هذا في المحدث الفاصل ص ١٤٣
(٣) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٢٩
(٤) المحدث الفاصل ص ١٤١ والهجنة والتهجين الامر تقبيحه
(٥) المصدر نفسه
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٢
(٧) المصدر نفسه

فرويته عنه فاتاه قوم فسألوه عنه فقال : " ماحدثت بهذا الحديث قط ، فاتوني ، فأتيته ، فقلت : اوماحدثتني ؟ قال احدثك بحديث الحكماء وتحدث به السفهاء؟ ! (١) وكان يقول : انما كان يطلب هذا العلم من جميع النسك والعقل ، فان كان عاقلا بلا نسك قيل : هذا لا يناله ، وان كان ناسكا بلا عقل قيل : هذا امر لا يناله الا العقلاء (٢)

ولنذكر بعض اساليب الحيطة التي كان يفعلها علماء الحديث الصالحين كزائدة بن قدامه (٣) مع من يأتيه طالبا الحديث ، حرصا منه على صيانة السنة المطهرة وحفظها .

روى عمرو بن المهلب الازدى قال : كان زايدة لا يحدث احدا حتى يمتحنه ، فان كان غريبا قال له : من اين انت ؟ وان كان من اهل البلد قال : اين مصلاك؟ ويسأل كما يسأل القاضي عن البيِّنة . فان كان صاحب بدعة قال : لا تعودَنَّ الى هذا المجلس ، وان بلغه عنه خير ادناه وحدثه ، فقيل له : يا ابا الصلت لم تفعل هذا؟ قال : اكره ان يكون العلم عندهم فيصيروا ائمة يحتاج اليهم فيبدلوا كيف شاءوا (٤)

وهذا ماحدث وما يمكن ان يحدث اليوم عند الكثيرين ، اذ يضعون منهجا ويتلمسون عطف الاخرين ، وعندما يصلون الى مايرغبون يغيرون عهودهم ويتنكرون لمواثيقهم .

وقد يظن ان في تشدد زائدة وامثاله منعا للعلم ونشره ، وان طريقته هذه تتنافى مع رسالة المعلمين المرشدين الهاديين ، والحقيقة ان منهجه هذا كان من وسائل المحافظة على السنة ، كما كان حائلا دون اهل البدع والاهواء من ان يستغلوا الحديث الشريف ، او يحرِّفوه تبعا لاهوائهم وميولهم . وما الرحلات الشاقة في طلب الحديث الا دليلا واضحا على شدة عناية طلاب الحديث واهتمامهم به كما حدث لابي طاهر السلفي (٥) الذى دامت رحلته بضعُ عشرة سنة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٢ ولعل الشعبي انكر ذلك لانه خشي من السفهاء ان يتخذوا ما حدث به ذريعة الى اهوائهم .
(٢) تذكرة الحفاظ ص ٧٧ ج ١ والمحدث الفاصل ص ١٤١
(٣) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٩٤ وهو امام حجة توفي سنة ١٦١ هـ
(٤) المحدث الفاصل ص ١٤٢
(٥) ابو طاهر السلفي نسبة الى جده سلفة – الحافظ العلامة شيخ الاسلام عماد الدين احمد بن محمد الاصبهاني توفي السنة ٥٧٦ هـ تذكرة الحفاظ ج ٤ / ١٢٩٨

٣- عدم تتبع المنكر من الحديث :

لما خشي الصحابة والتابعون من بث بعض الاحاديث الواهية والضعيفة نهوا عن روايتها وطالبوا التثبت في الرواية كما سبق ان ذكرنا وحثوا على رواية الاحاديث المعروفة ونشرها بين طلاب العلم وخاصة الجدد منهم .

وفي هذا يروى عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام : " حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما يُنكرون ؟ ! أتحبون ان يُكذَّبَ اللهُ ورسولُه (١)

وقال الامام الذهبي : فقد زجر الامام علي رضي الله عنه عن رواية المنكر ، وحث على التحديث بالمشهور وهذا اصل كبير في الكف عن بث الاشياء الواهية والمنكرة من الاحاديث في الفضائل والعقائد والرقائق ، ولا سبيل الى معرفة هذا من هذا ، الا بالامعان في معرفة الرجال (٢)

واما الاحاديث المنكرة والشاذة التي تتطلب معرفة واسعة وخبرة دقيقة في الكشف عن الاحاديث الموضوعة فقد كان يحفظها الشيوخ ، حتى اذا ذكر لهم حديث منها بيّنوه ، وكانوا يروون منها لطلابهم بعد بيان عللها ، وذلك بعد ان يَقْطَعَ الطلاب مرحلة جيدة في دراستهم .

وهذا يعني ان لكل مرحلة من مراحل تعليم الحديث منهجا دراسيا معينا ، يتناسب مع قدرات وطاقات الطالب العقلية ، حتى يتمكن من فهمه واستيعابه . فعلل الحديث الشاذ والمنكر ، وطرقه تتطلب من عالم الحديث طولَ بالٍ وكدَّ ذهنٍ كبيرين .

واني ارى ان مثل هذه الملاحظات لجديرة ان نطبقها نحن اليوم في مدارسنا الابتدائية والثانوية ثم في الجامعات . فكل مرحلة ولها قواعدها وطرق تدريسها .

٤- التنويع والتغيير دفعا للملل

عرف الصحابة والتابعون على الاخص ما يجدد نشاط طلابهم ، فعملوا به ، وافادوا منه لتتحقق الغاية من دروسهم وحلقاتهم ، فكانوا يتناولون دراسة الاحاديث المختلفة حينا ويتكلمون في الرجال احيانا . وينتقلون الى سيرة الرسول (ص) تارة ويذكرون اسباب ورود الحديث ومناسبته تارة اخرى . هذا ما جعل دراسة الحديث محببة . (٣)

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢-١٣ وفتح الباري ج ١ ص ٢٣٥
(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢-١٣
(٣) انظر جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ١٠٥

فكانت بذلك دراسة الحديث شيقة ـ تجذب الطالب اليها لتعدد موضوعاتها وتناولها كثيرا من الامور التي تتعلق بدينه ودنياه. ومع ذلك كان شيوخ الحلقات يخشون ادخال السآمة الى نفوس تلاميذهم ، ولهذا كانوا لا يطيلون المجلس حتى لا تضيع الفائدة عليهم وفي هذا يقول الزهري : اذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب (١) وعن ابي الدرداء رضي الله عنه انه قال : "اني لاستجم قلبي بالشيء من اللهو ، لاقوى به على الحق (٢) .

وقد كان الصحابة احيانا يتناولون في مجالسهم بعض الشعر وايام الجاهلية ليسروا عن انفسهم ، فيبدلون الموضوع ليستعيدوا نشاطهم . فعن ابي خالد الوالي قال : كنا نجالس اصحاب النبي (ص) فيتناشدون الاشعار ويتذاكرون ايامهم في الجاهلية (٣) . وكان الزهري يحدث ، ثم يقول : "هاتوا من اشعاركم ، هاتوا من احاديثكم ، فان الاذن مجاجة ، وان للنفس حمضة " (٤) وكان يقول روّحوا ساعة وساعة (٥) .

٥ـ مذاكرة الحديث :

يظهر ان طلاب العلم بالحديث لم يكتفوا بحضور مجلس الحديث ثم ينصرفون الى اعمالهم حتى يحين المجلس القادم . من غير ان يذاكروا ما يسمعونه . ولم يكن حضور حلقات العلم للتسلية وشغل اوقات الفراغ . متى شاء الطالب حضر ومتى احب انصرف منها ، كلا ، بل كان الطلاب يحضرون في اوقات معينة يخصصها لهم استاذهم بعد صلاة الفجر مثلا حتى الضحى ، وبين الظهر والعصر ، فيتسابقون الى الحلقة قبل انعقادها ليتخذوا اماكنهم (٦) حتى اذا ما حضر الاستاذ كان الطلاب على استعداد لتلقي الحديث عنه . وقد يغيب عن الحلقة طالب ، فيسأل عنه الشيخ ويعرف سبب غيابه . وقد يُكلِّفُ بعضُ اخوانه السؤال عنه ، فالحلقات في العصور الماضية كانت كالانظمة التربوية في مدارسنا الحديثة . المذاكرة بعد الدرس هي كالدروس المسائية اليوم ، وحضور الطالب في الوقت المعين وغيابه ايضا وسؤال الاستاذ عنه . والارسال في طلبه ، كل هذا نتمشى عليه نحن اليوم في مدارسنا العصرية الحديثة .

وكثيرا ما كانت تعقد مجالس المذاكرة وتقام المناظرات بين اصحاب الحديث لتعرف طرقه ، ويكشف عن القوي والضعيف منها ، وفي هذا يقول يزيد بن هارون : ادركت الناس يكتبون عن كل ـ من المشايخ الاقوياء ـ والضعفاء ـ فاذا وقعت المناظرة

---

(١) الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٣٦
(٢) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٤١ واللهو والمقصود هنا اللهو المشروع مما يجدد النشا
(٣) جامع بيان العلم ج ١ ص ١٠٥
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٠ مج الشراب من فيه رمى به . ومج الحديث طرحه ومل منه والحمضة الشهوة للشيء وحمضت الابل عن الحمض كرهته وبه اشتهته (انظر القاموس المحيط
(٥) جامع بيان العلم ج ١ ص ١٠٥
(٦) انظر انعقاد المجالس في الجامع لاخلاق الراوي وآداب السامع ص ٤٦

حصلوا (١) وقد تطول المذاكرة من اول الليل حتى نداء الفجر (٢) . وكان ابراهيم النخعي يقول انه ليطول عليّ الليل حتى القى اصحابي فاذاكرهم (٣) كل ذلك يعطينا صورة حية عن النشاط الحديثي في عصر الصحابة والتابعين ، الذى كان له الفضل العظيم في حفظ السنة .

فضل المذاكرة في الحديث :

المذاكرة للحديث تنشط المحدث في حفظه وتبعده عن نسيانه ذلك ان آفة الذاكرة النسيان . فاذا ماتذاكرنا الحديث سهل علينا حفظه ورسخ في ذاكرتنا فأمنا ضياعه وفي ذلك جاء في فضل مذاكرة الحديث عن ابي سعيد الخدرى : " مذاكرة الحديث افضل من قراءة القرآن (٤) ولا شك انه مبالغ جدا فلا شيء يعدل قراءة القرآن ، كتاب الله ومعجزة الانسان على الارض .

وقال علي عليه السلام " تذاكروا الحديث فانكم ان لا تفعلوا يندرس (٥) وهو يقصد النسيان دون شك . وقال ابن مسعود : " تذاكروا الحديث فان ذكرَ الحديثِ حَيَاتُه " (٦) وهو يقصد الغايةَ نفسَها التي رمى اليها علي بن ابي طالب عليه السلام .

تشدد العلماء في طرق التحدث :

كان مالك بن انس اذا حدث عن رسول الله حديثا وفرغ منه قال : " اوكما قال صلى الله عليه وسلم ... .

وكان قتاده يستحب ان لا تقرأ الاحاديث التي عن النبي (ص) الا على الطهارة . وكان الاعمش اذا اراد ان يُحدِّثَ على غيرِ طُهْرٍ تيمم . وكان ثابت اذا حدث دعا بطيب فمسح بيديه وعارضيه . وكان مالك اذا اراد ان يحدِّث توضأ وجلس على صدر فراشه . وسرَّحَ لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة . فقيل له في ذلك فقال : احب ان اعظم حديث رسول الله (ص) وكان يكره ان يحدث في الطريق ، او وهو قائم الى غير ذلك من حديث رسول الله : (٧) .

---

(١) المحدث الفاضل ص٨٣ والجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٧

(٢) الجامع لاخلاق الراوى واداب السامع ص ١٨٤

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٢

(٤) المصدر للعلموى ص١٧ـ١٨

(٥) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه

وكان يكره ان يحدث في الطريق او وهو قائم الى غير ذلك من فعالهم المحمودة وتوفيراتهم المشهورة المعدودة .

وهكذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة ، وهي ان الحديث الشريف لقي عناية بالغة واهتماما عظيما من ابناء ذلك العصر ، عصر الصحابة والتابعين ، فهم الذين تَولّوا نقله بامانة واخلاص الى الجيل الذى تلاهم كما قام هذا الجيل بتأدية الامانة على اكمل وجه حتى وصلت الينا نحن في امات الكتب الصحيحة .

---

(١) المعيد للعلموى ١٧-١٨

اما الامام مالك فكان اذا اراد الخروج للتحديث توضأ وضوءه للصلاة ، ولبس احسن ثيابه، ولبس قلنسوة ومشط لحيته فقيل له في ذلك ، فقال : " اوقر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد ازدحم الناس في داره من كل قطر ليسمعوا الحديث ، لذلك كان مناد على بابه ينادى : ليدخلْ اهلُ الحجاز فلا يدخل غيرُهم ، ثم يخرج فينادى : ليَدْخُلْ اَهْلُ الشام (٢) يفعل هذا حتى لا يكثر الطلاب فتكثر الاسئلة وتفوت الفائدة جل الحاضرين .

ولا يسعنا ان نذكر الاداب الكثيرة والاصول المتبعة في السؤال والقراءة والعرض على المحدث والجلوس بين يديه ، وحضور حلقات العلم ، حيث تكفلت بذكرها كتب خاصة (٣) . وافردت لها ابواب في اكثر كتب مصطلح الحديث وعلومه (٤) .

وهكذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة ، وهي ان الحديث الشريف لقي عناية بالغة واهتماما عظيما من ابناء ذلك العصر ، عصر الصحابة والتابعين فهم الذين تولوا نقله بامانة واخلاص الى الجيل الذى تلاهم كما قام هذا الجيل بتأدية الامانة على اكمل وجه حتى وصلت الينا نحن في امات الكتب الصحيحة .

---

(١) انظر المحدث الفاضل ص ١٤٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) لقد الف الخطيب البغدادى كتابا كبيرا سماه الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع. تعرض فيه لجميع ما يتعلق بطلاب الحديث واساتذتهم ودروسهم ومذاكراتهم الخ ..

(٤) السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب الباب الثالث الفصل الرابع . وعلوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح - الباب الثاني الفصل الثاني .

البـــاب الســـادس

خاتمــــة :

بعد ان عرضت ما اتحفنا به علماء الحديث ان في علم دراية الحديث او في علم رواية الحديث ، وبعد ان عرضت اهم ماورد عند ابن خلدون ، المؤرخ العظيم في عصره ، من اراء ونظريات في اصول علم الرواية ، وجدت ان معظم هذه مقتبس من تلك ٠

ونحن اتجـاه هذا الامر لا يسعنا الا ان نقول معللين الامر اما بالاقتباس ، واما بتوارد الافكار وعلى الحالين يبقى ان الفضل لمن سبق ٠

وهذا امر لا يضير ابن خلدون ، ان كان الاقتباس شيئاً مقبولاً ، او ان الامانـــة العلميـة تسمح بـه ٠

وبعد المقارنة تعرضت لاهمية نقد الحديث بالنسبة للعلوم الدينية ثم أنواع الاحاديث الشرعية مما افضى بنا الى تناول البحث عن اهمية الحديث النبوي في التربيـــة الحديثـة ٠

وقد وجدت ان نقد الحديث يهدف أصلين ، الصدور وجهة الصدور ، والاصل الجامع بينهما ان يكون الحديث ثابتاً عن مصدر الوحي دون زيادة او نقصان وبذلك يصح الاعتماد عليه والإخذ بـه ٠

والنقد ضروري للحديث ولا بد منه لان هناك فاصلا زمنيا واختلافات ظاهرة ، وبما ان الانسان لا يحيط بمختلف جوانب الحياة فهو بحاجة ماسة الى شريعة قويمة يستمد منهـا ويسير عليهـا ٠

فضرورة علم الحديث ونقده هي بالذات ضرورة الحفاظ على انسانية الانسان لانه يجد كافـة الانظمة التربويـة والاخلاقيـة والثقافيـة والاقتصادية ، يجدها كلها في شريعة الله التي تحملها الاحاديث الصادرة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ٠ ولقد قيَّضَ الله للامة رجالا امناء مخلصين مازوا الباطل من الصحيح ، وبذلوا جهودا جبارة بما توصلوا اليه من قواعد واصول في نقد علم الحديث رواية ودرايـة ، فخطوا خطوات جليلة كفلت سلامة السنة من العبـث ٠

ومما يجدر بالملاحظة ان بعضَ هذه القواعد يصح اعتمادها في اسس التربيـة الحديثة ومبادئ الاخلاق الانسانيـة فهي صادرة عمن اختاره الله ليكون خاتمَ النبيين وسيدَ المرسلين مهديا هاديا للناس كافة بشهادة من رب العالمين " وانك لعلى خلق عظيم ٠"(١)

والان اختم رسالتي بباب هو سنام رسالتي وآيتها عنوانه :

الفن الادبي في الحديث النبوي

(١) القلم : ٤

"قال الله تعالى في كتابه الكريم :

" وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فآتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين" البقرة الاية ٢٢

" قل لئن اجتمعت الانسُ والجنُّ على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرا" الاسراء الاية ٨٨

" ولا يأتونك بِمَثَلٍ الا جئْناكَ بالحقِ وأَحْسَنَ تفسيراً" الفرقان الاية ٣٣

" هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتقين" آل عمران الاية ١٣٨

" قُلْ فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثْلِهِ مُفْتَرياتٍ" هود الاية ١٣

قال صلى الله عليه وسلم :

" ان من البيان لسحرا" اعيان الشيعة ج ٢ ص٢٥٢ المجازات النبوية ص١١٥

" ادَّبني ربي فاحسن تأديبي" محمد المثل الكامل ص١٦

" أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم ، واخْتُصِرَتْ لي الحكمةُ اختصارا" محمد المثل الكامل ص ١٧

" ان الله سبحانه جعل الاسلام دارا ، والجنة مأدبة والداعيَ اليها محمدا صلى الله عليه وسلم" المجازات النبوية ص١٨٣

التقديرات ٤٢٥ - عن ارشيف الرحم ٤٧٢

البـاب السابــع

الفـن الادبـي في الحديث النبـوى

تمهيـد : التعرف الى الفن الادبي في الحديث النبـوى .

هذا الباب هو آخر الرسالة وخاتمتها ويشتمل على ~~فصلين مهمين~~ فصل واحد :

المبحث الاول : تناولت في هذا الفصل التعريف عن الفن بانواعه والوانه ، محاولا التوفيق بين الفن والحديث . فكل منهما يبحث عن الخير والحق والجمال ، وكل منهما يهدف الى اكمال انسانية الانسان بتهذيب النفس وتثقيف العقل وغذاء الروح .

ثم أشرت الى عناصر الفن وهي : الاسلوب والخيال والعاطفة والمعنى والايحاء وبعد التقسيم عمدت الى التفصيل والشرح لمقاييس نقد كل ركن من هذه الاركان التي نوهت عنها ، من خلال نقد الكلمة المعبرة ، والعبارة المؤدية ، والحديث البليغ . فكان الفصل نقدا عمليا تطبيقيا ، بحثا عن تلمس القيم التعبيرية الفنية : لفظا وعبارة وطريقــة .

المبحث الثاني : بحثت في هذا الفصل ما توحيه بعض الاحاديث النبوية من التعبير التمثيلي البلاغـي . فكان الايحاء الذى يصور المعنى باجراس الحروف وهي تنطق .

ثم عمدت الى التفصيل عن العناصر التي تعمل معا في تكوين التعبير التمثيلـي البلاغي من طابع شخصي ذلك ان لكل اديب سمةً شخصيةً تظهر من خــلال تعابيره .

ثم العمق والشمول بمنابع الحياة التي يعيشها .

واخيرا الصدق الفني والتعبير بأمانة ودقة عن المشاعر والاحاسيس . ثم نوهت في اخر الباب ان عُذرنا في التقصير واضح لعدة اسباب منها : ان الاحاديث النبويـة لا يمكن الا حاطــة بها جميعها احاطة دقيقة وشاملة .

- الحديث النبوى الواحد له عدة دلالات وقد يصلح لعدة شواهد في نفس الوقت . فاذا ما أخذنا منه مثالا بلاغيا يظهر الى جانبه امثلة اخرى لهـــا دلالات مغايرة لما ذكرنا .

كل الاحاديث النبويـة تتجلى بمسحة ادبية بلاغية تصلح لتكون قبسات من نور يضيء بها الادباء سطور مؤلفاتهم ، لذلك مهما شرحنا وحللنا نحس اننا ما زلنا بعيدين عن جنى الثمر المرغوب مترددين امام صعوبة الاختيار .

الفن الادبي في الحديث النبوى

ماهية الفن : هو التعبير الجميل عما يجول في النفس من خواطر ، وانصاح عما يجيش في القلب من مشاعر وبيان لما يرتسم في الخيال من تصورات .

وقد اختلف النقاد منذ القديم في نظرتهم الى مفهوم الفن وماهيته . فهو بنظر البعض ترف ومتعة (١) . وقد يكون تقليدا للطبيعة (٢) وقد يكون ابتكارا (٣) ، وقد تكون قيمته مستمدة من الوظيفة التي يؤديها (٤) .

والفنان يمضي فيحاول التعبير عن هذه الخواطر والمشاعر والتصورات بالطريقة الفنية الميسرة له ، من لفظ او لحن او خطوط او الوان .

من هذه الاشكال المختلفة للفن يهمنا الفن الادبي . والفنان في الادب ، هو شخص موهوب ذو حساسية خاصة ، تستطيع ان تلتقط الالفاظ الخفية اللطيفة ، التي لا تدركها عقول الناس العاديين

وذو قدرة تعبيرية خاصة تستطيع ان تحول احساسه بالحياة وتفاعله معها ، الى لون من الاداء الجميل يحرك في النفس حاسةَ الجمال (٥) .

والحديث النبوى الشريف هو لون من الوان الادب بكل ماتحمل هذه الكلمة من شمول في المعنى الادبي وسمو في المعنى الاخلاقي .

والفن التحديثي هو الكيفية التي يعبر بها المحدث عن افكاره ، وينقل خلالها انفعالاته واحساساته . وهذه الكيفية تستمد طاقتها من لغة المحدث .

ومحدثنا هو النبي محمد (ص) افصح العرب ، الذى أدَّبَه ربُّه فأحسنَ تأديبَه .

ومادة بحثنا : الحديث النبوى ، قاله الرسول الكريم بلغة عربية الالفاظ بليغة المؤدى ، تقف في الدرجة الثانية بعد بيان القرآن وفصاحته .

وقد وضعت عنوانا لهذا الباب : الفن الادبي في الحديث النبوى ، واني أتساءل ما علاقة الفن بالحديث ؟

اوليس الحديثُ النبويُ ركنا من اركانِ (الركنَ الثاني من) الشريعة الاسلامية بعد القرآن الكريم ؟

اوليس الفنُ فناً غايته التعبيرُ عن الجمال واظهاره بأبهى اشكاله واجمل حلله ؟ (٦) .

---

(١) المنهج الفني ص ٢٦٢ عن افلاطون عن النقد الجمالي ص ٣ - ٤

(٢) = = عن ارسطو عن المرجع السابق ص ٤

(٣) = = عن نقد الحكم لكانت ص ١٨٩ - ١٦٢

(٤) = = عن النقد الجمالي ص ٦١ - ٧٦

(٥) انظر منهج الفن الاسلامي للسيد قطب ص ٥ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥ .

فالدين الاسلامي يبحث عن الحقيقة ، والفن يبحث عن الجمال ، وفرق بين الحقيقة التي تتقيد بأنها حقيقة ، وبين الجمال الهائم الطليق الذى لا يتقيد بشيء ٠

والحديث النبوى يحرص على الاخلاق ، والفن يكره القيودَ كُلَّها ، بما فيها قيودَ الاخلاق ٠

لابد أذن ان الفن التحديثي مجموعة من الحكم والمواعظ والارشادات !

فهل العلاقة بين الحديث والفن علاقة نفور وخصام ؟

هذا فهم ضيق للدين الاسلامي وللحديث النبوى وللفن على السواء !

ان الحديث النبوى يلتقي في حقيقة النفس بالفن ٠

فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق يجنح لعالم الكمال ٠٠

فالفن في الحديث النبوى هو التعبير الحر الجميل عن الجمال ، جمال الكون والحياة والانسان وذلك من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان (١) ٠

الفن التحديثي هو الذى هيأ اللقاء الكامل بين الجمال والحق ٠ فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال (٢) ٠

من هنا يلتقيان (الجمال والحق) في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود من حق وخير وجمال ٠ وغرضنا بعد هذا كله ، ان نستنتج العناصر الفنية التي يتركب منها أدب الحديث ، وان ندركَ قيمة فنية الادب التحديثي ، من خلال ما حققه الرسول الكريم محمد (ص) ٠

اما العناصر التي يتكون منها الفن الادبي فهي :

المعنى وما يرافقه من عمق انفعال ورحابة خيال ، وقوة اسلوب واستمرار ايحاء ٠

وسوف نعمل جهدنا لتحصيل هذه العناصر من جانب من الاحاديث النبوية ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ٠ فالاحاديث النبوية يصعب حصرها كما يستحيل اكمال شرحها والوفاء بالتفصيل الكامل لكل ما تتضمن من بعد في المعنى وروعة في الصياغة ، فقد يكل القلم ولا نفي بالغرض المطلوب ولكننا نسعى جهدنا قدر طاقتنا والله ولي التوفيق ٠

---

(١) انظر منهج الفن الاسلامي ص ١٦ وما بعدها ٠

(٢) المصدر نفسه ٠

× نقد الاسلوب ×

الاسلوب هو الطريق تأخذ فيه ، والاسلوب : الفن ، يقال أخذ فلان في اساليب القول ؛ اى افانين فنه (١) والاسلوب ، او القالب هو جسد المعنى كما يقول ابن رشيق (٢) . والاسلوب هو المنوال الذى تنسج فيه التراكيب او القالب الذى تقرأ فيه (٣) . على ان هذه التعاريف كلها تنتهي بنا عند فكرة اذا أردنا استعمالها في باب الادب كانت ملائمة .

فالاسلوب هو فن من الكلام يكون قصصاً اوحوارا ، تشبيها او مجازا او كناية ، تقريرا اوحكما وأمثالا . فهو يشمل الفن الادبي الذى يتخذه الاديب وسيلة للاقناع و التأثير .

صفات الاسلوب :

وصف نقاد العرب الاسلوب باوصاف شتى ، فسموه الموجز او السهل او الغامض الى غير ذلك . . . وكل هذه الصفات ترجع جميعها الى اصل واحد هو (صدق التعبير) فالاخلاص في تصوير ما في النفس من فكرة واضحة اوعاطفة صادقة ، يجعل الاسلوب مثاليا متى توافرت للاديب هذه الوسائل البيانية . فيصبح الاسلوب كما وصفه الدكتور احمد الشايب : " مرآة العقل والخلق والمزاج ، وطرق التفكير والتخيل ، سواء اكانت تلك قوية ام ضعيفة ، مستقيمة ام مضطربة ، جميلة ام قبيحة ، لان مصدر ذلك كله انما هو نفس الكاتب ، فمنها تنشأ هذه الصفات ، واليها ترد " (٤) .

وقياسا على الغايات التي يقصد اليها المنشئون ، يمكن ارجاع هذه الصفات الى ثلاثة اقسام :
اولا — الوضوح لقصد الافهام
ثانيا — القوة لقصد التأثير
ثالثا — الجمال لقصد الامتاع او السرور (٥) .

وضوح الاسلوب :

من واجب البليغ ان يكون اسلوبه واضحا ، لانه يرمي الى افادة قرائه ورفع مستواهم الثقافي لذلك عليه ان يكسب معارفه حياة وروعة بما يبث فيها من عواطف واخيلة ملائمة (٦) .

ووضوح الاسلوب يستلزم أمرين هامين : أ — الدقة او وضوح الفكرة
ب — الجلاء او وضوح التراكيب .

أ — يحسن بالبليغ ان يؤدى افكاره ممتازة عن سواها ، ظاهرة الخواص والمعالم (٧) .

---

(١) الاسلوب للدكتور احمد الشايب ص ٢٤٩ — عن لسان العرب لابن منظور
(٢) العمدة لابن رشيق ص ٨٠
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٣
(٤) الاسلوب للدكتور احمد الشايب ص ٢٢٤
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥
(٦) المصدر نفسه ص ٢٢٦
(٧) المصدر نفسه ص ٢٢٧

اما اذا كانت الفكرة غامضة في ذاتها ، او كانت اعلى من مستوى القراء انفسهم ، عليه عندئذ "ان يكتب لهم باللغة التي يفهمونها تاركا التحرج او الاعتزال " (١) . وهنا نصير الى الشرط الثاني وهـو :

ب ـ الجلاء او وضوح التراكيب .

لتحقيق هذا الجـلاء لابد للبليغ من تحرّي البساطة في صَوْغ العبارات ومجانبة التعقيد مع الاحتفاظ بسموها وقوتها " (٢) .

وَمَردٌ كل هذا يعود للتكوين المنطقي والنحوي للاسلوب . " هذا التكوين الذى يسلـك الكلمات والجمل والعبارات في نظام لفظي هو صورة لنظام عقلي ، وتفكير منطقي مطرد " (٣) والتعابير تبدو في صور شتى من الرقـة والجزالـة او السهولة والصعوبة حسب المعاني التي تؤديها العبارات . بعد هذه الخطوة الناشطـة تكسب التعابير " صفة الشفافيـة لتكون كالزجاج الابيض الصافي ، يحفـظ الرسـم ، وينم عنه كما هو او كأنه لا زجـاج يحميه " (٤) .

قـوة الاسلـوب :

اذا كان الوضوح الزم صفات الاسلوب واولاها بالرعاية ، لانه يحقق الغاية الاساسية ، وهي الافهام ـ فان ايقاظَ العقول الخامدة ، واثارةَ العواطف في نفوس الناس امرٌ مهم جدا ، وذلك حتى نهبَ الافكـارَ حياةً اقوى من حياتها العقليـة لتكون ممتعةً ومؤثِّرةً . (٥) فهذه الحياة هي التي تسمى القـوة . ولتحقيق القوة الاسلوبيـة نعتمد :

اولا : قوة الصورة . وهي تعني مجاوزة المعنى الحرفي الى معان اخرى مجازية . وذلك يكون بالكنايـة ، والاستعارة والتمثيل .

ثانيا : قوة التركيب . قد يستطيع الخطيب وهو يتكلم ان يدخل على المعاني الهامة ، نبرات صوتية معينة او انه يكرر الكلمات التي يريد التركيز عليها . اما وهو يكتب فالامر يختلف حيث لا مجال لاثر الصوت ، اذ ينوب عنه وسائل اخرى اهمهـا :

أ ـ تقديم الكلمة او تأخيرها بالنسبة الى موضعها الطبيعي دلالة على التفخيم او حسن الذوق او الاهمية مطلقا .

ب ـ الطباق البديعي الذى مرّ ذكره في الوضوح .

ج ـ الايجـاز اللازم في العبارة عامة وفي التراكيب خاصة (٦) .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٥

(٢) الاسلوب للدكتور احمد الشايب ص ٢٣٢

٣ـ " " " " "

(٤) " " " "

(٥) " " " " ص ٢٣٥

(٦) " " " " ص ٢٣٦

بعد هذا يظهر لنا ان كل ما ذكرنا من مقومات جمالية ، تدخل في طبيعة الاساليب الادبية حين تدعوها طبيعة المعاني ، لتقويتها أو ايضاحها ، او حين يلجأ اليها الخيال ليُصَوِّرَ بها عاطفةً صادقةً وانفعالاً قويا (١) .

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الاديب وذوقه . والخيال المصور يدرك مافي المعاني من عمق ، والذوق يختار اصفى العبارات . ونعني بالذوق ، الذوق المهذب " الذى صقله الادبُ وشحذته الروايةُ ، وجلته الفطنةُ ، وأُلْهِمَ الفصْلَ بين الردئ والجيد ، وتصور امثلة الحُسْنَ والقُبْحَ " (٢) .

وصاحب هذا الاسلوب هو من كانت عنده القدرة على اخراج الكلمات والجمل مطردة متناسقة الحروف وابعاد الكلمات المتنافرة الحروف ، او العبارات المتنافرة الكلمات والجمل مهما يكن سبب التنافر (٣) .

وضوح الاسلوب : يحسن بنا ان نلاحظ نقطتين هامتين :

أ ــ الدقة او وضوح الفكرة :

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف وَلَتَنْهَوُنَّ عن المُنْكَر او لَيَلْحَيَنَّكُم اللهُ كما لحيت عصاى هذه " (٤) وكان عودا في يده .

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة اجتماعية عامة في الاداب والاخلاق تعتمد في كافة المجتمعات وفي كل العصور . اذ لا يصلح شأن الفرد كما لايصلح شأن المجتمع الا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

اما عن البيان الادبي فالذى يهمنا في هذا الحديث عبارة (لَيَلْحَيَنَّكُم الله) ، والالحية : جمع لحاء وهو قشرة الشجرة ، ولا يخفى ان في قشرها قوة لها فاذا زال القشر تعرض جسمها الداخلي للخطر والفساد ، من عوامل الجو التي تؤثر فيها .

فالمراد ان الله ينقص من اموالكم وثرواتكم ، ويصيبكم بالمصائب العظام ، فتصبحون كالاغصان المنتصبة التي جردت من اوراقها وعريت من الحيتها فباتت قضبانا عارية ، وعيدانا بشعة لاحياة فيها . فهي معرضة في كل لحظة لاذى المؤثرات الخارجية ، ونوائب الدهر القاسية . كما يقال ايضا ، قد لحاه الدهر لحي العصا . اى قسا عليه في ولده او رزقه او اى نعمة من نعم الخالق . فالنعم للانسان كاللحاء للقضيب تقويه وتجمله وتحفظه ، او بالاحرى كالورق للغصن الرطيب ، فاذا ذهب الورق ظهر الغصن عودا عاريا ذويا . ففي الحديث كما يظهر دقة في المعنى ووضوح للفكرة .

---

(١) الاسلوب للدكتور احمد الشايب ص ٢٤١

(٢) الوساطة ص ٣٠

(٣) الصناعتين ص ١١٠ والمثل السائر ص ٥٦ وما بعدها .

(٤) المجازات النبوية ص ٣٥٣ .

ب ـ الجلاء او وضوح التراكيب :

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " بعثت لأتمم مكارم الاخلاق " (١) في حين ان الرسول يحصر العلم في ثلاثة : آية محكمة وهي معرفة الله ، وفريضة عادلة وهي علم الاخلاق ، وسنة قائمة وهي علم الاحكام (٢) . هنا نجده كأنه يحصر هدفه من البعثة تتميم مكارم الاخلاق . وهذا مما يكشف عن اهميته البالغة بين قيمتيهما .

ان الانبياء والرسل كلهم بعثوا ليؤدبوا الانسان بمكارم الاخلاق ، كما بعثوا لمعرفة الله ومعرفة احكامه ، ولكن مكارمَ الاخلاق تحتل المكانة الاولى من اهداف هؤلاء الرسل . وكما ان الرسالات الالهيــة تكاملت كل تلو الاخرى حتى انتهت الى الغاية القصوى في الرسالة الاسلامية ، كذلك وبالاحرى تكاملت مكارم الاخلاق في هذه الرسالــة السامية .

والاخلاق سواء أكانت فردية أو جماعية ، ظاهرية او معنوية ، نراها وصلت الى اعلى درجاتها في هذه الرسالــة .

ليست الاخلاق منفصلــة عن معرفة الله والاحكام فان لها وجهات عدة بالنسبة لله وللناس ولانفسنا فقد تشمل الاخلاق بوجه عام العلوم الثلاثة . فمن عرف الله عرف نفسه وما يتوجب عليه يجنبه تعالى من العبودية ، ولا ريب انها كلها اخلاق .

والعكس كذلك من عرف نَفْسَه فقد عرفَ رَبَّه . فما دمنا نعلم ان عباد الله كافة هم اخوان لنا على هذه الارض ، يتوجب علينا معاملتهم كأخوة وهذه هي اخلاق المعاشرة .

ونرى ان الرسول وائمة الاسلام كانوا يعطفون الناسَ الى الاسلام باخلاقهم الطيبة وفي اقوالهم واعمالهم اكثر من سائر الوسائل التي تجلب الى الدين . ولنا بقول الامام الباقر خير شاهد قال : " ان اكملَ المؤمنين ايماناً أَحْسَنُهم خُلُقاً "

ويقول علي عليه السلام : عنوانُ صحيفةِ المؤمن حسنُ خُلُقِهِ " (٣) فاذا اردنا ان نقترب من الناس ، واذا اردنا ان نقترب من رسول الله (٤) علينا ان نعمل بقوله (ص) " أَقْرَبُكُم مِنِّي غَداً أَحْسَنُكم خُلُقاً وأَقْرَبُكُمْ مِنَ النَاسِ " . (٥)

وكل ذلك يظهر لنا جلاء التعبير ووضوح التراكيب .

قــوة الاسلــوب : يستلــزم ذلــك :

اولا : قــوة الصورة .

ومن الطف احاديثه وابلغ تعبيراته قوله عليه الصلاة والسلام : " ان المؤمنَ اذا أَذْنَبَ

---

(١) الموطأ حسن الخلق ٨ ، احمد بن حنبل ٢٧ ، مناقب ٢٣ ، اعيان الشيعة ج ٢ ص ٢٥٢
(٢) انظر الكافي ـ باب العلم
(٣) البخاري ـ فضائل الصحابة ٢٧ ، مناقب ٢٣
(٤) المصدر نفسه . ـ (٥) المصدر نفسه .

كان الذَّنْبُ نكتةً سوداءَ في قلبه ، فان تاب ونَزَعَ واستغفر صُقِلَ قلبُهُ ، فان زادَ زادَتْ حتى تَغْمُرَ قَلْبَهُ " (١) .

فكلمة (صُقِلَ قَلْبُهُ) لها ظلها في الحديث ، وهي تعني ازالة تلك النكتة السوداء عن قلبه . ولكنها لما كانت بمنزلة الوسخ في الثوب ، او الطبع على السيف (والطبع : يعني الوسخ والصدأ) يحسن ان يقال : صقل قلبه من الدرن كما يصقل السيف او كما يغسل الثوب ، فيذهب إثر الذنب منه على طريق الاستعارة التبعية .

ومن ناحية اخرى فهو تشبيه رائع اذ ان الذنب نكتة سوداء ، وسرعان ما تزول وتصقل من قلب المؤمن اذا تاب عن ذنبه كما يصقل السيف من الطبع ، ولكنها تعود اليه وتغمر قلبه اذا عاد الى الارتكاس في وحول الحياة .

ونلاحظ جليا قوة الصورة وجمالية الاداء .

ومن تعابيره الادبية اللطيفة قوله (ص) لعبد الله بن عمرو بن العاص في قيامه الليل وصيامه النهار فقال : " انك اذا فعلت ذلك هَجَمَتْ عيناك وتَهِمَتْ نَفْسُك " (٢) ولنتأمل في عبارة (هجمت عيناك) . يقال هجم فلان على فلان اذا دخل عليه دخولا فيه سرعة وله روعة . كما يقال هجم عليهم البيت اذا سقط عليهم (٣) .

فلطول قيام عبد الله ، ولبعد عهده بالطعام ، هجمت عيناه . وقد شبه عليه الصلاة والسلام افراط دخول العينين في محجر عظم الرأس بهجوم الرجل الهاجم على خصمه ، او سقوط البيت على من فيه . انها لصورة رائعة . فالتشبيه الاول لا يغاله في مدخله ، والتشبيه الثاني لزواله عن موضعه . ومعنى (تهمت نفسك) يريد انها اصابها الملل والضجر ، وهدها الكلل والتعب . وبذلك ينقطع عن مواصلة العمل الخير والنافع . لقد نصحه الرسول (ص) من متابعة الصلاة طوال الليل والصيام طوال النهار لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها .

ومن اقواله الادبية المعبرة قوله عليه الصلاة والسلام في عمرة الحديبية عند كلام جرى في شأن قريش " فان اتبعونا اتبعَنا منهم عُنُقٌ يَقْطَعُها اللهُ " (٤) .

لقد شبه عليه الصلاة والسلام من تبعه منهم في تلاحقهم وامتدادهم بالعنق الواحدة التي لا تختلف اجزاؤها ، فهي اشد لقوتها واقوى في صدمتها . وعلى هذا المعنى قول الشاعر :

---

(١) المجازات النبوية ص ٤٠٤ . والنكتة هي النقطة التي لها أثر .

(٢) المجازات النبوية ص ١١٠ .

(٣) في قاموس المحيط هجمت عينه هجما وهجوما : غارت . وهجم البيت سقط .

(٤) المجازات النبوية ص ٢٦ والحديبية موضع قرب مكة عقد الرسول (ص) الصلح المشهور تحتها .

أَبلغْ أميرَ المؤمنينَ أَخَا العراقِ اذا أَتيْتَا
أَنَّ العراقَ وأَهْلَهُ عُنُقٌ اليكَ فَهَيْتَ هَيْتَا (١)

فقد شبه الشاعر الطالبين له بالعنق في التلاحق والامتداد الى قصره . فاما قوله عز وجل : " فظلت اعناقهم لها خاضعين "(٢) فقد يريد سبحانه ان خضوع الاعناق هو خضوع اصحابها . وهو تعبير من بعض تعابيرنا نحن اليوم .

والوجه الآخر ، لعله يريد الجماعات ، فقد تسمى الجماعة عنقا . كأن نقول : جائني عنق من الناس ، اى جماعة من الناس . كما يجوز ان تكون الاعناق كناية عن رؤوس القوم المتقدمين فيهم وسادانهم (٣) .

كما نستطيع القول ان النبي (ص) جاء بالعنق هنا على سبيل الاستعارة التصريحية تشبيها للقوم الذين ذكر اتباعهم له بالعنق في الاحتشاد لطلبه والامتداد للحاق به .

ومن قوله وهو يتجهز لغزوة تبوك : " إِني على جَنَاحِ سَفَرٍ " (٤) .

لقد شبه (ص) السفرَ بالطائر الذى قد هم بالطيران وجعل الاخذ اهبة المسافر ككائن على جناح ذلك الطائر ، ينتظر التهيؤ للسفر ويرقب تحليقه . ويظهر ذلك في كلامنا عندما نريد القول لانسان يكثر من اسفاره ورحلاته " طائر طيار " .

ففي الحديث استعارة بالكناية حيث شبه السفر بالطائر ، ثم حذفه ورمز اليه بشيء من لوازمه وهو الجناح ، اما اثبات الجناح للسفر فهو تخييل .

ثانيا : قوة التركيب .

أ- تقديم الكلمة او تأخيرها دلالة على التفخيم او حسن الذوق او الاهمية مطلقا :

اما من احاديثه (ص) التي تعطى مثلا عن الكناية قوله عليه الصلاة والسلام : " يمينُ الله ملأى سَحَّاءَ ، لا يُغيضُهَا الليلُ والنهارُ " (٥)
فَسَحَّاء هي من السَّحْ كما ورد في المعاجم اللُغوية والسَّح : شدة المطر ، يقال : سحّت السماءُ سحّاً اذا هطلت بغزارة .
ويمين الله هنا مراد بها نعمة الله ، وقد وصفها بالامتلاء لكثرة منافعها وعموم خيراتها . وخصها اليمين لانها في الاكثر تعيد العطاء والكرم على طريق المجاز ، ولا مانع ان يكون على الحقيقة يمين الله التي لا تعرف كنهها كما قال تعالى " يدُ الله فوق أَيديهم " (٦) ولعل المراد يد الله مطلقا .

---

(١) هيت به صاح ودعاه ، والمعنى ان اهل العراق واهله متفقة على الرضا بك ، كالعنق في التساق بعضها ببعض فهي ممدودة اليك تريد حضورك فاقبل اليها .
(٢) الشعراء الاية ٤ — (٣) انظر تفسير ذلك في قاموس المحيط — (٤) المجازات النبوية ص ١٣٤ — (٥) المجازات النبوية ص ٩٧ — (٦) الفتح الاية ١٠

والخلاصة ان في الحديث كناية عن غنى الله وكرمه ، لان الذى يمينه ملیئة بالخير ، تسح سحا مستمرا في الليل والنهار ، فلا شك انه في منتهى الكرم والغنى

ب - الطباق البديعي .

ومن قوله عليه الصلاة والسلام : " من أبطأَ به عَمَلُه لم يُسْرِعْ به نَسَبُه " (١) فقد جعل (ص) الابطاء والاسراع مكان التأخر والتقدم . فالمبطىء متأخر والمسرع متقدم ، ولكن من هو المسرع حقيقة ؟ ومن هو المتوهم انه مسرع ؟ ان الانسان الذى يتأخر بسوء عمله ، وقلة كفاءته وضعف حيلته ، يتأخر حتما عن بلوغ الفضل واحراز الفخر ، ان أعتمد فقط على شريف نسبه وكريم حسبه . وفي هذا الحديث تعبير جميل يظهر في تشبيه النبي (ص) عمل الانسان ونسبه بالدابة التي تبطىء وتسرع ، لان هاتين الصفتين (الابطاء والاسراع) من خواص الدواب في الغالب ، التي تقطع المسافات البعيدة .

فاذا ابطأت الدابة تأخر الراحل عن الوصول الى هدفه المطلوب ، واذا اسرعت مكنته من الوصول ، وحققت له آماله المنشودة بفضل اسراعها .

والخلاصة ان غايات الفضل ومواقف الفخر لا يحرز الا بكد اليمين وعرق الجبين ، وليس بالاعتماد على شرف الاحساب والانساب التي لا تَدِرُّ ولا تُثْمِرُ في اكثر الاحيان . وقد حارب الرسول هذه النزعة فكان كما قال : "جد كل تقي ولو كان عبدا حبشيا " وشرف الانسان فيما يعمل ويبدع لا فيما يرث وينتسب .

ج - الايجاز في العبارة وفي التراكيب .

ومن ذلك قوله (ص) :

" ويلٌ لأقْماعِ القَوْلِ وَيْلٌ لِلْمُصِرِّين " (٢) .

وفي هذا الحديث استعارة ومجاز . فالنبي (ص) يريد باقماع القول ، اولئك الذين يكثرون من استماع الاقوال المتباينة والكلام المختلف ، يكون ذلك قدحا في ايمانهم وثلما في دينهم .

وقد شبه آذانهم بالاقماع التي يفرغ فيها السوائل ، وقد وفق (ص) في هذا التشبيه الى حد بعيد ، لان الاذان هي الطرق والمجارى التي يوصل منها الصوت المعبر الى داخل الجسم ، فهي ابواب موصلة . ويمكننا القول ، ان من جَعَلَ سَمْعَه مساغا للاقوال المختلفة والاخبار المتضاربة .

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٠٤

(٢) المجازات النبوية ص ٢٣ .

× نقـد الخيـال ×

عرف العرب الوانا من الخيال ، منها ما ابتكر الشخصيات من العدم ، ومنها ما انطق الحيوان والنبات والجماد . ومنها الاسطوري كما في الف ليلة وليلة (١) غير ان العرب لم يدرسوا من الوانه الا ما يسميه البلاغيون علم البيان (٢) .

وصور هذا العلم تعني : التشبيه والاستعارة بانواعها والمجاز والكناية .

والخيال في الدراسات النقدية يرادف المجاز (٣) والطواف في بستان الاحاديث النبوية يفسح لنا المجالَ للتمتُّع بثمار ذلك الخيال ، الذى كان دوما في خدمة رسالة الله الى الناس والتماس افضل السبل لادائها اليهم بالنحو الذى تقبله عقولهم وقلوبهم .

التشبيه : قيل "خير التشابيه ما أدى رسالته فاوضَحَ وأثَّرَ" (٤)

ومن الاحاديث التي تتضمن التشبيه البليغ قوله عليه الصلاة والسلام : "المؤمن مرآة اخيه" (٥) والمقصود من هذا الحديث ان المؤمن الناصح لاخيه والمرشد له في كافة اعماله هو كالمراة ، يُبَصِّرُه مواقعَ رُشْدِه ، ويطلعه على خفايا عيبه . وبذلك عندما ينظر الى المحاسن يستحسنها ويحب الاستزادة منها ، اما عندما يرى المعايب يستقبحهـا ويتجنبهـا .

ففي الحديث كما قلنا تشبيه بليغ حيث شبه (ص) المؤمن بالنسبة لاخيه المؤمن بالمرآة من حيث انطباع الصورة . فالمؤمن يرى في اخيه أثرَ أفعاله ان كانت حسنة او قبيحة ، فينصحه اذا اساء ، ويمدحه اذا احسن . واصل الحديث المؤمن كالمراة لاخيه المؤمن ، فحذفت الاداة ووجه الشبه لاسباب بلاغية .

ومن قوله في وصف الحمى (ص) "الحُمَّى كيرُ جَهَنَّم" (٦) .

فالحمى الشديدة الحرارة هي كالكير الذى يقوى النار ، فشبهها (ص) بكير يستمد حرارته من نار جهنم ، اعاذنا الله من شرها ، النار التي لا تنطفىء ولا تخمد وهذا القول مجاز والمراد منه المبالغة في وصف الحرارة . وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى انه يريد نار الدنيا "نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقـوين" (٧) والتذكرة هي التي يستذكر بها الناسُ نارَ الاخرة ، فيكون لهم ازجـرَ عن المعاصي والمغاوى في الدنيا . فاذا كانت نارُ الدنيا على ماهي عليه من قوةِ الاحراقِ وشدّةِ الارماضِ ، وهي مع ذلك دون نار الاخرة ، فكيف بهذه اذا باشرت اجسامنا ؟

والحقيقة انه من أصيب بدور حمى وعرف سموم حرارتها وافق على تشبيهها بكير جهنم الذى يقوى النار ويلفح لفحا شديدا دون ان يستعمل الميزان الطبي للحـرارة .

---

(١) المنتجب العاني للدكتور اسعد علي ص٣٠٥

(٢) - - - - عن اسس النقد ص٥١٠

(٣) العمدة ج ١ ص١٧٨

(٤) المنتجب العاني ص٣٠٦ عن اسس النقد ص٥٢٩/ ٥٣٢ .

(٥) المجازات النبويـة ص٧٩

(٦) المجازات النبويـة ص٤٢٢ والكير : منفاخ الحداد .

(٧) الواقعة الايـة ٧٣ .

ومن ذلك قوله (ص) : " المؤمن مُوهٍ رَاقِعٌ " (١)

والمراد ان المؤمن اذا اساء احسن واذا اخطأ ندم · فكأنه يوهي دينه بمعصيته ، ويرقعه بتوبته · فشبهه عليه الصلاة والسلام بمن يخرق ثوبا ثم يبادر رقعَ ماخَرَق وَرَتْقَ مافَتَق ·

في الحديث تشبيهان بليغان ،حيث شبه المؤمن بخارق الثوب وهو مُوهٍ وذلك عند ارتكاب المعصية ، وشبهه بالراقع الذى يرقع الثوب ويخيط فتقه وذلك عند توبته ، وحذف وجه الشبه وهو الافساد والاصلاح في كل ،وحذفت اداة التشبيه ، والاصل المؤمن كالموهي الراقع ·

الاستعارة : ليست الا تشبيها مختصرا لكنها ابلغ منه " وما يبتكره أمراء الكلام من أنواع صور الاستعارة البديعة ،التي تأخذ بمجامع الافئدة وتملك على القارئ والسامع لبهما وعواطفهما ، هو سر بلاغة الاستعارة " (٢)

ومن احسن التمثيلات واوقع التشبيهات قوله عليه الصلاة والسلام " إِنَّ المُسْلِمَ اذا تَوَضَّأَ ثم صلى الخَمْسَ تحاتَّتْ خطاياه كما يتحاتُّ الوَرَقُ " (٣) فالله تعالى وهو الغفور الرحيم يُكَفِّرُ عن المصلي خطاياه بسرعة ،فتنحط عنه اوزار خطاياه وتسقط عنه ذنوبه كما تتساقط الاوراق عن اغصانها اذا هزهزتها الرياح ·

فالصلاة افضل شعائر الاسلام واظهر معالم الايمان ،وهي واجبة على كل عاقل بالغ مسلم ،كما انها تتكرر في الليل والنهار خمس مرات فتنهي الانسان عن الفحشاء والمنكر ، وتسقط عنه عقاب معاصيه واثار ذنوبه كما يتساقط ورق الشجر المتناثر ، ويَنْسَلُّ من اغصانه ·

ففي قوله (ص) استعارة جميلة وهي (تحات الورق) حيث شبه به زوال الخطيئة ،ثم هناك تشبيه جميل ايضا وهو : كما ينحات ورق الشجر فشبه تحات الورق بتحات الخطيئة ·

ومثل هذا قوله (ص) : " أُمِرْتُ بقرية تأْكُلُ القُرَى تَنْفِي الخَبَثَ كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد " (٤)

فاهل هذه القرية التي امر بسكنها او الهجرة اليها ، يقهرون اهل القرى الاخرى فيملكون بلادهم ، ويغتنمون خيراتهم واموالهم فكانهم يأكلونهم · وللعرب اقوال معروفة في هذا الشأن يقولون : أكل فلان جاره اذا عدا عليه فانتهك حرمته وابتز خيراته ·

ثم قوله : " نفى الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد " فالمراد ان المدينة تنفي خبث الرجال كما ينفي الكير خبث الحديد ·

وخلاصة الحديث : ان القرية تأكل اهل القرى كما يفترس الحيوان الحيوانات الاخرى ويأكلها كما انها تنفي خبائثها كالكير وهو المنفاخ الذى يؤجج نار الحداد ليخرج خبث الحديد الضار ويلفظه الى الخارج · فالرجل الفاسد يلفظه المجتمع وينفيه بعد التجربة والمعاملة التي هي بمثابة اختبار له او محك تجربة ·

---

(١) المجازات النبوية ص ٧٢ وموه : اسم فاعل من اوهى وهي بمعنى ضعف ، واصلها موهي حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع التنوين وجعل التنوين على الكسرة ·

(٢) جواهر البلاغة ص ٣١٣ — (٣) المجازات النبوية ص ٣١٥

(٤) المجازات النبوية ص ٣٣٠ والخبث : القذر والضرر وأمرت بقرية اى بسكنى قرية ·

المجـاز : المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الوضعي (١) .

قال (ص) : "العلمُ رائدٌ والعدلُ سائقٌ والنفسُ حَرُونٌ" (٢) . وفي هذا الكلام مجاز . فقد شبه عليه الصلاة والسلام علمَ الانسان بالرائد الذى يتقدم امام القوم فيدلهم على المنزل الوسيع والمرعى الخصب ، لانه خبير بتلك الامور عالم باسرارها ، فبفضل علمه اخذ بقومه الى شاطىء الامان وانقذهم من غوائل الحياة .

والعقل هو السائق دون شك وهو ربان السفينة ومديرها ومُدَبِّر امورها ، يحث الانسان على سلوك النهج الاسلم ويحمله على الذهاب في الطريق الاقوم ، دون اى تأثير لنزوات النفس والعاطفة ودون اى تبرير لعنفوان الارادة . ولكن ما فائـدة العلم الرائد والعدل السائق اذا كانت النفس حـروناً ؟

النفس التي تتراجع وتتقاعس وتعاكس صاحبها كالدابة الحرون (٣) التي اذا اريد جريها وقفت ، مما يضطر صاحبها الى لذعها بسوط الادب لتطيعه وتستقيم وتجري في الطريق الصالح

ومن ذلك قوله (ص) : "كَفَى بالسَّلامَةِ داءً" (٤)

والسلامة غنيمة كما يقولون ولكن السلامة الدائمة تفْضي الى الادواء القاتلة اذ ان طولها يؤدى الى موت الشهوات وانقطاع اللذات ، وعوارض الهرم وتغيراته وعوادى السقم ومضايقاته . لذلك سمى السلامة داء ، لانها مؤديـة اليـه .

والحقيقـة ان السلامة الدائمة تؤدى الى تراخي الجسد وتكاسل الاعضاء وبالتالي تعود على صاحبها بالملل والضجر ثم بالعلل والمرض ، وحسبنا داء ان نصح ونسلم . وقد تناول هذا المعنى بعض الشعراء في اشعارهم الا ان كلمة النبي (ص) جاءت انصع وابهى واجمل .

قال لبيد بن ربيعة :

وَدَعَوْتُ ربي بالسَّلامَةِ جَاهِداً ... لِيُصِحَّني فاذا السَّلامةُ داءُ (٥)

كما قال اخر :

يَوَدُّ الفتى طولَ السَّلامةِ والغِنَى ... فكيف يرى طولَ السَّلامَةِ يَفْعَلُ (٦) .

---

(١) جواهر البلاغة ص ٣٠٢

(٢) المجازات النبوية ص ٢٠٤

(٣) الدابة الحرون يقال حرنت الدابة وتحرن اذا اريد جريها ووقفت والحران خاص بذوات الحافر .

(٤) المجازات النبويـة ص ٤٣٠

(٥) المجازات النبوية ص ٤٣٢

(٦) المصدر نفسـه .

الكنايـة : لفظ اريد به غير معناه الذى وضع له ، مع جواز ارادة المعنى الاصلي لعدم وجود قرينة مانعة من ارادته . (١)

ومن ذلك قولـه (ص) : " اللَّهُمَّ إني أَحْمَدُكَ على العِرْقِ السَّاكِنْ والليْلِ النَّائم " (٢) .

ووصف الليل بالنوم ، لان النوم انما يكون فيه لامنه ولكنه لما كان مطية للنوم حسن ان يوصف به .

كما يمكن ان نلاحظ في الليل النائم صورة للمجاز العقلي . فقد أسند (ص) اسم الفاعـل الذى هو نائم الى الليل ، لان في النائم ضميرا يعود على الليل ، والليل ليس بنائم وانما هو ظرف لنوم الانسان فهو من اسناد مافي معنى الفعل الى ظرفه وزمانه .

اما الكناية ، وهو مثلنا في هذا الحديث ، فقوله (ص) العرق الساكن يريد به الطمأنينة ، لان سكون العرق يلزم منه عدم الانزعاج والالم . ولم يرد سكون العرق فقط بل اراد لازمه وهو هدوء البال وطمأنينة العيش . وفي الليل النائم كنايـة ايضا عن خلو البال وراحة الضمير ، لان الانسان لا ينام الليل الا اذا كان خالي البال مستريح الضمير غير متألم ولا مريض .

والتأمل في الاحاديث النبوية الشريفة يلاحظ انها تصلح لاكثر من شاهد كما نوهت على ذلك في اول هذا البـاب .

---

(١) انظر جواهر البلاغة ص ٣٦٠

(٢) المجازات النبويـة ص ٧٧ والمراد بالعرق الساكن الطمأنينة وعدم الازعاج ، لان العروق يكون جريان الدم فيها طبيعيا اذا كان القلب طبيعيا والقلب يتأثر نبضه ودفعه الدم في العروق بالخوف وبالحزن ، وبالخجل وبالالم ، وبالمرض . وعلى العموم يتاثر بتأثر الحواس ، فاذا لـم يحدث للانسان ازعاج معرقـه ساكن ، اما اذا ازعج او تأثر فان القلب يدفع الدم بشدة في العروق فيظهر اثر ذلك في العروق بالارتفاع والانخفاض فلا يكون ساكنا .

والليل النائم : اى صاحبه لان الليل لا ينام وانما ينام فيه الانسان ، وحمد الرسول (ص) ربه على نوم الليل لانه لاينام الا خالي البال الهادئ المطمئن غير منزعج وغير متألـم .

× نقـد العاطفـــة ×

للعرب القدامى نقد في العاطفـة يكاد يوجز في بحثهم عن سموها ،وصدقها ،وعمقها ، وتنوعها واستمرارها . فان توفرت لها هذه الصفات في الادب ،أثارت الشعور والوجدان ، وبذلك يكون قد افلح الاديب في نقل احاسيسه من قلبه الى قلوب الاخرين .

اما اذا فقدت العاطفة من الادب ،وصف بانه قليل الماء والرونق (١) .

اما عن علاقـة العاطفـة بالفن فنستطيع القول انها المادة الاولية ،او المادة الخام التي يستمد منها الفنان ويحولها بواسطـة الخلق والابداع الى مادة جديدة ،غير مادة العواطف والافكار وقد حدد بعض نقاد العرب هذه العلاقة ،علاقـة الفن بالعاطفة ،فقالوا : "فالعاطفة مصدر للفن غير مباشر وانها عنصر فيه قليل الظهـور بل مستتر وراء الصور والاشكال " (٢) .

وبعد هذا تبقى العاطفـة عصية عن التعريف الدقيق ،فهي حالة نفسية يصعب ضبطها او قياسها بدقة ،بل قل هي ومض انفعالي لاتنضبط مادته . "قد يكون حدسا او الهاما ،كما يكون فناء عند الصوفيـة " (٣)

سنبحث فيما يلي الحديث النبوى من حيث تصويره للعواطف والانفعالات ولنرى مدى السمو والصدق والقوة والعمق في ما نعرضه من نصوص .

وللاجابة على ذلك ،نحتاج الى البرهان العملي : لذا نرجع الى بعض الاحاديث النبوية علنا نفي بالغرض المطلوب .

وعلينا ان ننبه هنا الى اننا حين نبحث عن المضمون العاطفي للحديث النبوى ،ينبغي ان نعي بوضوح ان الجانب العاطفي لدى النبي (ص) ــ في حياته وبيانه ــ انما هو انعكاس لاهتمامه الرسالي ونابع من همومه في تأديـة رسالته الى الناس .

سمو العاطفـة :

قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم كمثلِ الجَسَـدِ اذا اشتكى عُضْوٌ منه تَداعى سائِرُه بالحُمَّى والسَهَرِ" (٤)

---

(١) المنتجب العاني للدكتور اسعد علي ص٣١٥ عن اسس النقد ص ٥٠٦ الى ٥٠٨

(٢) - - - - ص٣٠٦ عن النقد الجمالي ص٨٦ ــ ٨٧

(٣) التصوف في الشعر العربي ص٧١ والاسس النفسية للابداع ص١٨٦ .

(٤) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٩٤ .

المؤمن هو الذي يحب لاخيه لما يحب لنفسه ويكره له مايكره لها ، فيجيبه اذا دعاه ، ويعوده اذا مرض، ويُقَدِّم له النَّصيحَـةَ اذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب ، اذا غاب عنه ، وبذلك يصبح جميع المؤمنين اخوة في الغنم والغرم كل واحد منهم يحس باتراح الاخرين واتراحهم ويشاطرهم في السراء والضراء فهم كالجسد الواحد ، اذا اشتكى عضو منه تداعت سائر الاعضاء .

فاذا اصبنا بالحمى اشتركت جميع اعضاء الجسم ، من الرأس حتى القدمين ، في تحمل خبث هذا الداء ، واحتـر الرأس والجسد والاطراف جميعا ، فيهتز الجسم كله هَزَّةً واحدةً ، اذ يرتعد كالمقـرور ويسبح في الدموع من كافة اعضائه . وهكذا هي حاله في شتى الاصابات ومختلف الامراض .

واذا دبَّ فينا النعاس ترانا نتراخى جميعا ، فتغمض العين ، ويسكن القلب ، وتهدأ الرئتان ، وتغفل جميع الحواس ، فيستسلم الجسد للنوم ، فلا يمانع اى عضو من اعضائه ولا يعترض ولا يعارض فيحصل الغرض المطلوب ويبلغ الهدف المنشـود .

فلقد اعطانا النبي (ص) صورة ناطقـة ، نحس بها لانها منا وفي متناولنا ، وهو على عادته يحسن ضرب الامثال الواقعيـة لتكون دروسا لنا ، منها نأخذ وبها نقتـدى .

صـدق العاطفـة :

أن صدق العاطفة ينبع من صدق الاحساس وصدق التعبير عنه . فالنبي محمد (ص) استطاع ان يختار ادق الالفاظ واكثرها نقاء للتعبير عن عواطفه نحو الاخرين .

ولنأخذ هذه الصورة الرائعة في البيان وفي تصوير العاطفة الصادقة ، قال صلى اللـه عليه وسلم " مَثَلُ الاخوين اذا التقيا مَثَلُ اليدَين تَغْسِلُ احداهُما الأُخْرَى " (١) .

ان الاخوة والالفـة هي ثمرة الخلق الحسن ، والخلق الحسن يوجب التحاب والتآلف بين الاخوان . والمراد : الاخوة في الله عز وجل الذى ألَّف بين قلوب المؤمنين ، فاصبحوا بنعمته اخوانا ، تلك الاخوة التي تعفو عن شوائب الشيطان ونزعاته ، والتي بالقيام بها نتقرب الى الله زُلْفَى لننالَ الدرجاتِ العلَى .

فالاخوان اللذان يؤمنان بتلك الاخوة هما كاليدين تغسل احداهما الاخرى . اذ يتعاونان في كل ميادين الحياة وشؤونها ومتاعبها ، فيقدم كل منهما لاخيه كل ما يملك من قوة وطاقة لتنفيذ جميع مهامه وتحقيق ابعد امانيه .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٢ ص ١٥٨ .

وكذلك هو واجب الاخ الثاني في مد يد المساعدة والعون ورد الجميل لاخيه بمحبة ويسر واخلاص .

ولا تقتصر المساعدة على الماديات بل تتعداها الى المعنويات . فالمؤمن يخفف الهَمَّ عن قلب اخيه ويزيل الكَرْبَ عنه ، ويبعد الضجر والغم ، فأليه يشكو وبه يغسل اثار تلك الهموم . فهو له كاليد التي لاغنى لها عن اختها اذ تتعاونان معا في تحصيل الغرض المطلوب في كل يسر وطواعية .

وما احوجنا نحن اليوم الى التمسك بمثل تلك الاقوال التي تساعد في تمكين البنية الاجتماعية وشد اواصرها .

هذا هو الصدق في العاطفة ، هذا الشوق المستمر التوهج والتحريك ، الدائم الحضور فهو لا يذهب يوما ويجيء اخر ، فهو كل يوم وكل حين .

وهذه العاطفة التي نصفها بالصدق يمكن وصفها ايضا بالقوة .

قوة العاطفة :

اذا كانت العاطفة تقاس بمقدار تأثيرها في النفس فاصغِ معي الى هذا الحديث الشريف .

قال صلى الله عليه وسلم : " الولدُ ثمراتُ القلوبِ وقُرّاتُ العيون " .

فاراد عليه الصلاة والسلام ان الاولادَ خالصةُ القلوب والاكباد ، كما ان الثمر خالصة النبات والاشجار . كما ان الولد من ابيه بمنزلة الثمرة من الشجرة لانه منه تفرع ، وبواسطته ظهر وطلع .

وقد اضاف (ص) الاولاد الى القلوب ، فجعلهم ثمارا لها دون سائر الاعضاء ، لان القلب سيد الاعضاء الرئيسية والاحشاء الشريفة .

ويظهر لنا واضحا ان ما تجلى من عاطفة سيد البشر تتحلى به قلوب كل البشر .

عمق العاطفة :

عمق العاطفة ملازم لقوتها . تأمل شجرة الارز الصامدة في وجه العواصف والخالدة عبر العصور ، كل ذلك بفضل جذورها الضاربة في احشاء الارض . وكذلك العاطفة فجذورها في كل هنة من هنات شعور صاحبها ، وفروعها تتجلى في كل حاسة من حواسه الظاهرة .

ومحمد (ص) الشفوق العطوف على بني الانسان عامة ، شملت عاطفته حتى الحيوان فقد رأى بعيرا في بعض حيطان (١) المدينة تحنّ اليه كالشاكي ، فقال (ص) :

" إن بعيرَكَ يشكوكَ ، ويَزْعُمُ انك أكَلْتَ شَبابَه حتى اذا كَبِرَ تُرِيدُ أنْ تَنْحَرَهُ " (٢) .

والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام (أكلت شبابه) استعملته في حال شبابه وقوته ، واجمعت نحره في حال ضعفه وكبره .

وهذا القول مجاز حيث شبه استعمال البعير في شبابه بأكل شبابه ، بجامع الافناء واشتق من الاكل بمعنى الاستعمال طول مدة الشباب ، على طريق الاستعارة التبعية .
وقلب محمد (ص) لا يعرف غير الحب ، والحب عنده طبيعة وفطرة ، من اجل هذا كان يَبْذُلُ حُبَّهُ في سَخَاء نادر النظير . فأحب الله واحب الانسان من عدو وصديق واحب كل شيء في كون الله الرحيب .

---

(١) الحائط هنا : البستان وجمعه حيطان وحياط

(٢) المجازات النبوية ص ٤٢٦ .

تلك هي الجوانب التي جعلت محمدا (ص) افصح العرب ، وجعلت بيانه في المرتبة الثانية فصاحة بعد بيان القران وفصاحته .

بعد هذا هل نستطيع ان نوازن بين مقاييس العرب في النقد وبين ما ذكرنا من اشراق الفصاحة والبلاغة في حديث رسول الله ؟

اننا نرى ان الحديث النبوى هو نفسه مقياس لكل رائد بلاغة او فصاحة او بيان يقاس به ولا يقاس بغيره . وكل من نطق الضاد وقرأ العربية ، وتحلى بشيء من عقل وذوق وعدل حكم ان الحديث النبوى افصح كلام بعد القران الكريم .

وسوف نعرض اهم الجوانب التي تعرَّضَ لها النقادُ العربُ في نقد المعنى . نذكر منها :

الابتكار والتقليد :

بعضُ الادباء قد يأتي بمعان جديدة لم يسبق اليها من قبل والبعض الاخر " مايحتذيه على مثال تَقَدَّمَ ورسم فَرَطَ " (١) فيكون مقلدا .

والبحث حول النحل والسرقات في الادب العربي ، امر أنفق عليه النقاد الكثير من البحث والعناء ، وشحنت به كتب النقد (٢) .

ومن المعاني الطريفة التي ابتكرها الرسول (ص) نذكر جانبا من الاحاديث علنا نفي بالغرض المطلوب .

لنتامل هذا الحديث الذي يسطع بنور بيانه .

روى الحديث عبد الله بن عمر كما رواه انس ايضا قال : " قال رسول الله (ص) " إنَّ قُلوبَ بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن يُصَرِّفُها كيفَ شاء ") (٣)

فالكلمة التي اكسبت الحديث جمالا وقيمة هي " اصبعين " فماذا يعني بها ؟ يعني بكلمة اصبع فيما ورد من الاخبار الاصبع في كلام العرب وان كانت الجارحة المخصوصة نهي ايضا الاثر الحسن ، يقال : لفلان على ماله وابله اصبع حسنة ، اي قيام وأثر حسن . قيل في راع احسن القيام على ابله :

ضَعيفَ العصا بادى العروقِ ترى له   عليها اذا ما اجدبَ الناسُ اصبعا (٤) .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٧٥ وفرط : سبق .

(٢) راجع الموازنة بين الطائيين ص ١٣١ و ٣٣٧ وكتاب الصناعتين ص ٢٠٤

(٣) امالي المرتضى ج ١ ص ٣١٨

(٤) البيت في اللالىء في شرح امالي القالي تحقيق عبد العزيز فهمي لجنة التأليف والترجمة بمصر [illegible] ١٣٥٤ هـ [illegible]

وقد وردت الكلمة نفسها عند لبيد بن ربيعة :

مَنْ يَبْسُطِ اللهُ عليه إصبعا بالخير والشر بأى اولعا
يملأ له منه ذنوبا مترعا (١)

فالاصبع في كل ما اوردناه المراد بها الاثر الحسن والنعمة ، فيكون المعنى : مامن آدمي الا وقلبه بين نعمتين لله جليلتين حسنتين . ونعم الله على عباده كثيرة لاتحصى ولكن الارجح ان يكون في ذلك نعم الدنيا ونعم الاخرة .

وقد يكون هناك وجه آخر في كنايات العرب وهو ان يكون المعنى في ذكر الاصابع الاخبار عن تيسر تصريف القلوب وتقليبها ، والفعل فيها عليه عز وجل ، ودخول ذلك تحت قدرته . الا نرى انهم يقولون : هذا الشيء في خصرى واصبعي ، وفي يدى وقبضتي وكل ذلك اذا ارادوا تيسره وتسهله . وعلى هذا يتأول المفسرون قوله تعالى : " والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه " (٢) .

فكما ان النبي (ص) لما اراد المبالغة في وصفه بالقدرة على تقليب القلوب وتصريفها بغير مشقة وان كان غير الله عز وجل لايتمكن من ذلك ويعجز عنه فقال : القلوب بين اصابعه كناية عن هذا المعنى .

ولا يخفى ما في هذا التعبير من البساطة والايجاز وتضمين اقل الالفاظ ابعد المعاني بعيدا عن التكلف والصناعة اللفظية .

ومن الاحاديث البليغة التي نستشهد بها ، قوله عليه الصلاة والسلام : " الا أخْبِرُكم باحبكم الي واقربكم مني مجالسَ يَوْمَ القيامة ؟ أَحاسِنُكم (٣) أَخلاقا المُوَطَّئون أَكْنَافا " (٤) الذين يَأْلَفُون ويُؤْلَفُون . الا اخبركم بابغضكم الي وابعدكم مني مجالسَ يومَ القيامة ؟ الثَّرْثَارُونَ المُتَفَيْهِقُون "

فالموطَّئون اكنافا هم لينو الاخلاق الذين لا يؤذون ولا يزعجون .

والثرثارون المتفيهقون ، هم الذين يكثرون الكلام ، ويخرجون عن القصد متكلفين في القصد ، ومتباعدين عن الحق . وكلمة ثرثار يقال انها مأخوذة من العين الثرثارة ، وهي الواسعة الغزيرة الحياة . ومنه النهر الثرثار الذى ذكره شاعرُ بني امية الاخطل حيث قال :

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة

(٢) الزمر : ٦٨

(٣) احاسنكم جمع احسن ـ المجازات النبوية ص ١٨٧

(٤) الكنف الجانب والموطئون الذين يطأ الناس اى يدوسون جانبهم فلا يؤذون ولا يزعجونه . والمراد لين الاخلاق وعدم شراستها .

لَعَمْرِى لقد لاَقتْ سُلَيْمٌ وعامِرٌ على جانب الثرثار راغيةَ البَكْرِ (١)

وقوله عليه السلام " المتفيهقون " هم ايضا الثرثارون ولكن بغير طريقه في النطق . كقولنا تفهق الغدير يفهق : اذا كثرت ماؤه وفاض على جانبيه .

وفي الحديث عدة استعارات في الاولى : الموطئون اكنافا قد شبه لين الاخلاق بتوطيء الجانب واشتق من التوطيء بمعنى اللين الموطئون بمعنى اللينون على سبيل الاستعارة التبعية .

وفي " الثرثارون المتفيهقون " فقد شبه الثرثار بالنهر الكثير الماء . والمتفيهقون ، الرجل المتحذلق في كلامه الذى يُخْرِجُ الحروفَ قويةً حتى تكاد تملأه ، وتنفخ خديه شبهه بالغدير الذى يزيد فيه الماء حتى يملأ جوانبه ويكاد يسيل منها ، او بالقصعة التي تمتليء بالطعام ، وتفهق به حتى يكاد يجاوز جوانبها بجامع الامتلاء واشتق من الفهقة متفيهق على سبيل الاستعارة التبعية .

ثم اذا لاحظنا هذا التسلسل في التوضيح والتفسير ، دون اطناب او تطويل ، لراعنا ذلك . لقد فصل لنا (ص) المعاني المتسلسلة تدريجيا شارحة بعضها بعضا (الموطئون اكنافا ، الذين يَأْلَفون ويُؤْلَفون) ولعمرى لهو تعبير رائع حسن الاداء كامل التعبير .

والحقيقة ان في الحديث النبوى الواحد شواهد عدة ومعينا لاينضب كلما تناولت منه شيئا تبدت لك اشياء .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

" ماتَ حَتْفَ أنفه " (٢) فهو مجاز لانه جعل الحتف لانفه صفة خاصة ، بينما هو في الحقيقة صفة عامة فالميت على فراشه من غير جرح او قتل ، انما يتنفس شيئا فشيئا حتى تخرج بقيةُ الروح وتفنى النفسُ . وقد خصَّ (ص) الأنفَ بذلك لانه منه خروجَ النفسِ وحلولُ الموتِ .

نستطيع القول ان في الحديث مجازا مرسلا لان النفس تخرج من الانف وهي التي تهلك دون الانف .

وهذا التعبير لايقال في سائر الميتات حتى تكون الميتة ذات مهلة ، فلا يستعمل في الميتة بالفرق وجميع فجأة الموت ، وانما يستعمل في العلة المطاولة الميتة المماطلة .

---

(١) البكر : الفتى من الابل ، والراغية : المصوته التي ترغى ، والثرثار : نهر بالشام .

(٢) المجازات النبوية ص ٦٨

وروى عن امير المؤمنين علي (ع) انه قال : " ما سمعت كلمةً عربيةً من العرب الا وقد سمعْتُها من رسول الله صلى الله عليه واله وسمعته يقول : مات حتف انفه • وما سمعتها من عربي قَبْلَـه " (١) •

ومن تعبيراته الادبية التي ولّدها :

" الآن حَمِيَ الوطيسُ " (٢)

كانت المناسبة لهذا الحديث يوم (حنين) عندما رأى تجالد القوم فقال : " الان حمي الوطيس " وهذه اللفظة هي على الاغلب من جملة الامثال من كلامه وهو يعني اشتدادَ الحرب ، وعظمةَ الخَطْبِ • والوطيسُ في كلامهم هي الحفرة التي توقد فيها النار للاشتواء • وتجمع على وطس ، والمراد من تلك العبارة ما ذكرنا من حرّ الصراع وشِدّةِ المضاربة بالسيف •

من هنا قالت العرب : أوقدت نار الحرب بين آل فلان وآل فلان •

وقال الله عز وجل مخرجا الكلام متناسبا مع لسانهم واوضاعهم كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله " (٣)

ولعله يريد من وجه ، شدّة حرّ القيد وضيق الدروع على لابسيها بسبب الحرارة في اجسادهم كالنار •

اويريد من وجه آخر ان النارَ تأكل رجالَها ، وتَفْني أَبْطَالَها • كما تأكل النارُ شُعَلَها وتحرق حطبها (٣) •

وللنبي (ص) بعضُ الكلمات البكر عَبَّرَ بها اجملَ تعبير دون ان يسبقَه احد اليها ، ثم اتخذت نموذجا يحتذى فيما بعد لكبار الصحابة ومن تبعهم من الادباء والكتاب • قال عليه الصلاة والسلام : " أَخافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِها " (٤) • قال (ص) هذا الحديث وقد كسا اسامة بن زيد قبطيةً (٥) فكساها زيدٌ امرأتَه • والمعروفُ ان القبطية قماش رقيق تلصق بالجسم ، فتبين الثديين وتبرزهما وتظهر ما يشذ من لحم العضدين والفخذين ، فتظهر هذه الاعضاء واضحة الملامح لمن اراد النظرَ اليها ، فجعلها (ص) لهذه الحال كالواصفة لما خلفها ، والمخبرة عما استتر بها • ولا شك ان هذه الكلمة اضافت الى الجملة جمالاً لطيفاً معبّراً •

وقد رمى الى هذا التعبير الخليفة عمر بن الخطاب في قوله : " اياكم ولبسَ القباطي ، فانها الا تشف وتصف " (٥) •

---

(١) المجازات النبوية ص ٦٦
(٢) المجازات النبوية ص ٤٥ رقم الحديث ٢٦
(٣) المصدر نفسه — (٤) و(٥) المجازات النبوية ص ١٦٥ والقبطية ثياب مصرية منسوبة الى قبط مصر •
(٦) المجازات النبوية ص ١٦٦ وتشف : يظهر الجسم من تحتها بلونه وحجمه

الارداف والتوابع : وهو ان يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه ، الخاص به ، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له (فيجعله عبارة عن المعنى الذي أَرادَهُ) (١) من ذلك قوله تعالى : "فيهن قاصرات الطرف" (٢) .

وقال (ص) : "لاتسأل المرأةُ طلاقَ أُخْتِها لِتَكْتَفِيء مافي إِنائها" (٣)

ياله من تعبير جامع ، فقد اراد (ص) ان المرأة لاينبغي لها ان تطلب طلاق اختها لتتصل هي بالزوج الذي كان لها لانها تكون قد استبدت بالنفع عليها وحَوَّلت عنها مجرى نعمتها واكتفأت ما في إنائها ، اذا امالته الى نفسها ، واستفرغت مافيه لتشربه كله . فعبارة لتكتفىء مافي انائها هي ما يُسَمَّى بالارداف والتوابع .

فقد ترك (ص) اللفظ الدال عليه واتى بِلَفْظٍ هو ردفه وتابع له . كما في الحديث استعارة تمثيلية حيث شبه حالة الاخت التي تعمل على طلاق اختها من زوجها لتنزوج هي به بحالة الشخص الذي يقلب الاناء فيفرغ ما فيه ثم يشربه كُلَّهُ . فوجه الشبه على مايظهر منتزع من متعدد وهو تشبيه طلب التطليق بمحاولة قلب الاناء ووقوع التطليق بافراغ الاناء والزواج بزوج الاخت بشرب مافي الاناء كلّه .

ومن استعاراته العجيبة قوله لحادي مَطِيَّه : "يا أَنْجَشَةُ رِفْقاً بالقوارير" (٤) .
فكلمة قوارير تبدو غريبة في وصف النساء ، وجمعها قارورة وهي ماقَرَّ فيه الشراب ونحوه ، سواء كان من الزجاج او من غيره ، وقيل مخصوص بالزجاج اذ لايشينه ادنى خدش ، ولا يغشيه أرقُّ مسٍّ . فالقارورة صافية شَفّافة نقيةٌ والنساءُ في طبيعتهن يشبهنها . والقارور على وزن فاعول من استقرار الشيء فيه من الشراب والمائعات . والقوارير المصنوعة من الفضة تشف شفيف تلك المصنوعة من الزجاج ، وبذلك تسبغ القارورة جامعة للرقة اللطيفة والجمال المكشوف ، وقد طلب النبي (ص) من ذلك الحادي الكَفَّ عن اسماع النساء لان في ذلك ما يُحَرِّكُ فيهنَّ موانع الصبوة ، وينقص معاقد العفة ، وذلك لضعف طبيعتهن وَوَهَن غرائزهن .

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٦٠
(٢) الرحمن الاية ٥٦
(٣) المجازات النبوية ص ٥٢ ـ ويقال كفأت الاناء اذا كببته واكتفأته اذا شربت مافيه اجمع .
(٤) المجازات النبوية ص ٣٠ وانجشة مولى النبي وخادمه وحادي مطية الذي يغني للابل اثناء سيرها حتى يسهل عليها السير ويخف عنها التعب . وقد اخرج هذا الحديث احمد بن حنبل والبخاري ومسلم والنسائي عن انس بلفظ : "يا انجشة رويدك سوقك بالقوارير" .

المماثلة : أن يريد المتكلم العبارة عن معنى ، فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى اخر ، الا انه ينبىء اذا اورده عن المعنى الذى اراده ، (١) كقولهم (فلان نقيّ الثوب) يريدون به انه لاعيب فيه وليس موضوع نقاء الثوب للبراءة من العيوب •

وفي القرآن الكريم : " كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا " (٢) وقوله عزّ وجل : " ولا تجعل يدكَ مغلولةً الى عنقك ولا تبسُطْها كل البسط " (٣) فمثلُ البخيل الممتنع من البذل بالمغلول ، لمعنى يجمعهما ، وهو ان البخيل لايمد يده بالعطية ، فشبهه بالمغلول •

ومن ذلك قوله (ص) : "إياكُم وخَضْراءَ الدِّمَن" (٤) •

ولعله عليه الصلاة والسلام اراد بذلك المرأة الجميلة شكلا والمطعون بها نسبا واخلاقا • فوجه المجاز هنا انه (ص) شبه المرأة الحسناء بالروضة الخَضْراء لجمال ظاهرها ، كما شبه منبتها السوء بالدمنة (٥) لقبح باطنها او سوء بيتها •

فقد نهى عن نكاح مثل هذه المرأة المغموضة في نسبها والمطعون في عرفها السيء ، الذى سرعان ما تنتقل عدواه الى ولدها ونسلها •

ثما يمكن ان نأخذ من الحديث الوجه الاخر وهو ان يتلقى الرجل اخاه بالكلام الجميل والظاهر المحبب ، ويضمر له النية السيئة والباطن الذميم ، فيظهر بذلك تعارض النفاق وتغاير الاخلاق • وشاهدنا على ذلك في قول الشاعر :

وقد يَنبُتُ المرعى على دِمَنِ الثّرى   وتَبقَى حَزَازَاتُ النفوسِ كما هِيَا

ان في استعمال خضراء الدِمَنْ في المرأة السيئة الاخلاق استعارة تصريحية حيث شبه (ص) تلك المرأة السيئة الحسب والجميلة المنظر بالنبات الاخضر في المنبت السوء ، كما استعمل لفظ المشبه به في المشبه على طريق الاستعارة التصريحية •

اما مانريده شاهدا في هذا المجال هو المماثلة • فقد استعمل (ص) لفظة خضراء الدِمَن لِيُنبِىء عن المعنى الذى اراده وهي المرأة الجميلة المنظر والسيئة المنبت •

---

١) كتاب الصناعتين ص ٣٦٤

(٢) النحل الاية ٩٢

(٣) الاسراء الاية ٢٩

(٤) المجازات النبوية ص ٦٩

(٥) الدمنة : الابعار المجتمعة التي يعلوها التراب المحمول بواسطة الريح وهي محل القذارة •

المحسنات المعنوية البديعية : من هذه المحسنات عدّ النقادُ الطباقَ • وقد اجمع الناسُ على ان الطباقَ او المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده (١) والمقابلة وهي عدة طباقات متتالية • واستحسنوا العفوي منها (٢) •

والطباق في اللغة : الجمع بين الشيئين ، يقولون : طابق فلان بين ثوبين ، ثم استعمل في غير ذلك فقيل طابق البعير في سيره ، اذا وضَعَ رِجْلَه موضِعِ يَدِه (٢) •

كقوله تعالى : " وأنه هو اضحك وابكى ، وانه هو امات وأحيا " (٣) •

وقد تنازع الناس هذا المعنى ، قال ابن مطير : تضحك الارض من بكاء السماء (٤) •

وقال رسول الله (ص) : "خَيْرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائِمةٍ" (٥)

وكأني اجد في هذا الكلام احسن ما قيل في هذا المعنى ، فقد اتت الالفاظ لابسة المعاني لبسا جميلا فكأنما صبت عليها صبا ، فظهرت كالجسم المتلب المجدول الكامل التقاسيم ، والجامع لالوان السحر والبلاغة •

فعين الماء الجارية التي لا ينقطع جريانها ليلا نهارا ، هي عين ساهرة دائبة المراقبة لاتنام ابدا ، بينما العين الثانية ، عين صاحبها هي نائمة ، لا هم عندها ولا شأن لها • والذي يضيف جمالا في التعبير هو لفظة (السهر) حيث اتت في مكانها المناسب لها •

اما اوجه البيان اذا اردنا تلمسها ، فانها تظهر في تشبيه دوام جريان الماء وعدم انقطاعه ، بالسهر المستمر الدائم • واشتق من السهر بمعنى عدم الانقطاع : ساهرة الى غير منقطعة • ففي الحديث استعارة تبعيــة •

اما عن الذى يُظْهِرُ غيرَ ما يُبْطِنُ ويقول بلونين مختلفين فقد قال (ص) :

"إن ذا الوجهين لخليقٌ ألاّ يكونَ عندَ اللهِ وَجِيهاً " (٦) •

ولا شك ان هذا القولَ مجازٌ وليس على الحقيقة لانه (ص) لا يقصد الوجه العضو المخصوص ، ذلك ان استحالة وجه الانسان من لون الى اخر معلوم بالضرورة وخاصة في حالات معينة كالضحك في الرضا ، والتأوه عند الغضب وغير ذلك من الحالات التي يمر بها الانسان في حياته اليومية العادية •

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٣١٦ — (٢) اسرار النقد الادبي ص ٤٥١

(٣) النجم الاية ٤٣ — (٤) كتاب الصناعتين ص ٣١٧

(٥) المجازات النبوية ص ٩٣ — (٦) المجازات النبوية ص ٣٢٨ ذو الوجهين : المنافق وجيها : ذا جاه • اعيان الشيعة ج ٢ ص ٢٥٤

وانما المقصود من هذا الحديث المنافق الذي ظاهره يخالف باطنه ، فيتكلم شيئا وهو يضمر عكسه ، كما يقول اليوم ما يخالفه في الغد ، يتلون حسب الظروف والاحوال ، فيمدح انسانا في الحاضر ، ويلقاه بوجه ضحوك تظهر عليه علامات المودة ، وربما تناوله في الغد بلسان الذم والنكران . هذا الرجل ذو الوجهين المختلفين ، قد ذمه الرسول (ص) وهو يبشره انه لن يكون ذا وجاهة بين القوم ، وسرعان ما يكشف سِرَّهُ ويظهر على حقيقته ، عاريا لاغبار عليه ، فَبَدَلَ ان يُحْمَدَ يُذَمُّ ، والوجاهة التي يبغيها تصبح عليه عارا ومذلة .

وهو الذي ذمه النبي (ص) وقال عنه في حديث اخر : " بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطرى اخاه شاهدا ويأكله غائبا ، ان اعطي حسده وان ابتلى خذله " (١) .

ومن احاديثه في الاخلاق قوله عليه الصلاة والسلام :

" استعيذُوا باللّهِ من طَمَعٍ يَهْدِى الى طَبَعٍ " (٢)

لاشك ان الطمع الذي منه معايب الافعال ومدانسها ، قد يوقع الطامع في مذام الاعمال ومناقصها . والطبع : الدنس والعيب هو نتيجة حتمية لعواقب الطمع فجعل عليه الصلاة والسلام كأنه هاد الى ما قلنا من معايب الافعال ودليل عليها .

والطبع بناء على تفسير علماء اللغة مأخوذ من الطابع ، وهو الخاتم ، فكأنه يسم صاحبه وسما ويشهره تشهيرا اذ يؤثر رسمه ويظهره .

فاذا اردنا ان لايسمنا احد بالمعايب ولا يشهرنا بالمثالب ، علينا ان نبتعد عن الطمع الضار الذي يفضي بنا الى وحل الانانية البغيضة ، ونكون كرماء فيحبنا الناس ويحبنا الله ، اله الناس ، العظيم الكريم . والنبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من الطمع ، ويريد لنا حياة كريمة نقضيها بكرم وسخاء ونبل وعطاء حيث لاطمع ولا ضرر يهدى الى شين وطبع .

اما فيما يخص الحياة الاجتماعية فقد خَصَّ الحكام بنصيحة بالغة جاء في الحديث قوله (ص) : " سَيَحْرِصُونَ بَعْدِى على الإمارَة ، فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعُ ، وبِئْسَتِ الفاطِمُ " (٣) . وقد يريد بقوله هذا ان اوائل الامارة حلوة واواخرها مرة . وقد شبهها بالمرضع التي تحسن رضاع طفلها ، ثم تعود فتسيء فطامه لان مداخل الامارة والحكم محبوبة لدى الجميع ، اما نهاياتها او مخارجها فمكروهة ، ولا يخفى السر في ذلك ، لما في المداخل اليها من قضاء الحاجات وتحقيق الاهداف وعلو الرتب ، ولما في المخارج عنها من طرق السوء وشماتة العدو .

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٣٨ والطبع : الوسخ الشديد من الصدر او الشين والعيب .

(٢) المجازات النبوية ص ١٨١ .

وفي هذا الحديث نرى ايضا اوقع تشبيه واحسن تمثيل . حيث شبه الامارة في ابانها ودرها الخيرات والبركات على متوليها ، بالمُرْضِع التي تغذى ولَدَها من لبنها ، كما شبهها بعد زوالها ، بالمرأة او الناقة الفاطم التي بلغ مبلغ حوارها السنة فمنعت عنه اللبن .

اما من حيث البلاغة فالتشبيهان بليغان حيث حذفت اداة التشبيه ووجه الشبه .

السطحية والعمق : هذا المقياس هو (افقي وشاقولي) اذا صح التعبير . فمن الادباء من يكتفي بالمعاني المألوفة والعادية ، فلا يتجاوز الحدود المعروفة عند عامة الناس ، فهو سطحي ، والبعض الآخر من الادباء يغوص في المعاني غوصا فيَجْنَحُ الى البعيد متجاوزا الحدود التي وقف عندها سواهُ ، فهو شغوفٌ بالمعاني مهتمٌ بها .

والان سوف نستعين بعجة من لجة بعض الاحاديث النبوية ، فنعرضها مثلا على ماتقدم .

ومن ذلك قوله (ص) : "كُلُّ هوىً شاطنٍ في النار" (٢)

فقد وصف الهوى بالشطون وهو البعد ، لان صاحب الهوى يبعد عن الرشد ، ويترامى الى الغي . فهو شاطن اى بعيد عن الحق . كما قيل مايقرب من هذا المعنى وهو ان الشاطن هو المعوج عن الحق . ومنه سمي الشيطان لانه شطَنَ عن امر ربه فغوى وضل واعوج . وقد سمي الحبل شطنا لانه يبلغ القعرَ العميقَ والماءَ البعيدَ في البئر .

والهوى الشاطن ، البعيد عن الحق او المعوج عنه هو في النار ، يمتد به هواه فيقذفه في المتاهات البعيدة والارتكاسات الضالة . والمراد بالهوى اى صاحب الهوى على حد قوله (ص) "عليكم بالصدق فانه مع البِرّ وهما في الجنة ، واياكم الكَذِبَ فانه مع الفجور ، وهما في النار" (٢) وهو يريد صاحب الصدق والبر وصاحب الكذب والفجور . فالهوى ليس هو البعيد وانما البعيد هو صاحبه . فيصح ان نقول : كل صاحب هوى في النار .

وعلينا ان نقصّرَ الشطَنَ الذي يهوينا ويغوينا ، نستضيء بنور الحق ما استطعنا فهو للدنيا اسلم ، وللاخرة ارحم .

---

(١) المجازات النبوية ص ٩٤

(٢) المصدر نفسه .

ومن الفوائد المشرقة قوله عليه الصلاة والسلام : " وَرَجُلٌ يُنَازِعُ اللهَ رِدَاءَهُ ، فان رِدَاءَه الكبرياءُ وإزارَهُ العَظَمَةُ " (١) .

ان رجلا ينازع رجلا مثله رداءه لمن اقبح الامور واسفلها ، فكيف بالذى ينازع الله عز وجل رداءه وهو الكبرياء ، وازاره وهي العظمة . فيكون معنى الحديث : ورجل ينازع الله ثوبي (الكبرياء والعظمة) اللذين يكسوهما من يختاره من عباده ، ومعنى منازعة هذا الرجل لله ، انه يتكبر ويتعاظم بغير ما أراد الله ، اذ يتعاظم بالباطل لا بالحق .

اما الذى يتكبر بحق ويعظم بحق ، فهو من يلبسه الله ثوب العظمة والوقار ، بان يكون متواضعا لخلق الله ، مُكَرِّماً للضعيف من عياله ، مُوَقِّراً للكبير ، معطيا للمحتاج ، صابرا على البلاء ، معتقدا ان العظمة والكبرياء لله وحده لا شريك له ، متيقنا ان العظيم الكبير الذى لم يكن له كفوًا أحد هو الله اكبر يعطي الرزق من يشاء وهو العزيز الحكيم .

فالكبرياءُ والعظمةُ رداءُ اللهِ تعالى يُلبِسُهما بَرِيَّتَه ، ولا يقدر غيرُه على ان يُنْزِعَ منهما ما البسه ، او يلبس منهما ما نزعه .

والمراد بالعظمة والكبرياء على حقيقتهما ، لا كما يعتقد الجهال من الناس من كبار الجبارين وعظام المتملكين ، فالعظمة والكبرياء في الحقيقة هما الكرامة التي يلقيها الله على رسله العظام وانبيائه الكرام والقائمين بالقسط من خير الانام ، فيُعَظَّمُون بهما في العيون ويُجَلُّون في الصدور والقلوب .

وبذلك تصبح الكبرياء والعظمة رداء الله وازاره لا لانه يكتسيهما ولكن لانه يكسوهما من يستحق من البشر في هذه الحياة الفانية .

---

(١) المجازات النبوية ص ٤٤٠ والرداء هو الثوب الذى يستر اعلى الجسم ، والازار هو الذى يستر اسفل الجسم ، وكان من عادة العرب لبس ثوبين ازار ورداء . ولقد عبر رسول الله (ص) بما يفهمه العرب ويعقلونه .

الوفاء بالمعنى ؛ وذلك باستيفائه من جميع وجوهه فلا يترك فيه نصيبا لكل من اراد الزيادة في التقصي او بعدا في المرمى . وهذه الظاهرة نجدها ملازمة الحديث النبوي .

الاحاديث النبوية كلها تتحلى بهذه الصفة فلم يتلم أحدا بكلام الا اوفاه معناه حتى بلغ به عقول وقلوب سامعيه . وما اخترته هو دليل الجزء على الكل .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في عهد كتبه لعماله على اليمن :

" فانّ هذا القرآنَ حَبْلُ الله المتينُ ،فيه اقامةُ العدلِ ، وينابيعُ العلمِ ، وربيعُ القلوبِ " (١)

في هذا الحديث روافدُ ثلاثٌ فيها من التعبير الادبي المتضمن ابعدُ المعاني باقرب العبارات كما فيها من الاسلوب البليغ الموجز الجامع كافة الافكار في ثلاث جمل قصار : اولاهن قوله عليه السلام : فان هذا القرآنَ حبلُ الله المتين " . فالقرآن الكريم حبل ممدود بين الله وبين خلقه ، يَعْصِمُ منهم من اعتصم به ، وينجو من المهاوى والمآثم من اعتلق بطرفه ، اذ ينهض من سقطاته ويستعين بسببه ، وبذلك يستطيع من اقامة العدل والسير عليه وتطبيقه عمليا في حياته .

وثانيهن قوله (ص) : " ينابيع العلم " . والقرآن الكريم هو ايضا ينابيعُ الماء المتفجّرة وعيونه المستنبطة . فهو الذى يفتق أكمة العلم المغلقة ويبينها للناس في ابواب معلومة وطرق مدروسة ، فالعلم يبرد الغليل بعد الشك القاتل المحيّر ، كما يبرد الماء غُلَّةَ العطشان المبرّح . فالجاهل الذى يرغب في تحصيل العلم يبقى حائرَ النفسِ مضطربا يفتش عن الحقيقة التي تريحه ، وتزيل الشك والقلق اللذين يوسوسان في ضميره ، وهل في الحياة اصعب من قلق النفس التائهة في ظلام الجهل القاتل ؟ فالعلم يشفي النفس ويريحها كما ترتوى غلة الظمآن بالماء المبرد .

وثالثهن : قوله (ص) " وربيعُ القلوب " . فالقرآن للقلب الواعي والعقل المدرك كالربيع للابل الراعية . إذ ان القلبَ يستفيدُ من حكم القرآن كما تستفيد الابل من الربيع . فهذا غذاء للارواح وذاك غذاء للاجسام . والقرآن تنفرج القلوب بعلمه وآدابه كما تنفرج العيون بانوار الربيع المشرقة واعشابه النضرة .

ولا عجب من ذلك اذا علمنا ان الربيع اسم للغيث في الاصل ، ثم صار فيما بعد اسما عند العرب لما ينبت عن الغيث من انواع الزهور والاعشاب التي تحيي الطبيعة (ومنه كل شيء حي) ولنا دليل على ذلك في قول احد الشعراء :

انت ربيعي والربيعُ ينْتَظَرُ وخيرُ أنواءِ الربيع ما بَكَرْ (٢) .

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٢٢

(٢) المجازات النبوية . والانواء جمع نوء : وهو في الاصل النجم الذى يطلع في السماء ، فيصحب طلوعه ريح ممطرة والمراد به هنا المطر . وبكر : جاء مبكرا في اول الربيع لانه يجيء على حاجة اليه وشوق بعد طول جفاف .

قلنا ان جميع الاحاديث النبوية فيها مسحة من البلاغة وجمال التعبير ٠ واختيار الامثلة الدالة منها أمرٌ محفوف ببعض الصعوبة ، ذلك ان اختيار الاحسن من الحسن عملية شاقة ٠ والذي يجمع الاحاديث النبوية ثم يحاول التمييز والتصنيف فيما بينها ، فهو كمن يدخل مصنعا من العطور فيشم صنفا فيعجب به جدا ، ثم ينتقل الى آخر وآخر حتى يكاد يسكر بالشذى الطيب والاريج الفواح ، فيخلص الى القول : سبحان الخالق العظيم مبدع السحر والجمال ٠

ولنأخذ حديثا اخر من قول النبي (ص) ولنحاول قدر الامكان شرحه وبيانه ٠ قال : " أعْلَمُكم بنفسه اعلَمُكم بربّه " (١) ٠

وقد سئل علي عليه السلام عن قول النبي (ص) هذا فاجاب : " ان احدنا ان كان عالما باحوال نفسه وصفاته فلا بد ان يكون عالما باحوال من جعله على هذه الصفات ، وصيّر له هذه الاحوال والاحكام ، لان من علم الفرعَ لابد ان يكون عالما باصله الذي يستند اليه ، ويتفرع عليه ، واذا دخل التزايدُ في العلم وكان بالفرع اعلم فهو بالاصل أعْلَم " (٢) ٠

والحقيقة اننا اذا علمنا نحن البشر اننا مُحْدَثُون مَصْنوعُون مخلوقون من رب قادر حي عالم ، فلا بد لنا ان نعلم بيقين بمن جعلنا على هذه الصفات ، وصيَّر لنا هذه الاحكام واعطانا هذه الصفات كما نعلم ايضا ان لولاه عز وجل لم نكن على شيء من هذه الصفات ٠

فاذا نظرنا الى بناء فخم جميل محكم البنيان ، انيق في هندسته ، متين في بنائه ، متقن في صنعه ، قلنا بلا شك بتفوق بانيه ، وعبقرية صانعه ، وابداع موجده ، ولو تعمقنا في تفاصيله ودقائقه من زخرفة ونقوش ، وما الى ذلك ، لقادنا العقل الى التزايد والتفاضل ٠

فكيف اذا نظرنا الى الانسان الذي قال عنه عز وجل " لقد خلقْنا الانسانَ في احسن تقويم " (٣) ودققنا في صنعه وتركيبه ووقفنا على كل عضو من جسده متبصرين في دقة صنعه ودوره في العمل الجسماني ، كالقلب مثلا او الرئتين او أي عضو اخر من اعضاء الحواس الخمس ، لوقفنا خاشعين ، وخررنا ساجدين امام قدرة الخالق المبدع ، الحي القيوم ، الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ، الرحمنُ الرحيمُ ربُّ العالمين ٠

ولا يكفي ان يعلم المرءُ نفْسَه موجودا وان لم يكن بالله تعالى عارفا ، وهو عز وجل سبب وجوده على هذه الارض ، كالدهريين مثلا الذين يَعْلَمون العالم وما فيه موجودا ، ولم يعلموا ان له مُوجِداً ٠ فكذلك نحن قد يعلم احدنا كونه قادرا ، وحيا ، وان لم يعلم من وهبه هذه الصفات ، واجرى الدمَ في عروقه وجعلَ من اللاشيء شيئا ٠

---

(١) امالي المرتضى ج ٢ ص ٣٢٩

(٢) المصدر نفسه

(٣) التين الاية ٤

والقصد من هذا ان لكلمة (اعلم) افعل التفضيل ، شأن يذكر في هذا الحديث فقال من كان اعلم بنفسه كان اعلم بربـه ، اما من علم نفسه موجودا ولم يعلم موجده ، وخالقه ، فليس اعلم بنفسه ابدا . والذى يظهر ما نرمي اليه هو انه لا يمتنع فيمن علم جزءا من العلوم الرياضية مثلا ان نقول : انه عالم في الرياضيات ، ولا يصح لنا البتة ان نقول : هو اعلم ، الا اذا كان مستوليا على جميع علومه لا يغيب عنه شيء منها .

وبعد هذا هل يصح عكس هذا الحديث او قلبه فنقول : اعلمكم بربه اعلمكم بنفسه ؟ لا أعلم مانعا يمنع ان في المعنى او الصياغة اللفظية . فمن كان بالله اعلم ، فلا بد من ان يكون عالما بانه عز وجل خالقنا ، ومحيينا ، ومميتنا ، وواهبنا كل هذه الصفات والاحوال . فنرى بعد هذا ان كل واحد من التقليبين يتعلق بصاحبه فتارة يكون فرعا وتارة يكون أصلا .

ولقد بلغ الرسول هدفه من هذا الحديث ، وحقق غايته منه بما يتضمن من المعاني البعيدة ، باربع كلمات موجزة . وهذا هو تعريف البلاغة ان أصبنا .

ومن ذلك قولـه (ص) : "المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ" (١) .

وقد يريد بقوله هذا ان من امتنع من مواقعة المعاصي ، وممارسة الموبقات واعتصم من الخطايا المُذِلَّـة ، هو كمن له قرن ينازله ، وعدو يستعد لمجابهته وقد يعاني الكثير من المشقة والمضايقـة في مغالبـة نوازع قلبه . فاذا انتصر عليها بعنف إرادته وجبروت عقله ، كان الانسانَ الكبيرَ الذي وصفه علي ابن ابي طالب عليه السلام بالمجاهد الاكبر . ذلك الانسان الذى يعارك نفسه ويصارعهـا في كل هوى تريد التغلغل فيه والتسرب الى منحدراته . واني ارى ان من لا يجاهد نَفْسَه على حد قول الرسول (ص) لا يستطيع حقا من مجاهدة غيره وبذلك يقصر دون الجهاد الاصغر .

ومن قوله عليه الصلاة والسلام وهو يذكر اوقات الصلاة :
" والعَصْرَ اذا كان ظِلُّ كلِّ شيءٍ مِثْلَهُ ، وكذلك ما دَامَتِ الشَمْسُ حَيَّةً والعِشاءَ اذا غابَ الشَفَقُ الى ان تَمْضِيَ كَوَاهِلُ الليلِ" . (٢)

ولنتأمل العبارتين (ما دامت الشمس حيةً) ، (ان تَمْضِيَ كواهلُ الليل) ، فنرى في الاستعارة الاولى ان المراد في حياة الشمس ذلك الاحمرار الذى يلونها قبل ان ينتهي بها الى الحؤول والاصفـرار وقالوا : شمس مريضـة اذا ولى احمرارها ، واقبل اصفرارها .

والاستعارة الثانية : "الى ان تمضيَ كواهل الليل" فقد شبه (ص) الليل بالمطايا السائرة التي تتقدم اعناقها ، ويتبعهـا اعجازها . والمراد الى ان تمضي اوائل الليل ومن هنا قالوا في السارى ليلا : اتخذ الليل جملا ، وامتطى الليل لما جعله بمنزلة الظهر المركوب .

---

(١) المجازات النبويـة ص ٢٠١

ولا يخفى ما في الاستعارتين من تعبير جيد موفق ٠

اما صلاة الظهر فقد عبر عنها (ص) في وصية لمعاذ بن جبل لما بعثه الى اليمن :
" وصَلِّ الظُّهْرَ بعد ما يَتَنَفَّسُ الظلُّ وتَبْرُدُ الرِّيَاحُ " (١) ٠

وهو يريد (ص) بعدما يزيد امتداد الظل من قولهم : تنفس النهار ، اذا أخذ بالطول ٠ ومنه قول الله تعالى : " والصبح اذا تنفس "(٢) اى اذا زاد ضياؤه وانتشرت انواره ٠ وهو تعبير جميل جدا يلقي ظلا فنيا رائعا : تنفس النهار لما يقول علماء اللغة ان اصل هذا من تنفس الحيوانات ، وهو امتداد الريح الحارة من تجاويف صدورها ، عند عملية الشهيق والزفير للرئتين في انقباضها وانبساطها ٠ فقد شبه (ص) استطالةَ الظلِّ بتنفس الحيوان ، فهذا اذا تنفس اتسعت رئتاه وامتدت ضلوعه ، والظلُّ يَطولُ فيتسع ويمتد ٠

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام وقد اتاه رجل فقال : " السلامُ عليكَ يا نبيَّ الله ، فقال : وعليك ورحمة الله ٠ ثم اتاه رجل اخر فقال : السلام عليك يا نبيَّ الله ورحمةُ الله وبركاته ، فقال : وعليك ٠ فقيل له : يا رسول الله لِمَ لَمْ تَقُلْ لهذا كما قلت للذي قبل ؟ فقال : إِنَّهُ تَشَافَّهَا "(٣)
فقوله عليه الصلاة والسلام : " انه تشافها " والمراد انه استفرغ جميع التحية ، فلم يدع منها شيئا يزاد به على لفظه ، واصل هذا مأخوذ من الشفاف ، وهو تتبع بقية الاناء حتى يستنفد جميع مافيه ، والبقية الباقية تلك تسمى الشفافة ٠

ومن امثال العرب : " ليس الرِّيُّ عن التَشَافّ " اى لايروى العطشان تتبع بقية الماء حتى يستفرغ جميع ما في الاناء ٠

ولا يخفى ما في هذه العبارة (انه تشافها) من جمال في التعبير ورقة في اللفظ ، وبعد في الاداء ٠

---

(١) المجازات النبوية ص ٢٢٥
(٢) التكوير الاية ١٨
(٣) المجازات النبوية ص ٣١٠

× الايحـــاء ×

" الايحاء تعبير غير صريح اوغير مباشر عن فكرة او معنى . وهو بهذا يفرض التفكير على متذوقه " (١) .

والايحاء يثير الانفعال الوجداني في نفوس الآخرين (وهذا شرط العمل الادبي وغايته ، به يتم وجوده ، ويستحق صفته) (٢) .

" والايحاء يعني اثارة الذكرى في نفس السامع ، او تصوير المعنى باجراس الحروف وهي تنطق " (٣) .

بعد هذه التعريفات يمكننا القول ان اللفظة الموحية هي بما يثيره مدلولها اللغوي ، وجرسها وتصويرها للحادث الذي صاحب اطلاق اللفظ .

والعبارة الموحية هي التي تستمد دلالتها من مفردات الدلالات اللغوية للالفاظ ، ومن الدلالـة المعنويـة الناشئـة عن اجتماع الالفاظ وترتيبهـا في نسق معين . ثم " من مجموعة ايقاعات الالفاظ متناسقـة في العبارة " (٤) .

والان سنرى معاً الى اي حد نستطيع تقدير ما توفر للرسول الكريم محمد (ص) من عناصر الايحاء ، من خلال ما اخترناه من احاديثه الشريفة . فقسمتها الى قسمين :

١) ما توحيه بعض هذه الاحاديث من قيم التعبير الفني : لفظا وعبارة وطريقة .

٢) وما يوحيه البعض الاخر من قيم التعبير التمثيلي البلاغي : طابَعا وعُمقا وصِدقا

١) القيم التعبيرية الفنية :

يوحي اللفظ المفرد صورة المعنى " تارة بجرسه الذي يلقيه في الاذن ، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال ، وتارة بالجرس والظل معا " (٥) .

وبهذا يمكن للاديب ان يأسر الناس ويأخذ عليهم احاسيسهم ويستحوذ على قلوبهم . وقد احسن القول (ص) في حديثه المشرق " ان من البيان لسحرا " (٦)

---

(١) المنتجب العاني ص٣٥٨ عن النقد الجمالي ص٨٨
(٢) - - عن النقد الادبي اصوله ومناهجه ص٨
(٣) - - عن المشر النقد الادبي ص٤٥٧ ـ ٤٥٩
(٤) - - عن النقد الادبي (اصوله ومناهجه ص٤٢
(٥) - - ص٣٦٧ عن النقد الادبي لقطب ص٣٩
(٦) اعيان الشيعة ج ٢ ص٢٥٢ .

ولنبدأ بحديث نبوي شريف فيه السحر والبيان : "إِنَّ مِنَ البَيَانِ لسحرا" (١)
لقد عبر النبي بهذا الحديث الموجز ان الشخص قد يفتن الاخرين بسحره وقوة بيانه فيسلبه قلبه ويملك عليه مشاعره ، ويكاد يبلغ حد الشاعرية من جمالية الاداء ، وعفوية متسلسلة لا يصحبها عي او تقصير .

فالنبي الكريم يريد ان يظهر لكم كم هي البيانية مؤثرة في نفوس السامعين ، اذ تأخذ عليهم احاسيسهم جملة وتفصيلا كما يعرف عن السحر في العهود المؤمنة فكما يستحوذ السحر على قلوب الناس ، يستحوذ عليهم البيان ايضا . وهو ما يسمّى عند النقاد بالاسر الفني او وحدة الاسر .

فالكلمة اذا احسن قولها تأسر في موضعها أسرا كاملا ، فهذه الجملة القصيرة ادت اعمق اعماق الغاية للتأثير الفني . وقيمة الكلمة في الحديث النبوي ، لها قيمة كبرى لانها ادت كل هذا الاداء بدون فضول ولا اسهاب .

من هنا نرى ان التعبير ثَوْبٌ مَفَصَّلٌ تفصيلا كاملا على البارقة المعنوية ، فكلما كانت البارقة التعبيرية شديدة الاسر ، كلما كان شكلها اجمل ، وايحاؤها افضل . لان الشكل يعطي الايحاء والشكل الاكمل هو ذو الايحاء الاكمل .

أ) الالفاظ :

الحديث النبوي نور ساطع يبهر العين ، وسحر دافق يأخذ بمجامع القلب ، منه نتعلم اصول البلاغة وبه نعطي الحجة الدامغة في قواعد اللغة وطرق البيان . ومن ذلك قوله (ص) :

"انا النذير والموت المغير" (٢) في هذا الحديث استعارة واضحة ومجاز ظاهر . فكأنه عليه السلام اراد ان يشبه الموت الذي يقتحم الناس ، بالجيش المُغير يَهْجُمُ هُجُومَ السَّيْلِ ، ويَطْرُقُ طروقَ الليلِ ، وشبه نفسه بالنذير "وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا" (٣) متقدم امام الموت يحذر الناس وينذرهم ليجهزوا العتاد ويتزودوا بخير زاد .

ومما يظهر لنا ان في الحديث تشبيهين ، ففي التشبيه الاول شبه الرسول (ص) في تبليغه قومه احكام الاسلام ، وتحذيرهم من الموت ، بالنذير بين يدي الجيش ، وشبه الموت بالجيش المغير الذي يهاجم الناس ويفاجئهم باغارته عليهم ، واحتلال اوطانهم ، والاستيلاء على اموالهم .

اما وجه الشبه واداة التشبيه فمحذوفان وهذا ماصح لنا ان نسميه بالتشبيه البليغ . وفي لفظة النذير والمغير ما يُنَبِّه السامعَ الى الرَّهْبَةِ والتَّهَيُّبِ .

---

(١) اعيان الشيعة ج ٢ ص ٢٥٢

(٢) المجازات النبوية ص ١٨٤

(٣) الفرقان الاية ٥٦

ومن اقواله عليه الصلاة والسلام : " لعن الله الذين يُشَقِّقُونَ الكلامَ تَشْقيقَ الشَّعْر " (١) .

والذين يشققون الكلام هم الذين يتصرفون في وجوهه فيدققون فيها ويتعمقون في معانيها فقد شبههم (ص) بتشقيق الشعر ، لان طاقات الشّعر مستدقة كثيرا ، فاذا ماعمد الانسان الى تشقيقها انتهت من الدقة الى نهاية لا زيادة وراءها .

والذى يشقق الكلام ويدقق في الاخبار حتى يكاد يشتبه الباطل بالحق ، والغي بالرشد .

ولا يخفى ما لعبارة (يُشَقِّقُونَ الكلام والشعر) من وقع في حسن اداء اللفظ مع بلوغ المعنى الكامل .

ب) التعابير :

ومن ذلك قوله (ص) لعبدالله بن زيد ابن عبد ربه الانصارى وقد رأى الآذان في نومه : " أَلْقِه على بِلَالٍ فإنَّه أَنْدَى مِنْكَ صَوْتاً " (٢) .

والصوت الندى ، الصوت البعيد تشبيها بالشيء الندى : الرطب الذى يمتد وينبسط وسهل مطه وتطويله ، والشيء الندى على عكس اليابس الذى ينقبض فلا يمكن مده . فقد طلب (ص) من زيد بترك امر الآذان الى المؤذن بلال لانه أمدُّ منه صوتاً وأشدُّ ابلاغا ، اذ كلما كان مدى الصوت بعيدا كان المبلّغون به اكثر عددا . وهل اجمل واندى من كلمة أندى !

ومن ذلك قوله ايضا عليه الصلاة والسلام : " انه لَيُغَانُ على قلبي حتى اسْتَغْفِرَ اللهَ مائةَ مرَّةٍ " (٣) .

وهذه عبارة نبوية ادبية تسطع من هذا الحديث (انه ليغان) فهو يريد (ص) ان الغم يتغشى قلبه حتى يستكشف غمته تزول كربته وينقشع همه بالاستغفار .

ولا يخفي ما في هذا التعبير من سحر أدبي حيث شبه (ص) ما تغشى قلبه من الكروب والهموم بالغيم الذى يحجب نورَ الشمس ، فيعيق الرؤيا ويتعب النظر .

---

(١) المجازات النبوية ص ٤١٨

(٢) المجازات النبوية ص ٣٨٣ ،

(٣) المجازات النبوية ص ٣٩٠ ويغان او يغام نفس المعنى وسواء قال : يغان على قلبي او يغام على قلبي .

التعبير التمثيلي البلاغي : ونلاحظ فيه :

أ ـ الطابع الشخصي

ب ـ العمق والشمول

ج ـ الصدق الفنـي

وخير مثال يتضمن هذه العناصر الثلاث هو حديث يروى عن علي بن ابي طالب عليه السلام عندما سأل رَسُولَ الله (ص) عن سُنَّتِهِ في الحياة فقال (ص) :

" المَعْرِفَةُ رأسُ مالي ، والعقلُ أَصْلُ ديني ، والحُبُّ أَساسي ، والشوقُ مَرْكَبي ، وذِكْرُ الله أنيسي ، والثِقَةُ كَنْزِي ، والحُزْنُ رَفيقي ، والعِلْمُ سِلاَحِي ، والصَّبْرُ رِدَائي ، والرِضا غَنِيمَتي ، والفَقْـرُ فَخْرِي ، والزُهْدُ حِرْفَتي ، واليَقِينُ قُوَّتي ، والصدقُ شَفيعي ، والطاعةُ حَسَبِي ، والجِهَادُ خُلُقِي ، وقُرَّةُ عيني في الصـلاة " (١) .

المعرفة رأسمالي : المعرفة هي معرفة الانسان لله عز وجل ، ومعرفة الحياة وما تتطلبها اتجاه الخلق والخالق . هذه المعرفـة هي رأسمال الانسان كأنسان بها يتجر رابحا ، وبدونها يخسر . ولا شك ان المعرفـة بالانسان ، والمعرفـة بالطبيعة هي اساس الحضارة ، لانه لا يمكن ان يقوم نظام الا على ضوء معرفة الخصائص الذاتية والوظائف العملية للكائنات . وفي هذه العبارة ضرب من التشبيه البليغ حذف فيه اداة الشبه ووجه الشبه .

العَقْلُ أَصْلُ ديني : الدينُ هو عبادة الرحمن ، والعقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان ، فالعقل في اصله اساس التكليف وهو في كماله كمالُ الدين . والاسلامُ يُسْتَمِلُّ مهداً إنسانيا يتعامل فيه الانسان على اساس هدى العقل وذلك في مقابل التصورات السحرية والخرافية لعلاقة الانسان بالله وعلاقـة الله بالكون والانسان .

وهذه عبارة حقيقيـة لا تشتمل على تشابيه او استعارات .

الحـب اساسي : هل الدين الا الحب ؟ المعرفة والعقل والحب زملاء ثلاث وشركاء في الدين وكماله وجماله . ان النظام الكوني قائم على مبدأ الحب ، فالاشياء كلها تتكامل من خلال مبدأ الحب . واعظم مثال للحب هو الحب الانساني الصافي الذى يقوم على الوعي والاختيار : حب الانسان للانسان ، حب الانسان للطبيعة والحب الاعظم هو حب الله للانسان .

والحب هنا جعل من كيانه ومن ذاته نفسه اسسها الراسخة في الغور قائمة على الحب . وهذا ما يمكن ان يسمى كنايـة .

---

(١) حياة محمد لهيكل ص ١٩٧ .

الشوق مركبي : في مصيري الى الله بهذه الاجنحة الثلاث (المعرفة والعقل والحب) اركب مركبة الشوق . وهذه الاجنحة تتعطل دون الشوق ، فهو القوة الدافعة لها قدما نحو المسير والحافز الذي يحثها على المسير . فالذي يقود خطى الانسان الواعي في العمل نحو الله هو الشوق اليه ، وهو الشوق الى مستوى من التكامل لا يتحقق الا من خلال طاعة الله ، والا من خلال الانسجام مع الانسان والطبيعة .

في هذه العبارة استعارة تخييلية ، فهو يتخيل ان الحب سبيل يقطع للوصول الى الله في تيار العباب الصاخب .

والتعبير في جمالية الاداء مع الاختصار الكامل بدون اسهاب فضفاض بحيث جاء المعنى على قدر المبنى .

ذكر الله انيسي : (الا بذكر الله تطمئن القلوب) (١) لا يأنس الانسان في دنيا الحياة بشيء من زخرفاتها ومباهجها لانها محدودة ، والانسان لا يطمئن الا باللامحدود ، وذكر الله هو الذي يؤنسه ويوصله الى اللامحدود .

والانسان الواعي في هذا العالم غريب مالم يصل وجوده بذكر الله ليكون دائما في عمله على وعي للوجود الالهي يسنده ويسدده ويضيء له الطريق .

نلاحظ في هذه العبارة استعارة اصلية قائمة على جعل الذكر كالشخص المواجه له او كالجليس المواجه له يؤانسه فيما يتعاطى معه من حديث .

الثقة كنزي : الانسان فقير ، والفقير يجزع ، والفقير يخاف ، ولكن الانسان الواعي المستنير يستند الى كنز الثقة بالله . ان الذي يثق بالله ، الغني بالخير المطلق ، تمتلئ نَفْسُه بشعور الغنى . لان الثقة بالله تطمئن الانسان عن كل زعزعات الحياة الصعبة وتسهل له السير في شعابها المحفوفة بالمكاره .

اما من الوجهة البلاغية فالعبارة تصلح لتكون تشبيها بليغا .

الحزن رفيقي : الحزن عما يؤخرني في الحياة ، ويعرقل لي السير في مصيري الى الله ، هو الذي يرافقني في هذا السير ويدفعني لمكافحة العقبات في هذا السبيل .

فالانسان الواعي الذي يدرك باستمرار تصرم الايام ، ويدرك انه دائما في سباق مع نفسه لا لينجو ، فذلك مطلب سهل ، وانما ليفوز ويرتفع لا بد ان يكون الحزن رفيقه فالحزن وليس الجزع الحزن الذي يجعل من الانسان قوة ايجابية فاعلة في سبيل الخير لكل الاحياء .

---

(١) الرعد الاية ٢٨

والوجه البلاغي هو مايمكن ان يسمى في التعبير البياني بالمجاز العقلي ، ومما نلاحظ ان الرسول (ص) ارتقى بكلمة الحزن الى معنى ارقة فهي في معناها الحقيقي الاسى . كما يدخل في نوع من انواع التورية غير المرشحة .

العلم سلاحي : الانسان مهما كان ومهما بلغ هو في خسران مبين اذ هو مهاجم بشياطين الجن والانس وهفوات النفس وفجوات الطريق المملوء بالاشلاء والمخاطر . ولا سلاح يكافح به الانسان الا العلم ، علما عقليا وعمليا كما هو مشروح في سورة العصر .

وفي هذه العبارة ايضا تشبيه بليغ حذفت منه اداة الشبه .

الصبر ردائي : في معترك الحياة حيث تتوالى السهام والصدمات ، والرجوم يسقط الانسان العادى ميجرح وينزف دما ، ويجزع ويفقد انسانيته . اما الانسان الكاسي فان رداءه يحميه والصبر هو الرداء الذى يجعل كل شيء يسقط امام صمود الانسان الصابر العامل الذى يتحمل تكاليف الحياة ويعمل لها ولا يجزع .

لقد تخيل (ص) ان للصبر رداء يقي ويصون فطوى هذه الصورة واثبت مايشير اليها . ومخرج هذا من الحديث القدسي : " العظمة ردائي والكبرياء ازارى فمن تردى بها قسمته ولا ابالي " اخرجه البخارى ومسلم واصحاب السنن .

الرضا غنيمتي : ماذا يغنم محب المال ؟ وماذا يغنم محب السلطان ؟ والجاه ؟ ولكنه هل يحصل على سلام النفس وسلام العقل من كفاحه وجراحه ؟ انه لا يحصل على السلام ، وانما يزداد رغبة ويزداد بسبب ذلك عذابا . اما الانسان الانسان فانه يحصل ، نتيجة لعمله ، ولتكامل ذاته على الرضا وعلى السلام . وخير ما يغنمه هو رضا الله ورضاه عن الله . قال تعالى : " رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه " (١) فليدحر الانسان عن نفسه رضاها ولينحو منحى رضا الله تعالى .

الفقر فخرى : كلما ازداد لدى الانسان الواعي الشعور بالفقر الى الله تعالى يزداد حرية وانسانية وغنى عن الاخرين ، ويصير اكثر استقلالا وقدرة على التصرف في الحياة . ومن هنا فأنه يكون مصدر فخر له وليس مصدر عار .

ووجه اخر ان الفقير في المال ، العامل بجد ، لا يعيبه الفقر ، وانما يكون فخرا له . انه لم يفتن بمال الآخرين عن طريق سرقته بالحيلة والاساليب غير المشروعة ويكون مصدر فخر له انه لم يقعده عن العمل والجد .

فالفقر الى الله فخرى والفقر الى سواه ذلي . والفقر الى الله اغنى الغنى لانه اغنى الاغنياء .

اما من الناحية البيانية ففي العبارة استعارة اصلية .

---

(١) البينة الاية ٨ .

الزهـد حرفتـي : مهما كانت حرف الناس في معترك الحياة فزهدى انا في الدنيا عن مغرياتها وهوساتها ، هذه هي حرفتي طول الحياة .

الانسان الذى يشعر بفقره الى الله ، زاهد ، انه لا يزهد فيما لا يحب فقط ، وانما يزهد فيما يحب وما لا يحب . فالزهد ليس حالة عارضة في نفسه بالنسبة الى بعض الاشياء ، وانما هو حرفة وملكة ثابتة بالنسبة الى جميع الاشياء . والميزان عنده هو ما قاله الله تعالى : " لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم " (١) .

اليقيـن قوّتي : اليقين هو آخر المطاف في محاولات الانسان الفطرية والفكرية والعقلية وما ينتقل منها الى الصدر ثم الى القلب ، فاذا كملت في القلب سُمّي يقينا . ان الشك ضعف والانسان الواعي انسان يرتكز في حياته على اليقين ومنتهاه وطريق سيره في الدنيا بينهما ، ولذا فهو قوى ، يستمر ماضيا في طريقه على هدى من يقينه لا ينحرف ولا يزيغ .

الصـدق شفيعي : خير ما يشفع الانسان ويشفع الانسان هو الصدق في المقال والاعمال والعقيـدة . والانسان الواعي ليس هو ذو العمل الكثير ، انه الانسان ذو العمل الصادق والحياة الصادقـة ، وان كان عمله قليلا ولكنه عملٌ صادق يعمره الاخلاص لله وللحياة ولذا فهو عمل منتج . انه انسان لا يتكىء في الله بالنجاة على غير صدقه مع الله ومع نفسه ومع الحياة والناس جميعا .

الطاعـة حَسَبي : الانسان العاقل المدرك الامور ادراكا بعيدا ، هو الانسان الذى لا يرى لنفسه مجدا ولا شرفا في آبائه واجداده ، بل يرى ان عظمةَ الانسان فيه انما تتحقق من خلال انسجامه مع الكون والحـياة والانسان . وهذا الانسجام لا يحصل الا من خلال طاعة الله في اوامره ونواهيه ، وبذلك يعطيه الشرفَ الذى لا شرف فوقـه .

وفي كلتا العبارتين السابقتين (الصدق شفيعي والطاعة حسبي) ضرب من التشبيه البليغ .

الجِهادُ خُلُقي : غيرُ المجاهد مَيِّتٌ ، لان من ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكـر فهو ميت بين الاحياء . والانسان الواعي هو الذى ينصب على نفسه ارشادا تمنعها من الطغيان والفساد ، فهو في حوار دائم مع عوامل الشر والفساد في نفسه ، وعليه تقويمها باستمرار فيدخل معها دائما في حوار (الجهاد الاكبر) .

وقرة عيني في الصلاة : كان الرسول (ص) اذا همه شيء استراح الى الصلاة . فلقد كانت تهمه ويهمه الاتصال بهذه الدنيا المحدودة واهلها وان كان اتصالا رساليا الهيا . ولكي يعود الى الحالة الروحانيـة المحضة ، كان يستريح الى قرة عينه (الصلاة) حتى يأخذ الحياة جديدة في اتصاله باللانهايـة . فالصلاة كما يعيها المؤمن المسلم تَخْتَصِرُ الحياةَ كُلَّها في مرفأ يأوى اليه الانسان فيجد الروح والريحان ورضوان الله الذى هو اكبر من كل شيء . .

---

(١) الحديد الايـة ٢٣ .

الخاتمـــــة

القرآن الكريـم هو كتاب الانسان في انحاء الارض الواسعة ،جاء ليهدى الناس اجمعين ،فخاطب البشر كلهم ونادى العالمين دون تمييز او استثناء ،فهو كتاب الخلود ،المهيمن لما سبقـه من كتاب ،نقدا للدخيل فيها ،وتكميـلا للاصيل فيها . يشرق ـ كالشمس ـ على قلوب وافكار البشرية ،كافلا لبيان كافة متطلبات الحياة فردية وجماعية ،مادية وروحية . فما من امر نحـتاج اليه الامة الا وقد انزله الله في كتابه ،وبينه لرسوله ،وجعل لكل شيء حدا ،وجعل على ذلك الحـد حـدا ،حتى الخدش وأرش الخـدش (١) .

الدين الاسلامي

حفظ للناس دنياهم وآخرتهم " وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا " (٢) . وورد في الحديث عن حسن بن علي (ع) : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا " (٣)

والعامل بالسنة كالعامل بالقرآن (٤) " من يطع الرسول فقد اطاع الله " (٥) ، " اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم " (٦)

الدين اليهودى

التوراة أولُ كتاب في التشريع المفصل بعد اجمال التشريع منذ نوح ،الى ابراهيم الخليل ولان العقليـة الاسرائيليـة ونزعاتها كانت ماديـة على الاكثـر نجد التوراة يهتم في دعوته الى اللهوالى صالحات الاعمال ،يهتم بالوعود المادية والمكافآت الدنيوية ،اكثر من المعنوية ،والاجيـال الاسرائيليـة حرفت من التوراة الشيء الكثير لحد تتنفر منه العقول والضمائر الحية الصافية (٧) .

---

(١) أرش الخدش : كل شيء مهما كان بسيطا .

(٢) القصص الايـة ٧٧

(٣) سفينة البحـار للمحدث القمي .

(٤) انظر قواعد التحديث ص ٥٢ . قال الامام ابو حنيفة : " لولا السنة مافهم أحد منا القرآن " .

(٥) النسـاء الايـة ٨٠

(٦) النسـاء الايـة ٥٩

(٧) المقارنات للدكتور محمد الصادقي ص ١٩٢ ـ ١٩٤ ـ ١١٥ ـ ١٢٠ ـ ١٣١ ـ ١٥٦ ـ

الديـن المسيحـي

ليس الانجيل كتاب تشريع مستقل عن التوراة ، فاحكام التوراة ثابتة منذ موسى حتى زمن المسيح والى نزول شريعة القرآن ، حيث نسخ نسخت طائفة منها واكملت اخرى . والصبغة الروحانية في الانجيل تميزها عن التوراة ، فقد جاء المسيح داعيا الى الله منددا بطاعة علماء اسرائيل الطغاة الذين يعلق بلحاهم الطويلة الشيطان ، متلطفا في دعوته مع الشعوب ، ملينا مع الناس في الاخلاق داعيا الى المثل العليا والروحانيات ، ليجبر طغيان الماديات التي ركزت في نفوسهم ، لذلك نرى في الكتابين معاكسة من حيث التوجيهات والوعود المادية والمعنوية ، رغم ان الدعوة فيهما من اللـه ، ونرى في القرآن الحالة الوسطى بين الحالتين ، يكفل للامة خير الدنيا والاخرة .

والاديان الالهيـة كلها تكفل المصلحتين ، الا ان هذه الظاهرة تبرز في شريعة الخلود اكثر مما توحيه شريعة التوراة واخلاقية الانجيل ، فالوجهة المادية في التوراة ليست اصل الشريعة ، وانما لكونها موقتة تخص اجيالا محدودة ، كما ان الوجهة الروحانية في الانجيل ليست من صلب الدعوة وانما تليينا وتلطيفا لما عند اليهـود .

والكتاب والسنة هدفهما واحد ، اتى الكتاب الكريم بعموميات كثيرة ومطلقات ومجملات ، واتت السنة الشريفة ، فاوضحت مفصلة شارحة ، لكن ما اجمله القرآن والسنة منهل يحتاج اليه جميع الخلق في حياتهم الخاصة والعامة ، كما يحتاجون اليه ايضا في حياتهم الاخروية .

وفي تقدم العلم ظهور وبهـور لما تضمنه السنة من حقائق وعلوم تحتاجها البشرية في حياتها اليومية ، فكما ان الرسالة المحمدية للناس كافة " وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيـرا " (١) .

وبعد هذا نستطيع القول ان الحديث الذي يوافق الكتاب هو الحديث الذي نأخذ به . قال الامام الصادق عن رسول الله : " ان على كل حق حقيقة ، وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه " (٢) .

وقال الامام الصادق ايضا في صحيح ايوب ابن الحر : " كل شيء مردود الى الكتاب والسُّنَّة ، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زُخْـرُف " (٣) .

والشيء الذي يعجبك الباحث بادئ ذي بـدء ، أن هذه الانهر للاحاديث المتفرعة منبعها واحد ، وهو رسول الله (ص) فكيف تشعبت الاراء والنظرات في تصحيح الصحيـح

---

(١) سبأ الايـة ٢٨

(٢) اصول الكافي ج ١ ص ٦٩

(٣) المصدر نفسـه .

منها وتضعيف غيره ، ولا يخفى ان وراء هذا اسبابا كثيرة اهمها اختلاف الناس بعد رسول الله (ص) وانشقاقهم الى فرقتين : اتباع السلطة الحاكمة واتباع المعارضة التي تنتمي الى الامام علي بن ابي طالب (ع) .

فاولئك اخذوا عن كل صحابي لبنائهم على عدالة كل صحابي ، لانهم يعتبرون جميع الصحابة وكأنهم معصومون ، كل ماصدر عنهم ونقل فكأنه صادر ومنقول عن الرسول (ص) وكأنهم المرجع كالكتاب والسنة القطعية ، وقد يحاولون الجمع بين نص الكتاب او ظاهره وبين رواية الصحابي او رأيه ، مرجحين الثاني ، كما في آية الوضوء — فالاية تصرح بفرض المَسْحِ على الرأس والرجلين ، وعلماء اهل السنة يرجحون او يفرضون الغسل ترجيحا لما يرويه او يراه الصحابي (١) .

اما الفئة المعارضة فهي ترى في الصحابي غير هذا ، فهو في نظرها رجل من الناس قد يكون عدلا وقد يكون غير عدل ، كما اثبتت ذلك الوقائع والاختلافات التي وقعت بعد رسول الله في كثير من الاحكام ، ورأينا لكل طرف من المتنازعين احاديث يرويها جماعة من الصحابة .

ففي الصحابة منافقون ومؤمنون ، والمؤمنون منهم علماء وجاهلون ، والعلماء منهم احيانا يخطئون وينسون او يتناسون .. لذلك كله لا تأخذ الشيعة بقول الصحابي المطلق بسند انه صحابي الا اذا كان متوفرا فيه شرائط الوثوق ، وبعدئذ تطبيق ما يرويه على الكتاب والسنة القطعية .

فالاعتماد على من يوثق به سواء كان من اهل السُّنَة أو الشيعة ، ولا يعتمد على غير الموثوق به من اي فئة كان .

فليس عنوان التشييع او التسنن دليل الثقة او الزيف .

ان الكثير من الصحابة اسلموا ولما يدخل الايمانُ في قلوبهم ، كعبد الله ابن ابي سلول واتباعه الكثر ، والمؤلفة قلوبهم الذين اسلموا يوم الفتح كأبي سفيان ومعاوية ومن لف لفهما ، والذين اسلموا بعد هذا (٢) .

ولا نستغرب اذا اختلف الحديث واختلف نظر الناس اليه من الملل الاخرى وادخلوا احاديث من كتبهم في الشريعة الاسلامية مثل : كعب الاحبار ومحمد ابن كعب القرضي ، وعبد الله ابن سلام .

---

(١) راجع الفقه على المذاهب الاربعة — آيات الاحكام للجصاص — المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ .

(٢) انظر فجر الاسلام ص ٧٩ .

في الحديث

اما الذى سهل (هذا) الاختلاف الواسع هو تأخير التدوين في الحديث ، لانه لو دوّن الحديث وكتب كما امر الرسول الكريم ، لما كان وقع مثل هذا الدس المريع . وليس ذلك بالامر المستحيل لو اتبع الصحابة الطريقة التي جمعوا بها القرآن الكريم ولا سيما أن ثقات الصحابة موجودون كلهم يومئذ فأقل زيف او خطأ يظهر واضحا للعيان . ولكنهم لم يفعلوا .

ولكنما الاختلاف هذا ليس بالذى يسبب اختلافا عظيما في المذاهب والاراء ، لان القرآن والسنة القطعية يعالجان الاختلاف كما جعلهما النبي (ص) من اهم الوسائل للقضاء على اختلاف الحديث ، والاخذ بما وافقهما ورد ما خالفهما .

ومن اسباب اخرى ودوافع في اختلاف الحديث الوضع من قبل الوضاعين ولا يخفى ان اسباب الوضع كثيرة . (١)

فمنها انحراف الواضع وقصده الى تشويه الدين كما فعل كعب الاحبار .

ومنها كسب رتبة التحديث فانها كانت مما تمد اليها الاعناق طلبا للشهرة والمكانة بين المسلمين .

وحيث وجد علماء المسلمين هذا الاختلاف الواسع في الحديث عمدوا الى تأليف كتب الجرح والتعديل ونقد الرواية والرواة ولكن كل على طريقته .

وان اول من جمع كلامه في الجرح والتعديل : يحي بن سعيد القطان (١٢٠ هـ — ١٩٨ هـ) (٢) ثم تلامذته وابرزهم احمد بن حنبل ، ثم تلامذتهم وابرزهم البخارى ومسلم (٣) .

ومن الذين اهتموا في هذا المجال وبذلوا جهودا تذكر : ابوعمر محمد بن عبد العزيز الكشي ، والنجاشي (ابو العباس احمد ابن علي) والشيخ الطوسي (محمد بن حسن) .

واننا نرى ان السياسة ما دخلت شيئا الا افسدته ، اذ كان لها شأنها في وضع الاحاديث . وقد تفشى الوضع وازداد في عصر معاوية اذ وجد عنده الارض الخصبة له . فمعاوية يريد ان يثبت حكمه الذى اغتصبه بالسيف بمعونة اقلام المحدثين الوضاعين .

---

(١) راجع الفصل الاول الوضع في الحديث .

(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٢١٩

(٣) مقدمة ميزان الاعتدال ج ١ ص ٥ (الطبعة الاولى ١٣٨٢ هـ) .

اما فيما يتعلق بالوضع فللامام علي بن ابي طالب (ع) كلمة خالدة جاء فيها :
" ان في ايدي الناس حقا وباطلا وصدقا وكذبا وناسخا ومنسوخا وعاما وخاصا ، ومحكما ومتشابها ، وحفظا ووهما ، ثم ذكر ان الناس كذبوا على رسول الله على عهده حتى قال : " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " .

ثم صنف حملة الحديث الى اربعة :

أ ـ رجل منافق كذاب متقرب الى الحاكمين الضالين يتعمد وضع الحديث .
ب ـ رجل سمع من رسول الله فلم يحفظه على وجهه .
ج ـ رجل حفظ المنسوخ دون الناسخ .
د ـ رجل حفظه على وجهه وادّاه على وجهه (١) .

وقد نقل شارح النهج هذا الكلام كلاما للمدائني في شرح هذه الخطبة وهي جديرة بمطالعة كل باحث .

وما هو جدير بالذكر ان الدين الاسلامي في روحه وجوهره ، اهتم بنشر مبادئه الانسانية العامة ، على الخلق اجمع دون تمييز بين العرق واللون واللغة ، لانها مبادئ فاضلة ، تخرج الانسان من الظلمة الى النور ، فهي كفيلة بسعادة الناس جميعا .

ولم يهتم الشارع الاقدس بتوسيع رقعة المسلمين واحتلال الاراضي بقدر ما اهتم بهذه المبادئ الكاملة .

وان سجل التاريخ انتصارا لبعض الحكام الذين تولوا امور المسلمين ، فمن المستحسن التنبيه الى ان ذلك لا يسجل فخرا لهم في دينهم .

حدث الناس الكثير عن الحديث وما زالوا ، وكتبوا فيه المؤلفات الضخام ، واهتموا له اهتماما كبيرا ، لما وجدوا فيه من حاجة اليه في معاشهم ومعادهم ونحن الان بدورنا نسجل لهم آراءهم في الحديث ، ونعلق على ما يلزم التعليق عليه . ولم يزل الباب مفتوحا للبحث ، وقد يأتي اليوم الذي قد نعدل فيه عن بعض آرائنا ، اذا اتسعت معارفنا اكثر مما هي عليه الان . فالانسان عرضة للتبديل والتغيير ، فهو عضو يتحرك ويستمر وينمو ويتكامل نحو الافضل ، وهو يزداد كمالا كلما ازداد افق معارفه اتساعا .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي حديد ج ٣ ص ١٣ وكذلك جامع احاديث الشيعة ـ المجلد الاول ـ الجمع بين الصحاح الستة .

ليست مهمتي في هذا العرض السريع التجريح او الترجيح وانما هي تصوير لحقائق تاريخيـة ، وقعت بعد موت الرسول مباشرة (ص) وتفرعت وتشعبت ثم تفرق الناس من حولهـا كل يأخذ من الحديث ما يوافقه منه ويترجح في نظره .

وأرجو ان اكون قد وفقت في الاطلاع على ابرز مقاييس النقد في الحديث النبوي في علم الدراية والرواية ، عند اهم علماء المسلمين الذين اهتموا بهذا العلم ، وعنوا به عناية تذكر . والله يهدي من اراد ، وهو العليم البصير .

لقد عمدت في هذا الباب السابع من رسالتي هذه وهو آيتها ، الى بيان ما تتضمن الاحاديث النبوية الشريفة من جمال التعبير الفني ، وقيم التعبير التمثيلي البلاغي ، اذ نجد فيها الكثير من الاستعارات البديعة ولُمَع (١) البيان الغريبة ، واسرار اللغة اللطيفة ، ورغبتنا في ذلك حتى يعظم النفع باستنباط معادن الحديث الدفينة واستخراج كوامنها ، فنعمل على اطلاعها من اكتمها واكنانها ، وتجريدها من خللها (٢) واجفانها .
ولست شاكا في ان ما فاتني من الذي اقصده اكثر من الحاصل لي والواقع الي ، ولكنني اقتصرت على ما نالته يدي في هذا الوقت ، وما قرب من تصفحي وتأملي .

والذي اعتمدت عليه في استخراج ما يتضمن الغرض الذي اقصد قصده كتب الصحاح والمسانيد ، والمجازات النبوية للشريف الرضي والامالي للشريف المرتضى ، مستمد في كل ذلك توفيق الله سبحانه وتعالى الذي يُهوِّنُ الشديد ويذلِّلُ الصَعْبَ وهو على كل شيء قدير .

---

(١) اللمع جمع لمعة : وهي القطعة المضيئة من الشيء .

(٢) الخلال هي اجفان السيوف المغطاة بالأدم (الجلد) والمراد استخراج كوامن الاسرار من اماكنها المخبوءة فيها . انظر قاموس المحيط .

فهـــرس
المصـادر والمراجـــع

١ـ القـــران الكريـــم

٢ـ ابو الشهداء ، لعباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان ١٩٦٩

٣ـ ابو هريـرة ـ لمحمود ابو ريـة ـ دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة ١٩٦٩

٤ـ الاحكام في اصول الاحكام ـ لابن حزم الاندلسي بتحقيق احمد محمد شاكر ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ .

٥ـ الاحكام في اصول الاحكام للامـدى سيف الدين ابي الحسن علي بن ابي علي بن محمد الامـدى ـ مؤسسة الحلبي ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .

٦ـ اخبار الراضي بالله والمتقي لله ، لابي بكر محمد بن يحي الصولي ـ مطبعة الصاوى شارع درب الجماهير بمصـر .

٧ ـ اختصار علوم الحديث (لابن كثير) القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

٨ـ الادب الحديث النبوى للدكتور بكرى شيخ امين ـ دار الشروق ـ بيروت ١٩٧٣ م .

٩ـ ارشاد الاريب الى معرفـة الاديب لياقوت الرومي ـ مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٣ م

١٠ ـ الاستيعاب في معرفـة الاصحاب لابي عمر يوسف بن عبد البر ـ طبع مصطفى محمـد بالقاهـرة ـ ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م .

١١ ـ الاستبصـار ـ لشيخ الطائفـة ابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ـ حققه السيد حسن الموسوى الخراسان ـ دار الكتب الاسلامية ـ طهران ـ الطبعة الثالثة ١٣٩٠ هـ .

١٢ ـ اسد الغابة في معرفـة الصحابة ، لعز الدين ابي الحسن بن الاثير الجزرى ـ طبع القاهرة ١٢٨٦ هـ ـ في ٥ مجلـدات .

١٣ ـ الاسلوب للدكتور احمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٥٦ م .

١٤ ـ الاصابـة في معرفـة الصحابة لابن حجـر ـ طبع مصطفى محمد بالقاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

١٥ ـ الاصنام لابن الكلبي ـ القاهـرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١٦ ـ الاصول العامة للفقـه المقارن لمحمد تقي الحكيم ـ دار الاندلس ـ بيروت ١٩٦٣ م

١٧ ـ الاصول من الكافي للكليني الرازي ـ صححه وعلق عليه علي اكبر الغفارى ـ دار الكتـب الاسلامية ـ طهـران ـ بازار سلطاني طبعة ثالثـة ١٣٨٨ هـ .

١٨ ـ اضواء على السنة المحمدية ـ طبعة ثالثة ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٨ م . للشيخ محمود ابو ريـة .

١٩ ـ اضواء على التاريخ الاسلامي لفتحي عثمان طبع دار الجهاد ١٢٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م ٠

٢٠ ـ اعلام الموقعين عن رب العالمين ـ لشمس الدين محمد بن ابي بكر (ابن قيم الجوزية) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م ٠

٢١ ـ اعلام النبوة للرازى لابي بكر محمد زكريا ـ الاستانة مكتبة راغب باشا ١٩٦٩

٢٢ ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ـ لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى ـ طبع دمشق ١٣٤٩ هـ ٠

٢٣ ـ اعيان الشيعة ـ السيد محسن الامين ـ مطبعة الانصاف ـ بيروت ١٩٦٥ ٠

٢٤ ـ الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٦ م ؛

٢٥ ـ الالماع الى معرفة اصول الرواية وتقييد السماع لابي الفضل عياض بن موسى اليحصبي تحقيق احمد صقر ـ الطبعة الاولى ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

٢٦ ـ الاموال للقاسم بن سلام طبع مصر ١٣٥٣ هـ ٠

٢٧ ـ الانصاف في التنبيه على الاسباب التي اوجبت الاختلاف بين المسلمين وارائهم لابي محمد عبدالله بن محمد ابن السيد المتوفي ٥٢١ هـ طبع مطبعة الموسوعات ـ بشارع باب الخلق بمصر ١٣١٩ هـ ٠

٢٨ ـ الباعث الحثيث في شرح اختصار علوم الحديث (للحافظ بن كثير) تحقيق احمد محمد شاكر ـ طبع محمد علي صبيح واولاده بالقاهرة ـ طبعة ثانية ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م ٠

٢٩ ـ البداية والنهاية لابي الفداء عماد الدين اسماعيل (بن كثير) مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م ٠

٣٠ ـ بستان العارفين ـ لنصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندى ـ المطبعة اليوسفية بشارع محمد علي بمصر ٠

٣١ ـ بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ـ الالوسي ـ دار الكتاب العربي بمصر ٠

٣٢ ـ البيان والتبيين للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ٠

٣٣ ـ تأويل مختلف الحديث لعبدالله بن مسلم (بن قتيبة الدنيورى) تحقيق محمد زهرى النجار ـ مكتبة الكليات الازهرية ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م ٠

٣٤ ـ تاريخ الادب العربي لبلاشير منذ نشوئه حتى القرن ١٥ ميلادى ٩ هـ ، مطبعة الجامعة السورية دمشق ـ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م ٠

٣٥ ــ تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ــ مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ــ الطبعة الرابعة ١٩٥٧م .

٣٦ ــ تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي طبع مصر ١٣٤٩ هـ ــ ١٩٣١م

٣٧ ــ تاريخ دمشق لابن عساكر مخطوط دار الكتب المصرية .

٣٨ ــ تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ــ مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٧م .

٣٩ ــ تاريخ اليعقوبي لاحمد بن ابي يعقوب طبع النجف ١٣٥٨ هـ .

٤٠ ــ تاريخ الشعر السياسي لاحمد الشايب ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٣م

٤١ ــ تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمن ــ نقله الى العربية نبين امين فارس ومنير بعلبكي ــ دار العلم للملايين ــ الطبعة الخامسة ١٩٦٨م .

٤٢ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي الصراف ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥م ــ المجمع العلمي .

٤٣ ــ تاريخ العرب ــ لفيليب حتي ــ دار الكشاف ١٩٥٣ .

٤٤ ــ تاريخ الفقه الجعفري لهاشم معروف الحسني ــ دار الكتاب اللبناني بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٩٧٣م .

٤٥ ــ تاريخ الفقه الاسلامي ــ محمد يوسف موسى ــ طبع دار الكتاب العربي بمصر ١٣٧٨ هـ ــ ١٩٥٨م .

٤٦ ــ تاريخ الطبري ــ مكتبة خياط ــ بيروت .

٤٧ ــ تاج العروس للزبيدي محب الدين السيد محمد مرتضى الحسيني اولى المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .

٤٨ ــ تدريب الراوي لجلال الدين السيوطي ــ بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ــ مطبعة السعادة بمصر ــ الطبعة الثانية ــ ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٦م .

٤٩ ــ تذكرة الحفاظ ــ لشمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد الذهبي ــ طبع الهند ١٣٣٣ هـ .

٥٠ ــ الترغيب والترهيب من الحديث ــ للامام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوى المنذري ــ مطبعة دار احياء الكتب العربية بمصر .

٥١ ــ تفسير الطبري (جامع البيان من تأويل آي القرآن) لمحمد بن جرير الطبري بتحقيق ومراجعة محمود واحمد محمد شاكر ــ دار المعارف بالقاهرة .

٥٢ ــ تفسير ابن كثير للامام الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ــ دار احياء التراث العربي ــ بيروت ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ .

٥٣ـ تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن ابي حاتم الرازى طبع الهند ١٩٥٢م .

٥٤ـ تقييد العلم لابي بكر احمد بن علي بن ثابت (الخطيب البغدادى) بتحقيق الدكتور يوسف العش ـ دمشق ١٩٤٩م .

٥٥ ـ التنبيه والاشراف ـ لابي الحسن علي بن الحسين المسعودى ـ طبع دار الصاوى بالقاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م .

٥٦ ـ تهذيب التهذيب ـ لشهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ الطبعة الاولى بالهند ـ حيدرآباد ١٣٢٥ هـ .

٥٧ ـ تهذيب التاريخ الكبير ـ لابن عساكر (لعبد القادر بدران) دمشق ١٣٥١ هـ .

٥٨ ـ توجيه النظر الى اصول الاثر ـ للشيخ طاهر الجزائرى ـ مصر ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠م .

٥٩ ـ توضيح الافكار لمعاني تنقيح الانظار ـ لمحمد بن اسماعيل الامير الحسني الصنعاني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ١٣٦٦ هـ

٦٠ ـ جامع احاديث الشيعة في احكام الشريعة للمؤلف السيد آغا حسين الطباطبائي البروجردى طبع ١٣٨٠ هـ .

٦١ ـ الجامع لاخلاق الراوى وآداب السامع ـ للخطيب البغدادى ـ دار الكتب المصرية .

٦٢ ـ جامع بيان العلم وفضله لابي عمر يوسف بن عبد البر ـ مصر ادارة المطبعة المنيرية .

٦٣ـ الجرح والتعديل ـ لعبد الرحمن بن ابي حاتم الرازى ٨ مجلدات ـ طبع الهند ـ ١٣٧١ هـ ١٩٥٢م .

٦٤ـ حب بن ابي ربيعه وشعره ـ لزكي مبارك ـ منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٩٧١م .

٦٥ ـ الحديث والمحدثون ـ للدكتور محمد ابو زهو ـ مطبعة مصر بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨م .

٦٦ ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ لجلال الدين السيوطي ـ المطبعة الشرقية ١٣٢٧ هـ .

٦٧ ـ الحضارة الاسلامية لادم متز ـ نقله الى العربية محمد عبد الهادى ابو ريدة ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧م .

٦٨ ـ حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل ـ القاهرة ـ مطبعة مصر ١٣٥٤ هـ .

٦٩ ـ الحيوان ـ للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩م .

٧٠ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ اعداد وتحرير ابراهيم خورشيد واحمد الشنتاوى وعبد الحميد يونس ١٩٣٣م ٠

٧١ ـ الخطط للمقريزى طبع مصر ١٢٧٠ هـ ـ ١٨٥٣م ٠

٧٢ـ دراسات في الكافي للكليني والصحيح للبخارى ـ لهاشم معروف الحسني ـ الطبعة الاولى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م ٠

٧٣ـ الدراية في علم مصطلح الحديث ـ من اثار الشهيد الثاني ـ زين الدين العاملي مطبعة النعمان ـ النجف ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م ٠

٧٤ـ الدين في خدمة الشعب لخالد محمد خالد ٠

٧٥ـ رسالة للبيروني في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازى ـ اعتنى بنشرها ب٠ كراوس ١٩٣٦م ٠ ـ شارع جاكوب ـ باريس ٠

٧٦ ـ الروائع" الشعر الجاهلي "فؤاد افرام البستاني ـ المكتبة الشرقية ـ بيروت ١٩٤٩م ٠

٧٧ـ روضات الجنات ـ تأليف العلامة الميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى الاصبهاني تحقيق أسد الله اسماعيليان ـ طهران ٠

٧٨ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووى ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٤٤م ٠

٧٩ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـ البغدادى ـ المشهور بالسويدى ـ بغداد ١٢٨٠ هـ ٠

٨٠ـ سبل السلام ـ لمحمد بن اسماعيل الامر الصنعاني ـ طبعة البابي الحلبي ١٣٦٩ هـ ٠

٨١ـ سفينة البحار للمحدث القمي ٠

٨٢ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى السباعي ـ دار العروبة بالقاهرة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م ٠

٨٣ـ السنة قبل التدوين ـ لمحمد عجاج الخطيب ـ مكتبة وهبي ـ القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣م ٠

٨٤ـ سنن ابي داود ـ للامام ابي داود سليمان بن الاشعث السجستاني طبع مصر ١٣٦٩ هـ ٠

٨٥ـ سنن الترمذى ـ طبعة بولاق ١٢٩٢ هـ ٠

٨٦ـ سنن الدارمي ـ لابي محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي ـ مطبعة الاعتدال بدمشق ١٣٤٩ هـ ٠

٨٧ـ السيرة ـ لاحمد دحلان ـ تأليف العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي ـ وبهامشها السيرة النبوية السيد احمد زيني المشهور بدحلان ٠ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ٠

٨٨ـ سيرة النبي (ص) لعبد الملك بن هشام المكتبة التجارية بالقاهرة ـ ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م

٨٩ـ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ـ الدار القومية بالقاهرة ـ ١٩٤٤م ٠

٩٠ـ شرح نهج البلاغة لعز الدين ابي حامد الشهير بابن ابي الحديد ٠ بتحقيق نور الدين شرف الدين ـ والشيخ محمد خليل الزين ـ بيروت ـ دار الفكر ٠

٩١ـ شرف اصحاب الحديث للخطيب البغدادي ـ دار الكتب المصرية ٠

٩٢ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ـ طبعة القدسي ـ ١٣٥٠ هـ ٠

٩٣ـ صحيح البخاري ـ لمحمد بن عبد الهادي السندي ـ طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ٠

٩٤ـ صحيح مسلم ـ للامام مسلم بن الحجاج ـ بتحقيق وتصحيح وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ـ ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م) ٠

٩٥ـ الصراط المستقيم ـ للعاملي الى مستحقي القديم ـ تأليف زين الدين ابي محمد علي بن يونس العاملي ـ صححه محمد باقر البهبهودي ـ المكتبة المرتضوية ١٣٨١ هـ ٠

٩٦ـ صفة المفتي ـ لاحمد بن حمدان الحراني الحنبلي ٠

٩٧ـ الصناعتين لابي الهلال العسكري مطبعة عيسى ـ الباب الحلبي وشركاه طبعة ثانية ـ ١٣٩٥ هـ ٠

٩٨ ـ ضحى الاسلام ـ لاحمد امين (٣ اجزاء) مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٣٥م ٠

٩٩ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ دار صادر ودار بيروت ١٣٧٦ هـ ٠

١٠٠ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ للتاج السبكي ـ الحسينية ـ القاهرة ١٣٢٤ هـ ٠

١٠١ـ ظهر الاسلام ـ لاحمد امين ـ مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٦م ٠

١٠٢ـ العدة لابي علي محمد بن الحسن الطوسي ـ طبع الهند ١٣١٢ هـ ٠ جزءان في مجلد واحد ـ الجزء الاول ١٣١٢ هـ ، الجزء الثاني ١٣١٨ هـ ٠

١٠٣ـ العرب للمستشرق فرنسوا كابريللي ـ باريس ١٩٦٣ ـ منشورات ماريو سمر ٠

١٠٤ـ العقد الفريد ـ لابن عبد ربه (احمد بن محمد بن عبد ربه) بتحقيق محمد سعيد العريان ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧٢ هـ ٠

١٠٥ـ علوم الحديث ومصطلحه ـ للدكتور صبحي الصالح ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧١م ٠

١٠٦ـ علوم الحديث ـ مقدمة ابن الصلاح ـ تقي الدين الشهرزوري ـ طبع مصر ١٣٢٦ هـ ٠

١٠٧ـ العمدة لابن رشيق القيرواني ـ مطبعة السعادة بمصر ـ ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧م ٠

١٠٨ـ عيون اخبار الرضا ـ تأليف ابو جعفر الصدوق (محمد ابن علي ابن الحسين ابن بابويه القمي) مطبعة دار العلم "قم" ايران ـ ١٣٧٧ هـ ٠

١٠٩ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ لابن ابي اصيبعة ـ شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥م ٠
١١٠ـ فتح الباري ـ لشهاب الدين بن حجر العسقلاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩م ٠
١١١ـ الفتنة الكبرى ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٦م ٠
١١٢ـ فجر الاسلام ـ لاحمد امين ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة العاشرة ١٩٦٩م ٠
١١٣ـ الفرق بين الفرق ـ لعبد القاهر بن محمد البغدادى ـ طبع دار المعارف بالقاهرة ٠
١١٤ـ الفصل في الملل والاهواء والنحل ـ لابن حزم ـ الادبية ١٣١٧ هـ ٠
١١٥ـ فقه اللغة ـ الامام اللغوى ابي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨م ٠
١١٦ـ الفقه على المذاهب الاربعة ـ آيات الاحكام للجصاص ـ المطبعة البهية المصرية ١٣٤٧ هـ ٠
١١٧ـ الفهرست ـ لابن النديم ـ فولجل ـ ليبسيك ١٨٧١ ـ ١٨٧٢ ـ جزءان في مجلد واحد ٠
١١٨ـ الفهرست ـ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ـ الطبعة الثانية ـ المطبعة الحيدرية النجف الاشرف ـ العراق ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١م ٠
١١٩ـ في الادب الجاهلي ـ لطه حسين ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ـ
١٢٠ـ في ظلال القرآن ـ للسيد قطب الطبعة الخامسة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م ٠
١٢١ـ قبول الاخبار ومعرفة الرجال ـ لابي القاسم عبد الله بن احمد البلخي ـ دار الكتب المصرية ٠
١٢٢ـ قواعد التحديث ـ لجمال الدين القاسمي ـ طبع بدمشق ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٥م ٠
١٢٣ـ قواعد في علوم الحديث ـ للعلامة ظفر احمد العثماني التهانوى ـ حققه وراجع نصوصه وعلق عليه عبد الفتاح ابوغدة ـ مكتبة المطبوعات الاسلامية ـ حلب ـ ومكتبة النهضة ـ بيروت ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١م ٠
١٢٤ـ الكامل في التاريخ لعلي بن محمد عز الدين (ابن الاثير) الجزرى ـ المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ ـ
١٢٥ـ الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث لابي احمد عبد الله ابن عدى الجرجاني دار الكتب المصرية ٠
١٢٦ـ الكفاية في علم الرواية ـ للخطيب البغدادى ـ طبع في الهند ١٣٥٧ هـ ـ
١٢٧ـ الله ـ لعباس محمود العقاد ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤م ٠
١٢٨ـ اللالئ المصنوعة في الاحاديث الموضوعة ـ لجلال الدين السيوطي ـ طبع بمصر ١٣١٧ هـ ٠

١٢٩ــ لسان الميزان ــ لابن حجر ــ طبع بالهند ــ ١٣٢٩ هـ ٠

١٣٠ ــ مباحث في علوم القرآن ــ للدكتور الصالح ــ دار العلم للملايين ــ الطبعة السادسة ١٩٦٩م ٠

١٣١ــ مجاني الادب شيخو ــ فؤاد افرام البستاني ــ بيروت ١٩٦٠م ٠

١٣٢ــ المجالس ــ لابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ــ المتوفي ٤٦٠ هـ ــ من منشورات المكتبة الاهلية ــ بغداد ــ مطبعة النعمان ــ النجف الاشرف ــ ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤م ٠

١٣٣ــ المعيد في أدب المفيد والمستفيد ــ وقف على طبعه احمد عبيد في المكتبة العربية في دمشق وهو للمؤلف الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموى ٠

١٣٤ــ المجازات النبوية للشريف الرضي ــ مؤسسة الحلبي ــ القاهرة ٠

١٣٥ــ مجمع الزوائد ــ نور الدين الهيثمي ــ طبع القدسي ــ القاهرة ١٣٥٣ هـ ٠

١٣٦ــ مجموعة رسائل الجاحظ ــ كروس ــ وطه الحاجرى ــ ١٩٤٣م ٠

١٣٧ــ المحدث الفاصل بين الراوى والواعي ــ للحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى دار الكتب المصرية ــ مخطوطة الظاهرية ٠

١٣٨ــ المخلاة ــ للعاملي ــ لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي المتوفي ١٠٠٣ هـ ٠ المطبعة الادبية بمصر ــ الطبعة الاولى ٠

١٣٩ــ المدخل الى السنة وعلومها ــ للدكتور محمد معروف الدواليبي ــ مطبعة الجامعة السورية بدمشق ــ ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦م ٠

١٤٠ــ المزهر ــ للسيوطي ــ لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي ــ توفي ٩١١ هـ وعمره ٦١ سنة ــ طبع دار احياء الكتب العربية ــ البابي الحلبي ٠

١٤١ــ مسند الامام احمد ــ للامام احمد بن حنبل الشيباني ــ بتحقيق احمد محمد شاكر ــ طبع دار المعارف بالقاهرة ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩م ٠

١٤٢ــ المستصفى من علم الاصول ــ للامام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي ــ دار صادر ــ بيروت (جزءان) ٠

١٤٣ــ مصادر الشعر الجاهلي ــ للدكتور ناصر الدين الاسد ــ دار المعارف بالقاهرة ــ ١٩٥٦م

١٤٤ــ مصطلح علم التاريخ للدكتور أسد رستم ــ منشورات المكتبة العصرية ــ صيدا ــ

١٤٥ــ مطالع البدور في منازل السرور ــ علاء الدين علي ابن عبد الله البهائي الغزولي ــ الطبعة الاولى ــ مطبعة ادارة الوطن ١٣٠٠ هـ ٠

١٤٦ــ معاني الاخبار ــ لمحمد بن علي بن الحسين المسمى بباويه القمي والمعروف (بالصدوق) قدم له الشيخ محمد مهدى حسن الخرسان) مطبعة الحيدرية بالنجف الاشرف ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١م ٠

١٤٧ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموى ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الاولى ـ ١٣٢٣ هـ ١٩٠٦م .

١٤٨ـ معرفة علوم الحديث (للحاكم النيسابورى) نشر الدكتور معظم حسين القاهرة ١٩٣٧م .

١٤٩ـ المقارنات للدكتور محمد الصادقي .

١٥٠ـ مقدمة التمهيد ـ لابي عمر يوسف بن عبد البر ـ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

١٥١ـ المقدمة ـ لابن خلدون ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة .

١٥٢ـ مقدمة علوم الحديث ـ لابن الصلاح ـ العلمية ـ بحلب ١٣٥٠ هـ .

١٥٣ـ مقدمة في اصول التفسير لابن تيمية ـ عني بتحقيقها الشيخ جميل افندى الشطي .

١٥٤ـ المنتجب الهذني ـ للدكتور اسعد علي ـ مطبعة النعمان ـ لبنان ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

١٥٥ـ المنتقي من منهج الاعتدال ـ لتقي الدين احمد بن تيمية ـ اختصره الذهبي من منهاج السنة ـ بتحقيق محب الدين الخطيب ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧٤ هـ .

١٥٦ـ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ـ تأليف الدكتور فرانتز روزنتال ، وترجمة الدكتور انيس فريحه ، ومراجعة الدكتور وليد عرفات ـ دار الثقافة ـ بيروت .

١٥٧ـ المنتظم لابن الجوزى ـ الحضارة الاسلامية لآدم متز .

١٥٨ـ المنهج الحديث في علوم الحديث ـ للدكتور محمد السماحي ـ مطبعة الازهر بالقاهرة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨م .

١٥٩ـ منهج الفن الاسلامي ـ سيد القطب ـ دار القلم .

١٦٠ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى .

١٦١ـ الموضوعات ـ للعلامة السلفي الامام ابي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزى القرشي ـ ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ـ الطبعة الاولى ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م .

١٦٢ـ المنار ـ لابي عبد الله محمد بن ابي بكر ابن قيم الجوزية ـ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة .

١٦٣ـ المنار ـ (مجلة) بحث للسيد رشيد رضا حول كتابة الحديث .

١٦٤ـ من لا يحضره الفقيه ـ رئيس المحدثين ابي جعفر الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ـ حققه السيد حسن الموسوى الخراسان ـ دار الكتب الاسلامية ـ طهران ١٣٩٠ هـ ٠

١٦٥ـ النجوم الزاهرة ـ ليوسف بن ثغرى بردى ـ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩م ٠

١٦٦ـ نخبة الفكر في مصطلح اهل الاثر ـ للحافظ بن حجر العسقلاني ـ مطابع دار الفكر الاسلامي ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م ٠

١٦٧ـ نهج البلاغة ـ شرح محمد عبده ـ مؤسسة الاعلمي ـ بيروت ـ لبنان ٠

١٦٨ـ الهداية ـ الشيخ عبدالله المامقاني ـ المطبوع في اخر تنقيح المقال ـ المطبعة المرتضوية في النجف الاشرف ١٣٥٢ هـ ٠

١٦٩ـ الوافي ـ تاليف محمد محسن بن الشاه مرتضى ـ المكتبة الاسلامية بطهران ٠ عني بالتعليق عليه العالم ابو الحسن المدعو بالشعراني ٠

١٧٠ـ الوجيزة في علم الدراية ـ للشيخ عبد الصمد الحارثي العاملي ـ طهران ١٣١٠ هـ ـ ١٣١٢ هـ ٠

١٧١ـ وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة ـ للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي عني بتصحيحه الاغا الميرزا عبد الرحيم الرباني ـ مكتبة الاسلامية بطهران ١٣٨٠ هـ ٠

١٧٢ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ـ لاحمد بن محمود ابن خلكان ـ مصر ، المطبعة اليمينية ١٣١٠ هـ ٠

١٧٣ـ ينابيع المودة ـ تأليف الحافظ سليمان بن ابراهيم القندوزى الحنفي ٠ وضع المقدمة العلامة السيد محمد مهدى السيد حسن الخراسان ـ الطبعة السابعة ـ المكتبة الحيدرية في النجف ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥م ٠

فهـــرس الموضوعـات

البــاب الاول

النبي محمد (ص) يغيّر المجتمع العربي

البـاب الثانـي

البـاب الثالث

البـاب الثانـي

الباب الرابع

في النقد الداخلي

صفحة

الباب الخامس

اصول نقد متن الحديث

الفصل الاول

صفحة

الباب السادس

مقارنة بين المحدثين والمؤرخين

الفصل الاول

الفصـل الثاني

الباب السابـــــع

المبحث الأول

صفحة